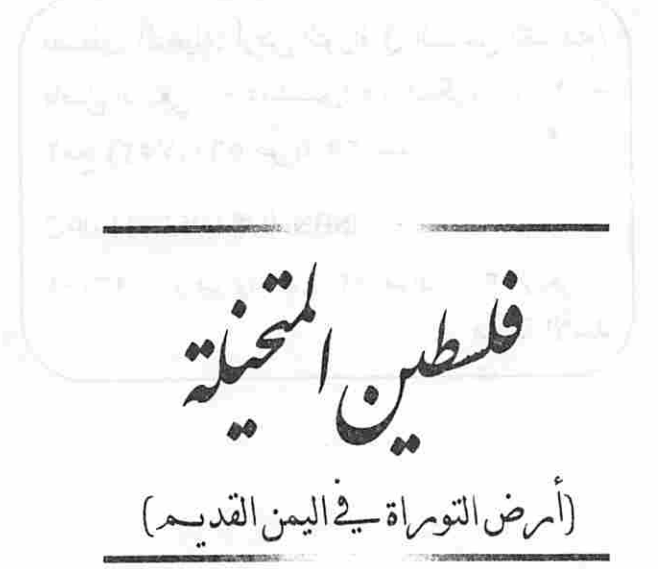
بسم الله الرحمن الرحيم



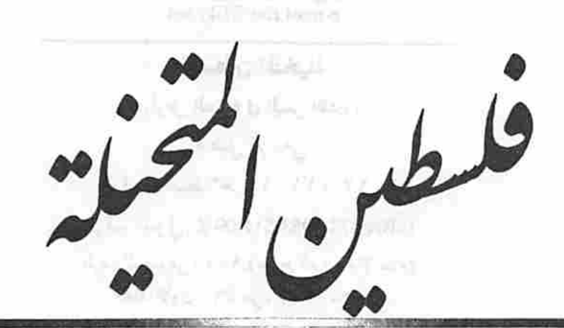
المجلد الأول

فلسطين المتخيلة: أرض التوراة في الـــيمن القـــديم/ فاضل الربيعي .- دمشـــق: دار الفكر، ٢٠٠٨ .- ٢مج (٧٥٢,٥٦٠ ص)؛ ٢٥ سم.

ISBN: 978-9953-511-09-2

١-٩٣٠ ر ب ي ف ٢-العنوان ٣-الربيعي

فاضل الربيعي



فلسطين المتخيلة

(أرض التوراة في اليمن القديم)

المجلد الأول



دار الفكر - دمشق - برامكة
٣٠٠١ ٩٧ ٩٤٧ ٠٠٩٦٣
٣٠٠١ ١١ ٠٠٩٦٣
http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

فلسطين المتخيلة

(أرض التوراة في اليمن القديم)

فاضل الربيعي

الرقم الاصطلاحي: ١-١١٠٠٢٢٠٦٢٠٢
الرقم الدولي: ISBN:978-9953-511-09-2
الرقم الموضوعي: ٩٥٦ (تاريخ العرب والإسلام)
المجلد الأول ٥٦٠ ص، ١٧ × ٢٥ سم
الطبعة الثالثة: ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م
ط١/٢٠٠٨

المحتوى

كلمة الناشر

يطرح هذا الكتاب على طاولة البحث موضوعاً مثيراً جداً، يبعث على التساؤل والدهشة.. هل حقاً أنزلت التوراة في أرض اليمن؟ وما الأدلة التي يقدمها؟ وما المعطيات التي يستند عليها؟ إن إثارة هذا الموضوع في حدّ ذاته لأمر خطير وشائك في البحث.

وعندما قدَّمه إلينا مؤلفه الأستاذ فاضل الربيعي، وهو باحث قدير معروف له فكره وإسهاماته وتحقيقاته وكتاباته، توقفت دار الفكر عند موضوع الكتاب، وأعملت فيه النظر طويلاً، مع أنها لا تحب أن تضع قيود الوصاية على عقول القراء، ولا تختار لهم إلا ما تقتنع به، لكنها لا توجه اختياراتهم.. وهي دار نشر مفتوحة لجميع الموضوعات والعلوم، إلا ما كان منها هجيناً ساقطاً مكروراً تتضح هجنته ويظهر سقوطه.

توقفت الدار إذن قبل أن توافق على نشر هذا الكتاب، ثم استشارت فيه من حولها، فلم يأت الجواب بما يشفي. وتوقف المستشارون كذلك..

ثم أبعدت في الطلب ووسعت في السؤال، فأرسلت إلى اليمن تسأل المتخصصين وأصحاب الرأي العلمي، فعاد الجواب بالموافقة من عالمين كبيرين: الأستاذ حسين عبد الله العمري والأستاذ الدكتور يوسف عبد الله. وكلاهما مؤرخ مهتم بالآثار والعمران والتاريخ في بلدهما.. فاكتمل للدار

ما تريد في التوجه العلمي والبحث الأكاديمي. فبنت موافقتها على ذلك الجواب وهي مطمئنة اطمئنان التحكيم.

تترك دار الفكر هذا الكتاب بين يدي قرائها لينظروا فيه.. وربما يكون لباحثين آخرين آراء يدلون بها لإثراء الموضوع أو تعديله أو إلغائه.

الجزء الأول

أرض التوراة في اليمن

مقدمة

الهمداني يصفُ أرض التوراة في السراة اليمنية

لم يحدث السبي البابلي لليهود في فلسطين، كما أن المصريين والآشوريين لم يشتبكوا فوق أرضها قط، وسفن سليمان لم تمخر عباب المتوسط، ولم ترسُ في أي وقت من الأوقات في مواني صور اللبنانية. وإلى هذا كله؛ فإن الملك داوود لم يحارب الفلسطينيين.وبينما يُزعم أن الهيكل بني في فلسطين؛فإن الحقيقة التي لا مناص من التمعن فيها اليوم، وفي ضوء اكتشاف الهمداني الذي أعرضه هنا، تقول: إنَّ القبائل اليهودية اليمنية العائدة من الأسر البابلي، هي التي أعادت بناء الهيكل في السراة اليمنية وليس في فلسطين. ومن ثم؛ فإن الهيكل لم يُبنَ في القدس قط، بل إن أسوار أورشليم التي أشرف نحميا على إعادة ترميمها لا وجود لها هناك أصلاً؛ وفوق ذلك ليس ثمة هيكل لسليمان تحت قبة الصخرة، فيما نجد الهياكل في السراة اليمنية كما وصفها الهمداني، بالتلازم مع ذكر أسماء القبائل اليمنية اليهودية. والمثير للاهتمام في ضوء هذا الاكتشاف، أننا سنرى أن اليمنيين يسمون- حتى اليوم- كل آثار الأبنية القديمة (هياكل). وبوجه العموم؛ فالقبائل اليمنية اليهودية العائدة من

الأسر، هي التي أعادت ترميم أسوار أورشليم انطلاقاً من موضع تسميه التوراة (شعر). وهذا اسم جبل شهير من جبال اليمن.

هذه هي الخلاصة التي يخرج بها الكتاب.

فهل وصف الهمداني حقاً، في كتابه صفة جزيرة العرب، الأرض نفسها التي وصفتها التوراة؟ مثل هذا السؤال الذي لم يكن مطروحاً من قبل؛ كان في مواجهتي وأنا أكرر طلب استعارة الكتاب من مكتبة جامعة ليدن بهولندا، حائراً مُتسائلاً: أين حدث الخطأ في قراءة نصوص التوراة؟ هل ثمة من خطأ أصلاً، أم أن القراءة الغربية للتوراة، وهي قراءة استعمارية في الجوهر، هي التي ساهمت في تضليل العالم وفي تحريف التاريخ؟ الجواب الذي أعرضه- هنا- على القراء، لا يَنْبَني على أي نوع من الألعاب اللغوية ولا يتضمن أي نوع من المهارات الأدبية في جعل المُطابقة بين الأمرين ممكنة. وعلى العكس من ذلك؛ فإن كتابي هذا يسير في طريق آخر لا يؤدي بأي شكل من الأشكال، إلى التماثل مع أي أطروحات سابقة. لقد تتبعتُ خُطا الهمداني في السراة الجبلية وتوقفتُ معه في الأماكن ذاتها، فرأيت هناك، ويا للدهشة، أسماء القبائل والفرسان والأنبياء وأسماء الأماكن وبقايا القصص التي سجلتها التوراة.

بدأت حكاية الاكتشاف المثير هذا، عندما كنتُ أعيد قراءة الهمداني بعيد وصولي إلى هولندا بقليل (الإكليل و صفة جزيرة العرب). وأشدّ ما أثار دهشتي، أنني وجدتُ الهمداني يسرد أمامي أسماء الجبال والوديان والهضاب وعيون الماء في اليمن، كما لو أنه يسرد الأسماء نفسها الواردة في التوراة، والتي أكاد أحفظها عن ظهر قلب. وهي ذاتها، وتماماً كما في نصوص التوراة دون أدنى تلاعب. ومع ذلك بدت لي نصوص الهمداني كما لو أنني قرأتها من قبل، أوكأنّها تكرر الأسماء نفسها في التوراة. في أثناء ذلك عدت إلى النص العربي-من التوراة-

فوجدت ما يؤكد هذا التطابق. بيد أن ذلك لم يكن كافياً أو مقنعاً. ثم وجدت نفسي ودون قصد، وبعد وقت طويل نسبياً من مراجعة النصوص والتدقيق فيها، أُعيد أيضاً وبصورة متقطعة، قراءة تراث مفكر سوري شهير هو الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، مع أن لا علاقة بين الرجلين. ولكن حدث وأن عثرت، وبمحض المصادفة لا أكثر، على علاقة من نوع ما تجمع الهمداني والتوراة إليه. كنت أقرأ كتاب الشهبندر (المقالات[1]) في أثناء فترات الاستراحة والاسترخاء، عندما وقعت عيناي على مقالة يعود تاريخها إلى العام ١٩٣٦، وفيها إشارة إلى ما كنت أبحث عنه: الدليل على أن مملكة إسرائيل القديمة لم تكن قطّ في فلسطين؟ من ثم؛ فإن التماثل والتطابق بين النصَّين مصدره وجود مسرح آخر للأحداث التوراتية غير المسرح الفلسطيني؟ كنت بحاجة ماسة إلى دليل من كاتب قديم، يدعم ما يدور في ذهني من تساؤلات عن معنى التطابق بين نص يشوع - في التوراة- و نص الهمداني- مثلاً - حتى على مستوى تقنيات السرد القديم، واستخدامهما، معاً، للجُمل والكلمات ذاتها المتماثلة في العبرية والعربية. ثم رحت أتساءل عما إذا كان هذا الدليل، الذي أبحث عنه، هو مجرد دليل واحد وحسب من بين أدلَّة كثيرة مجهولة أو لا نعرفها حتى الآن؛ عن وجود مملكة إسرائيل اليمنية القديمة شرقي صنعاء أو في نجران، وأنها لم تكن، قط، في فلسطين؟ ولم يكن هناك، في تلك اللحظة حين كنت أفتش عن الدليل، كاتب قديم يمكنه تقديم مثل هذه المساعدة سوى الشهبندر. في عام ١٩٣٦ كتب الشهبندر تعليقاً أدبياً قصيراً في مجلة الرسالة المصرية (ع: ١٩٢ في ٨ آذار / مارس ص: ٥) تناول فيه كتاب الرحالة السوري نزيه المؤيد العظم (رحلة في بلاد العربية

(١) المقالات: عبد الرحمن الشهبندر، إعداد محمد كامل الخطيب، وزارة الثَّقافة السورية انظر عبد الرحمن الشهبندر، الأعمال الكاملة - قضايا وحوارات النهضة العربية ١٢ - دمشق ١٩٩٣

السعيدة). يقول الشهبندر نقلاً عن العظم الذي زار اليمن عام ١٩١٦ : (وذكر حاخام اليهود الأكبر في صنعاء واسمه يحيى إسحاق- للمؤلف- أنه كان لليهود مملكة عظيمة في اليمن إلى الشرق من صنعاء أسسها سليمان بن داوود، وربما كانت هذه المملكة في نجران)، وفي وقت لاحق من عملي في هذا الكتاب رحت أفتش عن كتاب نزيه مؤيد العظم. وها أنا أنقل لكم حرفياً ما كتبه العظم في مؤلفه (رحلة في بلاد العربية السعيدة: سبأ ومارب، الجزءان الأول والثاني، مؤسسة فادي برس- لندن، الطبعة الثانية ١٩٨٥، ص: ١٤٠- ١٤١) عن زيارته إلى صنعاء عام ١٩١٦ :

> **تقابلت في القاع- قاع اليهود في اليمن- مع عدة أشخاص من كبار اليهود وعيونهم وسألتهم أسئلة متعددة عن أصل اليهود اليمانيين وعن أحوالهم وأشغالهم، وها أنا أنقل حديثاً جرى بيني وبين حاخامهم الأكبر المدعو يحيى إسحاق في داره، سألته ماذا تعرف عن أصل اليهود في اليمن وعن مدنيتهم؟ فقال: كانت لليهود مدنية عظيمة وكان لهم ملك فخيم في شرقيّ صنعاء وقد أسس ذلك الملك وتلك المدنية الملك سليمان بن داوود (..) وهل قامت تلك المملكة في نجران؟ لا أعلم بالضبط، ولكنني لا أشك أنها كانت في شرقي صنعاء ومن المحتمل أنها كانت في نجران.**

وإذ ذاك رحت أتساءل من جديد: تُرى لماذا كان يهود اليمن ولا يزالون حتى اليوم، يؤمنون أن أرض التوراة هي في اليمن إلى الشرق من صنعاء؟. ولماذا يعتقد كبير الحاخامات أن بني إسرائيل عاشوا في اليمن وليس في فلسطين؟ وأن المملكة القديمة كانت إلى الشرق من صنعاء، وليس إلى الشرق من الأردن أو في عسير؟ أثارت هذه

الملاحظات والأفكار فضولي مرة أخرى، وأنا أعيد قراءة كتاب د. كمال صليبي (التوراة جاءت من جزيرة العرب - مصدر مذكور). إن كتاب صليبي الرائد والذي يشكل فتحاً معرفياً عظيماً في الثقافة العربية، لم يكن مقنعاً بصورة قاطعة لا بالنسبة إلي، ولا إلى الكثير من القراء، ولعله فاقم من درجة الشكوك بفرضياته، لسبب بسيط للغاية هو أنه انصرف إلى ما يشبه الألعاب اللغوية للبرهنة على وجود أرض التوراة في منطقة عسير. وكان اضطراره إلى قلب الحروف في أسماء القرى والجبال، واستخدامه المفرط لاحتمالات حدوث تغيُّر فونيطيقي في الكثير من الكلمات؛ من بين أكثر المسائل إثارة للحيرة والتشوش. وفي هذا السياق رحت أستعيد وأستذكر نقاشاً جرى بيني وبين صديقي الكاتب اللبناني المبدع عماد العبد الله قبل عام واحد من سفري إلى هولندا. في صيف١٩٩٥ كنت في زيارة قصيرة إلى بيروت، عندما التقيت عماداً، وكان مشغولاً ببحث جريء تضمّن أفكاره الرئيسة، في مقالة نشرت تالياً في مجلة النقاد، وبيَّن فيها كيف أن ما يدعى الوقوف على الأطلال في الشعر الجاهلي، ليس مجرد تقليد شعري وحسب؛ بل هو تعبير من تعبيرات عدَّة عن نوع من الحنين إلى ماض مزدهر وعن حضارات زائلة ربما. ثم مضى كثير من الوقت كنا فيه، أنا وعماد، في نقاش متواصل تارة ومتقطع تارة أخرى، حول قيمة الشعر الجاهلي من هذا المنظور. وعندئذ عدتُ إلى الشعر الجاهلي في أثناء قراءة الهمداني، مُستذكراً ما كتبه صديقي عماد العبد الله، فوجدت هناك المفاجأة المذهلة بانتظاري: لقد وصف الشعر العربي القديم، بالفعل، المواضع ذاتها وبالأسماء ذاتها، التي سجلتها أسفار التوراة دون أدنى تحوير أو تلاعب، وتماماً كما فعل الهمداني؟ ومن غير أدنى شك؛ فإن كتاب صليبي (التوراة جاءت من جزيرة العرب) هو من الأعمال الرائدة والكبيرة، التي يجب أن يُنسبَ إليها الفضل في إثارة أسئلة شائكة ومحرجة، حول المضمون

الحقيقي للقراءة الاستشراقية السائدة للتوراة. بيد أن إعادة النظر في المُسلّمات السائدة التي كرستها القراءة الاستعمارية للتوراة، وأرادت من خلالها تبرير الاستيلاء على فلسطين والجولان وبقية الأراضي العربية؛ سيكون ممكناً وميسوراً بصورة أفضل أمام الباحثين والكتاب في العالم كله، حين يُعيدون قراءة وصف الهمداني للسراة اليمنية، وليس وصف بلاد عسير في المملكة العربية السعودية كما قدمه صليبي. هناك سيجدون القبائل والمواضع كلها كما وردت في التوراة. إنه لأمر مدهش حقاً، أن يكون لدى العرب وثيقة تاريخية دامغة عمرها الحقيقي أكثر من ألف عام، تسرد وتصف لهم الحق التاريخي في أرضهم من دون أن يعلموا بذلك؛ بل وأن يستمر بعضهم في تصديقه الأوهام والمختلقات والأكاذيب القائلة؛ إن أحداث وقصص ومرويات التوراة دارت في فلسطين. في الواقع، وكما سأبرهن بالدليل القاطع؛ فإن كل ما ورد في التوراة لا صلة له بفلسطين؛ بل بيهود اليمن الذين سجلوا تجربتهم الحياتية وقصصهم الدينية ومروياتهم القبائلية، يوم كانوا يعيشون إلى الشرق من صنعاء في مخلاف- مملكةً صغيرة. وهكذا بدت شهادة الرحالة السوري نزيه المؤيد العظم، وما كتبه الشهبندر في تعليقه عن وجود مملكة إسرائيل القديمة في نجران- بحسب ما يعتقد يهود اليمن- أكثر من مجرد دليل ظرفي قابل للمراجعة. فهاهو الهمداني والشعر الجاهلي يقدمان سلسلة لا تكاد تنقطع من البراهين والأدلة.

وهكذا أيضاً، ومنذ أن قرأت كتاب الهمداني لمرات ومرات، ووقفتُ مندهشاً أمام التوصيف الدقيق للمكان نفسه الذي تصفه التوراة؛ بل والطريقة ذاتها في الوصف أي الاستخدام المتماثل لتقنيات السرد القديم؛ فقد عكفتُ على دراسة وتعلم اللغة العبرية ليتسنى لي قراءة النصوص الأصلية (لا الاستشراقية). ثم كرست سنوات من عمري للبحث عن جذورها الحقيقية، وللتعرف على أسرار ذلك التماثل المثير حتى في

أشكال رسم الأسماء- في اللهجات اليمنية القديمة والعبرية- وفي الواقع؛ فإن التوراة لم تذكر فلسطين بالاسم قط، كما لم تُشر لا من قريب ولا من بعيد إلى الفلسطينيين. أما القدس التي يُزعم أن التوراة ذكرتها؛ فإن النصوص العبرية، وبدعم من نصوص الهمداني والشعر الجاهلي على حدٍّ سواء، تشير إلى ثلاثة مواضع تُدعى قَدَس -قدش ليس من بينها ما يمكن مُطابقته على صعيد التوصيف مع القدس العربية.

ولذلك فإن تقنيات البحث التي سوف يستخدمها هذا الكتاب تقوم على الأساس التالي:

سنعرض النص التوراتي بلغته الأصلية مع ترجمة أمينة إلى أقصى حدٍّ ممكن، وخصوصاً للقصائد والمراثي التوراتية التي كتبها أنبياء وشعراء اليهودية، ممهدين السبيل أمام وصف الهمداني للمواضع ذاتها وبالأسماء ذاتها.

وأخيراً: سوف نستخدم توصيف شعراء الجاهلية للأماكن نفسها؛ فهؤلاء سجلوا في أشعارهم معظم أسماء المواضع الواردة في التوراة. ولسوف نرى أن الأساطير التي نسجها المستشرقون الأوربيون، منذ مطلع القرن الماضي عن فلسطين التوراتية، قد أدت في النهاية، إلى بزوغ فلسطين أخرى خيالية لاوجود لها في شرق وغربي نهر الأردن. إن استرداد فلسطين من أسر المخْياليّة الاستشراقية وتحرير صورتها نهائياً من هيمنة السرد الغربي، هما الهدف الحقيقي لهذا الكتاب. ها أنا أعرض على القراء؛ هذا الاكتشاف المثير الذي يبيِّن كيف أن وصف الهمداني، لأرض اليمن القديم؛ إنما يتضمن وصفاً مطابقاً لما يدعى أرض التوراة.

هولندا

١٥: ٥: ٢٠٠٣

الفصل الأول

أرض التوراة
إعادة اكتشاف

ماذا يفعل الأعرابي في الصحراء عندما يَنْفدُ الماءُ عنده ويُهدِّده خطر الموت عطشاً؟ الجواب العفوي والمُباغت الذي سنتلقاه يقول ببساطة ما يلي: سوف يرفع الأعرابي عقيرته في غناء أبيات من الشعر القديم؛ غالباً ما تتضمن تحديداً لمواضع الماء في الصحراء. هذا الجواب هو الأكثر احتمالاً بين أجوبة عدَّة. إذا ما فعل الأعرابي ذلك، سيكتشف أن الماء على مبعدة خطوات عنه، بحيث يمكن له مواجهة خطر العطش وربما تحدِّيه.

ما من مرتحل أو مهاجر في الصحراء، بلاد العرب القديمة، إلا وتزود بشيئين ثمينين هما الماء والشعر؛ إذ حين يَنْفد الماء في راحلته، سيكون بوسع الأعرابي وبغريزة البدوي المهاجر، أن يستذكر ويردد وينشد مغنياً أشعاراً، سبق لها أنْ صوَّرت مواضع الماء وحدَّدتها على نحو دقيق. وبذلك فإن المرتحل أو المهاجر يمكنه أن يواصل طريقه دون خوف من الموت عطشاً، مادام يملك الشعر، وما دام قادراً على استرداده في لحظات الخطر. ونحن المعاصرين، يمكننا أن نفعل الشيء ذاته حين

تنتابنا حمى المغامرة ونتوغل عميقاً في الصحراء العربية، أي أن نتزوَّد مثل الأعرابي بالماء والشعر قبل أن ننطلق في مغامرتنا.

يروي ابن قتيبة (الشعر والشعراء: ١٥٢) المروية التالية:

خرجت جماعة مهاجرة من اليمن تريد لقاء النبي ﷺ حين تناهى إلى أسماعها صدى الدعوة الجديدة: الإسلام. لكن الجماعة اليمنية المهاجرة سرعان ما ضلَّت طريقها في الصحراء الموحشة ونفدَ الماءُ في قافلتها، وكان عليها أن تمكث ثلاثة أيام في الصحراء بلياليها، في مواجهة مكشوفة مع خطر الموت عطشاً قبل أن يلوح لها في اليوم الرابع خيال أعرابي على بعيره، وعندئذ رفع أحد رجال الجماعة اليمنية المهاجرة عقيرته، وغنى قصيدة امرئ القيس التي يقول فيها:

لـمـا رأتْ أن الـشَّـريـعـة هـمُّـهـا ... وأنَّ البـيـاضَ فـي فـرائـضِـهـا دامـي

تَـيـمَّـمـتِ الـعـيـنَ الـتـي عـنـدَ ضـارجٍ ... يفيءُ عليها الظِّلُ عَرْمضُها طامي[1]

فهتف الأعرابي مخاطباً الجماعة العطشى من قائل هذا البيت؟ قالوا: امرؤ القيس. قال: ما كذب والله، هذا ضارج عندكم. وأشار إلى موضع ماء قريب. عندئذٍ هرعت الجماعة صوب المكان لتجد عين ماء غدقٍ، وإذا عليه العُرْمُض والظل يفيء عليه تماماً كما وصفه الشاعر.

يقول ابن قتيبة (انظر كذلك ياقوت: ٤٢١): لولا أبيات امرئ القيس لهلكت الجماعة المرتحلة.

إذا كان الشعر بالنسبة إلى البدوي التائه في الصحراء، هو المصدر الوحيد الذي لا يخطئ في الاستدلال إلى المواضع والأماكن؛ فإنه في

---

(١) تيمَّمت: قصدت، ضارج: موضع في بلاد عبس، والعرمض: الطحلب، والطامي: المرتفع: يريد الشاعر أن الحمر هربت إلى عين ضارج لأن لا رماة هناك.

المقابل الوسيلة الوحيدة، تقريباً، التي تمكنه لا من التزود بالماء ومواصلة مغامرته، بل وتتبع أسماء المواضع اسماً بعد اسم حتى بلوغ مقصده.

ترى ماذا يحدث، عندما يكون المرء تائهاً في صحراء مغامرة كبرى، وقد نفد الماء عنده، وفي الآن ذاته يكون جاهلاً بالشعر، لا يحفظ القديم منه ولا يقوله؟ وهل للشعر العربي القديم حقاً، مثل هذه الأهمية الحاسمة حتى بالنسبة إلينا نحن المعاصرين؟

وهل بوسعنا أن نستدل إلى المواضع والأماكن المنسية والضائعة، إذا ما قرنا البحث عنها بوساطة الشعر؟

وهل يستحيل علينا التثبت من حقيقة وجودها أصلاً، دون استخدام الشعر القديم؟ أغلب الظن أن الأمر كذلك، وإننا على غرار الجماعة المرتحلة في الصحراء يهدّدها خطر الإخفاق أو الموت، لن نتمكن من الاستدلال إلى المواضع المنسيَّة والضائعة، من دون أن نرفع عقيرتنا بغناء متواصل لأبيات من الشعر القديم؛ تصف لنا الطرق المؤدية إليها وإلى المسالك التي تفضي إلى بلوغها. وهي أشعار سبق لها أن وصفت بشكل منمق، تلالاً ومرتفعات وكثباناً رملية وجبالاً، صادفها شعراء مرتحلون هائمون في بلاد العرب. وفي قلب عمل من هذا النوع يمكن لنا نحن أيضاً، أن نعثر على منازلنا ونبلغ مضارب قبائلنا ونرتوي من مياهها في الطريق.

لذلك تتعين علينا العودة إلى الشعر الجاهلي وروايته بيتاً إثر بيت، فقد تخوننا الأقدار ذات يوم، ونجد أنفسنا وسط الصحراء الموحشة في حمَّى مغامرة الوصول إلى منازلنا.

ما من سبيل أمامنا للوصول إلى هذه المواضع والأماكن، من دون أن نغرف من خزّان الشعر القديم ونعيد قراءة خريطته الشعرية، التي رسمها لجزيرة العرب واليمن وبلاد الشام كما لم يفعل أي أدب من آداب الأمم

الأخرى؛ إذ أرسى الشعر العربي القديم تقاليد رصينة، احتفظت بقوة زخم مدهش حتى العصر الأموي فالعباسي، تقوم فيما تقوم، على أساس وصف المواضع وتعدادها، موضعاً جوار موضع ومكاناً جوار مكان. وهذه وحدها من يحسم الجدل بشأن أسماء المواضع التوراتية، التي تبدلت، أو طاولها الخراب، أو تلاشت أشكال نطقها الصحيحة؛ بل وفي التثبت من وجودها أصلاً.

ولكن: لماذا نلجأ إلى الشعر الجاهلي في بحثنا عن أرض التوراة؟

لابد للإجابة عن هذا السؤال من بعض الملاحظات التمهيدية:

إذا كانت التوراة الراهنة بحسب تعبير طومسن[١] هي نتاج قراءة غربية؛ فإن لمن المهم بالفعل، أن نبرهن على أن هذه القراءة كانت خلاصة المخيال الغربي الاستشراقي (الكولنيالي) عن الشرق؛ بل وخلاصة وعيه لهذا الشرق، وهو مخيال، بَيَّن إدوارد سعيد في (الاستشراق: ١٩٨٤) بذكاء نادر، تجسداته وتجلياته في اختراع شرق مشبع بالسحر والغموض والرموز الرومانسية، يتلاءم مع رغبة دفينة في رؤيته على هذا النحو. وفي إطار هذا الشرق المخُتلق، وفي قلبه، جرى تلفيق لم ينتبه إليه إدوارد سعيد نفسه؛ نعني تلفيق تاريخ إسرائيل القديمة، وطمس الحقيقة نهائياً عن المدن والمواضع التي ذكرتها التوراة.

لذلك تبدو العودة إلى مصدر مواز - من حيث عمقه الزمني - وطاقته المختزنة المولِّدة للتجارب؛ ضرورية بصورة لا توصف. هذا المصدر الموازي والمثير للاهتمام والفضول معاً هو الشعر العربي القديم، الذي تنبع أهميته الحاسمة في السجال ضد القراءة الاستشراقية الكولنيالية

---

(١) طومسن: أستاذ علم الآثار في جامعة ميلووكي، طرد من وظيفته بسبب كتابه الشهير (التاريخ القديم لشعب إسرائيل) الذي شكك فيه بالرواية السائدة.

للتوراة، من كونه أحد أكثر الشهود الأحياء رصانة وصدقية على طبيعة الخريطة التوراتية للمدن والمواضع ومقاصدها الفعلية. ويمكن لمثل هذه العودة المحترسة أن تندرج بسلاسة في سياق قراءة عربية جديدة للتوراة متصادمة مع القراءة الغربية. منذ عام ١٩١٧ جرى تخييل لفلسطين التاريخية ما كان لها أن تنجو منه؛ يرتكزُ أساساً إلى فهم مخادع ومضلل للنصوص التوراتية على الصعيدين التاريخي والجغرافي. وبموازاة هذا التخييل انطلقت سلسلة لا نهاية لها من الأعمال والسياسات والمكائد والمناورات الرامية إلى محو فلسطين من الوجود وإحلال فلسطين أخرى، قابلة تجريدياً لأن ينظر إليها على أنها أرض الميعاد الإسرائيلي. وفي سياق ذلك، تم التعامل مع الأسماء الواردة في النصوص التوراتية، سواء أكانت هذه لمدن ومواضع أم لشعوب قديمة على أنها أسماء توراتية خاصة ومحتكرة. وسوف نبرهن- تالياً - استناداً إلى توصيف الشعر الجاهلي، الدقيق والشائق، أن التلاعب بالحقيقة التاريخية والجغرافية لم يكن عملاًبريئاً؛ بل كان مصمماً لتمرير أكبر عملية خداع في التاريخ البشري، وذلك حين جرى تصوير المدن القرى والمواضع الواردة في أسفار التوراة، على أنها ذاتها المواضع والقرى والمدن في فلسطين التاريخية. وبخلاف ما فعل د. كمال صليبي (التوراة جاءت من جزيرة العرب، ثم خفايا التوراة) فإننا لن نلجأ إلى اللعبة اللغوية لرؤية التبدل (الفونيقيطي) في الأسماء، بل سنعرض مباشرة؛ ودون أيّ تدخل في تراكيب الأسماء أو أشكال رسمها ونطقها وضبطها، كل الدلائل التي احتفظ بها الشعر القديم عن مدن التوراة؛ تماماً كما عرفها الشعراء القدامى سواء بالتواتر الثقافي للتقاليد الشعرية أم بالتجارب الشخصية، وحيث تجول فيها أو على مقربة منها، رجال وجماعات قبائليّة كانوا يرتبطون مع سكانها بروابط دم مباشرة أو قرابة دموية بعيدة. إن المرء ليدهش حقاً، من هذا الاكتشاف المثير: لقد ترك لنا الشعر العربي القديم

خريطة رائعة وموازية لخريطة التوراة؛ وهي جديرة بأن تُعرضَ على القراء المحبِّين لفلسطين والمضللين منهم، وفي إطار التصادم مع القراءة الاستشراقية المخادعة.

لقد تلاعب المخيال التوراتي- الاستشراقي لا بأسماء هذه المواضع والأماكن وحسب؛ وإنما كذلك بالحقيقة التاريخية عن فلسطين المتخيلة وعن الفلسطينيين المتخيلين الذين حاربهم داوود (١٠١٠ - ٩٧٠ ق. م) وأصبحت الأكذوبة التالية تتصدَّر معظم طبعات الكتاب المقدس:

(الأرض التي أقام فيها إسرائيل، والمسماة أرض كنعان والتي يطلق عليها العلماء الجغرافيون القدماء والمعاصرون اسم فلسطين (أي أرض الفلسطينيين) قطاع صغير من وحدة جغرافية واسعة تسمى الهلال الخصيب.

ويتضح من هذا التصدير أن فهم التوراة تَمَّ على أساس وحيد.

بما أن فلسطين المتخيلة هذه هي أرض الميعاد أي أرض إسرائيل القديمة؛ فإن ما ورد في أسفار العهد القديم من أسماء لمواضع ومدن وأماكن، هو بالضرورة تعبير عن حقيقة هذا الوجود القديم لليهود في فلسطين. وعلى هذا الأساس جرى تلفيق التاريخ برمته. والمثير أن هذه القراءة الاستشراقية المخادعة تجاوزت في تأثيراتها حدود متلقيها من الأوربيين والغربيين عموماً، وبدت على نحو ما مقبولة من جانب بعض الأوساط العربية والإسلامية سراً أو علناً؛ وحدث ما يشبه تصديقاً شاملاً ومذهلاً للأكذوبة مع الوقت، وذلك عبر تأطيرها بقراءة إسلاموية سطحية تساوي بين بني إسرائيل القدماء وإسرائيل الراهنة؛ وهي قراءة مستلة من تاريخ الإسلام المبكر في صراعه مع يهود الجزيرة العربية. وحتى اليوم لا يعدم المرء رؤية الأغلبية في مجتمعاتنا وهي تردِّد دون تدقيق في الفكرة

المضللة التالية، والتي سبق لصليبي أن نبَّه إلى خطورتها: إن بني إسرائيل و(إسرائيل) هما أمر واحد متماثل ومتطابق، مع أن النص القرآني كان شديد الوضوح في التمييز، بين بني إسرائيل كجماعة قبلية زائلة، وبين الجماعات الأخرى، ومنها اليهود. لقد نشأ التراث الكتابي- أي المواد والبحوث الخاصة بالعهد القديم - على أسس ونزعات كولنيالية تغذَّت من عصر الفتوحات الاستعمارية لأراضي الشعوب الأخرى؛ ولذلك جاءت عملية إعادة بناء الرواية التاريخية عن بني إسرائيل في أوربة لتضفي طابعاً شرعياً على ادعاء الحق بالأرض، وجرى باطِّراد فصل تاريخ هذه الجماعة الزائلة والبائدة وعزله كلياً، لا عن البيئة الحقيقية المحلية التي صدر عنها؛ بل وعن مجمل (تاريخات) المنطقة العربية، وهو أمر ساهم فيه بصورة مباشرة مؤرخون وعلماء آثار غربيون مسيحيون، من خلال إعادة بناء الرواية على أسس خيالية متوافقة مع عصر الاستيلاء على الأراضي؛ لا بقوة السلاح وحده وحسب، وإنما بقوة السرد أيضاً. إن القدرة على سرد الرواية التاريخية يمكن مضاهاتها بسلاح القوة المستخدمة لانتزاع الأرض. يلاحظ إدوارد سعيد (الثقافة والإمبريالية: نيويورك: ١٩٩٣ - بيروت: ١٩٩٣): (أن الأمم، كما اقترح أحد النقاد هي ذاتها سرديات ومرويات، وأن القدرة على السرد أو على منع سرديات أخرى من أن تبزغ لكبيرة الأهمية بالنسبة إلى الثقافة والإمبريالية).

تبيِّن هذه الفكرة الحاذقة بجلاء، كيف أن إعادة بناء الرواية التاريخية عن بني إسرائيل، المولِّدة لسرديات جديدة كولنيالية عن وجود مملكة إسرائيل في أرض فلسطين، كانت وعلى أكمل وجه، تطويراً منظماً للصراع على الأرض باستخدام قوة السرد. لقد نهضت هذه العملية برمتها ويا للدهشة، على أساس تصنيع تاريخ فعلي من حطام مواد ميثولوجية وقصص، ومرويات قبلية وأشعار وأمثال ومواعظ وحكايات وردت في

نصوص التوراة بالعبرية واليونانية؛ وهو حطام من مواد جرت عملية واسعة النطاق ومضنية لترميمه ومعالجته بلغة العلم الزائفة، لأجل أن تُنفخ فيه روح التاريخ وإلى الحد الذي تُجعل بمنزلته. على الطرف الآخر، كانت السرديات العربية - الإسلامية عن بني إسرائيل، تواصل بغوغائية وتحت تأثير الدعاوى السياسية المباشرة، الخلط بين هذه الجماعة البائدة العربية، وبين إسرائيل الراهنة ومعاملتهما على أنهما أمر واحد، وهذا ما كان يقدم أفضل مساعدة ممكنة لمشروع الاستيلاء على فلسطين.

لقد سعى المخيال الاستشراقي الأوربي في قراءته للتوراة، نحو بناء سردية جديدة خيالية توضع في خدمتها مكتشفات علم الآثار، وتتوافق مع عصر الفتوحات الاستعمارية؛ وهي سردية وجد فيها الغرب إمكانية مدهشة للعثور على حاضنة أولى وقديمة للحضارة الأوربية مدفونة في رمال الشرق. وها هو الغرب يعثر، في الرواية عن بني إسرائيل، على طفولته البعيدة في الشرق الغامض والملتبس، وعلى مراتع صباه المنسيّ يوم كان لداوود مملكة مترامية الأطراف. لسوف يمهد هذا الانتساب المفاجئ، الطريق أمام أوروبة لكي تعيد إدراج التراث اليهودي - المسيحي والحضارة الغربية معاً، في سياق استمرارية تاريخية كانت مفتقدة؛ فلم تعد أوروبة وريثة لأثينا وحسب، بل هي استطراد لمملكة إسرائيل. وها هو تاريخ بني إسرائيل المُلفّق يُكتشف على نحو قابلٍ لأن يرى فيه الغرب، بأسره تاريخاً خاصاً به، ضائعاً وتائهاً في شرق منسي. وقد أمكن استرداده بفضل إعادة بناء الرواية وترويجها، على أوسع نطاق وبالتلازم مع الاستيلاء على الأرض.

ولذلك بدا أن الاستيلاء على الأرض كان مجرد استطراد في الاستيلاء على التاريخ والثقافة. وهذا ما يفسر لنا السِّر وراء حُمّى بناء رواية عن بني إسرائيل، وهي رواية مثيولوحية في الأصل، في وقت كان

فيه هرتزل نفسه يفكر في حضرة السلطان عبد الحميد جدياً في طرح خيار الذهاب إلى أوغندة، بما هي أرض ميعاد بديلاً عن فلسطين، التي استحال على السلطان منحها له؟ إن العلاقة بين عصر الفتوحات الكولنيالية وبزوغ سردية جديدة عن مملكة إسرائيل القديمة، منمّقة ومشذّبة من المثيولوجيا ومكتوبة بلغة علمية براقة، ولكن زائفة، تبدو شديدة الترابط والتشابك؛ ففي حين كانت الفتوحات الاستعمارية في الهند وفي الشرق عموماً، تشجع على إطلاق هذه الرواية؛ فإن الرواية ذاتها في فلسطين بدت كما لو أنها العهد الجديد في طبعته البروتستانتية-اليهودية، وقد أبرمه بنو إسرائيل مع إله الفتوحات الكولنيالية الجديد، والذي يقضي بإعطاء كل الأرض لنسل من المستوطنين البيض القادمين من وراء البحار. وبمقدار ما بدت الفتوحات عامل دفع لترويج هذه السردية، كانت وبالمقدار ذاته تبدو كسلاح فتاك في يد الفاتحين. ولذلك وجدت أوروبة عصر الفتوحات أن إعادة بناء الرواية التاريخية عن بني إسرائيل بوصفهم بناة إمبراطورية، هو أمر شديد الحيوية في هذه الفتوحات؛ التي كانت تنتقل مع الحرب العالمية الأولى إلى أرض العرب. كان لابد، عندئذٍ، ومع صدور وعد بلفور - وتسمية وثيقة بلفور بالوعد مقصودة تماماً فهي تتضمن مماثلة للوعد الجديد بالوعد القديم مع الرب في التوراة - من أن يُرى تاريخ بني إسرائيل على أنه التاريخ القديم لإسرائيل الجديدة، التي كان يُنتظر ولادتها مرة أخرى في مسقط رأسها: فلسطين. بهذا المعنى تصبح العودة إلى الشعر العربي القديم ضرورية.

يقول ابن قتيبة (انظر أيضاً البكري: معجم ما استعجم: ٨٥٣) إن الجماعة المرتحلة، قالت للنبي ﷺ حين وصلت: يا رسول الله لولا بيتان من الشعر لامرئ القيس لهلكنا! إن المصدر الوحيد، تقريباً، الذي في حوزتنا ويمكن شَبْكهُ مع النص التوراتي، بوصفهما نصين قديمين، إنما هو

الشعر القديم بكل تقاليده المتوارثة مع الإسلام الأموي والعباسي؛ وبوسع هذا النص المفتاحي أن يساعد في تفكيك المرويات التوراتية عن هذه المواضع، وصولاً إلى بناء رواية جديدة يدعمها وصف الهمداني لجزيرة العرب. وبقطع النظر عن المشكلات التقليدية والمعروفة في الشعر القديم، وبصرف النظر كذلك عن مشكلات (الوضع) و(النحل)؛ فإن إمكانات التحري عن المواضع والأماكن تظل زاخرة بالمفاجآت. ولأن المصدرين القديمين: التوراة والشعر العربي يملكان سويةً، الخاصية ذاتها لا من حيث بعدهما الزمني؛ وإنما كذلك -وهذا هو الأهم- من كونهما يصدران عن البيئة ذاتها: الصحراء العربية، فإن هذا الأمر يُسِّهل فرص إجراء مقاربات أدبية ولغوية وجغرافية لا حصر لها.

يمكن؛ على مستوى السرديات التاريخية، وضع الشعر العربي على قدم المساواة مع المرويات التوراتية، بما أنهما يتضمَّنان المادة ذاتها المشحونة بقوة تصوير وتمثل مطَّردة للأماكن والمواضع، ولأخبار الحروب والمعارك والبطولات والقصص كذلك. هذه المادة التي تشكل عند تجميعها تاريخاً؛ تتمتع بقابلية فذة للمقاربة، فالتوراة نفسها تتضمن الشيء ذاته في الشعر العربي: أخبار الأيام، وهذا هو عنوان سفر معروف فيها، بينما نعرف نحن قراء الشعر العربي القديم الاسم نفسه في صورة: أيام العرب وهي وقعاتهم الشهيرة وغزواتهم؛ بل إن التوراة في مَبْناها العام تبدو كمجموعة من القصائد والأناشيد والأمثال والمواعظ. بكلام ثانٍ: إن للشعر العربي خاصية الإدعاء المقبول بأنه (نقوش) القبائل والجماعات والأفراد، الذين تركوا لنا في شكل صور شعرية تاريخاًمن الوقائع والأحداث، وهذا كل ما يلزم لإعادة بناء تصورنا لا عن تاريخ العرب وحسب، وإنما كذلك، لبيئتهم التي عاشوا فيها. إن سلوك الجماعات القديمة من هذه الزاوية، يبدو متماثلاً، ويمكن أن نَنْزع عنه

المحمولات والأثقال الزائدة، التي طالما افترض وجودها المؤرخون؛ فهو سلوك يقوم فيما يقوم، على العناية بسائر الموجودات والأحداث والأخبار والروايات من خلال نمطٍ من التدوين لم نُجرِّب بعد إعادة اكتشافه: نعني السرد الأدبي القديم؛ فالعرب - مثلاً- لم يتركوا نقوشاً في باطن الأرض دائماً، بل في باطن السرد الأدبي المتواتر، الشفهي والمكتوب شعراً. ولسوف تقودنا تأملات معُمّقة في المعلقات الشعرية والقصائد الطوال، وحتى الأشعار المتناثرة والمتشظّية، إلى الارتباط أكثر فأكثر بعالمٍ مترامي الأطراف، ولكنه مع هذا، قابل للتفكيك إلى وحدات صغيرة، تسمح برؤيتها من منظورين متراكبين: مرة بوصفها شيئاً خاصاً ومستقلاً، ومرة أخرى بوصفها جزءاً من كلّ. ولذلك بوسعنا التأمل في السرديات القديمة من زاوية أقل تطلُّباً، وتقبل الجزء الديناميكي منها، بما هو عناصر أولية لمادة تاريخية قابلة للمعالجة. وبرأينا؛ فإن الشعر الجاهلي يتضمن بنية سردية أصيلة، سيحتفظ بها حتى مع حدوث تشوُّهات في معاني الكلمات والأسماء، وحتى مع وجود (نحل) أو (وضع) في القصائد؛ إذْ يمكن التلاعب ببعض المعاني، أو إحداث تغيير في ترتيب الأبيات، سواء أكان ذلك بفعل قصديّ أم بدوافع السهو والنسيان. بيد أن ما سوف يسلم من هذه الفوضى المفترضة - باحتمال حدوثها -إنما هو السرد القديم والتقليدي: أي وصف الأماكن والأحداث. لقد كان المتأخرون من الرواة والشعراء، كما سوف نبرهن، يجهلون الكثير من معاني الكلمات والأسماء والتوصيفات التي تردُ في قصائدهم وأخبارهم الأدبية. وهذا أمر مدهش ومثير للفضول والتساؤل، فربما لهذا السبب آثروا الإبقاء عليها بغموضها والتباسها. لكن تأملاً رصيناً في مثل هذه الكلمات والأسماء وتوظيفها توظيفاً عقلانياً، سوف يُعيد لها معانيها البراقة واللامعة. بمقدار ما تبدو هذه المزايا، شيئاً خاصاً وثميناً في الشعر العربي القديم، فإنها وبالمقدار ذاته، مزايا مشتركة مع سائر النصوص

السردية الأخرى، وهي لا تتفوق عليه بشيء لا لجهة توصيف المعارك والغزوات والحروب والأماكن والمنازل وآبار الماء، ولا لجهة تحديد وضبط الأسماء؛ سواء أكانت لأفراد أم لجماعات قبلية.

ولأن الشعر العربي القديم هو إنشاء منُمَّق لبنيات سردية مثيرة ومشحونة بطابع إنساني؛ فإن المواضع والأماكن التي وصفها تحولت مع الوقت إلى صور آدمية حية، حتى التبسَ الأمر على القدماء والمعاصرين، وتكرَّست الكثير من المعتقدات - مثلاً -: أن عُنَيزة التي عشقها امرؤ القيس في معلقته، هي امرأة جميلة صادفها الشاعر، بينما سنرى - فيما بعد - أنها اسم وادٍ شهير من أودية العرب وليس اسماً لامرأة. لقد صوَّر الشعر القديم، باطِّراد، المواضع والأماكن في هيئات بشرية، وكانت أكثر هذه الصور إغراء وجاذبية صور كثبان الرمل الجميلة والوديان والجبال، التي طالما حملت أسماء أنثوية وعُرفت بها، بينما أضفى الشعراء من جانبهم على هذه الأسماء، كل ما يتطلبهُ الخداع الشعري من عاطفة فائضة وعبارات ولهٍ وشبوبٍ، لكي يتخطى أسواره العاطفية الطبيعية، حتى ليبدو غراماً مرضياً سقيماً وعجائبياً. هذه الأَنْسَنة للأماكن في الشعر القديم، لم تُر بعدُ بحسٍّ نقديٍّ وتاريخي، لأن عمق الالتباس عند المتلقين نقاداً وقراء، كان يدفع باتجاه الإبقاء والتشبث بالبعد البشري (الآدمي) في الصور. وما من قارئ للشعر القديم إلا وسيتقبل تحليلنا هذا بشيء من الاستنكار. تماماً كما سيفعل المؤمن اليهودي مع قارئ حصيف ونزيه للتوراة، حين يعيد تذكيره بالحقيقة التي نعلنها هنا، إن سلمى التوراة مثلاً، ليست من بنات أورشليم، وأن سليمان لم يعشق امرأة بهذا الاسم؛ بل إن شاعراً مجهولاً هو الذي تغنى، على غرار ما يفعل الشعراء، بجبل عربي شامخ من جبال الجزيرة العربية، وليس في فلسطين، يدعى سلمى؛ وأن لبنان في نشيد الإنشاد ليس لبنان البلد العربي، وإنما هو رفيق سلمى

وجارها ؛ جبل شامخ من جبال العرب، التي عرفتها القبائل وأقامت عندها وذكرتها في أشعارها. إن هذه القوة التصويرية الفذة، التي كانت تخْتزنُها النصوص القديمة بما فيها الشعر القديم، هي البؤرة التي يتعين التحديق فيها لرؤية الحقيقة الكامنة خلف الأسماء. على هذا النحو لم تعد المواضع والأماكن في النصين التوراتي والشعري العربي، مجرد أماكن ومواضع وحسب، وإنما تحولت كذلك مع الوقت إلى هيئات آدمية، يصعب اليوم تقبل فكرة إعادتها الى أصلها ومعناها لشدة تعلق الناس بها. لكل ذلك ليس ثمة من عائق حقيقي أمام الفكرة المنهجية التالية :

إن تقاليد هذا التحويل في الصور، تصبُّ في مجرى ثقافة شعرية أقدم، فالصور الآدمية للأماكن والمواضع وجِدَتْ على الدوام في الشعر السومري. ولعل البكائيات التي تركها لنا العراقيون القدماء، فيما يعرف (بمراثي المدن) هي الفناء الخلفي لقصائد الوقوف على الأطلال عند العرب، وهي ذاتها قصائد البكاء على المنازل الموحشة، وهذه دون أدنى ريب هي المادة الأصلية لتقاليد البكاء على أورشليم أو ما يعرف بالبكاء عند حائط المبكى. إن مصدراً قديماً مثل الشعر الجاهلي، يكاد يصبح بالنسبة إلينا نحن المعاصرين، أكثر دقة وتبصُّراً حتى من الخرائط التي رسمها الجغرافيون اليونانيون للجزيرة العربية، على صعيد وصف الأماكن والمواضع وعلى نحو تفصيلي (خرائط سترابون مثلاً لا تذكر مواضع شهيرة عند العرب) هذه الخرائط لم تكن بحكم ظروف إنجازها لمتطلبات سياسية وعسكرية، تخص الحملات الحربية اليونانية على الجزيرة العربية، لتحتمل الانغماس في التفاصيل الصغيرة، بينما اهتمت على نحو مُمتاز بالتعميمات التي كان يفرضها خط سير هذه الحملات، والتي بلغت ذروتها مع مطلع القرن الأول قبل الميلاد. في المقابل كان الشعر العربي القديم يغوصُ في وصفٍ مُسهبٍ ومْرهفٍ، لكل ما يُحيط ببئر ماء أو كثيب

رملي، وبحيث يستطيع كل مرتحل أو مسافر في البراري والبوادي، أن يهتدي إليها بسهولة كما لو كان يمسك بخريطة حسنة التصميم. هذه القوة التصويرية النفَّاذة والذكية، هي التي تفرض علينا اليوم إمكانية إحلالها دليلاً موثوقاً به، محل سائر الفرضيات اللغوية أو المصادفات الجغرافية الثانوية والعرضية، والتي - لسوء الحظ- يمكن أن تُرغم صاحبها على الانغماس في جدال يصعب حسمه.

لشد ما يبدو الشاعر القديم، بتجرُّده المفرط من أية أغراض غير نزيهة في وصف المواضع، ومن أية أباطيل زائفة، وعلى وجه الخصوص حين يتعلق الأمر بمكان يعبره وحيداًوخائفاً، مجتازاً المنازل والمضارب وكأنه انتدب نفسه لمهمة شاقة بحق؛ أن يترك لنا خريطة مُنَمقَة ومفصلة وحسنة الإعداد، وقابلة للاستعارة كدليل لنا في رحلاتنا المفترضة في الصحراء. ولأن هذا الشاعر المرتحل كان يواصل مُغناة شعرية طويلة، سابقة على تجربته الشخصية، فإنه يقوم لا بإعادة رواية الآخرين عن المكان، بل وُمضيفاً إليها ابتكاراته. إن سلمى عند الأحوص - مثلاً- ليست هي ذاتها سلمى عند امرئ القيس، وهذه ليست تماماً سلمى التي هام بها زهير بن أبي سلمى، إذْ لكل منهم أغنيته الخاصة بسلمى الجبل. وبذلك، يصبح المكان نفسه نتاج قوة تأليفية يتعاقب فيها شعراء من مختلف العصور، من سليمان التوراة حتى زهير بن أبي سلمى في إطارٍ من التَّمَثُّلات المُطَّردَة التي تُضفي فيها اللغة الشعرية كل ما يلزم من الخداع البريء، بحيث ينقلب المكان إلى امرأة قد يقع القارئ نفسه في غرامها. المثير للاهتمام، حقاً في هذا الصدد، أن تجربة الشعر العربي القديم (الجاهلي) كانت من القوة والتماسك بحيث إن زخمها بدا؛ وفي فترات مختلفة قادراً على الوصل بين تقاليد الشعر السومري في الماضي البعيد وبين التقاليد الجديدة. وفي الآن ذاته وصلهما بالمستقبل على نحو يظهر فيه نسيج واحد

متناغم في هذه التقاليد، كما لو أنها صُبت في قالب واحد؛ إذ واصل شعراء العصر الأموي والعباسي تقاليد توصيف المواضع والأماكن ذاتها كما وردت في الشعر الجاهلي، ومعها تواصلت نفحات الغرام البريئة والمهذبة في شبوب عاطفي يتصاعد بلغة رقيقة وللأسماء نفسها، وكأن الزمن لم يمحُ أثرها بعد.

وهكذا عادت سلمى وعُنيزة ولُبنى - وهذه تغنت بها التوراة كما سنرى - إلى المسرح الشعري الإسلامي، وقد ارتدين الحُلل الآدمية إياها، ولكن ليُصْبحنَ هذه المرة معشوقات لشعراء عباسيين لا جاهليين.

هذا التوارث المدروس والمنظم والمُشبع بفهم خلاق وبنَّاء لتقاليد الشعر العربي، هو الذي يوفر لنا اليوم الفرصة لنتمكن بيسر، من العودة إلى هذا الخزان المُترع بالأسماء والتوصيفات الدقيقة لأماكن اندرست وضاعت نهائياً؛ لكي نغْرف منها ما يلزمنا من حجج داعمة قصد إزالة سوء الفهم الفظيع والمقصود في القراءة الاستشراقية للتوراة، وتعرية الطابع الكولنيالي الفاضح الذي طُبعت به. ولنكشف كذلك عن المضمون الحقيقي للاستعمالات المجازية في توصيف اللغة العبرية للأماكن ذاتها. إن فهماً أفضل لتقاليد رثاء المنازل في الشعر الأموي والعباسي، يجب أن ينطلق من السؤال التالي: ما الأغراض الشعرية القابعة والمتوارية وراء الرغبة في تعزيز وتوطيد ثقافة البكاء هذه، عند شعراء لم يكونوا أصلاً، إلا من سكان حواضر مُترفة مثل دمشق وبغداد؟ فيما هم يرثون منازل وآبار ماء وكثباناً رملية وسمرات تعرضُ عند مفترقات الطرق؟ بل ورثاء مواضع ربما لم يُقيض لأي منهم أن يصل إليها، أو حتى معرفتها معرفة أكيدة أو عن قرب؟

إنْ لم يكن وصف المواضع هذه والبكاء على أطلالها، هو تقليد شعري أصيل ومتوارث من التقاليد، فما عساه أن يكون؟

هذه الشواهد الشامخة في الصحراء العربية، راحت تشمخ مع الوقت، لا بفعل قوة صخورها، أو بفضل جمال ونداوة رمالها المتموجة، أو زهو أشجارها، وإنما بفعل تلك القوة التصويرية التي وهبتها لها كلمات الشعراء، وحولتها إلى شواهد بشرية، كأن سلمى لم تبرح مكانها قط، وظلت تمرح مع بنات أورشليم؟ وكأنها لم تكن جبلاً كثيف الأشجار بل صبية سمراء، تعبث بالعشاق المارين في ديارها على مدار الزمن، من سليمان المزعوم حتى امرئ القيس، ولكأنها مكثت هناك عند مفترقات الطرق تنتظر عشاقها الشعراء الهائمين بحبها، لتمنحهم ومن جديد حبها الأزلي. وهاهم يتقاطرون عليها مُستردين، جيلاً إثر جيل، صورتها الأثيرة؛ ومُعيدين لها جلباب الحياة كلما خلعته، بقوة غاصب أو بهيجان عارض طبيعي. وفي هذا الإطار يتوجب توضيح بعض الجوانب الحيوية من المسالة المثارة هنا:

إن وجود موضع غير جبلي في فلسطين يحمل الاسم العبري- العربي مثلاً (أفيق) كان كافياً لإعلانه مكاناً إسرائيلياً، حتى من دون الالتفات إلى الخطأ الجغرافي مع وجود مواضع جبلية أخرى مجاورة لا وجود لها في فلسطين القديمة؟ أو إلى كونه اسم جبل-في التوراة- فيما هو اسم موضع غير جبلي ومجهول في فلسطين. ولكن واستناداً إلى الهمداني في صفة جزيرة العرب، نستطيع العثور على اسم الجبل نفسه (أفيق) وإلى جواره سائر المواضع الأخرى الواردة في النص التوراتي، كما نجده في وصف الشعر الجاهلي للأماكن ذاتها. إن التوراة من هذا المنظور، تعطي على غرار ما يفعل الشعر الجاهلي، تحديدات واضحة لا تقبل التلاعب، وتوصيفاً يصعب القفز عنه؛ ففي سفر يشوع: ١٨ : ١ : ١٤ : يُعطى مثلاً الوصف التالي لأريحا (وهنا نستخدم النص العربي لتسهيل عودة القراء إليه):

(إلى جانب أريحا شمالاً، ثم تصعد في الجبل غرباً وتنفذ إلى بيت ءون، وتمر من هناك إلى لوز، إلى جانبها الجنوبي وهي بيت ءيل وتهبط إلى عطاروت أورك على الجبل جنوبي بيت حورون السفلى)

في الواقع لا يوجد شمال أريحا الفلسطينية البتَّة، أو حتى إلى الغرب منها، جبل يؤدي إلى مكان يدعى بيت ءون، كما لا يوجد أي موضع يدعى لوز إلى الجنوب من بيت ءيل؛ فضلاً عن أن أريحا التاريخية لا صلة لها قط، بموضع يدعى حورون السفلى. الوصف التوراتي يشير، كما هو واضح من النصّ، إلى أسماء المواضع ووظائفها، فهي أماكن جبلية يرتقيها المرء ثم يهبط منها في طريقه إلى لوز وءيل وأورك وأخيراً يصل حورون السفلى. إن سائر هذه المواضع هي جزء من سلسلة جبلية لا وجود لها في فلسطين؛ ومن المستحيل تخيّل إمكانية زوالها. فحتى لو افترضنا أن هذه الأسماء تلاشت أو ضاعت؛ فإن السلسلة الجبلية ستظل هناك .

ومع ذلك؛ فإن القراءة الاستشراقية رأت إلى أريحا التوراتية هذه (يريحو) ودون أدنى دليل، على أنها أريحا الفلسطينية في الضفة الغربية، متجاهلة عن قصد سائر المواضع القريبة منها في الوصف التوراتي. وسوف نرى بالتفصيل، وحين نضع وصف الهمداني لبيت ءيل، وءون، وأورك، ولوز، وحورون في منطقة السفل في الجوف اليمني، المعنى الحقيقي لاسم أريحا التوراتي. والمثير أن الهمداني يضع حورون هذه في مكان يسميه السفل، تماماً كما عند يشوع؟ وفضلاً عن ذلك كله؛ فإن التوراة والشعر العربي القديم، يدرجان في توصيفهما تقليداً ثقافياً يميز القارئ أو المتلقي بموجبه، بين الأسماء المتشابهة بحيث يتمكن من تفادي الالتباس والخلط. مثلاً، عند الحديث عن مصفاة، أو الصفاة، ولأجل تمييزها عن أي موضع آخر يحمل الاسم نفسه، تسجل التوراة

صيغة لاسم مركب: مثلاً: رامة المصفاة بدلاً من مصفاة منفردة، وهذا التقليد عينه عند قدماء العرب وعند الهمداني مثلما هو عند الشعراء، فالصفا أمكنة عدة منها صفا الأطيط ومنها الصفا والمروة، وهما من شعائر الحج القديمة. وبذلك يعطي الشعراء الجاهليون أسماء مركبة ومنفردة للاسم نفسه في التوراة. بمراعاة هذا الجانب من المشكلة، سوف يكون بوسعنا الكشف عن نمط التلاعب في أسماء المواضع في القراءة الاستشراقية، التي أهملت كلية الصيغ المركبة للأسماء، لأنها ببساطة لم تجد لها أي أثر في فلسطين. وسأضرب بعض الأمثلة عن نمط التلاعب في الترجمة السائدة: إن الاستشراقيين الذين يجهلون هذا التقاليد؛ وعلى خطاهم كل منْ قام بترجمة النص العربي السائد من التوراة، يترجمون الكلمة العبرية ها - نحلتم، التي ترد في معرض وصف الأودية والجبال إلى (ميراثهم) للإيحاء بأن بني إسرائيل ورثوا هذه الأماكن. وهذا تزوير فاضح لأن الكلمة العبرية تعني غورهم، أي كل ما يتصل بالوديان التي يقيمون فيها. هذا التلاعب في معنى الكلمة العبرية واستخدام تعبير ميراث بدلاً من كلمة غور وهي الكلمة المرادفة والصحيحة، يكشف عن البعد الكولنيالي في الترجمة. كما يفضح طبيعة المخيال الاستشراقي؛ إذْ ليس ثمة ميراث في الأمر كما سنبين لاحقاً. كما أن النص العبري يستخدم كلمة ها -عير، لا بمعنى مدينة، فهذا مفهوم متقدم في الاستيطان لم تكن الجماعة الإسرائيلية قد بلغته بعد في عصر يوشع بن نون؛ وإنما بمعنى منزل قبلي. ومثلما نقول حتى اليوم، منازل القبائل أي مواضع إقامتها وسكناها. ولأجل ذلك؛ فإن التأمل مَلياً في المعنى الذي اختزَنَه الشعر العربي القديم، سيوضح إلى أي حد جرى التلاعب بالمعنى الفعلي للكلمة العبرية ها-عير، التي تعني منزل القبيلة أي مكان إقامتها وليس مدينة. وفي التعبير العربي القديم تَمَّ استخدام كلمة بلاد فيقال: بلاد عامر وبلاد قيس، أو كلمة وطن فيقال: أوطان بلحارث فحيث نزلت القبيلة

المرتحلة وضربت وتداً في المكان أصبح المكان من أوطانها. ولذلك استعمل العرب البدو كلمة عير، ذاتها للدلالة على المكان بما هو من منازلها، أي وتد الخيمة (مضربها). قال الشاعر الجاهلي الحارث ابن حلزة اليشكري (الأنباري: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: ٤٤٩ محدداً المعنى الحقيقي والقديم لكلمة عير. وقارن بين اسم الشاعر واسم السبط في التوراة: يشكر):

زَعَموا أن كل مَنْ ضَربَ العَيرَ   موالٍ لنا وأنّى الولاءُ

ليس ثمة ما يوضح المقاصد الفعلية من هذه الكلمة العبرية، أفضل من بيت الشعر الجاهلي الآنف الذي يكتسبُ قوته من الإشارة الجامحة، إلى أن المنازل القبلية تغدو مع الوقت، موضوعاً قرابياً، فحيث حلَّ الغرباء من القبائل الأخرى وضربوا خيامهم، طالبوا بأن يُعْتَرف لهم بحق الانتساب إلى القبيلة صاحبة الأرض، وهذا نظام قديم عرفته سائر الجماعات العربية باسم الموالي. إن عير العربية وها- عير العبرية، هما الكلمة ذاتها التي تعني مضارب القبائل ولا تعني مدنها، ومما يدعم هذا التحليل الدلالي للكلمة ويؤكد وجود سوء فهم، عملت القراءة الاستشراقية للتوراة على تطويره بصورة منهجية، وعلى إبرازه وتوطيده من خلال الإلحاح على إعطاء المكافئ الوحيد لكلمة ها -عير أي مدينة -المدينة، هو أن هذا المعنى يندرج في إطار تعظيم مطّرد وخيالي للجماعة، التي صُوِّرَتْ في هيئة جماعة فريدة في نوعها، أمكن لها أن تؤسس في محيطٍ معادٍ تماماً، كما هي صورة إسرائيل الراهنة، دولة ذات مدن خيالية قي القوة والثراء؛ بينما نعلم من النصوص نفسها، أن بني إسرائيل دوَّنوا أسماء هذه المنازل ووصفوها؛ إما باعتبارها مياهاً مالحة أو جبالأجرداء أو أودية وآبار ماء عذبة. وهذه صور نمطية للمنازل القبائلية، مألوفة وشائعة ولا يمكن - بطبيعة الحال - اعتبارها مدناً، بالمعنى الذي سعت القراءة الاستشراقية

إلى تبنيه وتطويره. ومن غير شك؛ فإن كل تدوينٍ للأسماء يكتسب مع مرور الوقت، نوعاً من الاحترام والقداسة والمهابة ربما عند المتلقين المؤمنين، الذين لا يهتمون عادة، بمعرفة الوظيفة الحقيقية للمكان، وما إذا كان كثيباً رملياً كالحاً أم بئر ماء مالحة، ذلك أن التدوين يكتسب قداسة وصدقية عندما يكون دليلاً من أدلة الماضي، ويجلب معه نمطاً من التشوق للأمكنة. ونحن نضع مسألة البكاء على أورشليم المحطمة التي بكاها الشعراء في التوراة في هذا الإطار. لقد تنبه ابن جني بذكائه وطرافة أمثلته اللغوية إلى حقيقة هذه الأغراض الشعرية (انظر نوادر ابن جني وياقوت: ٥: ٢٢٦) قال: أخبرني الأصبهاني عن أبي دلف الخزاعي عن رجل من أهل العراق قال: إنه نزل في موضع فسأل عن اسمه فقيل له: إنه يدعى مَللْ فقال: قبح الله القائل في مَللْ:

يا لهف نفسي على مَللْ

أيُّ شيء كان يتشوق من هذه الحرَّة السوداء؟

فقالت له صبية في المكان: بأبي أنتَ وأُمي! إنه كان والله، له بها شَجَنٌ ليس لك.

هذا الشجن الذي ليس لنا نحن المعاصرين، والذي لا نستطيع امتلاكه؛ لا نكاد نفهم لُغْزَه المحير بما أننا غرباء عن المكان، وليست لنا صلة حميمة به، ولم يكن من منازلنا، أو من مضارب قبائلنا؛ هو الذي كان يُحفِزُ الشعراء القدامى، ثم شعراء الإسلام فيما بعد، على تصعيده شعرياً وعلى نحو يتعاظم معه المكان، فلا يغدو مجرد حرَّة سوداء كالحة بل جنة تهفو إليها القلوب والنفوس؛ وهذا هو الوضع الحقيقي لأورشليم التوراة التي لم يعثر لها على أثر في فلسطين. وفي هذا الصدد تُروى هذه الرواية: عندما أوشك الإسلام على الانتصار، وإنجاز لحظة التحول

الكبرى في حياة العرب، طلب زعيم قبلي عُرف بكثرة أسفاره وطوافه في البلدان، هو تميم الدّاريّ من قبيلة لخم من النبيّ ﷺ أن يهبه قريته القديمة بيت لخم - بيت لحم وأن تعود إليه ملكيتها بعدما ضاعت منه.كان الزعيم القبلي - اليمني قد عاد للتّو من أسفاره حين أوشك الإسلام على الانتصار، وراح يقّص على النبي ﷺ حكاياته في الأرض التي طاف فيها. يقول ابن جُريج عن عكْرِمَة (معجم: ٢٨٩): أن تميم الداري قال للنبي ﷺ:

إن الله مُظْهِرُكَ على الأرض كلها، فهبْ لي قريتي من بيت لحم؟ فقال له النبي: هي لك. وكتب له بها؛ فلما استخلف عمر بن الخطاب وظهر في الشام، جاء تميم الداري بكتاب النبي ﷺ فقال له عمر: أنا شاهدك، فأعطاه إياها.

تثير هذه الواقعة المؤكدة والمؤيدة من المصادر العربية القديمة عن ملْكية بيت لحم لقبيلة لخم اليمنية، مسألة استذكار منازل القبائل؛ فتميم الداري من قبيلة لخم العربية (الاسم العبري هو بيت لخم: أي منزل قبيلة لخم) وهاهو يعود ليُطالب بحقه في استرداد المكان القديم بعد زواله، ثم إعادة تأسيسه في بلاد الشام. لقد احتفظت قبيلة جُذام العربية، وهم من بطون لخم، بذكرياتها وصورها الأثيرة عن بيت لحم الأولى والقديمة في اليمن ونقلتها معها إلى فلسطين؛ ومع ذلك، سعت إلى مُصادقة الإسلام على الحق في الملكية (وسنرى دلالة ذلك حين نحلل معنى حصول الأسباط الإسرائيلية على المنازل من النبي يشوع). بهذا المعنى؛ فإن تقاليد رثاء المدن لعبت في حياة القبائل العربية دوراً ثورياً كان يعيق باستمرار، عمليات تفتت ملكيات القبائل من الأرض، ويعيد مرْكزتها حتى مع ظرف الانهيار والتمزق، في أيدي البطون التي تتمكن من

الصمود ومقاومة الاندثار. إنها، بكلام آخر: التقاليد الثقافية التي تُمَكن الجماعات من الاحتفاظ بهوياتها من الضياع. ولأجل فهم أعمق، نسوق المثال التالي:

ما من قارئ للشعر الجاهلي إلا واعتقد أن بيت امرئ القيس الشهير (المعلقة):

فلمّا دخلتُ الخُدرَ خدْرَ عُنيْزةٍ فقالتْ لك الويلاتُ إنَّك مُرجلي

إنما هو بيت مُصممٌ لمخاطبة حبيبته التي تُدعى عُنيْزة. ولكن هذا محض انطباع سطحي ومغلوط تسبب به النقاد والجغرافيون القدامى، الذين وقعوا تحت ضغط ذلك المزيج المُضلل من الصور. إن ناقداً حصيفاً مثل أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (٢٧٢ - ٣٢٨ هـ) يقرأ بيت امرئ القيس على هذا النحو (شرح الأنباري: ٤٢):

> **«وعُنيْزة هي المرأة التي كانت حملته - أي الشاعر- في هودجها، فكان يحاول منها ما يحاول. فتمايل الهودج مرة به ومرة بها فتقول له: لك الويلات إنك مُرْجلي»**

بذلك تكون عُنيْزة قد رسخت في ذكرياتنا بوصفها امرأة عشقها امرؤ القيس. لكن العودة إلى القصيدة سوف تنسف هذا الانطباع لأن الشاعر نفسه يخاطب حبيبته باسمها الحقيقي في القصيدة ذاتها:

أفاطمُ مَهْلاً بعض هذا التَّدللِ وإنْ أزْمَعْتِ صُرمَي فأجْملي

فهل هي عُنَيْزة أم فاطمة؟ ينجم هذا التأويل النقدي الخاطئ للشعر الجاهلي، والذي يقوم به أحد أكبر نقاد الشعر القدامى، عن سوء فهم لأسماء المواضع. وبدرجة أكبر من ذلك؛ ينجم عن الطاقة الفذة والمذهلة

للصور الشعرية حيث تضفي مسحة آدمية على المكان وتُعيدُ أنْسَنته، ليتحول مع الوقت إلى كائن بشري ويغدو موضوعاً غرامياً. إن عُنَيْزَة هذه في الواقع، لم تكن امرأة وإنما مكاناً، قارة سوداء في بطن وادٍ عُرف باسمها في ديار بني تميم (البكري: ٩٧٦) وقد مر بها الشعراء في طريقهم الى نجران أو عائدين منها. وللتدليل على ذلك، فإن المعلقة نفسها تشير إلى الوادي وتُعيد توصيفه بعدَ هذه الأبيات. يقول امرؤ القيس:

ووادٍ كجوف العَيْر قفْرٌ قطعتهُ به الذئبُ تعوي كالخليع المُعيّلِ

وهو توصيف نادر ومشوّق، حيث الوادي مثل خيمة (قارن العير في هذا البيت مع ها -عير: العير؛ في العبرية بمعنى وتد، أو خيمة، أي منزل قبلي وليس مدينة) كبيرة وموحشة وخالية من أي أثر لمساكن ومنازل قبلية. ولذلك لم يجد الفرزدق بعد عدة قرون من ذيوع البيت وشهرته في الشعر العربي، بُداً من إعادة إنتاج الصورة الأخاذة للوادي. قال الفرزدق:

أنخنا إليها من حَضيضِ عُنَيْزَةٍ ثلاثاً كَذْودِ الهاجري رواسيا

وبالطبع يستحيل علينا تخيل الشاعر وهو يصف حضيض المرأة (حضيض عنيزة) التي وقع في غرامها؛ إلا أن يكون قصدَ به أسفل وادي عنيزة أي حضيض الوادي. كما يستحيل تصور أن الشاعرين الجاهلي والأموي، أحبّا المرأة نفسها إلا أنْ يكونا مرّا في الوادي نفسه. هذا المثال يلائم تفكيكاً جديداً للجغرافيات الشعرية التي التبست في ثقافتنا العربية القديمة والمعاصرة، وهو، بصورة أكثر واقعية وإلحاحاً، يلائم تبصُّراً بالآليات التي كانت تعمل في الثقافات القديمة، على تحويل الأماكن والمواضع إلى صور بشرية. وميدان هذا العمل النموذجي هو التوراة التي تظهر فيها صور الأبطال وكأنها تخفي خلف أرْديتهم الفضفاضة صوراً لمواضع وأماكن.

إن مرويات التوراة عن ليئة زوجة يعقوب ولابان (لابن) خاله، وسائر قصص سفر التكوين، والتي لاوجود لها قطُّ في فلسطين؛ هي أودية وجبال في اليمن طالما تغنى بها شعراء الجاهلية. وينبغي النظر إليها على أنها استطراد في التقاليد الأدبية ذاتها، التي وجدت طريقها إلى التدوين مرة في شكل قصائد، ومرات لا تحصى في شكل مرويات عربية قديمة. لقد كان غرام البدوي بأمْكنَتهِ ومواضعه التي يمر بها وبمنازله التي يقيم فيها، غراماً شبه مَرَضي، سقيماً وملتاعاً وطافحاً بالصور الشعرية والسردية المخادعة. وهذه هي المادة الأصلية في التوراة. إن الصراع بين بني إسرائيل والمُضَريين- الكنانيين، مثلاً، وهو صراع ضارٍ كرَّست له التوراة فصولاً، وقُرئ استشراقياً على أنه صراع بين إسرائيل ومصر البلد العربي، نظراً لتشابه رسم مُضَر القبيلة مع اسم مصر؛ إنما هو استطراد في صراع سوف يتخذ أشكالاً متنوعة منها شكل الصراع بين اليمنية والقيسية الكنانية قبل الإسلام وبعده. يقول المسعودي (مروج الذهب: ٤ : ٦٩) إن دعبل الخزاعي شاعِر اليمن وصوتها الهادر في بلاط العباسيين، نقضَ قصيدة الكميت الأسدي بذكر مناقب اليمن. قال:

أُحيِّي الغرَّ من سروات قَوْمي لقد حُييتِ عنّا يا مدينا

فإن يكنْ آل إسرائيل منكم وكنتمْ بالأعاجمِ فاخرينا

فمن أين جاء اعتقاد الشاعر العباسي أن بني إسرائيل هم من أهل اليمن، إنْ لم يكن هذا الأمر صادراً عن معرفة مباشرة بالقبيلة القديمة وتاريخها وأنسابها؟

والكميت الأسدي نفسه في مفاخراته ردَّد أشعاراً تشير إلى الفكرة ذاتها: إن بني إسرائيل يندرجون في شجرة أنساب مُضَرْ بن نزار، وليس في الشجرة اليمنية. وسوف نرى تالياً أن اسم مُضَرْ هذا يتردَّد في التوراة،

وسيكون هذا مفاجئاً للقراء. لاشك أن إصرار النزاريين والقحطانيين عموماً على الفكرة القائلة: إن بني إسرائيل شعبٌ عربي - يمني قديم، ليست محضَ ادعاء؛ فهؤلاء كانوا يتوارثون تصوراً جغرافياً صحيحاً سجلته التوراة اليمنية، وعملت القراءة الاستشراقية على حجبه عنا، ومفاده أن القبائل العربية الأولى بما فيها الأسباط الإسرائيلية عاشت في هذا المكان وليس في فلسطين. إن شهادة الهمداني (٢٨٠ - ٣٣٤ للهجرة) الثمينة، ووصفه الميداني لمنازل القبائل والتي سجلها في كتابه الشهير (صفة جزيرة العرب) ستعرض على مُتَلقيها من القراء العرب، كما على القُرّاء في الغرب، صورة موازية ومتناظرة للأماكن والمواضع التي وردت في العهد القديم. وقد تصيب - هذه الشهادة - الكثيرين بالذهول والحيرة والارتباك وربما الصدمة وعدم التصديق. ينقل الهمداني تصور بطليموس لجغرافية جزيرة العرب القديمة (صفة: ٧٣) مُمَيّزاً بين فلسطين التاريخية وبلاد اليهودية القديمة، وراسماً حدوداً فاصلة بينهما:

وأما سائر أجزاء هذا الربع الذي يلي وسط جميع الأرض المسكونة، وما يقع في جزيرة العرب منها مثل: أيدوما وأرض سورية، وأرض فلسطين وبلاد اليهود العتيقة من إيلياء.

فلماذا ميّز الهمداني، بدعم من بطليموس، أرض فلسطين عن بلاد اليهود العتيقة من إيلياء؟ وأية إيلياء هذه التي عناها بطليموس؟ وما صلتها بحاضرة البحر اليهودية التي أشار إليها القرآن الكريم بوصفها قرية عربية؟ هذه الأسئلة وسواها كثير، ستكون هي الإطار العمومي في البحث عن الجغرافية الحقيقية للتوراة. إن إيلياء (إيله) كما سوف نبرهن هي في الامتداد الطبيعي لأرض نجران القديمة، التي تشمل إيلة الجبل والقرية (حاضرة البحر) التي اندثرت وكفت عن الوجود، حيث انتقل اسمها مع

هجرات القبائل إلى العقبة الأردنية. إن شهادة الهمداني التي نُعيد اكتشافها وتقديمها للقراء، تتطلب - احتراماً لصاحبها- تأملاً علمياً عميقاً، لا مجرد حماسات مفرطة في الرفض الاعتباطي أو القبول المجرد من الفهم الصحيح؛ ذلك أن ميدان العلم هو الميدان الأكثر حساسية ونفوراً من العواطف المجردة، والأكثر نفوراً إزاء الذين يجادلون في الله من غير علم. ها هنا شهادة الهمداني التي يساندها الشعر الجاهلي.

الفصل الثاني

منازل الأسباط
في وصف يشوع والهمداني

يصف سفر يشوع وصفاً مُفصَّلاً، الكيفية التي أصبحت بموجبها الأسباط السبعة الإسرائيلية، قادرة على امتلاك مواضع أو منازل قبلية وأماكن للرَّعي، صارت مع الوقت من أوطانها. تماماً كما هو الحال مع القبائل العربية العاربة التي أقامت في مواطن معلومة، وامتلكت أماكن خاصة بها للرعي يحرم الاقتراب منها طِبقاً لنظام الحمى القديم. يبدأ السفر بوصف منازل أول الأسباط السبعة ويدعى سبط بن يامن - حسب الرسم العبري، وبنيامين حسب الرسم العربي في الطبعة العربية من التوراة- ولنلاحظ هنا القرابة الحميمة بين اسم السبط الإسرائيلي والاسم التاريخي للجماعة اليمنية الأولى فهي من بني يامن-. هذا التوزيع ينتهي بسبط دان وهو عند الهمداني كما سنرى، قبيلة أذان اليمنية التي انقرضت. ومع هذا السبط، تَخْتتم التوراة تصوُّراتها عن أسباط فلسطين المزعومة التي تخيلها الغربيون (انظر الخريطة رقم ١- توزيع الأسباط).

١ : سبط بن يامن (بنيامين)

يقول النص العبري ١٨٢٠: ٥: ١٨:

(ويعل- جورل- مطه- بني- يمن -ل -مشفحتم - -ويصء - جبول -جورلم-بين- بني -يهوده- وبين - بني- يصف-ويهي--لهم- ها- جبول- ل- فءت- صفونه-من-ها-يردن- وعله-ها- جبول-ءل- كتف- يريحو- م-صفون-ويعله- ب-هر-يمه-وهيه- تصئتو - مدبر- بيت -ءون).

ما يقوله هذا النص هو التالي:

(تصعد مرتفعات سبط بن يامن إلى عشائرهم وسط بني يهوذه وبني يوسف مُقبلاً إلى الشمال من اليردن وصاعداًحتى تُقبِل إلى كتف. يريحو من الشمال، ثم تصعد في السرو مُغَرباً نحو برية بيت ءون)

لابد -هنا- من بعض الملاحظات التمهيدية: إن اسم السبط الإسرائيلي وحسب الرسم العبري هو: بن-يامن؛ والاسم كما هو واضح له صلة باسم مكان بعينه حملته الجماعة. إننا نعلم من التاريخ القديم لمختلف القبائل أنها تحمل أسماء الأماكن التي تقيم فيها؛ وبالطبع ليس ثمة مكان يحمل الاسم نفسه سوى جبل يامن. هذا الجبل الذي وصفه الهمداني كما وصفه الشعر الجاهلي، هو الموطن التاريخي للجماعة اليمنية الأولى ويقع في سَرو حِمْيَر قرب جبل صَبر. يقول الهمداني (صفة: ١٥٠) ما يلي:

ومن ناحية هذا الحَيز جبل صَبر ومن جُبْلان جبل يَامَن -بفتح الميم - وهو على شط رَمع الشمالي مع عتمة.

قال امرؤ القيس (الحِمْيَري: الديوان: ٩١)

فَشبهتُهُمْ في الآل لمّا تَكمَّشوا حدائق دَوْمٍ أو سفيناً مُقيّرا

أو المُكْرَعات من نخيل بن يامنٍ دُوين الصَّفا اللآئي يَلين المُشقَّرا

وقال (الشطر: ٧ من القصيدة):

حَمَتْهُ بنو الرَّبْداء من آل يامنٍ بأسيافهم حتى أقرَّ وأوْقَرا

وقال طرفة بن العبد (المعلقة: شرح الأنباري: الشطر: ٤):

عَدوْليةٌ أو من سَفينِ ابن يامن يَجُورُ بها الملاح طَوراً ويَهْتدي

يقع جبل يامن الذي تَنْتَسبُ إليه الجماعة التي ستُعرف بهذا الاسم، في السَّراة التي تتجه نحو تهامة والمنتهية في البحر الأحمر، وهي سراة عظيمة فيها الكثير من المواضع منها جبل صَبْر ومخلاف جُبْلان، حيث يشكل جبل يامن عزلة في هذا المخلاف. وسوف نرى تالياً اسم الآل في قصيدة امرؤ القيس بوصفه منزلاً من منازل الأسباط عند يشوع. لقد وصف الهمداني وصفاً مُسهباً هذه السراة (صفة جزيرة العرب: ١٥٠) وهنا بعض الملاحظات عن الأسماء الواردة في النص العبري الآنف:

أ : إن اسم ها- يردن يُتَرجم تقليدياً إلى الأردن. وقد اقترح د. كمال صليبي في كتابه (التوراة جاءت من جزيرة العرب) ترجمة أخرى هي: الشَّفا؛ بما أن الكلمة في العبرية تعطي هذا المعنى. بيد أننا ومع وجاهة هذا الاقتراح، سوف نُبقي على الاسم كما هو أي وادي يردن، وذلك لأسباب عدة منها أن الهمداني يعطي اسم واد قديم من أودية اليمن يحمل

الاسم نفسه، أقامت فيه قبيلة عربية دوَّن أنْسابها في كتابه (الإكليل) هي قبيلة (يرد). واليمنيون يضيفون -حتى اليوم -حرف النون إلى الأسماء، وهو ما يُعرف عندهم بالنون الكَلاعية نسبة إلى مخلاف الكَلاع، الذي يقول سكانه في صنعاء: صنعن، وفي عدن، عدنن. والاسم (يرد) هذا يُنطق عادة في صورة (يردن). وسوف نشرح ذلك بالتفصيل في هذا الكتاب. المثير للاهتمام أن التوراة نفسها تسجل الاسم ذاته في صورة يرد، بوصفه أباً أعلى لقبيلة من القبائل البائدة هو: يرد بن مَهْلَئيل - انظر شجرة الأنساب التوراتية في سفر التكوين-. ولذلك سوف نبقي على الاسم كما هو في العبرية، للدلالة على وادي يردن كما ضبطه الهمداني (انظر الفصل الخاص بمشكلة الأردن التوراتي) .

٢: سوف نستخدم كلمات مثل: مُقْبل، مُقْبِلاً، ما أقبلَ، كبديل للكلمة العبرية (ها-جبول) و (جبول) وهي تتلاءم -برأينا- مع التوصيف التوراتي ومع الثقافة البدوية. والمترجمون للنص التوراتي يستخدمون بإفراط ودون تحسُّب كلمة حدود كمكافئ للكلمة العبرية جبول. ونحن نعتقد أن القبائل البدوية والأسباط، لا تعرف مثل هذا الاصطلاح في ثقافتها القديمة، كما لا تعرف كلمة قُرعة التي يستخدمها المترجمون في بعض الأحيان للدلالة على المعنى نفسه؛ بينما تعرف الثقافة العربية القديمة معنىً يفيد الإقبال والتوجُّه نحو المكان، وهذا ما تؤدِّيه على أكمل وجه الكلمة العبرية (جبول) بمعنى: ما أقبلَ.

٣: إن إعادة ضبط الأسماء كما رُسِمْت في العبرية، سوف يوضح مقاصد النص ويزيل عنه الغموض الذي تُضفيه الترجمة؛ لذلك سنولي عناية خاصة بهذا الجانب آخذين بنظر الاعتبار أن المترجمين تلاعبوا في رسم الأسماء بصورة مأسويّة، وقاموا بمُماهاتها مع أسماء مشابهة أو قريبة الشبه في فلسطين.

٤: كما سوف نستخدم كلمة (يُصالي) اليمنية العتيقة والتي يفضل الهمداني استخدامها، للدلالة على تجاور أو اقتراب المواضع بعضها من بعض، وهي برأينا الكلمة المناسبة لترجمة كلمة (يصء) العبرية بديلاً من كلمة (ينفذ) وذلك انسجاماً مع الأجواء التاريخية، التي تتحدث عن المواضع القديمة وعن الجماعات المهاجرة الباحثة عن الاستقرار. إن عبارة مثل "وخرجت الحدود" أو "وخرجت القرعة" التي استخدمها مترجمو النص العبري، لا تبدو مُقنعة، لأن الجماعات البدوية لا تعرف مثل هذه التعابير، فيما هي استخدمت كلمة يُصالي، في معرض الإشارة إلى تجاور المواضع أو اقترابها بعضها من بعض. وأخيراً؛ فإننا نرى أن المقصود بكلمة ءل كتف في النص العبري ليس: إلى جانب، كما في الترجمة السائدة؛ بل: إلى كتاف تماماً كما في النص العبري الذي يشير إلى موضع بعينه يدعى كتاف. وسوف نتحدث مطولاً عن وادي كتاف هذا نظراً لوروده في التوراة بكثرة. (وفي الآونة الأخيرة وحين كنت أعدّ المخطوطة للطباعة وقعت أحداث عنيفة في هذه المنطقة بين السلطة اليمنية ومسلحين تابعين لرجل الدين حسين الحوثي، وتناقلت الفضائيات أخبار هذا الموضع باسمه القديم كتاف). أما كلمة - هر - العبرية التي تعني جبل فإن المقصود بها هنا السرو وهو سلسلة المرتفعات الجبلية، وذلك واضح من وصف يشوع للمكان حيث يصعد السائر ثم يهبط، في طريقه إلى مجموعة من المواضع. إن الفضاء الجغرافي الموصوف لا يشير إلى جبل واحد، بل إلى سلسلة جبلية. ولذلك نرى أن الكلمة المناسبة هي السرو أو السراة. هاكم أسماء المواضع كما وردت في نص يشوع الآنف، وفي نص الهمداني، وفي الشعر الجاهلي.

١- قَصيص

يُرسم اسم هذا الموضع في اللغة العبرية والعربية في الصورة ذاتها : قصص. ويبدو أن سارد النص التوراتي، وفي سياق تقاليد ثقافية قام بتَمْييز اسم الموضع عن أي اسم شبيه آخر، قد يماثله في الرسم فيظن المتلقي أنه المقصود؛ وذلك بإضافته إلى اسم مكان آخر هو وادي عمق. تعني كلمة عمق - عمق في العبرية: وادي، ولكنها هنا تشير إلى اسم مكان بعينه يُدعى عمق. أي إلى موضع قصيص القريب من عمق، كما تعني وادي قصيص إذا ما قمنا بقراءة الاسم طِبقاً للرسم العبري. إننا لا نعرف مثل هذه الأماكن في فلسطين، إلى الشمال من وادي الأردن حسب القراءة الاستشراقية؛ إذْ ليس ثمة وادٍ باسم وادي قصيص؛ بل يستحيل العثور هناك على مكان يدعى عمق.كما لا يوجد أي وادٍ الى الشمال من نهر الأردن على مقربة منه موضع يدعى قصيص.

قال امرؤ القيس (الديوان، معجم البكري: ٣٩٨)

تَصيَّفها حتى إذا لم يُسَغْ لها   حَلْي بأعلى حائلٍ وقَصيص

يصف امرؤ القيس- وهو هنا الحميري اليمني وليس أي امرئ قيس آخر- وادي قصيص في الفضاء الجغرافي لسلسلة من الوديان والمواضع، على امتداد ساحل البحر الأحمر حيث حلْي وحائل. وهذا الوصف ينسجم كل الانسجام مع تحديدات سفر يشوع للمكان، بما هو من الأودية وليس جبلاً أو بئر ماء. إن وجود وادي قصيص حسب وصف الشاعر في الطريق إلى حَلْي، يتناغم تماماً مع وصف سفر يشوع كذلك لوادي حَلْي (انظر حَلْي في سبط أشير: ١٩ : ١٢ : ٣٦). ولكن؛ ولأجل تحديد أدق لموضع قصيص الذي يصفه كل من يشوع وامرئ القيس، فسوف نتوقف قليلاً عند اسم وادي حَلْي التي تُعدُّ من أشهر الأماكن عند القبائل العربية في ساحل

البحر الأحمر؛ فهي تشكل مع ساحل عثر شريطاً ساحلياً واحداً على امتداد سراة اليمن حسب وصف الهمداني. إن حَلْي هذه، على مقربة من وادي تَيَّة الذي ورد ضمن قوائم المدن التي اجتاحها المصريون في عصر رمسيس الثالث، وسكان هذا الوادي من بني عامر في منطقة الحجر. من المهم أن نلاحظ مايلي: إن سفر يشوع يصف منازل سبط بن يامن - بنيامن في مقطع آخر، بأنها تنحدر من حجر بوهن ثم تمر بسيل كتاف، وذلك ما يدعونا إلى التساؤل، ترى ما هو سر هذا التماثل في وصف يشوع والهمداني للفضاء الجغرافي، الذي وجدت فيه منازل سبط بن يمن؟ فهما معاً يحدِّدان وادي حلْي عند منطقة الحجر. هاهنا وصف يشوع والهمداني:

يقول يشوع:

«وتنحدر إلى حجر بوهن بن راؤبن وتمّر إلى كتاف».

فهل نجد عند الهمداني اسم موضع يدعى كتاف على مقربة من الحجر وَحْلي؟

يقول مؤلف صفة جزيرة العرب (١٦٤- صفة: ٢٣٥) ما يلي:

«وكتاف يسيل الى العقيق. والعقيق يصبُّ في الغائط، ثم الغائط والحضن بنجران. (...) والذي يَلي تَيَّة من غوائر الحجر: مُرّة وادٍ يصبُّ إلى الكفيرة وَحْلي».

في هذا الوصف يسجل الهمداني اسم موضع الكفيرة في الفضاء الجغرافي ذاته، حيث سائر المواضع الأخرى في سفر يشوع: حَلْي وكتاف والحجر؛ وسنرى تالياً معنى اسم بوهن. إن رسم الفضاء الجغرافي

لهذه الأماكن سوف يساعد لا في تحديد موضع قصيص وحسب؛ بل وكذلك في مقاربة النصين وفهمهما كنص واحد يصف المكان نفسه. إننا على غرار الجماعة البدوية التائهة في الصحراء نبحث عن ضارج -في مروية ابن قتيبة- وقد نستدل إليها ببيت شعر من امرئ القيس، نتتبع بفضله مسار المواضع المجاورة، وها نحن نفعل الشيء ذاته، نبحث عن وادي قصيص في الشريط الساحلي نفسه الذي وصفه يشوع ثم عاد الهمداني إلى وصفه. في وصفه لسَرْو مَذْحج (صفة: ١٨٦-١٨٧) يحدد الهمداني بدقة موضع قصيص الوادي ويضبط اسمه في الصورة ذاتها قَصِص:

الحِجْلةَ، ومَهار، وذو زوم، وذو جيشان (........) قَصِص لرهاء ولبني زائدة من أوْد.

لنلاحظ -هنا- أن الهمداني على غرار مايفعل يشوع، يضع قَصِص قرب وادي حِجْلة؛ وهذا توافق مثير فالواديان في سرو مذحج وهو اليوم أنقاض وخرائب، ويعرف باسم المدينة الحديثة التي قامت في المكان ذاته، مدينة البيضاء. هذه الأودية تسيل حتى أعلى نجران حيث تلتقي بسلسلة من السيول منها سيل كتاف، الذي تختلط مياهه بمياه وادي قَصِص فوادي العقيق في نجد. أما على الساحل غير بعيد عن نجران فهناك حَلْي والكفيرة. وعند الأزرقي (أخبار مكة: ١: ١٩١) فإن حَلْي لا تبعد كثيراً عن بارق (انظر: بني بارق في هذا الفصل):

بارق من صدور قنونا، وَحْلي من ناحية اليمن وهي من مكةعلى ست ليالٍ.

وصف حَلْي القديمة هذا، يتوافق مع وصف امرئ القيس لها، ومع وصف الهمداني وتحديد يشوع على حد سواء؛ فهذا الوادي يتحد مع

وادي تَيَّة، ليتشكل ما يُعرف بوادي حَلْي الذي تَصبُّ مياهه في البحر الأحمر. وحتى اليوم لا تزال حَلْي في المكان نفسه الذي وصفته سائر هذه النصوص، وكانت فيما مضى، ميناء عامراً. إننا لا نعرف وادي قَصِص في فلسطين، كما لا نعرف وادي الكفيرة ووادي حجلة وسيل كتاف هناك مهما فتشنا في الخرائط القديمة. قال أعرابي قاطعاً سَرْو مَذْحج مستذْكراً سِدْرَ حَلْي:

فـو الله مـا أحـبـبْـتُ سِـدْراً ببـلـدةٍ   من الأرض حتى سِدْرَ حَلْي اليمانيا

٢- عمق

قلنا: إن المقصود بكلمة عمق العبرية (الوادي) كما يُقْصَد بها اسم المكان أي وادي عمق. وفي هذه الحالة؛ فإنَّ معاملة الاسم على أنه اسم مُركب ستكون جائزة.لقد عرف الشعر العربي وادي عمق هذا، كما أن الهمداني وصفه بدقة. قال صخْر الغَيّ (ياقوت: ٥: ٥٥٢):

هُمْ جَلَبوا الخَيْلَ من ألوْمة أو   من بطـن عُـمْـقٍ كـأنـهـا الـنَّـجـدُ

وقال:

فـلـمـا رأى الـعُـمْـقَ قُـدّامَـهُ   ولـمَّـا رأى عَـمْـراً والـمُـنْـيـفـا

إن أشعار صَخْر الغَيِّ النادرة والثمينة، والتي قلما لفتت أنظار النقاد إلى ما تخْتَزنهُ من طاقة شعرية، تستحق التأمل على صعيد وصف المواضع. على الأقل تعرض مثل هذه القصائد صورة دقيقة عن وادي عمق الذي نَسَبَه يشوع إلى قَصِص. يقول الهمداني في وصفه لسَروْ حِمْيَر وفي وصفه كذلك لجبل صَبْر المجاور لجبل يامن والذي سماه صَخْر الغَيّ (المُنيف) وصولاً إلى نجران، حيث سلسلة الأودية المتشابكة (انظر صفة: ١٧٢-١٧٣) ما يلي:

من الأودية: الضَّباب ووادي حَضَر الذي فيه محجة عدن إلى صنعاء، ووادي شَرْعَة والحنْكة، والجَعْدية ووادي عُمق.

إنه لأمر مثير بالفعل أن يكون وادي عُمْق من منازل سبط بن يامن؛ وأن يكون هذا الوادي وبالاسم نفسه على مقربة من جبل يامن، وفي الفضاء الجغرافي ذاته لسائر المواضع المذكورة في سفر يشوع، حيث حَلْي والكفيرة وحجلة وسيل كتاف وقَصِص. من الواضح، في ضوء هذه التحديدات، أننا بدأنا من موضع قريب كل القرب إلى نجران؛ وهذا الأمر له دلالة خاصة كما سنرى تالياً نظراً للأهمية التي يحتلها الموضع في تفسيرنا لقصص التوراة ومَرْوياتها؛ إذْ تُعرف نجران في التوراة باسمها العتيق والتاريخي: ربة عمون، وعند العرب القدماء عرفت نجران باسم الرَّبَّة وهي ربة نجران في الجاهلية، أو كعبة نجران[١]. إن إعادة تركيب الصورة التاريخية لهذا الموضع، والأدوار التي لعبها، لا في نشوء اليهودية العربية الأولى، وإنما المسيحية الأولى كذلك، من شأنه أن يساهم في فك ألْغاز حقبة من التنافس والاضطراب القبائلي بين الكعبة في الحجاز وكعبة نجران أو الرَّبة. كما أنَّ من شأنه أن يساهم في فهم أحداث تاريخ ما قبل الإسلام بصورة أفضل. وسوف نرى تالياً، كيف أن ربة عمون هذه لعبت دوراً محورياً في حروب داوود- انظر الفصل الخاص بحروب داوود عندنا-. والآن لما كان موضع عُمق قَصِص في المرتفعات الواقعة بين سَرْو حِمْيَر ومَذْحج، وعلى مقربة من جبل يامن حسب وصف الهمداني، فإن مقاصد سفر يشوع في هذه الحالة تغدو واضحة، ويمكن

---

(١) وفي كعبة نجران هذه تغنى الأعشى (شعراء مذحج، وأخبارهم وأشعارهم في الجاهلية، مُقبل التّام عامر الأحمدي، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء ٢٠٠٤):

وكعبةُ نجرانَ حتْمٌ عليك ... حتى تُناخي بأبوابها
نزورُ يزيدَ وعبدَ المسيح ... وقيساً هُمُ خيرُ أربابها

تلخيصها على النحو البسيط التالي: لقد أقام سبط بن يامن - نسبة إلى جبل يامن- في منازل تمتد بامتداد هذه الوديان حتى وادي حَلْي.

٣- رَقْم

حسب الرسم العبري للاسم (ر. ق. م) فإن الضبط العربي الصحيح له هو: رَقْم وليس راقم كما في الطبعة العربية من التوراة. إننا لا نعرف موضعاً بهذا الاسم في فلسطين التاريخية قرب عُمق وقَصِص وسيل كتاف والكفيرة. ومع ذلك عملت القراءة الاستشراقية على تلفيق هذا الموضع عبر ضَمه إلى فلسطين خيالية من اختراعها. بيد أن هذه القراءة التي لم تتقيد أصلاً بقواعد العمل العلمي، وجدت نفسها أمام معضلة غير قابلة للحل؛ إذْ ليس ثمة بديل لغوي يمكن استخدامه لتبرير الأجواء التلفيقية، وما من حل آخر سوى إثارة الشك حول دقة رسم الاسم. في هذا الإطار؛ فإن الشعر العربي القديم كان قد ترك لنا منذ العصر الجاهلي، وصفاًرائعاً لمنازل قبائلية بين جُرَش اليمنية ونجران هي منازل قبيلة تميم.

قال ذو الرمة (غيلان بن عقبة ت: ١٧١هـ في أصفهان: معجم: ٩٢٣):

على ظَهرِ جَرْعَاءِ العَجوزِ كأنها سنيـة رَقْمٍ فـي سَرَاة قِـرامِ

وقال أبو صخر الهذليّ:

لِمَنِ الديارُ تَلوحُ كالوشمِ بالجابَتيْن فَرَوْضَةِ الحَزْمِ

فَبرمْلتي قَرْدى بذي عُشرِ فالبيض فالبردان فالرَّقْمِ

إن سائر المواضع التي تأتي قصيدة الهذلي على ذكرها، هي منازل قبلية معروفة ذكرها الشعر العربي كما ذكرتها التوراة، ومنها وادي بيض- بيص في التوراة، ووادي عثر فضلاً عن رَقْم. وسوف نرى ذلك حين نُحلِّل

الأسماء الأخرى في قوائم منازل الأسباط، وبعضها بين بلاد تميم ووادي الصِّمان. ولكن إذا ما عدنا إلى نصِّ يشوع من أجل فحص تحديدات السفر التوراتي، فسوف نجد موضع رَقْم هذا قرب الكفيرة والموض-الموصه. وهنا النص (يشوع: ١٨ :١٥ :١٩: ١١):

بيت العربة، وصمارئيم وبيت ءيل والعويم والقارة، وكفر العمون والعفن وجبع. اثنتي عشرة منزلاً بقُراها، وجبعون والرامة وبئْرة والمصفاه والكفيرة والموصه ورَقْم.

استناداً إلى هذا التسلسل؛ فإن رَقْم تقع على الطريق إلى الكفيرة بالنسبة إلى السائر باتجاه النجد من السَّرَاه، أي باتجاه جُرَش حيث وادي الحبل (انظر وادي الحبل عندنا في فصل حروب داوود). يقول الهمداني (صفة: ٢٣٤ -٢٣٥) واصفاً الكفيرة:

فأول بلاد الحجر من يمانيها وادي عبل وادٍ فيه الحبْل ساكنُه مالك بن شهر (.......) والذي يلي تَيّة من غوائر الحجر، مُرَّة وادٍ يصبُّ إلى الكفيرة وحَلْي.

أما رَقْم؛ فإن الهمداني يضعها ضمن ديار تميم قرب جُرَشْ. يقول عنها (صفة: ٢٩٣):

وبار اليوم لبني سعد من تميم وهي رمال، وسنام والرَّقْم لتميم (.....) ولُبْنى جبل (....) ورمان وحقيل بين طيئ وغنيّ.

هذه هي رقم على مقربة كذلك من لُبنى التي تسميها التوراة لبْنه - في سفر يشوع كما سنرى-.

٤- حجلة ومسألة حجر بوهن

يصف الهمداني وادي حجلة -حجلة بأنه من الأودية السبعة الكبار، التي تسيل مياهها من سَرْو مَذْحج وهو ما يُعرف اليوم بمدينة البيضاء؛ وهذا يعني أننا حيال مكان محدد في الفضاء الجغرافي ذاته. يقول (صفة: ١٨٦-١٨٧):

سبعة أودية كبار، منها الماذنة والعولة والحِجلة ومَهَار وذو زُوم وذو جيشان (......) وذو الذُيب وادٍ كبير ليافع وبني مُسَيلة (.....) قَصِص لرُهاء ولبني زائدة.

إذا ما تتبَّعنا وصف الهمداني هذا، لمزايا وصفات سَرْو مَذْحج والمواضع والأودية والمنازل فيه، فسوف نجده يقول بعد صفحة واحدة فقط (صفة: ١٨٩) ما يلي:

ونُعيدُ الصفة في أحور: أولها الجَثْوَة (......) المُحَدث قريب من البحر لبني عامر من ساحل عِرقة لبني عامر ثم انتهيت إلى حجر وهب.

هذه هي حجلة الوادي الكبير، حيث أقام سبط بن يامن (الحميريون الأوائل) وبطونهم قرب أودية قَصِص والكفيرة وعمق. إن الجملة التوراتية القائلة: إن السائر في طريق وادي كتاف يصل إلى حجر بوهن، تبدو غير مفهومة، وليس ثمة في طول فلسطين القديمة وعرضها مكان يحمل مثل هذا الاسم. يقول النص العبري (٢٠ : ٥ : ١٨) مايلي: ويرد-ءبن-بوهن-بن-رءوبين. وقد تُرجمت الجملة إلى: وتنحدر إلى حجر بن بوهن بن رءوبين. إن المصدر الحقيقي في الغموض الذي يكتنف هذه الجملة البسيطة يكمن في جهل المترجمين بجغرافية التوراة؛ فنص يشوع

لا يتحدث عن ابن شخص يدعى بوهن، كما يُفهم من الجملة، بل عن وادي ءوبن الذي تمر سيوله في منطقة الحجر، حيث تُعرف مياهه في هذا المكان باسم (بوه). واليمنيون القدماء يلحقون النون بسائر الأسماء، وهي طريقة نطق لا تزال مستمرة حتى اليوم، بما يعرف بالنون الكلاعية نسبة إلى مخلاف الكلاع. بهذا المعنى فإن المقصود بالجملة التوراتية هو التالي: وتصل حجر ءوبن وهي مياه بوه.إن الهمداني يقدم وصفاً متكاملاً عن هذا المكان ويقول أن مياهه مياه عدّ، أي غزيرة، وهذه المياه على مقربة تماماً من وادي هنوم- هنوم عند يشوع وقرب وادي يرد - يردن. وإليكم ما يقوله الهمداني (صفة: ١٣٤)

فبلد بني حارثة وبني رفاعة وحماد ويرد (.....) والفرع الثاني رأسه شعبة الهلة وعد بوه (......) فبلد عذر وهنوم. هذه هي مياه بوه- عدّ بوه الغزيرة قرب مجموعة من الوديان؛ التي تسجل التوراة أسماءها، وهي وادي يرد، وادي هنوم، وأخيراً عذر - عدر في التوراة من منازل يهوذه. إن هذا وحده ما يفسر المعنى الحقيقي لقول يشوع: إن منازل سبط بنيامن تمر وسط أرض يهوذه. أما كلمة ءوبن التي توهم المترجمون أنها كلمة (ابن) العربية فهي في الواقع اسم الوادي. إليكم هنا وصف الهمداني لوادي ءوبن (صفة: ١٦٢):

وجبال نَهْم مما يُصالي مَهْنون من بلد خولان. ويأتي قابل نهم الشمالي بأودية لطاف مثل: أوبن وغيره، ثم يشرع على الفُرط (......) والذي بين الجوف ونجران من الأعراض الكبار (......) العقيق ثم قضيب ثم حلف.

وسوف نرى تالياً اسم حلف هذا في منازل سبط يهوذه. إن وصف الهمداني الآنف يمكن أن يكتب بلغتنا المعاصرة على هذا النحو:

وجبال نهم تجاور جبال بلد خولان، حيث تأتي المياه الغزيرة مثل مياه أوبن التي تسيل نحو مجموعة من الجبال الصغيرة (الفُرط). أما ما يقع بين منطقة الجوف اليمني ومدينة نجران فهو يُعد من الأودية الكبار مثل العقيق وحلف.

يوضح هذا النموذج نمط المشكلات التي تثيرها القراءة الاستشراقية؛ فهي تُلفق جغرافية غريبة للتوراة، وتضيف سلسلة من المواضع لا وجود لها على وجه الأرض، وهي بالطبع لا وجود حقيقياً لها في فلسطين، فليس ثمة مكان يدعى ابن بوهن قرب هنوم؛ بل هناك مياه غزيرة -عد - وسنرى تالياً كيف أن التوراة تستخدم هذه الكلمة اليمنية العربية الكلاسيكية، في وصف المياه الغزيرة (انظر عندنا موضع عر- عد، وموضع عد لام). وهذه المياه الغزيرة التي يحملها وادي أوبن إلى المنطقة سُميت بمياه: بوه - بوهن حسب تقاليد النطق الكلاعي مثل: صنعا: صنعن. كما يوضح النموذج كذلك، كيف أن القداسة الزائفة التي أضْفاها المخيال على مواضع لا وجود لها، ولم يُعثر لها على أثر، إنما هي في النهاية نتاج تصوُّرات تقوم على أساس واحد هو، الاختلاق.

قال ابن الدُّمينة واصفاً وادي حجلة:

وما نُطْفَةٌ صَهْباء صافية القذى بحجلاء يجري تحت نيقٍ حَبابُها

وقال يحيى بن طالب (معجم: ٤٢٨):

فأشربُ من ماء الحجيلاء شرْبَة يُداوى بها قبل المماتِ عليلُ

وقال الأفوه الأودي (صلاءة بن عمرو الحارثي من حكماء العرب):

وقد مرَّت كما الحرب منا على ماء الدفيْنةِ والحجيلِ

٥- صَيْلَع

قال امرؤ القيس واصفاً جبل صَيْلَع - صيلع :

أتاني وأصحابي على رأس صَيْلعٍ حديثٌ أطارَ النوم عني فأقْعمَا

فقلت لنَجْلي بعدما أتى به : تبيَّن وَبيِّن لي الحديثَ المُجْمَجما

فقال : أبيتَ اللَّعنَ عمرو وكاهلٍ أباحوا حمى حجرٍ فأصبح مُسْلمَا

تُنسبُ هذه القصيدة عند نقاد الشعر القدامى عادة، إلى امرئ القيس الأميرالكندي ابن ملك كندة حجر بن آكل المُرار؛ الذي أغارت عليه قبيلة أسد وقتلته، وهي ترتبط بواقعة وجود الشاعر في مكان معلوم عند العرب يُدعى صَيْلع. والقصيدة تصوُّر اللحظة التي جاء فيها نبأ مقتل ملك كندة (وهذه الرواية الشائعة غير دقيقة، ولكن المهم بالنسبة إلينا هو اسم المكان). ولأن الاسم كما تسجله نصوص التوراة والإخباريات العربية على حدٍّ سواء هو الاسم نفسه الوارد في التوراة دون أدنى تغيير : صَيْلع؛ فإن لمن المناسب أن نتساءل : إذا كانت القراءة الاستشراقية قد اخْتلقَتْ فلسطين مِخْياليّة لا وجود لها في التوراة، لمجرد وجود توافق بين أسماء بعض المواضع، فلماذا صمتت عن تحديد جبل صَيْلع هذا؟ وهل بوسعنا العثور عليه في فلسطين إذا ما قمنا بتفتيشها طولاً وعرضاً؟ يقع جبل صَيْلع في مخلاف خولان اليمني وهو موضع كثير الوحش والظِّباء (معجم البكري : ٨٤٨) والقبائل العربية تعرف هذا الجبل معرفة عميقة. تروي المصادر التاريخية الرواية التالية :

لما خرج وفد هَمَدان يريد لقاء النبي ﷺ ساروا حتى نزلوا حرَّة الرجلاء فلقوا النبي في طريق عودته من غزوة تبوك، وكان الوفد يرتدي مقطعات حَبِرات وعمائم عَدَنية على خيول مَهْرية -من بلدة مهرة- وأرحبية

- من بلدة أرحب- فقام مالك بن نميط وقال: يا رسول الله: نصيَّة من هَمَدان، من كل حاضرٍ وبادٍ (حضري وبدوي) أتوك على قُلُص (نياق) نواجٍ من مخلاف خارف ويام وشاكر، عهدُهم لا يُنقَض ما أقام لَعْلع وما جرى اليعفورُ بِصَيْلع.

وسوف نأتي مطولاً على صلة اسم يام -يم وشاكر- يساكر في مخلاف هَمَدان هذا، المتاخم لصعدة وجُرَش حيث جبل صَيْلع، كما سنتحدث عن مخلاف خارف حيث شارك سكانه في بناء أسوار أورشليم وهم في التوراة خارف.

٦- بيت بوس

قال عبد الله بن سُلَيْمَة (معجم: ٣٢٨) واصفاً بيت بوس اليمنية (انظر الاسم في سفر يشوع):

لِمَنِ الدِّيارُ بتُولعٍ فيبوسِ فبياضُ رَيْطَة غير ذات أنيسِ

ديار بوس هذه لا تقع في فلسطين أو سورية كما تريد القراءة الاستشراقية؛ بل قرب تُولع في اليمن على الطريق إلى صنعاء. يقول الهمداني (صفة: ٣١٣) و(صفة: ١٥٦) في سياق وصف أودية منطقة الجوف اليمني ما يلي:

وما أ قبلَ من عدٌ ورد وهو وادٍ يَصبُّ مع سامك ودبرة وخدار، إلى الحقلين والسهلين ونواحي بُقلان وأعشار، وما أقبلَ من أشراف نقيل السود فبيت بوس .

لنلاحظ أن الهمداني يستخدم الاسم في صيغته التوراتية: بيت يبوس- بوس؛ تماماً كما في سفر يشوع، جاعلاً منه موضعاً بعينه قرب سلسلة من المواضع، التي أقام فيها الأسباط مثل وادي دبرة وعدٌ وَرَد (وسنعود تالياً

لكلمة عدّ هذه كما سنعود إلى دبرة وهي من منازل الأسباط أيضاً). وهذا كما نلاحظ وصفٌ مثيرٌ لجهة تطابقه التام مع وصف يشوع الذي سوف يسجل اسم وادي دبرة - دبرة في قائمته. يضيف الهمداني إلى مزايا بيت بوس الجبلية ما يلي:

وخَبّرني عمر الشهابي عن أحمد بن يوسف الحِذافي أنه نظر إلى ماء جامد بناحية بيت بوس في أول حزيران وهو أصفى قليلاً.

ينسجم هذا الوصف كلَّ الانسجام مع الوصف التوراتي لوجود بيت بوس جبلية عند وادي هنوم، وهو سلسلة جبلية مؤلفة من ثلاثة جبال. حتى أن الماء يمكن أن يتجمد فيها في أشدِّ فصول السنة حرارة؛ وبالطبع لا توجد بيت بوس فلسطينية أو سورية عند وادي هَنُوم، كما أنها ليست قرب تَوْلع وَريْطه حسب وصف الشاعر لها، فضلاً عن أنها لا توجد إلّا قرب وادي دبرة وهذا الوادي لا وجود له في فلسطين. لقد ارتكب ياقوت الحموي سلسلة من الأخطاء في تعريف بيت بوس هذه (٥: ٤٩١) من دون أن يتنبه إلى مقاصد الشعر العربي الوصفية؛ وتبيان هذه الأخطاء قد يكون مفيداً في إطار نقد اسْتخدام المصادر القديمة بالنسبة إلى القراء والباحثين على حدٍّ سواء، كما أن هذا الأمر قد يساعد في معرفة الكيفية التي جرى فيها الخلط بين أسماء المواضع في المعاجم الجغرافية:

أ: ضبط ياقوت اسم الشاعر بطريقة خاطئة: عبد الله بن سُليْم والصحيح أنه ابن سُلَيْمة.

٢: وضع تَوْلع عملياً، في بلاد الشام، وذلك حين وضع بيت بوس هناك؛ بينما نعرف أن تولع من جبال أزدْ شَنْوءة في اليمن.

٣: قرأ ياقوت بصورة مغلوطة كلية، بيت الشعر الآنف ونسبه الى وصف بلاد الشام، وهذا أمر يصعب قبوله من جغرافي مسلم

حصيف؛ إذْ كيف يمكن لقارئ الشعر القبول بوجود هذه الأماكن وهي لم توجد، قطُّ هناك؟

٤: لم ينتبه ياقوت إلى الجانب التاريخي في مسألة تحديد الموضع، ونظر إليه من منظور الجغرافي عديم البصيرة، المتسرع والمشغول بإعداد معجمه؛ فالقبائل اليمنية المهاجرة إلى بلاد الشام حملت معها أسماء أوطانها القديمة لتضعها في أماكن جديدة؛ ولذا ظهرت بيت يابوس الشامية كاستطراد في استذْكار الأوطان القديمة في اليمن.

٥: إن الموضع الموصوف شعراً هو موضع جبلي؛ ولا توجد بيت بوس جبلية في الشام، ولكن توجد قرية صغيرة في تجويف مُحاط بجبل صغير للغاية في ضواحي دمشق وتُدعى: يابوس. إن هذه الأخطاء وسواها، تكشف عن نمط الاختلاط والتداخل في تعريف المواضع عند الجغرافيين المسلمين، الذين كانوا يجهلون في الواقع الكثير من المواضع القديمة.

٧- أريحا اليمن

سوف نخصصُ في الفصول التالية حيزاً مهماً لمسألة أريحا، نظراً لوجود اسم المكان في نصوص متفرقة من التوراة ارتباطاً بأحداث ووقائع مثيرة. ومع هذا سنتوقف قليلاً -هنا- وبعجالة عند الاسم كما ورد في قائمة منازل بني بن يامن - بنيامن. إن النسخة المترجمة تعطي رسماً عربياً للاسم في العبرية يريحو، بينما تعرف المصادر العربية القديمة حياً من أحياء اليمن باسم أريح - بقلب الياء همزة -. قال صخر الغيّ:

فَلَيْتُ عنه سيوف أرْيَحٍ حتى باء بكفي ولم أكدْ أجدِ

وأريح في هذا البيت بطن من البطون اليمنية (حيٌّ من الأحياء) نُسبتْ في شجرات الأنساب اليمنية إلى: أريحاء بن لَمَكْ بن أرفخشذْ بن سام بن نوح (معجم: ١٤٣). وهذا أمر مُحير ومثير بالفعل، إذْ لا وجود لمثل هذا النسب في التوراة؟ فيما تشير كثرة من أنساب اليمنيين كما سجلها الهمداني في الإكليل، إلى وجود شجرات أنساب مشتركة يلعب فيها الآباء الأوائل الدور ذاته؛ فهناك عابر اليمني- التوراتي، وهناك لمك ومهْلءيلْ - مهلئيل وسواهما؛ فمن أين أخذ البكري هذا النسب الأسطوري؟

يقول البكري أن الروَيْحاء موضع يمني ورد في الشعر القديم:

فكديدٌ فالحي أقْفَرَ منها فالعُرَيْناتُ فالهضابُ العظامُ

فالروَيْحَاء فالرويثة فالعُرْ جُ فأبواء مَنْعج فشبامُ

حسب منطوق هذا البيت فإن أريحُه (وفي التصغير: الرويحه) اليمنية كانت قديماً على مقربة من شبام وفي الفضاء الجغرافي الذي يضم سلسلة من المواضع الواردة في التوراة: بيت بوس، بيت رفح، بيت نعامة -بيت نعمة وبلد صيد - صيدا؛ كما أن شبام نفسها ترد في نص يشوع في الصورة ذاتها: شبمه. وسوف نعود وبالتفصيل لمسألة يريحو هذه في الفصل الخاص بها (حول الهجوم على العي وما يُدعى بفتح أريحا عند يشوع).

٨- بيت العَرْبة

الضبط العربي للاسم في العبرية: بيت- ها- عربه هو بيت العرب، والبيت كما قلنا يُراد به المنزل القبلي، تماماً كما في التقاليد الاجتماعية العربية البدوية المستمرة حتى اليوم، حيث يُقصد بـ (بيت) جماعة تَنْتَسِبُ

إلى بطن قبلي. ولأن الاسم ها- عربه يُسجل في صورة شديدة التواتر والتكرار في نصوص التوراة؛ فإن لمن المهم التمييز بين كل هذه الصيغ التي يظهر فيها الاسم، إذْ إن بعض الصيغ يُقصدُ بها بلاد العرب أو البادية، فيما يُقصدُ بأخرى موضعاً محدداً هو وادي العرب في اليمن. والفرق كبير للغاية بين الصيغتين. ونظراً لارتباط اسم هذا الوادي بحروب داوود فسوف نعود إليه في الفصل الخاص بهذه الحروب.

قال الهذلي (ياقوت: ٤ : ١٠٤):

وتذكرتُ ميتاً بالعرابة ثاوياً فما كادَ ليلي بعدما طالَ يَنْفَدُ

والآن: إذا ما قمنا بوضع بيت -ها- عربه ضمن تسلسل المنازل التي أقام فيها سبط بن يامن؛ فإن هذا الموضع سيكون هو وادي العرب. ومن غير شك؛ فإن ضبط الاسم ضبطاً عربياً صحيحاً بالتقيد الصارم بالحروف العبرية، التي رُسم بها كما هو الحال مع سائر المواضع، سيكون عاملاً حاسماً في فهم مقاصد النص التوراتي. ثمة صورة أخرى موازية تَبْزُغ من خلال هذا الاسم؛ إذْ يُقصَد ب ها-عربه بلاد العرب بعامة أي الجزيرة العربية كما يُقصَدُ بها البادية أو البرية، وذلك في نصوص سفر التكوين. ولذا؛ فإن معالجة هذه الصيغ تتطلب فهماً صحيحاً لمقاصد النص التوراتي، واحتراساً مُتَطلّباً من أي تعميم لمعنى الكلمة العبرية. لقد عرف القدماء من العرب ها-عربه بمعنى بلاد العرب، وردَّدوا في أشعارهم الكلمة ذاتها في رسمها العبري، ويُنْسَب لأبي طالب عم النبي ﷺ قوله (ياقوت: ٤ : ١٠٩):

وعَرْبة دارٌ لنا لا يُحلّ حرامها من الناس إلا اللّوْذَعيُّ الحلاحلُ

على منوال هذا البيت الركيك من الشعر، والذي يقع في منطقة الانتحال والوضع كما تجلى في التقاليد المُتأخرة مع الإسلام العباسي؛ قال ابن مُنقذ الثوريّ (المُحدّث والإمام، ت: في البصرة ١٦١هـ):

لنا إبلٌ لم يَطْمَثِ الذُّل فيها   بعربة مأواها بقَرنٍ فأبْطَحا

فلو أنَّ قومي طاوعتني سُراتهم   أمْرتُهم الأمرَ الذي كان أرْيَحا

هذه الاقتباسات الشعرية التي تدعمُ نَمطاً من الافتخار والاعتزاز بالوطن التاريخي للعرب؛ حيث لا ذُلّ ولا هوان في الأرض الحرام، تَتمثَّلُ صورة من صور الأرض المترامية الأطراف، العظيمة والاستثنائية وليس مجرد موضع أو مكان؛ ولذا فإنَّ ها-عربة بالتاء المربوطة، إنما يُقْصَدُ بها بلاد العرب بعامة، فيما يُقْصَدُ بـ: ها-عربه (بالهاء الأخيرة المُهمَلة) في العبرية: العرب؛ أي مكاناً بعينه يُدعى العرب (وانظر وادي قرن الوارد في هذه القصيدة وفي المراثي التوراتية خصوصاً مرثية حزقيال لمدينة صور). وليس ثمة مكان بمثل هذا الاسم سوى وادي العرب اليمني على مقربة من بيت بوس. وبالطبع لا يُعقل أن الوطن القبلي الصغير الذي أقام فيه سبط بن يامن، والذي يُدعى: ها-عربه هو نفسه بلاد العرب المترامية الأطراف؟ فهل عرف العرب القدماء على غرار يشوع مكاناً آخر يحمل الاسم نفسه؟ يصف الهمداني (صفة: ١٣٣) وادي العرب الذي تتجمع مياهه المارَّة ببيت بوس ورفح إلى الجنوب من صنعاء على النحو التالي:

ثم يتلوه وادي سهام ورأسه نقيل السود من صنعاء على بعض يوم، إلى ما بين جنوبها ومغربها. ويهريق في جانبه الأيمن جنوبي حَضُور (..........) ويظهر بالكدراء وواقر فيسقي ذلك الصقع، إلى البحر فيهريق وادي العرب ما بين كدراء وزُبَيْد[1].

---

(١) زَبيد (وزُبيْد) بضمٍّ أوله وفتح ثانيه، اسم قبائل كما هو اسم موضع، ذكره ياقوت الحموي وصاحب معجم مااستعجم كما ذكره صاحب تقويم البلدان(٨٨) اسم وادٍ فيه مدينة يقال لها الحصيب.

إن وصف الهمداني لوادي العرب غير بعيد عن نقيل السود، حيث بيت بوس كما رأينا، قابلٌ للمطابقة مع وصف يشوع للمكان ذاته. وهنا وصف يشوع:

وتمر إلى كتاف مقابل العربه إلى الشمال، وتنحدر إلى العربه ثم تمر بجانب بيت حجلة شمالاً. كتاف هذا هو عند الهمداني سَيْل كتاف الذي يمرُّ في زُبَيْد، مقابل وادي العرب تماماً كما في نص يشوع وهنا استكمال لوصف الهمداني (صفة: ١٦٤):

ولقيها بالفقارة سيل كتاف يَصبُّ بأسفل الحربا (........) وغيره من بلاد وادعة ويام وزُبَيْد.

هذا التوافق المثير بين وصف يشوع لكتاف، الوادي الذي تنحدر مياهه باتجاه ها- عربه، وبين وصف الهمداني لسيل كتاف المُتجه نحو زُبَيْد حيث يَصبُّ وادي العرب، يؤكد ويدعم تصوُّراتنا عن أنَّ المقصود بالفعل من الكلمة العبرية ها-عربه؛ إنما هو وادي العرب وليس وادي عربه الأردني. إننا لا نعرف موضعاً أو مكاناً في فلسطين التاريخية يُدعى العربه أو العرب، تمرُ مياه وادي كتاف في الجهة المقابلة له من الشمال ثم ينحدر نحوه باتجاه وادي بيت حجلة؟ فيما يعطينا الهمداني الأسماء ذاتها والوصف ذاته في الفضاء الجغرافي لصنعاء وزُبَيْد.وإذا ما قمنا بمطابقة وصف يشوع مع وصف وادي العربة الأردني، فإن هذه المطابقة ستبدو مستحيلة وغير ممكنة، إذْ لا وجود لمياه كتاف ولا وجود لوادي حجلة هناك.

٩- وادي هَنُوم

لا وجود في فلسطين التاريخية على وجه الإطلاق لموضع أو مكان يُدعى وادي هَنُوم؛ بل إن القراءة الاستشراقية أهملت إهمالاً تاماً تحديد

هذا الموضع أو الإشارة إليه، مع أن نصوص التوراة تسجل الاسم في منازل الأسباط مرات عدَّة؟ فهل يُخفي هذا التجاهل حقيقة من حقائق الحجب والتمويه؟ إذا كانت التوراة تصفُ أرض فلسطين؛ فلماذا لا نعثر على وادي هَنْوم كما وصفه يشوع على مقربة من وادي العرب وحجلة وبيت بوس وكتاف ودبرة في خرائطها القديمة والحديثة؟ لقد قلنا إننا لن نقدم أية أسماء بديلة أو مقترحة أو مُتَلاعباً بتراكيبها أو أسماء مُصَحّفة؛ بل الأسماء ذاتها كما تَضمّنتها شهادة الهمداني التي نُعيد اليوم اكتشافها، وعرضها على أهل الاختصاص وجمهور المهتمين، مدعومة ومؤيدة بالشعر العربي القديم. ولذا سنعطي -هنا- اسم وادي هَنْوم حسب الضبط العبري والعربي. يُرسم الاسم في اللغة العبرية في جملة (ويرد-هنوم / ويبلغ هنوم) وتمت مكافأتها في النسخة السائدة من التوراة بالجملة التالية: وتنحدر إلى هنوم. لكننا نرى أن المعنى الحقيقي لكلمة يرد ومنها اليردن هو الوصول إلى المكان، أي بلوغه وليس الانحدار إليه كما نقول مثلاً: وردت الإبل الماء بمعنى بَلَغَتهُ. إن هذه الدلالة تتصل اتصالاً عضوياً بوظيفة المكان، فمياه الوادي تبلغ مكاناًبعينه يُدعى هنوم. وها هنا شهادة الهمداني (صفة: ١٢٨، ١٣٤، ٢٢٣، ٢٣٨، ٢٣٩، ٣٠٣، ٣١٠، ٣١١، ٣٢١) والتي يصف فيها وادي هَنْوم وصفاً مُسْهباً وضافياً لا مجال فيه للتشكيك بصحة رسم الاسم:

> **وادي مَوْر هو ميزاب تهامة الأعظم، ثم يتلوه في العِظم وبُعد المآتي: زُبَيْد ومساقي مَوْر تأخذُ غربي همدان جميعاً. ويَمدُّ ذلك مساقط الشِّرف شرقاًوجنوبا فهذا أحد فرعيه. والفرع الثاني رأسه شعبة الهلة وعدبوه، فالموقر، والدحض وغربي أبذر. موطك فبلد عذر وهَنْوم.**

لنلاحظ في هذا المُقْتَطف أن الهمداني يرسم فضاء جغرافياً دقيقاً

ومتكاملاً، تتشابك فيه صور مسايل مياه الوديان حتى تبلغ وادي هَنْوم. وهو في الواقع جزء من سلسلة جبلية (سَرْو) تحمل الاسم نفسه، وتتألف من جبلين كبيرين وجبل صغير آخر يُعرف باسم قديم هو: ابن هَنْوم. وفي قلب هذه الصور نرى مياه بوه القريبة من منطقة الحجر (بوهن حسب نطق أهل مخلاف الكلاع) وكنا رأينا أن يشوع وصف المكان على أنه قرب حجر بوهن. فهل ثمة مصادفة وحسب؟ أم أن يشوع والهمداني كانا يصفان المكان نفسه؟ وسنرى تالياً أن عذر وهي إلى جوار هَنْوم عند الهمداني؛ هي كذلك عند يشوع الذي يرسم اسمها في الصورة ذاتها: عدر، ويضعها قرب هنوم وضمن منازل سبط يهوذه. وهذا هو المغزى الحقيقي لقول يشوع: إن منازل بن يامن تمر وسط منازل يهوذه. فهاهي عذر في السراة التي تتألف منها ومن هنوم. وهنا مزيد من وصف الهمداني للسرو وليس للجبل كما افترض المترجمون. يقول في وصف بلد وادعة (صفة: ٢٢٣):

مما يُصالي عُذْر هنوم وظَلْيمَة، بلد عُذْر وهو مغرب شعب. وشعب قبيلة من حاشد وتسمى هذه عُذْر شعب.

وفي هذه السراة يمر وادي يرد- يردن، الذي أقامت فيه القبيلة اليمنية الزائلة يرد بن مَهْلءيل (مهلئيل). إن هَنْوم الوادي الذي يصفه يشوع والهمداني قرب عُذْر وعصمان - عصمن عند يشوع، وقرب ءرب -أراب عند الهمداني، إلى الغرب من وادي يرد؛ موجود فقط في هذه الجغرافية. وسيكون من العبث البحث عن هذه المواضع في فلسطين. أما وادي مَوْر العظيم الذي يشكل ميزاب منطقة تهامة اليمن؛ والذي سيُعرف عند القبائل باسم وادي يرد - يردن؛ فإن مياهه تختلط بمياه هنوم - انظر مَوْر في سفر التكوين.

قال ربيعة الجوبي:

فعجتُ عناني للحَصِيبِ وأهله　　ومَوْرٌ وتيممتُ الصَّلي وَسُردَدَا

فهل هي مصادفة محض؛ أن مَوْر التوراتية وهَنْوم في مكان واحد لا صلة له بفلسطين؟ والآن كيف تصف التوراة سلسلة جبال هنوم؟ هنا نص سفر يشوع (١٨ : ١٥: ١٩: ١١):

ثم تهبط إلى طرف الجبل الذي تجاه وادي ابن هنوم الذي في سهل رفءيم شمالاً، وتنحدر في وادي هنوم إلى جانب يبوس.

في هذا النص المأخوذ من الترجمة العربية (طبعة الكتاب المقدس: المكتبة الشرقية، بيروت ١٩٩١ ونحن نستخدمه لأغراض المقارنة ومساعدة القرَّاء على العودة إلى النَّص) توجد صيغة أخرى من اسم الوادي تثير جملة من المشكلات: أوْلاها أن هناك، فضلاً عن الصيغة الآنفة، صيغة موازية لمكان يُدعى ابن هنوم. وفي هذه الحالة فنحن أمام موضعين يحمل كل منهما الاسم نفسه، وبالطبع؛ فإن فلسطين التاريخية لا تعرف مكانين بهذا الاسم، ولا يوجد جغرافي واحد، لا قديماً ولا حديثاً يمكنه أن يُدلل على وجودهما في فلسطين الحقيقية أو غربي نهر الأردن، بينما يمكننا استناداً إلى الهمداني تحديدهما في المكان نفسه الذي وصفه يشوع والهمداني، باعتباره مكاناً يمنياً أقام فيه سبط بن يامن. والآن: هل ترجمة هذه الجملة مقبولة وصائبة؟ وهل أن ابنَ هنوم هذا هو مكان حقيقي؟ أم هو تلفيق جغرافي نجم عن قراءة تجهل الأماكن التي تقوم بالتعامل معها؟ سنقوم بإعادة ترجمة النص الأصلي، لنكشف عن نمط الاختلاق في التوراة العربية التي يتعامل معها القراء العرب. في النص التوراتي يقول يشوع (النص العبري: ٢٠: ٥: ١٨) ما يلي:

(ويرد- ها- جبول -ءل- قصه- ها- هر-ءشر- عد- فني- ني- ءبن هنم)

وهذا النص يقول بوضوح شديد ما يلي :

(ومقبلاً تبلغ أقصى السَّرو الذي عند أوبن هنوم)

وإليكم بعض الملاحظات الضرورية لفهم مقاصد النص العبري :

أ : إن كلمة ها-هر العبرية لا تعني في سياق الجملة : الجبل؛ بل تعني السراة[1] أوالسرو، وهما مفردتان لا تعرفهما العبرية الحديثة. ولكن مكافأة الكلمة بالعربية جبل صحيحة بوجه العموم، وإن كانت لا تؤدي الغرض المطلوب. ولأن العبرية التي يتكلم بها اليهود اليوم، لا تعرف مكافئاً عبرياً لكلمة سرو العربية أو السراة سوى كلمة ها-هر، فقد تم استخدامها بإطلاق وهو ما دَرَج المترجمون على ترجمته وأينما وردت إلى : جبل. فيما يتوجب ترجمتها حسب النص ومقاصده إلى السرو، وهو المرتفعات في مكان محدد، وإلى السراة وهي السلسلة الجبلية الكبيرة، التي تضم مجموعة من الجبال والمرتفعات في رقعة جغرافية أوسع (مثل سراة اليمن). هذا التمييز ضروري لفهم معنى الجملة : أقصى الجبل؛ وبالطبع لا يقال أقصى الجبل بل أقصى السراة أو السرو أي : طرفه البعيد.

٢ : وفي أقصى السرو-وليس أقصى الجبل- هناك وادٍ يمرُّ في سراة عذر هنوم يُدعى أوبن؛ ولأن المترجمين يجهلون جغرافية التوراة ويجهلون المواضع ولا يعرفون سبيلاً إلى ضبط اسمائها، فقد تصوَّروا أن ءبن العبرية تعني ابن العربية، ولذا ترجموا الجملة على النحو التالي :

(إلى طرف الجبل الذي تجاه ابن هنوم)

---

(١) السراة : المرتفعات. والسَّراة من الرجال- بفتح السين- جمع سرى على غير قياس هم أهل الشرف والسخاء والمروءة.

فيما المقصود هو؛ إلى أقصى السراة عند أوبن هنوم. أي عند مسيل المياه القادمة من وادي أوبن باتجاه سراة عذر وهنوم؛ ولذلك نَسَبها سارد النص إلى اسم السراة لأنها مجرد مسيل مياه عند طرفها الأقصى. وعند الهمداني؛ فإن هذه المياه تختلط بمياه الوديان المارة في المكان ثم تنحدر باتجاه يبوس.

٣: وكما رأينا من مسألة حجر بوهن- حجر بني بوهن التي عالجناها؛ فإن الترجمة العربية لفقت واختلقت موضعاً لاوجود له يدعى ابن بوهن، فيما المقصود به وادي أوبن وهو الوادي نفسه الذي تنحدر مياهه باتجاه بيت بوس كما عند يشوع في النص أعلاه. إليكم شهادة الهمداني الحاسمة (صفة: ١٥٤ : ١٥٦) عن سراة عذر هنوم حيث تمرُّ عند طرفها الأقصى مياهٌ قادمة من وادي أوبن باتجاه بيت بوس:

> **(...) ومنها العوهل الأعلى وحريب وصُرع وسامك وبلد عذر مطرة وبلد يام ثم الجوف وهو منفهق من الأرض فيه أنف (.....) وأوبن؛ وما أقبل من عد وَرَدْ وهو وادٍ يصبُّ مع سامك ودبرة (.....) وما أقبل من نقيل السود فبيت بوس.**

ها هنا سراة عذر هنوم التي أشرنا إليها أكثر من مرة، وها هنا أوبن يمر بالقرب منها حيث تختلط مياهه بمياه أودية أخرى ويتجه نحو بيت بوس، كما تتجه ناحية جبل أنف- ألف. وهناك سنرى وادي أوبن الذي نُسِبَ إلى السراة التي يمر عند طرفها الأقصى. هذا يعني أن مياه وادي أوبن نُسِبَتْ إلى المواضع التي تمر بها. وكما نُسِبَتْ إلى منطقة الحجر مرة نُسِبَتْ هنا إلى سلسلة جبال هنوم، وبالطبع؛ فإن فلسطين التاريخية لا تعرف مثل هذه الأودية ولا الأسماء التي تحملها، فضلاً عن أن جغرافية بلاد عسير التي تخيلها كمال صليبي لا تعرف هي الأخرى مثل

هذه الأسماء. بقي أن نضيف أن الهمداني في الإكليل (١٠ : ٨٣، ١٢٠) يعرض قائمة بنَسْب هَنْوم هذا، بوصفه أباً أعلى لقبيلة يمنية تحمل هذا الاسم، وأحد أبنائه يدعى: كراث (وفي التوراة تعرف هذه الجماعة كما سنرى باسم: كرت- انظر فصل حروب داوود عندنا). أما بالنسبة إلى اسم الموضع روفءيم في نص يشوع الآنف، فسوف نتناوله في مكانه المناسب (انظر تالياً: وادي رُواف).

١٠- بيت ءل - الآل

يقول النص العبري عن بيت ءيل ما يلي (١٧ : ١٩ : ٢١ : ١٨):

> **ويهيو - ها - عريم - ل - مطه - بني - بن - يامن - ل - مشفحتم - يريح - وبيت - حجلة - وعمق قصص - وبيت - ها - عربه - وصمرءم - وبيت ءيل.**
> **(وكانت منازل سبط بني بن يامن وعشائرهم يريحو وبيت حجلة وعمق قصيص وبيت العرب وصمرئيم وبيت ءيل)**

تتجلى في هذا التوصيف البسيط، الذي يحرصُ فيه سارد النص على إضفاء طابع دقيق وصارم على التسلسل المُنَمّق؛ صورة من صور المنازل القبلية المتجاورة، فها هنا بيت ءيل - بيت ءل (الآل بحسب الضبط الوارد في قصيدة امرئ القيس) في المكان ذاته قرب حجلة ووادي العرب. إن اسم صمرءيم -صمرئيم الذي تُرسمُ الصاد فيه بحرف السامك، وهو حرف بين السين والصاد؛ يمكن أن يُكافأ في اللغة العربية بالسين المُشْبَعَة: سمَّرْءيم (اسم التثنية أو الجمع من سمر) وسوف نعود إليه تالياً. قال الشماخ واصفاً بيت ءيل:

تَـربَّـعَ أكـنـاف الـقـنـانِ فـصـارةً فـأيـل فـالـمـاوان فـهـو زهـومُ

ما يقوله الشّماخ في قصيدته هذه: أن ءيل- أيل هي على الطريق إلى موضع قرب صارة - صارة عند يشوع يُدعى الماوان. وفي النصوص الشعرية العبرية المأه (انظر ما سنكتبه عن هذا الموضع تالياً والاسم كما هو واضح مأخوذ من كلمة الماء) هذا يعني أن المكان هو إلى جوار سلسلة من المواضع التي يعرفها الشعر العربي. ومع ذلك فقد احتار القدماء من العرب في تحديد المكان بدقة؛ وفي ضبط الاسم بصورة دقيقة كذلك، وهذا ما دفع البكري (معجم: ٢٦٤) إلى إعطاء صورتين لرسم الاسم في مظهر دال على الحيرة في رسم الهمزة: إيل وأيل. في معرض تحديده لأنساب الآباء القدامى لليمنيين (الإكليل: ١٠: ١٢٠) يقول الهمداني: إن (إل) حيّ من آل شداد أقام في وادي بُرع من بلد حِمْير في أسفل وادي سهام الشهير غير بعيد عن صنعاء؛ وأن حِمْيَر القبيلة هم أخوال هذا الحي (البطن القبلي). أما الماوان في قصيدة الشماخ، فهي عنده (صفة: ٢٦٤) من أودية الفَلَج أي في الامتداد الطبيعي لنجران باتجاه النجد. ويبدو أن المسلمين في عصر الدولة الأموية ومع اندثار ءل - المكان- وضياعه، وزوال البطن القبلي من المسرح التاريخي، واجهوا الحيرة ذاتها في تحديد الموضع الوارد في الأشعار وحتى في أسلوب رسمه. يروي البكري (معجم: ١٨٥) الرواية التالية:

كتب هشام بن عبد الملك إلى بعض أولاده قائلاً:

أما بَعدُ، فإذا وَرَدَ كتابي فأمْضِ إلى الإل فَقُمْ بأمر الناس.

ولكن الشاب الذي تبلَّغَ قرار الخليفة كان حائراً، فهو لا يعرف أين تقع ء ل هذه، حتى جاء أبو بكر الهذلي فقال له: هي ولاية الموسم (أي الحج) مُستنداً الى بيت شعر للنابغة الذُّبياني يقول فيه:

بمُصْطَحباتٍ من لصافٍ وثَبْرةٍ يَزُرن إلالاً سَيرُهنَّ التدافعُ

ويبدو أن ضبط ءل في صورة الإل أو الإلا، كان مقبولاً من اللغويين القدماء بما أن المقصود منه المكان نفسه أي الآل، والهمداني في كتابه يضبط الاسم استناداً إلى بيت شعر لأَرْطأة بن سُهَيّة يقول فيه:

فَهْيهاتَ وصلٌ من أُمَيْمَة دونه أريكٌ فجنبا أيلٍ فالفوارعُ

من الواضح أن ثمة قرابات لغوية بين سائر هذه الصيغ التي يظهر فيها الاسم القديم، فضلاً عن وجوده في الجغرافية نفسها. إن بيت ءيل التي تستدرك التوراة على اسمها في نص يشوع وتقوم بتعديله (بيت ءيل هي لوزه)[1] هي الموضع نفسه الذي عرَّفه الجغرافيون المسلمون على أنه: جبل إيل (ياقوت: ١: ٧٩) على الطريق إلى مكة من ناحية النّقر، أي على طريق الحج اليمني القديم. (انظر قصيدة امرئ القيس الني يذكر فيها اسم جبل الآل في الفصل الأول ومطلعها: فشبهتهم بالآل لما تكمَّشوا)

١١- بيت ءيل هي لوزة

يقول النص العبري:

> **ها- جبول- ءل- كتف- لوزه- جنبه وهي- بيت ءل.**
> **(وتُقْبل الى كتاف، ولوزه وهي بيت ء يل)**

من خلال هذا التحديد يقوم يشوع بإعادة تعريف بيت ءيل من جديد، فهي الموضع نفسه الذي يُدعى لوزه. وهذه يمكن الوصول إليها من وادي كتاف. فهل يعرف الشعر العربي القديم مثل هذا المكان وأين؟ في

(١) انظر النص في التوراة ولاحظ التعديل.

فلسطين؟ أم غربي نهر الأردن؟ يقول الهمداني (صفة: ٢٢٧-٢٢٨) ما يلي:

بلد نهد: أراك، وادٍ فيه أراك، وأراكه أسفل زبيد وموارد بني الحارث بن كعب: الملحات ولوزة، والربيعة بأسفل نجران والهرار والبتراء. هذه أعداد شمالي بني الحارث.

ها هنا مياه لوزة تماماً كما وصفها يشوع والهمداني وبالاسم نفسه حيث أراك الساحلية. وها هنا البتراء- بترون في التوراة وهي ليست البتراء الأردنية بالطبع.

قال ابن مقبل:

سَلَكْنَ لَكُيزاً باليمين ولوزة   شمالاً ومَفْضى السيل ذي الغذْيانِ

إننا لا نعرف موضعاً في فلسطين يُدعى لَكُيز؛ بينما نعرف من التوراة وفي سفر يشوع اسم موضع يُرسم في صورة لكيس - انظر لكيس في هذا الكتاب فصل مراثي الشعراء في التوراة: الحروب بين الآشوريين وبني إسرائيل- ومع ذلك؛ فإن شعر ابن مقبل يُحدد على أكمل وجه الطريق إلى هذا المكان، بوصفه موضعاً إلى الجنوب من لوزة وإلى الشمال من سيل الغَذْيان، وهذه مواضع معلومة في جغرافية اليمن القديم وليس في فلسطين. ومن الواضح -حسب وصف الشاعر - أن لوزة مكان جبلي وعر يمكن بلوغه إذا ما اتجه المرء جنوباً نحو لكيز. إن كلاً من ياقوت (٥: ٣٠) والبكري (معجم: ١١٦٢) يؤكدان على أن هذه المواضع هي على طريق المَحَجة اليمنية إلى مكة على امتداد النجد (أي على امتداد المرتفع) بين موضعي واقصة والقرعاء. بذلك يتضح أن وصف يشوع لمنازل سبط يامن والقائل أن منازل هذا السبط تنتهي عند لوزة، إنما قُصِدَ به تحديد

تخومها من جهة النجد حيث سلسلة مياه شهيرة تعرف في عصر الهمداني بموارد مياه قبيلة بلحارث، وهم من قبيلة كعب سادة نجران[١]، الذين انشقوا عن اليهودية اليمنية وأرسوا قواعد المسيحية الأولى هناك. وهذا ما سنراه بكل وضوح مع الموضع التالي.

١٢- بيت ءون

حسب التوصيف التوراتي (يشوع: ١٨: ١: ١٤) فإن بيت ءون أرض خلاء، بادية، وقد تم الربط بينها وبين وجود منازل سبط بن يامن في هذا الفضاء الجغرافي الصحراوي. هذا الربط له قيمة استثنائية في سياق تحليلنا فهو يؤكد على الأقل، استحالة القيام بمطابقة مع جغرافية فلسطين؛ إذْ ليس ثمة بادية أو برية تُدعى بيت ءون هناك. يقول النص العبري (٢٠: ٥: ١٨):

ويعله-ب-هر-يمه-وهي-تصئت-مدبره-بيت ءون.

تفيدُ هذه الجملة ما يلي: يصعد السائر في جبل يام (يعله -ب-هر-يمه) فيخرج إلى بادية بيت ء ون (وهي- تصئت- مدبره- بيت ءون). وبالطبع ليس هناك جبل يُدعى يام في فلسطين التاريخية يفضي إلى برية

(١) دوَّن يوحنا الأفسي Johannes von Ephesus المتوفى في حوالي سنة ٥٨٠ للميلاد في تاريخه الكنسي جزءاً من واقعة تعذيب نصارى نجران (ما يعرف في الإسلام بحادث الأخدود) ويتضمن هذا التدوين وثيقة هامة هي عبارة عن رسالة وجهها مار شمعون(سمعون) أسقف بيت أرشام Simon von Beth Arsham يصف فيها ما سمعه من أهل اليمن عن تعذيب نصارى نجران. وهذا الأسقف هو من بني كعب من بلحارث، وقاد بنفسه جزءاً من الاتصالات التي جرت بين ملوك الحيرة في العراق والروم من أجل وقف عمليات التعذيب الوحشية. انظر، مثلاً: جواد علي (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) وولفنسون(تاريخ اليهود في بلاد العرب) وكذلك شيخو (النصرانية وآدابها ١: ٦٦).

تُدعى بيت ءون. إن نص يشوع في هذه الفقرة يقول بالضبط مايلي :

صاعداً إلى (جنب) يريحو شمالاً، ثم صاعداً في جبل يام فتصل برية بيت ءون.

إن فلسطين التاريخية لا تعرف سراة تدعى جنب، يمكن الوصول منها إلى أريحا قبل بلوغ بيت ءون، إلى الشمال من السرو أو الجبل. ومع ذلك عملت القراءة الاستشراقية على مُطابقة أريحا التوراة مع أريحا فلسطين. والمثير أن وصف التوراة للموضع بأنه برية- مدبره، لم يدفع أحداً من الباحثين إلى التساؤل عن المعنى الحقيقي الذي ينطوي عليه هذا الوصف الواضح وغير المُتَطلب. لقد جرى- عملياً- اخْتلاقْ أريحا أخرى لا نعرفها زُعم لنا أنها تقع قرب برية ءون في فلسطين؛ مع أن فلسطين لم تعرف يوماً أي موضع أو تل أو جبل أو مسيل مياه يُدعى بيت ءون؟ سنتوقف قليلاً عند هذا الموضع نظراً لأهميته الحاسمة في إعطاء تصوُّر أدقّ عن يريحا اليمنية- يريحو التي جرى تَخَيّلهاعلى أنها أريحا الفلسطينية. تروي المصادر الإسلامية وكثرة من المصادر التاريخية الخاصة بغزوات الرسول ﷺ ما يلي : حين أَقْفلَ الرسول راجعاً من إحدى غزواته، نزل عند مسيل مياه يُدعى أون، وقبائل العرب تَعُدها من الأملاح. واستناداً إلى الطبري وابن هشام والبكري (معجم : ٢٠٨ والهمداني صفة : ٢٦٨) فإن أون هذه هي من المياه النجدية بين العارض وجبل الدبيل (انظر : دبءيل في قوائم الأنساب التوراتية كابن لإسماعيل) على الطريق إلى نجران. يقول الهمداني :

والنَّقْرَة والمجازة -مجازة الطريق- سوى مجازة اليمامة، بين أجْلَة والفرعة : مياه الحمادة، أملاح ونجيل، ونجلة، والآباط والحفيرة والحامضة وشَعْبعَ ومياهُ منيم إلَّا الجدعاء، ومياه يُفاء وبرك وأوان.

لنلاحظ أن الهمداني في هذا النص يضع أون على مقربة من النقرة، أي على مقربة من لوزه (ياقوت: ١ :٧٩) كما رأينا مما سبق. وهذا الوصف ينسجم تماماً مع وصف يشوع القائل: إنَّ لوزه على طريق برية ءون (راجع النص السابق). ولأجل تحديد هذا الفضاء الجغرافي سنعود إلى الشعر العربي القديم الذي أسهب في وصف ءون- أون في الرسم العربي للهمزة، على مقربة من جبل الدبيل وهو الأقرب إلى نجران.

قال الشاعر (لسان العرب: ١١: ٢٣٦):

لولا رجاؤكَ ما تَخَطَّت ناقتي عَرَضَ الدّبيْل ولا قرى نجران

بذلك يتضح أن مسيل مياه ءون التي هي قرب الدّبيْل؛ إنما تقع قرب نجران والنَّقْرَة أيضاً حيث يوجد جبل لوزه. وليس ثمة في فلسطين مثل هذه الأسماء قرب بعضها البعض وبالرسم نفسه. قال شاعر في وصف مسيل مياه ءون (أغفلَ ياقوت اسمه: ١: ٣٣٦):

أيا أُثْلتَيْ أوْن سقى الأصل منكما مسيلَ الرّبى والمُدْجناتُ رباكما

فلو كُنْتُما بُرْدَيّ لم أُكْسِ عارياً ولم يلقَ من طول البلى خلقاكما

وما أُثْلَتَيْ أوْنٍ إذا هبَّتِ الصَّبا وأصبحتُ مقروراً ذكرتُ فناكما

هذه القصيدة الركيكة تُعيدُ، مع ذلك، ضبط الاسم بصورة مُتطابقة تماماً مع الرسم العبري ءون-أون؛ وليس أوان كما عند الهمداني. والآن: أين يمكن للمرء أن يعثر على بادية أو برية فيها مسيل مياه تُدعى ءون؟ إن فلسطين التي نعرفها تجهل لوزه وءون وسائر المنازل التي أوردها يشوع. يتبقى أن نشير إلى أن الهمداني سجل في نصه الآنف اسم يافا اليمنية، بما هي مياه قريبة منءون في صورة يُفاء. والاسم نفسه عند يشوع – كما سنرى تالياً- هو (يفو) وفي المكان نفسه. أما سراة جنب فقد أخطأ

المترجمون حين تصوروا أن معنى جنب هو (إلى جوار أو على مقربة أو إلى جانب) تماماً كما أخطؤوا في فهم معنى هر- يمه، التي تعني جبل يام وليس الجبل غرباً. وسوف نتوقف مطولاً أمام سراة جنب هذه التي تؤدي بالفعل، إلى جبل يام.

يصف الهمداني سراة جنب هذه، في سياق وصف بلاد يام القديمة وجبلها المعروف جبل يام على النحو التالي (صف: ١٦٢-١٦٤):

والوادي الرابع وادي المنبج، وفروعه من بلد يام القديمة ثم أودية من بلد شاكر منها حلف، وادي نجران، ولقيها بالفقارة سيل كتاف ثم يعترض بين نجران وغيره من بلاد وادعة وبلد يام وبلد جنب.

ها هنا سراة جنب وها هنا جبل يام تماماً كما في وصف يشوع. والسائر في هذه السراة سوف يبلغ بيت أون، وهي مسيل مياه عرفته القبائل العربية البائدة بالاسم نفسه. إن نص الهمداني الآنف يتضمّن أسماء عدد كبير من المواضع الواردة في التوراة كما سنرى، مثل حلف -حلف عند يشوع، ومثل سيل كتاف -كتاف عند يشوع.

١٣- بعال يعريم

قال كُثير:

عرفتُ الدار كالحُللِ البوالي   بفيف الخايعان إلى البعال

يُصور كُثير في قصيدته هذه، موضع بعال- بعال على أنه منازل قبلية قديمة، أصبحت مثل الثياب المُهترئة لم يتبق منها سوى الأطلال، وهي على مقربة من موضع فيف الريح أو فيف الفَحْلتين؛ وهما من المواضع المعروفة. ولأن الشاعر وضع هذه الأماكن قرب الخايعان، فهذا يعني أنها

جميعاً بعضها قرب بعض. فهل ثمة صلة بين بعل هذه وبعل التوراة؟ يروي البكري (معجم: ٢٦٠) البيت التالي دون أن ينسبه إلى شاعر:

أيام أهْلونا جميعاً جيرة بكتانة ففراقدَ فبعالِ

وهذا البيت الذي أخفق البكري في تحديد قائله هو من قصيدة لكُثير. ولا أعلم سبباً مقبولاً لسهو البكري مع أن أهميته تكمن في الإشارة إلى موضع معروف عند العرب والآن: لمَّا كان النص العبري يُميز بعل هذه عن أية مواضع أخرى تحمل الاسم نفسه، ويُراد بها كل مياه غزيرة جارية من الوديان أو من عيون الماء في المساقط الجبلية، فقد جعلها نعتاً لاسم مكان بعينه هو يعرم. ومثل هذه الأسماء المُركبة أمر مألوف في نصوص التوراة، ولذلك؛ فإن الاسم في صيغته هذه يعني قرية بعل التي تقع عند عرم. وهذا بالضبط ما يقوله يشوع مستدركاً على الاسم:

وقريت- بعل- وهي- قريت- عرم

ومن غير شك؛ فإن قول يشوع -هنا- حسب ترجمتنا لهذا النص البسيط: إن قرية بعال هي قرية عرم، إنما يؤكد ما ذهبنا اليه آنفاً. في هذا السياق يحدد بيت كثير هذا المكان باعتباره من المنازل المُحطمة والزائلة التي تبدو للناظر مثل الثياب المهترئة. بيد أن يشوع يسجل الاسم في صورة موازية: بعلة- بير (١٨ : ١٥ : ١٩ : ١١) الأمر الذي يعني أن المقصود حقاً، إنما هو موضع بعل القرية المنسوبة إلى مياه عرم. وكنا أشرنا إلى أن القبائل تنزل عادة عند مواضع الماء. والآن: إن كلمة عرم - يعريم العبرية والعربية لا وجود لها لا في جغرافية فلسطين ولا في كلام أهلها، ومن المستحيل العثور في القاموس الفلسطيني القديم والحديث على كلمة مثل هذه. على العكس من ذلك تماماً؛ فإن الثقافة اليمنية

القديمة والحديثة تعرف هذه الكلمة معرفة عميقة ارتباطاً بسيل العرم، وهوالحادث التاريخي الشهير في المرويات العربية الكلاسيكية، نعني انهيار سد مأرب الذي يُعرف تاريخياً بحادث سيل العرم. وليس ثمة من أسطورة أو مروية فلسطينية عن سيل العرم، أو موضع يحمل هذا الاسم في فلسطين أو غربي نهر الأردن؛ بل إن الشعراء ميزوا، هم أيضاً، بين القرية التي بكاها كثير وسمَّاها بعال، وبين العرمه وهي مسيل المياه الغزيرة والجارية. قال العجاج الراجز المشهور:

لِمنْ الدارُ تعفَّى رسمُها   بالغرابات فأعلى العَرَمه

يصف الهمداني بئر العرم كمنازل قبلية في بلد هَمَدان بين صنعاء وصَعْدَة (صفة: ٢١٧) على النحو التالي:

فأول شق بكيل: الصمع وحدقان وبئر العرم من شرقي الرحبة. ويسكن هذه المواضع بلحارث ومن همدان (.....) وجبل ذيْبان وحرمه (.......) وجبال نهم الدنيا إلى أصْحَر جْبل يام، إلى هيلان، إلى حريب إلى مساقط الجوف.

في هذا النص يسجل الهمداني أسماء سلسلة من المواضع قرب مياه العرم، وسنرى تالياً أنها جميعاً موجودة في نص يشوع هذا، وهي حرمه- حرمه وذيبان- ديبون ويام- يم. وهذا أمر مدهش ومثير لأن الهمداني، على غرار يشوع، يسجل الأسماء نفسها وفي المكان نفسه، ويقدم فضلاً عن ذلك، الوصف نفسه. إننا لا نعرف في فلسطين مثل هذه الأسماء ولا هذه الجغرافية، وكما هو واضح فإننا لم نتلاعب بالأسماء الأصلية ولم نقدم بديلاً لغوياً لها؛ فحرمه هي حرمه وعرم هي عرم وجبل ذَيْبان هو ديبن فضلاً عن حريب وهو حريب. ولنلاحظ صلة هذه المواضع بجبل يام

وسراة جنب. هذا يعني أن يشوع والهمداني وكثير كانوا يصفون المكان نفسه.

قال كثير:

بيضاء من عسل ذَرْوَة ضربٌ شجٍّب بمياه الفلاة من العرم

هذه هي مياه العرم أي: البعل، وكنا أشرنا إلى مفهوم العرب القدماء والقبائل البائدة للمياه الغزيرة والجارية، حيث توصف بالبعل. ولنتذكر أن بعل أعظم آلهة الكنعانيين. إن الصلة اللغوية والوظيفية بين الإله العربي القديم بعل وبين صفاته كإله للماء، تسمح بفهم المقصود من اسم الموضع حيث المياه الغزيرة تماثل المطر الغزير. قال النابغة الذبياني:

وعلى العُرَيْمَة من سُلينٍ حاضرُ وعلى الدُّثينة من بني سيار

والعُرَيْمَة هذه تأنيث العرم وهي البئر بمعنى مسيل المياه هنا، لا البئر بمعناها الضيق؛ وهي كذلك القرية التي تقع في نجد همدان (شق بكيل القبيلة اليمنية) الذي يصفه كُثير بأنه فلاة. لقد توهم ياقوت الحموي (١ : ٥٣٦) أن بعال هي من أرض غفار اليمنية المتَّصلة بموضع غيقة. ثم استدرك على سهوه قائلاً: بعال جبل بين الأبواء وجبل جُهينة من أودية خُلص اليمنية. هذا الارتباك في تحديد المكان عند ياقوت؛ مصدره أن المعنى القديم لاسم المياه لم يعد مألوفاً أو شائعاً مع زوال الموضع، الذي أصبح مثل الثياب البالية حسب وصف الشاعر. لكل ذلك نخلُصُ إلى تقرير الحقيقة التالية: لا وجود لكلمة عرم- يعريم اسماً لموضع خارج إطار جغرافية اليمن القديم، ولا وجود كذلك لمنازل قبلية ارتبطت بمياه بئر أو مساقط مائية كما يشير نص الهمداني بوضوح، سوى منازل مسيل مياه العرم هذه في نجد همدان، وتحديداً في الشق الواقع بين صنعاء وصَعْدَة وهو فلاة كما في شعر كثير. ينسجم هذا التحديد كل الانسجام مع

وصف يشوع؛ وفي السياق نفسه مع وصف الهمداني لوادي خلص اليمني، وبالطبع حيث قال ياقوت بوجود بعال هناك بوصفها من أودية نجران القادمة من السرو عبر صَعْدَة وجُرشْ (صفة: ٢٢٩:٢٢٨):

ثم وادي خب فأعلاه طثر وأسواء، ماءآن عدَّان وبئر ذي بئرة ثم صرحان (.......) شطيف وهو أسفل أوبن وبأعلى خليص وشرجان بين وادي أوبن وبين وسط البياض (.....) ربوع بئر عدّ مما يصالي نجران.

في هذا النص يحدد الهمداني الفضاء الجغرافي للمكان: هاهنا غير بعيد عن بعال عرم توجد بئرة - بئروت التي سجلتها نصوص التوراة، وعلى مقربة منهما وادي أوبن الذي يمر عند الطرف الأقصى لسراة عذر وَهنْوم، فضلاً عن سلسلة من المياه العدِّ، أي الغزيرة مثل ربوع-ربع عند يشوع. فهل هي مصادفة جغرافية محض أن تكون المنازل التي وصفها يشوع، هي في المكان نفسه الذي يصفه الهمداني بين الجوف ونجران؟ ولماذا لم يعثر المنقبون التوراتيون في فلسطين على أي موضع من هذه المواضع؟ لنتذكر هنا أن أسفل وادي أوبن هو باتجاه نجران، بينما يكون أعلاه عند طرف سَرَاة عذر وهنوم، حيث تُدعى المياه هناك أوبن هَنْوم - انظر الاسم في مطلع الكلام عن سفر يشوع عندنا -.

١٤- عين شمس

يقول النص التوراتي عن قرى عين شمس ما يلي:

وتنحدر في هنوم إلى جانب يبوس وترد عين رجلى وتنعطف إلى عين شمس.

إن النص الأصلي بلغته العبرية يشير إلى طريق جبلي يصعده السائر،

ثم ينحدر هبوطاً باتجاه يبوس وبعدها يتجه إلى عين رجلى، وأخيراً إلى عين شمس شمالاً. هذا يعني أن المقصود من هنوم هنا سراة عذر وهنوم التي تؤدي بالفعل إلى موضع يُدعى رجلى جنوباً وإلى عين شمس شمالاً.

قال كثير:

أتاني ودوني بَطن غَولٍ ودونه عمادُ الشبا من عين شمسٍ فعابدُ

والشَّبا هذه في قصيدة كُثير هي عند الهمداني (صفة: ١٦١) في الجوف اليمني. يقول ابن منظور (لسان: مادة الشمس): عين شمس هضبةٌ في اليمن. ونحن نعلم من التاريخ القديم لليمن أن شمس هي من أهم معبودات عرب الجنوب و بها تسمَّت بطون قبلية، مثل عبد شمس ثم بطون من قريش. قال الراعي:

وأنا الذي سمعت مصانع مأربٍ وقرى الشموس وأهلهن هديري

هذا الوصف البليغ المتشبّع بالاعتداد حيث هدير الشاعر يُسمع، ابتداءاً من مصانع مأرب فقرى الشموس، أي صعوداً حتى نجران يجعل من عين شمس لا مجرد هضبة، كما توهم ابن منظور؛ بل مرتفعاً من مرتفعات هذا السرو إلى الشمال من مأرب. أما عين رجلى في نص يشوع فهي عند الهمداني من أوطان بلحارث في الجوف اليمني (صفة - ٢٨٣):

> **ومن أوطان بلحارث: سوحان، ومينان و به تحصَّنت بنو الحارث (...) الموفجة وذات عبَر (.......) وحضن بلي ورجلى وأما سوائل جوف همدان فقد ذكرنا أعراضها الكبار والصغار.**

هذه هي رجلى -رجلى من مياه جوف بلد همدان، غير بعيد عن عين شمس وبعال عرم- بئر العرم. فهل ينطوي الأمر على مُصادفة؟ أم أن يشوع كان يصف أوطان الجوف اليمني؟ وأية مصادفة هذه التي تجمع

أسماء منازل سبط بن يامن بين مأرب والجوف في مكان واحد عند يشوع والهمداني؟ دعونا نقدم المزيد من الأدلة:

١٥- القارة

قال عدي بن زيد (معجم: ١٠٠٣ - من شعراء الجاهلية، توفي نحو ٥٨٧ م. تميمي نزل الحيرة في العراق وعمل في بلاط هرمز الرابع في فارس):

مُـوازي الـقـارة أو دونـهـا غير بعيد عن غمير اللصوص

وقال عنترة بن شداد (معجم: ١١٠٣):

كـأنَّ الـسـرايـا بـيـن قـوٍّ وقـارة عصائبُ طير ينتحين لمشرب

تعني كلمة قارة - ها-كره، إذا قمنا بتعريفها تعريفاً عربياً: أكمة الجبل المُنْقَطع في أعلاه بئر ومن حولها الضياع والنخيل. هذا التعريف العربي القديم لكلمة قارة التي يستخدمها النص العبري كاسم مكان؛ يشير إلى معاني ودلالات الاستقرار والإقامة. وبالفعل؛ فإن كل استقرار يجعل الجماعة قارة في مكانها بمعنى مستقرة فيه. وحتى اليوم تستخدم الكلمة في شمال افريقية تونس مثلاً، كمرادف لكلمة استقرار. ومن هذه الكلمة جاء اسم ذي قار. ولأن الجزيرة العربية واليمن تعرفان عدداً كبيراً من القارات، تناغماً مع كل نزول للجماعات والقبائل حول الماء؛ فإن المقصود ب ها-كره في التوراة يمكن تحديده وتمييزه عن سائر المقاصد الأخرى المماثلة في الاسم، وذلك بواسطة استخدام التسلسل الذي أعطاه يشوع في نصه، فهي قرب المواضع السابقة التي حدّدناها في بلد همدان. وفي الواقع؛ فإن اليمن وحدها لديها عدد كبير من القارات منها: قارة في يافع -يافع في التوراة، وقارة في حضرموت -حضرموت في

التوراة، وقارة في مخلاف شبام - شبمه في التوراة، فضلاً عن قارة همدان. يقول النص التوراتي :

وبيت ءيل والعويم والقارة وعفارة وكفر العمون.

هذا هو التسلسل الذي يسجل فيه يشوع اسم موضع القارة. وبالطبع لا وجود لمثل هذا التسلسل ولا لمثل هذه المواضع في طول فلسطين وعرضها، ولم يتمكن أحد من تقديم أي دليل مهما كان تافهاً، عن وجود هذا التسلسل أو الأسماء ذاتها. وسنلاحظ في نص الهمداني أدناه وجود وادي منوب- انظر نوب[١] في التوراة. وهذا أمر هام للغاية فهو ينسجم مع تصورات صموئيل الذي تقول التوراة إنه كان مُقيماً في نوب-. والآن: ما دمنا حدّدنا الاسم نفسه كما سجله الشعر الجاهلي، يتبقى أن نضعه في الفضاء الجغرافي الصحيح أي في بلد همدان قرب سائر الأماكن السابقة. هاكم ما يقوله الهمداني عن قارة (صفة: ١٦٩):

ثم منوب: وادٍ فيه قرى ونخل وزروع وعُطب ثم يفيض منوب مع عين دوعن، ودوعن بين شبام والقارة لهمدان.

ولأن نص يشوع الآنف يتحدث عن قرى العويم (اسم الجمع العبري: العويون) قرب القارة؛ ففي هذه الحالة يجب أن تكون هذه

---

(١) سوف نعطي في هذا الكتاب الكثير من الأمثلة عن الميم العبرية هذه، فهي ذاتها الميم في اللهجة اليمنية والتي تستخدم كأداة تعريف (نوب- منوب-النوب). لقد حيرت هذه الميم علماء التوراة حين تدخل على الأسماء كما سنرى من الأمثلة العديدة في هذا الكتاب. وبكل يفين فقد تطورت الميم هذه عن النون التي تستخدم عند اليمنيين كأداة تعريف متأخرة مثل عدن- عدنن وذلك ما نراه في النقوش اليمنية وكما في عرب: عربن بمعنى العرب.

القرى موجودة هناك في نص الهمداني. هاكم ما يقوله الهمداني مرة أخرى (صفة : ٢٢٠):

وأما البون فقُراهُ: ريده للعويين ورؤوس من بكيل وبيت ذانم للعويين وعثار للعويين وصيحه ومساك وبيت الفواقم وجوب لشاكر

هذه هي منازل العويين -العويم على امتداد نجد همدان صعوداً حتى نجران، وعلى مقربة منها جوب-جوب عند يشوع - انظر الفصل الخاص بحروب داوود كما أن عثار قربها عثار عند يشوع فانظرها في هذا الفصل-. فهل ينطوي الأمر على مصادفة أن تكون القارة قرب منازل العويين عند يشوع والهمداني؟ إن منازل العويين هذه ترتبط عند يشوع بالهجوم على موضع العي، كما سنرى في الفصل الخاص بها، ولذلك نكتفي هنا بما أوردناه. ها هنا وفي مخلاف همدان القديم تقع منازل العويين والقارة تماماً كما وصفها يشوع.

١٦- عفارة

الرسم العبري للاسم: عفاره، وفي التوراة العربية: عَفرَة، وقد حددها يشوع قرب القارة والعويم، وهي كما رأينا من وصف الهمداني للمواضع تقع جميعاً في بلد همدان وليس في فلسطين. إن الضبط العربي الشائع للاسم هو: عفارة أيضاً مُسْتدلِّين إلى ذلك من وصف الهمداني.بيد أن بعض قصائد الشعر العربي القديم تضبطها في صورة عفرة - بالقصر-. (صفة: ٢٢٤: ٢٢٥):

أما حقل صَعْدة فإنه مُختزلٌ من بلد همدان (.....) صَعْدة سكانها الأكيليون من آل ربيعة بن سعد الأكبر من خولان (....) من همدان (....) ساقين لبني سعد بن شهاب، عفارة وحيدان.

قال العجاج الراجز (معجم : ١١٨٦):

بـالـجـزع بـيــن عَـفْـرة الـمُـجَـزل والنعف عند الأسحمان الأطول

هذه هي عفرة - عفار في الامتداد الجغرافي لسائر منازل سبط بن يامن في نجد اليمن، وعلى مقربة من العويم والقارة وبيت ءيل.

١٧- أراك

يسجل النص العبري اسم هذا الموضع في الجملة التالية:

ويرد- ها- جبول- عطره- ءرك-عل-ها-هر-ءشر-م-جنبه-ل-بيت-حورن (٢٠: ٥: ١٨)
ومقبلاً تبلغ عطراً. أراك أعلى السرو الذي في جنب، إلى بيت حورن.

إن أحداً منا لا يعرف بيت حورُن هذه (وفي النسخة العربية من التوراة: حورون) إذا ما سار في جبال فلسطين قاصداً ءرك مُتتبعاً وصف يشوع، ولكنه سيبلغها بالفعل ويقف عند أطلالها عندما يقطع سراة عذر وهَنْوم اليمنية. فلماذا يبدو الوصف مُحيراً؟ قال امرؤ القيس (الديوان، وشرح المُعلقات للأنباري):

أصاحِ ترى بَرْقا أريك وميضَهُ كلمع اليدين في حَبيٍّ مُكللِ

يُضيء سناه أو مصابيح راهب أمال السليطَ بالذبال المُفَتَّلِ

في هذا الوصف الرائع للبرق في أعلى أريك - ءرك وهو يضيء الجبل، كما لو كان راهباً يرفع في الظلام مصباحه ليرى ما حوله ومتلمساً الطريق، يعطي امرؤ القيس وهو هنا اليمني الحميري وليس أيّ

امرئ قيس آخر، رسماً دقيقاً لاسم الجبل يتوافق كل التوافق مع الرسم العبري، ومع وصف يشوع القائل: إنَّ ءرك هي أعلى السرو تماماً. وبكل تأكيد؛ فإننا لا نعرف ءرك هذه في أعلى الجبل في فلسطين التاريخية. يعطي الهمداني من جانبه الاسم ذاته ويحدد المكان الموصوف تحديداً دقيقاً (صفة: ٢٢٧):

أراك وادٍ فيه أراك. وأراكه في أسفل زُبَيْد.

يضع الهمداني أراك -ءرك والتي لا يزال اسمها محفوظاً حتى اليوم، إلى جوار ذات القصص وكتنه حيث تعيش بقايا من قبيلة نهد اليمنية، في إطار تجمع قبلي جديد يُعرف باسم عُبيد، على مقربة من حدود زُبيد في مخلاف صَعْدَة المُختزل أصلاً من همدان. وبذلك يتطابق وصف يشوع مع وصف الهمداني: ها هنا الوادي وقُراه ومنازله القبلية في المرتفعات. إن مكاناً كهذا المكان لا وجود له في فلسطين مهما فتشنا. قال كثير:

يُغادرُ صرعى أراك وتنْضُب وزُرْقاً بأثباج البحار يُغادرُ

يثير هذا البيت التساؤل حقاً، إذ ما صلة أراك -ءرك الجبل والوادي بالبحار؟ ولماذا وصف الشاعر المكان كما لو كان محاذياً للبحر؟ إن المعنى الحقيقي لوصف يشوع للمكان مقروناً بعطر سوف يتضح حين نُحلل أسماء المواضع الأخرى المجاورة، والتي تمتد بامتداد ساحل زُبَيْد وهو ساحل عظيم وخصب يُدعى ساحل عثر. والنقوش اليمنية القديمة ترسم الاسم في صورة: عُطر- وعطره أي تماماً كما في النص العبري. تتبقى هنا بعض الملاحظات الضرورية: إن عُطرُة هذه كانت من أعظم معبودات اليمن -عطروت في التوراة. وفي نص يشوع يُرسم الاسم منفصلاً عن أرك؛ ولكن الترجمة العربية رسمت الاسم في صورة:

عطروت أرك، والصحيح: ءرك وعُطرُة، بوجود فاصلة بين الاسمين أو حرف عطف. وأخيراً، لابد من لفت عناية القراء إلى أن ثمة صلة قوية بين اسم المكان ءرك، واسم النبات الشهير الذي تمتلئ به الوديان الساحلية ويدعى أراك. نحن لا نعلم - بالطبع- أي شيء عن مكان يُدعى ءرك في فلسطين أو عن وديان تمتلئ بنبات الأرك، كما أن اسم المنزل القبلي عثر (وبالطبع لا يوجد في العبرية حرف الثاء العربي ويُستعاض عنه عادة بحرف الطاء العبري) مأخوذ من اسم الساحل القديم الذي اشتهر بخصبه. إن وجود كل هذه المنازل بعضها قرب بعض في جغرافية اليمن كما وصفها الهمداني ويشوع، وانعدام أي أثر لها في فلسطين، يستحيل رده إلى مصادفة محض أو إلى مجرد تماثل لغوي. مثل هذه المصادفة الشاملة مستحيلة الحدوث وخيالية.

١٨- بيت حورن

قال حزازة العامري (صفة: ٣٣٤):

وبحوْران للأوْرَاك والضِّينِ وفي خصب عثر ضوضاءُ

يُوضح هذا البيت الذي سجَّله الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب، طبيعة الصلة الجغرافية بين ساحل عثرّ - عطرُة وبين ءرك. وكنا رأينا مثل هذه الصلة في قصيدة كُثير الذي جمع في الوصف الشعري بين الساحل والوادي. يعني هذا أن الأماكن الموصوفة في سفر يشوع مثل حورُن- حورون وعُطرُة وءرك هي مواضع حقيقية بالفعل وقريبة من الساحل. فهل نجد في جغرافية فلسطين أماكن ومواضع ساحلية متجاورة وبالتسلسل نفسه وتحمل الأسماء نفسها؟ إن بيت الشعر الآنف يعطي أسماء جبال وأودية حوران وءرك وعثرّ تماماً كما في تسلسل يشوع. كما أن أرك عند يشوع قرب القارة والعويم وعفارة. فهل نجد في فلسطين التاريخية مثل هذا

التسلسل؟ في نص الهمداني السابق عن منازل العويين حيث تقع القارة، نجد أن منازل عثّار - عثّر تقع إلى جوارها. وهاكم ما قاله صاحب صفة جزيرة العرب في النص السابق والخاص بمنازل العويين:

ريدة للعويين وعثّار وصيحة ومساك

ها هنا عثار- بالمد- وعثر- بالقصر- قرب منازل العويين وعفارة والقارة وأرك؛ وهي في الجغرافية نفسها تماماً. والآن دعونا نجري من جديد المقاربة المطلوبة بين النصين. يقول يشوع مايلي:

مقبلاً تبلغ عطر. أورك أعلى السرو الذي من جنب، إلى بيت حورن.

وكنا رأينا من قصيدة حزازة العامري التي نقلها الهمداني؛ أن أورك-ءرك هي من قرى البون اليمني في همدان حيث منازل العويين، بينما عثار تقع قرب حورُن- حوران في الامتداد المؤدي إلى سراة جنب. وليس ثمة من سراة تدعى جنب في أي مكان آخر، سوى سراة جنب هذه حيث وادي حوران. بل إن وادي حوران اليمني هذا عند امرئ القيس، يقع بالضبط قرب بيت ءيل (انظر بيت ءيل رقم ١٠، ١١).قال امرؤ القيس (الديوان):

ولــمــا بــدا حــوران والآل دونــه نظرتَ فلم تنظر بعينكَ منظرا

من الواضح تماماً أن المواضع المتجاورة التي يصفها يشوع وشعراء الجاهلية، وهي هنا بالأسماء ذاتها دون أي تغيير، لا تَنْتَسبُ إلى جغرافية فلسطين المزعومة في التوراة، إذْ ببساطة لا وجود لها هناك؛ بل تنتسب إلى الفضاء الجغرافي لنجد اليمن. ها هنا حوران- حورُن على الطريق إلى

الآل- بيت ءيل. لقد فهم بعض نقاد الشعر الجاهلي؛ ثم جاراهم في هذا الفهم كتاب معاصرون أن المقصود من حوران هنا حوران الشام، وهذا فهم خاطئ كلية ولا أساس له. إن قراءة مُعَمقة في قصيدة امرئ القيس سوف تكشف عن البُعد المأسوي في نقد الشعر الجاهلي مع ضياع الأماكن وتلاشي، أو زوال المواضع التي ذكرها الشعراء الجاهليون؛ إذْ لم يلتفت النقاد إلى حقيقة أن بلاد الشام لا تعرف موضعاً يُدعى الآل أو ءل أو ءيل. كل ما في الأمر أن الشاعر شاهد وادي حوران العظيم وهو مقبل صوب منازل قبيلته اليمنية، تاركاً بيت ءل وراء ظهره. وليس في جغرافية بلاد الشام أي وادٍ يُدعى حوران يمكن للمرء أن يتجه صوبه فيما يكون ءيل خلفه. وأكبر دليل على ذلك أن أحد أبناء الخليفة الأموي لم يعرف أين يقع الآل، حين كلفه والده الخليفة بإدارته. ولو عرف الأمويون أين يقع الآل هذا، أو إن كان في بلاد الشام لما اضطر هشام بن عبد الملك إلى الاستعانة بأبي بكر الهُذلي لكي يُحدِّد لابنه الموضع المقصود؟ يقع وادي حوران على مقربة من وادي حجلة وهو بالفعل قرب سائر المنازل السابقة؛ وعلى مقربة منه إلى الشرق يقع وادي روف‌ءيم (رُواف عند الهمداني - جمع روف تماماً كما هي صيغة الجمع العبرية).

وها هنا وصف الهمداني لوادي حوران (صفة: ١٨٦):

> **البُضع: أودية منها ذو عرابل وحوران ورُواف وقاينه وذو حديد ورفْضَه وذو حلفان. كلها لبني مرٌ. سبعة أودية منها المأذنه والعوله والحجلة.**

فهل ثمة مصادفة أخرى أن يكون وادي حوران قرب حجلة عند يشوع والهمداني، وفي فضاء جغرافي واحد؟ بل وأن يكون إلى جوارهما وادي روف‌ءيم (صيغة الجمع العبرية من روف). وهل هي مُصادفة أيضاً أن

يكون وادي قاينه قربهما وأن تكون قاينه عند يشوع قرب حجلة وروفءيم؟ دعونا نعود إلى تذكيركم بأوجه الشَّبَه في الوصف: في نص يشوع كنا رأينا الصلة بين حجلة وهَنوم على النحو التالي:

ومُقبلاً تبلغ أقصى السرو الذي عند أوبن هنوم في وادي روفءيم شمالاً.

لا يوجد في فلسطين قطٌّ، سهل أو جبل أو مسيل مياه أو وادٍ يُدعى روفءيم عند سراة هنوم، بينما نجد الوادي وباسمه العربي القديم رُواف إلى جوار حجلة ووادي حوران إلى الشرق من صنعاء. وبالطبع لا توجد عُطرُة - عطروت في هذه السراة كمنازل قبائلية، سوى عثار المجاورة لمنازل العويين - العويم. وإذا ما سار المرء في سراة عذر وهَنْوم إلى الشرق من صنعاء باتجاه زُبَيْد، فسوف يبلغ ساحل عثرّ الذي أعطى اسمه لهذه المنازل، بل سيرى بنفسه البرق الذي لاح فوق الجبل لامرئ القيس وهو يضيء مرتفعات أراك، وأخيراً: سوف يسير متبخْتراً في الوديان ماراً بحوران وحجلة ورُواف على خطا يشوع والهمداني.

١٩- المصفاة

يعطي نص يشوع اسم المصفاة (ها- مصفه) ضمن مواضع أخرى على النحو التالي:

ها-مصفه-وها-كفره-وها-موصه - ورَقْم (المصفاه والكفيرة والموض ورقم)

فهل عرفت فلسطين التاريخية مكاناً يُدعى المصفاه -ها-مصفه قرب

الكفيرة والموض وَرُقم؟ قبل أن نشرع في تحديد هذه الأماكن وبالأسماء التي وردت فيها دون تلاعب لغوي، وطِبْقاً لوصف الهمداني والشعر الجاهلي، لا بد من تحليل كلمة المصفاه التي تتردَّد كثيراً في نصوص التوراة على نحو مثير؛ فهناك مواضع عدة تحمل هذا الاسم. ولذلك من الضروري تمييزها عن بعضها باستخدام تِقْنيات الجغرافيين العرب القدماء: أي مُقاربة الأماكن والمواضع المتجاورة ومعرفة درجة قربها من المكان المقصود. إن نص يشوع يتكفل -في الوقع - بهذه المهمة الشاقة، فهو يقدم لنا أسماء المواضع المجاورة للمصفاه وهي: الكفيرة والموض ورقم. ولكن: هل لاسم المصفاه هذه أية صلة باسم الصفا أو الصفاة التي يُقصدُ بها المكان البركاني بحجارته السوداء؟ يستعمل العرب كلمة صفا ومنها صفوان في وصف كل حجارة ملساء بركانية (صيغة صفاة) وقدماء اللغويين العرب أجازوا تثنية الاسم صفا في صورة صفوان وصفون في صيغة الجمع، وهذا من أبنية الأسماء القديمة كما في العبرية التي تزيد في الاسم الواو والنون (مثل: صيد: صيدون، حشب: حشبون) والصفا والمروة هما من شعائر الحج العتيقة عند القبائل العربية. قال مُضَرّس بن رَبْعيّ في شعر نقله ياقوت عن ابن نباتة (٣: ٤٤٥):

تَبصَّر خليلي هل ترى من ظعائنٍ إذا مِـلْـنَ مـن قُـفٍّ عـلـوْنَ رمـالا

عوائدُ يَجْعَلْنَ الصفاة وأهلها يميناً وأثماد الضبيب شمالا

حسب وصف الشاعر؛ فإن الصفاة هي منازل قبائلية في مكان مرتفع إلى اليمين من مسيل مياه يُدعى الضبيب - صبيب في التوراة في سواد باهلة في اليمامة، وهي الصفا التي عناها امرؤ القيس في قصيدته:

وصفا الأطيط فَصاحَتين فعاسمٍ تـمـشـي الـنـعـامُ بـه مـع الآرام

يصف الهمداني الفضاء الجغرافي لمنطقة الفَلَج، كما يصف اليمامة

وديانها ومواضعها (صفة: ٢٦٥) - وهنا تكثيف للمقطع الطويل-:

ثم تقطع الدبيل قطع الحبل، وهو رملٌ، فأول مشرب في هذه المحجة ماء لجَرَم وعن يمينهم قنان وبطن الركاء وفي وسط الدخول ماء قريب من صفا الأطيط .

هذا هو الوصف الدقيق للمواضع والمنازل القبائلية الواردة في قصيدتي مُضَرِّس وامرئ القيس، وليس ثمة مكان أو موضع في فلسطين يحمل اسم الصفا أو الصفاة أو أي صيغة قريبة الشبه به.قال لبيد واصفاً النخيل بجذوعها الطويلة في هذا الفضاء الرملي (توفي لبيد في ٦٦١م وهو من بني عامر من اليمن):

سَحقٌ بمنْسِعَة الصفا وسَرَّيةٌ عـمٌّ نـواعـمٌ بـيـنـهـنَّ كـرومُ

توصف الصفاة في أشعار العرب والجغرافيين القدماء بأنها موضع كثير الأشجار في البادية، يشتهر بالتمور والأعناب على الطريق إلى الكفيرة. بقي أن نشير إلى أن بلد همدان يمتد في تهامة اليمن على طول السراة- وهي الجبال المطلة على تهامة ونجد اليمن شمالي صنعاء- وصولاً إلى تخوم نجران. يقول الهمداني (صفة: ٢٣٥):

والذي يلي تيَّة من غوائر الحجر، مُرَّة وادٍ يصبُّ إلى الكفيرة وحلْي.

وسوف نرى تالياً العلاقة بين حلْي- حلْي عند يشوع ووادي الكفيرة - ها- كفرة عند يشوع. كما سنعود إلى رقم القريبة من الصفا نظراً لورودهما في منازل الأسباط الأخرى. إن القصائد والوصف الجغرافي عند الهمداني ويشوع وامرئ القيس وشعراء الجاهلية، تشير كلها إلى

وجود منازل قبائلية قديمة في تهامة اليمن، أقام فيها سبط بن يامن على مقربة من حلي؛ كماتشير إلى منازل مماثلة في بادية اليمامة أو في نجد. أي بعيدة قليلاً عن مراكز الاستيطان في مرتفعات الداخل اليمني. هذا التنوع في البيئة الاستيطانية لسبط بن يامن تعكسه بدقة أسماء المواضع التي سجلها يشوع. والآن: لماذا تختلف طريقة رسم الاسم في العربية عنها في العبرية وذلك مع وجود حرف الميم الزائد (مصفه: الصفاة)؟ لنلاحظ أن المكان يرتبط بسبط بن يامن؛ وهذا يعني ارتباط مبنى الاسم بطريقة نُطْق الجماعة القاطنة في المكان حيث كل جماعة تنطق اسم مكانها بطريقة خاصة. وقد اشتهر اليمنيون قديماً باستخدام حرف الميم مع همزة سابقة عليه في كلامهم؛ فهم يقولون في الرجل: أم رجل (ء مرجل) وأم صفا: في الصفا، وأم صبار في: الصبار. هذه الميم المسبوقة بالف مهموزة، هي أداة التعريف في اللهجة اليمنية الحميرية (المُماثلة لحرف ها- في العبرية مثل: ها- مصفه). لقد انقرضت هذه الأداة وحلت محلها في وقت ما أداة تعريف جديدة هي النون الأخيرة اللاحقة في أواخر الأسماء مثل: عدنن في: العدن، وعربن في: العرب، وهي التي تُعرف عند اليمنيين بالنون الكلاعية نسبة إلى مخلاف الكلاع، ولا تزال معروفة ومستخدمة حتى اليوم ونجدها في أسماء معظم الأماكن التوراتية التي تنتهي بالنون كما سنبين ذلك بالتفصيل. يتبقى أن نشير وقبل الانتقال إلى مادة رامة، إلى أن اسم الموضع الموصه- ها- موصه في قائمة يشوع هو عند الهمداني موضن بنون كلاعية في آخره إلى الشمال الغربي من تعز وهما موضان (موقعان). ولأن العبرية لا تعرف حرف الضاد المعجم فإن محرر النص رسمه بحرف الصاد المهمل كما هو مألوف، مثل: ءرص العبرية: أرض العربية، حصور: حضور. والهمداني يرسم الاسم في صورة: موضان - بالمد - (صفة: ١٢٠ -١٢١).

٢٠- رامة

تظهر رامة في هذا المقطع من سِفر يشوع وضمن التسلسل قبل بئرة - بئرُوت والمصفاة. قال أوس بن حجر:

ولو شهدَ الفوارسُ من نُميْرٍ   برامة أو بنعف لوى القصيم

وقال القُطاميُّ (معجم: ٦٢٨):

حلَّ الشقيقُ من العقيق ظعائن   فنزلن رامة أو حَلَلْنَ نواها

استناداً إلى مرويات التوراة؛ فإن النبي صموئيل - السموأل عاش في جبل الرما - ها- رمه، وأقام فيه حين مُسِح شاول ملكاً على بني إسرائيل؛ وهو المكان ذاته الذي هرب إليه داوود مُحتمياً من خطر الموت بعدما طارده شاول - ساول طويلاً طالباً دمه. ولأن هذا الموضع يتردَّد بكثرة في مرويات التوراة؛ فسوف نتوقف عنده مراراً، وفي كل مرة يُسجل فيها الاسم ارتباطاً بمواضع أخرى. وسوف نلاحظ تالياً صلة هذا المكان بوادي الرمة العربي الشهير الذي أعطى اسمه لشاعر عظيم من شعراء العرب هو ذو الرُّمة؛ كما سنلاحظ أن رامة هذه اسم لمكانين يُرسمان بطريقتين مختلفتين الرما -وريم. يقع جبل الرما على مقربة من سراة جنب. هاكم ما يقوله الهمداني (صفة: ١٣٦):

> **ثم عتود وادٍ صغير ثم وادي بيض ومآتيه من سراة جنب ثم ريم. وجميع ما بين عدن ووادي نخلة من الأودية الكبار التي تنتهي إلى البحر أولها يردُ العارة فشرقي ذُبحان فغربي جبل الرما.**

هو ذا جبل الرما تحيط به مياه الوديان القادمة من سراة جنب، تماماً كما وصفه يشوع.

٢١- كفر العمون

قال فروة بن مُسَيْك المرادي (شاعر يمني من شعراء الجاهلية، أدرك الإسلام وكانت له علاقات حسنة مع ملوك كندة وحضرموت. توفي في خلافة عثمان بن عفان ودفن في صنعاء وقبره هناك في باب شعوب وهو من المزارات المعروفة):

دعوا الجوف إلا أن يكون لأمكم   به عقرٌ في سالف الدهر أو مهرُ

وحلوا بيعمون فإن أباكمُ   بها حليفاه المذلة والفقرُ

يقول ياقوت الحموي (٥ : ٥٠١): يَعْمون موضع في اليمن من منازل همدان. والجوف في قصيدة المُرادي يُقصدُ به الجوف اليمني حيث تقع يَعْمون قرب بيت بوس حسب وصف الهمداني (صفة: ١٥٧):

> **وما أقبل من أشراف نقيل السود فبيت بوس إلى خطم الغراب، ويلقى هذه الأودية حقل سهمان ويَعْموم وبيت رفح فالرحبة.**

وقد علَّق محقق كتاب صفة جزيرة العرب العلّامة محمد بن علي الأكوع على هذا النص قائلاً: إنه لا يعرف يَعْموم هذه ولا ضَبْطَها. بيد أن ضبط ياقوت للاسم في صورة يَعْمون وهي صيغة يمنية مألوفة - وزن يبوس، يعرم، يكرب، يعرم، يشجب، يعمر- يؤكد استناده إلى نسخة لم تصلنا من كتاب صفة جزيرة العرب؛ جرى فيها ضبط الاسم في صورته الصحيحة والقديمة يعمون. وما يؤكد ذلك؛ وجود الموضع في نجد همدان حيث سائر المواضع الواردة في سِفر يشوع. إن كلمة كفر العبرية والعربية (الإرمية) تعني قرية أي: منازل قبلية، وهذا تأكيد آخر على أن المقصود موضع من مواضع القبائل في الفضاء الجغرافي نفسه. هذه هي

منازل سبط بن يامن كما وصفها يشوع والهمداني والشعر العربي القديم؛ وكل ما تبقى من أسماء سنقوم بمعالجته في مكانه المناسب، نظراً لتكرار تسجيله في منازل الأسباط الأخرى عند يشوع. يتبقى - في ختام هذا المقطع الخاص بسبط بن يامن - أن نشير إلى ما يلي: إن النص يسجل في مقطع آخر، أسماء المواضع نفسها بإضافة اسمين هما جبل ألف وجبل العفنه-عفن وقد آثرنا تركهما ريثما نفرغ من تحديد المواضع والأماكن الأساسية، ونظراً لتكرارهما في نصوص أخرى. لقد تفنَّن المخيال الاستشراقي في تأويل اسم ألف هذا، حتى أن عالماً ألمانياً معروفاً كرس حيِّزاً هاماً من إحدى دراساته، لإعطاء تأويل غرائبي للاسم يربط بينه وبين الإيلاف الوارد ذكره في القرآن زاعماً أن موضع ألف التوراتي يعطي الدليل القاطع على وجود صلة، من نوعٍ ما، بين بني إسرائيل والإيلاف القديم. مع أن كتب التاريخ والوقائع الخاصة بنشوء الإيلاف، تربطه - حصراً - بصعود دور مكة العالمي في التجارة الدولية نحو العام ٥٠٠ ق. م وبدور قريش في عصر قصي جد الرسول ﷺ. إن تأويلات المستشرقين الكتابيين للتوراة ولأسماء المواضع في النصوص التوراتية، ترسم خطاً تتوضح فيه وعلى أكمل وجه، الطرائق التعسفية وغير العلمية، فضلاً عن الأوهام والخيالات، التي جرى حشدها في أسلوب قراءة يستحيل قبوله. في الواقع ليس ثمة أدنى رابطة بين ألف هذا وبين الإيلاف؛ كما أن فلسطين لم تكن جزءاً من المنظومة التجارية العالمية التي أسستها قريش إلا في عصر قصي وابنه هاشم الذي توفي في غزة على ما يزعم الرواة. إن اسم الموضع، وتسلسل وقوعه -مع بقية المواضع- في نص يشوع ووجود فضاء جغرافي واحد، يجعل من المتعذر قبول هذا التأويل، فليس ثمة بيت بوس وصيلع وبيت حجلة إلخ..- مثلاً؟ ولذا؛ لابد من البحث عن الموضع في جغرافية أخرى مغايرة. هاكم وصف الهمداني وضبطه للاسم ألف. يقول (صفة: ١٥٥- ١٥٨) ما يلي:

ثم الجوف: وهو مُنفهق من الأرض بين جبل نِهْم الشمالي، الذي فيه أنف اللوذ، وأوبن الجنوبي، وما أقبل من دبرة فبيت بوس ويعموم وبيت نعامة وهند وهنيدة (المحقق: مكان أثري هو اليوم أطلال عثر في هذه الأيام فيه على قصر جبعة)

جبل أنف- ألف هذا (والنون اليمنية في أول الاسم هي ألف، وتستخدم كأداة تعريف قديمة مثل: لحماس في الحماس، لخضر في الأخضر كما نرى ذلك في لهجات شمال أفريقية، وعند اليمنيين عربن في العرب، وعدنن في عدن) من الجبال الشهيرة في الجوف اليمني؛ وفيه كما يقول محقق الكتاب المنفذ الطبيعي للجوف والذي عُثر فيه على لوحة تاريخية منقوشة بالقلم اليمني المسند. تشير هذه اللوحة إلى المعاهدة التي أبرمتها دويلة معين مع دويلة سبأ. ولنلاحظ أن أنف إلى جوار وادي أوبن الجنوبي، تماماً كما في نص يشوع أوبن، هنوم. يقول يشوع ما يلي- قارن الأسماء التالية مع الأسماء في النص أعلاه (النص العربي، تسهيلاً لعودة القراء إلى المقطع: ١٨: ١٥: ١٩: ١١)

إلى طرف السرو تجاه أوبن، وهنوم (..) وكانت منازل سبط بن يامن صيلع وألف ويبوس وجبعة.

هذا النص يمكن مُقاربته مع نص الهمداني السابق، واستخلاص الفكرة ذاتها عن المكان: ها هنا جبل ألف- أنف وهاهنا أوبن وإلى جوارهما بيت بوس وجبعة. وهكذا يتضح أن المقصود ليس الإيلاف؛ بل الجبل العربي الشامخ انف - ء لف، علماً أن النون واللام في العبرية يؤديان الوظيفة نفسها. أما موضع العفنه فليس سوى موضع العفه في سرو مَذْحج (صفة: ١٧٦). وهذا ما سنعود إلى تحديده نظراً لورود الاسم نفسه في نصوص أخرى.

٢ : سبط شمعون
(يشوع: ١٨: ١٥: ١٩: ١١)

أَقْطَعَ النبي اليمني يشوع السبط الثاني، من أسباط بني إسرائيل، وهو سبط بني شمعون- سمعون منازل وأماكن لينزلوا ويُقيموا قُراهم فيها، وسط أرض يهوذه - هوذه مثله مثل بن يامن (النص العبري: ١٧: ١٩: ٢١: ١٨):

ويصء- ها- جبول ها- شني- ل- شمعون- ل- مطه-بني- شمعون -ل- مشفحتم- ويهي نحلتم- بتوك- بني -يهوده- ويهي- لهم- ب-نحلتم: بئر شباع - وسمع- ومولده- وحصر شعل- وباله- وعصم- وءلتولد- وبتل- وحرمه- وصقلج- وبيت- ها- مركبة - وحصر- سوس- وبيت لبوءة- وشرحن-عريم-شلش- عشرة- وحصريهن- عين- رمن-وعتر- وعشن.

والنص يفيد ما يلي -حسب ضبطنا للمواضع ضبطاً عربياً صحيحاً-:

وتخرج مرتفعات شمعون الثانية؛ لسبط شمعون وعشائرهم وكان غَوْرهم وسط بني يهوذه وهي في غورهم: بئر شباع وسُمْع ومولدة وحضر شُعل وباله وعُصْم، والتولد وبُتلْ، وحُرْمه وصقلج، وبيت المركبة، وعُزْلة سوس، وبيت لبوءة وشروحن: ثلاث عشرة منزلاً: بعُزْلاتها، عيان ورمان وعثار وعشان.

قبل الشروع في تحديد منازل هذا السبط؛ لابد من ملاحظة أنه ينتسب

إلى موضع بعينه أعطاه اسم سُمْع؛ أو أخذ منه اسمه: شُمع (السين والشين في العبرية تتبادلان الوظيفة). إن وجود أبٍ أعلى لقبيلة يُدعى سُمْع - سمعون حسب البناء العبري، يجب أن يحيلنا إلى المرويات اليمنية وإلى كتب الأنساب القديمة، التي تصرّ على أن إسماعيل- سمع ءيل الأب الأعلى للعرب- ينتسب إلى شجرة قحطان اليمنية الجنوبية وليس إلى شجرة أنساب العدنانيين[١]. ولما كان جبل سُمع من الجبال الشهيرة والقديمة في اليمن (سمع عند يشوع) فإن هذا يعني ببساطة، أن السبط أخذ اسمه من الجبل أو أعطاه الاسم الذي سيُعرف به، على غرار ما فعل سبط بن يامن حين أخذ أو أعطى اسمه لجبل بن يامن. والمثير للاهتمام أن التوراة تتحدث عن هجرة هذا السبط شمالاً، أي صوب مكة حسب المرويات العربية الكلاسيكية؛ وتنظر إليه بوصفه سبطاً ضائعاً. ومن غير شك؛ فإنّ القصة التوراتية عن صراع إسماعيل وإسحاق (سفر التكوين) تدور في نطاق تأويل سبب هجرة وضياع سبط إسماعيل- سمعون. وقد قمنا بتحليل هذه القصة - الأسطورة في كتابنا شقيقات قريش[٢] هاهنا، كل المنازل التي أقام فيها السبط الثاني شمعون - سمعون على مقربة من بن يامن وهي منازل تختلط، وتتداخل أو تمر في أرض بني يهوذه - هوذَة. ولأجل التحقُّق من وجود أي أثر مُحتمل لهذه الأسماء في الشعر الجاهلي، وفي وصف الهمداني لليمن القديم ونجد همدان، وبالطبع باسْتخدام طاقة المَرْويات التاريخية العربية العتيقة، على البوح بأسرار الجغرافية الضائعة والجماعات التي خرجت عملياً من المسرح الجغرافي، ولم يَعُد ممكناً تتبع وجودها؛ فسوف نقوم ببعض الخطوات الضرورية:

---

(١) تشيع في كتب الأنساب اليمنية القديمة فكرة أن إسماعيل (الأب الأعلى للعرب) ينحدر من جنوب الجزيرة العربية (اليمن) وليس من شمالها (الحجاز) وهذا ما يتوافق مع ما يرد في التوراة.

(٢) بيروت، لبنان، شركة رياض الريس للنشر: ٢٠٠٢.

أ : تحديد المواضع التي تُعَدُّ من المنازل المشتركة ويتداخل فيها وجود الأسباط في مكان بعينه، كما هو الحال- مثلاً- مع موضع حرمة، وهي من منازل السبط الأكبر يهوذه حسب التوزيع الذي صوَّره سِفر يشوع. يكتسب هذا التحديد أهميته، من إمكانية الكشف عن نمط الاستيطان القديم للقبائل والشعوب والجماعات والأسباط العربية الأولى البائدة، التي عاشت في إطار نظام ثقافي يتيح لها أن تشترك في مواضع لا تعود ملكيتها لجماعة دون أخرى؛ وهذا النظام يُعرف في المرويات العربية التاريخية بنظام الحقوق. وسوف نرى تالياً أن التوراة تستخدم الكلمة العبرية حقق في وصف هذا النظام، وقد توهمها المترجمون اسماً لموضع من المواضع. لقد وصف العرب القدماء بدقة، الكيفية التي كانت فيها منازل القبائل تتداخل، ومع ذلك يُحافظُ في إطارها على الحقوق المشتركة من المياه والمراعي؛ إذْ لطالما تداخلت حقوق تميم في حقوق طي، كما تداخلت حقوق طي في سُليم. والمثير أن سِفر يشوع يستخدم الكلمة ذاتها في وصف هذا التداخل. ولكن القراءة الاستشراقية للتوراة كما تجلت في الترجمة العربية، فهمت الكلمة على أنها تعني اسم مكان فظنت أنه كذلك. ولما كانت فلسطين لا تعرف البتة مكاناً يُدعى حقوق كما لا تعرفه جزيرة العرب واليمن؛ فإن المكان سيبدو، آنئذ، تلفيقاً ناجماً عن الجهل في الجغرافية والثقافة القديمة سواء بسواء. كل ما في الأمر أن نص يشوع وعلى غرار تقاليد واستخدامات لغوية مألوفة عند القبائل العربية، وَصفَ تداخل المواضع ومِلْكياتها المشتركة بكلمة حقوق. إن هذا المثال النموذجي يكشف عن بُعدٍ آخر من أبعاد التلفيق. وفي هذا النطاق؛ فسوف نقوم باستبعاد كل المواضع التي تتكرر في القوائم والاكتفاء بإحالة القارئ إلى المادة التي نقدم تعريفاً لها في هذا الكتاب وذلك منعاً للتكرار أو الاستطراد.

٢: إننا نستخدم كلمة عُزْلَة كمكافئ لكلمة حصر العبرية، مُمَيِّزين بينها وبين اسم حصر العبري الذي يُراد به اسم حَضَر، لأن العبرية لا تعرف حرف الضاد العربي (كما هو الحال مع ء رص بمعنى أرض). أن مترجمي النص العبري إلى العربية يستخدمون هذا التعبير، للدلالة على القرى والمساكن البعيدة عن مراكز الاستيطان القبلي؛ وهذه الكلمة في صورتها اليمنية القديمة والمستمرة حتى اليوم، تؤدي على أكمل وجه المعنى المقصود في العبرية؛ بما أن حصر الشيء يعني عزله. وحتى اليوم؛ فإن الكلمة تستخدم في معرض وصف المساكن الجبلية المعزولة نسبياً عن المراكز الاستيطانية، أو في النجد والمرتفعات الصخرية. وسوف نلاحظ أن كلمة عُزْلة العربية التي وردت في شعر امرئ القيس وفي وصف الهمداني، هي الكلمة الوحيدة التي تعادل في دلالاتها المباشرة كلمة حصر العبرية، وأن من الأفضل لفهم النص فهماً صحيحاً وخلاقاً، استخدامها بدلاً من الإبقاء على الكلمة العبرية ضمن النص العربي (كما فعل المترجمون، أي: عُزلة سوس بدلاً عن حصر سوس كما في النص العربي السائد).

٣: وهنا لابد من إعادة التأكيد مرة أخرى، ومنعاً لكل التباس أو سوء فهم، سطحي أو انفعالي مُتَوقع عادة من أفراد يَفْتَقدون لروح العلم والمعرفة ولا يعرفون الكثير عن الموضوعات والمسائل المثارة هنا، أو من أوساطٍ يَعُوزها الإدراك الحصيف والإلمام الكافي بمادة الكتاب وموضوعاته وكشوفه، على أن مؤلف الكتاب وهو يسوق هذه الشواهد الثقافية القديمة، في إطار النقاش العلمي ليؤكد، بأقوى ما يمكن من التأكيد، على أنه لا يؤمن ولا بأي صورة من الصور، بأن أسماء المواضع التي سجلها الشعر الجاهلي، يمكن أن تعطي الذريعة أو الحق المزعوم لليهود أو لإسرائيل الراهنة في الجغرافية الموصوفة. إن التوراة في جانبها غير الروحي (الديني) الذي يخص مرويات وأخبار وحكايات وقصص

وأشعار كل الجماعات القبلية العربية البائدة المذكورة فيها، هي كتاب إخباري عربي قديم كُتب بلهجة يمنية لا تسميها التوراة قط العبرية. وهذا الكتاب الإخباري كما بينا ذلك في كتابنا السابق شقيقات قريش، مماثل في بنيته السردية لكتب الإخباريين اليمنيين؛ وأيّ تفكيك للسردية التوراتية سوف يكشف عن هذا التماثل المُذهل بين التيجان في ملوك حِمْيَر لوهب بن منبه، أو أخبار اليمن لعُبَيْد بن شَرْيَة الجُرْهَميّ، أو كتب الهمداني كلها، مع مرويات التوراة تطابقاً لا حدود له على مستوى السرد.

٤ : سوف نستخدم كلمة أَقْطَعَ بديلاً عن جملة: "وخرجت القرعة..." التي يستخدمها النص المترجم؛ لأن القدماء لم يعرفوا توزيعاً للأرض أو حصولاً عليها بواسطة القرعة. لقد تم التعبير عن هذا المعنى من خلال توجه القبائل إلى النبي أو الكاهن الأعلى، للحصول منه مباشرة على الأرض لإقامة المنازل والقرى. وفي تاريخ الإسلام المبكر أَقْطَعَ رسول الله ﷺ قبائل العرب وساداتها ما طلبوه من أراضٍ، وذلك في إطار إعادة تجميع القبائل في تجمعات قوية مساندة للإسلام الوليد. إن كلمة أَقْطَعَ تنسجم مع الأجواء التاريخية والدينية للنصوص بأكثر مما تفيد كلمة (القرعة). ومع ذلك؛ فإن كلمة يصرء العبرية بمعنى (خرج) تفيد، من زاوية أخرى، معنى (خرج السهم أو النصيب) وهو أمر مألوف عند العرب القدماء حين تخرج أراضيهم في القسمة من خلال (أسهم) فيقال: (خرج سهمه، أي نصيبه) ولا يُقال: (خرجت القرعة).

وهاكم أسماء الأماكن التي نزل فيها سبط سمعون:

١- بئر شباع

يصف الهمداني بئر شباع هذه؛ وصفاً مُسْهَباً ويعطي الاسم ذاته والرسم ذاته أيضاً بئر شباع، في ما يُعرف اليوم بمنطقة كريف رَدَاع. وهي

جزء من مصنعة وحاظة التي دُعيت في وقت ما، من تاريخ اليمن القديم شباع، في سلسلة جبال السكاسك على مقربة من جبل شمير - شمير في التوراة، ودُباس -دباست في التوراة وجبال الركب- الركب في التوراة؛ وهي اليوم ضمن مدينة تعز إلى الشمال الغربي من محافظة إب. هذا يعني أن اسم شباع كان هو الاسم المُهَيْمن في هذه الجغرافية الفسيحة، بحيث غلب على سائر الأسماء التي عُرف بها المكان. تقع مصنعة وحاظة اليمنية التي ينسبها اليمنيون إلى أب أسطوري من أحفاد مالك بن سَددْ، في أعلى جبل حبيش وأعلى عُزْلة شباع، وهي اليوم أطلال وخراب. والمثير أن المكان بئر قديمة بالفعل ،عرفها اليمنيون باسم بئر شباع تماماً كما وصفها يشوع وحددها قرب جبلي شمير ودُباس؛ بل إن وصف البئر الذي يقدمه الهمداني يُحيل القارئ إلى التاريخ القديم دفعة واحدة. يقول في (صفة: ١٤٨) ما يلي:

مصنعة وحاظة واسمها شباع، وهي تشابه ناعط في القصور والكرف. على باب القلعة موطأ في القاع (....) والقلعة بطريقين على كل طريق ماء (.....) والماء الثاني من شمال الحصن في جوف من صفا كالبئر مطوي بالبلاط، ودرج ينزل إليه من رأس الحصن بالسُّرَج في الليل والنهار على مسيرة ساعة حتى يُؤتى بالماء.

وجود عُزْلة تدعى شباع (حصر شباع) في هذا المكان الجبلي حيث سائر المواضع المذكورة في منازل الأسباط؛ مثل شمير - شمير ودُباس- دباست، يصعب تنسيْبَه إلى مجرد مصادفة لغوية أو جغرافية. وإذا كان ثمة من مصادفة قابلة لأن تحدث وهي ممكنة ومقبولة كدليل، فلماذا لا نجدها في جغرافية فلسطين؟ لنلاحظ أن بئر شباع في قائمة منازل شمعون، هي غير بئر شباعة الواردة في سفر التكوين والتي ترتبط بسيرة إبراهيم. هذا

التمييْز ضروري للغاية بين الموضعين، إذ ليس من المعقول أن التوراة ترسم الاسم نفسه في صورتين: شباع وشباعة؛ والأصح أنها رأت إليهما كموضعين في مكانين مختلفين. ولنلاحظ كذلك أن شباعة في سفر التكوين لها صلة باسم جماعة تسميها التوراة: الزمزميّون - نسبة لبئر زمزم ـ وهذا ما سوف نوضِّحه في مكانه المناسب في فصل شعوب ومواضع ـ. ها هنا بئر شباع كما وصفها الهمداني وحدد مكانهاوهي عزلة جبلية قرب سائر المنازل التي سجلها النبي يشوع في قائمة سبط شمعون، فيما حدَّدها الهمداني مخلاف السَّحول إلى الشمال الغربي من مدينة إب (محافظة إب اليوم) غير بعيد عن مدينة تعز.

٢- سُمْع

الاسم الثاني في قائمة منازل شمعون هو: سُمْع حسب ضبطنا له، استناداً إلى الهمداني والنص العبري معاً؛ فيما يَضْبُطهُ النص المترجم بالشين: شُمْع. فهل عرفت فلسطين مكاناً أو منزلاً قبائلياً بهاتين الصيغتين؟ في وصفه لغربي همدان - التي رأينا أنها تضمُّ منازل القائمة الأسبق (انظر سبط بن يامن) يقول الهمداني (صفة: ١٣٤) ما يلي:

> **ومساقي مُور تأخذُ غربي همدان جميعاً وبعض غربيّ خولان وبعض غربي حِمْير. فأول شعابه ذُخار وشُرَيْب في جبال ذُخار ومَسْور فالشوارق وسُمْع.**

هذه السلسلة الجبلية الى الغرب من بلد همدان، هي جزء من السراة التي تضمُّ جبال قبائل السكاسك، كما أنها تتصّل بسراة عُذر وهَنْوم. وهذا يعني أن جبل سُمْع الذي أعطى اسمه للجماعة القاطنة فيه، أو أعطته الجماعة اسم الأب الأعلى الخاص بها، يقع في الفضاء الجغرافي ذاته

حيث تصبُّ مياه وادي مَوْر[(١)] العظيم هناك، وغير بعيد عنه جبال شمير ودبَّاس وشباع. والهمداني يضع سُمْع ضمن مخلاف رداع حيث توجد عُزْلَة شباع تماماً كما في وصف يشوع. يقول الهمداني: (صفة: ١٥١) مايلي:

ثم ميزاب اليمن الشرقي وهو أعظم أودية المشرق (......) فأما من ناحية رداع فالعرش وسُمْع[(٢)]**.**

فهل هي مصادفة محض أن عُزْلة بئر شباع وجبل سُمْع، هما في المكان نفسه الذي وصفه يشوع والهمداني؟ إن ما يُعرف في التوراة بالسبط الضائع، يمكن مقاربته مع المرويات العربية الكلاسيكية عن هجرة إسماعيل من اليمن ووصوله إلى مكة، حيث أسس هناك جيلاً جديداً من القبائل سوف يُعرف بالعرب المستعربة.

٣- فجّ المولدة

في الترجمة العربية السائدة، يُرْسَم الاسم في صورة فج المَولاذة- بالذّال المُعَجمة-. وهذا رسم خاطئ للاسم الذي يتوجبُ رسمه وضبطه ضبطاً عربياً صحيحاً في صورة: فجّ المَوْلِدَة ـ بالدّال المُهْمَلة ولام واحدة ـ

---

(١) لشدَّة تعلق بعض اليهود المعاصرين بالأوهام الاستشراقية عن التوراة فقد سمَّوا بعض أولادهم باسم (مور- مثل مايكل مور).

(٢) إذا ما جرَّب قارئ الكتاب، قراءة هذا المقطع بدقة أكبر وتأمل فيه بعمق؛ فسوف يلاحظ ما يلي: أن الهمداني يتحدث عن واد عظيم له ضفتان (غربي همدان) وشرقيها. وهذا وصف مذهل ومطابق تماماً لما ورد في التوراة عن شرقي وغربي النهر (ها-يردن). علماً أن الهمداني سوف يصف وادي مور هذا بأنه (يرد-ن) أيضاً. وهذا ما سوف نتحدث عنه بالتفصيل في موضعه. إن خرافة نهر الأردن سوف تتضح بأجلى معانيها كخرافة استشراقية ناجمة عن خطأ في القراءة الغربية للتوراة.

لأن العبرية لا تعرف حرف الذال المُعجمة. وفي الواقع ؛ فإن المترجمين لا يعرفون على وجه الدقة متى يستخدمون هذين الحرفين في رسم أسماء المواضع، وسنرى أمثلة عدّة عن سوء استخدام حرف الدال المُهْمل؟ ولذلك نراهم يتخبطون في ضبط الأسماء؛ فتارة يرسمونها بالدال حين يكون الاسم مُتَضمناً للدال المُعَجمة والعكس. ولكن؛ استناداً إلى الهمداني (صفة: ٢١٨) فإن هذا الموضع من المواضع الهامة قرب الكُساد (قارن مع الكسديم التوراتية في سفر التكوين عن مجيء إبْرام - إبراهيم من أور الكسديم والكُساد جمع كسد) كما أنه قرب وادي حلف. وحلف هذا من منازل بني يهوذه عند يشوع (حلف). ذلك ما يفسر لنا معنى قول يشوع: إن منازل شمعون تمر بمنازل يهوذه وهي غَوْرَهم (والغَوْر: الامتداد الطبيعي للوادي أي المُنْخَفض من الأرض) إذْ هناك سلسلة من منازل يهوذه قرب فج المَوْلِدَة مثل حُرْمَة وَحلف.

يقول الهمداني (صفة جزيرة العرب: ٢١٨):

ثم الجوف الأعلى وبه من القرى شُوابَة، وهرَّان والسفل، والمناحي على شط الخارد. وبهذا الجوف أكانط ومَحصْم وفجّ المولدة، وصولان خرفان والكُساد.

حسب وصف الهمداني هذا؛ فإن فج المَوْلِدَة- المولدة في التوراة، تقع في الجوف اليمني وليس في فلسطين وإلى جوارها السفل (السفل في سِفر يشوع كما سنرى تالياً). كما أنها تقع على مقربة من هران -هران عند يشوع- انظر مادة هرم عندنا، فضلاً عن الكُساد - كسديم. وفي الجوف اليمني كما رأينا - في مادة سبط بن يامن - يوجد بئر العَرِمْ - يعريم كما يوجد موضع يدعى حده - حدا عند الهمداني. وهذا تماثل يستحيل ردّه إلى عامل الصدفة الجغرافية.

هناك في الواقع، سلسلة من المواضع الواردة في سِفر يشوع يضعها الهمداني في منطقة الجوف اليمني، بينما يضعها يشوع قرب أو في وادي عمق. والاسم يعني في العبرية: الوادي، بينما تعني كلمة الجوف في العربية الوادي العميق. لقد بحثت القراءة الاستشراقية عبثاً عن فج المولدة في فلسطين التاريخية، وأخفق علماء الآثار من التيار التوراتي في إيجاد دليل لغوي أو أثري واحد، مهما كان عَرَضياً لدعم فرضيات المُطابقة بين فلسطين التوراة وفلسطين التاريخية. ها هي فج المولدة أمامنا كما سجّل اسمها يشوع والهمداني في المكان نفسه. إن بلد همدان الذي وجدتُ فيه هذه المواضع وبالأسماء نفسها، دون أدنى تلاعب، يمتد ما بين تهامة من نجد الى السراة شمالي صنعاء وما بينهما صَعْدَة وخولان؛ أي أن هذا الفضاء الجغرافي في صفة جزيرة العرب هو ذاته الفضاء الجغرافي التوراتي. يلاحظ الهمداني في هذا الصدد ما يلي: أن بلد خولان ينقسم - من الناحية الجغرافية - في خط عَرضيّ ما بين صَعْدة وصنعاء؛ ففي قسمٍ منه تقطن قبيلة بكيل اليمنية الشهيرة، وفي قسم آخر تقع أوطان قبيلة حاشد. وبينما تقع في قسم حاشد منازل بكيل، فإن قسماً من منازل حاشد يقع - بالعكس- في مواطن تابعة لبكيل. إن هذه الملاحظة الثمينة والنادرة عن نمط الاستيطان القديم للقبائل اليمنية، تحيلنا مباشرة إلى قول يشوع عن مرور منازل بني بن يامن وشمعون في أراضي بني يهوذه. وهنا نص الهمداني (صفة: ٢١٧ -٢١٨):

> **وفي قسم بكيل بلاد لحاشد وفي قسم حاشد بلاد لبكيل. فأول شق بكيل الصمع وحدقان وبئر العَرِمْ من شرقي الرحبة ويسكن هذه المواضع بلحارث ومن همدان. ثم الجوف الأعلى وبه من القرى شُوابة وهران (.....) وفجّ المولدة.**

هذا التوافق المثير بين أسماء المواضع وتطابقها التام، في إطار النمط ذاته من الاستيطان القبلي، والذي لا وجود لما يماثله في فلسطين، يفسّر لنا على أكمل وجه المعنى الحقيقي للعبارة التوراتية الشائعة والقائلة: إن منازل الأسباط تتداخل بعضها مع بعضٍ، حيث تدخل حصة شمعون - سمعون في حصة يهوذه، وحصة بن يامن - بنيامن في حصة يوسف؛ بل وسوف تفسّر لنا معنى استخدام يشوع لكلمة: حقوق التي توهمها الاستشراقيون اسماً لموضع مُقدس من مواضع بني إسرائيل. إن كل هذا يُدَلِّل على أن نمط الاستيطان القديم لم يكن يعرف تراتباً أو تسلسلاً صارماً للمنازل، كما افترض الدارسون حتى العرب منهم، حين سعوا تحت تأثير القراءة الاستشراقية الى التأكد من هذا التراتب.

٤- عُصُم

حسب وصف يشوع وضبطه لأسماء المنازل التي أقام فيها سبط شمعون؛ فإن جبل عُصُم يجب أن يكون في السراة ذاتها سراة عذر وهَنْوم. إننا لا نعرف هذه الأسماء في فلسطين القديمة، كما أن علماء التوراة لم يفلحوا في تحديدها؛ بيد أن الهمداني يعطي الاسم نفسه وفي المكان نفسه. وهذا ما سنراه هنا عبر هذه المقاربة: في النص العبري (١٧ : ١٩ : ٢١ : ١٨) نقرأ ما يلي:

موله‍- وحصر-شعل- وباله- وعصم
(ومولدة وحَضَر شُعل وباله وعُصُم)

طِبقاً لهذا التحديد؛ فإن عُصُم يقع قرب المولدة وشُعل في سراة عُذر وهَنْوم. فهل لدى الهمداني ما يؤيد مثل هذا التحديد؟ يقول الهمداني في وصف سراة اليمن وما يتصل بها من جبال ومرتفعات (صفة : ١٤١) ما يلي :

ثم يتصل بهذه السراة، سراة عُذر وهَنوْم وظاهر بلد الجواشة، فبلد الشاكريين من أهل الدرب، ونودة، فالحفر من أعلى عُصْمان.

ها هنا جبل عصم (عُصمُن- بإضافة النون الكلاعية الدارجة على لسان اليمنيين من أهل الكلاع) في المكان ذاته وفي السراة ذاتها. ويبدو أن الشعراء القدامى احتفظوا بالصيغة القديمة لنطق الاسم: عُصُم من دون حرف النون التي استُخدِمت كأداة تعريف، في وقت ما عند القبائل اليمنية، مثلها مثل الميم الداخلة على الأسماء. وذلك ما يؤكده قول العجاج الراجز المشهور في بيت نقله الهمداني:

لو أنَّ عُصْم شعفات النيّر يسمْعنَهُ باشرنَ للتبشيرِ

لكن الهمداني وهو يروى هذا البيت قال: إن الشاعر قَصَد به جبل العُصُم - بأداة تعريف- في مُر الظهران، وهذا مُحتَمل لأن منازل سبط شمعون تبلغ حدود عسير حسب وصف يشوع والهمداني؛ ودليلنا على ذلك أن الشعراء رسموا اسم جبل عصمان اليمني في صورٍ متنوعة، مثلاً: عصام، عاصم وكلها تشير الى الجبل نفسه، إذْ لا يوجد جبل يُدعى عاصم أو عصام في اليمن أو الجزيرة العربية أو فلسطين، سوى جبل عصمان هذا. ومع ذلك فقد عرفت اليمن جماعة تدعى بني عُصم. وهؤلاء هم الذين قصدهم يشوع في قائمته. (انظر بني عصم تالياً). أما جبل العُصُم في مُر الظهران فمن الثابت أن الشعراء رسموا اسمه بأداة تعريف. إن التوراة - وسفر يشوع تحديداً - تعطي اسم عُصم في صورتين كما سنرى، مرة في صورة عصمون ومرة في صورة عُصم؛ ولذلك فمن المُحتمل أن هاتين الصيغتين تدلّان على عُصم قرب حَلْي أي في امتداد ساحل زُبيْد وعلى بني عصم في سراة عُذر وهَنوْم في الآن ذاته.

قال أبو جُندُب (معجم: ٤٢٩):

بَغَيتُهُم ما بين حدَّاء والحُشا وأوردتُهُم ماء الأثيل فعاصما

ليس ثمة جبل يُدعى عاصم قرب جبل الحُشا، مهما فتشنا هناك مُستدلين بقول الشاعر؛ بل هناك جبل عُصُم غير بعيد عن جبل الحُشا في سلسلة جبال السكاسك- ضمن حدود مدينة عدن اليوم- والذي تمر بالقرب منه مياه أودية زُبَيْد. وإلى هذا الجبل ينتسب بنو عُصم في التوراة. وإذا ما سار المرء على امتداد الساحل نفسه؛ فإنه سوف يلاقي جبل عُصُم غير بعيد عن حَلْي. وهذا ما يؤكده الهمداني (صفة: ١٤١) في وصفه لجبل الحُشا:

ثم أودية زُبَيْد، وما بين بلد مجيد وأبْيَنْ من الأودية المُنتهية ذات الجنوب إلى حيز عدن. فأول وادٍ منها من تلقاء المشرق وادي الرغادة قوم من حِميْر، فجبل صَرَر من أرض السكاسك فجبل الحُشا.

هو ذا جبل الحُشا الوارد في قصيدة أبي جُنْدُب، بالتلازم مع عصم ضمن سراة عُذر وهَنوم. لقد ميَّز الشعراء القدامى تمييزاً دقيقاً بين العُصُم في مُر الظهران قرب حَلْي على ساحل البحر الأحمر، وبين عصم هذا في سراة عذر وهَنْوم والذي يُرسم اسمه في صور شتى: عُصمان، عاصم، عصام، عُصُم.

قال الشنْفَرى:

غزوتُ من الوادي الذي بين مَشْعَل[1] وبين الحُشا هيهات أبعَدْتُ غزواتي

وها هنا مُشْعَل - الشُعل تماماً كما في قائمة يشوع، لا يكاد يفصله عن عُصم سوى الوادي الممتد حتى جبل الحُشا، طبقاً لتوصيفات الشاعرين

---

(١) يحيلنا الاسم مرة أخرى إلى مشكلة الميم اليمنية والعبرية (شعل- مشعل: الشعل) بوصفها أداة تعريف منقرضة. وهذا ما سنعود إليه مراراً في هذا الكتاب.

العجاج والشنْفَرى. وبالطبع؛ فإن الميم السابقة على الاسم هي من بقايا أداة التعريف القديمة والمُنقَرضة.إننا لا نعرف جبلاً يُدعى مشعل -شُعل في فلسطين التاريخية غير بعيد عن عُصُم؛ بينما نعلم من الشعراء العرب القدامى بوجود هذين الجبلين متجاورين في سراة اليمن، وفي الفضاء الجغرافي نفسه الذي صوَّره يشوع. ولنلاحظ هنا أمراً هاماً: إن نصوص التوراة تعطي صيغاً متنوعة من الأسماء، وهذا ما يفعله الهمداني في كتابه، حتى ليبدو الأمر وكأنه تكرار وقع فيه سارد النص. مثلاً: المولدة (من دون كلمة فج) في هذه القائمة، وفي قائمة أخرى حرفياً: فج المولدة - انظر منازل سبط يهوذه-. ومن وجهة نظر هذا الكتاب؛ فإن التنوع والغنى في أسماء المواضع لا يتعلق بمجرد حدوث تغيرات فونوطيقية طفيفة، أو بوجود ميول عند سارد النص لاختصار الأسماء الطويلة؛ كما هو الحال مع اسم المولدة؛ وإنما يتعلق كذلك بوجود موضعين يحملان صيغتين مُتقاربتين، كما هو الحال مع عُصم وعصمون، وهما عند الهمداني كما رأينا عُصم وعُصمان. لقد تلازمت الاختلافات الطفيفة في أشكال رسم الأسماء، مع تطوُّر النصوص التوراتية والعربية العتيقة وخصوصاً الشعرية، كما تلازمت مع تطور تقاليد الرواية الشعرية عند العرب؛ وتقاليد تحرير النصوص التوراتية على حد سواء. ولأجل التدليل على أن الشعر العربي القديم، كان هو الآخر، يُراعي هذا الجانب من تطور أشكال نطق الاسم ورسمه؛ فإن بيتاً من الشعر لخدَّاش بن زهير وهو من الشعراء العامريِّين الجاهليين (من بني عامر سكان المكان الموصوف) رسم اسم عُصم (ديوان العامريِّين: ٤٣) في الصورة التالية، قال:

سَرَحتْ بصائتها وأقْسَمَ عارضٌ   بالله يطعم لحمُها وعصامُ

وليس ثمة في طول الجزيرة العربية وعرضها، ولا في اليمن القديم كله ولا في فلسطين بالطبع، موضع يُدعى عصام؛ بل هناك عُصم اليمني

-عُصم عند يشوع وعصمان في سراة عُذر وهَنْوم عند الهمداني. ولأجل أن نفرغ من تحديد هذا المكان بدقة استناداً إلى وصف يشوع، فإننا سنتبع التقنية العربية العتيقة في الاستدلال إلى المواضع، عبر مقاربتها مع المواضع الأخرى. يقول البكري (معجم: ٩٤٦) تعليقاً على بيت الشَنْفرى مُحدداً الطريق إلى جبل مشعل حيث جبل عصم:

مشعل: في شرقي ناعط في بلاد همدان من اليمن.

فهل هي مصادفة وحسب؛ أن يكون عُصم ومشعل إلى الشرق من همدان، أي شرقي وادي يرد (المسمى كذلك مور) بينما سُمْع وشباع إلى الغرب منه؟ وفي القراءة الاستشراقية هما شرق وغرب الأردن- ها يردن وغير بعيد عن هذه المواضع فج المولدة؟ يتبقى أخيراً أن نشير إلى المقاصد الحقيقية من وجود كلمة حَضَر السابقة على اسم شُعل. إن قراءة مُعمقة ومُتَطلبة في بيت الشَّنْفَرى سوف تضع أمامنا صورة شيقة للوادي الذي يفصل مشعل - شُعل عن الجبال القريبة منه؛ وليس ثمة من وادٍ في هذا المكان سوى وادي حَضَر الذي يبدأ جريانه من الضالع ويصبُّ في عدن. ولذا نُسبَ الوادي - لأنه يصب قرب الجبل- إلى الجبل نفسه تمييزاً للمياه الجارية في هذا المكان عن الوادي الكبير، وهذه عادة مألوفة في التوصيفات الجغرافية القديمة، حيث تسمى المياه القادمة من الوديان بحسب درجة قربها من المواضع. والحال هذه؛ فإن مياه وادي حَضَر نُسبت إلى جبل شُعل - حَضَر شُعل بما أنها تجري عند سفوحه.

٥- بيت لبوءة

يُرسم اسم هذا الموضع في اللغة العبرية في صورة: لبء وت - بواو واحدة- ولكن النسخة العربية من التوراة تعطي رسماً خاطئاً وغريباً: لبوء

وت-. وهذا ضبط غير مقبول لأنه يفترض وجود حركة إعرابية تضمُّ الهمزة المهملة بعد الباء، كما يفترض أن التاء الأخيرة هي تاء طويلة وليست مربوطة (لبوءة). ولذلك؛ فإن الضبط العربي الصحيح مع التقيد بالحركات الإعرابية الافتراضية في اللغة العبرية، سيراعي ضرورة ضم الحرف الثاني: لبُوءَ ة. يقول الهمداني في وصف جبل لبُوءَ ة (صفة: ٢٠٦) في مخلاف ذمار:

مخلاف ذمار: ذمار قرية كبيرة جامعة بها زروع وآبار قريبة يُنال ماؤها باليد ويسكنها بطون من حِمْيَر ورأس مخاليفها بلد عنس[١]. ويُقال: إنه منسوب لعنَس بن زيد بن سَدَد بن زرعه بن سبأ الأصغر، وهو مخلافٌ نفيس كثير الخيرعتيق الخيل، كثير الأعناب والمآثر، به بينون[٢]، وجبل لبُوءة.

لقد بحث علماء الآثار من التيار التوراتي عبثاً، عن جبل يدعى لبوءة في فلسطين التاريخية. كما أن كمال صليبي وفي أثناء تفتيشه عن بني إسرائيل داخل جغرافية بلاد عسير، أهمل فكرة التقصي عن حقيقة وجود حبل بهذا الاسم هناك؛ وها هو الهمداني يعطي الاسم نفسه تماماً كما في الرسم العبري دون أدنى تغيير، وفي الفضاء الجغرافي ذاته لسائر المواضع

---

(١) سيأتي الكلام في الأجزاء التالية من الكتاب عن عنس التي وردت في قوائم الفراعنة الخاصة بحروبهم مع الآشوريين على أرض اليمن، حيث سقط هذا الموضع في قبضتهم. (انظر قوائم الكرنك عندنا).

(٢) سوف ندرك معنى هذا الاسم حين نقاربه مع الاسم التوراتي: لبينون. واللام اللاصقة هنا أداة تعريف منقرضة استخدمها اليمنيون مثل: وادي حماس - وادي لحماس. إن اللام اللاصقة في كلمة لبينون العبرية هي التي أدَّت إلى الفهم الخاطئ لاسم المكان: بينون وقلبته في المخيال الغربي إلى لبينون بمعنى لبنان؟

السابقة. إن المكان الوحيد في طول الجزيرة العربية وعرضها، والذي يحمل هذا الاسم هو جبل لَبُوءة في ذمار؛ ولا وجود لأي اسم شبيه أو بديل في أي بقعة أخرى. وحتى لو افترضنا وجود مثل هذا المكان الشبيه؛ فإن لمن الصعب وضعه في الفضاء الجغرافي الذي يرسمه سِفر يشوع، حيث سلسلة من الأسماء التي يستحيل إيجاد بدائل لها. وبطبيعة الحال؛ فإن فلسطين التاريخية لا تعرف جبلاً يُدعى لبُوءة قرب فجّ المولدة وشباع وعُصم وسُمْع. وفي هذا الصدد لابد من ملاحظة ما يلي: إن الهمداني يَنْسِبُ أهم جزء في هذا المخلاف المزدهر والخصب، إلى أب أعلى في العائلة اليمنية القديمة هو بن سَدد. وفي الأنساب اليمنية- الحميرية يظهر بن سَدَد هذا كأبٍ أعلى، وغالباً ما يتردَّد اسمه في نصوص الهمداني ونسَّابة اليمن كاسم علم لبطل تاريخي. فهل ثمة صلة بين سَدَد- ءسدد[1]، وبين اسم الموضع التوراتي ءشدُدْ- اشدود؟ إن نصوص التوراة لا تشير إلى ءشدُدْ كموضع ساحلي قط، وليس ثمة نص أو إشارة صريحة في سِفر يشوع تدُّل على أن المكان هو ميناء أو موضع ساحلي. وسوف نعود تالياً إلى هذه المادة لمزيد من التوضيح. لكن وبصدد جبل لبُوءة لا بد من ملاحظة؛ أن الجغرافيين المسلمين قاموا بتعريفه كجبل ووادٍ بالاسم نفسه كما عند البكري (معجم: ١١٥٠). إن هذا التعريف يفسرُ لنا جزئياً المعنى الذي تنطوي عليه عملية تثنية الاسم في الشعر العربي القديم. قال إبن مقبل واصفاً جبل لبُوءة:

وطلَّقَ لُبْوان القبائل بعدما ... سقى الجزع من لَبْوان صُفواً وأكْدَرا

تكمن أهمية هذا الموضع -برأينا- في أنه يمهد السبيل أمام فهم أفضل للغز الاسم ء شدُد -ء شدود. وهذا ما سنعود إليه في موضعه.

---

(١) لاحظ دخول الألف المهموزة أو الهمزة منفردة على الاسم، فهذا يعود بنا إلى أدوات التعريف المنقرضة عند اليمنيين: شدد- ءشدد (سدد- ءسدد).

٦- حُرْمة

يحدد الهمداني (صفة : ٢١٧) موضع حُرْمة -حرمة عند يشوع في بلد همدان. أي تماماً إلى جوار سائر المواضع السابقة :

أما بلد هَمَدان؛ فإنه آخذٌ لما بين الغائط وِتهامة من نجد والسراة في شمالي صنعاء وما بينهما وبين صَعْدة (......) فأول شق لبكيل : الصَّمْع وحدقان وبئر العرم (.....) وجبل ذَيْبان، وشق مَحْصَمْ الشرقي، وُحْرَمة (...) وجبال نِهم إلى أصْحرْ، جبل يام، إلى هيلان، إلى حريب.

هذه هي حُرْمَة - حرمة على مقربة بالفعل من بئر العرم - يعرم، وإلى جوارها بعض منازل يهوذه مثل : جبل ذَيْبْان - ديبن عند يشوع، فضلاً عن يام الجبل الذي سنتحدث عنه تالياً بصورة مُفصلة. قال ابن مقبل (ياقوت : ٢ : ٢٨٢):

حـيٍّ دار الـحـيٍّ لا دار بـهـا بـأُثـالٍ فـسـخـالٍ فـحـرمِ

إننا لا نعرف مكاناً في فلسطين أو عسير يُدعى حُرْمَة، إلى جوار المواضع الآنفة التي يصفها يشوع والهمداني؛ كما أن وجود حرمة التوراتية إلى جوار بئر العرم -يعرم، أمرٌ يستحيل التحقق منه خارج إطار هذه الجغرافية، والمثير أن الشاعر ينظر إلى حُرْمَة هذه كمنازل قبلية زائلة يُلقي إليها بتحيّته. فهل في الوصف ما يدعو إلى الاعتقاد بوجود مصادفة؟

٧- عسن[(١)]

في خاتمة المقطع الخاص بحصة هذا السبط؛ يُسجل يشوع اسم عسن ضمن المواضع المُلحقة (في الرسم العبري: عسن وفي الطبعة العربية عشان):

ثلاث عشرة منزلاً بعُزْلاتها: عيان، ورمُّان وعثر وعشِان (عسن).

ولأن رمُّان -رمن- تتردَّدُ بكثرة في نصوص التوراة؛ فسوف نقوم بمعالجتها في مكانها المناسب. أما عثّر - عتر فهي الأخرى من المواضع التي يسجلها السِّفر، ونصوص متفرقة من التوراة في صور مثيرة؛ الأمر الذي يتطلب معالجة أوسع. ولذا سنتركهما إلى الفصول اللاحقة بينما سنتوقف- هنا- أمام عسن. إذا تقبلنا الرسم العبري عسن بوصفه رسماً قديماً ومألوفاً للاسم؛ فإن هذا الموضع هو الذي عناه بيت شعر لزهير بن أبي سُلْمى (معجم: ٩٤٣) برواية الخليل بن أحمد الفراهيدي وهي رواية دقيقة لا يطاولها الشك:

كأنَّ عليهم بجنوب عسن غُماماً يستهلُّ ويستْطيرُ

وهذا الوصف المُدهش لجبل عَسْن؛ يعرض علينا رسماً قديماً للاسم كان مألوفاً في الإسلام المبكر، لكن أحداً بالطبع، لم يكن قادراً على الاستدلال إليه. ولا وجود لموضع جبلي في فلسطين أو عسير يُدعى عَسْن كما في الرسم العبري. فماذا يحدث لو أننا تقبلنا الرسم العربي: عشان؟

---

(١) انظر ما كتبناه عن جبل عسن هذا في كتابنا الصادر حديثاً (قصة حب في أورشليم- ترجمة جديدة لنشيد الإنشاد) دار الفرقد - دمشق ٢٠٠٥ وفيه تحديد دقيق لاسم المكان كما ورد في التوراة.

يقول محقق كتاب الهمداني: إنه وجد اسم موضع يُدعى العستين قرب وادي كتاف؛ لكن سكان المنطقة أنكروا معرفتهم به وقالوا هو العشتين (بالشين المُعجمة) مع أن كل نسخ المخطوطة تضبطه بالسين المُهملة. تُرى إلى أي مصدر أو قاعدة لغوية استند مترجمو النص العبري في رسم الاسم في صورة عِشان؟ في الواقع لا يوجد أي أساس لهذا الرسم. لقد وصف الهمداني جبل عسن في آخر سراة خولان (صفة: ٢٢٧) قائلاً: إنها تُدعى ذات عش- وبإلحاق النون الكلاعية في النطق اليمني عشن ضمن بلد وادعة. إن عَسْن (عند يشوع وزهير بن أبي سُلْمى) هي المكان نفسه عند الهمداني عشن؛ بحسب نطق قبائله الساكنة فيه. وفي هذه الحالة يكون قرب سائر المواضع الواردة في القائمة. يقول الهمداني:

وذات عش (...) والجبل الأسود وهو معظم بلد جنب وهو ما بين منقطع سراة خولان بحذاء بلد وادعة.

٨- عيان

يقع وادي عيان-عين في الرسم العبري وهو بلدة صغيرة وقديمة أيضاً، أسفل نقيل حجَّة (محافظة حجة اليوم) في المكان نفسه لسائر المواضع السابقة، وإلى جواره كثرة من الأماكن الواردة في نصوص يشوع، هاكم وصف الهمداني (صفة: ١٣٤) لوادي عيان هذا:

ثم يتلوه وادي مَوْر وهو ميزاب تِهامة الأعظم، ثم يتلوه في العظم وبُعد المآتي زبيد ومساقي مَوْر تأخذُ غربي همدان جميعاً وبعض غربي خولان، فأول شِعابه ذُخار، وسمع، فبلد صُحار فبلد بني حارثة وبني

رفاعة وحماد ويرد[١]، ويد[٢] من حجور فعيان، فادران، وشرس، فبلد عذر وهنوم.

فهل هي مُصادفة أخرى أن وادي عيان- عين في الفضاء الجغرافي نفسه الذي يصفه يشوع؟

٩- عثَّر

لأن العبرية تفتقر إلى حرف الثاء المثلثة؛ فقد جرى ضبط سائر المواضع التي تتضمَّن هذا الحرف بالتاء المُثنَّاة من فوق عثَّر- عتر، كثلة- كتلة - رمث- رمت، وهذا ما سوف نوضحه بجلاء في مكانه المناسب. ولذلك سنقوم-هنا- بضبط اسم الموضع في صورته الصحيحة: عثَّر. قال الأحوص:

ألـمَّـت بـعـثَّـر مـن قُـبـاءٍ تـزورنـا   وأنـى قُـبـاء لـلـمـزاور مـن عـثَّـر

وقال الكُميت الأسدي:

بنو أسدٍ أحْموا على الناس وقْعَة   ضـواحـي مـا بـيـن الـجـواء فـعـثـرا

وردَ اسم عثَّر القديمة وهي ساحل اليمن الخصيب، في نقوش كثيرة وفي المساند الحِمْيَرية على وجه الخصوص؛ كما تغنَّى بها الشعراء على مرِّ العصور، ودارت حولها أساطير ارتبطت بالملك اليمني شمر يرعش

(١) لاحظ أن الهمداني يعطي في هذا النص اسم الجماعة القديمة يرد (يرد بن مهلئيل في التوراة وفي أنساب اليمنيين والعرب القدماء) وهم ينطقون الاسم في صورة يرد-ن، بإضافة النون الكلاعية، مثل صنعا- صنعن، عندن، عدنن. والاسم (يرد) يأتي في سياق وصف وادي مور.

(٢) سوف يأتي الكلام عن وادي (يد) هذا الوارد في التوراة.

(يهرعش). وكنا لاحظنا من وصف الهمداني (صفة : ٩٨) أنه يضع جازان في ساحل عثَّر، وفي التوراة؛ فإن جاسان-جازان هي من منازل سبط يوسف، بينما يقول يشوع إن منازل شمعون تمر بأرض بني يهوذه المتاخمة لها. يعني هذا أنها تمر قرب الساحل وهذا ما يتوافق تماماً مع وصف الهمداني :

ثم الهَجْر، قرية ضَمد، وجازان. وفي بلد حكم قرى كثيرة يُقال لها المخارف، وصبيّا، ثم بيش وبه موالٍ لقريش، وساحله عثر وهو سوق عظيمٌ شأنها ؛ تثقله العرب فيقولون: عثَّر.

وسوف نرى أن وادي بيش في هذا النص هي ذاتها يبيش التوراتية التي خاطبها يشوع (انظر مادة بيش في الفصول التالية)

١٠- بيت المْركُبة

في الأصل العبري : بيت-ها- مركبه. لكن الاسم يُرسم في التوراة العربية في صورة بيت المركبوت، ونرى أن الضبط العربي الصحيح هو بيت المرْكُوبة. كما توجد في التوراة صيغة أخرى موازية تماثل بناء الاسم هذا، ولكن من دون حرف الميم : رَكْبُوت؛ ويسجلها سفريشوع كموضع آخر. وفي الواقع؛ فإن الموضعين مَرْكُوبة وَركْبُوت هما موضعان عند الهمداني كذلك، وهذا أمر مثير حقاً. يقول الهمداني (صفة : ٢٣٢) عن الموضعين مَرْكُوبة وركبوت ما يلي :

وببلد حكم قرى كثيرة مثل العداية والركوبة. ثم بلد حرام من كنانة، والحرَّة، حرَّة كنانة، والمعْقَد وحَلْي ومرْكُوب.

هل هي مصادفة مَحْض على مستوى اللغة والجغرافية، أن يعطي يشوع اسميْ هذين الموضعين المُتجاورَيْن ثم يعود الهمداني بعد عشرات

القرون، ليضعهما داخل نصه كموضعين متجاورين عند ساحل البحر الأحمر من جهة اليمن؟ صعوداً من ساحل عثّر وقرى حَكم وجازان والعداية - عدايتءيم عند يشوع، بينما لا تعرف فلسطين أياً من هذه المواضع؟ قالت جَنوب (شقيقة الشاعر والفارس اليمني عمرو ذي الكلب) ترثي أخاها:

أبلغْ بني كاهل عنّي مُغَلْغَلَة   والقوم دونهم سعيا ومركوبُ

يقول ياقوت (٥: ١٢٨): مَرْكُوب هو مَخْرَمْ أهل اليمن. أما البكري فيضيف (معجم: ١٢١٦) فيقول: هي قرية من تهامة اليمن. إذا ما قمنا بمُطابقة توصيف الهمداني لمنازل هذا السبط في شباع وسُمْع ولبوءة، صعوداً من سلسلة جبال الركب حتى ركُوبة ومَرْكُوب وحَلْي، مع سِفر يشوع الذي يسجل الأسماء نفسها؛ فإن تسلسل المواضع يبدو منطقياً تماماً، آخذين بنظر الاعتبار أن جبال الركب اليمنية التي سنأتي على ذكرها تالياً، هي من منازل القبائل في السراة ذاتها التي نزل فبها سبط شمعون. وفي جبال الركب هذه سلسلة من المنازل الواردة في يشوع منها جبل دُبَّاس- دباست وجبل شمير. يعني هذا أن كلمة بيت مركبة في النص العبري تنصرف أيضاً إلى معنى الوادي، والمنازل القبلية في آن واحد في جبال الركب. (والميم في مركب هي من بقايا أداة التعريف مثل: ء مسفر في السفر، وء مرجل في الرجل، وءمركب في الركب) وهنا استعادة للتسلسل الذي سجله يشوع:

وبئر شباع، وسُمْع، ومولدة (...)وبيت مَرْكبه (....) وبيت لبوءة.

الأمر الهام الذي يتوجب لفت أنظار القارئ إليه، في هذا التماثل المُدهش بين نصوص الهمداني ويشوع، وكذلك التطابق في الوصف

وضبط الأسماء في النسيج الإخباري للنصوص-مع الأخذ بنظر الاعتبار الفروق الطفيفة في النطق العبري والعربي- هو التالي: إن الجغرافيين المسلمين (انظر مثلاً ياقوت: ٥: ١٢٨) كانوا يعرفون مَرْكُوب هذا بوصفه مَحْرَم أهل اليمن، بما يعني أن الاسم يَخْتَزن ذكرى قديمة منسيّة عن عبادة كعبة نجران التي كان أهل اليمن يقصدونها للحج؛ وهذا معنى قوله: فكان مَرْكُوب هو مَحْرَمهُم. وسوف نرى في فصل حروب داوود، كيف أنه هاجم موضع ربَّة واستولى عليه، أي على ربة نجران. وبالطبع؛ فإن سقوطها بيده كان تتويجاً لسلسلة من الصراعات الضارية والدامية ضد بني عمون سكان نجران؛ وهم من الجماعات الوثنية التي اصطدمَ بها بنو إسرائيل، في سياق انتشار الديانة الإبراهيمية التوحيدية انطلاقاً من اليمن القديم، وتحديداً من أور الكساد- كسديم بحسب القصة التوراتية - المثيولوجية وليس من أور العراقية كما يتوهم المؤرخون والكتاب اليوم. وهذا ما سنعالجه بالتفصيل في فصل حروب داوود. إن بيت شعر الشاعرة اليمنية الجاهلية جنَوب؛ يُخاطبُ جماعة تدعى بني كاهل بوصفها جماعة قَبَلية تقيم في موضع مَرْكُوب - ركوبه، وهذه الجماعة تُسجلُ التوراة اسمها في صورة كهلان - وفي أنساب اليمن هم بنو كهلان كما عند الهمداني في الإكليل- يقيمون في الفضاء الجغرافي ذاته الذي وصفه كتاب صفة جزيرة العرب حيث جبال سُمع ولبوءة وفج المولدة. فهل في هذا التوافق المُدهش بين وصف الشاعرة الجاهلية والهمداني من جهة، وبين سرد التوراة الذي يعطي اسم الجماعة العربية القديمة ضمن أنساب بني إسرائيل، نعني كهلان من جهة أخرى، هو مجرد توافق عَرَضيّ مصدرهُ التماثل اللغويّ؟ وإذا كان هذا أمراً مُحْتَمَلاً، فماذا عن المكان؟ ولماذا لا نعرف مثل هذه الجماعة في فلسطين؟ يُعيدُنا هذا البيت من الشعر إلى الحقيقة التاريخية المُتَلَاعب بها؛ وهي أن بني إسرائيل في التوراة ليسوا سوى جماعة يمنية عربية بائدة مثلها مثل عاد وثمود، وأن

التوراة هي كتاب إخباريّ- ديني يتضمن عقائد هذه الجماعة وأخبارها وحروبها ومواطنها ومنازلها.لقد بيَّنا في كتابنا شقيقات قريش (مصدر مذكور) بوضوح أن التوراة كتاب يتضمن، فضلاً عن المكوّن الديني الوَعْظي والتشريعي، مكوّناً إخبارياً عتيقاً هو خلاصة وصف لأوضاع وجماعات وعقائد وحروب وأماكن بعينها، لا صلة لفلسطين بها لا من قريب ولا بعيد. ومن غير شك؛ فإن شجرات الأنساب اليمنية التي تتضمن اسم عابر كجدّ أعلى للعرب، ليس أمراً ناجماً عن خيال الإخباريين وسَهْوهم أوعن أوهامهم ومُخْتَلَقاتِهم؛ بل عن معرفةٍ راسبة ومتواترة سعى العرب من خلالها إلى تعريف جذورهم القديمة، كما تفعل-عادة- كل جماعة مُمتَلكة لتاريخ عتيق غير قابل للاسترداد. يصف الهمداني موضع مَرْكوب في شعر جنوب أخت ذي الكلب (صفة: ١٣٠ - ١٣١) قائلاً:

ثم الجبل الأسود، وإلى الشقرار، وَسْعيا في أرض جُرَش. ثم يتلوها سراة عَنَزْ وغَوْرهم بارق، ثم سراة بُجَيْلَة وسراة بني شبابة، وَعدْوان، وغَوْرهم الليثْ ومَرْكُوب.

لنلاحظ هنا استخدام الهمداني لكلمة غَوْر- غَورهم في وصف نمط الاستيطان وهو ما يقابل كلمة نحل، و-ها-نحلتم في العبرية، التي تُرجمت خطأ إلى ميراث- ميراثهم. إن الجماعة التي أقامت في المناطق الجبلية والعُزْلات، أقامت أيضاً في المناطق المُنخَفضة بما أنّ الأغوار هي الامتداد الطبيعي للسلسلة الجبلية ووديانها الخَصْبَة. وسوف نرى تالياً اسم الجماعة اليمنية بارق وهي عند يشوع بارق، قبيلة من قبائل العرب أقامت في المناطق المُنْخفضة على الساحل وتسمّت باسم جبل بارق. إن وصف يشوع يكتسب صدقيّته عبر مُقاربته مع وصف الهمداني.

١١- بُتُل

الرسم العبري للاسم هو: بتول (بُتُل). قال أبو زياد الكلابيّ:

لَعَمري هامَ الفؤادُ لحاجةٍ بقطّاعة الأعناق أم خليل
فمن أجلها أحببتُ عوناً وجابراً وأحببتُ وَرْدَ الماء دون بتيلِ

إن قارئ الشعر القديم، أي قارئ، يعرف أن الواو أخت الياء وهما تتبادلان الدور ذاته في الوزن الشعري والقافية؛ والعرب في سائر لهجاتهم كانوا ينطقون الواو ياء، وهذا أمر لا خلاف عليه لغوياً. يصف ياقوت الحموي (انظر مواد معجم ياقوت: ١١٤٥٥، ١٤٥٦، ومعجم البكري: ٢٢٤، ٢٢٥، ٧١٢، ١٢٤٤، وانظر ياقوت كذلك: ٣٩٩-١، ٤٠٠) موضع بتيل بقوله: وادٍ لبني ذبيان. ثم يضيف إلى هذا الوصف قوله: بتيل: جبل. ويعود ياقوت مرة أخرى إلى القول عن الاسم نفسه: بناءٌ من عصر عاد مرتفع. أما البكري فيكتفي بالقول عنه أنه جبل. ومهما يكن من أمر؛ فإن الجغرافيين المسلمين كانوا يقدمون في الواقع، تفسيراً لكلمات القصيدة من دون أن تكون لديهم الدراية الكافية بها، فمثلاً: لم يجرؤ أيٌّ من رواة القصيدة على القول: من هو جابر الذي أحبه الشاعر؟ وهل من المنطقيِّ الافتراض أنه أحبَّ رجلاً يُدعى جابر؟ ومن أجله وردَ الماء في وادي بتيل؟ في الواقع، ليس جابر هذا سوى مُنَفهق جابر - وعند يشوع هو عصيون جابر؛ مُنْخَفضٌ أرضي في شكل شق تتجمع فيه المياه على الساحل. وهذا ما سوف نوضحهُ في مكانه المناسب؛ وذلك ما يُدلِّل على أن المقصود من بتيل، إنما هو الوادي على الساحل غير بعيد عن مركوب كما هو واضح من الأشعار. قال سَلْمَة بن الحُرشُبْ الأنماري:

فإن بني ذَيبْان حيث عَهدتُهمُ بجزع البتيل بين بادٍ وحاضرِ
وأضحوا حلولاً ما يُفرقُ بينهم على كل ماء بين فيدِ وساجرِ

من الواضح أن الشاعر عنى في قصيدته جماعة بدوية، تقيم عند البتيل (بادٍ أي: بدوي، وحاضر بمعنى من سكان الحواضر - المدن) وهو بذلك يقدم توصيفاً دقيقاً لأوضاع الجماعة ولنمط استيطانها؛ الذي يجمع داخل حدود المكان نفسه بين أشباه المهاجرين البدو من سكان الوادي، والمستقرين المزارعين في السفوح (جزع البتيل) أي سهوله وسفوحه الخصبة.قال مَوْهوب بن رُشيْد:

مُـقـيـمٌ مـا أقـامَ ذُرا سـواجٍ وما بـقـيَ الأخـارجُ والـبـتـيـلُ

يقول البكري؛ وياقوت ناقلاً عنه وعن مصادر أخرى لا يذكرها بالاسم:

بَتِيل: جبل بنجد منُقَطع الجبال.

والأخارج في هذا البيت هي: جبال الأخروج في أعالي زُبَيْد عند البحر (صفة: ١٣٣-١٣٤) ولنلاحظ كيف أن الشاعر خفف الاسم من الأخروج إلى الأخارج على جري عادات العرب الصوتية.

١٢- باله

الرسم العبري للاسم هو: بله، وفي الترجمة العربية: باله وعند ياقوت (المادة رقم: ١٤٠٦) الضبط نفسه: باله. أما الهمداني؛ فإنه يضبط الاسم في صورة بُلى ويضعه في تخوم هَمَدان من جهة النجد حيث أوطان بلحارث (صفة: ٢٨٣). ويبدو أن الهمداني استند في ضبطه إلى الشعر الجاهلي والإسلامي. قال عمر بن أبي ربيعة (وانظر البكري: ١١٢):

سـائـلا الـرَّبـعَ بـالـبـلـى وقـولا هـجْتَ شـوقـاً إلى الـغـداة طـويـلا

ثم استرده جميل بُثينة مُسْتَذْكراً منازل القبائل:

بـيـنَ عـلـيـاءِ وابـشٍ فـبُـلَـى   هـاجَ مـنـسـي شـوقـنـا وشـجـانـا

إن الضبط العربي الصحيح للاسم من وجهة نظرنا هو الوارد في الشعر القديم. ترى لماذا لا نعرف مثل هذا الاسم في فلسطين؟

١٣- عُزْلة سوس

يمكن مكافأة كلمة حصر العبرية بكلمة: العَزْل أو العُزْلة، اليمنية- العربية القديمة وهي تعبير لايزال مُستخدماً حتى اليوم في اليمن. هذا الاقتراح هدفه تقديم أفضل فهم ممكن لمعنى الكلمة العبرية -حصر- التي تُركت كما هي في سائر النصوص دون مكافئ عربي؛ وهو أمر أدى فيما أدى، إلى اختلاطها باسم حصر الوارد في نصوص عدَّة في التوراة والذي سنُدلِّلُ على أن المقصود به وادي حَضَر، بما أن العبرية تستعيض عن الضاد بالصاد. لقد عرفت القبائل العربية في اليمن القديم عُزْلات كثيرة في أعالي الجبال وفي نجد. قال امرؤ القيس (معجم: ٩٤٠):

حَيِّ الـحـمـول بـجـانـب الـعَـزْلِ   إذْ لا يـوافـق شـكـلـهـا شـكـلـي

وقال النابغة الجَعْدي:

كأنْ لم تَربَّعْ في الخليط مُقيمة   بتنهيةٍ بين الشقائق فالعَزْلِ

ولـم تَـعُـدْ أفـراس يُـبـوِّئْـنَ أهـلـهـا   على وَجْل جَنبيْ سَرارٍ إلى الدحلِ

العَزْل في هذه الأشعار هي مواضع قرى ومنازل في بلاد قيس على مقربة من جبل السَّرار (وهو سَرار نجران). إن لهذه الكلمة وظيفة دلالية مباشرة تنصرف إلى توصيف نمط الاستيطان القبائلي؛ فهو منازل وقرى معزولة فعلياً عن مراكز التجمع، وهذا هو المعني الفعلي في الكلمة

العبرية بما أن حصر الشيء: عَزْله. ولذلك؛ فإن المقصود من: حصر - سوسه، حصر - سوس في النص العبري هو: عُزْلة سوس. قال بَشامة بن عمرو (معجم: ٨١٧):

وخُبّرتُ قومي ولم ألقَهُم أجدُّوا على ذي سُويسٍ حلولا

سُويس هنا تصغير سوس، وهو موضع يقع في نجد هَمَدان وليس في أي مكان آخر؛ بما يعني أنه في المكان ذاته الذي وصفه يشوع كما لاحظنا من المواضع السابقة. وإليكم ما يقوله الهمداني (صفة: ٢٩٨):

وكشر في بلد همدان. ذو سويس، عَصْنان، وأله، والصليب، وعماية.

لقد أخطأ البكري أو ناسخ مخطوطته في ضبط اسم هذا الموضع حين رسمه بالشين (شُويس) ولكن الضبط الشعري القديم ومعرفة الهمداني بالمكان، يشيران بوضوح إلى إن الاسم هو سوس وتصغيره: سويس وهو من المواضع الجبلية في سرار نجران التي أشار إليها الشعراء. ولنلاحظ أن هذه المواضع الجبلية كانت موطناً لقبائل همدانية، حيث تُعَدُّ نجران جزءاً من جغرافية بلاد همدان عندها تنتهي حدودها. يقول الهمداني في وصف جبل نجران (٢٨٣):

نذكر سرار وادي نجران وسوائل الجوف الصغار دون أعراضه (......) فأسرار نجران: شوكان والجلاليان ونفحة (....) ويسكن هذه المواضع وادعة من همدان، وقابل يام، واحة، ولباخة السفلى، ولِبُيَنْان. انقضى شق همدان.

وسوف نعود -تالياً- إلى بعض هذه المواضع لأن يشوع يسجلها ضمن منازل الأسباط مثل: شوكان - شوك، ويام - يم.

١٤- شَرُحْن

آثرنا ترك هذا الاسم ليكون خاتمة بحثنا عن المواضع التوراتية ضمن حصة شمعون؛ لأنه -كما سنرى- ليس اسماً لموضع، بل لجماعة قبلية من الجماعات الحِمْيرية وفروعها وبطونها، عُرفت باسم الشراحيين وهم مَنْ أعطى هذا الاسم لموضع يُدعى: شراحي - شرحن (بإلحاق النون الكلاعية). لقد عُرف الشراحيون اليمنيون قديماً بكونهم ملوك تهامة اليمن؛ وعاش هؤلاء في سراة الكلاع التي ينطق سكانها الأسماء بإضافة النون مثل: صنعا-صنعن حسب رواية الهمداني، على مقربة من عُزْلة بئر شباع. والمثير أن يشوع يضع شرُحن بعد بئر شباع مباشرة في قائمته. ولذلك؛ فإن الاسم شرُحن -وفي التوراة المترجمة: شروحن هي الموضع اليمني ذاته: الشراحي بتحويل النون الأخيرة إلى أداة تعريف عربية مثل: عدنن وعربن (في النقوش اليمنية، العرب والعدن). في وصفه لسراة الكلاع (صفة: ١٢١ -١٢٤) يستعرض الهمداني سلسلة الأماكن في هذه السراة من وديان ومياه وجبال، وكلها تقريباً يذكرها يشوع في نصه:

> **ثم يتصل بسراة الكلاع سراة بني سيف (....) ونعمان من غربي هذه السراة، وجبلان العركبة وهي بلد الشراحيين.(......) والعرب، ثم يتصل بها سراة الهان، فظاهره ضوران ومذاب (....) ونقيل السود وجبل حَضُور (....) وسمع.**

ها هنا شرُحن- الشراحيين قرب ها-عربه - وادي العرب، ومذاب - مدبء، وجبل حضور - حصور، وسُمع- سمع، فضلاً عن طائفة من الأسماء يصعب إيرادها كلها نظراً لطول النص وإسهاب الكاتب في تعداد الأسماء، والتي تتطابق تطابقاً تاماً مع مثيلاتها في نص يشوع. هذه هي منازل سبط شمعون، وما تبقى منها فسوف نعود إليه بالتفصيل نظراً لتكراره في قوائم الأسباط الأخرى.

٣ : سبط زبولن (زبولون)

ثم أُقْطِعَ السبط الثالث زبولن- زبولون مواضع لإقامته، حسب رواية يشوع: ١٨: ١٥: ١٩: ١١، وهنا النص العبري ١٧: ١٩: ٢١: ١٨:

(نحلتم-عد- سريد- وعله- جبولم -ل -يمه- ومرعله- وفجع-ب- دباشت- وفجع-ها- نحل- ءشر-عد- فني-يقنعم- وشب- م-سريد- قدمه- -مزرح- ها- شمش-عد- جبول-كصلت- تبور-ويصء-ءل-ها-دبره- وعله-يفع- وم-شم -عبر-قدمه- مزرحه- جته-حفر-عته-قصين-ويصء- رمن-ها- متءر-ها-نيعه-ونصب-ءتو-ها-جبول- م-صفون-حنتن-ويهيو-تصءتيو-ني-يفتح -ءل-وقطه-ويرءله-وبيت-لحم).

على غرار ما فعل سبط بن يامن- بنيامن وسبط سُمْع- سمعون، انتسب سبط زبولن- زبولون إلى موضع يسميه شعراء العرب القدامى والهمداني أرض زُباله- وفي البناء العبري للأسماء: زبولن-. وهذا ما سنتحدث عنه تالياً. في هذا النصّ ارتكب المترجمون جملة من الأخطاء في ضبط أسماء المواضع، كما التبس عليهم فهم بعض الجُمل فظنوا أنها جُمل وصفية، في حين أنها أسماء مواضع مثل جملة: م-شم التي تُرجمت إلى ومن ثم؛ بينما هي تعني من (شم) وهذا اسم مكان. وكذلك جُملة: عبر-قدمه -مزرحه، التي تُرجمت إلى وتمر شرقاً إلى شرقيّ؛ بينما تقول الجملة في الواقع (عبر قُدم من الشرق)، وهذا اسم مكان آخر مُجاور لموضع شم ويدعى قُدم، كما ترجموا جُملة: وعله-

جبولم- ل-يمه-ومرعله، إلى: وتصعد حدودهم غرباً إلى مرعله. وهذا فهم خاطئ لأن المقصود بها وتصعد مرتفعاتهم إلى يام ومرعله، أي إلى جبل بعينه يُدعى يام وليس غرباً كما سنُبيِّن ذلك. يقول هذا النص ما يلي حسب ترجمتنا:

(كان غورهم عند سريد، فتصعد مرتفعاتهم إلى يام فتلتقي في دبَّاست، ثم تبلغ الوادي الذي عند يقن عم؛ وتمشي من سريد، قُدُم من مشرق الشمس، مُقبلاً إلى كثلة وتبور، وتخرج إلى دبرة صاعداً إلى يافع عبر شُم، ومن الشرق: جث، وحفر، وعث، وقضين، قاصداً رمان، ومتأر فإلى نوعه، ونصب، وأتوة، مُقبلاً من شمال حنتن حتى تنتهي إلى فتيح ءل وَقَظة ونهلل وسمرُون ويرءله وبيت لحم).

إذا ما تتبع المرء هذا الوصف قاصداً بيت لحم الفلسطينية، ومنطلقاً من موضع يدعى سريد -حسب وصف يشوع- فإنه لن يجد، مهما بحث واستقصى وسأل السكان وراجع الخرائط، مكاناً في فلسطين يُدعى يافع أو جبلاً يدعى دبَّاست أونوعه؛ بل إنه لن يصل إلى بيت لحم الفلسطينية أبداً وإنما الى بيت لخم اليمنية بكل تأكيد. هنا قائمة يشوع كما ضبطتها الترجمة السائدة، مع تعديلاتنا على هذا الضبط استناداً إلى وصف الهمداني:

الاسم العبري	الضبط العربي
سريد	سريد
مَرْعله	مَرْعَل
دبَّاشت	دُبّاست
كسلوت تبر	كُثْلة تبور

قطة	قطاة
شم	شُم
قُدم	قُدم
يقنعم	القنع
دبرة	دبرة
يافع	يافع
جت	جث
حفر	حفر
عت	عث
نهلل	هلل
سمرون	سمَّرون
يرءله	رءل
بيت لحم	بيت لخم[١]
متأر	متار
رمون	رمان
نيعة	نوعة
نصب	نصب
فتح ءيل	الفتح[٢]

(١) النطق الصحيح كما عند اليهود اليوم : بيت لخم. إن الحاء المهملة والخاء المعجمة عند اليمنيين تتبادلان الوظيفة مثل السين والشين. ولخم كبرى قبائل اليمن القديم.

(٢) ءل العبرية في هذا الاسم هي الألف واللام العربية التي كانت تستخدم كأداة تعريف متأخرة. إن تطور العربية أدَّى إلى تصحيح شكل رسمها وإلى وضعها في مكانها المناسب.

حسب وصف يشوع؛ فإن المرء يرتقي السراة ابتداء من جبل يام، حيث تتوقف مرتفعات وأغوار هذا السبط لتلتقي في جبل دباشت- دبَّاست، فإلى وادي دبرة ووادي ءتو- إتوة ووادي متأر- متار. هاكم وصف الهمداني لهذه المواضع بأسمائها كما في سفر يشوع (صفة: ٢١٦-٢١٧):

وبالجوف وادي سيان ووادي مقولة ووادي سامك، ووادي دبرة فأما جمهور مياه هذا المخلاف فإلى ثلاثة مواضع إلى مأرب بعض وإلى الجوف بعض. وما يصبُّ منها الى مأرب فهو ملاقٍ لمياه عنسْ ونجد والمتار (..) بلد همدان: أما بلد همدان فإنه آخذ لما بين الغائط وتهامة من نجد والسراة حرمة وإتوة إلى جبل يام.

ها هنا المواضع ذاتها التي وردت في القائمة بحسب تسلسل وقوعها والمسالك المؤدية إليها، من وادي دبره إلى جبل يام وصولاً إلى وادي المتأر- متءر. يمهد هذا التوصيف الحاذق السبيل أمام الباحث، لكي يُحدد على أكمل وجه ممكن، كل أسماء المواضع الواردة في قائمة يشوع ولنبدأ من الموضع الأول:

١- سريد

الرسم العبري لاسم هذا الموضع يظهر في صورة: سَرِد-سريد. ولأجل التثبت من الضبط العربي الصحيح؛ فقد عدنا إلى الشعر العربي القديم الذي سجل الاسم وضبطه: بفتح أوله وكسر ثانيه.

قال الشَّنْفَرى:

إنّي لأهوى أن ألفَّ عجاجتي   على ذي كساءٍ من سَلامان أو بَرْدِ

وأمشي لدى العصْداء أبغي سراتهُم   وأسلكُ خالاً بين أرْفَاغَ والسَّرْدِ

لقد أخطأ رواة هذا البيت في ضبط الخال - الشطر الثاني- ورسموا الاسم هكذا: خِلاً؛ ولذا قمنا بتصحيح البيت استناداً إلى الأشعار العربية القديمة التي أوردت الاسم بصورة دقيقة؛ فهو سراة الخال الشهيرة عند العرب. إن السراة التي قصدها الشَّنْفَرى مُفعَماً بالعاطفة الجامحة والتشوُّق لمنازل القبيلة؛ ماراً بموضع سلامان ثم بَرْد وعابراً أرْفاغ وصولاً إلى وادي سَرِد، هي بكل تأكيد سراة عُذر وهَنْوم حيث تتصل بها سراة الخال. وهذه السراة لا تفضي بروادها إلى فلسطين إذا ما ساروا فيها قاصدين سَرِدْ، ولا توصل القوافل المُتهادية بين وديانها وجبالها إلى أورشليم، بل تفضي بالجميع إلى يافع في جنوب اليمن، كما تفضي بهم إلى وادي سَرِدْ اليمني. يصف الهمداني هذه السراة وصفاً دقيقاً ومُكَثفاً (صفة: ١٣٠-١٣١):

> **ثم الجبل الأسود، إلى الشقرار وسعيا من أرض جُرَش. وغَوْر هذه البلاد هي أعلى زنيف، وضنكان، والبُرَك، والمَعْقَد (.......) ثم يتلوها سراة عنز، وسراة الحجر، نجُدها خَثْعَم، وغَوْرهم بارق ثم سراة ناه، من الأزد، وبنو الخالد، وغَوْرهم قبائل من الأزد، ثم سراة الخال لشكر.**

هذه هي سراة الخال وها هي سلسلة من المواضع الجديدة الواردة في سِفر يشوع؛ ولنلاحظ استعمال الهمداني لكلمة: غَوْر- غورهم في هذا النص، الذي تتضح أهميته من قوته الكاشفة عن نمط الاستيطان القبلي، فالقبائل تُقيمُ في المرتفعات والوديان والأغْوار، ولكل جماعة من هذه الجماعات غَوْرها الخاص بها وليس ميراثها كما فُهم خطأ من معنى الكلمة العبرية: نحلتم. إننا لا نعرف سراة الخال في فلسطين ولا يوجد بالطبع مكان يُدعى: خل، إذا ما افترضنا عدم وجود تصحيف في البيت

الآنف، كما أننا لا نعرف وادياً يُدعى وادي سَرِدْ أو سريد إلى الغرب من نهر الأردن أو في فلسطين التاريخية. لابد -هنا- من ملاحظة عابرة ولكنها ضرورية: لقد حوَّل المترجمون الحركات الإعرابية في النصّ العبري إلى حروف مثل الواو أو الياء، وهي في الأصل حركات إعرابية مُضافة إلى النصِّ مثل: يافع التي رُسمت في صورة: يافيع والصحيح يافِع بكسرة تحت الفاء، والأمر ذاته ينطبق على اسم عذر-عدر، الذي رُسم في صورة عيدر، والصحيح عذِر بكسرة تحت الذَّال. والآن: لنلاحظ أن نصَّ الهمداني يتحدث عن موضع سعيا وهو موضع وصفه في نصٍّ سابق؛ بأنه قرب ركوبة -ركبوت بما هي مَحْرم أهل اليمن. ماذا يعني ذلك؟ إنه يعني ببساطة إن التوافق التام في الأسماء والتوصيفات بين النصين، يحظى بدعم مثير وبتوافق موازٍ في أسماء المواضع المُجاورة، بما لا يَدع مجالاً للشك في صدقية هذا التماثل وقوته وطاقته على قول الحقيقة التاريخية؛ فليس ثمة فلسطين في التوراة سوى فلسطين المُتَخيَّلة، أي فلسطين التي اخترعتها القراءة الاستشراقية. يقول البكري (معجم: ١٣٨): إن سَرِدْ جبل في بلاد بني الأزد سكان عُمان واليمن القديم وهم من بني سلامان، الذين أعطوا اسمهم لوادٍ من أودية اليمن يُدعى وادي سلامان. أما ياقوت (٣: ٢٣٦) فيكتفي بالقول: سَرِدْ موضع في بلاد الأزد سكانه من بني سلامان. قال الشَّنْفَرى:

كأنْ قد فلا يَغْرُوكَ مني تَمكُسي سلكتُ طريقاً بين يَرْبُعَ فالسَّرِدِ

ولأن جبل سَرِدْ يؤدي إلى يافع في جنوب اليمن وعلى تخوم عُمان القديمة، فهذا يعني أن الموطن الحقيقي لسبط زبولن- زبولون حيث أقام منازله وقُراه كان هناك وليس في فلسطين، أي في يافع وما جاورها وحسب الوصف؛ فإن مرتفعات وأغوار هذا السبط تنتهي عند جبل سرد وتلتقي عند جبل دبَّاست.

٢- يافع

استناداً إلى نص يشوع وقائمة منازل سبط زبولن- زبولون؛ فإن هذا السبط أقام في الرقعة الجغرافية الممتدة من يافع صعوداً في سراة الأزد وسراة الخال، وأن السائر في طريق سَرِدْ على خطا يشوع والشَّنْفَرى سوف يشاهد هذه المواضع؛ بل وسوف ترنُّ في أُذنه الأسماء ذاتها دون أدنى تصحيف. إننا لا نعرف في فلسطين مكاناً يُدعى يافع يمكن لنا أن نصل إليه عبر وادي أو جبل سَرِدْ، بينما يمكن لنا بلوغه إذا ما سرنا في سرو حِمْيَر حسب وصف الهمداني الدقيق والشائق (صفة: ١٧٢)

> **فالعر لأذان من يافع، وثمر للذراحن من يافع، وحبَة للأبقور من يافع، وُعلة الأصووت من يافع، وحطيب لبني قاسد من يافع، يهر لبني شعيب من يافع (.....) صدور لكَلَب من يافع. وفي كل موضع من هذه المواضع ترى قرى ومساكن كثيرة (...) ووادي حضَر، الذي فيه مَحَجَة عدن إلى صنعاء (....) ووادي عُمق (....) ووادي ضُرْعَه، وتصب هذه الأودية إلى أبْيَنْ.**

ها هنا فضلاً عن سلسلة جديدة من المنازل الواردة عند يشوع مثل وادي ضُرْعَه - صُرْعَه ووادي حضَر- حَصر ووادي عمق- عُمق، والعر - عر، وعُلة-عله، منازل سبط دان -أذان الذي سنتحدث في الصفحات القادمة عن منازله، فهو يُقيم على مقربة تماماً من سبط زبولن- زبولون. لقد غَرَّبتْ القراءة الاستشراقية اسم هذا السبط اليمني وجعلته لُغزاً، حين رسمت الاسم في صورة دان ومنه جاء الاسم الشائع هذه الأيام في بعض المواليد من اليهود والعرب: داني. وهي قامت بتخيُّله في فلسطين؛ فيما يقدم الهمداني الرسم الصحيح والمكان الدقيق لإقامة قبيلة أذان في

العر، وهو سلسلة جبلية صغيرة شاهقة الارتفاع تمتدُّ من عدن حتى يافع. تقع يافع في سِفر يشوع على ضفة وادي نهليل -هليل. فهل وجِدَ نهليل هذا قرب يافع في نصوص الهمداني؟ يقول (صفة: ١٨٣-١٨٤) مُتَتبعاً الطرق والمسالك الجبلية بين أبْيَنْ ورَداع وردمان وذمار، ما يلي:

ودون هذه المواضع أودية منها هليل، وصَيْد وذو كزّان لبني حبيش من زُبَيْد، وهم في وسط أرض زوف. فهذه أرض زوف في الميمنة، خمر وما والاها من البلاد الى حدود يافع.

وتماماً كما في وصف يشوع لوادي نهليل على طريق قبيلة يافع التي نزلت عند ضفافه؛ فإن وادي هليل عند الهمداني- بإسقاط النون أداة التعريف المنقرضة - هو كذلك على طريق يافع بالفعل. إن هذين المُقْتَطَفيْن النموذجييْن بكل زخمهما السردي واللغوي، وطاقتهما على تحديد الأماكن التوراتية بدقة، وبالأسماء ذاتها دون تلاعب لغوي، يوفران لقارئ الهمداني الوسائل والأدوات اللازمة للتحقق من صحة القائمة ومقاصدها، فهي قائمة بمنازل القبائل اليمنية-العربية -الحِمْيَرية- القحطانية حصراً، والتي لم تعد موجودة في المسرح التاريخي إلا في صورة بقايا لجماعات تحمل بعض ذكرياتها. ليس ثمة ميراث ولا أرض ميعاد ولا فلسطين. ها هنا- مرة أخرى- يافع ووادي هِلل-هليل والعر- عر- انظر تالياً عرّ -، والبطن القبلي اليمني كَلَبْ - كَلب عند يشوع وفي قوائم الأسباط، وأخيراً وسبط دان- أذان عند الهمداني ووادي حَضَر- حصر ووادي عمق - عمق، ووادي ضُرْعَة - صُرْعَة عند يشوع ضمن منازل يهوذه. وها هي أرض زوف التوراتية - برية زوف عند يشوع، فضلاً عن خَمْر، وهي مخمر في نصوص التوراة بزيادة الميم أداة التعريف المنقرضة. والمثير أن الهمداني يسميها: مولد - نسبة إلى أسعد

كرب الملك اليمني، بينما تسميها التوراة في قائمة يشوع: ء لتولد[1] - انظر قائمة السبط السابق-. ليس هذا تماثلاً لغوياً قابلاً للتشكيك والمراجعة والنقد؛ بل هو توصيف جغرافي دقيق يؤيده تراث ضخم من المرويات الشعرية والتاريخية. إن الأمر المدهش في هذا التوصيف المُتماثل والمُتَطابق داخل نصيّ يشوع والهمداني، يكمن في وجود سائر المواضع ضمن الفضاء الجغرافي نفسه حيث سراة حِمْيَر، التي أقام فيها سبط زبولن -زبولون وقسم من يهوذه - هوْذَه وسبط دان؛ وهذا أمر من المتعذر رؤيته في فلسطين. والآن: إذا ما سار المرء على خُطا يشوع النبي اليمني وتتَّبع وصف الهمداني مؤرخها الأكثر شهرة، والذي لم يكن ليعلم قطّ أنه سار في المكان ذاته في وصف يشوع؛ فإنه سوف يعثر على سلسلة جديدة من المواضع التي كان يُظن- حتى الساعة - أنها في فلسطين.

٣- نوعه

يُرسم الاسم في النص العبري في صورة: نيعه، والضبط العربي الصحيح هو نوعه؛ آخذين بنظر الاعتبار ميلُ اليمنيين إلى الرفع في كلامهم. بيد أن الترجمة العربية التي تجهل المكان والسكان وعاداتهم الصوتية، رسمت الاسم في صورة: نيعه وذلك استناداً إلى الحركات الإعرابية. إن الهمداني يضبط الاسم ضبطاً عربياً صحيحاً ويرسمه في صورة: نوعه، واضعاً إياه في السراة ذاتها حيث يافع وسَرِدْ تماماً كما فعل يشوع (صفة: ١٨٦):

---

(١) لاحظ الكيفيَّة التي تطورت فيها أدوات التعريف عند اليمنيين. إن ما يسمى العبرية وهي ليست سوى لهجة من لهجات اليمن القديمة تستخدم الألف واللام في هذا الاسم كأداة تعريف، بينما نعلم أن أداة التعريف العبرية التي استقر الرأي عليها هي الهاء. ولاحظ كيف تتبادل الميم مع الألف واللام في الوظيفة: ءتولد- مولد.

رَجَع إلى ردمان: نوعه لجران، وهم من حِمْيَر، وهم في ناجية. أطام لبني صائد من الأزد، من ولد دوس ودعوتهم في جَمل.
البضع: أودية منها: ذوعرابل وحوران ورُواف وقاينه.

ها هنا سلسلة جديدة من المنازل القبلية التي أقام فيها الأسباط في سرو حِمْيَر؛ مثل حوران اليمنية التي وصفها امرؤ القيس قرب أراك وعثّار ورُواف، وهو عند يشوع روف ءيم. وأخيراً، قاينه- قانه. وطِبْقاً لوصف الهمداني ويشوع؛ فإن نوعه التي نزل فيها سبط زبولن- زبولون، هي على مقربة من وادي رُواف- روفءيم ولا تبعُد كثيراً عن حوران. وكنا لاحظنا أن المسالك الجبلية والطرق الوعرة بين أبْيَنْ وذمار وصولاً إلى يافع، تمرُّ في ردمان حيث سلسلة من الأودية والمساكن القبلية ومنها وادي قاينه. إن هذا الوصف غير قابل للمُطابقة ولا بأي صورة من الصور مع فلسطين التاريخية، ولا مع جغرافية بلاد عسير بطبيعة الحال. من هذا المنظور؛ فإنّ فلسطين التوراتية المخْيالية التي تعرف يافع وسَرِدْ ونوعه وروفءيم وحوران؛ هي فلسطين لا وجود لها في العهد القديم. إن نوعة في هذا النص هي في المكان ذاته لوادي حجلة. وهنا نص الهمداني (١٨٦):

نوعه لجران (......) حوران، ورواف وقاينه (........) وحجلة.

٤- حفر

يثير اسم هذا الموضع الكثير من الالتباس نظراً لوجود كلمة غير مفهومة سابقة عليه، كما في النص العبري: جت-حفر؛ ويبدو أن المترجمين لم يجدوا مفراً من الإبقاء على الكلمة دون مكافئ عربي، مع تكرار ظهورها في أسماء أخرى مثل رمون- رمان: جت -رمون، جت-

رمان: يشوع: ١٩ :٣٧: ٢٠ : ٣وكذلك: في نصيب القهاتيين: ٢١ : ١٠: ٣٦. ولأن مثل هذا الموضع المزعوم هو نتاج قراءة خاطئة ومُلتبسة؛ إذْ لا وجود لمكان يُدعى جت، نُسِبَ إليه موضع حفر ثم رمون؛ فإن إعادة قراءة النص العبري وترجمته سوف تكشف عن مقاصد التوصيف. يقول يشوع:

تمضي من سَرِدْ، وُقدم من مطلع الشمس حتى مرتفعات كُثلة، وتبار، فتخرج في الدبرة صاعداً إلى يافع، ومن ثُم عبر قدم من الشرق: جث وحافر، وعث، و قضين.

لقد تمّت في الطبعة العربية السائدة من التوراة، مكافأة الجُملة العبرية م- سرد-قدمه- م- زرح- ها- شمش بجملة من سريد شرقاً نحو مشرق الشمس على النحو التالي: (على حدود كسلوت تابور وتنفذ إلى الدبرت وتصعد إلى يافيع ومن هناك تمر شرقاً إلى شرقي جت حافر وعت قاصين). وهذا نص غير مفهوم، ففي العربية لا يمكنك أن تقول شرقاً من مشرق الشمس، أو شرقاً شرقي حافر، علماً أن مترجمي النص اضطروا إلى إضافة حرف الجر الى جملة جت-حفر، لتصبح هكذا: شرقاً إلى شرقيّ جت حافر. لقد فهم مترجمو النص العبري من كلمة قُدمه التي تعني في العبرية: شرق، أن المقصود بها تحديد الاتجاه، فيما هي إسم المكان قُدُم؛ أي إن حفر تقع إلى الشرق من قُدُم وليس شرقاً شرقيّ. يعني هذا أن موضع قدُم هو إلى الشرق بالفعل من وادي سَرِد، بالنسبة إلى الصاعد في وادي دبرة. والهمداني - كما سنرى- يضع قُدُم في السراة ذاتها سراة عذر وهَنْوم. أما كلمة جت غير المفهومة والتي عالجها المترجمون بإضافة حرف الجر (إلى) فهي قرية الجوت- جُت من أعمال مخلاف المعافر، الذي سوف نشير إليه مراراً وتكراراً، بينما يراد من كلمة جث - بالثاء

المثلثة قرب رمان - رمون، فهي جث العربية التي استخدمها اليمنيون للتعبير عن مواضع صناعة العسل ومعاصر العنب. إن نص الهمداني على غرار يشوع، يتضمن المواضع الثلاثة الموصوفة التي التبست على مترجمي التوراة قُدم - قدمه، وشُم - شم، وحفر - حفر، وهي في فضاء جغرافي واحد. إليكم ما يقوله الهمداني (صفة: ١٢٣ - ١٢٨) في وصف سراة الكلاع وما يتصل بها:

(.....) وأسافل حضُور هو غَوْره، مثل بلد الصيد، وشُم، وما ضخ (.....) وسارع وسَمْع (....) والعر (......) ونمل وشرس ثم يتصل بهذه السراة قُدَم (....) ثم يتصل بهذه السراة سراة عذر وهَنْوم (.....) ونوده فالحفر.

ها هنا شُم، وقُدَم وهي سراة جبلية أي سلسلة جبال، وها هنا ووادي الحفر تماماً كما في نص يشوع، وفي السراة نفسها حيث سلسلة من المنازل القبلية التي أقامت فيها الأسباط، مثل سَمْع وعذر وهَنْوم والعر ووادي شرس- سرس التي سنتحدث عنها تالياً. وهذه المواضع هي بالضبط إلى الغرب من سرو حِمْيَر. وهذا ما يؤكده الهمداني (صفة: ١٣٤):

ثم يتلوه وادي مَوْر وهو ميزاب تهامة الأعظم ومساقي مَوْر تأخذُ غربي همدان وبعض غربي حِمْيَر (......) وسمع (....) فبلد عذر وهَنْوم (......) ويلقى سيل (وادي) الحفر (....) وما أخذ من بلد قُدَم.

ها هنا وادي حفر كما وصفه الهمداني ويشوع قرب قُدَم وشُم في السراة نفسها. قال ذي الرُّمَّة:

غَـرَّاء آنسة تـبـدو بـمَـعْـقـلِـةٍ إلى سويْقة حتى نحضرَ الحفرا

وسوف نعود تالياً إلى وصف وادي دبرة عند الهمداني- دبرة في وصف يشوع، بالنسبة إلى الصاعد نحو يافع الى الشرق من قُدَم. كما سنعود الى شُم في سياق الكشف عن أخطاء الترجمة السائدة وتلفيقها للمواضع. قال بشر بن أبي خازم:

عَفَتْ أطلال ميَّة من حفرٍ فهضْبُ الواديْين فبرقُ أيْرِ

وجبل أيْر هذا من جبال بني مُرّ- مرّ في التوراة، وكذلك بنو مرر في نصوص التوراة أيضاً وهم عند العرب بنو المُرار. (انظر معجم البكري: ٤٥٧، ١٢١٣، ٤٥٩، ٦١٤، ٨٦٤، ٨٦٩، ١٢١٨، ١١٦) التي سار فيها الشاعر قاصداً وادي حفر. ويبدو أن كلاً من البكري وياقوت لم يُميزا بدقة بين حفر وهي بئر ماء في بلاد بني تميم، وبين حفر الوادي كما عند بشر بن أبي خازم وذي الرُّمَّة والهمداني في سراة عذر وهَنْوم. ومن غير شك؛ فإن التوصيف التوراتي ينصرف إلى الوادي وليس إلى أي مكان آخر. يقول الهمداني في النص الآنف (صفة: ١٢٧):

ويلقى سيل الحفر، وصرايم والكلابح وبلد المرَّانيين فبلد وثن شمالي موتك وحجَّة، وما أخذَ من بلد قُدَم (.....) ساقين وتضراع فيه أراب.

يتضح من وصف الهمداني لوادي حفر، أن سيوله تمر عند جبال بني مُر، كما تصبُّ في أراب - أراب عند يشوع من منازل يهوذه. إننا لا نعرف وادياً في فلسطين يُدعى حفر قرب شُم وقُدَم وأراب وعذر وهنوم وبني مرر وسمع وشرس والعر. وهذه كلها مواضع سجلها يشوع في نصه ووصفها الهمداني. أليست فلسطين التوراتية هي فلسطين من تلفيق القراءة الاستشراقية؟ أما جت- جُت فهي عند الهمداني قرية جوت التي تقع

بالفعل، على الطريق ذاته لوادي حفر وقدم وسائر المواضع الواردة في النص. وسوف نعود إليها عندما نقوم بالتمييز بينها وبين جت- جث أخرى.

٥- دُباشت

تعني كلمة دبش- دبشت العبرية: دبس، شهد، عسل؛ وفي الترجمة العربية للتوراة يُرسم الاسم في صورة دبَّاشت، وهذا رسم دقيق وصحيح بوحه العموم. يقول نص يشوع ما يلي:

(ومرعله- وفجع- ب- دباشت)

ما تقوله هذه الجملة البسيطة هو أن منازل سبط زبولن -زبولون كانت في موضع يُدعى دباشت قرب مرعل- مرعله. والترجمة الدقيقة هي: (ومرعله وتقبل في دباس) وذلك بمكافأة كلمة فجع العبرية بـ(قابل، مقابل، مقبلاً). ومرعله هذه لا تبعد كثيراً عن وادي تُبَّار- كسلة تابور. إن الضبط العربي الصحيح للاسم هو: دُبّاس والتاء الأخيرة في الأسماء العبرية تُعيد تذكيرنا بالتاء اليمنية، التي تلحق بالأسماء كما في النقوش الحميريَّة (المساند) مثل قرشت في قريش وفرشت في فرش وفلست في فَلس[1]. وهذا -برأينا- مصدر آخر من مصادر تقرير حقيقة الروابط

(١) وهذا ما يدعونا إلى التأمل في مدى التقارب بين لسان المُضريين - ومن أهم بطونهم كنانة أو ما يعرف بالكنعانيين-ولسان الحميريين، على الرغم من وجود فروقات بيِّنة وخصوصاً في تصاريف الكلمات مثل الإفراد والتثنية والجمع وفي التأنيث والتذكير والإعراب والبناء. وعلى سبيل المثال كانت تاء التأنيث المربوطة تكتب مفتوحة في الخط العربي (المُضري- الكناني- الكنعاني) القديم كما يدلُّ على ذلك ما جاء في رسم المصحف الكريم لكلمة =

العميقة، بين اللهجة العربية الجنوبية والعبرية القديمة. في هذا الإطار هناك ما يدعو حقاً، إلى أخذ هذا الجانب من المسألة اللغوية بنظر الاعتبار، عند تحليل الاسم التوراتي ها- فلشتيم - فلشت؛ الذي فُهم على أن المقصود به الفلسطينيين، وهذا ما سوف نعود لمناقشته في مكانه المناسب. يقع جبل دُبَّاس على مقربة من وادي أَبْيَنْ مما يلي محافظة لحج (المحافظة الثانية في اليمن الجنوبي السابق) وضمن سلسلة جبال السكاسك حيث جبل شمير -شمير عند يشوع من منازل يهوذه، وجبل ووادي ضُرْعَه - صُرعه عند يشوع (وهي من منازل يهوذه أيضاً) وبذلك فهو لا يبعدُ كثيراً عن يافع. وهنا وصف الهمداني (صفة: ١٤٧):

جبال السكاسك: جبل الصردف وجبل السودان (......) وجبال الأشعوب، الصّلو الجامع لهم بعد ذلك: سامع (...) وشمير (.....) ودُباس وضُرعه.

إن وجود سامع - سامع عند يشوع ضمن منازل يهوذه، وهو غير سمْع كما يجدر التنويه هنا؛ فضلاً عن جبل شمير ووادي ضُرعه- صُرعه إلى جوار جبل دُباس، لا يمكن ردُّه إلى عامل المُصادفة الجغرافية أو اللغوية، لأن الأسماء ذاتها نجدها هنا دون أدنى تحوير أو تلاعب في مبانيها، وهي تُسجلُ في نصوص يشوع والهمداني بكثافة. في هذا السياق ثمة صلة بين اسم الجبل دُباس وبين شهرته عند اليمنيين القدماء والمُعاصرين بإنتاج أجود أنواع العسل اليمني. ولذلك؛ فإن الاسم مُستَمد من وجود صناعة قديمة قوامها معاصر الفواكه والأعناب والعسل، وهذا ما يجب أن يُحيلنا إلى

= (نعمة) في آية ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١/٩٣]. كما أن النون في آخر الكلمة استخدمت في اللغتين (اللسانين) كأداة تعريف، فما يقابل (ذو مزندن) بالخط المسند الحميري هو (هذا المسند) بقلب الزاي سيناً. وكما في اسم القبيلة اليمنية الشهيرة أزد وهي أسد.

صور معاصر الزيتون والفواكه في التوراة، والتي جرى تَخيُّلها في فلسطين. أما مَرْعَل - مرعله التي سجل يشوع اسمها، فهي ذاتها مَرْعل اليمنية التي قال فيها الملك اليمني أسعد أبو كرب، في بيت شعر موضوع - على جري عادة الإخباريين اليمنيين- (معجم: ١٢٧٠):

وذو مَـرْعــلان فــلا تــنــســهُ وآبــاؤه لــهــم الــمــنــشْــرُ

مرعلان هذا- مفردها مرعل- هو ذاته موضع الرعل في الشعر العربي القديم - بإسقاط الميم وتحويلها إلى أداة تعريف مثل: «مسفر في السفر، «مرجل في الرجل - والذي قال فيه أساف بن عَدْي بن جشم (معجم: ٦٦١):

فـإن الـرَّعْـلَ إذْ أسْـلَـمْـتُـمـوهُ وسـاحـة واقـمٍ مـنـكـم حـرام

يقول الهمداني في وصف جبل دبَّاس إلى الشمال الشرقي من زُبَيْد (صفة: ١٤٠):

> **وجبل الصِّيرة. كل هذا جنوب وادي نخلة ومن شمالها جبل دُمُت وعذاق ووادي الرواهدة والوزيرة وجبل المرير، والفواهة، ثم يلقه وادي الملح من أرض الركب، وجنوب نخلة، يسكبان بحيْس ويقطعانها إلى البحر. ومآتي الملح من المجعر والمعرام من جبل شرعب وجبل الصيرة من شمالي الوادي، وإليه من جنوبه عراصم من بلد الركب والحرجية فجبال معبر، فدبَّاس.**

هو ذا جبل دُباس- دُبّاست إلى جوار جبل الصيرة - صير عند يشوع وقرب حبل دُمُت - دُمُة عند يشوع قرب الرُّكُب وعذاق-عذيقه عند يشوع أيضاً، وهو يشكل ناحية من نواحي زُبَيْد وإليه يُنسب العسل الدُّباسيّ. ولنلاحظ الصلات والروابط اللغوية والدلالية بين أسماء المواضع: وادي نخلة، دُباس، وعذاق- مفرد عذق (وهي حُزمة التمر).

٦- وادي دبرة

يقول النص العبري :

> **ويصء-ها-دبرة- وعله- يفع.**
> **(وتخرج إلى الدبرة صاعداً إلى يافع)**

كما هو واضح من الجُملة في العبرية؛ فإن الاسم يجب أن يرسم في صورة الدبرة - بالتاء المربوطة. بيد أن الترجمة السائدة أعطت رسماً مختلفاً بالتاء المفتوحة: الدبرت. ولا يوجد مبررٌ مقبول لرسم الاسم على هذا النحو. ومع ذلك؛ فإن التوصيف التوراتي يشير إلى أن السائر في وادي الدَّبرة يتجه إلى يافع. إننا لن نصل أبداً، إلى فلسطين أو إلى أورشليم أو إلى غربي الأردن مهما حاولنا، إذا ما سلكنا طريق هذا الوادي حسب وصف يشوع قاصدين يافع؛ بل سنصل إلى عدن ولحج وبالعكس إلى صنعاء. ها هنا وصف الهمداني لوادي دبرة صعوداً حتى يافع (صفة: ٢١٤ : ٢١٧) في سياق توصيف أودية مخلاف خولان:

> **أما مشرق صنعاء الذي يقع بينها وبين مأرب فإنه مخلاف خولان (.....) ومن أقصاه زبار والحجلة ووادي ملاحا، ووادي سامك ووادي دبرة (......) فأما جمهور مياه هذا المخلاف فإلى ثلاث مواضع إلى مأرب بعضٌ، وإلى الجوف بعضٌ وإلى تهامة. وأما ما يصب إلى سهام منها ثم تهامة إلى البحر، فوادي خدار ووعلان وسامك وعد وَرد.**

هذا هو وادي الدَّبرة في أقصى الشرق من صنعاء، وعلى مقربة منه وادي سامك، وها هنا عد ورد الذي سنرى دلالته حين نُحلل الاسم التوراتي: عد، وكذلك وادي حجلة. قال أبو ذُؤَيْب الهذلي (معجم : ٥٤١):

كأنَّ ابنة السَّهمْي يوم لَقِيتُها   موشحةٌ بالطَّرتين هميجُ
بأسفل ذات الدبر أُفردَ جحشُها   فقد ولهت يومين فهي خَلوجُ

٧- شُم وقدمه

ابتدأنا نص يشوع بالكلام عن موضعي شُم-شم، وقدم -قَدْمَه، وبينّا الأخطاء التي ارتكبها المترجمون في فهم وتركيب الجملة التي يردُ فيها الاسم. في ختام هذا المقطع من النص سنعود إلى تحديد الموضعين كما وصفهما الهمداني. يسجل يشوع اسم موضع شُم في قائمة سبط نفتلي أيضاً على هذا النحو: ويلحمو- عم- ل-شم. (فحاربوا الجموع إلى شُم). كما يُسجل في مكان آخر من النص العبري لقائمة نفتلي ما يلي:

> ويقرءو- ل -شُم -دان. (ودعوا إلى شُم قبيلة - دان).

بهذا المعنى فإن اسم شُم يرد في أكثر من نص. وهذا ما يؤكد قراءتنا للكلمة هنا فهي لا تعني: من ثمَّ. تقع شُم عند الهمداني على مقربة من جبل حَضُور وُقدم ونقيل السود وبيت بوس في سراة الكلاع (صفة: ١٢١-١٢٣) وكذلك (١٢٤-١٢٧):

> **ثم يتصل بسراة الكلاع سراة بني سيف (...) ثم يتصل بها سراة الهان فظاهره ضوران ومذاب (...) ونقيل السود (...) وأسافل حضُور وشُم، ثم يتصل بها سراة المصانع وأعلاها جبل ذُخار وحضُور وبيت أقرع، وغَورها الباقر (...) وسمع (..) والعر، وشرس، ثم يتصل بهذه السراة قُدم (....) ثم يتصل بهذه السراة سراة عذر وهَنْوم.**

ها هنا شُم وقُدم تماماً كما وصفهما يشوع في نصه. وها هنا موضع السيف- انظر مادة يم ومادة سوف. إن هذا يؤكد وجود قراءة خاطئة

للجملة العبرية: م-شم -عبر-قدمه، التي تُرجمت إلى: ثم تنعطف شرقاً، بينما المقصود بها من شُم عبر موضع قُدم كما هو واضح من وصف الهمداني، الذي يشير إلى أن قاصد موضع شُم سوف يجتاز قُدم في هذه السراة بكل تأكيد. وفي هذا الفضاء الجغرافي الرحب يجد المرء نفسه على خطا النبي اليمني يشوع ومؤرخ اليمن العظيم الهمداني، يعبر السراة بوديانها وجبالها ومنازلها وهي- جميعاً في النص أعلاه- مثبتة في سِفر يشوع. والمثير أن يشوع يُلمحُ صراحةً إلى أن شُم سقطت بواسطة السلاح في يد قبيلة ءذان (دان) التي رأينا أنها كانت تقيم في العر (عر) -أعلاه- وأنها لهذا السبب دُعيت بـ: شُم دان.

٨- المتأر وهليل وسواها

حسب وصف يشوع؛ فإن وادي متءر- متأر يقع على مقربة من وادي نهليل- هليل ويفتح ءيل غير بعيد عن نيعه- نوعه. فهل تعرف جغرافية اليمن القديم كما وصفها الهمداني مثل هذه المواضع؟ هاكم وصف الهمداني للمواضع ذاتها في مخلاف بني عامر إلى الشمال الشرقي من مخلاف رداع (صفة: ١٨٢-١٨٦):

المتار لبني منبه (..) ولْس وشعبان والغول لبني عبس من زوف وأدمة وملاحة وعفار. ودون هذه المواضع أودية منها هليل (..) فهذه أرض زوف وما والاها من البلاد إلى حدود يافع (..) رجع إلى ذكر الميسرة عند خروجه من رداع إلى المشرق (..) المفتح لبني عروة (..) رجع إلى ردمان: نوعه لجُران (..) حوران ورُواف وقاينه والحجلة.

هذه هي نوعه وها هنا وادي متءر-المتار والمفتح - يفتح-ءيل، وهاهنا يافع- يافع وحوران- حوران ورُواف - روف ءيم وحجلة- حجلة.

أما ءتوة- أتوة فهي بالفعل قرب المتار كما يقول يشوع غير بعيد عن وادي دبره. هاكم ما يقوله الهمداني تأكيداً لوصف التوراة (صفة: ٢١٦ - ٢١٧):

وادي دبره ووادي مرحب ووادي هروب. فأما جمهور مياه هذا المخلاف فإلى ثلاثة مواضع، إلى مأرب وإلى الجوف وإلى تهامة. ومخلاف رداع ردمان ونجد. والمتار والعروش وبلد وابش (..) بلد همدان (ثم) أتوة إلى جبل يام.

يتضح من هذا التوصيف؛ أن سائر المنازل التي أوردها يشوع في نصه تقع في المكان ذاته الذي يصفه الهمداني. ما تبقى من منازل هذا السبط يقع في نجد اليمن، أي في المرتفعات الواقعة ما بين جُرَش وصَعْدَة وهي على مقربة بعضها من بعض قطه - قطاة وتُبار - تبر، ورأل - رءل وُرمان- رمُّون وحنانان -حنانون وعث قضين- عت قصين. وسوف نعود تالياً لبيت لحم التي سنفرد لها مكاناً خاصاً نظراً لأهميتها، وكذلك لموضع يفتح ءل - الفتيحا.

٩- قطه (قطا)

حسب وصف الهمداني فقد أقام سبط زبولن- زبولون في سرو حِمْيَر، الذي يمتد بين شرق صنعاء وأطراف صَعْدَة حتى يافع؛ وبعض منازله استناداً إلى يشوع، تتجه من نوعه شمالاً فإلى يفتح ءل -الفتيحا وقطا - قطه غرباً. وسائر هذه المواضع كما وصفها الهمداني وبالأسماء ذاتها، هي في نجد اليمن أي في مرتفعاته؛ ولذلك آثرنا معالجتها في هذه المساحة الخاصة لتمكين القارئ من التأمل في الفضاء الجغرافي الذي يجمع المواضع في وحدة إيكولوجية ذات طابع بدوي، يُفسّرُ بدوره، الدلالات التي تنطوي عليها الأسماء. إن الرسم العبري للاسم: قطه

(ويجب أن يُلفظ بالمد: قطا) أوهم المترجمين وبعض الباحثين بأنه يمكن أن ينصرف إلى اسم قطة (الحيوان) بينما يشير في الواقع، إلى الطائر المعروف في البوادي: القَطا. قال الأخطل (معجم: ١٠٨١):

وبالمعرسانيات حلَّ وأرْزَمتْ بروض القطا منه مطافيلَ حُفَّلُ

تقع قَطه -قطا عند الهمداني وقطاة في الشعر الجاهلي، بين جُرَش وصَعْدَة وقد دُعيت عند العرب قديماً بـ: روض القطا، وهي مسيل مياه في جبال طي سُمّيتْ باسم الطائر. وسنرى من تحليلنا لنشيد دبورة وبارق في التوراة أن الشعر الجاهلي سجل الاسم في صورة وادي قطاة، تماماً كما في نص يشوع - انظر ما كتبناه عن هذا النشيد. قال حاجب بن حبيب الأسدي (ياقوت: مادة رقم: ٩٧٨٣، والبكري: ١٠٨٤):

يَنْتابُ ماء قُطْيات فأخْلَفه وكان موردهُ بحرّان

والشاعر في هذا البيت يريدُ من حران هنا (حوران) اليمنية حسب رواية ياقوت الذي اقترح أن يقرأ البيت على النحو التالي:

وكان مورده بحورانِ

يُفهم من هذا البيت أن حمار الوحش، الذي طارده الشاعر، تركَ ماء قطا (مسيل المياه الجبلية) واتجه صوب حوران. وبالطبع ليست حوران هذه حوران الشام، التي لا تعرف بدورها موضعاً بهذا الاسم. كما أن من غير المنطقي الزعم بأنها حوران الشام، نظراً لبعد المسافة ولا معقولية الوصف في هذه الحالة. كما يُفهم من البيت الآنف أن الشاعر يقطع بكون الموضع هو مسيل مياه، وهذا أمر هام للغاية إذْ لا وجود لأي مكان، في طول الجزيرة العربية وعرضها ولا في فلسطين كذلك، لمسيل مياه يُدعى قطا (وفي التعظيم الشعري: قُطيات) سوى هذا المكان بين جُرَش وصَعْدَة حيث نزلت طي. قال عدي بن زيد:

ولقد شربتُ الخمرَ أسقي صِرْفها بـالـخـوع بـيـن قُـطـيَّـة ومَـرْوَّد

وكنا أشرنا إلى أن صَعْدَة مُخْتَزِلةٌ من بلد همدان -حسب قول صاحب صفة جزيرة العرب- حيث تمتد المنازل النجدية للهمدانيين، وحلفائهم من القبائل حتى جُرَش ونجران. وليس ثمة موضع في فلسطين التاريخية يُدعى قطه، كما في الرسم العبري. وبالطبع لا وجود له في صورة قطا كما في الرسم العربي.

١٠- رُمان

الرسم العبري للاسم هو: رمن وفي البناء العبري - السامي القديم للأسماء رُمُّون (مثل: صيدون، عقرون عصمون) ومكافئه العربي: رمان (مثل: قحطان،عدنان، عبران). قال ابن مُقبل (معجم: ٦٧٤):

أرقْـتُ لـبـرقٍ آخـر الـلـيـل دونـه رِضـامٌ وهـضـبٌ دون رُمـان أفـيَـحُ

برأي البكري مستنداً إلى الشعر العربي القديم، أن رُمَّان - رمن هي من جبال طي. ويضيف نقلاً عن الأصمعي: إن الشاعر عنى هذا الموضع في قصيدته:

وأسْـحـمَ مـيّـال الـقـرون كـأنَّـهُ أسـاود رُمـان الـسِّـبـاط الأطـاولُ

لكن الهمداني يضع رُمان قرب حقيل قائلاً: رُمان وحقيل بين أرض بني غني وطي، وسوف نرى دلالة هذا القول عندما نتحدث عن حقيل التي هرب إليها داوود في أثناء صراعه ضد شاول؛ والتوراة تصفها بأنها: في البرية. قال أبو صخر الهُذلي (ياقوت: ٣: ٧٧):

ألا أيها الرَّكْبُ المُخبُّون هل لكم بساكن أجزاع الحِمى بعدنا خبرُ

فقالوا طوينا ذاك ليلاً ولم يكن به بعض من تهوى فما شعرَ السّفْرُ

خليليّ هل يستجيرُ الرمثُ والغضا وطلح الكُدى من بطن رُمّان والسدرُ

في هذه الأبيات الرائعة ينص الهذلي على أن رُمان موضع جبلي، بدلالة إشارته إلى بطن الوادي؛ وهذا ينسجم كل الانسجام مع تحديد وتوصيف الجغرافيين المسلمين والنبي يشوع والهمداني على حد سواء، فهو مكان جبلي من نجد اليمن وليس في فلسطين. وقال عُمْيرَة بن جُعَل التغلبي:

ليـاليّ إذْ أنـتـم لـرَهْـطـيَ أعْـبـدٌ رُمَّـان لـمـا أجـدبَ الـحَـرَمـانِ

إن الوصف التوراتي التالي يوضح الصلة بين سائر المواضع؛ فالسائر نحو رُمان يمضي نحو حفر قبل أن يبلغها، كما يصل إلى مكان يُدعى الرمث (الرمث عند يشوع الرمت كما سنرى ذلك تالياً) قبل أن ينعطف نحو نوعه ونصب:

> (وتصعد إلى يافع من شُم عبر قدم من الشرق وجث حفر، وعثَ قضْين فتمضي نحو رُمُّن ثم تنعطف نحو نوعه ونصب).

وهذا ما سنراه بالتفصيل.

١١- عث وقضين

الرسم العبري لاسم هذا المكان هو: عت-قصين، والضبط العربي هو: عث و قضين؛ بما أن العبرية تستعيض عن الضاد العربية بالصاد وعن الثاء المُثلثة بالتاء. وفي الواقع لا يوجد مكافئ عربي لكلمة عت ولذلك تركها المترجمون كما هي في النص بوهم أنها اسم المكان وقضين صفته، فيما نرى أنها ذاتها موضع عث. يصف الهمداني قضين هذه في سياق وصفه لمخلاف صَعْدَة (صفه: ٢٢٤) قائلاً:

أما مخلاف صَعْدَة فإنه مُختَزلٌ من بلد همدان (....) وأما ظاهر خولان فهو أسل وفيه قرى وزروع. وأودية صَعْدَة: دماج والخانق ورحبان والحاويات وقضان.

وجود وادي قضين - وبالمد كما عند الهمداني: قضان بوصفه من أودية صَعْدَة التي تجري في نجد اليمن؛ ينسجمُ مع وصف يشوع لمنازل هذا السبط، والتي حددها بالأودية والجبال والمرتفعات والأغْوار. وفي الواقع؛ فإن الشعر العربي القديم ضبط الاسم في صورته العتيقة: قضين بخلاف ضبط الهمداني، كما في قول أُميَّة بن أبي الصلت:

عرفتُ الدار قد أقوت سنينا ... لزينبَ إذْ تحلُّ بذي قضينا

لكن ياقوت الحموي بخلاف الهمداني، يأخذُ بهذا الضبط ويكتب مُحللاً اسم المكان (: ٤: ٤٢٠، ٣: ٤١٨):

كلُّ أرض مُنْخَفضة، تُرابها رمل وإلى جانبها متنٌ مرتفع فهي: قضة وجمعها: قضون.

وقال ابن الدُّمينة:

من السند المُقابل ذا مريخٍ ... إلى الساقين ساقيْ ذي قضينا

هذا هو وادي قضين- وفي القافية الشعرية قضينا، الذي تسيل مياهه في النجد اليمني تماماً كما ضبطه يشوع والشعر الجاهلي.

يتبقى أن نعرف معنى كلمة عث التي استخدمها يشوع في وصف الوادي، وأبقاها المترجمون دون مكافئ عربي، ورأينا أن لها صلة بطبيعة الوادي؟ لنلاحظ أن العبرية لا تعرف حرف الثاء المُثلثة العربية وتستعيضُ

عنها بالتاء، وأحياناً بالسين مثل: كُثلة (كُسلت). ولما كان معنى قضين هو كل أرض منخفضة، وإلى جانبها متنٌ مرتفعٌ وترابها رمل كما يقول ياقوت؛ فإن عث في هذه الحالة يجب أن تعبر عن الدلالة ذاتها؟في تأويله لبيت الشعر التالي، يقول ابن منظور (لسان: مادة عث: ٢٧٦):

حلفتُ بِمَنْ أرسى ثبراً   أزوركم ما دام للطور عثون

ارتأى ابن منظور أن العثون (مفردها: عث) توصيف للطول، فالشيء الطويل المرتفع هو عث؛ وهذا صحيح تماماً بدلالة وصف الشاعر لمرتفعات الطور (الجبل) بالعُثون. ولذلك قالت العرب قديماً للبعير إذا طالت لحيته: ذو عثانين وهم قصدوا طول شعر حنكه. بهذا المعنى؛ فإن عث هي توصيف للمرتفعات التي تكوَّنت من حول الوادي في أثناء جريانه في النجد، أي المرتفعات التي تلي وادي قضين. وسنرى أن هذا المكان هو بالفعل قرب نصب- نصب ورملة كثلة- كسلت عند يشوع.

١٢- رأل

الرسم العبري للاسم هو: يرءله -رءله بحذف الياء اليمنية من الاسم مثل يعرم- عرم - يكرب- كرب - يشرح - شرح. ليس هناك موضع أو جبل أو مرتفع رملي أو بئر ماء، أو قرية أو مسيل مياه في فلسطين الحقيقية يحمل مثل هذا الاسم. كما لا توجد أي صيغة مشابهة له لا في عسير ولا في أي مكان آخر. إن يشوع في قائمته يضع يرءله - رءله قرب قطه- القطا في جملة (وقطه- ونهلل- وسمرون- ويرءله-). وهذا التسلسل نراه عند الهمداني وكذلك عند الأعشى في شعره فهو يفعل الشيء ذاته؛ وذلك في وصفه لمنازل القبيلة التي قصد مضاربها بين صَعْدَة وجُرَشْ. قال أعشى همدان (معجم: ١٠٠٥):

تَرْتَعي السَّفحَ فالكثيب فذا قار   وروض القطا فذات رئالِ

في هذا البيت النموذجي من قصيدة أعشى همدان، نكون وجهاً لوجه أمام سلسلة من المواضع الرملية والكثبان والمرتفعات، تماماً كما وصفها يشوع. فها هنا قطا ورءل في فضاء نجد الجغرافي. إن الهمداني يدعم هذا الوصف ويؤيده بقوة (صفة: ٢٣٦) بل ويعطي التسلسل نفسه:

وروض القطا، ودرنا، وكثيب الغيلة (...) وذات رئال.

لقد قرأ البكري بيت الأعشى هذا بصورة خاطئة، وخرج بنتائج مزعجة على صعيد تأويل أسماء المواضع وتحديدها؛ ويبدو أن اسم (ذو قار) المخادع أوقع الجغرافي الحصيف في الوهم، وحمله على الاعتقاد أن رئال بين البصرة والكوفة ظاناً أنها ذي قار العراقية، فيما المقصود ذو قار الموضع اليمني بين صعْدة وجُرَش. يُدلِّلُ هذا المثال على حقيقة أن الشعر الجاهلي كان عُرضة لتأويلات مُتَعجلة، ساهمت في اضطراب روايته وفهم مقاصده. تُرى هل تعرف فلسطين التاريخية مكانين يحملان مثل هذين الاسمين متجاورين كما في نص يشوع؟

يتبقى أخيراً وادي حنة -حناتون في البناء العبري. وهذا الوادي وصفه الهمداني والنابغة الذبياني إلى الجنوب الشرقي من موزع (صفة: ١٥٠) قال النابغة (صفة: ٢٧٧):

ألا يا بني عَصمِ جزالى وحنة   مراطيب تجْبى كل عام لكم حربا

هنا وادي حنة- حناتون قرب بني عصم- عصم. وحتى اليوم لايزال وادي حنة هناك تجري مياهه بين قرى بني مجيد على الساحل إلى النجد. ولنلاحظ وجود منازل بني عُصم في هذا البيت الشعري فهو المكان ذاته الذي عناه يشوع وسجل اسمه في الصورة نفسها: عُصم (انظر عصم في ما سبق من صفحات). إننا لا نعرف مثل هذه الأسماء في فلسطين كوديان

وجبال ومرتفعات؛ فيما يسجلها الشعر العربي القديم والهمداني كمنازل قبلية في الفضاء الجغرافي ذاته. وفي الفصول التالية سنقف على المزيد من الأمثلة التي توضح البناء العبري للأسماء وصلته بلهجات اليمن. والآن أين تقع كسلوت وتابور ونصب؟ الرسم العبري لموضع كسلوت في قائمة يشوع يشير إلى استخدام محرر النص لحرف السامك، وهو حرف بين السين والصاد المشبعة: كصلة، تعويضاً عن حرف الثاء المثلثة: كُثُلة. أما تبر فهي تبار عند الهمداني كما سنرى. في الواقع لا وجود لموضعين يحملان هذين الاسمين سوى في نجد اليمن إلى الجنوب من صَعْدَة وقد تغنى به الشعراء لكثرة أشجاره. قال الراجز اليمني أحمد الرادعي في أرجوزة الحج (صفة: ٣٦٦) والتي يصف فيها طريق الحج القديم من اليمن إلى مكة واصفاً وادي تبار:

تعتسفُ الفَدْفَدَ بعد الفَدْفدِ والصَّيهدَ الأجرد بعد الصَّيهدِ

حذار ملوي ممرّ مُخْصدِ طوت تباراً بعد وادي المطردِ

وليس ثمة مكان آخر في الجغرافية العربية يُدعى: تبار أو ملوي- انظر ملو عند يشوع وفي نصوص التوراة، وهذا هو الضبط العربي الدقيق لاسم الوادي: تُبار وليس تابور كما في الترجمة السائدة. أمّا كُثُلة التي نُسِبَت إليه فهي التي وصفها الراعي النميري بقوله (معجم: ٦٢١):

فكُثْلة فرؤام من مساكنها فمُنْتَهى السيل من بنيان فالحَبْلُ

وهذه هي كُثْلة التي تغمرها مياه السيول القادمة من الوديان (سنعود تالياً إلى وادي حبل في قصيدة الراعي النميري عندما نعالج مسألة وادي حبل في حروب داوود، كما سنعود إلى ما تبقى من منازل هذا السبط نظراً لتكرارها في قوائم أخرى). أما عث ونصب ويقنعم- القنع وسمرون-

سمرا فهي ذاتها المواضع المتجاورة التي وصفها الهمداني في اليمامة (صفة: ١٥٢-٢٥٥) بقوله:

> ثم تقطع بطن قوّ ثم السمرا وهو أرض سهب، ثم تأخذ في الدهناء ثم تخرج من الجبال والشقاق إلى العثاعث (جمع عث- المؤلف) وهي السلاسل (..) ثم أسفل من ذلك القُرى من اليمامة والخرج وهو في قنع الرمل. والقنع مفضى القاع والرملة. وهذه مفضى اليمامة حصون وقلاع وهذه الأودية مفضاها واحد، في بطن السوط الأبرك النعام، فإنه يفضي في ذات نصب أسفل العرمة. وكل هذه الأودية فيها نخل وزروع ومساكن (..) ثم ترجع في بطن العرض: قرى بني يشكر. ثم تمضي في رأس العارض ويحبس عليك العرض فترد القرية وهي قرية جيدة وفيها قصر سليمان بن داوود مبني من الصخر منحوت عجيب خراب فإلى رملة كثلة.

ها هنا قرى بني يشكر - يسكر عند يشوع، وها هنا وادي نصب - نصب ورملة كثلة- كسلوت وها هنا عثاعث - جمع عث وهي السلاسل الرملية. وها هنا بعض الشواهد الأثرية القديمة لما يُدّعى أنّه قصر سليمان بن داوود. إن عث وهي سلسلة من الكثبان الرملية تشخص أمامنا كما تشخص سمرون- سمرا، وكذلك يقنعم-القنع- الميم أداة التعريف اليمنية المنقرضة - تماماً كما في وصف يشوع. إن وجود هذه المنازل في الامتداد ذاته لمنازل سبط يشكر- يسكر ابتداء من أسفل اليمامة حتى نجران، أمر مثير حقاً لجهة تطابقه التام مع وصف يشوع.

٤ : سبط يسكر (يشْكُر)

يشوع: ١٩: ١٢: ٣٦

يقول النص العبري ٤١ : ١٨ : ١٩ ما يلي :

ل-يشكر-ويصء-ها-جبول-ها-ربيع-ل- بني-يسكر-ل-مشفحتم-ويهي-جبولم-يزرع ءيل-وها- كصلة-وشنم-وحفرءيم-وسيوءون وءنحرت-وها-ربية-وقسيون-وءبص- ورمت-وعين جنيم-وعين حدا-وبيت فصيص -وفجع -ها- جبول -ب- تبور شخصيمه- وبيت شمش.

قبل الشروع في إعطاء نصّ عربيّ موازٍ يُعيد ضبط المواضع ضبطاً صحيحاً، لا بد من العودة إلى مشكلة الكلمة العبرية العويصة: ها-جبول ومعالجتها بصورة تساعد فعلياً، في تعميق فهمنا للنص ولمحمولاته. هذه الكلمة يتمُّ توظيفها عادة، توظيفاً مزدوجاً في النصوص المترجمة لأداء معنيين: مرةً بمعنى حدود وأخرى بمعنى قُرعة. وحيث وردت الكلمة مع اسم موضع ما أو اسم سبط، فُهمت على أنها تشير إلى حدود؛ وحيث اقترنت برقم مثل ها-شني، فهي تترجم إلى الثاني وفهمت على أساس أنها تعني قُرعة. ولذلك تُترجم جملة العدد والمعدود (ويصء-ها-جبول-ها-ربيع) إلى وخرجت القرعة الرابعة؛ بينما تترجم جملة ويصء ها-جبول (من دون العدد) إلى (وخرجت إلى الحدود). والتعبيران حدود و قرعة تعبيران استشراقيان نموذجيان، فالقبائل والأسباط والجماعات البدوية القديمة لم تعرف الحدود ولا القرعة بالمعنى العصري لهما. إنهما تعبيران حديثان لا ينسجمان مع أجواء النص العتيق، ولا مع الروح

البدوية الرعوية للمرويات الدينية، التي يُفترض أنها شديدة الحساسية إزاء القرعة بما هي ضرب من القمار. ولذلك:

أ: نقترح لمعالجة النص، ومن أجل أداء معنى أكثر دقة وقوة من كلمة حدود أو قرعة، استعمال التعبير العربي اليمني القديم وهو من الأبنية نفسها: القَبَول -القَبل، أي بأداة التعريف العربية المكافئة لأداة التعريف العبرية في كلمة جبول (ها-جبول: القَبَل). تعني كلمة القَبل في اللغة: كل ما ارتفع من الأرض جبلاً أو رمالاً، ومنه كلمات مثل أقبَلَ، واستقبل، وقابلُ التي يستخدمها الهمداني بكثرة في وصف المواضع.

٢: إن هذه الكلمة التي نشأت وترعرعت في بيئة عربية بدوية قديمة، وتماثلُ في مبناها كلمة ها-جبول، تتضمن نوعاً من فعل عكسي: ضد الأدبار (أقبلَ وأدبرَ) فهي توصيف لما يلاقي السائر أمامه وفي طريقه؛ بينما تتضمن كلمة أدبر العربية معنىً يشير إلى ما قد أصبح في الخلف، من مواضع أو منازل يُخلفها السائر وراءه. وفي العبرية تؤدي كلمة مدبرة معنى البرية، وهو المعنى نفسه في دلالات الكلمة العربية أدبر، فكأن المُقبل يواجه المرتفعات والصعاب؛ فيما المُدبر يواجه فضاء مفتوحاً. إن هذا التماثل في مباني ومعاني الكلمات ودلالاتها، يشجع على افتراض إمكانية مبادلة ها-جبول بـ: القبل بمعنى كل ما ارتفع من الأرض رمالاً وجبالاً. ولذلك يمكن ترجمة جملة ويصء -ها- جبول إلى: وخرجت الأعالي، أو المرتفعات الجبلية، كما يمكن استخدامها مع الأرقام بطريقة مقبولة (وخرجت الأعالي الثانية) بدلاً من خرجت القرعة الثانية: (ويصء -ها-جبول-ها-شني).

٣: إن الهمداني الذي يستخدم كلمة يُصالي (قارن مع يَصء) بمعنى يجاور، يقترب، يحاذي؛ يقوم بموازاة هذا الاستخدام وبالتلازم الدلالي معه؛ بتطويع كلمة أقبل لتؤدي معنىً شديد الدقة في الوصف: ما أقبل

من... إلخ... ولذلك يمكن تطويع كلمة القبل هذه لتؤدي معاني من هذا الطراز كلما اقتضى الأمر ذلك.

٤ : إن العرب القدماء عرفوا نظام العطاء الخاص بالأراضي والمنازل؛ وهو ارتبط عندهم بالسلطة الدينية، ومع الإسلام جاءت وفود القبائل طالبةً الدخول في الدين الجديد، وعارضةً في الآن ذاته مطالبها من الأرض؛ والروايات التاريخية تستفيض في وصف وتسجيل وقائع إقْطاع الرسول ﷺ للقبائل، ما طلبته من الأرض لسكناها ومنازلها. ولعل الواقعة التاريخية الخاصة بالأبيض بن حمال السبئي القِيلُ اليمني، معروفة جيداً في هذا الإطار؛ إذْ طلبَ من الرسول ﷺ أن يُقطعه جبل الملح في مأرب. إننا لا نقول -كما لا تفعل ذلك النصوص القديمة بالطبع - إن القرعة خرجت على الأبيض بن حَمال فكان له جبل الملح؟ إن جملة من هذا النوع هي جملة استشراقية غير مقبولة؛ بل نقول- كما قالت النصوص القديمة من قبل-: وأقطعَ رسولُ الله ﷺ الأبيضَ بن حمّال جبل الملح في مأرب. بمعنى أنه حصل على الجبل لإقامته بعد موافقة الرسول ﷺ. والحال هذه؛ فإن يشوع النبي اليمني أقطع أسباط اليمن: حِجلة وحُرمة وهَنوم من الأودية والجبال لتقيم فيها مساكنها. وهذا هو المغزى الحقيقي الذي يتوجب فهمه بعمق من سفر يشوع. كما يمكن فهم الجملة من منظورٍ موازٍ: (خرج سهم هذا السبط فكانت مرتفعاته إلخ..).

٥ : إن إعادة ضبط المواضع هو إجراء تقني صرف، لا يُعدل ولا يغير في مباني الأسماء، والغرض منه زحزحة القشرة الزائفة التي وضعت فيها الأسماء، حتى بدت غريبة عن كل بيئة محتملة على وجه الأرض. والمثير أن كل قراء التوراة يتساءلون: أين تقع هذه المواضع ما دامت لم توجد قط في فلسطين ولم يعثر لها على أثر؟ إنها أسماء غريبة لدرجة تحمل على الاعتقاد أنها هي الأخرى، خيالية ولا أساس لها، مثلها مثل قصص

التوراة. وفي الواقع ليس ثمة مخيالية في الأسماء الأصلية ولكن ثمة مخيالية في طريقة فهم وطريقة تلقي هذه الأسماء. وأخيراً: إن ابن منظور يقدم لنا مساعدة ثمينة لتجاوز معضلة الكلمة العبرية. ولذلك، وفي سياق فهمنا للنص، فإننا نُعيد الكلمة العبرية إلى الأصل في طفولتها اللغوية البعيدة، ونقوم باستبدال كلمة ها- جبول بكلمة القابل بكل ما تختزنه من دلالات الإقبال على المرتفعات الجبلية والتلال والكثبان الرملية، وما يقابل السائر وجهاً لوجه من مواضع فيستقبلها. إن الهمداني يستخدم بكثرة - كما سنرى - كلمة: القابل في وصف الجغرافية (وانظر كذلك: لسان العرب: مادة قبل: ٥٤٢). و هنا نص يشوع كما فهمناه:

وإلى يشكر خرجت المرتفعات الرابعة؛ لبني يشكر وعشائرهم. فكان لهم من قابل يزرعءيل، والكصلة وسنم، والحفارات، وسيؤون وءنحرت والربية وقسن وأبض وعين الجن وعين حدًا وبيت فَضْيضْ ثمّ تنعطف القبل في تبار وشخصان وبيت شمس.

أما اسم السبط الذي ترسمه التوراة العربية في صورة: يساكر (يسكر العبرية) فإننا نعيد ضبطه في صورة: يشكر[1] وشاكر وإليكم المبررات:

الرواية التاريخية

في السيرة النبوية لابن هشام (٤ : ٢٣٤) كما عند ياقوت (مثلاً: ٣ : ٤٠٤) تقول الرواية التاريخية: قَدِمَ صرد بن عبد الله الأ زدي من

---

(١) ورد اسم شاكر في نقش معروف من نقوش قبيلة ثمود، وهو يعرف عند علماء الآثار بـ(صلم شاكر- معبود شاكر): انظر: اللغة العربية في عصور ما قبل الإسلام: أحمد حسين شرف الدين ١٩٨٥ مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، المملكة العربية السعودية.

الأزد اليمنيين- العمانيين - على رسول الله ﷺ فأنَفذهُ إلى بني يشكر- شاكر أهل جُرَشْ في اليمن فلم يُطيعوه فأوقع بهم. وحين سمع رسول الله ﷺ بعصيان أهل جرش ورفضِهم الإسلام قال: بأي بلاد الله شكر؟ ذلك أن بني شكر-يشكر هم الذين قاتلوا موفد الرسول ﷺ ورفضوا الإسلام. فقام إليه رجلان جُرشيان- من جرش اليمن- كانا أسلما فقالا: يا رسول الله: ببلادنا جبل يقال له كشر، وكذلك يسميه أهل اليمن. فقال رسول الله: ليس بكشر ولكنه شكر[1]. تهدف هذه الرواية في الأصل، إلى تأويل اسم شكر القبيلة اليمنية العتيقة باعتبارها مقلوب كشر، ولكنها تهدف كذلك إلى توضيح أمر يخصُّ مضارب هذه القبيلة التي (لا حدود لأوطانها). كانت منازل القبيلة تمتد من نجران حتى جُرَش فَصْعدَة وصولاً إلى سيؤون في حضرموت، وهي بلاد مترامية الأطراف مبعثرة القرى والمنازل، حتى أن الرسول ﷺ تساءل إثر أنباء العصيان: بأي بلاد الله شكر؟ أي ما أشدّ تبعثر مضاربها وتباعد قراها؟ (وليس نكران معرفتها). والرواية من هذا المنظور تهدف إلى الإبلاغ عن حقيقة لغوية مهمة هي: القلبُ في العربية (أي: نطق اسم كشر في صورة شكر، وهي ظاهرة مألوفة في لهجات العرب القديمة وكذلك في العبرية). وهناك صيغة عربية موازية ومألوفة في الروايات التاريخية الكلاسيكية هي شاكر ويشكر ومن اسم هذه القبيلة جاء اسم الشاعر الجاهلي المُنَخل اليشكريّ. ويبدو أن هذا الأمر حيَّر المسلمين حين بدأت دعوات ومُصادمات ومعارك الإسلام

---

(١) تشير هذه الرواية الهامة إلى مسألتين: أن بني شكر، يسكر، شاكر، هم من قبائل اليمن القديمة، وليسوا شعباً توراتياً. كما تشير إلى أن منازله وقراه معروفة عند العرب رغم تبعثرها وتباعدها. إنهم يتوزعون في جغرافية فضفاضة يصعب حصرها في رقعة واحدة، فهم يقيمون في جرش غير بعيد عن نجران- حدود الحجاز، وقرب حضرموت في آن واحد. كما أن الرواية تشير إلى عادة القلب في لغة أهل اليمن: كشر- شكر. وسنرى دلالة ذلك فيما سيأتي.

المُبكر مع القبائل اليمنية. لقد بدا أن الإسلام آنئذٍ يتعرف بنفسه وبصورة تلقائية مباشرة وعن قرب وربما بواقعية أكثر؛ إلى حقيقة أن الخريطة القبلية العتيقة في اليمن، أكثر تعقيداً مما كان مُتعارفاً عليه. فعدا عن أنَّ منازل القبائل مُتباعدة ومتناثرة - وهذا يُفاقم من مصاعب توجيه الخطاب الديني بالنسبة لإسلام وليدٍ مُحاط بالمخاطر- فإن تَوَزُّع وتبعثر الفروع والبطون في القبيلة الواحدة، كان يُقلِّلُ من فرص النجاح في حشد القبائل حول الإسلام الوليد. ومع ذلك نجح الإسلام في النهاية ودخلت القبائل في الدين الجديد بعد سلسلة من المعارك، وسلسلة موازية من النشر السلمي للأفكار التوحيدية في بيئة عرفت، أصلاً، تراثاً ضخماً من العقائد والطقوس والشعائر التوحيدية. شكلت جُرَش- المُندثرة اليوم من الناحية الفعلية- في فجر الإسلام عاصمة لليَشكُريّين. ولذلك أوفد الرسول ﷺ صُرْد بن عبد الله الأزدي وهو من أبناء جِلْدَتهم يدعوهم إلى الإسلام. ويبدو أن المركز القبلي قاوم بضراوة هذه الدعوة؛ وتمَّ استنفار البطون المتبديَّة (البدوية) بما يشبه تمرداً أعرابياً على الدين الجديد، يكاد يكون محصوراً في نطاق الجماعات التي أقامت طويلاً في البادية؛ وهؤلاء الأعراب (من تميم وشاكر وسواها) هم الذين نعتهم القرآن بأنهم الأعراب الأشدّ كفراً. وهذا هو مغزى قول الرسول ﷺ: بأيّ بلاد الله شاكر؟ فهم في جُرَش وفي البادية وفي حضرموت. ومن غير شك؛ فإن بقايا قبيلة بني مرار (بني مرر في التوراة) وهم ملوك كندة القدماء هي التي قاومت الإسلام انطلاقاً من جُرَش هذه، بفعل عامل ديناميكي هو التنافر القبلي التقليدي مع ديانة تصدر عن العدنانيين الشماليين. إن بني المرار - مرر سادة كندة وملوكها (وحفيدهم شاعر العرب الأكبر امرؤ القيس بن حجر آكل المُرار) لم يعيشوا في فلسطين؛ بل في جُرَش اليمنية وكندة وحضرموت أي في سراة اليمن. ولذلك سجلت التوراة اسمهم كسبط إسرائيلي أي كجماعة عربية عتيقة اعتنقت دين موسى القديم ولا علاقة

لهذه الديانة بما سيُعرف تالياً باليهودية. في إطار المُطابَقات والتمثُّلات العشوائية للنصوص، جرى تخيل جُرَش اليمن في صورة جُرَش الأردن- البلد العربي-. ولكن المُطابقات العشوائية لم تجد هناك سبط يساكر ولا بني مَرر، كما لم تعثر على أيٍّ من المنازل التي يسجلها سِفر يشوع في قائمته. وعلى العكس؛ فإن جُرَش اليمن تعرف يشاكر وتعرف بني المُرار كما تعرف سائر مواضع القائمة. هذا الدمج العشوائي والمُخْتَلق للصور والمرويات والقبائل والأماكن، لم تنجو من آثاره حتى تصوراتنا نحن العرب المعاصرين؛ ففي المخْيال العربي- الإسلامي المعاصر ثمة صور نمطية واستشراقية عن التاريخ موازية وشقيقة للصور الإستشراقية- الأوروبية. ومن النادر، في الدراسات العربية في هذا الميدان، رؤية دراسات وكتابات لها القدرة على التمييز بين جُرَش التوراة اليمنية وجُرَش الأردن؛ بل بين الأردن اليمني (وهذا هو اسم الوادي والقبيلة العربية) وبين الأردن البلد العربي الذي لا صلة له لا من قريب ولا من بعيد بالاسم الوارد في التوراة. ربما باستثناء محاولة كمال صليبي الرائدة ولكن المُتورطة في اللعبة اللغوية. يلبي هذا المدخل الخاص بسبط يشكر اليمني، حاجة مُلحة لفهم النصّ والتعرُّف على مضارب القبيلة ومنازلها كما وصفها يشوع والهمداني والشعر الجاهلي.

١- سيؤون

من الهام للغاية ملاحظة ما يلي: لا يُقَدِّمُ هذا المقطع من سِفر يشوع وصفاً للمواضع بأكثر مما يقدم تعداداً لها. كما أنه لا يشير إلى المنازل بالتلازم مع مزاياها ووظائفها وصفاتها، كأودية وعيون ماء وآبار وجبال على جري عادة محرري النصوص التوراتية، وذلك ما يُدلِّلُ على أن سارد النصِّ كان يواجه صعوبة من نوع ما في معالجة مسألة توزُّع وتناثر هذه

المنازل. وهذا ما يمكن توظيفه في إطار مروية ابن هشام عن قتال أهل جُرَش وقبائل يشكر للإسلام (ووجودهم في بلاد مترامية الأطراف بالفعل، حتى أن الرسول ﷺ سأل عن هذه البلاد). إن اسم سَيْؤون- شيؤون لا نظير له بين الأسماء التي نعرفها؛ ولا يستطيع أحد أن يقدم بديلاً أو اسماً مماثلاً له لا في عسير ولا في فلسطين، التي فتشها المخْيال الاستشراقي وعلماء الآثار موضعاً موضعاً. ليس ثمة سوى سَيْؤون واحدة جنوب اليمن (حضرموت) وهي التي قال فيها ابن مُقبل (معجم: ٧١٤):

أمْسَتْ بأذْرِع أكبادٍ فَحَمَّ لها ركبٌ بليّة أو ركبٌ بسايونا

هذه هي سَيْؤون التي وصفها ابن مُقبل، وهو يتجه نحوها من وادي لية (قارن مع اسم ليئة- زوجة يعقوب في التوراة) حتى أذْرُع. وها هي يزْرع - ءزرع ءيل في قائمة يشوع على مقربة منها. تعني كلمة: ءزرع العبرية: أذْرع - جمع ذراع. فهل يحتمل الأمر حدوث مثل هذا التوافق على أساس المُصادفة؟ إننا لا نعرف ءزرع قرب أو على الطريق إلى سَيْؤون في فلسطين؛ بل نعرفهما على الطريق من وادي لية الذي أعطى اسمه في مرْويات التوراة لزوجة يعقوب القبيحة: ليئة (لئه). إنه لأمر مُدهش حقاً، أن يكون الشعر العربي القديم قد سجلَ بهذا القدر من الفطنة والمحبة للمواطن القديمة، وبصور شعرية أخاذة أسماء المواضع الزائلة والمُندثرة وضمن فضاء جغرافي متكامل. بصدد هذا البيت من الشعر يجدر التنويه إلى أن ياقوت الحمويّ نقل روايته عن معجم البكري؛ ومع ذلك أخطأ- أو أخطأ ناسخ مخطوطته- في رسم اسم سَايونا- سيؤون، وذلك حين رسمه في صورة ساوينا، مع أن البكري نبه إلى هذا التصحيف وقال: إن الاسم هو: سايون؛ إذْ لا يوجد في بلاد العرب موضع يُدعى ساوينا. هذا النموذج من الأخطاء في الروايات الشعرية مألوف وشائع وهو يشير إلى اضطراب معارف القدماء بالمواضع القديمة

والبعيدة أو المندثرة. والآن: إذا ما سار المرء عبر وادي لية حتى يزرع ءل - أَذْرع فهل سيبلغ فلسطين أم سَيُؤون في اليمن؟

٢- سُنم

يُرسم اسم هذا الموضع في النصّ العبري في صورة: شنم -سنم. وفي الترجمة السائدة شونم بتحويل الحركة الإعرابية إلى حرف من أصل الاسم (حرف الواو في شُنم، شونم) وهذا غير مقبول؛ والضبط الصحيح هو سُنم. إن الهمداني يجعل من سُنم هذه منزلاً من المنازل الخاصة ببني شاكر في مخلاف صَعْدَة، ضمن نجد همدان أي ضمن مرتفعاتها الجبلية. وهذا أمر مثير بالفعل، فإذا كانت سُنم التوراتية لبني يسكر؛ فإن يَسْنُمْ عند الهمداني هي من منازل بني يشكر- شاكر. وهنا النصوص كما في صفة جزيرة العرب (١٦٣، ١٦٤):

وغربي بلد شاكر، إلى دماجّ من أرض خولان ثم تخرج في الخانق من بلد خولان (........) ثم يخرج في لهوة (......) والبطنات (.........) فسيل جَدْرَة وأداني أملح ضَدْح من بلد شاكر. ولقيها بالفقارة سيل كتاف يَصبُّ بأسفل الحربا من وادي نحرد (......) والركب (.....) ويَسْنُم.

لدينا في هذا المُقتطف الرائع والثمين دليل لغوي قوي وكاشف، على التماثل في لغة الوصف بين النص التوراتي ونص الهمداني؛ فالهمداني يستعير من يشوع الذي يستعير بدوره من تقاليد عتيقة في الجوهر، كلمات مثل يخرج وخَرجَ في وصف المرتفعات التي أقام فيها السبط الإسرائيلي، تماماً كما في النص التوراتي. إن كلمات من هذا الطراز لا تستعمل إلا في الثقافة الجغرافية العربية البدوية وعلى وجه التحديد في كلام أهل اليمن

وفي التوراة. وفضلاً عن هذا التماثل؛ ها هنا الأماكن ذاتها : يَسْنُم -سُنم بإسقاط الياء مثل عرم في يعرم وكرب في يكرب وشكر في يشكر، وهو من منازل شاكر وعلى مقربة منه وادي نحرد-ء نحرت عند يشوع. وفي الجوار مناك سيل وادي كتاف - كتاف والبطنات - بطونيم والركب - ركبه وسيل وادي جَدْرَة - جدرة، وهي من منازل الأسباط كما سنرى في القوائم المتبقية. تُرى: هل هي مُصادفة محض أن يستعمل الهمداني لغة الوصف نفسها ويسجل المواضع نفسها أيضاً؟ وهل هي مصادفة محض كذلك، أن يكون وادي نحرد -ء نحرت قرب يَسْنُم -سُنم؟ هاهنا نص يشوع ومقاربتنا له مع نص الهمداني.

الهمداني: ١٦٣-١٦٤	يشوع: ١٩: ١٢: ٣٦
من بلد شاكر، ولقيها سيل كتاف يصبُّ بأسفل وادي نحرد ولبني يشكر(....) سُنم	لسبط يسكر (...) يسنم وحفارءيم وءنحرت

بقي أن نشير إلى أن الياء الابتدائية في الأسماء اليمنية والتوراتية (يسنم، يشكر، يزرع إلخ...) هي في صلب هذا التماثل؛ وفي الضبط العربي الذي لاحظَ تطور هذه الصيغ والأبنية القديمة في اللهجة اليمنية والعبرية، تمَّ رسمُ الأسماء بحذف الياء ومعاملتها على أساس أنها حرف صوتي : سنم، شكر، عرم إلخ... تماماً كما هو الحال مع النون الكَلاعية. إننا لا نعرف يسنم وءنحرد في فلسطين بكل تأكيد؛ ولن نجد سبط يسكر هناك.

٣- وادي ء نحرت

لا تعرف فلسطين التاريخية على وجه الإطلاق، جبلاً أو وادياً أو عين ماء أو تلاً يدعى ءنحرت أو ء نحرد؛ ومع ذلك فقد عُدَّ هذا المكان الوهمي جزءاً من فلسطين المُتَخيَّلة.

إن الهمداني يحسم النقاش حول هذا الموضع من خلال تقديم وصفٍ دقيقٍ وشامل، يربط بين وجوده كوادٍ عظيم من أودية اليمن وبين كونه من منازل بني يشكر- شكر، تماماً كما فعل يشوع من قبل حين أكد أن وادي ء نحرد هو من منازل قبيلة يسكر- يشكر. إن الاختلاف الطفيف في رسم الاسم قد يكون ناجماً في الأصل، عن الاختلاف في أسلوب نطق الدال المُطابق صوتياً للتاء. يقول الهمداني (صفة: ١٦٤):

فصَعْدَة، حتى يضام سيل دماجّ بالخيبة من البطنة ويلقاها سيل عكوان من شرقي دماجّ وقبلته، وسيول شرقي كهلان، فيضم إلى العشّه.ثم يلقاها وادي كِشْور وأداني أملح ضَدَحْ من بلد شاكر. ولقيها سيل كتاف يَصبُّ بأسفل الحربا من وادي نحرد.

هو ذا وادي نحرت التوراتي تماماً كما وصفه يشوع، على مقربة من وادي كتاف - كتاف وعكوه - عكوان والبطنه - بطن عند يشوع؛ و هذه هي السيول المُتَدفقة والمندفعة نحو نجران تخترق منازل سبط يشكر- يسكر. فهل من العدل الافتراض أن الأمر يتعلق بتوافق لغوي مجرد؟ لقد تجنبنا حتى الآن الوقوع في فخ التلاعب بالتراكيب الأصلية للأسماء، وتركنا وصف الهمداني يتماثل ويتطابق تلقائياً مع وصف يشوع، مدعوماً بشهادة الشعر الجاهلي. لنلاحظ وجود جبل يدعى كشور- وفي الرسم العبري كسفور بتحويل الواو فاء ثم بإضافة الضمَّة المحوَّلة إلى واو- فهو يُحيلنا إلى مروية ابن هشام عن بلاد يشكر وحديث الرسول ﷺ إذ تغيَّر رسم الاسم عند الهمداني من المفرد إلى صيغة الجمع؛ وهذا أمر مألوف عند القدماء لعل مصدره الرواية الشعرية التي تُعظِّم المواضع بإعطاء صيغة التثنية والجمع (كشور). أو بالعكس: الحطُّ من قيمتها بإعطاء صيغة المفرد أو عبر صيغة تصغير تحقيرية (كشر). وفي هذا الإطار؛ فإن الهمداني الذي

يحرصُ على استعمال كلمات يخرج، وَخرَجَ كما يفعل يشوع في وصف المرتفعات (باستخدام كلمة يصء العبرية من صاءَ العربية بمعنى خرج) يقوم من الناحية الفعلية بنوع من المُمَاهاة الحاذقة والمُخادعة حتى لنظن أن المقصود من كلمة يخرج وخرج إنما هو الشخص السائر في الوديان وبين الجبال، فيما المقصود على وجه التحديد القَابِل أي المُرتفع. وهو بذلك لا يقوم بمجرد توصيف؛ بل بنوع من الرسم البياني للمنازل تماماً كما يفعل راسم الخرائط الجغرافية الحاذق، الذي يحدد عبر خطوطه الواضحة والدقيقة الطرق والمسالك التي تؤدي إلى المنازل.

٤- عين حَدّا

يُقصدُ بكلمة عين وحيث وردت في النصوص التوراتية: المياه بعامة، وليس بالضرورة عين الماء بمعنى الينبوع الجبلي أو البئر؛ وإنْ كانت التقاليد الثقافية القديمة تسمح بمثل هذا التخصيص. إن الشعر الجاهلي مثله مثل السرد العتيق يستخدم كلمة عين في وصف المياه بعامة، والاسم كما سجله سِفر يشوع هو: عين حدا وفي الترجمة العربية السائدة: عين حدّه. بحسب معارفنا عن فلسطين التاريخية؛ فإنها لا تضمُّ في جغرافيتها موضعاً عُرِفَ بالمياه ودُعيَ بهذا الاسم، بينما نعلم على الضد من ذلك أن الشعر العربي القديم تغنّى بهذا الموضع اليمني. قال ابن الأعرابي (معجم: ٤٢٩):

فلوْ أنَّها كانت لِقاحيَ كثيرة   لقد نَهلتْ من ماء حدٍّ وعَلّتِ

ها هي مياه عين حدّا - حده التي تمنى ابن الأعرابي لو أن إبله كانت كثيرة بحيث ترتوي منها، وهذه إشارة واضحة كل الوضوح إلى أن المقصود ليس ينبوع ماء جبلياً؛ بل مياهاً غزيرة تدعى مياه حدّ. وليس ثمة مكان بمثل هذه المزايا ويحمل الاسم نفسه في فلسطين أو بلاد عسير

جنوب غرب الجزيرة العربية، ولا في أي مكان آخر سوى بلد حدا - حده إلى الغرب من ذمار (محافظة ذمار) ضمن مخلاف رداع حيث تقع بئر شباع تماماً كما وصفه الهمداني (صفة: ٢٠٣: ٢٠٨):

> **وكومان بلد واسع يسكنها كومان وهم من زوف وسلْمَة، وصنابح، ويصلْي كومان إلى بلد ذي جُرة بلد الحدا. ولا يكاد يدخل بلد الحدا سبعٌ لذهابهم على السبع بالرمي. (.....) ومما يُصالي ألهان إلى وادي الشجْبَة الذي يصبُّ إلى رَمع جبل أنس وفيه محفر البقْران ووتيح وسمح وريمه الصغرى وحدًّا.**

في هذا المقطع من صفة جزيرة العرب لدينا وصف متكامل لرقعة جغرافية، يمكن فيها رؤية بلد حدًّا والجبل الذي يحمل الاسم نفسه جبل حدًّا، حيث الأودية تصب هناك ومنها وادي ريمه -رمه عند يشوع. وهذه هي المياه نفسها التي عناها يشوع في وصفه، كما عناها ابن الأعرابي في قصيدته يوم تمنى لو أن إبله كثيرة فيسوقها إلى مياه حدًّا الغزيرة بحيث ترتوي منها. إن الهمداني في المقطع الأول من النصّ يضع زوف القبيلة - زوف عند يشوع في المكان نفسه الذي تسميه التوراة برية زوف؛ وفي صيغة موازية برية زيف، على تخوم بلد حدّا إلى الغرب من ذمار، وهذا أمر يجعل من نصّ الهمداني مُتطابقاً كل التطابق مع نصّ يشوع، كما سنرى تالياً من خلال وصفهما لبرية زوف في النجد الممتد من ذمار حيث وادي ريمه- رمه. لدينا في هذين المقطعين كذلك وادي محفر -حفرءم، وهذا اسم تسجله التوراة بعد سُنم مباشرة وبعد وادي ءنحرت. إن الميم العبرية هنا لا تؤدي غرض الجمع المتوخى منها؛ بل تؤدي دور أداة التعريف المنقرضة في العبرية وفي اللهجة اليمنية القديمة كذلك. يلاحظ الهمداني (صفة جزيرة العرب: ٢٤٨) في تعليقه على لهجات أهل اليمن؛ أن سكان

سرو حِمْيَر وقبيلة جعدة يستعملون حرف الميم كأداة تعريف، فهم يقولون في يا ابن العم: يا بن معمْ. استناداً إلى هذه الملاحظة يمكننا مكافأة حفرءم بـ(المَحْفَرْ). والكلمة في العربية يقصدُ بها كل أرض شبيهة بالحفرة حيث تتجُمع فيها المياه، وقد استخدمها العرب القدماء للتعبير عن الآبار بعامة. ولهذا السبب سُمِّيَت زمزم حفيرة عبد المُطلب. لا شك أن وجود محفر قرب ء نحرت وسُنم وسائر المواضع الأخرى، لا يمكن ردُّهُ إلى عامل المُصادفة وحده. إننا لا نعرف في فلسطين مواضع متجاورة وتحمل الأسماء نفسها، كما في التوراة ونصِّ الهمداني والشعر العربي القديم؛ مهما فتشنا في الخرائط وكتب الرَّحالة بحثاً عن دليل. بيد أننا نستطيع رؤيتها- هناك- إلى الغرب من ذمار. بقي أن نشير إلى أن اسم حدًّا وردَ في النقوش الحِمْيرية (المساند) بالصيغة ذاتها بما يؤكد على قدِم هذا الموضع.

حول حادث الأخدود

٥- الرَّبة

حسب تسلسل المواضع في سِفر يشوع؛ فإن الرَّبة - الرَّبيت كما في الرسم العربي للتوراة المترجمة والصحيح هو: الرَّبةِ بكسر حرف الباء وتاء مربوطة، تقع بعد وادي ء نحرت - نحرد الذي رأينا مما سبق أنه يصب في نجران- انظر ءنحرت أعلاه-. إن النصَّ العبري يعطي الرسم التالي للاسم ها- ربيه أي الرابية أو الرَّبِة بالتاء العربية المربوطة. يُعرف الموضع عند القبائل العربية وفي الشعر الجاهلي بالتلازم مع نجران؛ وهذه عُرفت بكعبتها الشهيرة كعبة نجران[١]. والتاريخ يُخبرنا بالحقيقة التالية: إن

---

(١) في عصر كسرى أنو شروان ٥٧٠ سعت فارس إلى تشجيع اعتناق المذهب النسطوري وإلى تقارب سياسي بين الحيرة ونجران نكاية بالروم. وحتى عام ٨٤٠ م كان للنصارى أسقف على صنعاء واليمن هو مار بطرس. بينما شجع =

القبائل الجنوبية - اليمنية وفي وقت ما من تاريخ العرب القديم، سعت إلى إنشاء بيت عبادة يضاهي الكعبة الحجازية في إطار التنافس المحْتَدِمَ بين عرب الشمال وعرب الجنوب. كما تعطي التوراة صيغة موازية للاسم ها- ربه بإسقاط الياء من الصيغة الآنفة، وهذا هو الاسم الأقدم لنجران وكعبتها اليمنية. وقد تداول الشعراء والرواة اسمها جيلاً إثر جيل حتى سُمِّيت ربَّة نجران أو الرَّبة، كما هو شائع في كتب الإخباريين وقصائد الشعراء. كان سَدَنة الرَّبة حتى ظهور الإسلام من قبيلة مَذْحج وقبيلة بني الحارث بن كعب. وهؤلاء- بنو كعب- قادوا في وقت ما من ظهور المسيحية، تياراً عارماً في الجزيرة العربية لصالح الدعوة الجديدة؛ تُوجَ بانبثاق أول أُسْقُفية مسيحية هي أُسْقُفية نجران التي لعبت دوراً كفاحياً بارزاً في مقاومة اليهودية القديمة، الصاعدة بصعود الملك اليمني ذو نواس بن يوسف بن زَرْعه الحِمْيَري نحو العام ٥٢٤ م.

تعرضت أُسْقُفية نجران الوليدة والمكافحة، إلى سلسلة من التحديات انتهت باضطهادات شهيرة في تاريخ المسيحية العربية، وبعمليات حرق جماعي في ما عُرِفَ بحادث الأخْدود في العام نفسه لصعود الملك اليمني (٥٢٤ م) والذي جاء القرآن الكريم على ذكره في آية ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ [البروج: ٨٥/ ٤-٥]. في هذا الحادث التاريخي الموثَّق، سقط أحد أبناء الحارث بن كعب شهيداً في سبيل المسيحية، ولم تتمكن أي قوة إقليمية آنئذٍ، من صد الاعتداءات الوحشية اليهودية ضد مسيحيي نجران، على الرغم من التعاطف الذي أبدتهُ قبائل الشمال

= الأحباش عند احتلالهم اليمن مذهب اليعاقبة. في واقعة الأخدود التي ذكرها القرآن انتصرت اليهودية على المسيحية الوليدة. ويتضح من نقش حصن الغراب (Philby) أن قسماً كبيراً من نصارى نجران فروا إلى روما والحبشة إخوانهم في الدين طالبين النجدة. انظر مثلاً شيخو، مصدر مذكور، وجواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - مصدر مذكور.

الوثنية مع الضحايا.حتى روما نفسها تخاذلت أمام اليمن المُتحالفة مع الفرس، وربما تعمَّدت إظهار هذا التخاذل نكاية بالتيار العربي الاستقلالي في المسيحية على المذهب النسطوري، المُخالف والمعارض لمسيحية روما (المذهب الرسمي هو المونوفيزي- مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح). بيد أن مملكة الحيرة العراقية الشهيرة، التي راقبت اضطهاد المسيحية العربية بمرارة، وبإحساس فظيع بالعجز والإحباط جَرَّاء تخاذل روما عن نجدة مسيحيي نجران، سارعت إلى إبراز احتجاجها الأخلاقي بقوة على الرغم من مخاطر هذا الاحتجاج غير المرغوب به، من جانب الفرس حُماة الملك ذي نواس وسادته. كانت الحيرة الوثنية من الناحية الرسمية، مملكة ديمقراطية من منظور التسامح الديني، وقد رعت في إطار التقاليد القبلية حقوق الأفراد والجماعات في اعتناق الأديان والمذاهب والمُعتقدات؛ وهذا أمر يقع في صلب التقاليد البدوية الديمقراطية. (ولنتذكر أن قريش أبدت تسامحاً مذهلاً مع الرسول الكريم في مطلع الإسلام مع علمها بخطره على وثنيتها إذ لم يبدأ الاضطهاد الفعلي للإسلام إلا في وقت تالٍ من تصاعد الدعوة وانتشارها داخل مكة). ومع ذلك؛ فإن مملكة الحيرة الوثنية سمحت للمسيحية على المذهب النسطوري بالازدهار في سياق صراعها الخفي مع الفرس، وفي إطار توطيد الروح الاستقلالية وتنْميَتها. ولهذا الغرض شجعت قيام أُسْقفية في المملكة. وعندما بدأ الاضطهاد اليهودي لمسيحيي نجران وتجلى تخاذل روما واضحاً، كانت فارس تشعر بالنشوة لانحسار النفوذ المسيحي في اليمن؛ ولذا بادرت الحيرة وبالضد من رغبات الفرس إلى إجراء أهم اتصال سياسي مع روما، وذلك حين أوفدت أُسْقُف الحيرة إلى البلاط الروماني لحضِّهِ على التدخل بقوة وسرعة، من أجل إرغام الملك اليمني اليهودي ذي نواس وحماته الفرس على وقف أعماله الوحشية ضد

مسيحيي نجران. لقد مهد حادث الأخدود الذي وقع بحسب رواية الهمداني في منطقة هجر القديمة، الطريق أمام الحبشة المسيحية لتقوم باجتياح عسكري مباغت لليمن لحساب روما، واضعة حدّاً نهائياً لعقود من النفوذ الفارسي، ومن ثمَّ إزاحة اليهودية من طريقها في العام ٥٢٥م، أي بعد عام واحد فقط من الحادث الذي عرف في التاريخ باسم حادث الأخدود. إن علاقات اليمن اليهودية مع فارس، تعود بجذورها التاريخية إلى عصر ما يُدعى بالتحرير الفارسي ليهود السبي البابلي نحو العام ٥٣٩ ق. م على يد قورش. وسوف نبرهن وبالتفصيل على أن حادث السبي البابلي لم يقع في فلسطين؛ وأن وضعه في فلسطين من قبل المستشرقين الغربيين، غير مقبول ومستحيل من الناحية التاريخية لأن الموطن الحقيقي لهذه العلاقات هو سلسلة جبال اليهوذية - اليهودية. أي: السراة اليمنية الممتدة حتى نجران، علماً أن اليمن القديم كان يمثل المركز التقليدي للسيطرة الفارسية على ساحل البحر الأحمر. لقد انطبع حادث الأخدود (الحرق الجماعي) بقوة في الذاكرة اليهودية، حتى درجة تمثُّله في المخْيال الاستشراقي في صورة المحرقة النازية لليهود، التي نرى إليها على أنها تتضمن عناصر أساسية من منظومة مواد تاريخية ومثيولوجية لإعادة إنتاج المروية الأصلية؛ كما أنها تمثل استرداداً مقلوباً لذكرى الحرق اليهودي للمسيحيين في نجران (بدلاً من الأخدود الأرضي وحرق المسيحيين كانت هناك أفران لحرق اليهود). وفي هذا الاسترداد تتكشَّف المثيولوجيا القديمة التي عاشت في الذاكرة اليهودية. إن لمن المهم بالفعل، عند إعادة بناء الرواية التاريخية عن المحرقة النازية لليهود في أوربة، رؤية الكيفية التي تمَّ فيها استرداد حادث الأخدود التاريخي، المُوثّق جيداً في السجلات الكنسية والوثائق المسيحية الأوربية والعربية. على غرار ربّة نجران وفي إطار التنافس القبلي، قامت قبائل الطائف

بعبادة ربّة أخرى منافسة شجعت القبائل العربية على التوجه إليها للحج، عُرِفَت باسم اللّات -ء يلات[١] في التوراة، وكانت معبودة كبرى من معبودات العرب الشماليين، ولكن اسمها ظلّ مع ذلك يعرف في شكله هذا (الربّة). وهذه هي التي عناها حسّان بن ثابت في قوله:

وفـي كـلِّ دارٍ رَبَّـةٌ خَـزْرَجـيّـةٌ وأوْسـيـةٌ لـي فـي ذُراهُـنَّ والـدُ

في هذا السياق ثمة صلة لغوية حميمة بين: الربية - الرابية بمعنى مرتفع وبين كلمات رابية وربوة وربّة العربية؛ فكلها تؤدي المعنى ذاته في جملة ها- ربيه العبرية أي الربّة كتوصيف للذات الإلهية، العالية والمُتسامية. قال الأعشى واصفاً موضع (الربو) قرب نجران:

قالوا نُمارٌ فبطن الخالِ جادَهُما فـالـعسجديّةُ فالإبلاءُ فالرّجلُ

فالسفحُ يجري فخنزيرٌ فبُرقَتهُ حتى تدافع منه الرّبو فالحبلُ

ويبدو أن القدماء اختلفوا حول تأويل آية ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٥٠] كما اختلفوا حول تحديد مكان ربوة هذه؟ إن بعض المفسرين المتأخرين للقرآن من مسلمي الشعوب غير العربية يربطون بين فلسطين وربوة القرآنية؛ ولعل مصدر ذلك هو الاختلاط في أسماء المواضع. مثلهم مثل بعض اليهود الذين دخلوا الإسلام المبكر. قال أبو هُرَيْرَة (معجم: ٦٣٧ وياقوت: ٣: ٣٠): [الزموا ربوة فلسطين التي قال الله فيها.... وذكر الآية]). ولا شك أن الربط بين المرويات التوراتية

---

(١) في العربية القديمة استخدمت القبائل الهاء كأداة تعريف وفي النقوش (هلت: اللات) كما في نقوش خط المسند اليمنية. واللات معبود عربي قديم ذكره ابن الكلبي (الأصنام). لكن بعض الباحثين يرى أن الهاء استخدمت للنداء (هرضو، هشمس، هعترسم: يارضا - إله قديم- ياشمس، ياعتر سمين) كما ورد في نقش معروف (ياعتر سمين أعطني سهمي).

وبين موضع ربوة، وهي رملة من رمال العرب قرب نجران، يخفي صلة من نوع ما بحقيقتين، أولاهما أن اسم الموضع نفسه لم يعُدْ موجوداً مع انتقاله إلى فلسطين، حيث حملته - معها - قبائل عربية مُهاجرة إلى بلاد الشام لتعيد تسجيله هناك، تماماً كما فعلت مع جُرَش اليمنية المُنْتَقلة إلى الأردن، وذلك في إطار سلوك تقليدي للقبائل للحفاظ على ذكرياتها. وثانيتهما أن المكان الأصلي كان يتمتع بنوع من القدسية، نظراً لوجوده ضمن نجران وكعبتها، ولذلك اختلطت على مفسري القرآن المُتأخرين حقيقة الموضع الذي قصده القرآن والتوراة: هل هو ربوة نجران- ربة أم الرَّبوة في فلسطين؟ وسوف نعود تفصيلياً إلى مادة ربة هذه في فصل حروب داوود ضمن الكتاب القادم، نظراً لارتباط هذه الحروب باسم المكان نفسه وبأحداث توراتية كثيرة. لقد نسي المسلمون مع الوقت ربة نجران ومكانها قرب وادي حَبْل؛ كما حدده الأعشى في قصيدته الآنفة (انظر وادي حبل في حروب داوود عندنا) وخلطوا بينها وبين ربوة فلسطين، تماماً كما خلطوا بين جُرش الأردن وجُرش اليمن المُنْدَثرة. ومع ذلك كله؛ فإن لمن المهم إنعام الفكر في مغزى وجود رجال من جُرَش اليمن في مجلس الرسول ﷺ حين سأل: بأي بلاد الله شاكر؟ لقد تولى الإجابة عن السؤال رجال من المكان نفسه، أي من جُرش التي كانت فعلياً من مدن نجران. لقد جاء أبناء ربة اليمنية إلى الإسلام تاركين إلى الأبد معبود تهم وُمتجاهلين ذكراها. هذه هي ربّة (ربية التوراتية، ربوة اليمنية) في بلد شكر عند الهمداني والأعشى وعند يشوع في أرض يشكر.

٦- رمث

اشتبه اسم هذا الموضع على كثير من الباحثين والدارسين؛ فظنوا أن له صلة من نوع ما بأسماء رامت والرامه والرمه أو رمه أو رومه، وكلها صيغ لأسماء يسجلها سِفر يشوع على نحو متماثل، بما يدفع إلى الاعتقاد

أنها صيغة واحدة في الأصل. وهذا في الواقع اعتقاد خاطئ لأن كل اسم من الأسماء يدلُّ على موضع بعينه ولا علاقة له ببقية الأماكن. والمثير للاهتمام أن كل هذه الأسماء لا وجود لها في فلسطين، فيما نجدها - كلها- في جغرافية اليمن. وبالطبع لم يفطن بعض الدارسين إلى أن التاء المفتوحة هذه في (رمت) تشير إلى أصل الاسم؛ فهو رمث - بالثاء المُثلثة -وليس رمت وأن العبرية التي لا تعرف هذا الحرف تقوم باستبداله عادة بالتاء. قال المُخبَّل اليشكريُّ:

لقد شاقني لولا الحياءُ من الصَّبا   بذي الرمث أو وادي قوى ظعائنُ

تقع رمث وهي مسيل مياه من وادي تبالة على مقربة من وادي قوى، الوارد ذكره في التوراة كما سوف نبيِّن، وعلى مقربة كذلك من جدرة - جدرة من منازل يهوذه غير بعيد عن مِذابْ - مدب ء عند يشوع. ويبدو أن للاسم صلة حميمة بالرمث، وهو نبات حامض تأكله الإبل ولا وجود له إلا في البادية. قال أوسْ بن حجر (معجم: ٦٧٣):

بكيْتُم على الصُّلْح الدُّماج ولم يكن   بذي الرمث من وادي تبالة مقنِبُ

ودُمّاج في بيت أوسْ بن حجر، من أودية صَعْدَة يصب إلى الغرب من بلد شاكر حسب وصف الهمداني (صفة: ١٦٣) الذي يقول ما يلي عن مسار وادي نجران والطرق التي يسلكها:

> **وغربي بلد شاكر إلى دماج من أرض خولان ثم يخرج في الخانق (.....) والغيل والبطنات (...) ولقي سيل غربي صَعْدَة.**

هذا التوصيف ينسجم مع الجغرافية التي ترسمها الأشعار لرمث، كمسيل مياه من أعراض نجد اليمن. إننا لا نعرف مسيل مياه في فلسطين يُدعى رمت أو رمث له صلة بمنازل بني يسكر، بينما نعثر على الموضع

في وادي تبالة من أعراض نجد قرب نجران، حيث منازل بني يشكر وعلى مقربة منه سلسلة من المنازل التي يقول يشوع عنها: إنها من منازل سبط يسكر ويهوذه. قال دُرَيْد بن الصُّمَّة:

ولولا جنون الليل أدْرَكَ رَكْضنا بذي الرمث والأرطى عياضُ بن ناشب

وقال زهير بن جُذَيْمَة العبسي (معجم: ٦٧٦):

هل كان سَرَّ زهيراً يوم وَقْعَتنا بالرّمث لو لم تكن شأسٌ له ولدا

وكما هو واضح من ضبط الشعراء لاسم الموضع فهو رمث وليس رمت، وقد أخذ به ياقوت (٣: ٧٧) أما كلمة (ذي) فهي سابقة مألوفة في كلام أهل اليمن والعرب، والأصل في الاسم كما عند زهير العبسي (رمث).

٧- أبضْ

الرسم العبري للاسم هو ء بص بالصاد العربية المُهملة، وفي الترجمة العربية السائدة رُسِم الاسم في صورة آبص - بالمد-. وهذا ضبط عربي خاطئ لأن الصاد - ها هنا- هي الضاد العربية المُعجمة التي تستعيض عنها العبرية بالصاد مثل: ء رص: أرض.ولذلك فالاسم هو أبضْ ومنه أباضْ-بالمد. وبالطبع لا تعرف فلسطين الحقيقية مكاناً يُدعى أبصْ- بالصاد- ولا أبض- بالضاد المُعجمة- وليس ثمة صيغة أخرى قريبة الشبه في طول فلسطين وعرضها، لا تحت الأرض ولا فوقها، كما لا وجود لها في الخرائط القديمة ولا في الموارد التاريخية. فهل أقام سبط يسكر التوراتي- يشكر اليمني في مكان مُختلق؟ إذا ما قمنا بضبط الاسم طِبْقاً للرسم العبري؛ فإن الرسم العربي الصحيح هو أبضْ-بالضاد العربية المُعجمة- وسنرى أنه من منازل يشكر اليمنية بالفعل، وتماماً كما سجَّله يشوع. قال شبيب بن يزيد بن النعمان بن بشير (ياقوت: ١: ٨١):

أَتَنْسَونَ يوم النَّعْفِ نعفَ بُزاخةٍ ويـومَ أبـاضٍ إذْ عـتـا كـل مُـجَـرم

تقع أبضْ - أباض- بالمد وهي هنا اسم ليوم مشهود من أيام العرب، دارت فيه معركة ضارية بين القبائل في المكان نفسه؛ قرب موضع الرمث أي في العرض من نجران. وأبضْ هذه مسيل مياه يصب في بطن العرض حيث أقام بنو يشكر منازلهم هناك، وقد حدَّدها بيت شعر لعمرو بن كلثوم على نحو مدهش في الدّقة، قال:

كـأنَّ الـخـيـل أسـفـل مـن أبـاضٍ بـجـنـب عُـويْـرض أسـرابُ وبْـرِ

أما الهمداني فهو يصف أبضْ هذه باعتبارها من منازل بني يشكر، أي تماماً كما فعل يشوع. يقول (صفة: ٢٥٤):

> **وبلاد بني تميم فيها النخيل والزروع (.......) ثم ترجع في بطن العرض، عرض بني عَدْي، فأولها القريّ قَريّ بني يشكر، ثم القلْتَيْن لبني يشكر، وعن يسار ذلك الشعبتان فمُصعَداً، ثم ترجع إلى بطن العرض فالموصل لبني يشكر (.....) ثم أباضْ.**

هذا التوافق المُثير بين نص يشوع ونصّ الهمداني على تحديد أبضْ، بوصفها من منازل بني يشكر- يسكر- (ولنلاحظ هنا أن الهمداني يستخدم الصيغتين معاً يشكر وشاكر بحرية تامة) يستحيل تصوره على أنه مجرد توافق لغوي. في الواقع عاد الهمداني على خطا يشوع النبي اليمني، وبعد مئات السنين ليصف المكان نفسه وصفاً مُسْهَباً ويضع رمث قرب أبضْ.

٨- شخصان (شخصيم)

يُرسم الاسم في العبرية في صورة: شخصيم، والميم العبرية -هنا- هي أداة التثنية والجمع لاسم المفرد المذكر (شخص، شخصان). إننا لا نعرف مكاناً بهذا الاسم في فلسطين القديمة والحديثة؛ ولكننا نعلم من الشعر الجاهلي أن شعراء العرب تغنوا بموضع جميل من مواضع البادية يُدعى شخصان، وهو من منازل بني يشكر. قال الحارث بن حلّزة في معلقته المشهورة التي شرحها الأنباري (الأنباري في شرح القصائد الطوال: ٤٣٧):

وبعينيكِ أوْقَدَتْ هندٌ النا ... رَ أخيْراً تُلْوي بها العلياءُ

أوْقَدَتْها بين العقيق فشخْصي ... نِ بعُودٍ كما يلوحُ الضياءُ

ليست هند في هذه القصيدة، كما توهم النقاد القدامى والمعاصرون، محبوبة الحارث بن حلزة التي أوقدت النار؛ بل هي موضع تعشَّقه الشاعر في إطار ثقافة قديمة، تسمح لكل شاعر بأن يتخذَ لنفسه محبوبة خاصة به، بحيث تتماهى صورتها الآدمية مع صورة المكان؛ وهو موضع يمني شهير يسمى (هند) وإلى جواره (هنيدة) ويعرفان بـ(هند وهنيدة) وقد وصفهما الهمداني كما سنرى تالياً. وفي قصائد طرفة بن العبد ما يكفي للتذكير بأن هنداً هذه هي حبيبته التي قال فيها:

لهند بحزان الشريف طلولُ

أما العقيق وشخصان فهما واديان من أودية اليمن التهامية كما يقول الهمداني. قال الفرزدق مستعيداً ذكرى هند هذه:

قفي ودعينا يا هُنيدُ فإنني ... أرى الركب قد ساموا العقيق اليمانيا

يقول ياقوت (٤ : ١٥٨): إن الفرع اليمني من وادي العقيق يُنسبُ إلى اليمن، لأن أرض هوازن هي في نجد مما يلي اليمن (في ظاهر همدان).

ها هنا شخصان تماماً كما ذكرها يشوع والحارث بن حلزة في معلقته، حين أوقدت النار.

٩- فَضَيض

الرسم العبري للاسم هو: بيت- فصيص بالصاد المهملة، والرسم ذاته نراه في الترجمة العربية السائدة؛ ولكن الضبط العربي الدقيق له هو بيت فضيض (بالضاد المُعجمة) نظراً لافتقاد العبرية لهذا الحرف. قال قيس بن العيْزار الهذلي (ياقوت: ٤ : ٣٠٣):

وَرَدْنَ الفَضَاض قبلنا شيّفاتُنا بأرْعَنَ ينفي الطيرَ عن كل موقع

لكن البكري (معجم: ١٠٢٥) ينسب البيت إلى شاعر يسميه قيس بن خُويلد. ومهما يكن من أمر؛ فإن الشاعر يفيد بحقيقة أن الموضع هو مسيل مياه. وبالطبع لا يعرف أحد من الجغرافيين أو الشعراء القدامى مكاناً يُدعى فصيص- بالصاد- ولا فضيض- بالضاد- في فلسطين. والمثير أن ياقوت يضبطه في صورة: فَضَيص (كما يضبطه في صورة الفضاض) ولكن من دون أن يكشف عن مصادره في هذا الضبط والكلمة تعني: المياه الضعيفة بطيئة الجريان حتى أن الطير ينفر منها كما يقول الشاعر. وسوف نعود تالياً إلى اسم العيزار - الشاعر- هذا، وصلته بالمواضع اليمنية والتوراتية. فضيض هذه من منازل البادية بين بني تميم ويشكر التي وصفها الهمداني في نصه الآنف.

١٠- قُشْيَان

حسب البناء العبري - اليمني القديم؛ فإن كثرة من الأسماء تلحق بها النون مع الضّمة؛ التي تتحول إلى حرف من أصل الاسم طِبْقاً لتقاليد

البناء العتيقة، فيما هي حركة إعرابية مثل قس: قُسن. وفي البناء العربي للأسماء: قسان- بالمد-. لكن الاسم في الترجمة العربية يُرسم في الصورة التقليدية للبناء: قسيون (زنة صيدون، عفرون) إن أحداً لا يعرف مكاناً بهذا الاسم في فلسطين الحقيقية التي درسنا جغرافيتها؛ لا في صورة قسيون ولا في صورة قسيان. بيد أن الشعر العربي يعرف مثل هذا المكان في بلاد بني تميم، في البادية وعلى مقربة من منازل يشكر- يسكر. قال ابن مقبل (معجم: ١٠٧٥):

سَقَتْ قُسْيانُ فازورَّتْ وما علمتْ   في أهل ترْبانَ من سوءٍ ولا حَسَنِ

ومن هذا الاسم جاء اسم جبل قاسيون الشهير في دمشق، الذي حملته القبائل الإرْمية معها في هجرتها من اليمن إلى بلاد الشام كما هو معروف. قال شاعر (أغفلَ ياقوت اسمه):

ألا رُبَّ يـومٍ لـهـوتُ بـقُـسْـيـانَ   ولم يكن بالزميلة الورع الواني

١١- عين الجنّ (جنيم)

قال النابغة الجعديّ:

أشبّ لها فَرْدٌ خلا بين عاذبٍ   وبين جماد الجنِّ بالصيف أشْهُرا

عين الجنّ هذه في وصف النابغة لا تُعرف في فلسطين؛ بل قرب عاذب الذي ذكره الحارث بن حلّزة في معلقته سوية مع شخصان:

فـنـحـيـاة فـالـصـفـاحُ فـأعـنـا   قُ فـتـاقٍ فـعـاذبُ فـالـوفـاءُ

لا أرى منْ عَهدتُ فيها فأبكي   اليوم دَلْهاً وما يَرُدُ البكاءُ

وبعينيكَ أوقَدتْ هِندٌ النا   رَ أخيراً تُلْوي بها العلياءُ

أوْقَدتها بين العقيق فشخصي   ن بعُودٍ كما يلوحُ الضياءُ

ترى هل هي مُصادفة محض أن يضع شعراء الجاهلية عين الجنّ قرب شخصان، تماماً كما فعل يشوع؟ إن الرسم العبري للاسم هوعين-جنيم (جنيّ للمفرد وجنّ في الجمع، والميم العبرية هي أداة الجمع والتثنية). يقول البكري ما يلي (معجم: ٦٧٢، ٩١٠): جماد الجنّ من ديار بني يشكر وعاذب بديار شكر وهم متجاورون. ثم يضيف مُفسّراً معنى كلمة: جماد:

جِماد الجنّ بكسر أوله مُضاف إلى الجنّ جمع جنيّ (...) والجُمد: الجبل.

تُرى هل ثمة مُصادفة لغوية أو جغرافية أخرى في هذا التوافق بين الشعر الجاهلي والتوراة والهمداني، وأن تكون جماد الجنّ جبلاً في ديار بني يشكر، بينما تكون عين جنيم في ديار يسكر عند يشوع؟

هذه هي منازل سبط يشكر - يسكر كما وصفها يشوع والهمداني والشعر الجاهلي، وما تبقى منها فسوف نتحدث عنه في القوائم القادمة للأسباط نظراً لتكراره هناك. أريد في ختام هذا الجزء من القائمة العودة إلى المعنى الحقيقي لكلمة جت العبرية التي تكرر ظهورها. في الواقع لم يتمكن محقّقو التوراة من تقديم مكافئ للكلمة، كما أن مترجمي النص إلى العربية أبقوا الكلمة باعتبارها جزءاً من تركيب الاسم: جت-حفر، جت-رمون- أو: جت، كما في حروب داوود ضد ما يُدعى بالفلسطينيين، حيث صوَّرت المرويات استيلاء داوود على موضع جت، بعد طرد ها- فلشتيم منها. إن القاموس العبري- الإنجليزي Hebrew-English-lexicon-thirty fourth impression 1974 يعطي لكلمة جت المكافئ الإنجليزي التالي: the vat: الحوض الذي يُعصر فيه العنب. بيد أن الكلمة العربية الوحيدة التي تعبِّر عن المقصود، إنما هي كلمة جثّ - بالثاء المُثلثة- التي تفتقدها العبرية، والتي تعني الأدوات و الوسائل التي تستلزمها صناعة العسل. كما أنها عند ابن منظور (لسان العرب: مادة جثّ ١٢٧): كل ما يُخالط العسل من الشمع،

وفي الوقت نفسه كل ما ارتفع عن الأرض أي وسائل جني العسل (كالحبال مثلاً). إن الطريقة التي اتَّبعها اليمنيون القدماء في صناعة العسل وهم اشتهروا به حتى اليوم، تنطوي على صور مدهشة من الابتكار، لأن مناحل العسل كانت في المرتفعات الجبلية. ولذلك استخدموا أنواعاً من الدلاء والحبال لتأمين الوصول إلى مواضع النحل. ولذا أطلقوا على هذه الأماكن اسم (جُث) قال ساعدة بن جؤية الهذلي واصفاً طريقة جني العسل:

فما برحَ الأسبابُ حتى وَضَعْنَهُ لدى البول ينفي جثها ويَؤمُّها

والأسباب هي الحبال. بهذا المعنى؛ فإن المقصود بـ: جت-رمون ليس مكاناً بعينه يُدعى جت، بل مناحل العسل في هذا الموضع من رمون- رمان. وليس ثمة مكان في فلسطين اشتهر قديماً بمناحل العسل؛ بينما نعلم أن اليمن هي الموطن التاريخي لأقدم صناعة للعسل عند العرب. تقول بعض المرويات التاريخية: ذات يوم جاء إلى النبي ﷺ رجل يمني من وادي الهدى حاملاً هديته من العسل للنبي فقال له ﷺ: من أين شريت هذا؟ قال: من وسخة. فقال النبي ﷺ بل وسحه[1]- بالحاء المهملة -. ما يهمنا من هذه المروية أمران: أولاهما أن شهرة العسل اليمني وشهرة صناعته في هذه الوديان، هي التي تدفع إلى التأكيد على المعنى المقصود من كلمة جث. والأمر الثاني هو أن اليمنيين ينطقون الخاء - المعجمة - والحاء المهملة قديماً بمعنى واحد مثل: بيت لحم - بيت لخم، وسخة - وسحة. هذا التمييز ضروري للغاية بين جت التي جاء منها اسم موضع جوة في المعافر، وبين جث هذه المرتبطة باسم رمون، لأن المقصود بها في قائمة منازل يشكر إنما هو جث بالثاء المثلثة.

---

(١) العبرية لا تعرف حرف الخاء المعجمة. واليمنيون وحدهم من ينطق الحاء خاء: بيت لخم في بيت لحم، وسخة في وسحة. هذا النطق العربي القديم لا يعرف عنه اليهود المعاصرون أي شيء.

٥ : سبط أشير (ء شير)

يعطي النص العبري ٤١ : ١٨ : ١٩ : أسماء المنازل الخاصة بسبط أشير-ء شير. ونظراً لوجود اضطراب في النص الأصلي المُقارَب مع النص اليوناني والمُعدّل على أساسه، فقد جاءت الترجمة العربية مُضْطربة هي الأخرى؛ إذْ عرضت ضبطاً مُحَيْراً لبعض المواضع. وأكثر من ذلك مخالفاً حتى للنصّ العبري. وهذا ما سوف نقوم بتوضيحه، وهنا النص:

ل-مطه-ءشر-ل- مشفحتم- ويهي-جبولم-: حلقة[1]- حلي- وبطنه- وكسف-وءل- ملك- وعم - عد-ومشال- وفجع-ب- كرمل-ها- يمه-وب - سحر-لبنه-وشب-مزرح-ها-شمش-بيت- دجن - وفجع-ب-زبولن-وفني-يفتح-ءل-صفونه- وبيت-ها-عمق-ونعيءل-ويصء-ءل-كبول - م-شمءل-وعبرون-ورحب-وحمون-وقنه-عد - صيدن ربه-وشب-ها-جبول-ها-رمه-وعد- عير-م-بصر-صور-وشب-ها-كبول-حوصه -ويهيو-تصء-ءتو-ها-يمه-م-حبل-ءكزب - وعمه-وءفق-ورحوب.

يفيدُ هذا النص بما يلي- حسب ضبطنا لأسماء المواضع-:

ولسبط أشير (ء شر) وعشائرهم كانت قَبَلهُم: خِلْقة، وحَلْي، وبطن، وءكسف، والمالك، وعم عدّ، ومثال. فتمضي في كرمل البحر وفي سحر، ثم لبُنى؛ فتمضي نحو مطلع الشمس بيت دجن. وتمضي في

(١) راجع الهامش السابق حول حرف الحاء.

زبولن وادي يفتح ءل شمالاً وبيت العمق ونعيءل. وتخرج إلى كبول؛ عبدون من الشمال، رحبه وحمه، وقينه عند صيدُن العالية، وتسير مُقبلاً نحو الرما إلى منزل صور الحصين، ثم تمضي قبالة الحوض وهو يصبُّ في البحر، ومن حبل،ءكرب، وعمه وأفيق، ورحوب.

١- خلْقه

حسب نص سِفر يشوع تقع خَلْقة- خلقة قرب وادي رحب- رحبة في الضبط العربي. ولأجل التحقُّق من اسم هذا المكان وإعادة توصيفه؛ فإن وجوده قرب رحبة في فضاء جغرافي واحد، سيكون عاملاً حاسماً في هذا النطاق، وعلى أنه المكان نفسه الذي عناه يشوع. إن فلسطين التاريخية لا تعرف موضعاً يُدعى خَلقْه - بالخاء المُعجمة- ولا حَلْقه- بالحاء المُهملة- بينما تعرف اليمن هذين الموضعين في فضاء جغرافي واحد، إلى جوار سائر المواضع الأخرى الواردة في نص يشوع. ها هنا نص الهمداني معطوفا على نص يشوع (صفة: ١٥٧، ١٥٩) حيثُ توصف أودية الجوف اليمني غربي صنعاء:

ويلقى هذه الأودية سيل مخلاف مأذن من حَضُور المُعلل، وحقل سَهْمان، ويعموم، وبيت نعامة، وبيت حَنْبَص، ومَحيْب ومَسْيب، وحاز، وبيت قرن، وبيت رفح، والبادات (......) فالرحبة، إلى حدقان، وخطم الغراب[1]، ثم من المصانع وشِبام أقيان، وخَلْقة (.....) وبلد الصيد (.....) فتلتقي بالمناحي ثم يصبان بعمران وتعمل من أرض الجوف.

---

(١) حول نقش خطم الغراب الخاص بالثموديين، انظر ما كتبناه في ما سبق من صفحات.

ها هنا الرحبة -رحبة و هاهنا حلقه- خَلْقة الجبل الشامخ غربي صنعاء، حيث توجد قرية خربة إلى اليوم تحمل الاسم نفسه. وفي أسفل الجبل تمر أودية قادمة من مخلاف مأذن- مادن عند يشوع، وجبل حَضُور- حصورعند يشوع، ويعموم-يعمون في التوراة وبيت رفح- رفح في التوراة أيضاً، وكذلك بيت نعامة- بيت نعامة عند يشوع. وأخيراً بلد صيد- صيدون العالية عند يشوع، الذي تغمر أوديته مساحة شاسعة من ظاهر همدان. لنلاحظ أن يشوع يستعمل كلمة: ها- عمق في نصه الآنف، وقد قام المترجمون بمكافئتها بكلمة: العمق، مع أنَّ الكلمة في العبرية تعني الوادي. فهل هناك ما يبرر مثل هذه الترجمة؟ في الواقع أخطأ المترجمون في فهم مقاصد الوصف، لأن يشوع أراد من كلمة ها-عمق بالضبط الوادي (أي: العميق) تماماً كما في العبرية. وليس ثمة كلمة عربية يمكن أن تكافئ هذه الكلمة العبرية، وتجسِّد دلالاتها الحقيقية سوى كلمة الجوف، وهو الوادي الكبير والعميق الذي تصبُّ فيه سيول الأودية جميعاً.ولذلك؛ فإن يشوع في وصفه لمنازل هذا السبط في الجوف، حيث خلقة ورحبة وصيد (البلد وأوديته) استخدم كلمة ها- عمق بمعنى العميق أي الجوف. وكما في العربية؛ فإن الجوف كلمة تعبر عن سلسلة من الوديان وأغوارها. إن نصّ الهمداني الواضح يصف منطقة الجوف هذه وأوديتها، وهو التوصيف ذاته بمنازله عند يشوع. هذا التوافق يصدرُ عن توصيف واحد لجغرافية واحدة؛ ومن غير المنطقي تصوُّر حدوثه على أنه مجرد تماثل لغويّ، لأننا -هنا- نعطي الأسماء نفسها مع الوصف نفسه والتسلسل نفسه، وهذا يستحيل حدوثه في إطار المُصادفة اللغوية أو الجغرافية بكل تأكيد. وإذا كان لمثل هذه المصادفة أن تتكرر على هذا المنوال في نص يشوع والهمداني، فلماذا لا تحدث ولو لمرة واحدة في فلسطين؟

٢- رحوب ورحوب

لدينا في قائمة يشوع موضعان - مكانان يحملان الاسم نفسه: رحوب. أي أننا أمام رحبتين. الاسم الأول رحوب- رَحُب رُسِمَ بطريقة تشير إلى تكراره. فهل حدث خطأ عند ناسخ التوراة حتى تكرر الاسم مرتين؟ سيبدو أمراً غير منطقي التفكير بحدوث تكرار للاسم في قائمة صغيرة. في الواقع لا وجود لمثل هذا التكرار في النصّ العبري. لقد ارتكب المترجمون خطأ جسيماً في رسم الأسماء أدَّى إلى حدوث مثل هذا التكرار غير المنطقي، ولذلك قمنا بضبط الاسم مرة في صورة رحب حسب وصف الهمداني، ومرة في صورة رحوب. وبذلك نكون قد ميزنا بين موضعين. والآن إذا كان الموضع الأول يقع في منطقة الجوف (إلى الشمال من العمق حسب النص التوراتي) فإن الموضع الثاني يجب أن يكون على مقربة منه؟ هنا وصف الهمداني (صفة: ٢٨٠-٢٨٢) الذي يضع رحوب- رَحُب الأولى ضمن أودية وائلة وحيث وادي حبل:

> **ونذكر ما بالجوف من الآثار والعمور، ونذكر ما هي من أوطان الجوف: بيت نمران ثم معين وعين، ورَحُب، وحبل، أودية تسيل في الغائط وقسمهم من الحجر ولوائلة مما يُصالي دهمة وأرحب (...) وكتاف يسيل إلى العقيق (....) وحَلف يفيض إلى الغائط والحَضَن بنجران (....) وعراد .**

ها هنا وادي رَحُب- رحوب وقد وضعه الهمداني ضمن أودية الجوف حيث تقيم قبيلة وائلة. وهاهنا وادي حَبْل وهما معاً يصبّان في نجران وإلى جوارهما واديا كتاف وحلف، في المكان نفسه الذي وصفه يشوع وبالاسم نفسه، فضلاً عن عراد - عراد في التوراة. يتضح من هذا التمييز أن يشوع لم يسجل اسمين متشابهين أو متماثلين في الرسم، كما تُوهمنا

الطبعة العربية من التوراة؛ بل سجل اسم وادٍ آخر يدعى رحبة إلى الغرب من صنعاء (رحب في العبرية) بينما يتجه وادي رَحُب- رحوب في الجوف الأعلى حيث تسيل مياهه نحو نجران. هذا ما يعطي مصداقية لاستخدام سارد النص لكلمة ها- عمق بمعنى الوادي أي العميق، والمقصود به الجوف بما أن الجوف تعني الوادي العميق. إننا لا نعرف هذا التوصيف والأسماء في فلسطين التاريخية مهما فتشنا هناك وبحثنا في الخرائط القديمة وكتب الرَّحالة. قال الأخطل (معجم: ٦٤٤، ٦٤٥، ٩٠٩):

ألَمْ ترَني أجْرتُ على فقيمٍ بحيثُ غلا على كل مُضرَ الجوارُ

بعاجنة الرحوب فلم يسيروا وأُذِنَ غيرُهم منها فساروا

وقال الجحاف[1]:

مروا على صَهْباء بليلٍ دامسٍ رَقدَ الدّثور وليلهم لم يَرقُدِ

فصبَّحن عاجنة الرحوبِ بغارةٍ شعواء ترفلُ في الحديد الموجَدِ

معركة وادي رحوب هذه- العاجنة أي القاسية والضارية- والتي استذكرها الشعراء العرب في العصر الأموي وجيلاً إثر جيل لم تحدث قطّ في فلسطين؛ بل جرت في اليمن بين القبائل اليمنية ضد قبيلة مُضر أمّ القبائل الشمالية. وسوف نتحدث في فصل خاص عن هذه الحروب في قصائد ومراثي أشعيا وإرميا. لقد تحدث إرميا عن هذه المعارك ووصفها ذاكراً اسم مُضر كما سنبرهن. لقد توهم الباحثون الغربيون والعرب كذلك أن المقصود بها في هذه المراثي مصر البلد العربي، فيما المقصود اسم مُضر القبيلة؛ لأن العبرية تستخدم الصاد بديلاً عن الضاد العربية. وكما هو

---

(١) انظر أخباره في كتابنا شقيقات قريش - بيروت ٢٠٠٢: الريس للنشر- مصدر مذكور.

واضح من قصائد الأخطل والجحاف اليمني؛ فإن مُضَر خسرت هذه الحروب الطاحنة، حتى أن أحد أشهر زعمائها أو ملوكها كما تقول التوراة (ملكها وهو من بني سواءة- سوّء في التوراة) وقع أسيراً بيد الآشوريين، الذين أخذوه أسيراً وقاموا بسجنه لأنه لم يدفع الجزية. لقد احتار علماء التوراة في تفسير قصة وقوع ملك مصري في قبضة الآشوريين؛ وبالطبع لا يعرف التاريخ المدون واقعة أسر ملك مصري لأن ذلك لم يحدث قط. ما حدث في هذه الحروب هو وقوع ملك مُضري (زعيم قبيلة مُضَر) في الأسر. هذا هو وادي رحوب التوراتي يظهر أمامنا بوصفه وادياً يمنياً من أودية الجوف (أي العمق). أما رُحْبَة فقد ذكرها أفْنون التغلبي (معجم البكري، طبعة بيروت: ١٩٩٨ - ٢ : ٢٤١) بقوله:

سألتُ قومي وقد شُدَّتْ أباعرهم ... ما بين رُحْبَة ذات العيص والعَدَنِ

وها هنا دليل قاطع آخر على أن رحبة- رحبه هي موضع في اليمن وليس في فلسطين، على مقربة من عدن والعيص (عيصو في التوراة وهي أحياناً ترد اسم مكان) بينما ذكر أعشى همدان (الديوان: ١٣٢، والبكري: ٢ : ٢٤١ من طبعة بيروت ١٩٩٨) رُحَب التي ميزها عن الموضع السابق بقوله:

تَدافَعُ بالرحْبَتينْ من ذَمِراتهِ ... فيا عجباً من سيرها المُتَجاسرِ

تلك هي رحوب وها هنا رُحْبَة. إنهما رحبتان تماماً كما في التوراة.

٣- جبل الرما

يسجل النصُّ العبري الجملة التالية: وشب- ها- جبول- ها-رمه. وقد تُرجمت إلى: وتنعطف الحدود إلى الرامة. إن هذه الترجمة غير مقبولة ونرى أنها يجب أن تُقرأ على هذا النحو: وتسير مُقبْلاً إلى الرما، لأن

مضمون الجملة والضبط الصحيح للاسم يشيران إلى مكان مرتفع، يبلغهُ المرء حين يصعد السَّرْو في طريقه إلى منازل السبط. وهذا ما يقوله السِّفْر:

وتسير مُقبلاً نحو الرما (.......) ثم تمضي قبالة حوض، وهو يصب في البحر

إننا لا نعرف موضعاً في فلسطين يُدعى الرامه أو الرما، يمكن للمرء أن يتجه منه نحو البحر ليشاهد موضع حوض، حيث تنحدر مياه الأودية فيه حسب وصف يشوع. ولكننا نعرف من الهمداني (صفة جزيرة العرب: ١٣٦) مثل هذا المكان وبالاسم والتوصيف نفسه وهو يُدْعى جبل الرما؛ الذي تختلط مياه الأودية المنحدرة منه بالفعل، بمياه أودية أخرى لتصب كلها في بحر عدن وفي مكان يُدعى الحوض. يقول الهمداني ما يلي:

جميع ما بين عدن ووادي نخلة من أرض شرعب من الأودية الكبار التي تنتهي إلى البحر من تلقاء المغرب: أولها إتخْم يَردُ العارة والعميرة فشرقي ذبحان، فغربي جبل الرما من جبال السكاسك.

هذا هو جبل الرما الذي تنتهي مياه الأودية الجارية والمارة فيه إلى البحر قادمة من الغرب. ولأن نصّ يشوع يشير إلى حوض قبالة الرما، فهذا يعني أن هناك مكاناً يُدعى الحوض في هذا الفضاء الجغرافي. وذلك ما يقوله الهمداني أيضاً في وصفه لزُبَيْد وجبال السكاسك (صفة: ١٤١) وهنا النصّ:

ثم وادي زُبَيْد، وقد ذكرناه. وريمان والشعر. ومفضى هذه المياه إلى الأحواض من غربي ورْوَة من حصون السكاسك.

فهل ثمة من شك في هذا التماثل بين وصف الهمداني ويشوع؟ وأن المقصود ب ها-رمه إنما هو جبل الرما، وأن حوصه- حوض التوراتية هي حوض اليمنية (كما في الشعر الجاهلي بالمفرد حوض وعند الهمداني في صيغة الجمع الأحواض) التي تقع في سلسلة جبال السكاسك حيث مجموعة كبيرة من منازل الأسباط؟ المثير للاهتمام في هذا التماثل أن الأودية كما يتبيَّن من نصِّ الهمداني، تصبُّ في بحر عدن وفي مكان هو مفضى هذه المياه عند ختام جريانها، ويحمل الاسم نفسه حوض). ولذا؛ فإن أحداً لا يمكنه الزعم بأن فلسطين التي تجهل هذه الأسماء ولا وجود لها في جغرافيتها، هي المقصودة في التوصيف التوراتي. إن أحداً بالفعل، لم يسمع ولم يشاهد موضعاً في فلسطين التاريخية، يُدعى الرمه أو الرما يمكن للمرء أن يمشي نحوه حتى حوصه- حوض، وليشاهد مياه الأودية وقد صبَّت جميعاً في البحر الأبيض المتوسط؟ قال ابن مُقبل في وصف جبل الرما (وانظر ما كتبناه عن حوض في قصيدة زهير بن أبي سلمى: فشرقيّ سلمى حوضه..إلخ):

أحقاً أتاني أنَّ عوف بن عامرٍ بين رما يُهدي إليَّ القوافيا

٤- صور

يقول سِفر يشوع عن صور:

> **وتسير مُقبلاً نحو الرما إلى منزل صور الحصين. ثم تمضي قبالة حوض وهو يصب في البحر.**

يعني هذا، أن صور تقع في سلسلة جبال السكاسك حسب وصف الهمداني لجبل الرما والأحواض؛ حيث الأودية تصبُّ مياهها في بحر عدن. إن اسم صور التوراتية يتلازم غالباً في المخيال الاستشراقي مع

صور اللبنانية، بالرغم من فشل علماء التوراة وعجزهم التام عن البرهنة على وجود صور قرب الرما وحوصه في فلسطين؟ كما يتلازم موضع ها-يردن مع نهر الأردن- البلد العربي، في إطار تعظيم مملكة إسرائيل الخيالية حيث يُزعم أن سفن سليمان كانت تجوب سواحل البحر الأبيض المتوسط؛ علماً أن التاريخ المكتوب لا يعرف ملكاً بهذا الاسم ولا مملكة بهذا الجبروت في فلسطين. ولأن القراءة الاستشراقية تلاعبت بالتوصيف الجغرافي لصور هذه، بإسقاط سائر المواضع المجاورة أو المحاذية لها وتشجيع الاتجاهات الرامية إلى تكريس هذه المخْيالية في التلقي ونشرها على أوسع نطاق في الدراسات التاريخية؛ فقد نشأت جغرافية غرائبية غير قابلة للوجود، سحرية وغامضة، تصبح فيها صور اللبنانية جزءاً من فلسطين كما تصبح الرامه وحوصه جزءاً من الفضاء السحري للبحر الأبيض المتوسط. إن صور اللبنانية لا تعرف مكاناً يُدعى الرمه أو الرما أو الرامه. كما لا توجد حوصه- حوض في لبنان القديم؛ وإذا ما سار المرء مُتتبعاً وصف يشوع في قراءته الاستشراقية، مُقبلاً نحو الرما قاصداً صور ومنها إلى حوصه؛ فإنه سوف يجد نفسه في عدن وزُبَيْد وليس في فلسطين أو لبنان، وفي شواطئ البحر الأحمر لا البحر الأبيض المتوسط. قال ابن هَرْمَة واصفاً صور اليمنية التي كانت - ذات يوم بعيد - من أعظم مدن اليمن قبل أن تضربها البراكين وتحيلها إلى أنقاض:

حوائمُ في عين النعيم كأنما ـــ رأينا بهُنَّ العِين من وحش صورا

تقع صور اليمنية التي ارتبط اسمها في المخيال العربي- الإسلامي بشقاء المُدن وانهيارها ودمارها جرَّاء الكوارث الطبيعية؛ في مخلاف جيشان أعظم مخاليف اليمن على مقربة من ذمار المُتاخمة لصنعاء. والمُثير للاهتمام في هذا النطاق، أن صور هذه هي لا تبعد كثيراً عن جبل أفيق، تماماً كما حدَّدها يشوع وإلى جوار وادي حَضَر- حصر عند يشوع. فضلاً

عن قربها من قرى العدويين وهم في التوراة (عدويت‌ءيم - اسم الجمع العبري ل: عدوي). يقول الهمداني (صفة جزيرة العرب: ٢٠٣) ما يلي:

ويُعَدُّ من مخلاف جيشان: حجر، وبدر وصور وحَضَر، وثريد، وبلد بني حبيش وجانب بلد العَدْوِيِّين من حَب وسخلان.

حسب هذا الوصف؛ فإن صور اليمنية لا تبعدُ كثيراً عن خَلْقَه-حلقه، إلى الشمال من مدينة قُعطُبة اليوم. لقد اختفت صور إثر سلسلة من الضربات البركانية التي تركت أثراً لا يُمحى في الذاكرات القبلية. وفي تاريخ الإسلام؛ فإن قبيلة جيشان صاحبة صور كانت من أوائل القبائل اليمنية التي سارعت إلى اعتناق الدين الجديد، كما أن حركة القرامطة خرجت من هذا المكان في الأصل. ومع ذلك ظلت صور في ذاكرات الشعراء رمزاً لخراب المدن لا رمزاً للازدهار وحسب (انظر الخريطة رقم ٢) قال نقيع الحارثي (ياقوت، مواد: ٧٦٦٢، ٧٦٦٣ معجم البلدان):

لو نسأل الأرضَ الشهادة بيننا شهدَ العدين بهلككم والصوءرُ

والعُدين هذا من المواضع اليمنية المعروفة، والتي ترتبط في الذاكرات القبلية بالدمار والخراب. ويبدو أن حادث دمار صور كان حادثاً تاريخياً مزلزلاً، ومع تواتر الرواية عنه أصبح مضرب المثل في الهلاك. ولشدَّة هول الانفجار البركاني وأثره في الذاكرة، فقد تحَّول مع الوقت إلى حادث أسطوري؛ إذْ فسَّر الفقهاء المسلمون آية ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: ٦٨/١٧] بأنها تذكير بهلاك صور اليمن. يروي كل من البكري (معجم: ٨٤٦) وياقوت (٣: ٤٩) المروية التالية في تأويل حادث دمار صور اليمنية:

حتى احترقت الجنة، وثارت الحجارة. وعن جابر، قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: «ألا أُعلمكَ كلماتٍ إذا قلتهُن، ثم كان مَثلُ صور؟ غُفر لك».

ويبدو أن المسلمين الشماليين العدنانيين (الحجازيين) كانوا حائرين في فهم هذا الحديث وفي ضبط اسم صور على الوجه الصحيح؛ فلم يعرفوا معنى صور هنا مع أنها تذكير لعلي بن أبي طالب بهلاك الإنسان المُماثل في أهواله لهلاك صور اليمنية. ولنلاحظ استخدام الشاعر للهمزة في رسم كلمة صور (صوء ر) فهو استخدام ينتسب إلى الطفولة البعيدة للغة العربية وإلى العادات الصوتية في لهجات القبائل، بما يقرّب العبرية من العربية الأولى (صوءر- صور). لقد أصبحت صور المنزل الحصين في الجبل عندما سار يشوع في وديانها وشِعابها، مكاناً موبوءاً بعدما اختفى المخلاف العامر الذي ضمها. وسوف نعود إلى صور هذه لارتباطها بأحداث توراتية هامة، وبما يُدعى في الإخباريات العربية الكلاسيكية بـ(نار اليمن). إن السائر من ذمار باتجاه زُبَيْد سيمر بجبل أفيق-ء فيق ويصل إلى الرما قبل أن يتجه نحو الأحواض-حوصه. وهذا ما سنراه بكل وضوح.

٥- أفيق

قال أبو دؤاد الأيادي:

ولـقـد أغْـتَـدي يُـدافـعُ رُكْـبَـتـي صُـنْـتُـع الـخـدّ أيـد الـقـصـرات

وأرانـا بـالـجَـزْعِ جـزع أفـيـقٍ نـتـمـشـى كـمـشـيـة الـثـاقـلاتِ

هذا السائر مُتَثاقلاً عند جزع جبل أفيق وصخوره، لا يقصدُ صور اللبنانية بكل تأكيد؛ فليس ثمة أفيق هناك، كما أنه لا يسير في أرض فلسطين مع أنها تعرف جبلاً يعرف باسمه المصغر أُفيَق؛ بل هو يسير

مُتجهاً نحو زُبَيْد عارضاً علينا رسماً دقيقاً للاسم كما في الرسم العبري ء فيق، وليس أُفَيْق كما في الترجمة السائدة. وفي الآن ذاته يعرض علينا تحديداً دقيقاً للمكان حيث تتدافع ركبتا الشاعر، حينئذٍ، بين المُنحدرات الصخرية الوعرة. وهو وصف يتطابق كل التطابق مع وصف يشوع والهمداني لمنطقة غربي ذمار على الطريق إلى زُبَيْد (صفة: ٢٠٦، ٢٠٧):

> **مخلاف ذمار: قرية كبيرة جامعة بها زروع وآبار قريبة، وهو مخلاف نفيس كثير الخير، كثير الأعناب، به بينون وهكر وقصور، ومنها مداقه، وجبل لبوءة. وأسي ما بين إسبيل وذمار أكمة سوداء تُسمى حمة. وأما مخاليف ذمار من غربيّها فهي مصنعة أفيق.**

ها هنا حمّة -حمة وجبل لبوءة- لبوءة، ثم أفيق المصنعة الجبلية إلى الغرب من ذمار والتي تُجاور مخلاف جيشان، تماماً حيث منزل صور الحصين. إننا لا نعرف صور قرب جبل أفيق في فلسطين أو لبنان وقرب جبل الرما وحمة. بينما نرى كل هذه المواضع في فضاء جغرافي واحد يضمُّ السهول والجبال والوديان وعيون الماء والمساقط المائية والسيول المُنْدَفعة نحو البحر. إن الهمداني الذي يعطي توصيفاً تفصيلياً ومُسْهَباً لمخلاف ذمار ومأرب وجيشان وزُبَيْد وعدن، وراسماً صورة وصفية دقيقة لمنازل القبائل اليمنية العتيقة، يعطي كذلك، اسم صيدا في المكان نفسه وتماماً كما عند يشوع، حيث تمرُّ مياه أوديتها الغزيرة والمُتَدفقة عند سفوح جبل أفيق (صفة: ٢٠٧):

> **والأودية التي بها مطاحن الماء، فهي سْربَة وشُراد، وبنا، وماوة، والموفد، وجمع، وبصيدَ وبأودية رُعَين، وبوادي ضَهر. وأما مخاليف ذمار من غربيّها فهي مصنعة أفيق.**

وجود صيدَ - بالفتح - صَيْدُن حسب نطق أهل اليمن بما يسمى بالنون الكلاعية قرب أفيق، وغير بعيد عن صور؛ يكشف عن البُعد الحقيقي لهذا التوافق في الوصف داخل النصوص، كما يكشف عن المعنى المباشر والفعلي لقائمة يشوع التي يُعدد فيها منازل سبط أشير. فهل الأمر يتعلق بمصادفات لغوية وجغرافية تجعل من نصِّ يشوع مُطابقاً تماماً لنصِّ الهمداني؟. أم أنَّ المسألة تخصُّ بالفعل وصف الجغرافية ذاتها؟ قال عدي بن زيد (معجم: ١١٢٧):

سقى الله بطن العقيق إلى أُفاق   ففاثور إلى لببِ الكثيبِ

فروّى قُلّة الأدحالِ وبْلاً   ففلْجاً فالنبيَّ فذا كريبِ

لدينا في هذا الصدد الملاحظات التالية:

أ : إن بعض رواة الشعر كانوا يخلطون بين أفيق المصنعة العامرة والجبل الخصب في غربي ذمار؛ وبين قرية صغيرة تحمل الاسم نفسه فيها قصرٌ معروف في بلاد عنس من مذحج، ولذلك جاءت تأويلاتهم متناقضة. ونموذج هذا الاضطراب نجدهُ عند البكري (معجم: ١٢٦٠) الذي لم يميّز بين الجبل وبين القرية شرقي ذمار.

٢ : والنموذج الآخر في الخلط سنجدهُ عند ياقوت، الذي لم يُميز بين أفيق الجبل إلى الغرب من ذمار، وبين جبلٍ يحمل اسماً مشابهاً في الحجاز. وسوف نرى تالياً دلالات هذا الخلط حين نحلل مرويات التوراة عن المعارك في جبل أفيق. لقد ميزت التوراة بدقة بين المكانين، فهي تسجل في مرويات حروب داوود ضد ما يدعى ها- فلشتيم، ما يدعم فكرة أن المعارك دارت قرب جبل أفيق، والمقصود أفيق ذمار (انظر حروب داوود عندنا).

٣: لنلاحظ أن قصيدة زيد بن عدي تعطي سلسلة من أسماء المواضع، سنرى بعضها في التوراة وبالصيغ ذاتها مثلاً: أفيق - أفيق

ونبي- نبو. وليس ثمة موضع قريب من أفيق يحمل اسم نبي أو صيغة من صيغ هذا الاسم سوى موضع النبي؛ الذي تذكره التوراة في نصوص متفرقة بالتلازم مع أفيق مرة، ومرة مع مواضع أخرى. وموضع النبي من الأماكن المعروفة في الشعر الجاهلي قرب أفيق الحجاز. هذا التمييز ضروري للغاية لفهم مقاصد النصوص التوراتية. ومع أن يشوع يجعل أفيق قريباً من أماكن رأينا - مما سبق- أنها غير موجودة في فلسطين وإنما في ذمار وما جاورها من مدن يمنية؛ فإننا لا نعدم رؤية من يغامر بالقول: إن جبل أفيق هو في فلسطين. إننا لا نعرف جبلاً يُدعى أفيق في فلسطين قرب صيدَ - صيدُن كما في سِفر يشوع ونصّ الهمداني. وهذا ما سوف نوضحه أكثر هنا.

٦- صيدون ربَّه

في النصّ العبري: صيدون ربَّه-من دون أداة التعريف العبرية: ها -. لكن النص المُتَرجم قدم رسماً غريباً للاسم: صيدون الكبرى. تُدلل هذه الترجمة على أن المخْيال الاستشراقي هو مخيال تلفيقي يختلق مواضع لا وجود لها. لقد كرست هذه الصيغة تصوُّرات عجائبية عن صيدون كبرى في مملكة إسرائيل القديمة أُضيفت إلى أساطير التراث الكتابي. إن كلمة ربه العبرية لا تعني الكبرى بالضبط؛ بل تعني أيضاً العالية، المرتفعة - قارن مع رابية وربوة. وهذا يعني أن المقصود بها وادي صيدَ-صَيدُن تمييزاً لها عن بلد الصيد. والهمداني على غرار يشوع يقيم مثل هذا التمييز بين بلد صيدَ، وبين جبل ووادي صيدَ. وفي إطار هذا التمييز؛ ليس ثمة صيدون-صيدن كبرى في الفضاء الجغرافي اليمني، كما أن لا وجود لصيدون أو صيدا كبرى في فلسطين. إن وجود قرية صغيرة في الضفة الغربية تُدعى صيدا، ليس دليلاً كافياً لدعم المزاعم الاستشراقية عن تطابق

سِفر يشوع مع وصف فلسطين، وذلك لسبب بسيط للغاية أن سائر المواضع المذكورة في السِّفر على أنها بالقرب من صيدا، إنما هي بالقرب من جبل صيدَ بين سرو مَذْحج وزُبَيْد وتحديداً في ذمار. يقول سِفر يشوع ما يلي مُحدداً صيدون:

(رحبة، وحمة، وقاينه عند صيدون ربه)

وكما لاحظنا فإن جميع هذه الأماكن لا وجود لها في فلسطين، وهي مرتفعات ووديان وجبال وأكمات لا تنسجم طبيعتها الموصوفة مع جغرافية فلسطين. لذلك وإذا ما قمنا بمُطابقة وصف يشوع مع نصِّ الهمداني، فسوف نعثر على رحبة عند ضفاف وادي صيدَ تماماً كما أخبرنا يشوع في المقطع أعلاه. إليكم ما يقوله الهمداني (صفة جزيرة العرب: ١٥٧-١٥٨):

فالرحبة، إلى حدقان وخطم الغراب، ثم من المصانع، وشِبام أقيان، وخلقة (....) وحضُور بني أزْد (...) وضباعين (...) فصيْحة، فمساك فالأخباب وناعط، وبلد صيدَ، وبه أودية من ظاهر همدان مثل يناعة (....) وما يسقيها من ظاهر الصيد.

يقول العلّامة الأكوع محقق كتاب الهمداني تعليقاً على هذا الوصف ما يلي:

(وصيدَ هذه شِعابٌ ووادٍ مشهور، كثيراً ما تقع فيه كوارث. ويقال: إنَّ في فوّهة الوادي آثار سد لا تزال شاخصة).

أما ياقوت الحموي (٣: ٤٩٧) فإنه يصف جبل صيدَ هذا ووديانه بإعجاب شديد قائلاً:

صيد جبل عظيمٌ جداً في أرض اليمن في ذمار في رأسه قلعة يُقال لها سمارة.

من كل هذه النصوص يتبيَّن أن صيدَ -صيدون في البناء العبري للأسماء - هي بالفعل موضع شديد الارتفاع في السرو، فيه شِعاب وأودية غزيرة المياه تختلط بمياه أودية هليل في زُبَيْد وأرض زوف - زوف في التوراة؛ وأن مقاصد وصف يشوع تنصرف إلى هذا الموضع وليس إلى صيدا اللبنانية، أو إلى قرية صيدا في الضفة الغربية. وفي هذا الفضاء الجغرافي سنجد الأماكن التالية التي سجلها يشوع في السِّفر، كمنازل للأسباط: الرحبة -رحب، خلقة- حلقة، حضُور- حصور، صبوعين- ضباعين. وكنا رأينا مما سبق وفي الفضاء الجغرافي نفسه، حمة -حمون، والرما -الرمه، وأفيق-أفيق. وها هنا سمارة - سمرون في أعلى وادي صيدَ، تماماً كما سوف تصفها التوراة. يعني هذا أن وصف صيد- صيدُن بالعالية أو المرتفعة (ها- ربه) وليس الكبرى، هو وصف صحيح متواتر في الروايات الجغرافية عن المكان؛ إذْ تعطي أوديتها وشِعابها الكثيرة والممتدة على هذه المساحة الواسعة، مثل هذا الانطباع بالنسبة إلى السائر في سرو مَذْحج. إننا لا نعرف صيدون في فلسطين أو لبنان تقع عند ضفافها حماة أو حمون، بينما نعرف من وصف الهمداني ويشوع صيدا اليمنية، وعند ضفافها تقع حمة ورحبة وقاينة وأفيق وغير بعيد عنها خلقة. وها هنا وادي قاينة التوراتي الذي وضعه يشوع عند ضفاف صيد المرتفعة، ووصفه الهمداني في المكان نفسه (صفة: ١٨٣- ١٨٦). أي في سرو مَذْحج حيث سلسلة من الأودية الواردة في نصِّ يشوع ومنها عبدون.

١- ودون هذه المواضع أودية منها هليل وصيدَ (....) لبني حبيش من زُبَيْد. (١٨٣-١٨٤)

٢- أودية منها (....) حوران ورُواف وقاينة (...) والمأذنة والعولة والحجلة. (١٨٦)

٣- وخورة والحجر والجرباء لبني ذي معاهر من حِمْيَر (....) وعبدان لبني عَيْذ الله وحصنهم فيه معروف. (١٨٨)

فهل هي محض مُصادفة جغرافية أنْ يقع وادي قاينة- قنة في النص العبري، وعبدان- عبدون قرب جبل صيد الشاهق تماماً كما في نص يشوع؟ بل وأن تكون سائر المواضع الأخرى الواردة في قوائم منازل الأسباط، في الفضاء الجغرافي نفسه من ذمار حتى زُبَيْد عند البحر؟. في وصفه لأودية صيدَ وشِعابها يسجل الهمداني اسم موضع شِبام على مقربة منها (انظر وصف الهمداني أعلاه وفي المراثي التوراتية كما في قوائم المنازل: شِبمه) وهذا أمر هام للغاية يتوجب ملاحظته؛ لأنه سوف يفسر لنا مقاصد المرثية التوراتية في نصوص أشعيا وإرميا، من تسجيل اسم شِبمه المُدمرة والتي بكتها هذه القصائد. ولنتذكر ملاحظة العلامة الأكوع عن الكوارث التي تقع في هذه الشِّعاب الوعرة. في الواقع احتفظ اليمنيون القدماء بذكرى دمار صيدَ- صيدُن هذه بفعل ثورات البراكين، التي جعلت منها مكاناً موحشاً وخراباً. وكما دُمِّرَتْ صور فقد احترقت صيدَ بفعل نيران البراكين الثائرة. يقول الهمداني: إن النيران ضربت وادي صيدَ في مكان يُدعى الخشاب حتى بلغت حدود شبِام - شِبْمَة. وهذا هو المصدر الحقيقي لما يبدو خلطاً في الروايات الإخبارية العربية القديمة عن نار اليمن، التي تُنسبُ تارة إلى صور وتارة أخرى إلى صيدَ؛ إذْ يبدو أن ثورة البراكين شملت المكانين. يروي البكري (معجم: ٨٥٩) الرواية التالية عن صيدا التوراتية- اليمنية التي أكلت النيران أشجارها (وفي التوراة اشتهرت صيدون بالأخشاب التي حملتها سُفن سليمان):

وفيها نار اليمن التي كانوا يعبدونها ويتحاكمون إليها. فإذا جاء الخصمان خرج عليهما لسانها- لسان النار- فإذا ثبتَ، أكلت الظالم. قال الهمداني وكان يُقال لمخرج النار: حِزْبى الخشَّاب وهو ما كان من الحرَّة يأكل الجوار. وقال: وهذه النار ظهرت في بعض الأماكن ثم انتشرت حتى بلغت حدود شِبام ومن الشمال بلاد الصيد إلى ذي أبين.

صيدا التوراتية هذه، التي جلب سُليمان منها الخشب لبناء بيت الرَّب- الهيكل بمساعدة صديقه ء حِرم- أحرم، ليست في فلسطين بكل تأكيد؛ بل هي هذا الوادي العظيم بأشجاره الكثيفة ومياهه الغزيرة. واسم ءحرم - أحرم هذا لا يُكافأ إلا بالاسم اليمني الشائع أحرم ومنه حريم، مثل: مالك بن حريم الفارس والشاعر الجاهلي. وسوف نتحدث تالياً عن قبيلة أحرم اليمنية التي أقامت في هذا المكان. ولنتذكر أن العرب أطلقوا قديماً على مياه الوديان اسم البحر أو النهر؛ فقالوا عن وادي الرُّمة - مثلاً- أن فيه نهراً وهم يقصدون سيول المياه الجارفة فيه. وهذا ما سوف يتضح عند إعادة قراء المروية التوراتية عن سفن سليمان.

٧- عمّ - عدّ

لم تُثر كلمة في نصوص التوراة من المشاكل لدى الدارسين والباحثين وحتى علماء التوراة، مثلما أثارت كلمة عدّ الواردة في الأسماء المُركبة مثلاً: عر-عدّهَ، عمّ عدّ، عدّ لام؛ إذْ غالباً ما عُدت بسبب غموضها وانغلاق دلالاتها لُغزاً مُحيراً، ناجماً عن خطأ في رسم الحروف وقع فيه محرر النص العبري أو نُساخ المخطوطات القديمة، وذلك لتقارب رسم حرفي الراء والدال في العبرية، أدَّى، فيما أدَّى، إلى رسم الكلمة بحرف الدال عدّ، وليس عر بحرف الراء المهمل وأنها من المحتمل في إطار هذه

الفرضية، كلمة عرّ بالراء. وفي الترجمة السائدة للتوراة، قام المترجمون الذين يجهلون المواضع جهلاً فاضحاً، بإعطاء رسمٍ مضلل: عمعاد بدمج الكلمتين المُنفَصلتين عمّ - عدّ؛ وذلك ما فاقم من درجة غرائبية الاسم. في هذا السياق اقترح أحد الكتاب أن يُقرأ اسم آخر مشابه لهذا الاسم هو عرّعدّ، في صورة عرعرة بافتراض حدوث خطأ في الرسم ناجم عن تقارب حرفي الراء والدال في النص العبري (منى: جغرافية التوراة: ٣٦). لم يساهم هذا الاقتراح في تقديم حل مقبول، فليس ثمة مكان يُدعى عر-عرة في فلسطين أو بلاد عسير.إن كلمة عدّ هذه، المُحيرة والإشكاليَّة هي بالنسبة إلينا من أكثر الكلمات قوَّةً في التعبير عن المخزون الثقافي، لتقاليد الوصف الجغرافي عند الجماعات العربية البدوية القديمة وعند أهل اليمن. ما من كلمة لها صلة بالماء ووصفه مثلما لهذه الكلمة. وما من كلمة تعبِّر عن غزارة الماء وعُذوبته لجماعة بدوية عطشى، مثل هذه الكلمة القديمة التي تخْتَزنُ دلالة عميقة، من دلالات الإقامة قرب مصادر الماء. ولعل استخدامها يعبِّر عن نمط من الاستيطان عند الجماعات العربية الأولى، يقوم في الأصل على احتكار الخزّان المائي في المكان. لقد جاء الإسلام ليُزيل هذا النمط من السيطرة على الماء، بإعلانه المشاركة وإشاعة مبدأ الجماعية في المكان؛ وأن العرب جميعاً مع الإسلام هم شركاء في الماء والكلأ والنار. لقد استخدم أهل اليمن القدماء وحتى اليوم كلمة عدّ في وصف المياه الغزيرة التي لا تنضب، وألحقوها بأسماء مواضع وأمكنة كثيرة لا يزال بعضها حياً في جغرافية اليمن. إن الرسم العبري لاسم الموضع هوعمّ-عدّ، وليس عمعاد (إلا إذا استخدمنا طرائق اليمنيين القدماء في دمج الكلمات المنفصلة: معديكرب، ملكييكرب[1])

---

(١) يجب أن نذكر هنا أن التوراة ترسم اسم ملكيصادق (سفر التكوين) بهذه الصورة، وليس في صورة ملك-صادق. وهذا دليل آخر على صلة ما يسمى العبرية بلهجات اليمنيين وانتسابها إلى عالم الخط المسند الحميري.

وبالتالي سيكون هذا الرسم مقبولاً كما هو في الطبعة العربية من التوراة. لذلك ولأجل فهم أعمق لمقاصد الوصف ووظائف الأسماء في نص يشوع وتمزيق الغلالة الشفافة الغرائبية والمُخْتَلَقة، التي فَتَنت العقل الأوربي وصعَّدت من مخْياليته عندما نظر مبهوراً إلى فلسطين؛ فإننا سنقوم بالخطوة الأولى اللازمة: تفكيك الاسم الاستشراقي المُرَكب وإعادة رسمه طِبْقاً لحروفه العبرية الأصلية عمّ-عدّ. وسنرى أن الهمداني استخدم هذا الاسم في نصوص متفرقة للدلالة على الماء الغزير جرياً على تقليد عربي قديم. إن المروية الأكثر شهرةً في تاريخ الإسلام والتي تُسجل هذه الكلمة في رسمها العبري - اليمني، هي المروية الخاصة بحصول أحد زعماء اليمن من النبي ﷺ على موضع غزير الماء. فقد أقْطَعَ النبي ﷺ الأبيض بن حمّال السبئي أحد أقيال اليمن (ملوكها) جبل الملح في مدينة مأرب، وذلك عندما طلب هذا من النبي ﷺ أنْ يُقْطعه جبل الملح، فأعطاه ما أراد وكتب له بذلك. لكن رجلاً من مسلمي اليمن نهض في المجلس وقال مُخاطباً النبي ﷺ بفظاظة البدوي: أتدْري يا رسول الله ما أقْطَعته؟ لقد أقْطَعتهُ الماء العدّ؟ أي المكان الذي يفيض ماءً عذْباً جارياً لا ينضب. ولأن سُنَّة رسول الله - في الماء والكلأ والنار- أن الناس شُركاء فقد أعاده النبي ﷺ إلى أملاك المسلمين. يُفهم من هذه المروية بأسانيدها الصحيحة (انظر معجم البكري) أن النبي كان يعتقد أن جبل الملح مكان لا ماء غزيراً فيه؛ ولذا أقطعه للقيل- الملك- اليمني. والآن: إن سِفر يشوع يسجل اسم هذا الموضع قرب جبل الرما -ها-رمه؛ وبالطبع فنحن لا نعرف مكاناً في فلسطين يُدعى عمّ-عدّ قرب جبل الرما، بينما نعرف هذين الموضعين في اليمن؟ يقول النص العبري:

وعم-عد-ومشال(..) وشب-ها-جبول-ها-رمه. (وعمّ-عدّ ومثال وتمضي مقبلاً نحو الرما).

فهل يمكننا إذا ما سرنا حسب وصف يشوع في فلسطين التاريخية، أن نصل إلى عمّ-عدّ هذه وأن نشاهد جبل الرما؟ سوف يجيب الهمداني عن هذا السؤال الذي لم تطرحه القراءة الاستشراقية على نفسها بعد؛ كما لم تجرؤ على طرحه حين زعمت أن أرض التوراة هي أرض فلسطين. يضع الهمداني على غرار يشوع هذا المكان قرب جبل الرما بالضبط (صفة جزيرة العرب: ١٤٤) وقرب عبدان-عبدون وفي الفضاء الجغرافي نفسه، حيث سلسلة جبال السكاسك والأودية بين زُبَيْد وأَبْيَنْ جنوب اليمن:

فيلتقي مياه هذا الوادي (...) في وسط خدير مما سميناه صدور سامع والعَرْضَة والنُّبيّرة وهي قرية عبد الجبار الحوشبي في صدور صبر (...) إلى قلعة تُسمى ذات العم، وهذه النُّبيرة كثيرة الأعناب والفواكه والغيول (أي الماء -المؤلف) إلى أن يتصل بعبدان (...) وعبدان هذا كثير الأعناب والفواكه فيلتقي وادي الجنات (..) ثم يعترضهما وادي حزر مآتيه من شرقي الصّلو وشماليه الريسه وجنوبه جبل الرما.

ها هنا (عمّ) التي يصفها الهمداني بأنها كثيرة الغيول (ذات العمّ، والغيول جمع غيل وهي المياه الغزيرة الجارية) إلى الجنوب من جبل الرما حيث سلسلة من الوديان، تماماً كما وصفها يشوع. وها هنا جبل سامع- سامع عند يشوع من منازل يهوذه، وهو غير جبل سَمْع الوارد ذكره سابقاً وإلى جواره عبدان - عبدون. والأهم من ذلك كله ها هنا قرى الحشبونيين- حشبون التوراة، وهم قبيلة الحُشب عند الهمداني تماماً كما في قائمة يشوع، التي تسجل اسم حشبون في هذا المكان. إن هذا التطابق المُذهل بين نصيّ يشوع والهمداني في وصف المكان وقبائله ووديانه وجباله، سيكون مفهوماً في سياق تفكيك دلالات الاسم ثم الكلمة: عدّ. قال الودّاك الطائي (معجم: ٩٧٠ وياقوت: ٤ : ١٧٧)

مخاطباً ناقته قاصداً منازل قبيلة الأشعر اليمنية[1] في موضع العمّ (قارن أشعر مع أشير السبط الذي يملك منازل في عم -عد):

أقسْمتُ أشكيكِ من أينٍ ومن وَصبٍ   حتى تَري معشراً بالعم أزوالا

هذه هي عمّ اليمنية التي أقامت فيها قبيلة الأشعر- ءشير (بإسقاط العين أو تحويلها إلى ياء) وعُرفت بغزارة المياه، أي بكونها مياهاً عدّ؛ والتي وصفها الهمداني بكثرة الغيول ووضعها إلى الجنوب من جبل الرما تماماً كما فعل يشوع. لقد عاد الهمداني بعد مئات السنين ليصف المكان نفسه في أعلى جبل صبر (قرب عدن اليوم) بأنه نُبيرة كثيرة المياه والفواكه. ولكن؛ ونظراً لارتباط هذه الكلمة بمواضع أخرى تحمل اسم عدّ وعرّ فسوف نعود إليها تالياً بتفصيلات أوسع.

٨- عكو

إن النص العبري يعطي الرسم التالي: عمه. بينما يعطي النصُّ اليوناني الرسم التالي: ع. ك. و. (كو: ٤١ :١٨ : ١٩الهامش:A 30). وقد افترض

---

(١) ليس دون معنى أن الشاعر يصف موضعاً من مواضع قبيلة الأشعر يدعى عم وهو ماء عدّ (غزير) بينما يصف يشوع مكاناً يخص سبط أشير يدعى عمّ - عدّ؟ التفسير الوحيد أن أشير التوراة ليس سوى قبيلة أشعر (ولنتذكر أن العبرية ترسم كلمة شعر في صورة شير وهذا ما سنراه حين نقرأ نصوص التوراة التي تربط بين أشير وعك. ولا يوجد في التاريخ القديم أي رابط بين عك وأي قبيلة أخرى سوى مع الأشعريين حتى ليقال عند العرب: الاشعريون وعك وهم سكان الساحل، تماماً كما في التوراة التي تقول أن أشير وعك هما من سكان الساحل) وهذا أمر يتصل بتطور اللغة العربية في طفولتها اليمنية البعيدة حين نطقت العين في صورة (ي) ثم في صورة ألف مهموزة كنعان- كنأن، لتعود وتسقط الهمزة عن الألف (كنان، فأس- فاس فؤاد، فواد) ثم لتحول الهمزة إلى ياء كما في لهجة الحجازيين (بئر- بير).

المترجمون والمُحققون أنَّ الاسم هو أمْه، الذي يُسجله سِفر القُضاة؛ ولذلك جرى اعتماد الاسم عكو كما في النسخة اليونانية.إننا نعثر على هذا الموضع في قائمة يشوع على هذا النحو: وعم عد، ومثال (..) وعكو، وأفيق، ورحوب. يعني هذا أن السائر من عمّ قاصداً حوصه-الحوض، سوف يشاهد عكو ضمن مجموعة الأماكن هذه؟ قال الأحوص:

فقالت تُشَكي غُرْبَةَ الدار بعدما أتى دونها من بطنِ عكوة منيبُ

يصفُ بيت الأحوص الجاهلي بطن وادي عكو (والتأنيث والتذكير في الشعر الجاهلي ظاهرة مألوفة مثلاً: فاطم في معلقة امرؤ القيس: فاطمة) وهذا الوادي يُسميه ياقوت (٤ : ١٦١): عكا اليمن قائلاً: اسم لجبلين منيعين مُشرفيْن على زُبَيْد. حسب هذا الوصف؛ فإن الجبلين المنيعيْن عُرِفا باسم واحد عكوان - تثنية المفرد عكو - وبطنهما (واديهما) هو عكوة كما في قصيدة الأحوص. يصف الهمداني هذا المكان وصفاً دقيقاً (صفة جزيرة العرب: ١٦٣) كوادٍ خصبٍ من أودية زُبَيْد. كما أنه اسم القبيلة العربية الشهيرة علكّ التي أقامت ضمن أرض الأشعر، ثم أعطت في أثناء هجرتها الكبرى من اليمن لعكا الفلسطينية اسمها، وهذا أمر له دلالة بالغة حين نعلم أن سِفر القضاة يعطينا صورة عن إقامة علكّ في أرض عشير-أشعر تماماً كما عند يشوع. يقول الهمداني:

فالأخباب، فنسرين، فصعده، حتى يُضام سيل دُمّاج بالخيبة من البطنة، ويلقاهما سيل عكوان من شرقي دُمّاج وقِبْلَتَهُ. وسيول شرقي كهلان، فيضمُّ إلى العشه ثم يلقاها وادي كشور، فسيل جَذْرَة (...) وسيل كتاف يصب بأسفل الحربا من وادي نحرد (....) شرقي بوصان ويسنُم.

كنا رأينا مما سبق من صفحات أنَّ خَلْقة- حلقة قرب وادي الأخباب (انظر خلقة) ووادي صيد وشِعابه. كما رأينا وادي نحرد- نحرت قربهما. ها هنا وادي كتاف- كتاف الذي تندفع سيوله إلى هذا المكان، فضلاً عن وجود سنُم - يسنُم. وكل هذه الأماكن يسجلها نص يشوع. يقول ياقوت عن سكان جبلي عكا اليمنية حيث تقيم بطون من قبيلة عكّ الشهيرة في التاريخ العربي القديم، ما يلي:

وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم - عصر ياقوت - لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة في منا كحة.

هذه العُزْلَة اليمنية القديمة بين جبلين منيعين شمال صَعْدَة من همدان، يمكن الوصول إليها من ذمار بسهولة عبر جبل أفيق، كما يمكن الانطلاق منها صوب رحوب باتجاه نجران؛ وللأسف فأنت لا تستطيع مهما حاولت، الوصول إلى عكا الفلسطينية عبر وادي كتاف وجبل أفيق ووادي نحرد ويسنُمْ، كما لا يمكنك بلوغ عكا عبر صيدا إلا إذا سرت في البحر. عكو - عكوة اليمنية ليست هناك ولا تُعرف بمثل هذا الوصف.

٩- محالب (م-حبل)

في النسخة العبرية نقرأ الاسم التالي: م- حبل. وفي النسخة اليونانية (م. ح. ل. ب: محلب: ٤١ :١٨ : ١٩ الهامش D) والنسخة العربية تعتمد الاسم محالب. إنّ اسم وادي حبل الذي أثار حيرة علماء التوراة والمترجمين أيضاً بسبب عدم معرفتهم بالمواضع، هو من الأودية العظيمة في اليمن والجملة: م-حبل، تتضمن حرف الجر (من) الذي قُرئ خطأ على أساس أنه من بناء الاسم؛ ولذلك بدا غريباً: محبل، بينما تقول الجملة في الأصل (من حبل، أكرب وعكو (عمه) وأفيق ورحوب) وذلك

في سياق وصف الطريق إلى منازل سبط أشير. هذا يعني أن يشوع كان يصف للسائر في وادي حبل، طريقاً يؤدي إلى جبلي عكا اليمنية وجبل أفيق فرحوب. بل إن وجود وادي حبل في هذا الوصف يشير إلى أن السائر فيه سيصل إلى جبل ها-رمه- الرما. وهذا وصف يتطابق تماماً مع وصف الهمداني. ولكن وقبل ذلك، لا بد من الإشارة إلى أن وادي حُبل هذا يقع في مخلاف شرعب بين عدن ووادي نخلة، وسكانه من قبيلة أشعر اليمنية الشهيرة التي كفت عن الوجود، وليس ثمة منها سوى بقية. ومن قبائلهم المعروفة في تهامة اليمن، الجماعة التي يُطلق عليها اسم بنو مجيد، وقد أشرنا إليهم مراراً في هذا الكتاب وهم كما سنرى القبيلة التي أعطت اسمها لما يُدعى في التوراة معركة مياه مجدّو (وعند الهمداني مياه مجيد أو ساحل بني مجيد) وهذا أمر مدهش؛ إذا ما علمنا أن اسم السبط هو أشير. وهنا نص الهمداني (صفة: ١٣٩: ١٤٤):

ثم وادي نخلة ومصابه من قتاب من بلد الكلاع (...) تنتهي إليه مياه أرض حُبل وأرض شرعب (..) وكل هذه جنوب وادي نخلة ومن شماليه دُمت وعذاق(...) فذُبَّاس (...) ومفضى هذه المياه إلى وادي الأحواض من السكاسك. ويصُب في الأحواض من غربيه وَرْوَة (...) فشرقي بلد سامع (.......) فيلتقي مياه هذا الوادي بما أمدَّه مما ذكرنا بوادي ورْزان في وسط خديْر (...) والنُّبَيِّرة إلى ذات العم (......) إلى أن يتصل بعبدان (...) ثم يعترضهما وادي حرز ومآتيه شرقي جبال الصلو وشماليه وجنوبه جبل الرما.

هذا النصّ المُكثّف والرائع يتطابق كل التطابق مع وصف يشوع: هاهنا وادي حبل الذي وصفه يشوع كنقطة انطلاق في مسير السائر؛ وفهمته القراءة الاستشراقية بصورة مغلوطة عبر دمج حرف الجر العبري (م) في بُنية

الاسم حتى أصبح غريباً : محبل. وها هنا وادي حوصه- حوض وعم بمياهها العدّ (الغزيرة) وعبدان - عبدُن، وأخيراً جبل الرما -ها-رما. وهذه كما يقول الهمداني هي من أرض شرعب التي تقيم فيها قبيلة أشعر اليمنية- ءشير؛ وإلى جوارها سلسلة من منازل الأسباط : عذاق-عزقه (بما أن العبرية لا تعرف حرف الذال المعجمة وتستعيض عنها بحرف الزاي) ودُبّاس-دباشت ودُمت- دمت وسامع - سامع. وكل هذا أمرٌ يستحيل إيجاد ما يُماثله في فلسطين التاريخية. ولذلك؛ فإن الجملة في العبرية م-حبل تعني : من وادي حبل وليس مكاناً يدعى محبل. أما الاسم محالب الذي تمَّ اعتماده استناداً إلى النصّ اليوناني فهو اسم موضع في زُبَيْد بالفعل ذكره ياقوت (٥ : ٧١). ولكن الهمداني لم يأتِ على ذكره؛ علماً أن كتاب صفة جزيرة العرب الذي نعتمده، هو جزء من كتاب أكبر ضاع أصله كما يعترف العلامة حمد الجاسر في مقدمته للكتاب. ولذلك فمن المحتمل أن ياقوت استند إلى نسخة كاملة لم تصلنا من صفة جزيرة العرب. لقد رأينا مما سبق من صفحات؛ أن ساحل عثّر الطويل والخصب يتصل بزبيد، وصولاً إلى حَلْي عبر جبال الركب- مَرُكبه ثم رُكُوبُة- ركبوت. وإذا ما سار المرء من زُبَيْد على امتداد ساحل عثَّر قاصداً حَلْي، فسوف يشاهد بقية المواضع في قائمة يشوع لمنازل قبيلة أشير-ءشعر وقد انتشرت على امتداد الساحل.

١٠- حلي[١]

الضبط العربي الصحيح لاسم هذا الموضع هو : حَلْي بفتح الحاء المُهملة وسكون اللام وآخره ياء مُثناة من تحت؛ وهذا الضبط يتوافق مع الرسم العبري تماماً وكذلك العربي. قال امرؤ القيس :

---

(١) سبق لنا التحدث عن حلي (سبط بن يامن) وهذه إضافة غرضها رسم منظر متكامل لمضارب قبيلة أشعر- أشير؛ بما أن حلي هنا هي من منازل هذه القبيلة أيضاً.

تَصَيَّفها حتى إذا لم يُسغْ لها   حَلْي بأعلى حائلٍ وقصيصِ

تقع حَلْي استناداً إلى وصف الهمداني لها وكذلك الشعر الجاهلي (صفة: ٢٣١) في بلد حرام على ساحل البحر الأحمر، غير بعيد عن جازان- وعند يشوع: جاسان[1]، حيث أقامت هناك قبيلة الأشعر-أشير اليمنية التي كفت عن الوجود ولا تزال بقية منها هناك. وفي هذا الساحل يصب وادي الكفيرة -الكفيرة عند يشوع. إن هذه المنطقة تُعرف عند الجغرافييّن المسلمين بتهامة اليمن:

تهامة اليمن: بلد بني مجيد وهي على محجّة عدن إلى زُبَيْد ثم ديار الأشعريِّين وببلد حَكَم قرى كثيرة مثل العدّاية والركوبة (....) ووادي ليَّة (.........) وجازان وصبيّا (....) وبزبيد الشراحيون (...) ثم مخلاف عثَّر، وعثَّر ساحل جليل (.....) ثم بلد حرام من كنانة (....) والحرَّة حرَّة كنانة والمعقد وحلي.

تُرى هل هي مجرد مصادفة أخرى أن تكون حلي من منازل أشير عند يشوع، وأنْ تكون حلي- في الآن ذاته-عند الهمداني من منازل قبيلة أشعر اليمنية؟ مثل هذا التوافق لا يمكن ردُّهُ إلى عامل المصادفة اللغوية أو الجغرافية مهما سعينا إلى ذلك. والمثير للاهتمام في وصف الهمداني الآنف، أنه يعرض القائمة نفسها من المنازل الواردة عند يشوع. ها هنا العدّاية- عديتائم والركوبة- ركبُة ومنازل الشراحيين- شَرُحن، وحرام - حرم، وأخيراً حَلْي. وهذا ما لا يمكن رؤيته على ساحل البحر الأبيض المتوسط وشواطئ فلسطين؛ فليس ثمة حلي ولا قبيلة أشعر ولا العدّاية ولا الركوبة؟

---

(١) تحوّل الزاي إلى سين أو العكس مألوف في لهجات العرب وخصوصاً اليمنيين: أزد- أسد. جازان- جاسان.

الفصل الثالث

ملاحظات عامة حول نمط الاستيطان عند القبائل اليمنية: منازل في نجد اليمن

قبل الشروع في الحديث عن بقية المنازل الخاصة بهذا السبط، لابد من التوقف عند أنماط استيطان القبائل العربية اليمنية. سنتوقف أولاً عند اسم موضع يدعى كابول ورد في قائمة يشوع هذه، ويُرسم في صورة كبول - وفي النسخة العربية من التوراة في صورة كابول. وهو رسم مُحيِّر يكاد يكون من المستحيل العثور على ما يماثله في أسماء المواضع العربية، سواء في فلسطين أو عسير أو عموم جزيرة العرب. إن الاسم الذي بدا غريباً ومثيراً، يمُت بصلات قرابة لغوية للكلمة اليمنية قابل وقبول- والكاف والقاف في العبرية والعربية تتبادلان الوظيفة ذاتها -، ولكنه مع ذلك يحتفظ بخاصيته كاسم علم يدلُّ على موضع بعينه هو قبول- قبال. والمثير للاهتمام أن هذا الموضع موجود في المكان نفسه الذي يصفه سِفر يشوع. يكتب الهمداني في وصف مخلاف لحج وسكانها على الساحل اليمني ما يلي (صفة: ١٩١-١٩٢):

وقرى أَبْيَن كثيرة بين بني عامر وبني مجيد (...) فإلى السفال إلى البحر. (ثم) لحج وسكانها: الدار يسكنها الواقديون، وفور يسكنها الأصبحيون بني أبّة من يافع، وبنو الطفيل قوم من بني مجيد، وذات الإقبال يسكنها الأصبحيون.

هذه هي الإقبال- الإكبال (كبول) في المكان نفسه الذي وصفه يشوع على الساحل. ولنلاحظ هنا اسم السفال (قارن مع حورون السفل في سفر يشوع). وبالطبع ليس ثمة موضع على الساحل الفلسطيني يُدعى كابول أو كبول- قبول يمكن الوصول منه إلى حلي أو صيدا أو صور أو رحوب؛ بينما يمكن للسائر في الطريق الساحلي من لحج أن يبلغ وادي حبل وعبدون في الجوف اليمني. هذا المثال هام للغاية من أجل تبيان نمط آخر من أنماط التغريب للمواضع في القراءة الأوربية للتوراة؛ فهي تفتش عن مواضع داخل فلسطين مقطوعة السياق عما يجاورها، وتتجاهل الطبيعة الخاصة للإقامة والاستقرار وإنشاء المنازل في ثقافة الجماعات القبائلية القديمة. ولأن القراءة الاستشراقية تجهل الأوطان القديمة للقبائل العربية الأولى التي وردت أسماء بعضها في التوراة، فقد راحت تبحث عنها في فلسطين من دون أي دليل مقبول، سوى وجود الأسماء في قائمة يشوع. كما هو الحال مع وادي ملك - انظر القائمة- الذي بحثت عنه دون جدوى في فلسطين. إن وصف الهمداني لمنازل قبيلة الأشعَر في وادي الملح - الملح عند يشوع، وفي تهامة اليمن ونجدها، تدفع بالملاحظات التالية عن نمط استيطان القبائل العربية إلى الأمام، وتفرض على الباحث التأمل في أفكارها المركزية.

أولاً: إن قبيلة الأشعر اليمنية أقامت إلى الغرب من محجّة عدن، فيما يُدعى بلد الركب وإلى الشرق منها، كما أقامت في تهامة على الساحل الممتد حتى تخوم مدينة جدة، على مقربة من منازل قبيلة عكّ -

التي أعطت اسمها لمدينة عكا الفلسطينية إبان هجرتها إلى بلاد الشام. وعكّ هذه هي أمُّ الجماعات الأشعرية. إن الوطن التاريخي المُتفق عليه بين النسَّابة والجغرافيين والرواة، بالنسبة إلى قبيلة الأشعر- أشعر هو تهامة اليمن. يقول البكري (طبعة بيروت: ١: ٥٢) نقلاً عن ابن هشام: إن بعض القبائل العدنانية تيامنت فأصبحت يمنية إبان هجرة كبرى، حملت القبائل الشمالية إلى تهامة اليمن في وقت ما بعد الجفاف الذي ضرب الجزيرة العربية؛ وأن بني مجيد دخلوا في قبيلة الأشعر وصاروا أشعريِّين. وقد نسبَ النسَّابة القدماء قبيلة الأشعر هذه إلى أب أسطوري تدليلاً على قِدَمها. قال شاعر هم (انظر البكري):

أُحبُّ الأشعرين لحب ليلى ... وأكْرَمُهُم عليَّ بنو مجيدِ

وسوف نرى تالياً أن أرض مجيد عند الهمداني؛ هي ذاتها ما يُدعى في التوراة أرض مجدّو (هر-مجدو). لقد لفقت القراءة الاستشراقية موضع مجدّو هذا، ووضعته في فلسطين من دون أنْ تتقيَّدَ بالتوصيف التوراتي للمكان، والذي يضعها في الفضاء الجغرافي لسائر المواضع الآنفة. بينما لا نجد في موضع مجدو الفلسطيني المزعوم سوى الاسم معزولاً عن محيطه وبيئته. كما تُعدُّ حسب قول الهمداني (صفة: ٩٦) قرية الحُصيب في زُبَيْد، من قرى الأشعريِّين يقيم فيها معهم قسم من قبائل ثقيف، كما أن قسماً آخر من خولان وهمدان، يقيم في قرى تُعدُّ من منازل قبيلة الأشعر. هذا التوصيف المكثف والمُستند إلى وصف الهمداني نكتشف أن نمط الاستيطان القبلي، لم يعرف تراتباً صارماً تتحدد بموجبه تخوم البلدات التي تقيم فيها القبائل؛ كما أن القبائل حتى في هجراتها لم تعرف أي شكل من أشكال الانعزال أو الانفصال عن الجماعات الأخرى. على الضد من ذلك؛ فإن كل انعزال عن الجماعات الأخرى كان مستحيلاً ومُدمّراً. إن القبيلة بطبيعتها لا تُطيق العُزْلة ولا العيش داخل

مستوطنة بشرية مُغلقة ومُحتكرة؛ وهي بفضل صلتها العضوية بالفضاء الصحراوي، بما هو حيز لحرية الحركة دون عوائق طبيعية للبشر، كما للمُعتقدات والأفكار والمشاعر وأشكال الفنون الأولى؛ تقيم روابط حميمة مع المحيط الجغرافي والبشري وتصبح من نسيجه. ولكن وبالضد من هذه الصور الأليفة، قام المخْيال الاستشراقي بنسخ نموذج الاستيطان وتعميمه على التاريخ الفلسطيني القديم، بحيث بدت الجماعات التوراتية كما لو كانت هي نفسها هذا النموذج. ولذلك يبدو تصوير القراءة الاستشراقية لأسباط بني إسرائيل، كجماعات منفصلة وتعيش داخل تخوم صارمة ليس فيها غرباء، مجرد استطراد في صورة إسرائيل القديمة المُتَخيَّلة: إنها كيان مُغْلق منذ القدم، منذ أنْ وِلِدَ أول مرّة داخل فلسطين ملفَّقة ومُخترعة. إن هذا وحده، ما يُفسر لنا المغزى الحقيقي لاستمرار تصوير التاريخ القديم في فلسطين، على أنه تاريخ مجتمعات استيطانية مُغلقة تهاجمها جماعات من الغرباء. على الضد من ذلك عرفت الأسباط والقبائل العربية القديمة نمطاً من الشراكة في المكان، أتاح لكل الجماعات الدخول في تحالفات وثيقة وأشكال من الاندماج العضوي والحقيقي والانصهار في جماعة واحدة. إن هذا التصوُّر، يوضح على أكمل وجه نمط الاستيطان الذي يقوم فيما يقوم، على أساس شراكةٍ في الأرض لا تستلزمُ وحدة في النَّسب أو انحداراً من بطن قبلي واحد، وهو يسمح بنوع من التداخل في منازل القبائل والتشابك كذلك، تماماً كما تتداخل الأنساب وتتشابك مع بعضها. هذه الحقيقة تفضحُ صور المخيال الاستشراقي عن حدود طبيعية فصلت بين الأسباط؛ بحيث أقام كل سبط في أرض شبه مُحتكرة ومغلقة بوجه الجماعات الأخرى (انظر الخريطة رقم ٣: منازل الأسباط).

ثانياً: إننا لا نقوم بمماثلة لغوية مجانية أوغير عقلانية، بين اسم قبيلة أشعر اليمنية وسبط أشير التوراتي؛ بل نُعيد قراءة الاسم في إطار

التوصيف الجغرافي، والتطابق التام بين أسماء المنازل كذلك. إنه لمن المدهش بالفعل، قراءة أسطورة ولادة قبيلة أشعر كما دونها اليمنيون القدماء، فهي تقول: إن أشعر هو ابن أدد بن سبأ، وإنه ولد أشعر الجسم كله.

وهذا ما يُحيلنا إلى أسطورة ولادة عيصو في التوراة؛ إذ ولد عيصو وهو أشعر الجسم كله (سفر التكوين). أما المغزى الحقيقي لقول سِفر الملوك: إن الملك سليمان عين ولاته على المدن من بني حاشد؛ فإنه يدلل بشكل لا لبس فيه على أن المقصود حاشد، وهي من أشهر قبائل اليمن (كما أنه عين ولاة من بني يامن وبني يسكر). إن وجود هذا العدد الكبير من أسماء القبائل اليمنية في أسفار التوراة، لا يمكن أن يكون من المُصادفات اللغوية. ولذلك؛ فإن العثور على أسماء المنازل التي أقام فيها هذا السبط التوراتي سيكون ضرباً من العبث، إذا لم يُقرأ سِفر يشوع في ضوء وصف الهمداني والشعر الجاهلي لسراة اليمن وتهامتها ونجدها. وهذا هو مغزى التقسيم الذي نقوم به. وهاكم بقية المواضع:

١١- وادي مالك

قال ذو الرُّمَّة، وهذا هو الضبط الصحيح لاسم الشاعر، مُسْتَذْكراً وادي مالك-مالك عند يشوع، والذي يقع إلى الجنوب من اليمامة:

إذا شِئتُ أبكاني بجَرْعاءَ مالك   إلى الدَّحلِ مُسْتَبْدي لميّ ومَحْضرُ

إن وادي مالك الذي أبكى ذا الرُّمَّة، حين وقف عند ضفافه في طريقه إلى منازل قبيلته، هو نموذج آخر عن الطريقة التي قُرِئت فيها التوراة، بما هي طريقة تقوم أصلاً على تَغْريب المواضع والأماكن؛ إذْ جرى ضبطه في الطبعة العربية في صورة: المألْك (بألف وسطية مهموزة ولام ساكنة) والضبط العربي الصحيح هو المالك. ولنلاحظ وصف الشاعر: إنه يصف

مكاناً يجمع بين البداوة (مُسْتَبْدٍ) وبين التمدن (مُحضر-من الحاضرة أي المدينة).قال عمرو بن ربيعة (معجم: ١١٧٦):

وواعديه سَرْحَتي مالكٍ أو ذو الرُّبا بينهما المُحوّلا

يقع وادي مالك هذا كما وصفه الهمداني (صفة جزيرة العرب: ٢٥٣) وضبط اسمه في صورة ملك، في أول اليمامة من ثنايا العارض وهي رمال تمتد من حضرموت حتى منطقة النفوذ الصغرى:

> **ومن ميامين أودية اليمامة نساح وملك ولحا والعرض. وفي كلها قرى ميتة وحيَّة، ومن فروعها قرقرى والهَزمَة وبين رملة الوركة إلى أقصى الوشوم بلاد بني تميم فيها النخيل والقريّ والزروع والبئار. ثم ترجع في بطن العرض فأولها القريّ قريّ بني يشكر. ثم القلتين لبني يشكر.**

هو ذا وادي مالك وها هنا وادي بطن-بطن عند يشوع، إلى الجنوب من منازل سبط يشكر -يسكر. وها هنا وادي لحا- لحا في التوراة - انظره في الجزء القادم من الكتاب - ولكن، وحسب وصف الهمداني؛ فإن بطن هذه هي بطن العرض حيث تتجمع المياه وتنتشر المزارع والمراعي. ولنلاحظ استعمال الهمداني لكلمة القريّ؛ فهذا هو المكافئ العربي لاسم قريوت عند يشوع - اسم الجمع للمفرد المؤنث قرية -. وفي هذا الإطار نشير إلى أن اسم وادي مالك ورد في التوراة وبالصيغة ذاتها: وادي مالك؛ ولكن الترجمة العربية ولجهلها بالمواضع تسببت في تشويه الاسم. إليكم الدليل على الطريقة المشوَّهة التي تُرجمت فيها التوراة إلى العربية:

في سِفر صموئيل الثاني (١٩: ٤٠: ٢٠: ٩- من النص العربي لتسهيل عودة القراء) تعطي التوراة الجملة الخاصة بعبور الملك داوود الأودية والمرتفعات في طريقه إلى الحرب على النحو التالي:

وكان جميع جند يهوذا، ونصف جند إسرائيل قد عبروا بالملك.

وهذه جملة غير مفهومة؛ إذْ كيف يمكن للجنود أن يعبروا بالملك؟ في الواقع إن النص العبري (٤٤ : ١٩:٣٠) لا يقول مثل هذه الجملة؛ بل يقول: ويعبرو-ءت-ها-ملك (وعبروا الملك)؟ يعني هذا أن المترجمين أضافوا حرف الجر (ب) إلى الجملة لأنهم لم يفهموا المقصود منها بالضبط؛ وبالتالي بات أمراً محرجاً أن يترجموا الجملة كما وردت حرفياً في العبرية: (وعبر رجال يهوذا جميعاً ونصف رجال إسرائيل الملك)؟ هذا هو وادي ملك كما ضبط الهمداني اسمه في صورة ملك، تماماً كما في العبرية، وضبطه شعراء العرب بالمدّ مالك. إننا لا نعرف وادياً يُدعى ملك أو مالك في فلسطين مهما فتشنا هناك. ولعل إشارة الهمداني إلى وجود قرى حيَّة، وأخرى ميتَة في هذه الوديان الخصبة، تعطي، في إطار التماثل في الوصف بين نصيّ يشوع والهمداني، تفسيراً ممتازاً لمقاصد ومعاني التسلسل في منازل الأسباط وتجاورها وتداخلها؛ فهاهي منازل سبط أشير- ءشعر على مقربة من منازل سبط يشكر- يسكر وقد تداخلت عند وادي ملك. وفي هذا السياق؛ فإن موضع ءكسفه عند يشوع هو ذاته الموضع الذي ضبطه ياقوت الحموي (٤ : ٥٢٦) في صورة: كسفه قائلاً عنه: (كسفه هي من مياه بني أسد).

وكما رأينا من أمثلة سابقة؛ فإن المقصود في كلام البدو بالمياه مسيل مياه الوديان، التي تغطي مساحة واسعة من الأرض وهي تُنْسَبُ، وتحمل اسماً خاصاً بها، عند كل منزل من منازل القبائل. واستناداً إلى الهمداني؛ فقد أقام بنو أسد -وهم في الصيغة اليمنية القديمة لاسمهم بنو الأزد- في السراة التي تحمل اسمهم سراة الأزد، والتي تتصل بسراة الخال وجُرَش. كما سُمي مسيل مياه وديان حضُور في ديارهم بـ (حضُور بني أزدْ) قرب خلقة تماماً. وهذا ما يقوله الهمداني (صفة: ١٥٨):

ثم من المصانع وشبام أقيان وحضُور بني أزدْ وبيت أقرع، وهند (......) وضباعين ولغابة والحيفة.

وسوف نعود تالياً إلى حيفا اليمنية هذه - حيفه (كما ينطق اسمها الفلسطينيون اليوم) والتي اندثرت تماماً. إننا لا نعرف مسيل مياه يُدعى ءكسفه -الكسفه ولا مكاناً يُدعى أكشاف، كما في الطبعة العربية من التوراة؛ بل نعرف من ياقوت اسم مسيل مياه لبني أزدْ - أسد يُدعى كسفه وتماماً كما في الرسم العبري للاسم. وبكل تأكيد لا نعرف حيفا فلسطينية قرب شبام وءكسفه.

١٢- وادي مثال

أما الموضع الآخر بين ءكسفه- ءكشفه ووادي ملك-مالك، وهما موضعان لا وجود لهما في فلسطين قط، ولم يُعثر لهما على أثر أو صيغة من الصيغ تدل إليهما؛ فهو وادي المثال -المشال. إن نص يشوع يرسم الاسم في العبرية في صورة مشال، ويعني في العربية المثال. وهناك سِفر كامل في التوراة يُدعى مشلي - أو مشله (أي الأمثال). وبالطبع لا يعرف أحد من سكان فلسطين وادياً بهذا الاسم، على مقربة من - أو في الطريق إلى - وادي ملك؟ لكن الشعر العربي القديم حفظ هذه الصيغة وفي الفضاء الجغرافي نفسه؛ ففي وصفه لمخلاف عامر- ء موري في التوراة يعدّد الهمداني أسماء الأودية والمواضع التي أقامت فيها القبائل القديمة، ومنها موضع مثال. ويبدو أن محقق كتاب الهمداني، على غزارة علمه والجهد العظيم الذي بذله في ضبط- والتحقق من- المواضع لم يفهم على الوجه الصحيح النص التالي من صفة جزيرة العرب١٨١ -١٨٣:

إذا كان المشرق تلقاء وجهك، وقد خرجت من حدود عنس: وادي يوجح، أقصد وماور وعزان لبني سلمة، ذات مثال وذات كراع والخائس لبني ربيعة وهم الربيعيون. (المحقق: قوله: ذات مثال بكسر الميم أي صاحب مقدار ووصف جميل وبنو عامر بيتان: زوف ثم ناجية، وعقارب، والأكراب، والمتار، ودون هذه المواضع أودية منها هليل وصيد)

ما يقوله هذا النص واضح بما فيه الكفاية: إن وادي مثال يقع في مخلاف بني عامر؛ ولكنه لم يعد موجوداً اليوم كمنزل من منازل القبائل. ويبدو أن سيوله كانت تبلغ مكاناً قرب عزان - مفردها عزه (وهي غزة في التوراة كما سنرى تالياً) سمّي ذات مثال، ثم أصبح قرية عامرة ولكنها اندثرت. والاسم كما سجله الهمداني ويشوع ليس مجرد وصف جميل؛ بل اسم لموضع حقيقي ولقرية بعينها أخذت اسمها من اسم وادٍ بعينه. إن عدم العثور على الموضع هو الذي دفع بالمحقق إلى الافتراض أن الكاتب كان يسجل ثناء أو وصفاً جميلاً. والمثير للاهتمام أن الموضع موجود في الفضاء الجغرافي نفسه حيث سلسلة من المنازل القبائلية، التي سجلها يشوع في نصوصه مثل (عزه- عزان، وزيف- زوف، وعقارب- عقارب، ونهليل - هليل، والمتأر- المتار، وصيده- صيد). قال مالك بن الرَّيب (معجم: ١١٨٤):

فيا ليتَ شِعْري هل تَغيَّرت الرَّحى رحى المثالِ أو أمست بفلج كما هيا

إن بيت مالك بن الرَّيب هذا يضع وادي مثال وسيوله الجارية في الفلج، إلى الشمال الشرقي من نجران في بطن العرض، حيث أقامت القبائل العربية البدوية. والهمداني يصف مجرى الوادي إلى جوار مجدل - مجدل عند يشوع. إليكم وصف الهمداني لوادي مثال (٢٦٣، ٢٩٨):

صعائد وكتمان: ماء، المُتَثلّم وعوق والمخاضةوالطَّمعاء في ديار ذَبْيان؛ فمجدل (...) فمثال.

قال الفرزدق في هجاء جرير، مُذكراً إياه بتاريخ أسرته وقبيلة تميم:

وترى عطيَّة والأتانَ أمامه[1] عجالاً يمرُّ بها على الأمثالِ

إن فلسطين الحقيقية والقديمة لا تعرف موضعاً بهذا الاسم قرب المجدل. وأُسرة جرير الشاعر لم تكن يوماً هناك في فلسطين؟ وإذا ما تقبلنا القراءة الاستشراقية للتوراة؛ فعلينا في هذه الحالة أن نتقبل قلباً للتاريخ والجغرافية رأساً على عقب: فبدلاً من وجود مسيل مياه وادي مثال قرب مجدل في نجد اليمن حيث أقامت قبيلة تميم، قبل هجرتها إلى بلاد الشام ومن ثم لتستوطن في فلسطين، علينا أن نصدق حدوث هجرة معاكسة من فلسطين إلى اليمن نقلت أسماء هذه المواضع إلى هناك؛ بل وأن نصدق كذلك استطراداً في هذه القراءة، أن قبيلة تميم لم تكن يوماً قبيلة بدوية وأن الفلج ليس في اليمن بل في فلسطين، وأن أيام العرب وهي حروب القبائل لم تحدث قطّ في هذا المسرح الجغرافي بل في فلسطين؟

١٣- كرمل

يسجل يشوع اسم جبل الكرمل على هذا النحو:

(وءكسفه، والملك، وعمّ عدّ، ومثال فتمضي غرباً إلى كرمل، وشَحرْ ولُبْنى)

إذا ما سرنا غرباً على خطا يشوع بين هذه المواضع، قاصدين جبل

---

(١) عطية هو والد جرير.

الكرمل الفلسطيني؛ فهل نجدُ عم- عد هناك؟ وهل تصادفنا شَحَرْ ولُبنى، وهل نشاهد وادي مثال؟ وهل نعبر- مثل داوود- وادي ملك؟ وإلى أين ستقودنا هذه الطرق، إذا ما سلكناها قاصدين جبل الكرمل كما وصفه يشوع؟ حسب هذا الوصف فإننا سنكون في بلاد طي القديمة وليس في فلسطين، التي رأينا- فيما سبق من صفحات- أنها أقامت في بيحان وامتدت منازلها إلى جُرَش. وجبل الكرمل هذا من جبال طي التي اشتهرت بمياهها العَذْبة. قال زيد الخيل:

فسيري يا عَديّ ولا تُراعي فحلْي بين كرمل فالوحيدِ

إلى جَزع الدواعي ذاك منكم مغانٍ فالخمائلِ فالصعيدِ

هنا كرمل جبل قبيلة طي حيث تقع حلي بينه وبين جبل الوحيد. يحدِّد الهمداني منازل طي في بيحان إلى الجنوب من مأرب وهم عبّاد الإله الفلس (ومنهم قوم عرفوا بالفلستيم - الفلَس الذين توهم المترجمون أنهم: الفلسطينيون)[1]. أما مسيل مياه الصعيد في قصيدة زيد الخيل، فهو حسب وصف الهمداني (صفة: ٢٠٩ - ٢١٠) في مخلاف حراز وهوزن إلى الغرب من صنعاء. وهنا قبيلة عدي -عديت ءيم، التي يخاطبها الشاعر ويصف تنقلها بين المواضع:

> **حراز وهوزن هما بطنان من حِمْيَر، وهما ابنا الغوث (...) بن عدي (...) فأما أرض لعسان في بطن تهامة (...) فالجعدية (...) والصعيد.**

وقال زيد الخيل أيضاً (انظر ياقوت مادة رقم: ١٠٢٢٧):

---

(١) انظر ما سنكتبه في الفصول التالية من الكتاب عن تلفيق اسم الفلسطينيين في التوراة.

أتـانـي أنَّـهـم مَـزِقـونَ عِـرضـي   جـحـاشُ الـكَـرْمَـلـيـن لـهـم فَـديـدُ

إننا لا نعرف جبل الكرمل في فلسطين على مقربة من وادي مثال وملك وءكسفه كما في وصف يشوع؛ بل نعرف كل هذه المواضع في الفضاء الجغرافي لغرب صنعاء وجنوب مأرب، وكذلك في تهامة اليمن ونجدها. تُرى كيف استدلَّت القراءة الاستشراقية إلى أن كرمل التوراة هو كرمل فلسطين؟

١٤- شحور لبْنَة (شحر- لبنى)

يُرسم الاسم في اللغة العبرية في صورة: شحور- لبنة. ولكن الترجمة العربية تعطي الرسم التالي للاسم: شيحور لبنات. وفي الواقع؛ فإن سياق نصّ يشوع ووصفه لمواضع الأسباط الأخرى مثل يافع وسَيْؤون، يُدلِّل على أن المقصود بالاسم إنما هو شَحَرْ؛ وهي منزل قديم من منازل القبائل العربية البدوية على مقربة بالفعل من يافع وسيؤون، وأن لبنه- لبنى هي ذاتها الجبل العربي الشهير لبنى الذي تغنَّى به الشعراء. وهنا لابد من تسجيل الملاحظة التالية: إن أهم مشكلة تواجه قارئ النص العبري هي افتقاد النصّ إلى الفواصل بين الكلمات والجُمل؛ ولذلك يكاد يكون أمراً صعباً التحقق من المقاصد. ونموذج اسم شحور- لبنه (شحر- لبنه) هو مجرد نموذج في هذا السياق. أي إن المقصود هو موضع شحر وموضع لبنه- لبنى وليس اسماً مركباً.

قال العجّاج الراجز (معجم: ٧٨٣):

رَحـلـتُ مـن أقـصـى بـلاد الـرُّحَـلِ   مـن قُـلـل الـشـحـرِ فـجـنـبْـي مُـوكـلِ

ليس ثمة مكان أو جبل أو مدينة قديمة، لا في فلسطين ولا غربي نهر الأردن يُدعى شحر أو شيحور قرب يافع وسَيْؤون. إن الموضع الوحيد

الذي يحمل اسم شَحَرْ موجود في الفضاء الجغرافي لسائر المواضع السابقة، التي أقامت فيها قبيلة الأشعر على مقربة من يافع اليمنية، وهو مدينة الشحر القديمة في حضرموت. والضبط العربي الصحيح للاسم هو الشِّحْر- بكسر الشين- وليس شيحور. والآن: لئن أقام سبط يشكر- يسكر التوراتي- اليمني في سَيْؤون، حسب وصف يشوع؛ فإن سبط أشير - أشعر أقام أيضاً في الشحر وهما معاً في حضرموت. وللتدليل على أن قبيلة الأشعر سكنت في الشحر (وعند يشوع: أشير تقيم في شيحور) إليكم وصف الهمداني للساحل اليمني (صفة: ٨٤) حيث ينعطف البحر باتجاه:

الشِّحْر ومال منه عنق إلى حضرموت وناحية أَبْيَنْ وعدن، واستطال ذلك العنق فطعن في تهائم اليمن بلاد فرسان وحكم والأشعريين وعكّ.

يعني هذا أن قبيلة أشعر أقامت في وقت ما - على امتداد الساحل - في موضع له صلة بالشحر يُدعى شحر لبنة. أننا نملك الآن بفضل نص الهمداني المثير، إمكانية أخرى أكثر استجابة لمتطلبات البحث؛ فهو يعرض علينا وصفاً مُطابقاً كل التطابق مع وصف يشوع. ها هنا تأكيد قاطع من الهمداني بأن قبيلة أشعر اليمنية أقامت - ذات يوم - بالفعل في منطقة الشحر، تماماً كما يخبرنا يشوع في نصِّه. تعني كلمة الشِّحْر-حسب ضبط العلّامة الأكوع- في كلام أهل اليمن القدماء: الساحل الضَّيق. وهذا ما يدعم المقاصد الحقيقية من التسمية التي تشير إلى منزل قبائلي في ساحل طويل من سواحل البحر الأحمر؛ لعب فيه الأشعريون دور القوة المرهوبة الجانب وهذا أمر معروف في التاريخ اليمني. والمثير أن سفر القضاة يقول (في نشيد دبورة وبارق) وبعد أن يكيل المديح لقوة الأشيريين -الأشعريين: أنهم لم يطردوا عك من أرضهم في الساحل، وهذا ما يتوافق كل التوافق مع التاريخ الحقيقي لصراعات القبائل اليمنية على الساحل. وسوف نبيّن ذلك بالتفصيل

حين نعيد ترجمة وقراءة سفر القضاة ونشيد بارق ودبورة. أما لبنه- لبنى فسوف نرى صلتها بشجرة لبْنى التي اشتهرت بثمارها الحلوة فسميت عسل لُبْنى، وراح شعراء الجاهلية يتغنّون بها ويعشقونها حتى ظن قراء الشعر أنها امرأة؛ هام الشعراء على مر العصور في حبها. (وسنرى تالياً أن بلد فرسان هذا هو ذاته موضع: فرست في النقوش والذي سعى الاستشراقيون عبثاً إلى مُطابقته مع فلشت- فلشتيم التوراة). يلاحظ ياقوت (٣: ٣٧٠): إن بلاد العرب عرفت منازل قبلية عدَّة حملت اسم شحر. هذه الملاحظة الثمينة تتضمن تصوراً عن انتشار الاسم قديماً في الجغرافية العربية. إننا لا نعرف مثل هذا الاسم في فلسطين، كما لا توجد دلائل لغوية وتاريخية على انتشار استخدامه هناك. ولذلك؛ فإن الاسم المُركب شحر لبنة - حسب زعم القراءة الغربية- يشير إلى مكان ساحلي عُرف بكثافة أشجار لُبْنى فيه، بحيث أنه نُسب إليها تمييزاً له عن سائر المواضع التي تحمل الاسم نفسه كما سنرى. والأمر ذاته ينطبق على اسم لُبْنى- لبنه الذي يتكرر في نصوص التوراة في الصورة نفسها.

إن لبنه العبرية- لُبْنى العربية، هي شجرة جبلية طالما تغنى بها شعراء العرب، كما أنها اسم جبل عربي.

قال زيد الخيل:

فلما أنْ بدت أعلام لبُنْى وكنَّ لنا كمستتر الحجابِ

وقال جرير:

عفا قَوٌ وكان لنا إلى جوى صِلاصل من لبُيْنى

هذه هي أشجار لُبْنى الجبلية وقد نُسِبَتْ إلى الشّحر اليمنية على الساحل، حيث أقام سبط أشير. ولكن؛ ونظراً لتكرار الاسم في التوراة فسوف نعود بتفصيلات وافية في الصفحات القادمة.

١٥- دجون

تقع بيت داجون (دُجُنْ) حسب وصف يشوع إلى الشرق من شحر-لبنه :

> **وتمضي نحو مطلع الشمس: بيت دجون وتمضي في زَبُلون، وادي يفتح ءيل شمالاً بيت العمق ونعي ءيل.**

لأجل تحديد المقصود بهذا الموضع، لابد من رؤيته في إطار الصلات الجغرافية التي تجمع سبط يسكر- يشكر وسبط أشير- أشعر بمنازل سبط زَبُولون. إن منازل هذه الأسباط تقترب بعضها من بعض إلى الشمال من العمق. وليس ثمة إلى الشمال من منازل يشكر والأشعر وزبولن حسب وصف الهمداني سوى الجوف (منطقة العلاء اليوم). وتعبير(العميق، العمق) من تعابير اليمنيين القدماء يُقْصَدُ به الوادي العظيم الذي تصبُّ فيه مياه سائر الوديان (الجوف في العربية تعني البطن كما تعني العميق تماماً كما في العبرية). إن الجملة التوراتية القائلة: وتمضي نحو مطلع الشمس، بيت دجون وتمضي في أرض زَبُولون، تشير إلى أن السائر شرقاًسوف يقطع منازل سبط زَبُولون حتى يصل إلى يافع. فهل عرفت فلسطين مثل هذا الوصف؟ وأين؟ لنلاحظ في وصف يشوع إشارته إلى أرض زَبُولون حيث أقامت بطون من قبيلة أشير- أشعر؟ فهو يتطابق تماماً مع وصف الشعر الجاهلي. يقول الهمداني (صفة: ٣٠٠) أنشدني الجُرميُّ لابن شريان القريعي:

وأوردهُ زُبالة كل عام يَحشُّ على ذؤابتهِ الحُليَّا

وأوردهُ نباج بني مجيد وإنْ كان العبد بها قويا

ها هنا أرض زُبُاله- زُبولن (حسب البناء العبري) على مقربة من مياه بني مجيد- مياه مجدو في التوراة وهم من عشائر سبط أشير-والنباج في

القصيدة، هي المرتفعات التي يكثر فيها نوع من النباتات الصحراوية، التي كانت من أطعمة العرب زمن المجاعة وتعرف بالنبُج (ابن منظور: مادة نبج: ٣٧٤). ليس ثمة من سبب يدعونا، في هذا السياق، إلى إهمال المقاربة التالية الضرورية والملحَّة:

التوراة	الهمداني/ ابن منظور
هر- مجدو	نباج (مرتفعات) بني مجيد
مياه- مجدو	ساحل بني مجيد
أرض زبولون	أرض زبالة

هذا الوصف لأرض زبُولن- زُباله في الفضاء الجغرافي لمنازل أشير ومضاربها وساحلها، حيث يقيم بنو مجيد الذين خاضوا معاركهم دفاعاً عن هذا الساحل، ضد بني كنانة وضد الآشوريين في الآن ذاته كما سنرى تالياً؛ ينسجم كل الانسجام مع وصف يشوع والهمداني. يقول صاحب صفة جزيرة العرب (٢٩٨-٢٩٩) ما يلي واصفاً الجوف اليمني إلى الشرق من زبُولن وإلى الشمال من منازل سبط يشكر في همدان:

فمجدل، فدهان، فالمثال (..........) وكشر - وكشر بلد في همدان - ذو سويس (.........) ملك وادٍ (...) وبالجوف موضع يُسمى القاع كانت فيه وقعة بين همدان ومراد. وعرض القاع تسع وعشرون درجة وثلثا درجة ومنه إلى زُبالة ثمانية عشر ميلاً، وعرض زُبالة تسع وعشرون درجة وربع.

ها هنا منطقة الجوف (ها-عمق- العميق) ووادي ملك - ملك عند يشوع، وسوس- سوسه عند يشوع ووادي زبُاله - زبُولن، ووادي مثال - مثال، غير بعيد عن مرتفعات بني مجيد- هر- مجدو إلى الشرق من مهرة

في حضرموت وإلى الشمال من عدن. إن أحداً لا يمكنه، مهما فتش في خرائط فلسطين القديمة، أن يقدم وصفاً مُطابقاً لوصف يشوع هذا، فليس ثمة زُبولن ولا ملك ولا مثال ولا ها-عمق في فضاء جغرافي واحد. كما أن أحداً لن يعثر على مرتفعات مجدو ومياهها الغزيرة (نباج وساحل بني مجيد). ولن يشاهد بكل تأكيد موضع القاع (انظر قر-قاع تالياً عند يشوع). هذه هي أرض زبُولون الوادي حيث تلاقت عند تخومه منازل سبط أشير وإلى الشرق منها. وإذا ما سار المرء قاطعاً الطريق نحو دجون-دُجُنْ فسيرى جبال نجران التي تُعرف عند العرب بالسَّرار. قال امرؤ القيس (الديوان):

وبيت عذارى يوم دَجَنٍ ولجتُهُ   يطُفْنَ بجباء المُرافقِ مكسالِ

سباط البنانِ والعَرانينِ والقنا   لطاف الخصُور في تمامٍ واكتمال

وقال در يد بن الصِّمّة (الديوان)

لمن طَللٌ بذات الخمس أمسى   عفا بين العقيق فبطن ضرسِ

أشبهُها غمامة يوم دَجنٍ   وتلألأ برقُها أو ضوء شمسِ

فأقسمُ ما سمعتُ كوجدِ عمرو   بذات الخال من جن وأنسِ

يوم دُجُن - دجون هذا من أيام العرب المشهورة؛ والحروب بين القبائل غالباً ما تحمل أسماء المواضع التي تقع فيها المعارك الكبرى. لقد تواتر ذكر دُجُن في أشعار الجاهليين بوصفه موضعاً مرتفعاً كما في قصيدة للنابغة الذُّبياني (الديوان، قوله: من هضبات دُجْن) وهي هضاب فيها مياه غزيرة تتصل بسراة الخال كما في قول دُريد. وسراة الخال هذه هي سراة بني يشكر كما نلاحظ من وصف الهمداني (١٣١) في حديثه عن جُرش:

ثم يتلوها سراة عنز وسراة الحجر(.........) وغورهم قبائل من الأزد. ثم سراة الخال لشكر نجدهم خثعم وغورهم قبائل من الأسد.

إننا لا نعرف بيت دُجُن- دجون في فلسطين قرب العمق؛ بينما نعرف دُجُن في الجوف اليمني، أي في الوادي الكبير والعميق الذي تصب فيه مياه الأودية المُتجهة صوب نجران.

مقاربة بين نصّ سِفر القضاة ونصّ الهمداني: حول صراع قبيلتي أشعر وعكّ في الساحل اليمني

روت قصائد التوراة (سِفر القضاة، النصّ العربي: ٥: ١٢: ٢٤ والنصّ العبري١٨ :٧: ٥ :) جزءاً منسياً من تاريخ الصراع بين قبيلتي الأشعر وعكّ على الساحل اليمني، قبل أن تنشأ روابط جديدة بين الجماعتين بفعل المصاهرة سوف تمهد، تالياً، لظهورهما كتجمع قبلي موحد يسيطر على الساحل اليمني برمته. كما أن السِفر التوراتي يصف منازل القبائل التي أقامت هناك، وخاضت معاركها ضد الكنعانيين. وعند الهمداني؛ فإن أشعر وعكّ خاضتا معاركهما ضد بني كنانة وهذا أمر مثير للغاية. ولنلاحظ إسقاط حرف العين من أشعر وكنعن أو تحويلهما إلى همزة و ياء-. ولكن قبل التحدث عن هذه الصراعات لابد من رؤية الصور التوراتية عن طريقة وصول هذه القبائل إلى الساحل وسيطرتها عليه؛ آخذين بنظر الاعتبار مزاعم الإخباريين العرب القدماء عن مجاعة ضربت شمال الجزيرة العربية، في وقتٍ ما من التاريخ، قادتها إلى تنظيم هجرة كبرى صوب تهامة اليمن، وبحيث "تيامنت" أي أصبحت قبائل يمنية. يقول سِفر القضاة (نشيد دبورة وبارق):

وشب-كي- يسكر-عم-دبره-ويسكر

كن-برق-

ب-عمق-سلح-برجليو

جلعاد-ب-عبر-ها-يردن

ودان-لمه-يجور-ءنيوت

ءشير-يشب-لحوف-يميم-وعل-

مفرصيو-يشكن

زبولن-عم-حرف-نفشو-ل-موت-

ونفتلي-عل-مروم-شكن

بءو-ملكيم-نلحمو-ء ز-نلحمو-

ملكي كنعن.

ب-تعنك-عل-مي-مجدو.

تقول القصيدة ما يلي :

(مشت يشكرُ مع دبرة

وعلى قدميها سارت بارق في الجوف

وجلعاد عبر اليردن

فلِمَ يقيمُ دان نائياً؟

أشير سارت على حواف المياه لتسكن

وعلى الفراض أقامت

وزبولون استراحت عند حرف وماوة

وأقامت نفتلي عند مروم

فقاتلت ملوك كنعان

في تعنك وعلى ساحل مجدّو)

لقد قرأت المُخيلة الاستشراقية هذه القصيدة، التي تصف أولى هجرات القبائل العربية-اليمنية كما تصوّركيفية وصولها إلى الساحل وتهامة ونجد همدان؛ على نحو غريب حقاً، وذلك عبر الإيحاء لجمهور واسع من القراء، أن هذه القصيدة المجهولة هي نشيد نصر من أناشيد بني

إسرائيل. ومع أن القصيدة لا تتضمن أي إشارات حقيقية إلى معارك وانتصارات كبرى، بمقدار ما تتضمن تصويراً لرحلة تاريخية أوصلت القبائل إلى أوطانها الجديدة، وبالطبع في إطار تقاليد ثقافية راسبة ومستمرة هدفها رواية فكرة عن تاريخ القبائل؛ فإن المخيلة الغربية استنبطت صورة نشيد انتصار لا نعرف عنه أي شيء. ليس ثمة انتصار أو نشيد ظفر؛ بل قصيدة من الشعر الجاهلي الضائع المكتوب بلهجة يمنية قديمة هي العبرية، تصف هجرة القبائل ووصولها إلى الساحل اليمني. وهذه القصيدة تقدم دعماً مذهلاً وغير متوقع لمزاعم الإخباريين العرب عن هجرة قبائل عربية شمالية صوب تهامة اليمن ثم استقرارها في الساحل (ساحل مجيد- مجدو). ومن بين هذه القبائل كما يُفهم من الإشارات: شاكر- يساكر، وأشعر- أشير، وزبولون- زبالة، وأذان- دان. إن الأخطاء الفظيعة في الترجمة والتي تتجلى في الفهم الخاطئ لأسماء لمواضع والجماعات، تجعل من الصعب إعطاء مقاربات تفي بالغرض. ومع ذلك سنعطي بعض الأمثلة:

في جملة: زبولون-عم-حرف-نفشو-لموت. قام المترجمون بإعطاء الجملة التالية: زبولون شعب خاطر بنفسه للموت. وهذه الجملة تبدو خارج السياق وغير مفهومة مادام الأمر يتعلق بسكن الجماعات لا بحروبها، وبهجرتها ووصولها إلى أماكن بعينها وليس بمغامراتها. وفي الواقع؛ فإن النصَّ العبري لا يقول ذلك بل يقول: زبولون استراحت في الحرف وماوة. وهذان موضعان أقامت فيهما القبيلة المهاجرة بالفعل. وفضلاً عن ذلك؛ فإن المترجمين قاموا بترجمة الجملة التالية على نحو غير مفهوم أيضاً: عم- دبره-ويسكر-كن-برق-ب-عمق-سلح-برجليو- (مع دبورة ويساكر اندفع باراق على رجليه إلى الوادي). وبذلك يكون المترجمون قد خلطوا بين دبُرَة الوادي الذي عبرته قبيلة يشكر لتقيم في

السراة، وبين اسم الكاهنة اليمنية الأسطورية دبرة- دبورة صاحبة القصيدة. ولنلاحظ هنا أنهم يترجمون جملة ب-عمق إلى: في الوادي (الوادي بإطلاق) بينما المقصود بها موضعاً بعينه هو الجوف (العميق بالعبرية). وهكذا يتضح أن القصيدة تتحدث عن الأماكن التي سارت فيها القبائل، وهي سلسلة من الوديان والأغوار في منطقة الجوف اليمني قبل أن تستقر في أوطانها الجديدة. ولتقع في حياتها منذئذٍ، بعض الأحداث الكبيرة حيث اصطدم سبط نفتلي بالكنعانيين - مثلاً- على الساحل في موقعة تعناك عند مياه مجدو (وهما على التوالي عند الهمداني: تعناك ومياه بني مجيد بالضبط). إن الهمداني على غرار يشوع يصف مواطن هذه القبائل وبأسمائها، وهي مواطن وصلتها عبر هجرة كبرى قادتها من الشمال إلى الجنوب الغربي في وقت ما من عصر المجاعة في الجزيرة العربية.

ولنبدأ بقبيلة يسكر- يشكر؛ إذْ كما فعلت قبيلة يشكر تماماً فقد أقامت قبيلة بارق في السراة قاطعة منطقة الجوف اليمني. وبارق هذه عند نسابة العرب قبيلة من الأزد سُمي الجبل الشهير بارق باسمها جبل بارق- جبل بارق عند يشوع. هاكم وصف الهمداني لموطنهما المشترك بين جُرش وتهامة (صفة: ١٣١):

> **ثم يتلوها سراة عنز وسراة الحجر نجدها خثعم وغورهم بارق. ثم سراة ناه من الأزد (....) وغورهم قبائل من الأزد، ثم سراة الخال ليشكر.**

ها هنا أقامت يشكر في السراة نفسها سوية مع بارق، وتماماً كما تقول قصيدة الكاهنة دبرة- دبورة. أما دبرة الوادي حيث خلطت القراءة الاستشراقية بين الاسمين، فهو في الجوف وليس في أي مكان آخر (صفة: ١٥٤ -١٥٦):

ثم الجوف وهو منفهق من الأرض بين جبل نهم الشمالي الذي فيه أنف (...) وأوبن (...) وما أقبل من عدّ ورد وهو وادٍ يصب مع سامك ودبرة.

هذا هو وادي دبرة في الجوف كما وصفه يشوع والهمداني على حد سواء، وها هنا موضع ألف-أ نف[1]، انظر منازل الأسباط- حيث تستخدم النون بديلاً من اللام في سياق العادات الصوتية ذاتها وأشكال رسم أداة التعريف القديمة. أما سبط دان فقد أقام في مرتفعات جبل العر وهو جبل عال منيف في السرو. وسنرى تالياً كيف أنّ كلمة عرّ هذه تتكرر في نصوص التوراة. يقول العلّامة الأكوع ما يلي في شرح معنى اسم أذان - دان في نص الهمداني (صفة جزيرة العرب: ١٧٢-١٧٣):

(العرّ وثمر وعُلة وحطيب ويهر(...) فالعرّ لأذان من يافع (الأذان قبيلة لا تُعرف اليوم وهي هنا بالذّال المُعجمة وفي الإكليل ج٢ -٣٤٣ بالدال المهملة).

هل هي محض مصادفة أخرى أن يكتب اسم قبيلة أذان- أدان اليمنية، بدال مهملة (أدان) على ما تقول تحقيقات كتاب الإكليل للهمداني وهي أقامت في مكان يدعى العرّ؛ فيما يرسم اسمها في العبرية في صورة (دان) بدال مهملة أيضاً؛ بل وأن تقيم في المكان نفسه (العرّ) كما يقول

---

(١) استخدم اليمنيون حرف النون كأداة تعريف ناقصة (من دون لام) أنف- ألف. والمشهور عن بعض قبائل اليمن أنها تقلب (أل) الشمسية إلى (أن) مثل: أنصلاة في الصلاة، أنثور في الثور. وللمزيد انظر: اللغة العربية، أحمد شرف الدين، ص ٨٣، مصدر مذكور. لقد دارت حول اسم جبل أنف هذا أساطير استشراقية لا أول لها ولا آخر، كما أن المترجمين تلاعبوا بطريقة فظيعة في طريقة فهم مغزى ورود الاسم في نصوص شعرية وسردية.

نص يشوع؟ هذا التوافق المذهل يدعو إلى التأمل. ها هو سبط دان ساكن المرتفعات في سرو حِمْير وها هنا سبط دان يقيم في المرتفعات. إننا لا نعرف مثل هذه القبيلة في فلسطين. لقد كفت عن الوجود ولم يعد ثمة من أثر يدلُّ إليها، سوى وصف الهمداني لمنازلها في مرتفعات سرو حمير. وكما هو واضح من الوصف الطويل؛ فإن القبيلة أقامت مع بطون من يافع حيث أعطت هذه، اسمها للموضع المعروف بيافع - يافع عند يشوع. أما سبط أشير، حسب قصيدة دبورة الكاهنة والنبية فإنه سار نحو الساحل ليقيم هناك. وفي الواقع يؤيد التاريخ اليمني القديم هذا التصور عن وجود قبيلة أشعر- ءشير على الساحل اليمني، بينما لا يوجد ما يدعم مثل هذا التصور في التاريخ الفلسطيني القديم؛ فليس ثمة من أثر لسبط ءشير على ساحل المتوسط. وفضلاً عن هذا كله فقد قام المترجمون بإعطاء المكافئ العربي التالي: وفي موانيه سكن، للجملة العبرية (عل- مفرضيو- يشكن). وفي الواقع ليس ثمة موانئ سكنت فيها قبيلة أشير بالمعنى المخيالي في هذه القراءة؛ بل ثمة فراض (مفرضيو[١]- الفروض). والفراض أو الفروض عند قبائل العرب القديمة هي كل مَشْرعة على النهر أو البحر. كما أن الفراض اسم موضع في الساحل اليمني حيث أقامت قبيلة أشعر كما سنرى. هذه الصور الاستشراقية عن سكن الجماعات القبلية، ينْبَني بفهم مُضلل لأسماء المواضع. أنشد ابن الأعرابي (لسان: مادة فرض: ٢٠٦):

كأنْ لم يكن منا الفراضُ مظنَّة ولم يُمسِ يوماً ملكُها بيميني

---

(١) الميم في أول الاسم كما هو واضح لا وظيفة لها.وتبدو غير مفهومة ضمن قواعد اللغة العبرية، لكنها تبدو مفهومة حين نعود بها إلى طفولة هذه اللغة لنلاحظ أنها من بقايا أدوات التعريف (ءم- رجل، في الرجل، ءم بعير، في البعير).

لقد استعملت القبائل العربية كلمة الفراض في معرض توصيف المَشْرَعة من الماء حسب قول الأصمعي؛ ومن الواضح أن الكلمة هي ذاتها في العبرية. والفراض عند الهمداني (صفة: ٣٥٨) قرب مخلاف رداع في نجد حمير. يقول الهمداني في وصف بلاد الأشعريِّين وعك وكنانة (أشير، عك، كنعانيين في التوراة على التوالي) (صفة: ٨٥) ما يلي:

ذلك أن جبل السراة -سراة اليمن - أعظم جبال العرب وأذْكرها؛ أقبلَ من قعرة اليمن. (...) وهو هابط بين نجد وهو ظاهر فصار ذلك الجبل في غربيه إلى أسياف البحر من بلاد الأشعريِّين وعكّ وحكم وكنانة.

ها هنا بلاد أشعر-ءشير على الساحل اليمني الطويل حيث تقيم بطون من كنانة، ولنلاحظ الترابط بين عكّ والأشعريين في هذا الوصف، لأننا سنراه في نصِّ سفر القضاة الذي يتحدث عن الصراعات الناشبة بينهما، كما يتحدث عن الصراع ضد كنانة (كنعن). والآن، إذا كان سبط أشير أقام في الساحل وسبط دان في المرتفعات؛ فإن سبط زبولن أختار موضع الحرف وماوة.

تعطي النسخة العربية من التوراة ترجمة غير مقبولة للجملة التالية في القصيدة: زبولن-عم-حرف- نفشو-ل- موت. (وزبولن شعب خاطر بنفسه للموت). وهذه جملة لا تنسجم مع أجواء القصيدة التي تتحدث عن أماكن إقامة الأسباط، ولا تتحدث عن الحرب. تقول الجملة - حسب ترجمتنا -ما يلي: (وزبولون استراح - استقر- في حرف وماوة). ها هنا موضعان معلومان يتصل أحدهما وهو الحرف بسراة اليمن من جهة جبل قُدم، حتى جبل الشرف المُطل على تهامة، فيما يتصل الموضع الثاني ماوة -موة

بالعبرية، وهو واد كبير من أودية ذمار؛ بسلسلة من الأودية الشهيرة منها وادي صيدَ. إليكم ما يقوله الهمداني عن حرف و قُدم (قدم عند يشوع، وانظر صفة جزيرة العرب: ١٢٥-١٢٩):

والحتر ومسور والعرّ، وشرس وأرض أدران ثم يتصل بهذه السراة، قُدم، والحرف، فذاهباً إلى جبل الشرف المطل على تهامة... ثم يتصل بهذه السراة سراة عذر وهنوم فبلد الشاكريِّين (...) ثم يتصل بها سراة خولان فالعرّ وخلب.

في هذا النص تتوضح معالم الصلات الجغرافية بين المواضع التي أقامت فيها القبائل اليمنية المهاجرة. ها هنا العر، حيث أقام فيها سبط ذان-دان، وها هنا مساكن يشكر- الشاكريين، وها هنا الحرف التي أقام فيها سبط نفتلي. وأخيراً: ها هنا وادي خلب الذي سنراه في المقطع التالي من سفر القضاة. ليس ثمة نشيد انتصار بكل يقين؛ بل هناك تصوير أدبي لهجرة القبائل وبلوغها أوطانها التاريخية التي عُرفت بها. كما يتضح من هذا الفهم للقصيدة أنها تتحدث عن مواضع إقامة سبط زبولون، ولا تتحدث عن مغامراته ومخاطرته بحياته. أما سبط نفتلي فقد أقام عند مروم. هاكم ما يقوله النصُّ العبري بوضوح: (ونفتلي-عل-مروم-شكن). إن الترجمة العربية السائدة وبدلاً من أن تعترف بعجزها عن فهم معنى مروم، وهي كلمة لا معنى لها في العبرية، تقول على العكس من ذلك ما يلي: (ونفتلي على مشارف الحقول). وفي الواقع؛ فإن كلمة مروم لا تفيد بالضبط معنى الحقول، بل لا يوجد- في العبرية- أي معنى للكلمة، مثلما يستحيل ترجمتها إلى حقول. والصحيح أن الكلمة الغريبة اسم موضع يدعى مرون - الميم والنون تتبادلان الوظيفة في العبرية-. هاكم وصف الهمداني لمياه مرون في المكان نفسه (صفة جزيرة العرب: ١٨٢ - ١٨٤):

والغول وهو لبني عبس من زوف، وللصقاعب أحلاف لهم من همدان، والمرون، لبني ثماد من سبأ وهم أحلاف لبني عبس ودعوتهم معهم. فهذه أرض زوف في الميمنة وما والاها إلى حدود يافع.

هاهنا مياه المرون التي تمر قرب حدود يافع، في الفضاء الجغرافي ذاته لسكن القبائل اليمنية المهاجرة. ولذا يمكننا أن نلاحظ في النصِّ الآنف، أن مياه المرون التي اختارها سبط نفتلي كمنازل له، هي في قلب تجمع من القبائل اليمنية المتحالفة غير بعيد عن المساكن التي أقام فيها سبط دان وشاكر.

معركة هر-مجدّو ضد بني كنانة
إعادة بناء الرواية التوراتية

أريد أن أختم هذا الجزء من الكتاب بتقديم توضيحات أولية؛ بصدد ما يُزعم أنها "معركة تاريخية" وقعت ذات يوم بعيد من تاريخ إسرائيل، في مكان مجهول لم يُعثر له على أي أثر يدعى (هر- مجدو) أو في صيغة أخرى (ميم- مجدو: مياه مجدو) والغرض من هذه التوضيحات، تكوين أرضية أكثر صلابة لرفض هذه الخرافة الاستشراقية وإخراجها من الثقافة والتاريخ. إن إعادة بناء الرواية التاريخية عن ما يدعى (معركة هر- مجدو) يستلزم مثل هذه الملاحظات الأولية. وسوف نعود مراراً إلى هذا الموضوع في فصول الأجزاء القادمة. لقد أنشأت القراءة الاستشراقية للتوراة، صورة أثيرة لمعركة لم تحدث في التاريخ الفلسطيني قطُّ هي معركة مجدّو. ثم قامت بتصعيدها شعرياً استناداً إلى فرضيات لا أساس لها عن مكان (موضع) لا وجود له في فلسطين يدعى ساحل أو مياه مجدو. إننا لا نعرف مجدّو هذه كما في قصيدة دبورة إلى جوار موة والحرف، أو غير بعيد عن مياه المروم والعرّ وسواها مما ذكرناه آنفاً. والساحل الفلسطيني لا يحتفظ بصيغة، مهما كانت مشوَّهة، لأسماء يمكن مماثلتها أو مقاربتها بأيِّ صورة من الصور مع الأسماء الواردة في نصوص التوراة. وبينما يمكن للمرء أن يشاهد منازل القبائل نفسها يشكر، ودان، والفتول- نفتل وزبولن في سراة اليمن الممتدة على طول ساحل بني مجيد - مياه بني مجيد- حيث أقامت بطون من كنانة ومُضَر؛ فإن بوسعه كذلك رؤية المواضع نفسها التي كانت مسرحاً تقليدياً لصدامات القبائل على الساحل اليمني. يقول نص القصيدة: إنَّ المعركة حدثت عند موضع تعنك.

وهذا الاسم لا وجود له في فلسطين على وجه الإطلاق. ولكن وقبل تحديد الموضع ورسم إطار تاريخي للمعركة كما رواها الإخباريون العرب، سوف نتوقف أمام اسم المكان تعنك -تعناك في الطبعة العربية من التوراة-بالمدِّ. يقع وادي تعنق، كما سجله الشعراء الجاهليون في قصائدهم، ضمن بلاد غطفان القبيلة اليمنية المعروفة؛ وليس هناك تعناك أو تعنق في فلسطين مهما فتشنا في خرائطها؛ كما لا يُعرف وادياً من الأودية التي اشتهرت بغزارة مياهها، وهذا كما نعلم من تاريخ الصراعات القبلية، مصدر من مصادر إنتاج التوترات والحروب التي تدور أصلاً، في نطاق التنافس على الموارد الخصبة. قال جميل (الديوان: ١٤٧-ط: مصر، والبكري - ط: بيروت ١٩٩٨ : ١ : ٢٨٢) واصفاً الوادي في سياق التقاليد الثقافية القديمة المستمرة:

وقد حال أشباهُ المُقَطَّمِ دونها وذو النخل من وادي قَطاة وَتعْنَقُ

يضع بيت شعر جميل هذا، وادي تعنق على مقربة من وادي قطاة - قطة عند يشوع - انظر ماكتبناه في مطالع الفصل الثاني- أي في ما يُدعى بروض القطا. وقال زهير بن أبي سُلمى:

صحا القلب عن سَلمى وقد كاد لا يَسْلُو وأقْفَرَ من سَلْمى التعانيقُ فالثجلُ

يعلق البكري على البيت بقوله: وقالوا: تَعْنق على الإفراد. هذا هو الوادي الذي سجلت قصيدة دبورة اسمه، وعاد زهير ثم جميل إلى استذكاره في إطار تقاليد تدوين أسماء المواضع. وكما حفظ لنا الشعر أسماء المواضع في صيغها الأصلية؛ فإن الروايات الإخبارية العربية حفظت لنا بعض الوقائع والحروب، ومنها الواقعة الخاصة بهزيمة سبط زبولون أمام الكنانيِّين. يروي البكري (١ : ٣٠٩ من ط: بيروت) هذه الرواية:

لما خرجت أياد من تهامة، نزلوا ناحية النجد (....) ثم ساروا حتى نزلوا زُبالة فنفوا من حولها من الناس.

إننا لا نعلم أي شيء عن هذه المعركة التي أخرجت سبط زبولون من التاريخ، ومكَّنت قبيلة أياد من أن تقيم بين أرض مُضَر إلى حدِّ نجران (البكري: ١: ٢١). ومع ذلك؛ فإن الرواية الآنفة والتي تتكرر في المصادر الكلاسيكية العربية، تعرض تصوراً نمطياً ولكن مقبولاً في النهاية لصراعات قبلية دامية على المكان. في إطار هذه الهجرات الحربية، يروي الكتاب العرب القدماء ما يلي (البكري: ١: ٥٢): أن بني مجيد أصبحوا قبيلة من قبائل الأشعريين كما دخلوا في عكّ:

(وصار بنو مجيد في الأشعريين قبيلة من قبائلهم وقال آخرون: هم في عكّ).

يعني هذا، أن الواقعة التي سجلتها قصيدة دبورة عن وصول بني مجدّو إلى الساحل اليمني، والذي سوف يعرف باسمهم ثم انصهارهم في قبيلة الأشعر؛ قد اقترنت بمعركة ضارية ضدهم في وادي تعنق-تعنك وفي الساحل. إننا لا نعرف معارك من هذا الطراز ولا هجرات حربية الطابع، تُخرج قبائلَ من التاريخ عبر الدمج أو الانزياح إلى البادية. كما لا نعرف هذه الأسماء إلا في إطار التاريخ اليمني القديم وليس الفلسطيني. وهذا ما سوف نقوم بتوضيحه مع المقطع التالي من سِفر القضاة. رأينا مما سبق؛ كيف وصفت الروايات العربية الكلاسيكية هجرة الأشعريين ووصولهم إلى الساحل اليمني، حيث تقيم بطون من كنانة ورأينا، كذلك، صوراً مُتطابقة عن المعارك. والآن إليكم ما يقوله سِفر القضاة ١: ١٦: ٣٢:

ءشير - لء-حوريس-ءت-يشبي- عكو-وءت-يوشبي-صيدون-وءت- ءحلب-وءت-ءكزب-وءت-ءحلبه وءت-ءفيق-وءت-رحب-ويشب-ها-ءشري-ب-قرب-ها-كنعني.

يقول النص ما يلي:

(ولم تطرد أشير أهل عكّ وصيدَ وءحلب وأكزب وحلبه وأفيق ورحب. فأقام الأشيريون قرب الكنعانيين).

ليس ثمة نصّ، في الأدب التاريخي المكتوب والمعروف، يمكن أن يُضاهى بهذا النص لجهة تضمنه الأسماء الآنفة، سوى نصِّ الهمداني التالي (صفة: ٩٦-٩٧) الذي يصف مدن الساحل اليمن وتهامة حيث نزلت قبيلة الأشعر وعكّ وبنو مجيد:

والمندب لبني مجيد (......) والحُصيب للأشعريِّين وقد خالطهم بنو واقد من ثقيف، وقرى بواديها حيس وهي للركب من الأشعر(...) الكدراء مدينة يسكنها خليط من عكّ. والأشعر وباديتها جميعاً من عكّ ثم الساعد من أرض حكم (....)على وادي خُلب.

في هذا النصّ لدينا اسمي أشعر وعكّ، وخليط من القبائل الأخرى.كما نعثر على وادي خُلب- ءحلب في الامتداد الطبيعي للمنازل. يعني هذا أن إشارة سِفر القضاة إلى إقامة القبائل في مكان واحد، ومن دون أن تقوم قبيلة الأشعر- ء شير المرهوبة الجانب بإزاحتهم أو نفيهم من المكان؛ إنما هي تأكيد لواقعٍ تاريخيٍّ قائم ويمكن اعتمادها كواقعة حقيقية، ذلك أن سائر الجماعات عاشت في المكان نفسه ولم تقع أي

عمليات إزاحة باتجاه البادية. في نصٍّ موازٍ يكرر فيه الهمداني الوصف الآنف (صفة: ٢٣٢-٢٣٤) نعثر على مواضع جديدة ذكرها سِفر القضاة:

والحُصيب كورة تهامة وسواحلها المندب والمخا ساحلا بني مجيد (...) ويخلط الأشعر في هذه البلاد شُرَيْذمة من واقد (....) و (ووديان). مور عكية ووادي خُلب (..) ثم بلد حرام من كنانة (...) وحلبا لبني مالك بن شهر قبلة الحجر. (..) ثم سدوان وادٍ فيه قرية يقال لها رحب لبني مالك بن شهر.

ها هنا الأسماء نفسها تماماً كما في النص العبري: خُلب- حلب، حلبا- ءحلبه،رحب-رحب، فضلاًعن قبائل الساحل كنانة والأشعر وعك. بهذا المعنى تصبح إشارة سِفر القضاة عن إقامة الأشيريين بالقرب من الكنعانيين مفهومة. إن الساحل الفلسطيني لا يعرف المواضع الآنفة ولا القبائل التي أقامت فيها. ختاماً: لم تقع معركة هر- مجدو في مكان مجهول أو غامض؛ بل في مكان معلوم وبين قبائل عربية- يمنية عاشت طفولتها البعيدة في الساحل. لقد قرأ الغربيون (بمخيالية عالية) تاريخنا وتاريخ قبائلنا، وقدموا تهجئة خاطئة للأسماء؛ لكنهم وبفضل التحريف المنظَّم، اختلقوا تاريخاً جديداً لا وجود له وصنعوا معارك لم تقع وخلقوا أبطالاً لم يعرفهم التاريخ. إن إعادة بناء الرواية التوراتية عن معركة هر- مجدو المختلقة، يمكن أن تمهد السبيل أمام تقديم قراءة عربية جديدة من دون مخيال، ولكل ما ورد في التوراة، بوصفه أخبار وأشعار ومرويات قبائل اليمن في طفولتها البعيدة يوم كانت تعتنق ديانة بني إسرائيل.

الجزء الثاني

القدس ليست أورشليم

تمهيد

الفصل الأول: حروب داوود في اليمن

- لغز بلاد البونت
- مرثية داوود في مصرع يونتن ابن الملك شاول
- معركة جبع ومدخل جازر
- من معلاة الزيت إلى وادي الرّس
- معركة رحوب ويوم (حلمه)
- مواضع توراتية وصفها صموئيل والهمداني
- معركة بعل فراصيم ضد الفلسطينيين المتخيلين

الفصل الثاني: معركة حصن صهيون قرب نجران وسقوط أورشليم اليمنية

- تلفيق معارك داوود على الفرات

الفصل الثالث: هزيمة داوود أمام الملك شاول وهروبه

الفصل الرابع: فتح أريحا اليمن والاستيلاء على العيّ الهمدانية

- صراع النجد والساحل
- استراحة المحاربين في دارة جلجل
- من أريحا التوراة إلى بيت ءون
- مملكة حصور ومملكة مدون
- أريحا التوراة وسهل عكور

الفصل الخامس: حملة نبو خذ نصّر على القبائل العربية وبني إسرائيل في نجران

الفصل السادس: شعوب وقبائل التوراة

خلاصة

تمهيد

سيكون من قبيل المفاجأة غير المتوقعة؛ وربما المثيرة للدهشة والاستغراب بصورة يصعب وصفها، أن يتوقف القارئ أمام الحقيقة التالية التي يكشفها هذا الكتاب: إن أورشليم التي سقطت في يد الملك داوود - في التوراة- ليست القدس العربية، وفوق ذلك ليست في فلسطين التاريخية؛ بل هي أورشليم (أورسلم) السراة اليمنية كما وصفها الهمداني والشعر الجاهلي. وأن جبل- حصن صهيون ليس في فلسطين التاريخية، وإنما في سراة حمير. وسيكون مثيراً للدهشة، حقاً، حين نعلم اليوم أن اسم هذا الجبل حرفياً- صهيون- قد ورد في شعر الأعشى (أعشى همدان) في قصيدة شهيرة حذر فيها سادة نجران المسيحيين من بني كعب، من حرب ظالمة ومدمِّرة كان الملك اليمني اليهودي ذي نواس الحميري يحضِّر لها في عام ٥٢٤م؛ وهي حرب عرفها التاريخ المكتوب باسم حرب (اضطهاد النصارى) في نجران، وذكرها القرآن الكريم في آية (الأخدود) من سورة البروج. ومن ثم؛ فإن جبل صهيون لم يكن أبداً في فلسطين وهي لم تعرفه في أيّ وقت من تاريخها. وإلى هذا كله؛ فإن القدس التي تصفها التوراة ليست أورشليم وليست قدس فلسطين؛ بل قصد بها جبل قدس في اليمن؟ وأكثر من ذلك أن التوراة لا تصف قدساً واحدة؛ بل ثلاثة أماكن كل منها يدعى قدس. وليس ثمة مكان على وجه الأرض فيه ثلاثة أماكن يدعى كل منها قدس، سوى أرض اليمن التي وصفها الهمداني.

ولسوف يكون مثيراً للاهتمام والجدل، أكثر من كل هذا أن يبرهن الكتاب على أن حملة نبو خذ نصّر لم تتجه إلى فلسطين قطّ؛ بل إلى السراة اليمنية لتأديب القبائل العربية البائدة ومنها قبيلة بني إسرائيل، وما يدعى بالسبي البابلي -وهو حادث تاريخي لا شك فيه- لم يقع على أرض فلسطين، كما أوهمنا المؤرخون، وإنما وقع في نجران وعدن وصنعاء.

كما سيثير القسم الثاني من الكتاب مسألة فتح أريحا على يد يوشع بن نون، مثلما قصَّتها التوراة، ليبرهن أن أريحا هذه ليست سوى أريحا اليمن، وأن الوصف الذي يقدمه محرر النصوص التوراتية للمدينة، لا ينطبق على أريحا التاريخية كما عرفها القدماء والمعاصرون ولا بأي صورة من الصور.

كما لا وجود لأي مكان من الأماكن الواردة في هذا الوصف قرب أريحا العربية، وأن (معركة العيّ) التي يتحدث عنها يشوع لا وجود لها في التاريخ الفلسطيني، بل هي معركة دارت في جبال ومرتفعات اليمن. لقد عرف القدماء أريحا بوصفه اسم حيّ من العرب واسم مكان معلوم، ورد ذكره في الشعر العربي القديم، بوصفه ميدان معارك بين القبائل العربية- اليمنية البائدة. لأجل كل ذلك سعى الكاتب إلى إعادة تركيب التاريخ التوراتي ليبرهن على أن الدعاوى الاستشراقية التوراتية، السائدة والمنتشرة بكثافة وقوة، لا أساس لها - أصلاً- في التوراة ذاتها، لأن التوراة لم تذكر اسم فلسطين أو الفلسطينيين ولم تأت على ذكرهم بأي شكل من الأشكال. ومثل هذا الهدف وفي حدود العلم؛ غير قابل لأن يفهم بطريقة مغلوطة ملتبسة ومتعمدة، بحيث يخرج قارئ أو كاتب هاوٍ، محتجاً (ومُسيَّساً) على ما يطرحه الكتاب من أفكار ومعطيات، فيزعم ومن دون دليل أن الكتاب يعطي الذريعة للمُطالبة بأرض اليمن من جانب

المهووسين بالتوراة؟ وإذْ يحذر الكاتب من إساءة فهم الكتاب ومقاصده؛ فإنه ليؤكد بأقوى العبارات أن اغتصاب فلسطين بدعاوى توراتية كان وما يزال أشنع عمل يمكن أن يرتكب باسم الحق التاريخي المزعوم. ويستنتج الكاتب من قراءة عربية جديدة استناداً إلى النصّ العبري مباشرة ما يلي:

إن التوراة التي بين أيدينا اليوم هي نتاج تلاعب بالأسماء الحقيقية أسفرت عنه نشاطات الاستشراق الكلاسيكي، وأن جهود أجيال متعاقبة من المؤرخين وعلماء الآثار التوراتيين والدراسين والكتاب انتهت إلى تزوير الكثير من مرويات التوراة وتأويلها تاويلاً مغلوطاً، وأن كل ما ورد من أسماء لأماكن ومواضع وشخصيات وأسماء قبائل، لا وجود له البتة في التاريخ الفلسطيني. إن الهمداني الذي يُعيد الكاتب اكتشافه وتقديمه للقراء المعاصرين، هو مَنْ وصف - قبل مئات السنين من مولد مؤلف هذا الكتاب- وبدقّة متناهية، كل ما ورد من أسماء أماكن باعتبارها أماكن القبائل العربية اليمنية، التي دان بعضها - في وقت من التاريخ- بدين اليهودية. لقد ولدت اليهودية التاريخية في اليمن القديم ولم تولد في أمريكا الشمالية. والنبيّ موسى لم يكن كندياً أو أسترالياً بكل تأكيد، كما لم يكن داوود بطلاً سويدياً أو أميراً دانمركياً، بل كان بطلاً شعبياً - ولا يزال- في الثقافة اليمنية والعربية القديمة، الراسبة والمستمرة؛ مثله مثل سائر أبطال قصص العهد القديم.

هذه بعض الاكتشافات التي توصل إليها الكتاب، وهي مطروحة للنقاش بين أهل الاختصاص والباحثين وجمهور المهتمّين والقرّاء؛ وهي كما يُلاحظ، استطراد في الاكتشاف الذي قدّمه المؤلف في الكتاب السابق.كل ما يرغب به المؤلف أخيراً وفي هذا السياق، أن يحظى من الجميع قرّاء وباحثين وكتاب تاريخ، بقراءة موضوعية متأنية وعميقة

لكتابه، تتناسب والجهد الذي بذله في التنقيب داخل المصادر؛ فتلك أكبر مكافأة يمكن له ولكل باحث أن يحصل عليها.

الفصل الأول

حروب داوود في اليمن

إعادة بناء الرواية التاريخية لأحداث

سفري صموئيل الأول والثاني

(النصّ العبري)

لو عاش الطبري في عصر داوود (التاريخ الافتراضي: ٩٦٢ ق. م أو قريباً من هذا التاريخ) لترك لنا، على جري عادته في كتابة الوقائع، نصّاً دقيقاً وموثوقاً به في مؤلفهِ الضخم سيَر الملوك، عن حروب بني إسرائيل التي سجلتها نصوص التوراة المُتأخرة هو التالي:

ذهبَ داوود إلى منازل قبيلة يهوذه- هَوْذَة- مع رجاله ونسائه بعد وفاة الملك شاول- ساول، وأقام في حبرون حيث مُسِحَ هناك ملكاً على بيت يهوذه. استمر حكم داوود ملكاً على بيت يهوذه في حبرون سبع سنوات وستة أشهر؛ لكن قائد جيش الملك المتوفى شاول - ساول ويُدعى ءبن ءير بن نير، قادَ تمرداً عسكرياً ضد داوود، فسار برجاله من محنئيم إلى جبعون، حيث اصطدمَ هناك في معركة ضارية برجال داوود بأمل الاستيلاء على الحكم. بيد أنء بن ءير هُزِمَ في هذه المعارك، فطارده

رجال داوود ولاحقوا جنوده بين الجبال والوديان. سار ءبن ءير بعد هزيمته أمام داوود في وادي ها- عربه، ثم طافَ حول بترون قبل أن يعود ثانية إلى محنئيم التي انطلق منها. وبذلك استعرت الحرب من جديد بين البيتين المُتنازعين على ميراث شاول - ساول. ونشبت حرب ضروس بين بيت يهوذه الذي ينتسب إليه داوود، وبيت بن يامن الذي ينتسب إليه الملك شاول- ساول (وينتسب إليه ءبنءير قائده العسكري). في النهاية توقفت الحروب بين البيتين المُتنازعين وحصل داوود على معاهدة صلح يقوم بموجبها ءبن ءير علناً، بالاعتراف بداوود ملكاً على كل إسرائيل. وبالفعل تمَّ إبرام المعاهدة في حبرون مقر إقامة داوود.

كان داوود في الثلاثين من عمره، حين تمكن من جمع أسباط بني إسرائيل واعتلاء العرش. وبعد أن تمّ له ذلك قرَّر الزحف نحو أورشلم (أورشليم) لينتزع حُصن صهيون- صيون، ثم بنى حوله أسواراً تمتد من مكان يدعى ملّو. سمعت قبائل الفلستيم- الفلس، وهم قوم من طي عبدوا إلهاً وثنياً يدعى الفلس وأخذوا اسمهم منه؛ بنبأ صعود داوود ملكاً في بني إسرائيل ثم زحفه نحو أوري سلم- أورشلم. ولذلك استعدَّت لصدِّ محاولات تقدم قواته فقامت بشنّ بعض الهجمات. وسرعان ما اندلعت أولى المعارك بين الطرفين في وادي جازر الذي كان يُدعى عُزا. لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحدّ؛ بل سرعان ما تفجَّرت سلسلة من المواجهات والمعارك شاركت فيها جماعات أخرى، كانت تشعر بالتهديد الذي مثَّله صعود داوود آنئذٍ. في هذه الأثناء تحرك هدد بن عزر بن رحوب ملك مخلاف صوبه، نحو موضع يُدعى ءفراة-فَراة، حيث حصل هناك على دعم غير محدود من القبائل الإرمية المجاورة الكارهة لداوود والخائفة من صعوده. ومع ذلك تمكن داوود من إلحاق الهزيمة بهذا التحالف الفضفاض بسرعة غير مُتوقعة. وحين انتشرت أنباء هذه

الانتصارات سارع ملك دويلة صغيرة تدعى حمت، لإعلان الولاء التام لداوود مُتجنباً بذلك هزيمة مُحقَّقة. كانت أكبر معارك داوود في هذه الآونة تدور في وادي بنا - الملح ضد القبائل الإرامية، إذ تمكن من إزاحة خصومه وتنصيب أحد عماله والياً على منطقة جبل أدوم، ليصبح سكان أدوم من رعايا الملك الجديد داوود. وبعد وقت قصير من استتباب الحكم لداوود في المناطق المُستولى عليها، جاء ت أنباء غير متوقعة: فقد توفي ملك بني عمون أكثر خصومه شراسة في مملكة ربة المنافسة. ولذا بادر داوود على الفور إلى إرسال موفدين يحملون طلباً صريحاً، إلى الوجهاء والرؤساء في بني عمون، بالتريث في مسألة اختيار ملك جديد حتى ينظر هو في أمرهم. كما طلب منهم لهذا الغرض ترتيب لقاء بين الطرفين في حيّ يريحو.كانت ربّة عاصمة العمونيين، مركزاً دينياً وثنياً وحلماً يراود داوود منذ صعوده ملكاً في سراة يهوذه؛ ولذا بدا موت الملك العموني فرصة لا تُعوض بالنسبة إلى ملك شاب وطموح. بيد أن وجهاء بني عمون سارعوا إلى إعلان الحرب على داوود، ورأوا في مسألة تنصيب ملك عليهم إهانة بالغة، موجهة إلى معتقداتهم الدينية واستقلالهم في الصميم. تمكنت ربّة في غضون وقت قصير، من تجميع قوة عسكرية كافية لإعلان الحرب وخوضها؛ فقد تلقت مساعدة مباشرة بالرجال والسلاح من ملك قبيلة معكه- العكا (والميم أداة التعريف المنقرضة) ومن ملك قبيلة طوب، وهما قبيلتان إرميتان (من القبائل الإرمية) كانتا لا تزالان تشعران بالإهانة جرّاء هزيمتهما أمام داوود. وعندما تناهت أخبار هذه الحشود إلى أسماع داوود، بادر إلى قيادة هجوم مُباغت في موقع يدعى حلمه مُرغماً خصومه على خوض معركة جديدة وقاسية. مع الربيع اندلعت معارك أخرى بين الطرفين انتهت بحصار ربّة. في هذا الوقت زفَّ أنصار داوود بشرى ولادة ابنه سُليمان.

وفي وقت لاحق؛ نجح أحد حلفاء داوود في الاستيلاء على المزيد من المواضع، التي انزاح عنها العمونيون في وادي مالك وفي ربّة ذاتها. وبذلك نجح داوود في إخضاع بني عمون لسلطانه وفرض سيطرته على أراضيهم ومُعتقداتهم. وكان لداوود ابن يُدعى أب -سالم- أبشالم[1]، وبنت تُدعى تمرة-تمارة من إحدى زوجاته؛ وكان له ابن آخر يُدعى آمنون من زوجة أخرى. فأحبَّ أب - سالم هذا، أخته الجميلة وغير الشقيقة واغتصبها رغم أنها توسلت إليه؛ أن يطلب يدها من والدهما الملك. سمع داوود بهذا الأمر فغضب غضباً شديداً. كانت هذه الواقعة بداية انشقاق كبير في الأسرة الحاكمة. ولكن وبعد سنتين من الجفاء بين الملك وابنه جاء أب -سالم- أبشالم وطلب من والده الملك أن يسمح له بالاشتراك في الحروب التي اندلعت، عندئذٍ، ضد ملك مخلاف حصور. رفض الملك طلب ابنه خوفاً عليه من الموت؛ بيد أن الشاب فاجأ والده بأن طلب السماح له باصطحاب أخيه آمنون في الحملة على حصور. فتساءل الملك داوود: ولماذا يريد من آمنون أن يذهب معه إلى الحرب؟ وتحت تبريرات وإلحاح الشاب على المشاركة في المعارك، وافق الملك مُكرهاً على قيادتهما سوية الحملة على حصور. كان أب- سالم- أبشالم يضع في الواقع، آخر اللمسات على خطته للتخلص من حكم والده الملك داوود؛ ولهذا الغرض وفي أثناء الاستعدادات للحرب أعدّ مأدبة طعام كبرى لأخيه، وحين حضر هذا، كان خدم أب- سالم يُجهزون عليه حتى الموت بأوامر من الأخ المتآمر. ويبدو أن الخطة لم تكن تسير في الاتجاه الذي رغب به؛ ولذا فرّ أب- سالم- أبشالم بعد قتله لأخيه إلى جشور-جشر، ومنها إلى أور-سلم- أورشليم، تحسباً من انتقام والده. وبعد

---

(١) حتى اليوم لايزال هذا التقليد اليمني - العربي القديم مستمراً وتشهد عليه طريقة تسمية المواليد الأسماء (باسالم، بابكر).

عامين على هذا الحادث، أرسل الابن القاتل رُسلاً إلى والده الملك يطلب المغفرة مرة أخرى. ولم تمضِ أيام حتى كانت المُصالحة تتم بينهما. بيد أن الشاب القاتل وبعد وقت قصير من وجوده في البلاط، قام سرّاً ببناء جيش خاص يتبعه مباشرة، مكّنه من التدخل في كل شأن. وبعد أربع سنوات طلب أب- سالم- أبشالم من الملك داوود، أن يسمح له بزيارة حبرون فتمَّ له ذلك. كان الشاب قد جهز خطة جديدة للتمرد على حكم والده فور وصوله؛ إذْ ما أن بلغها حتى نادى رجاله في الناس: أن أب- سالم هو الملك في حبرون وليس داوود. وبعد وقت قصير تمكن الشاب المُتمرد من استمالة أعداد غفيرة من الناس حوله نادت به ملكاً. وحين سمع داوود بأنباء الزحف الحربي الذي قام به ابنه، هرب هو ورجاله من أور-سلم- أورشليم، تاركاً في قصره المهجور نحواً من عشر نساء، هُنّ سراريه وزوجاته؛ وكان مع داوود في أثناء فراره رجال كرتيون وفلستيون وحثيون هم من خيرة رجاله. عبر الملك في البداية وادي قدرون، قبل أن يأخذ طريقه نحو البادية (في العبرية: ها- مدبره) مُتجهاً صوب جبل الزيت -ها-زيتيم ثم الرسه- ها-رسه، وأخيراً بلغ بحوريم. أما أب-سالم أبشالم فزحف نحو أور-سلم التي استسلمت له بسرعة مُذهلة، فكان أول عمل قام به بعد سقوط المدينة، هو هتك أعراض نساء أبيه وزوجاته وسراريه؛ إذْ قام بمضاجعتهنّ على مرأى من الناس المتجمهرين في القصر. ويبدو أن بعض رجال داوود تمكن من التسلل إلى مواضع قريبة من أور-سلم، فقد وصل رجلان من رجاله إلى عين رُجل (في العبرية: عين روجل) في حوريم، وقامت امرأة بمساعدتهما على الاختباء في جوف بئر. بعد ذلك زحف داوود بعد أن تمكن من إعادة تجميع قواته، نحو محنئيم. وسرعان ما تلقى دعماً من الحامية العسكرية التي تركها في ربَّة العاصمة العمونية، كما حصل على مساندة مماثلة من سكان رُجليم- روجليم. وبذا أصبح بإمكان داوود ترتيب صفوفه تمهيداً

للمعركة الفاصلة ضد ابنه أب-سالم. اصطدم داوود مع ابنه في أولى المعارك عند سفوح جبل ءفرئيم أسفرت عن اندحار قوات الابن المُتمرد، الذي جرت مُطاردته عندئذٍ في المُرتفعات القريبة. ولم تنته هذه المعارك فعلياً إلا مع وصول أنباء مُفاجئة عن مصرع أب- سالم بطريقة غامضة. ولكن وعلى الرغم من هذا الانتصار اللامع، فقد غرق داوود في حزن عميق على مصرع ولده. بعد ذلك عاد الملك إلى سلسلة جبال يهوذه عبر جُلجُل- جلجال مُسترداً عرشه المُغتصب. مع نهاية هذه الحقبة الطويلة والدامية زحف داوود نحو سلسلة مواضع منها يعزر- يعزير وجبل جلعد-جلعد وأرض الحثيين في قدش - قَدَس ودوعن- دان-يوعن، وما حولها حتى صيدون، ثم صور وأخيراً نقب يهوذه وبئر شباع - بئر شباع حيث استقر في أور-سلم بعد تسعة أشهر من ذلك.

في الواقع لم يترك لنا الطبري مثل هذا النص في مؤلفه المعروف بتاريخ الطبري؛ ولكنه كتب نصّاً سردياً عمومياً ومُهذباً؛ إلى الدرجة التي يتعذر معها استخدامه في الاستدلال إلى مواضع وأماكن كانت، ذات يوم، مسرحاً لسلسلة الحروب الدامية. وما عدا سرده لسيرة النبي داوود على طريقة قدماء الإخباريين العرب والمسلمين؛ فإن الطبري لم يُسجل أسماء الأماكن أو المواضع الواردة في النص الآنف المأخوذ أصلاً من سفر صموئيل الثاني. لقد قمنا بإعادة كتابة النصّ لتسهيل الأمر على القراء، قصدَ متابعة خط الحملات الحربية، واكتشاف البُعد الاستشراقي في رواية التوراة كما قرأتها المخيّلة الغربية، حيث يُزعم أن فلسطين التاريخية كانت مسرح هذه الأحداث. وبصرف النظر عن صدقية الأحداث ومقدار تطابقها مع الحقيقة التاريخية، ومن دون التوقف عند البُعد المثيولوجي التقليدي في هذا النوع من السرد؛ فإنّ الأمر الهام - في هذا النوع من المرويات- إنما تسجيلها لأسماء مواضع وأماكن لا وجود لها في فلسطين على وجه الإطلاق. وبحسب هذا النص المُستلّ من سفر

صموئيل الثاني؛ فإن المواضع والأماكن التالية كانت هي المسرح الفعلي للحروب. ولأسباب تقْنية صرف، فسنقوم بإعداد قائمة مُختصرة تضم أسماء المواضع التي نرى أنها الأكثر أهمية؛ بينما سنورد ما تبقى من الأسماء في سياق التحليل وضمن المقاطع التي يُشير إليها النص العبري. ها هنا الأسماء كما في الترجمة العربية السائدة، وما يقابلها في الأصل العبري مع ضبطنا لها ضبطاً عربياً صحيحاً، مع التنويه إلى أننا سبق وأشرنا - في هذا الكتاب - إلى المواضع والأماكن التي لم نورد عنها شيئاً في تحليل هذا النص:

ط: العربية	الأصل العبري	الضبط العربي
حبرون	حبرون	حبرون
بئر سبع	بئر شباع	بئر شباع
صيّون	صيون	صيون
بحوريم	بحوريم	بحران
جازر	جازر	جازر
عُزّا	عزا	عزا
حبل	حبل	حبل
نهر فراة	ءفرة	فراة
حماة	حمت	حمت
وادي الملح	ملح	وادي الملح
أريحا	يريحو	أُريح
ربّة	ربة	ربّة
طوب	طوب	طُب
جيلم	جيلم	جلم

مدينة المياه	عير-ها- ميم	مضارب المياه
القمّة	ها- ءرس	الرس
الزيتون	زيتيم	الزيت
روجليم	روجليم	رُجلى
شعريم	شعريم	الشَعَر
الجلجال	جلجل	جُلجُل
جوب	جوب	جوب
بترون	بترون	بتران
العربة	ها-عربه	العرب
أدوم	أدوم	أُدم
بعل حاصور	بعل- حصور	حَضُور
رحوب	رحوب	رحوب
وادي قدرون	قدرون	وادي قدران
جشور	جشور	جُشير
حورونائيم	حورنئيم	الحواريان
بعل فراحيم	بعل- فرصيم	الفرصيم

يقول نص صموئيل عن بداية هذه الأحداث بعد إعلان داوود ملكاً ثم تمرد قائد جيش شاول عليه، ما يلي٨:٣ ٢٤: ٢عن النص العبري:

وءبنير-وءنشيو- هلكو- ب- عربه - كل - ها- ليلة - ها- هوه- ويعبر- ها - يردن- ويلبو-كل- ها- بترون-ويبءو- محنيم

ما يقوله النص الآنف هو التالي: وسارَ أبنير ورجاله طوال الليل في العربه، ثم عبروا اليردن وطافوا حول بترون ثم وصلوا محنئيم.

سنبدأ من الاسم الأكثر إثارة وتردداً في نصوص التوراة؛ والذي يُمثِّلُ نقطة الانطلاق النموذجية في رسم خريطة الأحداث: وادي ها-عربه. لقد جهدت الدراسات التوراتية في مطالع القرن الماضي باتجاه الربط بين أحداث سِفري صموئيل الأول والثاني وفلسطين التاريخية، وذلك استناداً إلى وجود اسم ها-عربه هذا، الذي جرى تخيّله على أنه وادي عربه الأردني، وبالطبع في سياق المُطابقات العشوائية والزائفة. ولكن؛ لما كان هذا الاسم يُسجَّل في نصوص التوراة ضمن مواضع وأماكن لها معالم جغرافية غير قابلة للتغيير، مثل الجبال والأنهار والوديان وهي في الغالب الأعمّ مواضع مُتجاورة؛ فإن وجود هذا الموضع إلى جوار الأماكن التي يذكرها النص التوراتي، في جغرافية اليمن القديم كما وصفها الهمداني والشعر الجاهلي، وليس في فلسطين التاريخية أو بلاد عسير، سيكون أمراً مثيراً يستحيل تجاهله أو ردّه إلى عوامل عرضية. إننا لا نعرف قطّ، موضعاً في فلسطين التاريخية يُدعى أريحا- يريحو، قرب وادي العربه وإلى جوار شعرئيم؟ ولكننا نعرف أريحا الفلسطينية على مقربة من القدس، وغير بعيدة عن البحر الميت؟ وإذا كان صموئيل-شموءل في روايته الشائقة للمعارك والحروب وتسجيله بدقة كل صغيرة وكبيرة يقصد من الاسم ها- عربه وادي العربة الأردني اليوم، حقاً؛ لتوجب عليه وضع الاسم في إطاره الجغرافي الصحيح. أي أن يقدم وصفاً صحيحاً له بدلاً من إعطاء أسماء أماكن لا وجود لها قرب وادي العربة الأردني. والأمر ذاته ينطبق على أريحا التوراتية؛ فإذا كان صموئيل يقصد منها الإشارة إلى أريحا فلسطين، فمن غير المنطقي أن يقول عنها: إنها قرب شعرئيم والرسة وربَّة؟ أو أنها لا تبعد كثيراً عن وادي حبل؟ فمثل هذه الأسماء لا تعرفها أريحا الفلسطينية ولم يسمع بها سكانها، ولم

تُدونها سجلات تاريخها الضارب في القِدَم؟ فهل حدث خطأ من نوع ما؟ وأين؟ وكيف جرت مطابقة هذه الأسماء مع جغرافية فلسطين مع أن لا وجود لها هناك؟.

تعني كلمة ها- عربة في اللغة العبرية: بادية؛ وفي بعض النصوص يُراد بها اسم علم، دالّ على مكان بعينه هو العرب - أي بلاد العرب القديمة. ولذلك؛ فإن التمييز بدقة بين المقاصد المباشرة للاسم، في كل حالة يردُ فيها سيكون أمراً حاسماً لجهة فهم النص برمته فهماً صحيحاً ومُتكاملاً. إن الوصف الذي يُقدمه صموئيل لوادي ها- عربة غير قابل للمُطابقة مع وصف الوادي الأردني؛ بل سيكون ضرباً من العبث والتلاعب بالحقائق الجغرافية القيام بمثل هذه المُطابقة، لسبب بسيط للغاية هو التالي: إن المعارك التي خاضها قادة جيش شاول-حسب الرواية التوراتية - ضد داوود المُطالب بالعرش، جرت في فضاء جغرافي يضم وادي ها- عربة الذي طافوا من حوله قصد بلوغ بترون. كما يضم محنئيم وبركة جبعون حيث نشبت أولى المعارك هناك. وهذه المواضع لا يمكن بلوغها إذا ما سرنا خلف خطا المتحاربين مُتتبعين أثرهم في فلسطين المُتَخيَّلة؛ بينما يمكننا الوصول إليها بسهولة إذا ما سرنا في وادي ها- عربة اليمني في أثر الجنود المحاربين أنفسهم؟

إن شهادة الهمداني حاسمة في هذا النطاق؛ فهو يسجل أسماء المواضع التي ستقود السائر- في الوادي نفسه - إلى الأماكن ذاتها كما سجلها صموئيل. يقع وادي عرْبَة- حسب ضبط ياقوت (: ٤ : ١٠٩) ضمن الفضاء الجغرافي لوادي نخلة الشهير، الذي تصبُّ إحدى تفرعاته جنوبي زبيد، كما أن مياه أودية الركب- ركبوت عند يشوع- تلتقي مع مياه وادي نخلة هذا في موضع يُدعى حيس إلى الجنوب من زبيد. وسوف نلاحظ تالياً أن سائر المواضع الواردة في صموئيل الأول والثاني، هي في

هذا الحيز الجغرافي، حيث عُرفت - قديماً- سلسلة من الوديان والجبال سجلتها أسفار التوراة، فضلاً عن الشعر الجاهلي ومراثي أشعيا وإرميا على حدٍّ سواء. يُعرف وادي عرْبَة في رسمه القديم هذا، باسم وادي العرب أيضاً. وهذا ما يتطابق تماماًمع الاسم العبري ها- عربة، بما أن حرف الهاء هو أداة التعريف في العبرية. إن الهمداني المُغرم بالتفاصيل الجغرافية يقدم وصفاً مُسهباً لوادي العرب، الذي يفصل بين جُبْلان ريمه- رمه عند يشوع وجبل بُرع في زبيد إلى الغرب من صنعاء. وأهم ما في هذا الوصف إشارات الهمداني إلى العلاقة الجغرافية بين وادي العرب وحضُور ووادي الملح (انظر القائمة- والخريطة ٤ وادي العرب وحضور).

وكما لاحظنا من نص صموئيل؛ فإن المعارك الدائرة وجزء من الحملات العسكرية، استهدفت بصورة مباشرة ما يُدعى مملكة حصور- حضور. إن فلسطين التاريخية لا تعرف وادياً يُدعى ها-عربة على مقربة من حصور. وإذا ما صدقنا المزاعم القائلة أن تل حاصور قرب القدس هو نفسه حصور التوراة، ففي هذه الحالة يصبح من المستحيل تقبل وصف صموئيل نظراً للمسافة الشاسعة التي تفصل بين المكانين. بل إن السائر نحو تل حاصور الفلسطيني؛ إنما يسير في الاتجاه المعاكس لوادي عربة الأردني؟ بينما يمكن للسائر خلف خطا المُحاربين في وادي العرب أن يبلغ حضُور ماراً بوادي الملح. إليكم وصف الهمداني (صفة: ١٣١-١٣٣):

أودية هذه السراة القاطعة فيها إلى تهامة، أولها أودية موزع يهريق فيها. ووادي الملح، وبلد الركب فيلتقي هو ونخلة جنوبي زبيد (....) ثم يتلوه وادي سهام وأوله نقيل السود وبيت بوس-يضيف الهمداني في نصوص موازية بيت بوس - (انظر: مادة بيت بوس قرب نقيل السود عندنا- المؤلف) من صنعاء على بعض يوم إلى ما بين جنوبها ومغربها ويهريق في جانبه الأيمن جنوبي حضُور"...." فيهريق في وادي العرب

ما بين كدراء وزبيد وبين الكدراء ومساقي وادي العرب مما بين بُرَع ومساقط جُبلان ريمه.

إن المكان الوحيد الذي يمكن فيه رؤية منازل اليبوسسيين الذين حاربهم داوود حسب رواية صموئيل؛ في الحيز الجغرافي لوادي ها-عربة وحضور ووادي الملح هو هذا المكان وليس أي مكان آخر. إن أحداً لا يعرف هذا الوصف في فلسطين التاريخية مهما فتش هناك. بل إن الاسم بعل-حصور الذي يشير إلى المملكة يشير في الآن ذاته، إلى مكان غزير المياه. ومن غير المنطقي الافتراض أنه نفسه التل الصغير الذي يُدعى تل حاصور قرب القدس، كما أنه ليس على الطريق إلى وادي العربة الأردني، ولا يمكن الطواف من حوله من أجل الوصول إلى مدينة البتراء الأردنية؟ ها هنا- في نص الهمداني- أودية تكثر فيها المياه تماماً كما في نص صموئيل، وها هنا حضُور ووادي العرب وأرض اليبوسيين. وسنرى عند صموئيل إشارات هامة للغاية عن أن أورشليم هي بيت بوس. يرتبط حادث الاستيلاء على أورشلم في نص يشوع وصموئيل، بالإشارة إليها على أنها بيت بوس، وهذا أمر هام للغاية سنتوقف عند دلالته التاريخية في الفصل الخاص بأورشليم التوراة. قال الأسود بن يَعْفُر المُلقب بالأعشى واصفاً وادي العرب (معجم: ٣٧٩):

أستاهُ أحمرةٍ صَدَرْنَ معاً   نبت الثِّغامِ لهنَّ والعَرْبُ

يَمْلأنَ جوفَ متالعٍ ضَرَطاً   فضّاً يَردُ فضيضهُ الهُضبُ

حسب الرواية التوراتية فقد زحف داوود، بعد سلسلة من المعارك والحروب ضد المتمردين على عرشه، نحو صور واستولى عليها. وبالطبع سيكون أمراً مستحيلا تخيّل إمكانية وقوع حادث سقوط صور اللبنانية بيد داوود، بعد عبوره وادي الأردن باتجاه أورشليم؛ لأن القول بالوصول إلى

صور اللبنانية عبر مدينة القدس، يشبه القول أننا يمكن أن نصل سيراً على الأقدام إلى القاهرة عبر طنجة في أقصى المغرب العربي. على الضد من ذلك، نستطيع تتبع أثر الحملة العسكرية ضد صور في هذه الحروب، إذا ما سرنا خلف خطا داوود في وادي عربة اليمني نفسه. إليكم وصف الهمداني لوادي العرب ها- عربه (صفة: ٢٠٣ -٢٠٥):

ويُعَدّ من مخلاف جيشان حجر وبدر وصور (ثم) مخلاف مأرب (ثم) المخاليف التي بين المعافر وصنعاء غرباً. بلد الركب وهو (وادي) الملح وحيس (...) وجُبلان ووادي زبيد ووادي رمع ووادي العرب (..) ويفرق بين جبل بُرَع وبن جبل ضلع وريمه وادي العرب.

وجود صور يمنية على مقربة من وادي العرب ووادي الملح وجبل ضلع، فضلاً عن جبل ريمه-رمه عند يشوع، يدعم حقيقة وجود مسرح آخر للأحداث التي يهتم سفر صموئيل الثاني بتغطيتها وتسجيلها. إن كلمة مخاليف اليمنية، الواردة في نص الهمداني بالتلازم مع وصف الوديان والجبال، تعني ممالك صغيرة تحكمها قبائل يتوارث فيها الحكم أبناء سلالات متعاقبة. وهذا ما يؤكد على حقيقة أن أحداث السِّفر التوراتي تدور في جغرافية مزدحمة بممالك قبلية صغيرة، كانت تنغمس في صراعات دامية تفجّرها جملة من البواعث والدوافع، قد يكون من بينها مسألة المعتقدات الدينية كما هو الحال مع قبائل الفلس الوثنية. على هذا النحو يمكن للسائر في وادي العرب ها-عربة أن يبلغ صور ويدخلها بسهولة؛ بينما يستحيل الوصول إلى صور اللبنانية عن طريق وادي عربة الأردني. وبوسعه أيضاً أن يطوف حول بترون بعد أن يخرج من الوادي تماماً كما فعل قائد جيش شاول. إن بترون التي لاوجود لها في فلسطين قرب وادي العربة، موجودة في الحيِّز الجغرافي لوادي العرب اليمني،

بما يعني أن الوصول إلى الوادي والسير فيه ينتهي بالمرور في موضع بترون هذا، قبل الانطلاق منه صوب محنئيم. لقد افترضت القراءة المخيالية الأوربية، أن المقصود من بترون في نصوص صموئيل عن حروب داوود، إنما هو منطقة البتراء الأردنية قرب وادي موسى إلى الغرب من مدينة معان.

وإذا ما تقبلنا هذه الافتراضات؛ فإن الطواف حول البتراء بعد الخروج من وادي العربة سيقود السائر إلى بادية معان الأردنية، وليس إلى القدس الفلسطينية وهذا ما يتناقض كلية مع المنطق. بينما على العكس من ذلك؛ يستطيع السائر في وادي العرب من سرو حِمْيَر، أن يبلغ موضع بترى-بترون حسب البناء العبري للأسماء، قبل أن يتجه صوب محنئيم. يصف الهمداني (صفة: ٩٩- ١٠٢) موضع بترون- بترى هذا في سرو حِمْيَر إلى الجنوب من مَذْحج قائلاً:

أول مدن اليمن التي على سمت نجدها : الجَنَد من أرض السكاسك (...) وجبأ مدينة المعافر وجيشان. وبالقرب منها قرى لها بوادٍ تُنسبُ إليها مثل حجر وبدر (وصور- المؤلف: انظر وصف الهمداني لهذه المواضع الثلاثة آنفاً) ورداع بين نجد حِمْيَر ونجد مَذْحج وبترى ثم مدينة صنعاء.

وكنا رأينا من وصف الهمداني السابق لوادي العرب، أن مياهه تتفرق عند تخوم صنعاء. تقع بُترى- بُتران في الشعر العربي القديم وبالباء الموحَّدة والتاء المُثناة من فوق ثم راء وألف- إلى الشرق من البيضاء بنحو ثلاثين كيلو متراً، وهي اليوم مكان أثري خرب، وأهل السرو ينطقون اسمها في صورة أم بترا - البترا بإبدال لام التعريف ب أم، على جري عادات القبائل في الاحتفاظ بأشكال النطق القديمة لأدوات التعريف،

مثل يا ابن العم: يا ابن معم. ويبدو من الشعر العربي أن الاسم نفسه كان يُنطق في صورة بُتران. قال المجنون (ياقوت: ١ : ٣٩٨):

وأشرفتُ من بُتران أنظرُ هل أرى خيالاً لليلى رايةً وترانيا

إذا ما وضعنا وصف الهمداني لبُترى- بُتران، في إطار الوصف المُتكامل للمواضع والأماكن في السرو نفسه؛ فإن هذا الموضع الجبلي الذي بات اليوم مكاناً خرباً، هو في الحيِّز الجغرافي لسائر المواضع الواردة في توصيف صموئيل للحروب. ها هنا جبأ - جبع- بتخفيف العين وتحويلها همزة - ووادي العرب- ها - عربه ثم صور- صور وأخيراً بُتران - بترون. قال لبيد بن ربيعة العامري واصفاً وادي العرب:

فلما اعتقاهُ الصيفُ ماء ثمادهِ وقد زايلَ البُهمى سفَا العَرْبِ ناصلا

ولم ينكر من بقية عهده من الحوض والسوبان إلا صلاصلا

وكنا رأينا في الجزء الأول من هذا الكتاب، أن الحوض-حوصه عند يشوع هي من المواضع البحرية قرب زبيد. ولكن، ولأجل رسم صورة شاملة طِبْقاً لوصف الهمداني وصموئيل لحبرون التي قصدها داوود، من أجل الإقامة في أثناء حروبه، حيث أُبرمت فيها أول معاهدة صلح للاعتراف به ملكاً، بعد هزيمة قائد جيش شاول وحبرون هذه تخيلتها الموجات الاستيطانية اليهودية على أنها مدينة الخليل لمجرد وجود الحرم الإبراهيمي فيها. ومع أن الخليل بعيدة عن وادي العربة الأردني، فإننا سنقوم بوضع حبرون اليمنية الأولى التي أقام فيها داوود في الحيز الجغرافي نفسه للمواضع السابقة وكما وصفتها التوراة. تقع حبرون التوراة على مقربة من وادي الملح- الملح عند صموئيل وغير بعيد عن صور. بينما يضبط الهمداني اسمها في صورة حَبُر ويضعها في بلد الكلاع الذي ينطق سكانه

الأسماء بإضافة النون: حَبرُن. تماماً كما وصفها الشاعر الجاهلي عُبيد بن الأبرص في معلقته الضائعة. يقول الهمداني (صفة:١٩٨-١٩٩):

وبطن السّحُول وفروع زبيد وقلامة والحَبُر ودمت ويجمعها دخان ووادي نخلة من بلد حاشد وبلد الكلاع على ما اكتنف سائلة زبيد وأشراف حيس من وادي الملح وجبال الركب.

يقول محقق الهمداني العلامة الأكوع، في معرض شرحه لمفردة حبر الواردة في هذا النصّ ما يلي: حبر: بلدة مشعة حولها أنقاض كبيرة مما يدلُّ على أنها كانت وسيعة، وإليها تُنسبُ الثياب الحبرية (المخطَّطة) وتقع في أعالي جبل الشوافي[١]. ما تقوله هذه الملاحظة الثمينة هو التالي: أن موضع حبر-حَبُرون الأثري والخَرِب اليوم كان مكاناً هاماً، لا لجهة اتساعه ووجوده في أعلى الجبل وحسب؛ وإنما كذلك لارتباطه بصناعة الثياب المُخطَّطة أي ما يُعرف بثياب البجاد. إن هذا وحده ما سوف يحيلنا، فوراً، إلى الروايات الكلاسيكية العربية التي كانت تربط بين موضع حَبُر هذا والملك داوود، بما يُعرف في الشعر العربي والمرويات بنسج داوود أو دروع داوود؛ والذي يطلق عليه اليمنيون حتى اليوم اسم الدروع. إن ما يُدعى دروع داوود- نسج داوود في الشعر العربي القديم والمرويات التاريخية، هو على وجه التحديد هذا النوع من الثياب الشفافة والجميلة، وليس الدروع بمعناها الحربي- العسكري. لا يتعلق الأمر هنا بمجرد مصادفة لغوية أو جغرافية، بل بحقائق تاريخية وأدلّة أثرية؛ إذْ أية مصادفة هذه أن يتفق صموئيل والهمداني على تسمية المكان حَبُر-حبرون،

(١) جبل ووادي الشوافي هذا، هو الذي توهمه كمال صليبي على أنه بحر السوافي الوارد ذكره في نصوص التوراة (انظر: صليبي: التوراة جاءت من جزيرة العرب).

وأن يشتهر بصناعة الثياب المُخططة المرتبطة- في قصص العرب وأشعارها بالملك داوود-؟ بل وأن يكون هذا المكان عند صموئيل المكان نفسه الذي أقام فيه داوود؟ قال عبيد بن الأبرص في بقايا من معلقته الضائعة:

فعردة فقفا حبر ليس بها منهم عريبُ

وعريب - هنا- اسم مكان تسجله التوراة في قصصها - عريب، تماماً كما في الرسم الذي يقدمه عبيد. وقال في موضع آخر:

لمن طلل لم يعف منه المذانبُ فجنبا حبر قد تعفّى فواهبُ

هذا المكان الذي تعفّى وأصبح خراباً في عصر عبيد بن الأبرص، والذي يقع في عزلة جبلية أعلى جبل الشوافي، وكان ذات يوم منزلاً واسعاً من منازل القبائل (قرية كبيرة اشتهرت بصناعة الثياب المُخطَّطة أو البجاد عند العرب - بجد في العبرية والمعنى واحد) ليس سوى حبرون التوراة؛ في الفضاء الجغرافي نفسه لوادي العرب ووادي الملح وصور وسواها من المواضع. إن مدينة الخليل الفلسطينية التي يزعم المخيال الأوربي أنها هي حبرون التوراة، بعيدة جداًعن وادي العربة الأردني المتاخم لصحراء النقب؛ كما أن اسم الخليل لا يتضمن أي إمكانية فونيطيقية لنطقه في أي عصر، في صورة حبرون أو العكس. وهذا ما سنراه مع الأماكن الأخرى.

حول (فراص عزه) ومعركة صرايم
عودة إلى الحروب الدينية وتلفيق غزّة توراتية

عندما انفجر الصراع على عرش شاول، حدثت أولى المجابهات الحربية بين رجال داوود وقائد جيش شاول، الذي يُدعى أبنير بن نير- بن

نير قرب جبع؛ في مكان تسمّيه التوراة -النص العبري- حلقة-ها-صريم. ويبدو أن مترجمي ومُحقِّقي النصوص العبرية الذين لا يعرفون أي شيء حقيقي عن المكان، لم يجدوا مناصاً من ترجمة الاسم إلى حقل الصخور. وبذلك أضاف هؤلاء إلى الأماكن المُلفقة في فلسطين التاريخية، مكاناً جديداً يمكن تخيله عند نقل النص إلى العربية، أو أي لغة أخرى، في صورة مكان ما قرب الساحل بما أن المطلوب هو تخيّل موضع صخري. في الواقع لاوجود لحقل صخور قرب جبع اليمنية يحمل هذا الاسم. وبالطبع لا وجود للموضعين في فلسطين؛ بل هناك موضع يُدعى صرايم تماماً كما في العبرية ها- صريم، وقد وصفه الهمداني وضبطه وحدَّده في الفضاء الجغرافي نفسه لجبع؛ كما توجد خلقه إلى حواره. وهي مكان يؤدي إلى صرايم بالفعل. وكنا حددنا موضع خلقه- العبرية لا تعرف الخاء المُعجمة وتستبدلها بالحاء المُهملة- في الجزء الأول من هذا الكتاب. إليكم ما يقوله الهمداني عن المكان المجاور لجبل موتك- موتك في مرثية داوود عن مصرع شاول (صفة: ١٣٣- ١٣٤):

ومساقي وادي العرب مما بين بُرِع ومساقط جُبلان ريمه (..) فمساقط حضُور (.........) ثم يتلوه وادي مَوْر وهو ميزاب تهامة الأعظم ومساقي مَوْر تأخذُ غربيّ همدان (...) ويلقى سيل الحفر وصرايم (..) فبلد وثن شمالي موتك.

من الواضح - هنا- أن صرايم هي بالفعل مكان صخري، قرب سلسلة من الوديان والجبال. ولكن اسمها ليس مجمَّع صخور ولا هي حقل صخور؛ بل هي صرايم، وهذا اسمها تماماً كما في النص العبري. بقي أن نلاحظ أن جبل موتك القريب من صرايم هذه، هو الجبل ذاته الذي سوف يسقط شاول قتيلاً عند سفوحه (انظر مادة موتك في مرثية

داوود عن مصرع شاول تالياً). لقد لقي شاول- ساول وابنه يونتن- يونتان حتفهما عند جبل موتك. قال الفرزدق واصفاً صرايم هذه:

مثل الذئابِ إذا غدَت رُكبانُها يعسِفْنَ بين صرايمٍ وصحارى

المقصود بـ (صحارى) في قصيدة الفرزدق- صُحار- اليمنية القريبة من صرايم. في موازاة تلفيق وادي العربة، ومعركة حقل الصخور المزعومة، جرى تخيُّل مُنظَّم لمدينة غزة توراتية، دخلها داوود بعد سلسلة من الحروب. يقول نص صموئيل ما يلي: ٤: : ٢٢: ٥: ٢:

ويحر- ل- دود-عل- ءشر- فرص -يهوه-فرص-ب- عزه- ويقرء-ل-مقوم- ههوه-فرص- عزه- عد- هيوم-هزه.

والترجمة التقليدية لهذا النص تقول ما يلي:

(وغضب داوود من هجوم الرّب على عزا. ولذلك دعا ذلك المكان فراص عزه إلى هذا اليوم)

يبدو هذا الجزء من رواية التوراة لحروب داوود مُقحماً، تقصّد كاتب النصّ إدخاله في النسيج السردي؛ على جري تقاليد قديمة في السرد غرضها تأويل سبب وجود أسماء بعض المواضع في النصوص السردية والشعرية. وكما هو الحال في السرد العربي القديم في الإخباريات الجاهلية ثم الإسلامية المُبكرة؛ فإن تأويل سبب وجود أسماء بعض المواضع والأماكن، غالباً ما يرتبط بأحداث دينية أو بوقائع ذات بُعدٍ ديني يتخيل كاتب النص وقوعها. ولذلك ولأجل تفسير معنى عز في هذا النص، وهو كما نلاحظ اسم مكان بعينه وصل إليه داوود؛ لجأ سارد النصّ إلى الربط بينه وبين وقوع هجوم من الرّب. وكنا لاحظنا في سِفر

يشوع أن الاسم نفسه عزه قد قرئ في صورة غزة - بالغين المُعجمة، بحيث يُفهم إن المقصود به غزة فلسطين. فلماذا عاد الاسم إلى صيغته الأصلية وقرئ على هذا النحو عزه؟ إن موضع عزه هذا لاوجود له في فلسطين التاريخية التي نعرفها؛ بينما يمكن لنا التعرف إليه وفي صيغته العبرية هذه من خلال الشعر العربي الجاهلي والإسلامي، ومن خلال الأساطير والمرويات العتيقة أيضاً؛ بوصفه مكاناً بعينه في اليمن لا في فلسطين عرفته قبائل العرب عن قرب، وعاش في وجدانها وفي ثقافتها الدينية وفي أشعارها كما لم يعش مكان آخر. إليكم هنا سلسلة من الأدلة:

١- إن العرب القدماء كما تبرهن النقوش والمكتشفات الأثرية في اليمن، عبدوا إلهة عربية تُدعى عزة؛ وهي ذاتها المعبودة التي انتشرت عبادتها في شمال الجزيرة العربية وتحديداً في وادي نخلة، وكانت تُعرف حتى ظهور الإسلام في صورة العُزّى، وقد ذكرها القرآن بوصفها كبيرة آلهة العرب الجاهليين بعد اللّات -ء يلات وهُبل. كما أن اليمنيين القدماء عبدوا هذه الإلهة في وقت ما، بوصفها معبوداً ذكورياً يرتبط اسمه بالخصب هو الإله عز الذي تسّمى به بعض ملوك حضرموت.

٢- ولذلك، فإن إعادة ترجمة النص الآنف من صموئيل، تتطلب فهماً أفضل لمعنى تكرار كلمة فراص السابقة على الاسم عزة- فراص عزه الذي تركه المترجمون كما هو، مُعتقدين أنه جزء من بُنية الاسم. إن كلمة فراص هذه ليست سوى الكلمة العربية - اليمنية القديمة فراض - بالضاد-، والتي كانت تستعمل كاسم موضع بعينه قرب عزه اليمنية، وهما معاً في حيز جغرافي واحد كما يقول الهمداني. وبينما لا توجد فراص ولا عزه في فلسطين التاريخية بأيٍّ صورة من الصور؛ فإنها موجودة في اليمن في صورة مكانين متجاورين، وقد وصف الراجز اليمني أحمد الرداعي موضع فراض هذا وضبط اسمه في صورة فراض. قال (صفة: ٣٥٨):

ثـم الـقـنـا مـنـك بـوجـه راضٍ حـتـى إذا مـرت عـلـى الـفـراضِ
بحيث فاض السيل ذو الأفياضِ بـخـضـرٍ ذي الـروض والـريـاضِ

فراض هذه من المواضع التي تقع بين مخلاف رداع وجبل أسبيل، حسب قول الهمداني تعليقاً على قصيدة الراجز الرداعي الذي كان يصف في الواقع، مكاناً ينتسب إليه ويعيش فيه. هذا يعني أن فراض المنسوبة إلى عزة هي على مقربة تماماً من وادي العرب. ها هنا تحديدات الهمداني لوادي العرب وفراض وعزه، في فضاء جغرافي واحد مُتطابق كل التطابق مع وصف صموئيل (صفة: ٢٠٥-٢٠٦):

> **ووادي سهام ووادي صيحان والعرب (....) وبين جبل ضلع وريمه وادي سير ووادي العرب يفرق بوادي سُردد ووادي سهام وذلك ما حاذى صنعاء (ثم) مخلاف ذمار (..) وجبل أسبيل منقسم بنصفين فنصف إلى مخلاف رداع.**

ونقرأ في (صفة: ١٨١-١٨٢) ما يلي مختصراً:

> **وعزّان لبني سلمة وأهل ثات (..) وحبان كان أصله لكومان ثم صار اليوم لبني الحارث بن كعب وأهل رداع (..) عقارب ومداوخ لأهل رداع.**

وكنا رأينا من تعليق الهمداني على قصيدة الراجز الرداعي قوله: إن فراض تقع بين جبل أسبيل - اشبيل في التوراة ورداع. فهل هي محض مُصادفة جغرافية أن شاعراً ينتسب إلى مخلاف رداع، يصف في قصيدته موضعين من مواضع بلاده يُدعى أحدهما عزان - تثنية عز والآخر يُدعى فراض؟ وفوق ذلك هما معاً قرب وادي العرب؟ بينما يسجل صموئيل في حروب داوود

أسماء ثلاثة مواضع متجاورة على التوالي تدعى العربة وعزة وفراص؟ ترى لماذا لا تحدث مثل هذه المُصادفة في جغرافية فلسطين المُتخيّلة؟

٣- إن عزة اسم لمواضع عدة في اليمن لا يتسع المجال هنا لتسجيلها كلها؛ ويمكن العودة إلى معجم العلّامة الأكوع من أجل المزيد من المقاربات؛ ولكن الأمر الهام هنا هو أن الموضع المقصود، يقع في الحيز الجغرافي نفسه للأماكن التي وصفها سِفر صموئيل وليس في أي مكان آخر. ولنلاحظ الرابطة الوثيقة بين الاسم عزة وبين اسم محبوبة الشاعر اليمني كثير الذي يكنى كثير عزة؛ لا لأن محبوبته كانت تُدعى عزة كما هو الشائع؛ بل لأنه وعلى جري تقاليد عتيقة حمل اسم هذه الإلهة، تماماً كما حمل زهير بن أبي سُلمى اسم الإلهة سلمى فاشتهر بغزلياته التي ارتبطت بهذا الاسم. كانت عزة واحدة من أكبر الإلهات في اليمن القديم، وقد انتشرت عبادتها في طول بلاد العرب وعرضها؛ ومعها انتشرت المواضع التي تحمل الاسم نفسه تجسيداً لعبادة إلهة الخصب. وفي وقت ما عبد عرب الشمال الوثنيين الذين كانوا يخضعون - جزئياً- للهَيْمنة اليمنية، صنماً أنثوياً يُدعى عُزّا ذكره القرآن في آية: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ٥٣/١٩].

٤- استناداً إلى مروية سفر صموئيل الثاني؛ فإن موضع عزه هذا كان قرب أورشلم، وقد بلغه داوود في أثناء معاركه ضد جنود شاول ثم ضد ها- فلشتم- الفلست؛ والمكان نفسه يُنسب إليه موضع فراض كما في النص السابق: فراض عزة. وفي حدود علمنا لا يوجد في فلسطين كلها ولا في القدس العربية التي يُزعم أنها أورشليم القديمة مكان أو موضع أو معبود يُدعى عزة، بينما نعلم من الهمداني أن عزة هي بالفعل قرب وادي سلم - وادي شلم في التوراة كما في وصف صموئيل. يقول الهمداني (صفة: ١٨١-١٨٣) ما يلي:

> وعزّان لبني سلمة وأهل ثات (..) حبّان كان أصله لكومان ثم صار اليوم لبني الحارث وأهل ثات (...) عقارب لأهل رداع ذات القوة وسلم لبني عساس (..) ودون هذه المواضع أودية منها هليل وصيد.

ها هنا مكان بعينه يُدعى سلم- شلم وجماعة قبلية تنتسب إلى بني سلمة، على مقربة من عزّان- تثنية عز- ووادي العرب-ها- عربه. وسوف نلاحظ أن الشعر العربي القديم يرسم الاسم في صورة عزّ وعزى وعزة والمقصود بها الموضع القديم نفسه والإلهة المحبوبة نفسها. يقول ابن الكلبي (الأصنام: ٢٢) في وصف مكان عبادة الإلهة عزة في وادي نخلة اليمني ما يلي:

> وكان سدنَة العُزَّى بنو شيبان بن جابر من بني سليم. وكان آخر من سَدَنها دُبَيَّة بن حرمي السُّلمي. فلم تزل العُزَّى حتى بعث الله نبيّه ﷺ فلمّا كان عام الفتح دعا النبي ﷺ خالد بن الوليد فقال: انطلق إلى شجرة ببطن نخلة.

كانت عزه في هذا الوقت تتجسَّد في صورة شجرة، عبدتها سائر الجماعات القبلية الوثنية في اليمن والجزيرة العربية، وحول هذه الشجرة نشأ بيت العبادة المعروف في الجاهلية ببيت العُزَّى الذي هدمه خالد بن الوليد بعد فتح مكة مباشرة، حيث ارتجز أمامها ضارباً جدران البيت بمعوله ومُحطماً رأس الإلهة:

يا عزُّ كفرانكِ لا سبحانك إنِّي رأيتُ الله قد أهانك

وحين عاد خالد بن الوليد إلى النبي ﷺ قال مُنتشياً: تلك العُزّى ولا عُزّى بعدها للعرب أما والله إنها لن تُعبد بعد اليوم.

٥- ولأن عُزَّى- عزة هذه تقع على مقربة بالفعل، من وادي العرب وفراض؛ فإنّ مروية صموئيل عن الطريق التي سلكها داوود في أثناء مُطاردة جنود شاول- ساول تصبح في هذه الحالة واضحة المعالم، ويمكن للمرء أن يتخيلها بسهولة إذا ما تتبَّع خُطا الهمداني؛ بينما يستحيل عليه الوصول إلى فراض وعزة وأورشليم إذا ما سار في وادي العربة الأردني. إن النص العبري السابق يمكن أن يُترجم على النحو التالي وبصورة تجعل منه مفهوماً وبسيطاً:

واستقر داوود على فراض الرّب الذي في عزّة؛ فدُعيَ المكان فراض عزّة من هذا اليوم.

لقد توهم المترجمون أن كلمة (يحر) في النص العبري تعني غضب كما توهموا أن كلمة فراص- فروص تعني اضطرب، هاجم، من دون أن يبرروا لنا معنى الجملة عن هجوم الرَّب؟ وفي الواقع لم يكن ثمة هجوم للرَّب في المكان ولم يكن داوود غاضباً. كل ما في الأمر أن داوود بلغ موضعاً كان يُعرف بفراض الرّب في عزة (فرص - ب- عزه)[1]. إن كلمة يحر العبرية- اليمنية القديمة تعني استقر (من حارَ- ومنها الحيرة بمعنى معسكر). ولذلك غيَّر داوود فور استقراره اسم المكان وأعاد تنسيبه إلى مكان قريب منه هو عزة، وليصبح فراض عزة بدلاً من فراض الرَّب. وبكل تأكيد؛ فإنّ فلسطين التاريخية لم تعرف مكاناً أو معبوداً قديماً يُدعى عزة أو عزا أو عُزى، بينما عرفت أرض اليمن القديم هذه المعبودة الكبرى

(١) يجب أن يُنظر إلى هذه المروية باعتبارها مروية مثيولوجية- إخبارية، وليست واقعة تاريخية، لأنها على الأقل تبدو متناقضة مع التوحيد. ونحن نعلم أن التوراة دمجت بين مرويات سابقة على التوحيد مع مرويات لاحقة عليه.

التي انتشرت عبادتها في شمال الجزيرة العربية والحجاز. قال عمرو بن نُفيل وكان أحد أشهر الموحِّدين قبل الإسلام:

فلا العُزّى أُدينُ ولا ابنتيها ولا صَنمي بَني عمرٍو أزورُ

المثير للدهشة أن المترجمين يكافئون (عزة) هنا بـ (عزة) تماماً كما في الرسم العبري؛ بينما يعطون في نصوص أخرى مكافئاً آخر هو (غزّة)؟

معارك داوود في وادي حبل

في إطار الحروب والمعارك التي خاضها داوود من أجل تثبيت شرعية مطالبه في العرش، نشبت حروب متفرقة ضد جماعات قبلية كانت ترى في صعوده خطراً حقيقياً، قد يتجاوز البُعد الديني أو التنافس القبائلي و الأسري. ولذلك استعدت لملاقاته في مسرح الحرب الذي كان يتوسَّع مع كل صدامٍ جديد. ويبدو أن المخيال الأوروبي الذي كان يتطلع بشغف إلى رسم صورة للفلسطينيين، تلائم التصورات النمطية عن إسرائيل الجديدة، وريثة إسرائيل القديمة التي ينهزم أمامها الفلسطينيون بسهولة، قد وجد ضالته في مقطع من سِفر صموئيل يتحدث عن هزيمة قبائل من ها- فلشتم وموءب- مآب، لأجل أن يرسم صورة نمطية أخرى عن الفلسطينيين المهزومين أمام داوود؟يقول النص العبري (صموئيل الثاني: ١٢: ٨: ٢٦: ٧) ما يلي:

دود-ءت-موءب-ويمددم- ب- حبل

وقد تُرجمت الجملة إلى التالي:

(وضربَ داوود المؤابيين وقاسهم بالحبل)

لقد فطن كمال صليبي (حروب داوود: بيروت: ١٩٩٩) إلى الخطأ الجسيم في هذه الترجمة؛ ولكنه وعلى الرغم من ذكاء ملاحظته، وقع في خطأ ممُاثل حين تصوَّر أن كلمة حبل تعني موضع حبلى في وادي أضم بمنطقة الليث، في المملكة العربية السعودية اليوم (انظر: حروب: ١٤٥). في الواقع تشير الجملة في العبرية إلى واحدة من معارك داوود ضد بني مؤاب في وادي حبل، تماماً كما في النص الأصلي، وهو ليس قرية خربة كما تصوَّر كمال صليبي؛ بل وادٍ عظيم من أودية اليمن وفي المكان نفسه الذي دارت فيه المعارك. إن الهمداني يضبط الاسم في الصورة ذاتها حبل من دون لام التعريف، التي أضافها المترجمون من غير وجه حق (الحبل). لقد وقعت المعركة ضد بني مؤاب بعد أن فرغ داوود من هزيمة ها- فلشتم؛ وكنا قلنا: إن هؤلاء تعرضوا للهزيمة عند جبل ءبن ها- عيزر أو وادي أوبن- ء بن في العبرية، وعلى مقربة منه يسكن آل العيزار غير بعيد عن جُرش اليمنية. وبالطبع ليس ثمة ما يستدعي هذا الفهم الغريب للجملة، بحيث يقوم داوود بقياس الرجال المهزومين بالحبل؟. بينما يمكن لنا أن نتتبَّع خطا المتحاربين بين الجبال والوديان في اليمن القديم بسهولة. ولأجل الكشف عن نمط المُغالطات في الفهم الاستشراقي لنصوص التوراة، فسوف نعرض - هنا- للنص العبري الخاص بهذا المقطع من حروب داوود- الذي يصور هزائم الفلسطينيين المزعومين وحلفائهم من بني مؤاب وطوب ورحوب. يقول نص صموئيل الثاني: ١٢ : ٨: ٢٦ : ٧ - العبري- ما يلي:

> ويهي- ء حري- كن- دود- ء ت- فلشتم- ويكنيعم- ويقح-دود- ء ت- متج- ها- ءمة- م- يد- فلشتيم- ويك-دود- ء ت-موءب- ويمددم- ب- حبل- ها- شكب- ء وتم- ء رصه- ويمدد-شني- حبليم- لهميت-وملء-ها- حبل-ل-ها- حيوت- وتهي- موءب- ل- دود- ل- عبديم- نشأي-منحه.

الفهم السائد لهذا النص كما في الترجمة العربية المُعتمدة يقول ما يلي:

> **وكان بعد ذلك أن ضرب داوود الفلسطينيين وأذلهم، وأخذ داوود زمام الحكم من أيدي الفلسطينيين وضرب المؤابيين وقاسهم بالحبل، مُضجعاً إياهم على الأرض، فقاس منهم حبلين للقتل، وطول حبلٍ للاستبقاء. وصار المؤابيون رعايا لداوود يؤدون الجزية.**

تكمن الصعوبة في فهم هذا النص الذي كُتب بلغة عربية خالية من الروح؛ في أنه يعطي صوراً غرائبية عن معارك ينشغل فيها المنتصر بقياس أطوال خصومه، أو بانتزاع الحكم من أيديهم كما لو أن هذا الصراع يجري بين جماعات ممتلكة للحكم. إن إعادة ترجمة النص ستكون عاملاً حاسماً في تركيب الرواية التاريخية عن هذه الحروب ومسرحها الحقيقي. فليس ثمة حكم يُنتزع ولا وجود لفلسطينيين أصلاً، بحيث يمكن إلحاق الهزيمة والعار بهم أو إذلالهم، ولم يكن هناك حبل لقياس أطوال حلفائهم من بني موأب، ولا تمديداً لهم على الأرض بطول حبل من أجل قتلهم أو استرقاقهم؛ بل كانت هناك معارك من أجل السيطرة على وادي حبل. أي إزاحة قبائل منافسة أو متمردة والسيطرة على مواضعها، طردها ونفيها من المكان، كما هو الحال مع سائر الحروب القبلية التي يلعب فيها الصراع على المياه والأرض الخصبة دوراً محورياً وفي هذا السياق؛ فإنا نفهم النص الآنف على النحو التالي مُبينين للقارئ نمط التلاعب في الترجمة العربية السائدة:

> **وإثر ذلك كان داوود قد تمكن من ضرب الفلست فسيطر داوود على مأزم -وادي- (الأمَة) التي في يد الفلست، كما تمكن داوود من**

ضرب المؤآبيين في-وادي حبل و-وادي السكاب و-وادي أتُم - وفي (أرض) على امتداد الثني والحبال حتى لهميت بتمامها. ومن الحبل إلى حيوت وليصبح المآبيون عبيداً له يؤدون الجزية.

ما يقوله هذا النص هو التالي: بعد أن أوقع داوود بالفلست وأخضعهم أخذ مأزم وادي الأمَه من أيديهم- والمأزم هو الفرجة بين موضعين جبليين - ثم طارد المؤابيين في وادي حبل، ووادي السكب- السكاب واستولى على وادي أُتُم كما أخذ موضعاً يُدعى أرض. فانتشر رجاله على امتداد موضع الثني والحبال وصولاً إلى لهميت بكاملها، ثم تقدم بقواته من وادي الحبل إلى موضع الحيوت. وبذلك تم له- عملياً- إخضاع المؤابيين الذين صاروا عبيداً يعطون الجزية. في الواقع إن وادي الأمَه- ها- ءمه هو ذاته وادي الأمَان عند الهمداني- بإلحاق النون الكلاعية على جري عادات اليمنيين- وهو من أودية بطن تهامة على مقربة تماماً من وادي الحبال، الذي يسجل النص العبري اسمه في الصورة ذاتها الحبال. هاكم ما يقوله الهمداني عن هذين المكانين قرب بعضهما في مخلاف حراز وهوزن إلى الغرب من صنعاء، على الطريق الجديد اليوم بين صنعاء- الحديدة (صفة: ٢١٠):

مناهل (أي مياه) لعسان ذات العظام وذات الأوتاد والعُمد والأمان والمسيل والحبال. وموارد هذه المواضع أسفل - وادي - سهام.

ها هنا مسيل مياه الأمَه- الأمان حيث فرض داوود سيطرته على ضفتي المسيل، الذي يصبُّ إلى الغرب من صنعاء وعلى مقربة منه مياه الحبال. هذا يعني أن السفر التوراتي أراد الإشارة إلى المعارك بين داوود والفلست في مكان غزير المياه، هو من موارد قبيلة لعسان اليمنية وليس في فلسطين، التي لا تعرف أي اسم من الأسماء الواردة في النص.

وعندما نشبت معارك أخرى، توجه داوود لمطاردة الموآبيين- المآبيين في الشعر العربي القديم، في وادي حبل وفي وادي السكب ها- شكب والحيوت- ها- حيوت و بني أرض- ءرصه و الحِبال -حبليم، وهي جميعاً أسماء مياه ومواضع وهضبات في واد حبل، وفي بطن وادي تهامة أيضاً حيث دارت المعارك، ثم اتسعت رقعتها ضد الفلست وبني مآب - موءب على حدٍّ سواء. لقد قام المترجمون بوضع مكافئ عربي، لكل اسم من هذه الأسماء بصورة اعتباطية، مثلاً: إن جملة ملء -ها- حبل- ل- ها- حيوت لا يمكن أن تعني طول حبل للاستبقاء. على الأقل؛ فإن المترجمين- عبر هذا الفهم للجملة غير المفهومة الغرائبية المعاني- اضطرّوا بسبب هذا الفهم المشوش لمقاصد الجملة إلى إسقاط أداة التعريف من دون مبرر. هذا إذا افترضنا أن كلمة حيوت تعني الحياة. ستكون هذه الجملة غريبة على الأسماع إلى النهاية، ولن يجد لها حتى أشد القرّاء ذكاء معنى مقبولاً؛ بينما يمكن فهمها ببساطة على أنها إشارة إلى سيطرة داوود على مواضع بعينها، دارت فيها المعارك من الحبال حتى الحيوت وهي سلسلة من المياه، تقع بعضها قرب بعض، ووصفها الهمداني وصفاً دقيقاً كما سنرى. والحِبال هذه هي غير وادي حبل؛ ولذلك ميزها سارد النص مرتين كما فعل الهمداني، مرَّة بإضافة أداة التعريف العبرية (ها) ومرَّة بإعطاء صيغة الجمع حبليم- ها- حبليم. إن المعنى الحقيقي لجملة شني- حبليم ليس (اثنين من الحبال) كما توهم مترجمو النص، بل موضع الثني - شني العبرية لأن العبرية لا تعرف حرف الثاء وتستعيض عنه بالشين- وإلى جوار الثني هناك مياه الحبال -ها- حبليم. وبالطبع لم يقم داوود بقياس أطوال خصومه في أثناء الحرب ولم يستخدم حبلين لهذا الغرض. المثير للاهتمام أن الهمداني يضع الثني هذه على مقربة جبل أبان. أي في المكان نفسه الذي وقعت فيه المعارك - عند صموئيل-.

إليكم ما يقوله الهمداني عن الموضعين في معرض وصفه للطريق من جُرَش إلى صَعْدَة (صفة: ٢٣٦):

> **الذنائب وواردات وذو حُسم وأبان، ووادي حاذ والثني وحث (لبني) عجل.**

أما وادي ها- شكب- السكب فهو الذي عناه عمرو بن ربيعة بقوله (وانظر ضبط البكري: ط، بيروت: ٣: ٣٢):

مَبيتُنا جانبِ البطحاءِ من شَرَفٍ لحافاً دون وقع القطرِ جلبابُ

مُبطنٌ بكساء القزِّ ليس لنا إلا الوليدة والنعلينِ أصحابُ

ثم المطية بالبطحاء يضربها واهي العُرى من نجاءِ الدلو سَكابُ

هذا هو وادي السكب الذي نسيه الجغرافيون العرب، واحتاروا في تحديد مكانه على الوجه الصحيح، وقد مشى فيه عمر بن أبي ربيعة موهناً فوق راحلته المُتعبة. وعبر هذا التوصيف الشعري يمكن الاستدلال بسهوله إلى الوادي، فهو على مقربة من الشرف- الشرف في التوراة كما سنرى، كما أنه من المواضع المعروفة في السراة اليمنية. إن مقاربة نص صموئيل هذا بوصف الهمداني للمكان نفسه، وللمواضع نفسها وبالأسماء نفسها دون أدنى تدخل من جانبنا؛ سيكون أمراً ضرورياً في هذا النطاق من فهم النص. يصف الهمداني وادي حبل هذا، في سياق وصف أوطان منطقة الجوف اليمني، على النحو التالي (صفة: ٢٨٠- ٢٨٢):

> **فإنا نذكر ما بالجوف من الآثار والعمور ونذكر ما هي أوطان الجوف وبلدها وظاهره وبلد شاكر صفة الجوف أوبن (..) وطُب وواديا بني الأجدع ورحب وأوطان المراشي وحَبل وعَضلة والصمع والجفرة؛**

أودية تسيل في الغائط (أي في الغيط كما يقول المصريون في اللهجة العامية- المؤلف) والعشه إلى وتران كل هذا شعراء، بين شاكر والشعر، رحوب مسيلها إلى رباق ثم الحضن بنجران (..) وأوبن.

ها هنا رحوب - التي سنراها في المقطع القادم من صموئيل- وُطُب والشعر ووادي حبل، وهي أسماء سنرى دلالاتها بوضوح حين نتوقف أمامها عند تحليل النصوص التوراتية. يتضح من وصف الهمداني الآنف أن المقصود من جملة ب- حبل العبرية ليس قاسهم بالحبل بل: في وادي حبل. أي إن داوود ضرب المؤابيين في هذا الوادي قبل أن يُطاردهم إلى مناطق أخرى. وما يُدلل على ذلك أن صموئيل يشير في نصه إلى أن داوود صعد إلى (الشَّعراء). وهو كما نلاحظ من نصّ الهمداني، توصيف لسلسلة من الغابات التي يشتهر بها المكان؛ لأن كلمة شَعراء وشَعر تعني كل موضع تكثر فيه الأشجار، أوالمزروعات البرية التي لا دخل ليد الإنسان فيها، أو التي لم تخضع لنظام الحِمى القديم. إليكم ما يقوله صموئيل (١٣ : ١٩ : ٣٠: ١٨ النص العبري):

ويرجز- ها- ملك- وعل- عد- عليت- شعر- وبك

وقد تُرجمت الجملة في النص العربي إلى ما يلي:

فاضطرب الملك وصعد إلى علية الباب وهو يكي

وهذه جملة غير مفهومة يتكرَّر فيها مشهد الملك يصعد باكياً. ما تقوله الجملة في اللغة العبرية هو التالي:

واعتلى الملك - جبل-الشعر وهو يرتجز ويرثي

ونحن نعلم أن التوراة تصوِّر داوود شاعراً. ولذا فهو يرتجز في حروبه فيمجد الأبطال ويرثي القتلى، على غرار ما يفعل الشعراء في القتال. وبكل تأكيد فليس ثمة ما يستدعي الاضطراب والبكاء بالنسبة إلى ملكٍ يظهر منتصراً. بهذا المعنى؛ فإن صعود داوود إلى علية الباب - كما في الترجمة السائدة- يبدو أمراً لا معنى له، وهو تأويل خاطئ لمعنى كلمة شعر في النص. لقد صعد داوود إلى جبل الشعر وهو سلسلة من الغابات الكثيفة، بعد أن غادر وادي حبل ليلاحق القبائل والجماعات المتمردة. ها هنا وادي حبل على مقربة من جبل الشعر وإلى الجوار سلسلة من المواضع الأخرى، التي سجلها صموئيل وتخصُّ الجماعات المتحالفة مع الفلست في رحوب - رحوب وُطُب- طوب، فضلاً عن وادي أوبن- ءبن، الذي أعطى اسمه لجبل أبان. وسكان أوبن هم من آل العيزار من قبائل طئ عبّاد الإله فلس، كما يخبرنا المؤرخون العرب الكلاسيكيون والهمداني. هذا ما يجب أن يذكرنا بجملة ء بن- ها- عيزر أي وادي أوبن الذي يقيم فيه آل العيزار. يضع الهمداني عبر هذا الوصف، وادي حبل ضمن أوطان الجوف اليمني حيث بلد شاكر- منازل يساكر في التوراة. والجوف وادٍ كبير تصبُ فيه سلسلة من الوديان، ويمتد من عمران قرب صنعاء حتى أعالي وادي العقيق ونجران؛ وليس ثمة موضع أو جبل أو مكان يُدعى حبل في طول فلسطين وعرضها، وفوق ذلك إلى جواره موضع كثيف الغابات يُدعى الشعر. كما لا وجود لأثرٍ، مهما كان عرضياً أو قليل القيمة، يُدللُ على إمكانية العثور على منازل سبط يساكر التوراتي في الحيز الجغرافي الفلسطيني. إن فلسطين الحقيقية لا المُتخيّلة لم تعرف في تاريخها القديم، قرى أو منازل أو مواضع تخص قبيلة تدعى بني الحماس، وهم في التوراة - لحماس. ولا مكاناً يُدعى طُبْ - طوب؛ بينما يمكن لنا رؤية سائر هذه المواضع في المسرح ذاته في وصف الهمداني. إن موضع طوب في قائمتنا لا يبعد كثيراً عن وادي حبل؛ بل

هو في امتداده الجغرافي. والهمداني يضبط الاسم ضبطاً عربياً صحيحاً في صورة طُب. وبذلك يتضح أن وادي حبل هو غير مياه الحبال- حبليم؛ وأن الحبال تقع قرب الحيوتية-ها- حيوت تماماً كما في نص صموئيل. ولدى الهمداني وصف لمياه في تهامة تُدعى الحيوتية - ها- حيوت يقول عنها ما يلي (صفة: ٢٦٩):

وكثير من مياه تهامة أملاح فمنها المعجر والحبال والحيوتية وكل ما قارب الساحل أملاح.

بهذا المعنى؛ فإن مطاردة داوود للقبائل المتمردة عليه في بطن تهامة، أوصلته فعلياً إلى الحيوتية- ها- حيوت وإلى الساحل. أي إلى وادي ء تم- أتمه، وهو من أودية الساحل اليمني المعروفة حيث يُقيم فيها بنو كنانة، الذين ينتسبون إلى مُضَر أم القبائل العربية وأكبرها. إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار هذه الحقائق الجغرافية التي لا نجد ما يُماثلها في جغرافية فلسطين؛ فإن من الممكن حينئذٍ، فهم المعنى الحقيقي للجملة التوراتية المُلتبسة التالية، والتي أثارث حيرة علماء التوراة ولم يجدوا لها أي رابط معقول. يقول صموئيل (الأول: ١١: ٣٠: ٦٣٠: ٢٩ - النص العبري) ما يلي:

ويمصئو- ء يش- مصري ب- سده

وقد فُهمت الجملة على أنها تفيد ما يلي:

وشاهدوا رجلاً مصرياً في الحقل

وبالطبع؛ فإن من المستحيل فهم مغزى صعود داوود ملكاً في بني إسرائيل، وحروبه تالياً ضد ما يُزعم أنهم (الفلسطينيون) في سياق وجود

مصريين داخل حقول الإسرائيليين؟ ماذا يفعل رجل مصري في الحقل الإسرائيلي؟ وهل ثمة حقل أصلاً في هذه البيئة التي تعجُ بالأشجار والمزروعات البرية والجبال والوديان؟ ما تقوله الجملة المُلتبسة والمفهومة بصورة خاطئة وعشوائية هو التالي:

وشاهدوا رجلاً مُضَرياً في النجد

إن وجود رجل من قبيلة مُضَر أكبر القبائل العربية البائدة، في النجد والساحل اليمني أمر مقبول تماماً. ها هنا منازل بني كنانة وهم بطون من مُضَر، يقيمون على مقربة من مسرح حروب داوود، أي المكان نفسه الذي طارد فيه المتمردين في وادي ء تم - أتمه. إليكم ما يقوله الهمداني عن وادي ء تمة (صفة: ٢٣٢):

ثم بلد حَرام من كنانة: وهو وادي أتمة وضنكان وهو معدن غزير والحرّة حرّة كنانة وحلي. وهو مخلاف وقصبتها الصحارية والسرين ساحل كنانة.

ها هنا واديء تم - أتمة في الفضاء الجغرافي ذاته لسائر المواضع، التي شهدت الحروب ضد المؤآبيين والفلست. وفي هذا الإطار لابد من التوقف عند تطورات هذه الحروب والمغزى الحقيقي لنشوء تحالفات مناوئة للملك داوود في حقبة صعوده، حيث شاركت قبائل من عك وإرم ورحوب وُطُب في القتال. وهذه القبائل كما نعلم لاوجود لها في فلسطين، بحيث يمكن قبول مزاعم القراءة الاستشراقية أن المقصود بفلشتيم[1]

---

(١) ثمة صلة لا تماريها العين بين ما يدعى الفلست، وهم قبائل وبطون تنتسب إلى طيئ صاحبة معبد الفلس- في حقبتها اليمنية- وبين وجود ما يدعى اليوم باليهود =

هو الفلسطينيون. يقول صموئيل (النص العربي: ١٠: ١: ١٤- النص العبري: ١٦: ١٠: ١٣: ٩) ما يلي:

ويصءو- بني- عمون- ويعركو- ملحمة- فتح- ها- شعر- وءرم- صوبه- ورحوب- وء يش- طوب-وم-عكه-لبدم- بسده
(فخرج بنو عمون واصطفوا للقتال عند مدخل الباب وانفرد آراميو صوبه ورحوب ورجال طوب ومعكه في الحقول)

هذا التوصيف الذي تعرضه علينا الترجمة العربية السائدة لا يبدو مفهوماً؛ وهو بعيد كل البُعد عن روح النص. فما علاقة الحرب الضارية التي يشترك فيها هذا العدد الكبير من القبائل، بالوقوف عند مدخل الباب؟ وأي باب؟ وما صلة الحقول بوجود الباب؟ في الواقع لا يقول النص ذلك؛ بل يقول ما يلي حسب ترجمتنا:

وخرج بنو عمون للحرب، وتجمعوا عند فتح والشعر؛ بينما كمنَ الآراميون من صُبا ورحوب، ورجال من طُب والعك في النجد.

تشير وقائع هذه المعركة الكبرى التي سنتوقف عندها تالياً، إلى أن بني عمون استجاروا بقبائل حليفة ومُجاورة لصدِّ حملة داوود ومقاومتها، ومن بين هذه القبائل قبيلة رحوب التي أعطت اسمها للموضع الوارد في التوراة- رحوب. وكنا حددنا موضع الشعر، أما صوبه فهي ما يُدعى اليوم صبيا على الساحل اليمني، وهي موضع أقامت فيه تاريخياً قبائل من إرم. بينما نعلم أن رحوب وطُب- طوب من الوديان الشهيرة في اليمن قرب

= الفالاشا (الفلاسة- الفلست) فهؤلاء من بقايا القبائل اليمنية المهاجرة إلى الحبشة، والتي ظلت على دينها الوثني القديم.

الساحل، نشأت فيهما ممالك قبلية صغيرة. إليكم وصف الهمداني لهذه المواضع وبالأسماء ذاتها، ومن بينها موضع فتح المنسوب في نص صموئيل إلى جبل الشعر. يقول الهمداني، في سياق وصفه لجُرش وأحوازها وهي تشكل مع نجران موطناً تاريخياً للعمونيين سكان ربّة التوراتية- ربة نجران عند العرب، ما يلي (صفة: ٢٣٠-٢٣٢):

جُرش كورة نجد العليا يسكنها العواسج من أشراف حمير، وفي شق جُرش فرق من موالي قريش (وفيها) الدارة والفتيحا (...) تهامة اليمن: وادي صبيا ملوكه من الحكميين (..) ثم وادي أتمة.

فهل هي مصادفة محض أن يكون هناك موضع يُدعى الفتيح-فتح، في المكان نفسه قرب صبيا التي تُعرف بملوكها القدماء؟ وقرب وادي أتمة؟ وكنا حددنا في ما سلف، موضع رحوب وُطب والشعر في صفة الجوف اليمني، عند الكلام عن وادي حبل وصلته ببلد شاكر ونجران- مطلع هذا القسم-. قال الأعشى في وصف وادي حبل:

قالوا نُمارٌ فبطن الخالِ جادهما   فالعسجدية فالإبلاءُ فالرّجلُ

فالسفحُ يجري فخنزيرٌ فبرقتهُ   حتى تتابع فيه الوترُ والحبلُ

وكنا أشرنا إلى وادي وتر وهما وتران، واديان من أودية الجوف اليمني.كما أشرنا إلى مياه الرّجل-رجل عند يشوع ورجلم-رجلى على مقربة من النيل اليمني ووادي حبل. وهذا ما يتطابق مع وصف صموئيل والأعشى والهمداني. يقول الهمداني (صفة: ٢٨١) ما يلي: (والنيل[1] وعمق والأفتول ثم بلد دهمة وحبل). وبصدد وادي وتر الوارد في قصيدة الأعشى، لابد من الإشارة إلى أنه يُعدّ، حسب تصنيف الهمداني، من

(١) هذا هو نيل التوراة. وسوف نتوقف عند اسم النيل في فصول تالية.

مخاليف الطائف ويصبُّ في سراة الخال اليمنية، حيث تلتقي مياهه بمياه بلد الركب (انظر بني ركاب في أنساب التوراة- فصل شعوب التوراة، تالياً). كما يلتقي مياه وادي نخلة الذي يتجه فرع منه إلى الجنوب من زبيد (صفة: ١٣١) غير بعيد عن مصبِّ وادي العرب-ها- عربه. ولنلاحظ في نص الهمداني إشارته إلى وجود مياه وادي حبل قرب موضع الرَّجل باعتباره تأكيداً لرواية الأعشى الشعرية. ولذلك، واستناداً إلى مروية التوراة؛ يكون داوود قد بلغ موضع الرّجل -عين رجلم، بعد الانتهاء من معركة وادي حبل. يعني هذا أن أعشى همدان وصموئيل والهمداني يتفقون على وجود هذه المواضع قرب بعضها، في جغرافية اليمن لا في فلسطين. قال الراعي النُّميري (معجم: ٤٢١):

فكـشْلَـةٌ فـرؤام مـن مـسـاكـنـهـا   فمُنتَهى السَّيل من بَنْيان فالحَبلُ

يُضيفُ الراعي- هنا- إلى وصف أعشى همدان وصموئيل النبيِّ والهمداني، موضعاً زائلاً هو كَثْلة- كسلوت من أجل الاستدلال إلى وادي الحبل. وهذا الموضع هو ذاته كصلة- كصلوت عند يشوع من منازل سبط يهوذه، بما أن العبرية لا تعرف حرف الثاء المُثلثة، وتستعيض عنه عادة بحرف السامك وهو حرف قريب من السين والصاد. وبذلك يتضح أن وادي حبل - تماماً كما في العبرية - هو من أودية اليمن القديم التي عرفها الشعر الجاهلي، ولا وجود له في فلسطين المُتخيّلة. وإذا ما تتبعنا وصف الهمداني بدقة أكبر، فسوف نصل إلى موضعين يسجلهما صموئيل في صيغتين مختلفتين ء ل -يد -شعر وبين-شني- شعريم قرب وادي حبل. هاتان الصيغتان تشيران إلى مكانين يحملان الاسم نفسه. ولأن المخيال الأوربي لا يعلم أي شيء عن مواضع تحمل مثل هذه الصيغ، فقد تمّت مكافأتهما في الترجمة العربية استناداً إلى فهم افتراضي للقواميس الأجنبية، بحيث أصبحت الجملة تفيد ما يلي: ء ل -يد- شعر

تعني: بجانب الباب. أما بين- شني- شعريم، فتعني: بين البابين. لقد لاحظ كمال صليبي وهو على حق (انظر كتابه: حروب داوود- مصدر مذكور) أن هذه الترجمة غريبة وغير مفهومة. بيد أن صليبي، وعلى الرغم من دقة الملاحظة والجهد الكبير الذي بذله في معالجة المسألة، لم يحالفه الحظ في تحديد الموضعين تحديداً دقيقاً، كما لم يتمكن من ضبطهما ضبطاً عربياً صحيحاً. في الواقع ليس المقصود- في اللغة العبرية- من ءل- يد- شعر، الإشارة إلى وقوف داوود قرب الباب، فليس ثمة أبواب في مسرح الحرب الطاحنة التي تدور رحاها في الجبال والوديان؛ بل الإشارة إلى ارتقاء داوود مرتفعات الشعر، كما أسلفنا. أما جملة بين- شني- شعريم، فلم يكن المقصود منها وقوف داوود بين اثنين من الأبواب، بل وصوله إلى موضع الثني وموضع الشعر، وهي الغابات التي تركتها القبائل للرعي الحرّ ولم تقترب منها يد الإنسان (ولنلاحظ التوافق الدلالي في الكلمة التي تؤدي معنى شعر الإنسان الكثيف، المهمل فهو قابل للاستعارة في وصف الطبيعة المهملة). إن وجود موضعين يحملان الاسم نفسه وفي المكان نفسه في نص صموئيل، لا يُضاهيه سوى النص التالي في صفة جزيرة العرب-وصف وادي حبل (٢٨٠-٢٨٢):

> **أوطان من الجوف: أوبن وطُبّ (..........) وحبل وعُضلة والصمع والجفرة أودية تسيل في الغائط وغرير، إلى وتران.كل هذا شعراء. بين (بلاد) شاكر والشعر الحمط إلى رحوب (..) وأوبن.**

هذا النص مثير للغاية لجهة توافقه التام مع وصف صموئيل: ها هنا وادي حبل والشعر ومواضع أخرى كثيرة كلها شُعَراء؛ وعلى مقربة منها رحوب وطُبّ- طوب وأوبن -ء بن الذي أعطى اسمه لجبل أبان. وبالطبع فهذا هو مسرح المعارك حيث اصطف الجنود والفرسان. لقد وصل داوود

إلى موضع الشعر وتوقف في الشَّعرْاء بعد معركة أبان- هعيزر[1] ضد الفلست (آل العيزار وفلست عند اليمنيين والتي نرى أنها دارت في وادي أوبن- ء بن) قبل أن تمتد إلى جبل أبان. هذا ما يُفسر مشاركة قبائل رحوب وطُب في القتال ضد داوود. هذا هو مسرح الحرب؛ والذي لا مثيل له في فلسطين من الناحية الجغرافية أو اللغوية. ولذلك أيضاً يستحيل تخيُّل حدوث مثل هذا التوافق بين صموئيل والهمداني كأمرٍ عرضي، ناجم عن مصادفات لغوية جمعت النصين. إن خصائص هذا التماثل المُدهش في التوصيف الجغرافي داخل النصين، هي من القوة والتماسك بحيث يصعب ردّها إلى أية بواعث أو دوافع أخرى غير التوصيف المُتناظر للمكان نفسه. فها هي الغابات البرّية بأشجارها الكثيفة تغطي مسرح الحرب في وادي حبل من منطقة الجوف اليمني، وصولاً إلى منازل سبط شاكر- يساكر في نجران وجُرش حيث جبل أبان. قالت عُميْرَة بنت مرداس (معجم: ٨٠٠):

كأنّ مُلقى المساحي من سنابكها بين الحنو إلى شعرٍ إذا ركبوا

وهذا المكان وصفه ذو الرُّمَّة بقوله:

أقولُ وشعرٌ والعرائسُ بيننا وسُمُر الذُّرا من هضبِ ناصفة الحُمْرِ

كما ذكره خُفاف بن نُدبة (معجم: ٨٠١):

تطاولَ ليلُهُ ببراقِ شَعرِ لذكرهم وأيُّ أوانِ ذكر

كل ما تبقى من مواضع هذا النص: ء رصه - أرض و لهميت- اللهيم، وهما موضعان حقيقيان تقيم في أحدهما جماعة من القبائل اليمنية

(١) تحولت أداة التعريف العبرية (ها) إلى (آل) فأصبحت ها-عيزر في التوراة آل العيزار عند الهمداني.

تدعى بنو أرض. يقول الهمداني عن هذه الجماعة التي تقيم في بيحان- علماً، أن بيحان هي الموطن القديم لقبيلة طيئ صاحبة بيت العبادة الفلس ومعها معظم بطونها من الرضاويين- ما يلي (صفة: ١٨٧):

طريق السرو والرباحة وجُبُل تفترق منه أودية يسكنها بنو أرض

هذا هو موضع ءرصه- أرض الذي اشتبك فيه داوود مع الفلست في طريق السرو. أما لهميت فليست سوى موضع اللهيم- والتاء اللاصقة مثل قرشت في قريش وفرست في فرس وفلست في فلس كما بيّنّا- وقد عدّه الهمداني ضمن مواضع ومنازل بني مرَّة قائلاً (صفة: ٢٩٦): اللهيم لمُرّة. على هذا النحو يمكن لنا أن نفهم وبصورة أفضل، التصوُّرات الجغرافية لمسرح الحروب التي خاضها داوود في السراة اليمنية.

وهذا ما سوف يتضح أكثر حين نحلل لغز بلاد بونت التوراتية.

لُغز بلاد البونت

نشبت إحدى معارك الملك داوود ضد ها- فلشتيم- فلستيم في موضع يُدعى جوب. والاسم كما في اللغة العبرية يُسجل ضمن جملة ها- ملحمة- ب- جوب أي: الحرب في جوب. لكن؛ وبدلاً من رسم الاسم ها- فلشتيم طِبقاً لقواعد العبرية في صورة الفلستيين أو الفلست- نسبة إلى فَلس، قام المُترجمون برسمه في الصورة النمطية التي لفقها المخيال الاستشراقي: الفلسطينيون. وبالطبع في إطار الإيحاء المقصود والمُتعمد بأن الحروب دارت في فلسطين التاريخية، من أجل تثبيت أسس ملكية مزعومة لا وجود لها في التاريخ الحقيقي. وبذلك تمَّ الربط بين هذه الحروب وقيام إمبراطورية إسرائيلية في فلسطين على يد داوود. يقول صموئيل الثاني: ١٤ :٢٢: ١٩: ٢١ النص العبري- ملحق إضافي للرواية:

(ويهي-ء حري-كن- وتهي-عود-ها-ملحمة-ب-جوب- عم- فلشتيم)
بعد ذلك، كانت هناك أيضاً حرب في جوب مع الفلستيين

يعني هذا أن الفلستيين- الفلست كانوا يقيمون أيضاً في جوب حين حدثت الحرب. إننا لا نعرف هذه الجماعة في فلسطين التاريخية، وليس ثمة موضع يُدعى جوب في طول فلسطين وعرضها؛ ولكننا نعلم من الهمداني أن جوب تقع بين جُرش ونجران في اليمن، وهي من منازل شاكر، التي نزلتها قبيلة طيئ وأنشأت هناك بيتاً من بيوت عبادة الفلس. إليكم وصف الهمداني لموضع جوب (صفة: ٢٢٠):

أما البون فقراه، رَيْدَة للعوييّن ورؤوس من بكيل (..) وبيت ذانم للعويين وجوب لشاكر.

لدينا في هذا النص المُكثف تحديد دقيق للموضع المقصود جوب، وبالرسم العبري نفسه وفي المكان الشهير والمعروف تاريخياً عند اليمنيين بلاد البون- بونت[1] (التاء اللاصقة كما في فلست وقرشت). وهما بونان البون الأعلى والبون الأسفل. وإذا ما رسمنا هذا الاسم على طريقة الأسماء المرسومة في النقوش اليمنية في صورة البونت، فسنكون وجهاً لوجه أمام اللغز المُحير في التوراة، والذي دارت حوله نقاشات عقيمة لا نهاية لها نعني بلاد البونت التي تذكرها التوراة. لقد تخيَّلت بعض الدراسات العربية هذا المكان على أنه بلاد الصومال أو الحبشة؛

---

(١) من بين أكثر التفسيرات غرائبية في استشراق الكتاب المقدس تصوير بلاد بونت على أنها (الصومال أو الحبشة). ويبدو أن بعض الكتاب العرب درجوا على ترديد هذه الفكرة المغلوطة. انظر المزيد في قوائم الكرنك التي سنعالجها في الفصول القادمة.

بينما نعلم من وصف الهمداني أن البون- البونت هي الحيز الجغرافي المُمتد من شمال صنعاء. ولدينا كذلك تحديد اسم الجماعة القاطنة فيه، فها هنا منازل شاكر المُتاخمة لبيت العبادة الشهير فلس.

ما دليلنا على ذلك؟ يقول صموئيل الأول: ٣١: ١٠: ١٣ في وصفه للمعارك الدينية ضد الفلستيين، إن هؤلاء كانوا جماعة وثنية تعبد الأصنام، وعندما صُرع شاول على أيديهم قاموا بسلب ثيابه وثياب القتلى معه كما استولوا على أسلحتهم، ثم اتجهوا إلى مضاربهم (يُبشِّرون في أرض الفلستيين كل في جهة بيوت الأصنام)[1]. وهنا لابد من الملاحظات التالية لتوضيح الصلة بين بلاد البون- البونت وجوب من جهة، الفلستيين من جهة أخرى.

١- حسب وصف الهمداني؛ فإن جوب تقع في أول حدود حاشد- حاسد في التوراة، إلى الجنوب من رَيْدَة وإلى الشمال من عمران، وهي من منازل شاكر، غير بعيد عن وادي ضباعين- صبعيم في البون الأعلى. وبذا فهي على مقربة تماماً من وادي حبل. هذا التحديد يجعل من المُستحيل إيجاد ما يُناظره في جغرافية فلسطين، فليس هناك وادي حبل قرب جوب كما لا توجد هناك بلاد البونت. على الضد من ذلك ها هنا المواضع ذاتها وبالأسماء ذاتها من دون أدنى تدخل أو تحريف من جانبنا.

٢- إن المرويات التاريخية العربية الكلاسيكية تصوِّر عبدة الفلس، بأنهم بطون من قبيلة طيئ ومن قبائل أخرى مجاورة دانت بهذا الدين، وهم عرفوا بالعبادة الوثنية وبأكل السُّحت - ها- مشحت أي الحرام (ولنلاحظ أن النص التوراتي وفي سياق تحقيره هذه الجماعة الوثنية

---

(١) حسب نص التوراة وهي إشارة إلى أن المقصود، بالفعل، بيوت العبادة الخاصة بالصنم فلس.

يصورهم وهم يجردون القتلى من بني إسرائيل من ثيابهم ويسرقون أسلحتهم). هؤلاء الفلست، إذا ما رسمنا اسمهم على طريقة النقوش اليمنية، وفي صيغة اسم الجمع كانوا يقيمون في جوب، وفي سلسلة من المواضع المجاورة مثل سلمى وأبان ووادي أوبن، حيث دارت هناك المعارك ضد داوود. وإذا ما افترضنا جدلاً أن الحرب كما تصورها المخيال الاستشراقي، دارت على أرض فلسطين؛ ففي هذه الحالة يجب البرهنة على وجود كل هذه المواضع والجماعات هناك؟ وذلك أمر ثبت استحالة الوصول إليه. وفي السباق يجب البرهنة على وجود موضع جوب في فلسطين حيث هُزم فيه الفلسطينيون المزعومون؟

٣- في المعركة المُسماة معركة بُعل فرصيم (صموئيل الثاني٥: ١٢: ٦: ٢) يروي صموئيل كيف أن فلشتم هربوا من أمام داوود، تاركين أصنامهم في ميدان المعركة حيث استولى عليها داوود بنفسه. وإذا ما أضيفت هذه الإشارات إلى ما سبق ذكره من وقائع مُماثلة، فسوف يتضح أن الجماعة التي حاربها بنو إسرائيل، لا صلة لها بفلسطين ولا بالفلسطينيين، على الأقل ليس هناك موضع في فلسطين عرف، في أي وقت من التاريخ بوجود هذا العدد من بيوت العبادة الخاصة بالإله الوثني الفلس، أو مسيل مياه يُدعى فرصيم، بينما نعلم من الهمداني أن مياه فرصيم هي مياه معروفة في اليمن القديم، وهذا ما سوف نتوقف عنده تالياً.

٤- فضلاً عن هذه الإشارات وسواها كثير هناك أمر هام يتعين لفت الانتباه إليه؛ فالهمداني يضع جوب قرب منازل العويّين- كما في النصّ الآنف- وهؤلاء عند يشوع وفي نصوص التوراة يظهرون في مسرح التاريخ في الصيغة ذاتها العويم. فهل أقام الفلست في فلسطين المُتخيَّلة قرب العويين؟ في الواقع ليس ثمة جماعة بهذا الاسم في فلسطين التاريخية،

لأن موطنهم هو الجوف اليمني في البلاد المعروفة بالبون- البونت، ولهؤلاء صلة حقيقية بما يُعرف في نصوص يشوع بالهجوم على العيّ- العي ويريحو- يريح. نخلص من ذلك إلى تقرير الحقيقة التالية: إن وجود جوب في الجوف اليمني قرب كل هذه المواضع والمنازل والجماعات الواردة في نصوص التوراة، ينسجم مع وصف صموئيل لحروب داوود في وادي حبل. قال حُميد بن ثور واصفاً جوب:

أنتم بجابية الملوكِ وأهلنا بالجوف جيرتنا صُدّاءُ وحِميْرا

جابية هذه هي صيغة التحبُّب لجوب التي عُرفت بملوكها الأشداء في التاريخ اليمني؛ وهم ينتسبون حسب شجرات أنساب اليمنيين إلى جوب ابن مالك بن معاوية بن دومان (معجم: ٤٠٦).

مرثية داوود في مصرع يونتن ابن الملك شاول

يثير الموضوع الفلسطيني في التوراة؛ بما هو تخيّيل لجماعة قبلية نُظرَ إليها على أنها هي الشعب الفلسطيني، جملة من المشكلات أمام علماء التوراة. من بين أكثر هذه المشكلات استعصاءً على الحل، أن هذه الجماعة لا ينطبق عليها التوصيف الجغرافي الخاص بمواضعها، ولا كذلك حالتها الدينية والاجتماعية فضلاً عن وجودها في فضاء جغرافي وسكاني يستحيل مُطابقته مع فلسطين القديمة. وفي هذا السياق تمثّلُ مرثية داوود عن مصرع الملك شاول وابنه على يد الفلستيين، نموذجاً هاماً للغاية عن التلاعب والعبث في أسماء المواضع في المخيال الأوربي. لقد قمنا باستبعاد الترجمة العربية للقصيدة بسبب تشويهها المُفرط للدلالات والمعاني الحقيقية، وسنقوم -هنا- بإعطاء ترجمة بديلة على أن نُبيّن نمط التلاعب في النسخة العربية.

تقول مرثية داوود (صموئيل: ٥: ٢: ١٩: ١- النص مُختصراً):

هصبي- يسرئيل-عل- ب- موتك. حلل-ء يك-جفلو-جبوريم ءل-تجيدو-ب-جت. ءل- تبشرو-ب- حوصت-ء شقلون. فن- تشمحنه-بنوت- فلشتيم. فن-تعلزنه-ها-عري- ءل-طل-ءل-مطر عليكم-وشدي-حرموت - كي-شم-ننعل-مجن-جبوريم. مجن-شءول-بلي-مشيح-ب-شمن. م-دم-حلليم-م-حلب-جبريم. قشت-يهونتن-لء-نشوج-ءحور. م- نشريم-قلو-م-ءريوت-جبرو ءيك-جفلو-جبريم-بتوك-ها-ملحمة؟ يهونتن-عل-ب-موتك-حلل.

في هذه القصيدة يرثي داوود الملك شاول وابنه يونتن إثر مصرعهما في الحرب مع الفلستيين. وعلى غرار تقاليد الشعر القديم، تصوُّر القصيدة الأماكن التي دارت فيها الحرب وهي تقول ما يلي بصدد مصرع يوناتن:

يلوح السناء[1] في جبل- (موتك)
فكيف يا إسرائيل سقط الأبطالُ؟
إلى (جتّ) لا تُسرعن
وفي (حوض) و(ء شقلون) لا تُبشّرن
يا بنات الفلست لا تفرحن
ويا بنات القُلف لا تبتهجن
في النجادِ الخصيبة عليكن الطّلُ والمطرُ
وحيث هناك تتلطخ بالدماء
دروع الأشدّاء
تُرسُ شاول في (بلي)
مُضمّخ بالزيت

---

(١) تعني : هصبي، سناء، مجد، بهاء.

من دمِ القتلى ومن شحم الأبطال
قوس يونتن لن يرتدّ إلى وراء
هو أسرع من النسور
وأشدّ من الأسود
فكيف في الميدان سقط الأبطال؟
وفوق (موتك)
سقط يونتن قتيلاً؟

في إطار الموضوع الفلسطيني ذاته كما صوَّرته القراءة الاستشراقية، جرى تلاعب فظيع في أسماء المواضع التي دارت فيها المعارك، استطراداً في تلاعب أعم جرى داخل النص التوراتي، بأسماء الجماعات المنخرطة في هذه الحروب. فبدلاً من اسم موتك وهو اسم لواحد من الجبال الشهيرة في اليمن، تمَّ وضع كلمة روابيك - جمع رابية- لتصبح الجملة العبرية (ها- صبي - يسرئيل - عل- ب- موتك) على النحو التالي (بهاء إسرائيل قتيل على روابيك). وهذه جملة غير مفهومة، إذ كيف يكون البهاء قتيلاً على الروابي؟ ما يقوله هذا الشطر من القصيدة هو أن يونتن ابن الملك شاول سقط في معركة جرت عند مرتفعات جبل موتك. وهذا الجبل يصفه الهمداني ويضبط اسمه في الصورة ذاتها : جبل موتك، تماماً كما في العبرية موتك. إليكم ما يقوله الهمداني (صفة : ٣٤) في وصف تهامة حيث دارت رُحى الحرب كما قلنا :

ثم يتلوه وادي مَوْر وهو ميزاب تهامة الأعظم (..) ويمّ. مساقط الشرف شرقاً وجنوباً (..) شمالي موتك وحجّة.

لاشك أن وجود جبل موتك في تهامة غير بعيد عن وادي الحوض-

حوصت (كما في وصف صموئيل للواقعة) أمر يستحيل تجاهله، فالبيت التالي من المرثية يقول (ءل- تبشرو ب-حوصت) وقد تُرجمت في النص العربي من التوراة إلى (لا تُبشروا في الأسواق)؟ في الواقع لا تعني كلمة حوصت في العبرية أسواق؛ بل وادي الحَوَض- القريب حيث دارت معركة ضارية سقط يونتن إثرها قتيلاً. هذا التوافق المُذهل بين وصف صموئيل للمكان ووصف الهمداني، يُمكِّن القارئ من تفهم أكبر للجغرافية التي دارت فيها الحروب. أما جث فسبق لنا تحديدها في منازل الأسباط - الجزء الأول من الكتاب- وسوف نعيد تحديدها من جديد هنا. لنلاحظ أن جبل موتك يقع على مقربة من جبل الشرف -الشرف في التوراة، وكنا أشرنا إلى هذا الجبل في قصيدة عمر بن ربيعة في وصف وادي السكب- يقول الهمداني (صفة: ١٢٦) ما يلي:

وموتك، وحجّة وقد يكون إلى سراة المصانع أميل (......) وباري والصرحة فذاهباً إلى جبل الشرف المطل على تهامة.

هذا هو جبل موتك؛ وعلى مقربة منه وادي حوض-حوصت المنسوب إلى ءشقلون-ءشكلون (حسب البناء العبري للأسماء) وموتك هو الأقرب إلى سراة المصانع أي: سراة الحصون من صنعاء. أما موضع بلي-بله في التوراة، والذي قاتل فيه شاول قبائل الفلشتيم فهو عند الهمداني بلي أيضاً، ما يقع ضمن أوطان بلحارث وعلى مقربة من جُرَش ووادي أيا- أي، ووادي مذاب- مدبء. يقول الهمداني (صفة: ٢٨٣) ما يلي:

ومن أوطان بلحارث صاغر وحصن بلي. والهجر القديمة موضع الأخدود. وحرر، يهبط إلى الخارد قبل عمران.

وكنا تحدثنا عن واقعة الأخدود الشهيرة عندما قام يهود اليمن بإحراق نصارى نجران. كل هذه الأمثلة عن كيفية التلاعب بالموضوع الفلسطيني في التوراة، تمهد السبيل أمامنا لطرح أفكار محددة عن إمكانية إعادة النظر في مسألة أرض التوراة جذرياً، ورؤيتها في سياق توصيف أرض اليمن القديم وتاريخه وأنساب قبائله، وليس بوصفها أرض مملكة إسرائيلية في فلسطين، وهذا ما سنراه في الكلام عن معارك داوود التالية.

معركة جبع ومدخل جازر

يُصوِّر سفر صموئيل الثاني جانباً من المعارك التي خاضها داوود ضد، ها- فلشتم أصحاب الأصنام، ومنها صنم يدعى الفلس؛ في مساحة جغرافية واسعة تمتدّ من جبع- جبأ حتى جازر. توضع جازر عادة في شروح النصّ التوراتي على حدود فلسطين التاريخية، ولكن من دون تحديد دقيق أو توضيح كافٍ لمكانها الحقيقي. والمثير أن نصّ صموئيل يشير إلى ما يلي: استعد الفلستيم للحرب ضد داوود فانتشروا في وادي روفء يم، فنشبت الحرب أولاً في جبع وامتدت حتى جازر. وفي الحقيقة أن فلسطين التاريخية لا تعرف هذه الأسماء.

يقول صموئيل (الثاني: ٥: ١٢: ٦: ٢):

وأوقعَ داوود الفلستيين من جبع حتى مدخل جازر

يُرسم اسم جازر في العبرية في صورة جزر - من دون تصويت-. بينما يرسمه الشعر الجاهلي في صورة جازر أيضاً. قال أعشى همدان (معجم: ١٢٢٤):

لعمر أبيكَ الخير ما كان مألقي منازل بالمسحاة من شط جازر

وادي جازر هذا عند الأعشى- أعشى همدان اليمني، يُعدّ من منازل القبائل العربية، وهو ذاته وادي جازر عند صموئيل النبي اليمني. وبالطبع ليس ثمة وادي جازر في فلسطين باعتراف علماء التوراة أنفسهم، الذين اضطروا إلى القول: إن هذا المكان هو على حدود فلسطين. وإذا كان مثل التحديد الاستشراقي مقبولاً لأغراض السجال؛ ففي هذه الحالة يستحيل قبول رواية صموئيل، الذي يتحدث عن هزيمة الفلسطينيين في جازر حسب القراءة الأوربية؟ إن معرفتنا بوادي جازر هذا كما وصفه أعشى بني همدان، تقول ما يلي: تسيل مياه هذا الوادي من ردمان وهو من أودية الحِمْيَريين من بني عبد، على مقربة من وادي حوران ورُواف وقد تبلغ مياهه مُرّ الظهران، باتجاه مضارب قبيلة طيئ غير بعيد عن جُرش. وفي هذا الفضاء الجغرافي تُقيم الجماعات التي عبدت الفلس-الفلست وانتسبت إليه قديماً. وإذا ما تتبعنا وصف الهمداني لجبل جبأ- جبع فسيكون ممكناً، آنئذٍ، رؤية مسرح الحرب بوضوح، فهي امتدت باتجاه نجد اليمن وصولاً إلى جُلجُل- جلجل في العبرية، التي وصلها داوود في أثناء مُطاردة ابنه المُتمرد أبشالم على ما يُخبرنا صموئيل. إن فلسطين التاريخية لا تعرف جُلجُل هذه، بينما عرفها الشعر الجاهلي وتغنى بها امرؤ القيس اليمني- الحميري في مُعلقته الشهيرة وسمّاها دارة جُلجُل. أما وادي روفـء يم- مفرده روف في العبرية وصيغة الجمع: روف ءيم- فهو ذاته عند الهمداني وادي رُواف- صيغة الجمع العربي للمفرد روف غير بعيد عن جبأ. وهذا ما سنراه بالتفصيل في مكانه المُناسب.

يقول صموئيل في روايته عن تمرد أبسالم- أبشالم على والده الملك داوود ما يلي:

وواصل الملك سيره إلى جُلجُل (٢٠ : ٤٠ : ١٩)
فوصل يهوذه إلى جُلجُل (٢١ : ٨ : ١٩)

هاتان الإشارتان وسواهما كثير في نصوص التوراة، تُدللان بقوة على أن جُلجُل، هي في المكان نفسه الذي دارت فيه الحروب والمعارك المتواصلة. ودليلنا على ذلك قول الأسود بن يعفُر (المُلقب بالأعشى أيضاً: معجم: ٣٨١):

يَقلنَ تركنَ الشاءَ بين جُلاجلٍ وجَزْرَة قد هاجت عليه النسائمُ

إن بيت الأسود بن يَعفُر يضع جازر- جزر- جزرة في التصغير للتحبُّب قرب جُلجُل، واصفاً إياها بالوادي الذي تهب عليه النسائم حيث تُركت الخراف تسرح في المكان. وهذا توافق مثير يصعب العثور على ما يُماثله في جغرافية فلسطين التاريخية. وسوف نتوقف مُطولاً عند جُلجُل هذه في مكانها المناسب نظراً لورودها في أسفار مختلفة من التوراة. لكل ذلك؛ فإن داوود وبعد معركة جبع- جبأ مباشرة اتجه صوب وادي جازر لملاحقة الفلستيم؛ وهؤلاء اتجهوا إثر الهزيمة صوب ديارهم للاحتماء بالوادي. إليكم وصف الهمداني الدقيق لوادي جزر هذا (صفة: ١٨٦):

رجع إلى ردمان: نوعة والمسمق الأسفل لبني مليك وهم من حمير، حَرْية للرمسيِّين. وذو جزر لبني عبد من حمير (..) حوران ورُواف وقاينة والعولة والحجلة.

هذا هو وادي جزر- ذو جزر كما سمي في عصر الهمداني أو شط جازر- بالمدّ كما في الشعر الجاهلي- على مقربة تماماً من وادي روف ءيم- رؤاف- صيغة الجمع ذاتها- وهما معاً على مقربة من وادي حَرْيَة وبني مليك- وادي حرية وبني ملك في نص صموئيل.

من معلاة الزيت إلى وادي الرّس

في سياق هذه الحرب؛ كان على داوود أن يتجه نحو موضع ء رس، مُبتعداً عن موضع زيتيم ليواجه هناك خصومه من أتباع قائد جيش شاول-ساول. بيد أن هذا السياق الواضح للأحداث تعرض للتشويه في المخيال الأوربي، ثم في المخيال العربي مع ترجمة التوراة إلى العربية. لقد حلَّت أسماء غريبة وجديدة- في الرواية التوراتية- محل الأسماء الحقيقية في النصّ العبري، وذلك بهدف مُطابقتها مع أسماء مُحتملة في فلسطين يمكن الحصول عليها بفرضيات لغوية عن تحولات فونيطيقية، أو تماثلات من نوع ما حدثت في مباني الأسماء. ومن أجل توضيح الأمر بمنهجية أكثر وضوحاً فسوف نسوق المثال التالي: في نص صموئيل الثاني- النص العبري ٣٥: ٢٠: ١٥ -العربي: ١٥: ١٥: ٣١ - نقرأ:

(ودود- عله- ب- معله-ها- زيتيم-عله-وبوكه-وء رش -لو-حفوي-وهوء-هلك-يحف-وكل -ها- عم-)

وصعد داوود مُرْتقى الزيتون وكان يصعد باكياً ورأسه مُغطى وهو يمشي حافياً وكل الشعب.

(ودود- عبر-معط -م- ها- ر ءش)

فلما عبر داوود عن القمة قليلاً

تكمن مشكلة هذين المقطعين في العربية كما قدمهما مترجمو النصّ العبري التوراتي، في أنهما يعطيان صوراً غرائبية عن رجل يصعد جبلاً وقد غطى رأسه، ثم مضى باكياً ومعه كل الشعب قبل أن ينحرف عن قمة الجبل قليلاً. وهذا ما لا نجد له في سياق الحروب والانتصارات التي أحرزها داوود، أدنى تبرير أو معنى. في الواقع صعد داوود جبال الزيت-زيتيم، وليس إلى جبل الزيتون، ذلك أن الاسم في العبرية هو زيتيم اسم

جمع لا مفرد له. وداوود لم ينحرف عن القمة وإنما عبر الجبال إلى الوادي القريب، في طريقه للقاء خصومه في مكان يُدعى الرس. هذا الفهم الخاطئ للنصّ ناجم في الأصل عن ترجمة كلمة: ها- رء ش- الرأس إلى القمة. ما تقوله الجملة ببساطة أن داوود صعد جبال الزيت ليصل إلى موضع الرّس؛ وهما موضعان سجلهما الهمداني والبكري في الفضاء الجغرافي نفسه؛ ولذا يتوجب قراءة المقطعين على النحو التالي:

(وصعد داوود معلاة الزيت باكياً، ثم الرس وغادر محمياً يحف به كل الشعب)

(ولما عبر داوود- جبل- معط من الرّس)

ثمة موضع آخر يُضيفه نصّ صموئيل إلى هذه الجغرافية هو بحوريم: ولما وصل داوود إلى بحوريم - ٥١ : ٣٢ : ٣ : ١٦ : ١١. وبذلك يُفهم من هذا التتابع في أسماء المواضع والأماكن التي دار فيها القتال أنها، وعلى نحو ما، قرب بعضها البعض بحيث تمكن داوود بسرعة من مطاردة خصومه واللحاق بهم، في الأودية والمرتفعات المُحيطة بالمكان. مثل هذه الأسماء وبمثل هذه الجغرافية، لا تعرفها فلسطين التاريخية بطبيعة الحال؛ بينما تعرفها خريطة اليمن التي رسمها الهمداني في وصف دقيق وبليغ. وفي مكان آخر من النصّ العبري يقول صموئيل (ويهي-دود- ب ء- عد-ها- ر ءش) وقد تُرجمت الجملة على النحو التالي (ولما انتهى داوود إلى قمة الجبل - ١٥ : ٣٢ : ١٦ : ١١) لنلاحظ أن النص العبري لم يستخدم كلمة هر- بمعنى جبل في وصف المكان، بل اكتفى بذكر الاسم من دون توصيف. يعني هذا أن كلمة ها- رءش العبرية عند المترجمين قد عنت (قمة الجبل) أو (القمة) بإطلاق من دون دليل مقبول على صحة هذا الفهم للكلمة. لكن كمال صليبي في (حروب داوود: ٧٣) اقترح أن تُقرأ الكلمة في صورة الرّيس وهو موضع في بلاد عسير. ومع أهمية هذا

الاقتراح؛ فإنه ظل بعيداً عن الحقيقة الخاصة بمسرح الأحداث. إن سياق الرواية التوراتية يتحدث عن صعود معلاة زيتيم - الزيت، ثم المسير منها نحو ها- رءش. وفي الواقع ليس ثمة جبل يُدعى جبل الزيتون في فلسطين التاريخية قرب جبل ها- ر ءش، ولا وجود لهما في بلاد عسير قرب بعضهما؛ بينما نستطيع رؤيتهما قرب بعضهما بالفعل- وكما في النص العبري- داخل خريطة اليمن القديم. ليس جبل ها- ر ءش هذا، سوى وادي الرّس الشهير في المرويات العربية التاريخية وفي القرآن. قال زهير بن أبي سُلمى (ياقوت: ٣: ٥٠):

بَكَرنَ بكوراً واسْتَحَرنَ بسحرة فَهنّ لوادي الرَّس كاليد للفمِ

وادي الرس، هذا الذي عبره داوود بعد أن صعد معلاة الزيت، من الأودية القديمة عند العرب وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في آية ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨/٢٥]. هذه المعرفة المباشرة للقرآن والشعر الجاهلي بوادي الرس، لا يمكنها إلّا أن تكون خلاصة حقيقة جغرافية وتاريخية عن ارتباط هذا الوادي وسكانه بالحروب الدينية. والوادي- بحسب وصف الجغرافيين العرب القدماء والشعر الجاهلي- يصبُّ في وادي الرُّمة ماراً بوادي عاقل قرب حضرموت[1]. ونحن نعلم من تاريخ اليمن أنَّ ممالكه القديمة توزعت في كل المواضع والأماكن التي تشكل اليوم كيان اليمن، وأن هذه الممالك الصغيرة شهدت حروباً دينية وسياسية مدمرة. ولذلك يبدو امتداد معارك داوود إلى وادي الرّس أمراً مقبولاً في السياق. ومما يُدلل على ذلك أن الإخباريين العرب (انظر ياقوت - مثلاً: ٣: ٥١) الذي ينقل بعض هذه الروايات وكذلك البكري: (٦٥٢) يقولون عن وادي الرّس ما يلي:

---

(١) وادي عاقل: على ما تقول روايات الإخباريين العرب، هو الوادي الذي مات فيه آكل المُرار المؤسس الأسطوري لمملكة كندة - انظر بني مرر في التوراة.

إن الله أرسل إلى أهل الرّس نبياً كان يُقال له موسى، وليس موسى بن عمران، وفي وادي الرّس قتل داوود عليه السلام جالوت ورهطه.

تُرى على أيّ أساس بنى الإخباريون العرب القدماء روايتهم عن حروب داوود ضد جالوت في وادي الرّس؛ إذا ما كانت هذه الحروب دارت أصلاً في فلسطين؟ والآن إلى المقطع الثاني من النّص: إن إعادة قراءة الأسماء في صيغها العبرية بصورة صحيحة ودون تعسف سوف تُفند الترجمة السائدة، ذلك أن جملة ودود-عبر- معط-م-ها-ر ءش، لا تعني وداوود عبر عن القمة قليلاً بمقدار ما تعني أن داوود عبر جبلاً يسمى معط من وادي الرّس. وهذا الموضع هو ذاته الموضع اليمني الشهير معيط، الذي وصفه ساعدة بن جُؤَية الهذلي (ياقوت: ٥: ١٨٦) بقوله:

هل اقتنى حدثانُ الدهر من أنسٍ   كانوا معيطِ لا وحشٍ ولا قَزِمِ

ومعيط -معط هذا؛ مسيل مياه قادمة من الأودية القريبة من جبل ثافل- توفل في التوراة. يقول البكري[1]: إن معيط كانت مسرحاً لحروب طاحنة هُزمت في إحداها قبيلة هذيل. وبذلك يُصبح منطقياً أن داوود عبر وادي الرَّس من مسيل مياه معيط القريب، وهذا الفهم للنص يتطابق كلّ التطابق مع النص العبري. إننا لا نعرف مثل هذه المواضع في فلسطين التاريخية وليس ثمة دليل على أنها وجدت هناك. في هذا السياق تُروى في الشعر العربي-وشعر العصر الأموي- قصيدة هجاء مُقذعة لدعبل الخزاعي، قالها بحق الأسرة الأموية الحاكمة وبحق معاوية بن أبي سُفيان. مُذكراً إياهم، في صيغة تحقيرية، بأنهم أبناء معيط (الموضع). قال:

أبناء حربٍ ومروان وأسرتهم   بنو معيطٍ ولاة الحقدِ والوغرِ

---

(١) انظر: معجم: ١٢٤٦ ط: القاهرة، و١: ٣٠١ و٤: ١٠٦ من طبعة بيروت.

يتبقى أن نشير إلى معلاة الزيت-زيتيم وموضع بحوريم الذي بلغه داوود في هذه المعارك. يقول البكري (معجم: ١٠٢١) ما يلي: قال ابن إسحاق: وبناحية الفرُع معدن يُقال له بحران وإليه بلغ رسول الله ﷺ بعقب غزوة السويق، يريد قريشاً وأقام به شهرين وانصرف ولم يلق كيداً. كلمة بحريم- بحوريم العبرية هي اسم التثنية من بحر: بحران؛ وبكل تأكيد ليس هناك أي موضع في فلسطين يحمل هذا الاسم، قرب الرّس ومعط وغير بعيد عن وادي حبل. بينما نعلم أن أرض الفرُع عند العرب القدماء هي من منازل قبيلة عاد المُندثرة، حيث يُزعم أنها أول قرية أقام فيها إسماعيل الأب الأعلى للعرب. لكن الهمداني يؤكد أن المقصود بالموضع بحران منازل قبيلة الأزد اليمنية، ويُدلل على ذلك ببيت شعر منسوب إلى شاعر من أبناء أسعد كرب ملك اليمن (صفة: ٣٢٦):

وأزد لها البحران والسيف كله   وأرض عُمان بعد أرض المشقرِ

في هذا الفضاء الجغرافي للمعارك تقع معلاة الزيت التي ذكرها الفضل بن عباس اللّهبي (ياقوت: ٣: ١٨٢):

فوارعُ من جبال الزيت مدَّت   بسافتها وأحماتِ الجبابا

ولنلاحظ أن النص العبري يستخدم - في وصف المكان- كلمة دالَّة على الصعود، من دون الإشارة إلى أن المكان هو جبل- هر- بالعبرية؛ بما يعني أن هذه المعلاة ليست جبلاً واحداً؛ بل سلسلة من المرتفعات تُدعى الزيت تماماً كما في النص. ويبدو أن ياقوت نفسه كان حائراً في تعريف المكان فقال عنه، إنه أحجار تُدعى أحجار الزيت، مع أن القصيدة تقول عنه: إنه سلسلة جبال.

معركة رحوب ويوم (حِلمه)

لنعد الآن إلى المسرح الذي دار فيه القتال، إلى وادي حبل: يقول النصّ: إنَّ المعارك شهدت انحياز بعض القبائل إلى جانب بني عمون، في محاولة مستميتة لمنع لداوود من الاندفاع عسكرياً صوب مضارب هؤلاء، وإحباط خططه للهيمنة على الرَّبة (عاصمة نجران القديمة وموطن بني عمون التاريخي) كانت أنظار داوود تتجه إلى السيطرة بسرعة على الرّبة منذ اللحظة التي تلقى فيها أنباء وفاة ملكها؛ وهذا ما خلق وضعاً جديداً اضطرت معه عمون إلى الاستجارة بالقبائل المُتحالفة معها، وخصوصاً طيئ وبطونها من الرضاويين عباد الفلس، وبجيرانها من الذين كانوا يدركون مخاطر نفوذ الملك داوود عليهم؛ والمخاطر الناجمة عن اندفاعته الحربية هذه. ولذلك سارعت قبائل إرم القاطنة في صُبيا وطُب وعك (معكه- العكا بمعاملة الميم القديمة في أول الاسم كأداة تعريف زائلة) وجوب ورحوب وسواها؛ إلى تجهيز قوة حربية تزيد عن اثني عشر ألف رجل اتجه قسم منها صوب النجد، لتطويق قوات داوود ومحاصرتها داخل طوق كثيف من المُحاربين. نشبت المعركة الكبرى في موضع يُدعى حِلم-حيلم. بيد أن داوود سرعان ما تمكن من الإيقاع بالإرميين في حيلم بعد أن عبر وادي اليردن (أي وادي مور ميزاب تهامة). وهذا ما مهَّد السبيل عملياً أمام إبرام معاهدة صلح خضعت القبائل بموجبها لسلطة داوود. في رواية صموئيل هذه، لدينا اسم رحوب كاسم لجماعة وموضع، بالإضافة إلى موضع حيلم قرب وادي اليردن. إننا لا نعرف موضعاً أو جماعة قبليّة قديمة في فلسطين تُدعى رحوب، ولا موضعاً يُدعى حيلم؟ فأين وقعت هذه المعركة الكبرى؟ يقول النصّ التوراتي:

> **وكمنَ الآراميون في صُبه ورحوب، ورجال من طُب والعكّ في النجاد**

قد تكون هناك حاجة لتكرار فكرة أن الميم في معكه- كما في النص العبري- والتي حيَّرت علماء التوراة، هي ذاتها أداة التعريف المنقرضة في اللهجات اليمنية القديمة. هذا التوضيح ضروري من أجل توطيد النتائج اللغوية الخاصة بهذا الجانب اللغوي، وعلاقتها المباشرة بأسماء المواضع والجماعات التي ظلت لُغزاً مُحيِّراً. ما يقوله هذا النصّ واضح كلَّ الوضوح: لقد استجار بنو عمون بقبائل الساحل اليمني، من الإرميين سكان صُبيا وعكّ ورحوب وطُب؛ وهؤلاء اتبعوا تكتيكاً حربياً ناجحاً لصد ومُقاومة حملة داوود، التي هدفت -كما سوف يتضح من مجرى الأحداث- إلى الاستيلاء على الرَّبة عاصمة العمونيين، وذلك بنصب كمائن في النجد (- ب- سده)[1] والانتشار فيه. بيد أن هذه المحاولة أخفقت في النهاية، مع حدوث هزيمة مبكرة في موضع حيلم. في الواقع وحسب النص العبري، يبدو من المؤكد أن رحوب هي على مقربة من المواضع السالفة غير بعيد عن وادي حبل، حيث دارت رحى الحرب (انظر جوب في الخرائط). إن سياق النصّ الذي يعرضه الهمداني علينا لا يدع أدنى مجال للشك، بأن التطابق مع نص صموئيل لا يصدر عن مجرد توافقات لغوية. وهنا نص الهمداني الذي تحدثنا عنه في مادة حبل والشعر (صفة: ٢٨٢):

وحبل وعضلة والصمع أودية تسيل إلى الغائط وغرير، وقسمهم من الحجر ولوائلة (..) كل هذا شعراء، بين شاكر والشعر الحمط (..) ورحوب مسيلها إلى رباق ومُرَن ينتهيان في الغائط وكتاف يسيل إلى العقيق.

---

(١) يتضح الآن بجلاء أن كلمة سدة لا تعني: الحقل كما أراد المترجمون والمحققون إيهامنا..

قال الأخطل واصفاً مسيل مياه وادي رحوب :

طوالعُ من نجد الرحوبِ[1] كلما رمى الآل بالإظعان حواسلا

ينسجم وصف الأخطل لنجد رحوب وإلى جواره موضع الآل- بيت ءل، كل الانسجام مع وصف صموئيل الذي يتحدث عن (سده- النجد). هذا يعني أن القبائل العربية تجمعت بالفعل، في النجد بعد أن تلقت من بني عمون طلباً بالمساعدة على صد حملة داوود، وليس في الحقول كما في القراءة الاستشراقية. وهناك، كما يتضح من سياق الأحداث، دارت معركة قاسية هي استطراد لسلسلة من المعارك في مواضع أخرى. ويبدو أن وادي رحوب هذا اشتهر عند العرب القدماء بمعارك لا يعرف أحد أي شيء عنها، من ذلك مثلاً المعركة التي تباهى بها جرير في قوله :

وقد شقَّقت يوم الرحوب سيُوفاً عواتقَ لم يثبُت عليهنّ محملُ

إن الكثير من المعارك التي تُسمى عند القبائل، في سجلّاتها وفي أشعارها بأيام العرب؛ والتي دارت في مواضع بعضها معلوم، ومعروف وبعضها الآخر لا يُعرف عنه أي شيء، تظل مادة مُحيرة من المنظور التاريخي، لأننا نجهل تفاصيلها وظروف اندلاعها وأسبابها، والأهم من ذلك العصر الذي وقعت فيه. ولذلك تكمن أهمية نصّ الهمداني الآنف في قدرته على تحديد رحوب ووادي حبل والشعر، إلى جوار سلسلة من المواضع تعتبر كلها شَعرْاء، أي غابات كثيفة الأشجار لم يتدخل الإنسان في فلاحتها. وهذا التحديد ينسجم كل الانسجام هو الآخر، مع نص صموئيل ومع طبيعة المسرح الحربي الموصوف. ها هنا وادي رحوب

(١) ما يقوله بيت الأخطل (نجد الرحوب) يؤكد ما ذهبنا إليه، فهم كمنوا لداوود في نجد اليمن (مرتفعاتها) وليس في الحقول.

الذي أخذ اسمه من اسم الجماعة التي أقامت فيه، وقد بدا وكأنه ينفتح على النجاد -جمع نجد بمعنى المرتفعات الجبلية- فضلاً عن ذلك؛ فإن وادي رحوب يقع على مقربة من وادي كتاف (كتاف عند يشوع كما رأينا في الجزء الأول). وفي هذا الفضاء الجغرافي دارت مروية التوراة غير القابلة للتصديق عن امرأة أورية الحثي- الحوثي[1] التي شاهدها داوود وهي تستحم فأخذها وضاجعها. قال الجحّاف (ياقوت: ٣: ٤٢) واصفاً وادي رحوب الذي كان ميداناً لمعارك القبائل:

مرّوا على صهباء بليل دامسٍ رَقَدَ الدثورُ وليلهم لم يَرقُدِ

فصبَّحن عاجنة الرحوبِ بغارةٍ شعواء ترفلُ في الحديد الموجدِ

وقال جرير وهو يستعيدها كمعركة ضارية هُزمت فيها قبائل سُليم:

تَركَ الفوارسُ من سُليمٍ نسوة عجلاً لهنَّ من الرحوبِ عويلُ

وقال أيضاً:

رَقَصت بعاجنة الرحوبِ نساؤكم رقصَ الرئالِ وما لهنَّ ذيولُ

يبدو من سائر هذه القصائد الجاهلية ومن شعر العصر الأموي كذلك، أن ذكريات العرب عن وادي رحوب، ظلت تحتفظ بقوة زخم أخلاقية عالية، لارتباطها بسلسلة من المجابهات الدامية بين القبائل في مختلف

---

(١) من بين أكثر أشكال التزوير افتضاحاً في تأويلات وتفسيرات محققي التوراة، الزعم أن الحثيين الذين يرد ذكرهم في نصوص التوراة، قصد بهم أبناء الحضارة المعروفة باسم حضارة الحثيين (في تركية). فيما التوراة تشير إلى وادي حوث، وإلى امرأة حوثية بعينها. وللحوثيين اليوم وذلك ما يؤكده توارد الأنباء عن ظهور جماعة مسلحة من أنصار حسين الحوثي تقاتل في جبال صعدة ضد الحكومة المركزية في صنعاء.

العصور، على نحو بات من المتعذر معه بالفعل فكّ الارتباط، بين ما هو ذكريات راسبة وموغلة في القدم، وبين ما هو وقائع حدثت تالياً. كما أن الإسلام نفسه، بكل طاقته التوحيدية الهائلة وقدرته على دمج القبائل المتنافسة في أمة واحدة، لم يُخفف من وطأة حضور هذه الذكريات حتى مع بدء عصر الاستقرار الجماعي العظيم. لقد ظلت القبائل برغم كل هذا، تعيش بعمق وجداني ذكريات حروب بطولية، شكلت بالنسبة إليها من المنظور الأخلاقي والثقافي عصراً بطولياً بأتمّ معاني الكلمة.

وفي كل الأحوال؛ فإن هذه الذكريات لا تَخْتَزِنُ صور المعارك القبلية التي دارت عشية ظهور الإسلام وحسب، وإنما كذلك، كل ما أمكن دمجه من صور قديمة، سابقة على ظهور الإسلام وربما موغلة في القِدم. وهذا ما تمكنُ ملاحظته من حيرة المؤرخين الكلاسيكيين وعلماء اللغة والجغرافيين العرب، وحتى الشعراء، إزاء موضع حليمة الذي يُنسبُ إليه اليوم الأكثر شهرة في تاريخ الحروب والمعارك بين قبائل العرب نعني يوم حليمة. إن هذا الاسم وذكراه المُطَّردة في الأدبيات الكلاسيكية العربية والشعر، كان عصياً - باستمرار- على أفهام المؤرخين، فلا أحد تقريباً يملك رواية متماسكة وقابلة لأن تُروى بأريحية، وسلاسة وبمنطق متماسك عن هذا اليوم الاستثنائي في حياة القبائل. كما ظل مُتعذراً تحديد موضع حليمة بالنسبة إلى الجغرافيين المسلمين. ومن المتعذر بالفعل رؤية رواية واحدة مقبولة تعرفنا إلى معنى (يوم حليمة) وبين مَنْ من القبائل دارت رحاه؟ إن اسم هذا الموضع حيلم- حلمه يجمع في مبناه لا التاريخ الرمزي للمعارك؛ وإنما كذلك العناصر الفونيطيقية في ما يُدعى عند قبائل العرب القديمة يوم حليمة. ويبدو أن العرب القدماء كانوا يجهلون تاريخ هذه المعركة العظيمة، ومع ذلك راحوا يربطون بين كل معركة عظيمة وبين يوم حليمة هذا، وبحيث أصبحت لدينا (أيام) لا يوم واحد يحمل هذا

الاسم. والمثير للاهتمام - في هذا النطاق- أن المعاجم الجغرافية العربية- الإسلامية تسجل اسم حليمة قرب جبل أبان، كما توصف بأنها مسيل مياه غير بعيد عن نجران أي في المكان نفسه الذي تشير إليه التوراة. فهل هي محض مُصادفة أن معارك داوود في التوراة جرت قرب وادي أوبن-ء بن، حيث يُقيم آل العيزار وبطون من قبيلة طيئ، أو قرب جبل أبان حيث أقامت طيئ نفسها، وهما في امتداد جغرافي واحد؛ بينما تقع المعارك نفسها في المسرح ذاته في الروايات العربية والشعر الجاهلي؟ قال النابغة (الديوان: ٢٤١):

يومُ حليمة كان من قديمهم[(١)] وعين أباغ فكان الأمر ما ائتْمَرا

لقد درج القدماء من العرب على وصف كل انتصار للغساسنة، على المناذرة ملوك الحيرة في العراق، بيوم حليمة، كأنهم يستذكرون هذه المعركة العظيمة المجهولة، حتى أن الأصمعي ولشدَّة حيرته إزاء الاسم قال: حليمة امرأة نُسبت إليها الحرب (مخطوطة سير الملوك المنسوبة للأصمعي: ٧٢). من الواضح أن تراث المعارك البطولية في هذه الوديان، والذي تداولته مختلف الجماعات كتاريخ جماعي، يتضمَّن صوراً متداخلة يستحيل تفكيكها. يصف الهمداني موضع حيلم التوراتي بأنه من المواضع الساحلية- ساحل أبين وهي المحافظة الثالثة فيما كان يُعرف باليمن الجنوبي السابق-. وهذا ما يتناسب كلياً مع رواية صموئيل للحدث إذْ استجار بنو عمون بقبائل الساحل لمقاومة داوود، مثل صُبيا - صُبا - انظر الخرائط الملحقة بالكتاب- وطب وجوب ورحوب. يقول صاحب صفة جزيرة العرب: ١٩٠- ١٩٢ ما يلي:

---

(١) تدعم رواية النابغة (بيت الشعر الآنف) ما ذهبنا إليه من ان يوم حليمة يوم قديم من أيام العرب في طفولتها البعيدة.

ثم بعد ذلك أَبْيَنْ: أَبْيَنْ أولها شوكان، قرية كبيرة أولها شوكان لها أودية الجشير يسكنها الأصبحيون (.....) الرواع يسكنها بنو مجيد (...) فإلى السفال وإلى البحر الروضة يسكنها الأصبحيون، حَلَمَة يسكنها الأصبحيون. لحج وسكانها، الحيب يسكنها بنو الحبل من الأصبحيين، الرعيض يسكنها بنو حبيل. بنو الحبل يسكنها قوم يُعرفون بالأعدون منسوبون إلى عدن، وبنو الطفيل من بني الحبل يسكنها قوم من بني مجيد. بيحان، الصدارة وادٍ يهريق في بيحان منه مشربهم وأهله الرضاويون من طي.

حسب هذا الوصف الدقيق؛ فإن حِلمَه-حلم موضع في سلسلة من الوديان على الساحل اليمني، حيث تقيم جماعات قبلية تنتسب إلى وادي حبل، وإلى منازل قبيلة طيئ أصحاب الفلس وهم مجاورون لبني مجيد، الذين يسيطرون على الساحل كما قلنا- راجع ما كتبناه عما يُعرف في التوراة بمعركة مياه مجدو- وإلى جوار موضع حلمة هناك قرية تُعرف بالجشير، وهي عند صموئيل قرية جشور التي هرب نحوها أبسالم- أبشالم. إن وجود كل هذه المواضع بعضها قرب بعض، وبأسماء الجماعات نفسها في نصوص التوراة، يجعل من غير المنطقي تخيُّل وقوع الأحداث في فلسطين التي لا يوجد فيها موضع واحد، ولا جماعة واحدة تحمل الاسم نفسه كما سجله صموئيل. وهذا ما سنراه بوضوح أكبر في الموضع التالي.

مواضع توراتية وصفها صموئيل والهمداني

قبل أن نُحدِّد موضع معركة حِلم- حلمه؛ وهو كما نرى الموضع نفسه الذي شهد المعركة الشهيرة يوم حليمه في المرويات العربية الكلاسيكية،

والتي نشبت بين تحالف قبائل الساحل اليمني وبني عمون من جهة، والملك داوود من جهة أخرى، سنتوقف عند أربعة مواضع أثارت حيرة علماء التوراة والدارسين العرب على حدّ سواء. يخص الموضع الأول مسألة هروب أبسالم إلى قرية جشور.

أ – جشور

يروي صموئيل قصة هروب ابن داوود بعد تمرده، إلى قرية جشور حيث مكث فيها ثلاث سنوات (النص العربي لتسهيل عودة القارئ: ١٣ : ٣٨ : ١٤ : ١٦ مع ضبطنا له):

وكان أبسالم هربَ إلى جُشرْ ولبث هناك ثلاث سنوات

ما تقوله هذه الجملة البسيطة هو التالي: إن الشاب المُتمرد وبعد أن اغتصب أخته تماره وقتل أخيه آمنون غدراً، هرب إلى مكان حصين بحيث تمكن من البقاء هناك لثلاث سنوات متتالية، قبل أن ينجح في إبرام الصلح مع والده. ولأن فلسطين التاريخية لا تعرف مثل هذا المكان الحصين الذي يُدعى جُشر- جشور في الطبعة العربية، غير بعيد عن حيلم ووادي حبل ورحوب وجوب وُطب ومياه مجدو- مجيد؛ فقد أهملته القراءة الاستشراقية تفادياً للحرج ولم تفتش عنه هناك. وعندما تقدم كمال صليبي بأطروحته وفرضياته اللغوية عن موطن التوراة (حروب داوود: ٦٦) حدَّد موضع جشور في بلاد عسير، فوجد نفسه مُضطراً إلى أن يقلب الحروف رأساً على عقب، من أجل أن تنسجم مع تصوراته للمكان. ومع الاعتراف بالقيمة العلمية العالية والرفيعة الشأن لهذه المحاولة الرائدة؛ فإن المقاربة التي نعرضها باسم الهمداني تستدعي التخلي عن أطروحة صليبي نهائياً. لقد افترض صليبي أن اسم قرية (القثاورة) في عسير، هو

تحوُّل فونيطيقي عن اسم جشور. وفي هذه الحالة تصبح على مقربة من قرية حبلى. في الواقع، ليست جشور التوراتية هذه، إذا ما ضُبطت ضبطاً عربياً صحيحاً، سوى قرية جُشر- حسب ضبط ياقوت- أو جشير- حسب ضبط الهمداني- (انظر صفة: ١٩٠- النص الخاص بموضع حلمه) وهي تتبع محافظة أبْيَنْ. تقع أبْيَنْ شرقي عدن وتُنسبُ إلى أبْيَنْ بن ذي قدم من حِمْيَر؛ وإلى الشرق منها موضع يُعرف باسم أحور، بينما تقع يافع إلى الشمال منها. وفي هذا الفضاء الجغرافي حيث السلسلة الجبلية، تقع جُشُر- وحلمه، التي يقول عنها محقق الكتاب العلامة الأكوع ما يلي: حلمه قرية آهلة بالسكان لها ذكر في الأحداث وفيها معاقل منيعة. ومن غير شك؛ فإن وجود معاقل حصينة في هذه الوديان أمر ينسجم مع رواية صموئيل عن هروب الشاب المتمرد إلى موضع حصين. لكل ذلك فإن جُشر- جشور التوراتية، ليست ولم تكن قرية القشاورة كما اقترح صليبي؛ بل هي ذاتها جشير.

ب - في حورونءيم أو (حْرَية)

في روايته لأحداث هروب أبسالم (النص العربي: ١٣ : ٢٢ :٣٧، العبري: ٣: ١٤ :٢٦ : ١٣- صموئيل الثاني) يعطي صموئيل الرواية التالية: يقول أحد الفتيان ممن كانوا يراقبون الطريق بحثاً عن أبسالم بعد خيانته وقتله لأخيه: (إني أرى رجالاً على طريق حورونءيم التي بجانب الجبل). وفي الواقع؛ فإن الاسم في العبرية هو: ء حري والجملة هي (م- درك- ء حري-مصد-ههر) والتي تقول: (من طريق الحَرْيَ من جانب الجبل). ولكن المترجمين رسموا الاسم في صورة (حورونء يم) استناداً إلى نسخ أخرى من التوراة، وهو اسم الجمع أو التثنية من المفرد حوران. وبالطبع لا وجود في فلسطين ولا بأي صورة من الصور، لمكان يُدعى حوران أو حورون أو حورانان بجانب جبل، كما لا وجود لموضع يُدعى

ء حري-الحَرْيَ؛ بينما يمكن ببساطة رؤية هذا المكان وباسمه القديم بجانب الجبل عند صموئيل. وقبل أن نحدّد المكان لابد من التوقف عند الملاحظة الهامة التالية: إن الفتى وهو يراقب المكان سوف يهرع ليخبر الملك قائلاً (وهنه-بني- ها-ملك-بءو). وقد ترجمت في النص العربي إلى (هوذا بنو الملك مُقبلون) وذلك بعد أن رآهم على طريق ء حري. وهذه ترجمة غير مفهومة؛ فما علاقة بنو الملك بالقصة؟ لقد كان الملك منشغلاً بالأحداث التي وقعت، والفتى المكلف بالمراقبة كان ملزماً بالتعرّف إلى الطريق المحتملة التي قد يسلكها أبسالم، فمن أين جاء أبناء الملك هؤلاء؟ وما علاقتهم بموضع ء حري؟. في الواقع لا يقول النص العبري مثل هذا الكلام غير المفهوم؛ بل يقول (ها هنا بنو مليك وقد عادوا).وهؤلاء هم سكان الوادي الذي يقع فيه المكان الحصين الحَرْي.

إليكم وصف الهمداني للمواضع والجماعات، ومنها الجماعة المسماة بني- مليك في التوراة- بنو مليك عند الهمداني، الذين لا وجود لهم اليوم كما يقول محقق الكتاب (صفة: ١٨٦):

> **ذات الرحلين والروضة فإلى أعراب فإلى أشراف بيحان. رجع إلى ردمان: المُسمق الأعلى لبني مليك، حَرْيَه للرمسيين[١] (..) البضع أودية منها حوران ورواف.**

ها هنا موضع ء حري وقد ضبطه الهمداني في صورة حَرْيَة- حريت بإلحاق التاء الأخيرة اللاصقة في اللهجة اليمنية، مثل قرشت في قريش،

---

(١) انظر ما سوف نكتبه في فصول تالية عن رمسيس التوراة. وهو الموضع الذي توهمه محققو التوراة في مصر، فيما هو موضع رمس الخاص بجماعة قبلية تعرف بـ (الرمسيين) والسين الإضافية سين لاصقة من لهجات القبائل التي تعرف بلهجة السين.

وفرست في فَرَس إلخ، ويبدو أن حَرْيَة كانت ذات يوم من الأماكن الحصينة في وادي بني مليك، الذي يسكنه بنو مليك وهم جماعة بائدة لم يعُد لها وجود اليوم كما يؤكد محقق كتاب الهمداني. لكن القرية كما يقول العلامة الأكوع أصبحت خراباً ولم يبق منها سوى الأطلال (صفة، الهامش: ٨٦):

حَرْيَة قرية دارسة تنتابها البدو الرحل للإقامة في أطلالها وتقع في عُمد من سارع[١].

وكنا تحدثنا عن وادي ملك عند يشوع. فهل هي محض مُصادفة أن يكون هناك وادي ملك ومكان حصين كان يُدعى حَرْيَة، وجماعة تُدعى بني مليك في نص صموئيل والهمداني، وفي المكان نفسه الذي دارت فيه قصة تمرد أبسالم؟

معركة بعل فراصيم ضد الفلسطينيين المُتَخيَّلين

في النص العبري يُرسم اسم هذا الموضع في صورة بعل- فراصيم؛ بينما ترسمه الطبعة العربية من التوراة في صورة بعل فراحيم- بالحاء المهملة-. حدثت هذه المعركة المُبكرة من تاريخ المجابهات الحربية مع داوود، فور تلقي القبائل العربية (ومنها قبائل طيئ صاحبة معبد الفلس في الطفولة البعيدة للعرب) أنباء صعود داوود ملكاً في بني إسرائيل. ويبدو أن الفلست كانوا الجماعة الوحيدة التي تنبهت إلى الخطر الذي يُمثله داوود. ولذا سارعوا إلى تنظيم صفوفهم بسرعة وفي وقت مبكر لمنعه من الإمساك

---

(١) انظر حول عمد - عمد ما كتبناه في كتابنا عن نشيد الإنشاد - ترجمة جديدة من النص العبري (قصة حب في أورشليم - مصدر مذكور).

بزمام الأمور، خصوصاً وأن هؤلاء سبق لهم وأن أفلحوا في قتل ملك إسرائيل الأول شاول بن قيس- ساول بن قيس في معركة جبل موتك، التي تحدثنا عنها في مرثية داوود. وبطبيعة الحال تخيلت القراءة الاستشراقية الفلستيين في صورة فلسطينيين، وذلك في سياق المُطابقة الماكرة الهادفة إلى إيجاد بُعدٍ ديني-تاريخي للصراع على فلسطين. تجمع الفلستيون في وادي روفء يم، بينما نزل داوود في موضع تسميه التوراة ها- مصرد ويُترجم عادة إلى حُصن.

قرر داوود الزحف باتجاه بعل فراصيم القريبة والاستيلاء عليها؛ وبالفعل تمكن داوود من محاصرة الفلستيين في وادي روفء يم - رُواف (مفردها روف) بعد سقوط بعل فراصيم في يده. أدى هذا التطور في الأحداث الحربية المُتسارعة والعنيفة، إلى نشوب معركة جبع التي انتهت بمطاردة الفلستيين حتى جازر. إننا لا نعرف وادياً في فلسطين التاريخية يُدعى وادي رفء يم، كما لا نعرف حُصناً أو مكاناً يُدعى ها- مصرد، ولاوجود هناك لبعل فراصيم بكل تأكيد. فهل هذه الوقائع تتحدث عن أماكن خيالية؟ ليس من المهم البرهنة على صحة ودقة الوقائع المروية، فهذا أمر لا نخوض فيه لأنه قد يقع في نطاق المثيولوجيا بما يستدعي معالجة مختلفة، ولكن الهام للغاية هو التثبت من وجود أماكن تحمل هذه الأسماء. ولذا؛ لابد من البحث عن آثار معركة بعل فراصيم في هذا الفضاء الجغرافي. يعطي الهمداني (صفة: ٢٩٧) اسم موضع فراصيم في صورة فراضم، وهو مسيل مياه في النجد، وعند صموئيل كذلك أي أن المكان هو بعل بمعنى مياه. والعبرية لا تعرف الضاد المُعجمة وتستبدلها بالصاد فراصم. في وصفه للنجد حيث ديار تميم يقول الهمداني ما يلي: (أزنم وعنيز وفراضم والبُليد جنب تضرُع). لكن الهمداني؛ فضلاً عن ذلك يعطي اسم الفُراض أيضاً، وهو اسم الجمع

العربي من المفرد فرض المكافئ للاسم العبري فرصيم، بمعاملة الميم العبرية على أنها أداة التعريف المنقرضة: الفَراص، أو بوصفها أداة الجمع العبرية: الفُراض. وهذا الموضع مسيل مياه بين رداع وأسيل. والكلمة في العربية لا تطلق إلا على مواضع تكثر فيها المياه القادمة من الأودية، بحيث تشكل مجرى مائياً شبيهاً بالنهر. قال لبيد بن ربيعة العامري في مديح الحارث الأكبر المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ٥١٤-٥٥٤م، مشيراً إلى حملاته على نجران:

وغَلبْنَ أبرْهة الذي ألفينَهُ قد كان خلّد فوق غُرفةِ موكلِ

والحارث الحرّاب خلى عاقلاً داراً أقام بها ولم يتنقَّلِ

تجري خزائنهُ على مَنْ نابهُ من الفَراةِ[1] على فراضِ الجدولِ

لنلاحظ أن لبيد في هذه القصيدة يشير إلى حملات المُنذر بن ماء السماء ملك الحيرة في العراق على نجران، ووصوله إلى وادي عاقل وجبل موكل. وهذا كما هو واضح له أهمية استثنائية في فهم حملة نبوخذ نصَّر على القبائل العربية المُتمردة التي كانت تهدد الإمبراطورية العراقية القديمة. وأهمية بيت الشعر هذا، تكمن في أنه يوضح على أكمل وجه، الطابع التقليدي لحملات ملوك العراق القديم على منطقة نجران، كما أنه يقدم منظوراً جديداً لما يُعرف عند المؤرخين بالسبي البابلي، وهو كما قلنا حدث تاريخي وقع في هذا الجزء من العالم وليس في فلسطين. لقد حدث

(١) إن رسم اسم الفراة - بالتاء المربوطة ليس أمراً ناجماً عن خطأ إملائي، بل عن حقيقة أن المقصود بها فراة اليمن - ءفراة في التوراة. علماً أن نصوص التوراة تطلق على داوود التسمية التالية: داوود الإفراتي من بيت لحم. وهذا تنسيب يستحيل العثور على ما يماثله في فلسطين. انظر ما سنكتبه عن فراة في ما سيأتي من صفحات وفصول.

السبي -كما سنُبرهن-في جبال نجران والسرو اليمني لا في فلسطين. إن رواة هذه القصيدة يرسمون فراة بالتاء المفتوحة- فرات- من دون أن ينتبهوا إلى أن الشاعر تقصَّد رسمها بالتاء المربوطة - فراة لأنه يريد مكاناً آخر غير الفرات العراقي. إنه ببساطة يريد فراة قرب نجران. وحتى اليوم يُطلق البدو من سكان شرق سورية على كل مياه اسم فراه- بالهاء. وقال زيد بن الطُّثريَّة واصفاً يوم الفراض وهو من أيام العرب التي شهدت معاركهم:

ويوم فراضِ الوشم أذرت عبرة كما ضيّعَ السلكُ الجمانَ المُنقبا

هذا هو يوم الفراض- فراصم المكان الذي يقع بين رداع وأسيل، وهما الأقرب إلى ردمان حيث جرت المعارك. أما وادي رفء يم أو رواف‌ءيم، في صيغة موازية، فهو عند الهمداني وادي رُواف (اسم الجمع من المفرد روف- تماماً كما في اسم الجمع العبري من المفرد رف أو روف) وهو بالضبط إلى جوار حَرْيَة-ء حري ووادي بني مليك. وعلى مقربة من وادي جزر- جازر أيضاً. إليكم ما يقوله الهمداني (صفة: ١٨٦) عن وادي رُواف -عمق- رفء يم:

> **حرْيَة للرمسيين والمُسمق الأعلى عقد والصدر وذو جزر لبني عبد من حِمْيَر.حضنان واديان للمربين (......) أودية منها حوران ورُواف.**

ها هنا جازر-في العبرية جزر من أودية الحميريين من بني عبد، وغير بعيد عنها حرْيَة ووادي بني مليك - بنو- ملك وحوران- حوران التوراة وأخيراً: وادي رُواف- رف ءيم. هذا هو الفضاء الجغرافي لسلسلة المواضع التي دار فيها القتال كما وردت في توصيف الهمداني والشعر الجاهلي.

الفصل الثاني

معركة حصن صهيون قرب نجران
وسقوط أورشليم اليمنية

يُثير اسم صهيون الحيَرة والارتباك، وربما النفور، عند القراء العرب والمسلمين بخاصة. ولكن ماذا لو أن أحداً قدَّم برهاناً على أن صهيون جبل عربي في اليمن وليس في فلسطين؟ إن للاسم اليوم وقعاً مثيراً للاستنكار والاحتجاج، سرعان ما سيبلغان ذروتهما حين يتم الربط، بين اسم هذا الجبل وبلاد اليمن القديمة. وفي الواقع فإن هذه الحيرة يمكن أن تمتد من أوساط القراء إلى الباحثين والدارسين كذلك. وقلَّة قليلة فقط من الباحثين مَنْ سيكون بوسعه تقبل هذا الانقلاب في التصوُّرات والمُسلَّمات. خصوصاً حين يقال لها أن حصن صهيون في نجران لا في فلسطين؟ قد يكون ارتباط اسم هذا الحصن الجبلي العربي الشامخ، باسم الحركة الصهيونية، باعثاً من بين بواعث عدَّة على النفور والتردُّد وربما عدم التصديق. لكن الأمر مع ذلك سوف يتعلق بأكثر مما هو مجرد نفور أو احتجاج، إذ سوف تثار، عندئذٍ، مسألة احتكار المخيال اليهودي الأوربي، مع عصر الاستعمار، لسائر الأسماء الواردة في التوراة وتنسيبها للتراث الإسرائيلي، في إطار السيطرة على السرد وخطف الصوت الآخر.

إن اسم صهيون عند العرب القدماء، لم يكن ليُثير مثل هذا الحرج، فقد ذكروه في أشعارهم ومروياتهم بوصفه حصناً جبلياً يمنياً عربياً شامخاً. وهذه مفارقة أخرى من المُفارقات التي تنطوي عليها القراءة الاستشراقية للتوراة. ولأن سقوط حصن صهيون، يرتبط في التوراة بسقوط أورشليم بيد داوود؛ فإن لمن المهم رؤية التلازم بين المكانين في سياق رواية حروب داوود التي رواها صموئيل. ليس صهيون مجرد جبل من الجبال المقدَّسة وحسب؛ وليس ثمة أي إشارة في التوراة، مهما كانت عابرة وعمومية، تؤكد أن صهيون جبل من جبال فلسطين. على العكس من ذلك، هناك إشارات عدة تقول: إنه حصن جبلي في مكان يُدعى بيت بوس؛ كما أن اسم أورشليم يُطلق على ثلاثة أماكن على الأقل، من بينها بيت بوس؛ بينما لا توجد إشارة واحدة تقول: إن أورشليم هي القدس العربية- قدش. لكل ذلك سوف نقوم بإعادة بناء الرواية التوراتية عن جبل صهيون، وتحديد موقعه الحقيقي وعلاقته بأورشليم، كما سنقوم بتحديد العلاقة بين القدس وأورشليم لنبرهن أن لا صلة بينهما.

مهَّد سقوط بيت بوس وهي أورشليم حسب وصف صموئيل، الطريق أمام داوود لطرد سكانها وإبعادهم والاستيلاء على المدينة وإخضاعها بالقوة. كما مهَّد السبيل أمام حملته لإخضاع العمونيين في ربّة. ولذلك سنُعيد قراءة رواية صموئيل عن هذه السلسلة من المعارك، ونُحدد مسرحها الحقيقي في إطار الكشف عن نمط التلاعب. كان داوود في الثلاثين من عمره عندما هاجم بيت بوس، وقام بطرد سكانها وأخضع مدينتهم التي كانت تُدعى أورشليم- أور سلم. وفي هذه المعركة سقط حصن صهيون في يده، فبادر إلى زيادة تحصينه والدفاع عنه؛ بل وتغيير اسم الحصن- وليس اسم الجبل- من صهيون إلى "مضارب داوود". ومن الواضح أن رواية صموئيل هذه لا تشير على الإطلاق، إلى أن أورشليم هذه كانت تُدعى قدس. إليكم الرواية كما وردت في النص العبري (٢٢: ٤: ٥):

ويلك- ها- ملك- ء نشيو-يروشليم-ءل-يبوسي ويوشب-ها-ءرص- ويلكد-دود-ءت-مصده- صيون- هيء-عير دود.
(وزحف الملك ورجاله على أورشليم اليبوسيين وطردهم من الأرض، وأخذ حصن صيّون فأصبح اسمه مضارب داوود)

بصدد هذا النص الواضح لدينا الملاحظات التالية:

١- إن اسم صهيون يُكتب في صورة مصده- صيون. أي: حصن صيّون، من دون الهاء الوسطية (صهيون) وهو ليس جبلاً فقط، بل هو أيضاً اسم موضع حصين في مكان جبلي، يتبع جماعة قبلية تُعرف ببيت بوس- البوسيين[1]-. والاسم يُكتبُ بإضافة الهاء الوسطية صهيون مثل (يهريق الماء في يريق الماء). وهذه لهجة يمنية وعربية معروفة؛ علماً أن التوراة تستخدم الصيغتين في رسم الاسم صيون وصهيون للدلالة على مكان واحد.

٢- إن هذا الحصن المنيع سقط في يد داوود بعد سقوط بيت بوس، وبعد طرد اليبوسيين من ديارهم. وهذه المنازل القبلية كانت تُعرف باسم يروشلم. يعني هذا أن يروشليم لم تكن تُدعى قدس ولا صلة لها بالقدس أصلاً.

٣- إذا كانت المعارك التي خاضها داوود ضد اليبوسيين دارت في فلسطين؛ ففي هذه الحالة يجب أن تكون أورشليم الإسرائيلية المُتخيّلة في مكان ما، له صلة ببيت بوس وليس بمدينة القدس العربية؟ وفي الحقيقة ليس ثمة مكان قرب القدس يُدعى بيت بوس، كما لا يوجد حصن هناك يُدعى صيون أو صهيون.

---

(١) في المأثور الشعبي اليمني حتى اليوم يقال: كل بوسي يهودي وكل يهودي بوسي (من بيت بوس).

٤- إن هذه المعركة هي التي مهدت الطريق أمام داوود للاستيلاء على ربَّة. وليس هناك موضع يُعرف بهذا الاسم سوى ربَّة نجران القديمة التي كان سكانها من العمونيين.

هذه الملاحظات التمهيدية والأولية، غرضها التأكيد على أن ما يُعرف في التوراة بحصن صهيون، لا علاقة له بفلسطين التاريخية ولا بالقدس العربية، وأن المعارك التي دارت بين قبائل بني إسرائيل بقيادة داوود، والقبائل الأخرى من اليبوسيين والعمونيين والفلستيين والرحوبيين والإرميين، تندرج في إطار الحقيقة التاريخية عن صعود قوى وجماعات جديدة في المسرح القبائلي العربي- في طفولته البعيدة - كانت قد امتلكت عقيدة دينية توحيدية. ولذا سارعت، في سياق تنافسات وحروب دينية، إلى إخضاع الجماعات الوثنية وتحطيم مراكزها الدينية. ومن بين أكبر هذه المراكز ربَّة نجران وهي ربَّة العمونيين وبيت العبادة الفلس. وهذا وضع شبيه بما يُعرف بمغازي الرسول الكريم محمد ﷺ مع ظهور الإسلام، حيث بدأت حملاته لإخضاع القبائل المعادية للإسلام وتحطيم مراكزها الدينية، وكان من بينها بالطبع، ربَّة نجران المنافسة للكعبة وبيت الفلس الذي حطمه خالد بن الوليد؛ بل هو وضع مماثل لكل صعود ديني جديد في بيئة نموذجية مثل البيئة العربية. ومن الواضح أن التحالفات القبلية، ستبدو متماثلة أيضاً في ظل هذا النوع من التطورات، إذ واجه الإسلام ما يُعرف بغزوة الأحزاب، وهي معركة كبرى من المعارك الدينية، اتحدت فيها القبائل المعادية للإسلام لمنع ولادته كدين عالمي جديد.

في وقت تالٍ من هذه الأحداث، التي نجد لها نظيراً في التاريخ وليست بغريبة عنه، وقع بعد دخول داوود إلى أورشليم اليبوسية منتصراً؛ حدث له دلالة بالغة، فقد طلب من ملك صور الذي يُدعى ءحيرم تزويده بالأخشاب والنجارين، لبناء سور حول أورشليم وتحصينها. يمتد هذا

السور بحسب رواية التوراة من موضع يدعى ملّو. فماذا يحدث، لو أننا تصوَّرنا هذه الأحداث وقد وقعت في فلسطين؟ سوف يتعيّن علينا، وقبل كل شيء البرهنة على وجود مثل هذه الأسماء هناك؟ وإذا ما أخفقنا في ذلك لسبب أو لآخر، فإن الحدث برمته سوف يصبح أسطورياً وخيالياً لأن المسافة بين القدس الفلسطينية وصور اللبنانية، تجعل طلب الأخشاب وإرسالها أمراً مشكوكاً فيه. ولكن إذا ما تتبعنا خطا صموئيل والهمداني، ووصفهما المُنمق لبيت بوس وحصن صهيون وصور والربَّة في فضاء جغرافي واحد؛ فإن الرواية ستبدو، آنئذٍ، مقبولة ومنطقية تماماً. إليكم هذا الاكتشاف.

يقول أعشى همدان (ياقوت: ٤٩٥ : ٣) في قصيدة شهيرة يُخاطب فيها أساقفة نجران وسادتها، ومُستعيداً ذكريات الاضطهاد اليهودي لمسيحيي نجران في عصر الملك اليمني ذي نواس صاحب الأخدود، الذي ذكره القرآن في آية الأخدود؛ ومُسجلاً اسم حصن صهيون تماماً كما في التوراة:

أيا سيدي نجران لا أوصيكما ... بنجران فيما نابها واعتراكما

فإنْ تفعلا خيراً وترتديا به ... فإنكما أهل لذاكَ كلاكما

وإنْ تكفيا نجران أمر عظيمةٍ ... فقبلكما ما سادها أبوكما

وإنْ أجلبت صهيون يوماً عليكما ... فإن رحى الحربِ الدكوكِ رحاكما

إن سيديّ نجران، يزيد وعبد المسيح ابني الدّيان[1]، وهما يُصغيان إلى تحذير الأعشى (أعشى همدان) من الانجرار وراء الحرب المفروضة عليهما؛ بما هي حرب قاسية سوف تشكل تهديداً في الصميم للمسيحية

---

(١) قارن مع دايان العبرية.

الوليدة، سوف يستذكران معه سلسلة من المخاطر التي تهدد نجران أو هددتها من قبل، ومن بينها وقائع الصراع المرير، والجديد الذي فرضته اليمن اليهودية على نجران المسيحية، وذلك مع صعود الملك الحميري ذي نواس. سعى ذو نواس الحميري[1] إلى استرداد الإرث اليهودي وتمزيق المسيحية، في الحادث الشهير المعروف في القرآن بحادث الأخدود. قال تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۞ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۞ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ [البروج: ٨٥/ ٤-٦]. وبالطبع، سيكون أمراً مُستحيلاً تخيل الحدث في فلسطين، لأن مسرح الحرب واضح كل الوضوح: ها هنا شاعر شهير من همدان اليمن يُحذر سيدي نجران من خطر الحرب المفروضة عليهما، والذي يعني من بين ما يعنيه قيام اليمن باجتياح مركز المسيحية، في إطار صراع ديني تقليدي له جذور تاريخية؛ فهو استطراد لصراع داوود ضد ربَّة نجران، تشكل فيه رواية صموئيل - لهذه الحروب- مجرد منظر خلفي شديد القسوة.

كانت نجران مع ظهور المسيحية المُبكرة، من أهم مراكز الدين الجديد في الشرق العربي، وخصوصاً في حقبة أساقفتها من بني كعب، الذين سقط أحد رموزهم شهيداً في أعقاب الاضطهادات الدموية. كما ارتبطت نجران بأحداث كبرى في التاريخ العربي القديم، إذ هاجمها ملوك الحيرة في العراق وسعوا إلى إخضاعها منذ ٥١٤م. وإلى هذا كله فإن ملوك الطوائف في اليمن، حاولوا باستمرار توسيع ممالكهم الصغيرة على حسابها وتنافسوا على إخضاعها. إن مصدر الاهتمام الحقيقي بنجران، بالنسبة إلى ملوك العراق القديم، أبعد بكثير من مجرد

---

(١) عرف الرومان واليونانيون ذا نواس هذا باسم (دمنوس) أو (ديميانوس). ويتبيَّن من نقش حصن الغراب - من أماكن اليمن- أن اليمن اليهودية قررت إخضاع نجران المسيحية بالقوة.للمزيد انظر: شيخو: النصرانية وآدابها ١/ ٦١، جواد علي: المفصل.مصدر مذكور.

الطموحات الشخصية في التوسع؛ ذلك أن ملوك الإمبراطورية الآشورية هاجموا نجران هذه، يوم لم تكن تُعرف بهذا الاسم، بل باسم الربَّة، لأن القبائل العربية المُتمردة على نفوذ الإمبراطورية كانت تحتمي بجبالها الوعرة. وهذا ما يُفسر السبب الحقيقي لحملات نبوخذ نصر، المتكررة - وكذلك حملات والده من قبل- على الجزيرة العربية واليمن. بكلام ثان: إن أنظار ملوك الإمبراطورية الآشورية، لم تكن تتجه صوب فلسطين كما هو شائع؛ بل صوب نجران التي تسيطر على عقدة المواصلات البرية، وعلى طرق التجارة الدولية وعلى الساحل الأهم في العالم القديم. لقد كانت فلسطين في العام ٦٤٠ ق.م وما بعده، خاضعة فعلياً للسيطرة الآشورية. ولم تكن هناك حاجة لأية حملات حربية متكررة لفرض السيطرة عليها. وبالطبع لا توجد وثيقة تاريخية واحدة تتحدث عن مخاطر جدية، كانت تهدد الآشوريين في بلاد الشام. على العكس من ذلك كان الخطر الفعلي والمباشر يصدر عن القبائل البدوية، المتمردة والمُنتشرة في أجزاء واسعة من الجزيرة العربية وصولاً إلى سواحل اليمن، وهي كانت تهاجم ثغور الإمبراطورية وتهدد نفوذ الآشوريين فعلياً. في هذا الوقت من التاريخ، كانت هذه القبائل لا تزال تسكن الساحل اليمني ولم تُهاجر بعد صوب بلاد الشام.

على الطرف الآخر من المشهد التاريخي، كانت أنظار ملوك اليمن الطامحين لاسترداد دولهم المركزية (ممالكهم القوية التي عرفها التاريخ مثل مملكة سبأ) تتجه نحو نجران في محاولة يائسة لإخضاعها بكل الوسائل أو ضمها. وما من ملك يمني إلا وتطلع إلى إخضاع نجران كسبيل وحيد لإنشاء دولة مركزية. في هذا الإطار كان الشقاق الديني، والذي ما فتئ رقعته تتسع بين نجران واليمن، مع عودة اليهودية في العام ٥٢٤م- في حقبة ذي نواس الحميري واعتناق سكان نجران للمسيحية

على المذهب النسطوري[١]- يُعرقل من الناحية الفعلية كل محاولة لتحقيق حلم اليمنيين بالسيطرة سلمياً على نجران أو دمجها بالقوة. إن السبب الحقيقي للاضطهادات اليهودية اليمنية التي تعرض لها النصارى العرب في نجران، تكمن في هذا البُعد المُخْتَزَن من الصورة التاريخية للأحداث: أي التعارض المُستعصي على الحل، بين طموح ملوك اليمن لاسترداد وحدة البلاد المُمزَّقة، ووجود تنافر ديني تغذيه سلسلة من العوامل والدوافع. في هذا الوقت من التاريخ أيضاً، ومع عودة اليهودية من جديد إلى اليمن، تحركت مملكة الحيرة في العراق باتجاه حماية نصارى نجران بدوافع دينية وسياسية وحتى قبلية؛ فاللخميون (من بيت لخم- قارن مع بيت لحم) الذين يحكمون العراق[٢] يرتبطون مع حكام نجران بروابط أسرية؛ فهم أبناء عمومة. وفضلاً عن ذلك؛ فإن مملكة الحيرة نفسها في هذا الوقت (أي نحو العام ٥٢٤م) كانت تتقبل لأسباب سياسية استراتيجية فكرة السماح بانتشار نوع من المسيحية في العراق، لا تزعج فارس من جهة ولا تجعل الحيرة خاضعة دينياً لبيزنطة من جهة أخرى. هذه المسيحية المقبولة من فارس، لم تكن سوى المذهب النسطوري الشرقي القائل بالطبيعيتين للسيد المسيح، والذي كانت بيزنطة تنظر إليه بارتياب، بما أن

---

(١) النسطورية: نسبة إلى رجل الدين نسطور- نسطوريوس. في القرون الأولى التي أعقبت ظهور المسيحية سيطر الفكر الإيديولوجي (الأصولي). وفي مرحلة مبكرة من تطور وانتشار المسيحية ظهرت الأفكار الأولى لمسيحية شرقية ترى أن الرب هو (اللوغوس) أي الكلمة الأولى. وأن الكلمة تجسد وحدة الإنسان والإله.عام ٤٤٨ م أصبح نسطور- نسطوريوس بطريركاً لعاصمة الإمبراطورية البيزنطية. ثم تقرر طرده بسبب أفكار المعارضة للمسيحية الرسمية (الأرثوذكسية) عام ٤٣٣م.

(٢) من قبيلة لخم اليمنية الأصل في عصر امرئ القيس صاحب النقش المعروف بنقش النمارة الذي كان يُلقبُ نفسه بـ(ملك العرب والعجم).

مذهبها الرسمي هو المونوفيزية، القائلة بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح. هذا ما يُفسر لنا السبب الحقيقي لتخاذل بيزنطة عن نجدة نصارى نجران، وترددها في منع يهود اليمن من الاستمرار في البطش بالمسيحيين هناك. لقد كان هؤلاء يُقبلون على مسيحية مُتعارضة مع المذهب الرسمي، أي على مسيحية شرقية ترى إلى المسيح كتجسيد للإنسان والرّب في آن واحد - الناسوت واللاهوت-. ولذلك تغاضت بيزنطة عن المذابح اليهودية ضد النصارى العرب، بهدف إضعافهم تمهيداً لحملهم في وقت تالٍ على العودة إلى المذهب الرسمي. كانت مملكة الحيرة تراقب هذه الأحداث عن كثب، ولكنها كانت في الواقع عاجزة عن التدخل بفعالية. ومع ذلك بادرت إلى إرسال بعثة دبلوماسية برئاسة أسقف الحيرة، إلى بيزنطة لإقناعها بالتدخل الجدي وإنْ بالقوة لوقف الاضطهادات اليهودية. وهذا ما سوف تؤكده التطورات التالية بعد عام واحد فقط أي في العام ٥٢٥م، حين جهزت بيزنطة عن طريق وكيلها المحلي الحبشة، حملة حربية للقضاء على اليهودية في موطنها التاريخي اليمن. هذا هو الإطار التاريخي العمومي، الذي سوف يُمكن القارئ غير المُتخصص من رؤية حروب داوود، كما رواها صموئيل في التوراة، بوصفها المنظر الخلفي لسلسلة الحروب والمعارك التالية التي وقعت بين يهود اليمن ونصارى نجران؛ وفي الآن ذاته تمكين القارئ من رؤية المكانة الدينية القديمة لنجران والأدوار التي لعبتها على المسرح التاريخي، كمركز ديني وثني ثم مسيحي. ولذا سيبدو أمراً خالياً من المنطق والدليل، الافتراض أن قصيدة أعشى همدان التي يُحذر فيها نصارى نجران، من الحرب المُبيتة ضدهم ويسجل فيها اسم حصن صهيون؛ على أنها كانت تعني فلسطين أو أنها جرت هناك؛ إذْ ما صلة فلسطين بنجران؟ إن التاريخ لا يعرف أي واقعة حربية أو معركة أو أي حدث حربي، مهما كان عرضياً، يجمع بين نجران وفلسطين. ولكن التاريخ، في المقابل، مليء بالوقائع عن حروب ملوك

الحيرة في العراق ومن قبلهم ملوك أشور ضد نجران هذه، كما يعرف صدامات لا عد لها بين ملوك اليمن وملوك نجران- عمون القديمة. وإذا ما تصورنا أن الأعشى اليمني عَنى بصهيون، الجبل المزعوم في فلسطين- ولا وجود لجبل هناك بهذا الاسم-؛ فهذا يعني أن التاريخ يعرف حروباً بين الفلسطينيين سكان فلسطين ونجران؟ وهذا غير منطقي، إذ لم تكن لفلسطين أية إمكانية أو مصالح سياسية أو اقتصادية تدفعها إلى التصادم، مع قوى قبلية منُظمة ومُتحصنة في السراة اليمنية الوعرة. كما أن المسافة التي تفصل بين فلسطين ونجران تجعل من المستحيل على الفلسطينيين عام ٥٢٤ م، وهو عصر الاضطهادات اليهودية لمسيحيي نجران، أن يكونوا طرفاً في هذا الحدث. كل ما يُمكن قوله هنا هو التالي: إن الحدث وقع هناك في السراة اليمنية وليس في فلسطين، وأن حصن صهيون المقصود في قول أعشى همدان، إنما هو حصن صهيون ذاته في بيت بوس اليمنية، التي كانت عاصمة داوود ثم ذي نواس الحميري. وهذا هو المسرح التاريخي ذاته الذي جرت فيه حروب داوود (انظر الخريطة: هجوم داوود على أورشليم والاستيلاء على صهيون).

وإليكم الأدلة:

قلنا آنفاً: إن بيت بوس التي يوجد فيها حصن صهيون، هي مكان لا يُعرف في فلسطين التاريخية؛ بينما نعلم من الهمداني أن بيت يبوس- بوس، من الأماكن التي اشتهرت بكثرة الحصون وهي نفسها تقع في مرتفع جبلي حصين إلى الجنوب الغربي من صنعاء. وقلنا: إن حصن صهيون-صُهي حسب ضبط الهمداني طِبقاً للبناء العربي للأسماء - هو من حصون بيت بوس. قال الراجز اليمني أحمد الرداعي في أرجوزة الحج (صفة: ٣٧٩) واصفاً الطريق من صنعاء إلى مكة:

حيثُ البريدُ لم يزل مأزوما ألفت صُهياً خلفها مذموما

ويقول الهمداني في وصف بيت بوس (صفة: ١٥٤ -١٥٦) ما يلي:

ثم الجوف وهو منُفهق من الأرض بين جبلين فيه أنف وأوبن (..)وما أقبل من عدّ ورد وهو وادٍ يصبُّ مع سامك ودبرة إلى الحقلين والسهلين وما أقبل من أشراف نقيل السود فبيت بوس وجبل نُقم وما بينهما من حقل صنعاء فجبل ذُباب.

إذا ما قُمنا بتفكيك هذا الوصف فسوف نحصل على النتائج التالية: ها هنا وادي بيت بوس في قلب جغرافية جبلية نادرة، مُحاطاً بسلسلة من الجبال والوديان التي تُسجلها التوراة، وهي: جبل أنف- ألف عند يشوع ووادي أوبن- ء بن عند يشوع وصموئيل، ووادي دبرة - دبرة عند يشوع وجبل نُقم- لُقم عند يشوع، وأخيراً جبل ذُباب- زبوب في التوراة. وإذا ما بحثنا عن صلة بيت بوس هذه بمدينة صور، التي كان يحكمها ملك يُدعى ء حيرم صديق داوود- أحرم من قبائل اليمن، حيث طلب منه الأخشاب والنجارين لبناء أسوار حول حصن صهيون، فإننا سنجد هذه الصلة بأجلى معانيها في الرابطة الجغرافية التي جمعت بين المكانين. إليكم وصف الهمداني لمدينة صور اليمنية (٣٠٥ وانظر الخريطة التي تبين موقع صور):

محجّة عدن على طريق صنعاء: من عدن لحج بلد الأصابح ثم الصُّهيب وبها الصُّهيب قبيلة من سبأ ثم صور. ثم ثريد ثم شراد ثم صنعاء.

هذه هي صور اليمنية على طريق صنعاء، حيث دارت معارك داوود للاستيلاء على بيت بوس. وفي هذه الجغرافية يقع وادي ثريد- سريد عند

يشوع الذي سبق لنا تحديده. وفي هذا الإطار يكتب العلّامة الأكوع مُحقّق الكتاب ملاحظة هامة في الهامش تُفيد ما يلي:

بيت بوس يُنسبُ إلى القيل اليمني ذي بواس بن شراحيل. حصن عامر ووادٍ فيه بعض الفواكه ويقع إلى الغرب الجنوبي من صنعاء بمسافة ساعتين.

فهل هي محض مُصادفة أن تكون بيت بوس عند الهمداني من الأودية الخصبة، وأن تكون حصناً منيعاً كذلك، فيما تظهر بيت بوس التوراتية كمكان حصين أيضاً؟ بل وأن تكونا معاً في الفضاء الجغرافي نفسه لسائر المواضع الواردة في أسفار التوراة؟ هذا هو تصوُّرنا لمعركة داوود في وادي بيت بوس اليمنية، حيث سقطت في يده أورشليم ثم حصن صهيون. وسوف نتوقف مُطولاً عند مسألة أورشليم في فصل خاص بها. إن فهماً عميقاً لجغرافية هذه المعارك، سوف يُبين الحقيقة التالية: ما من ملك يمني إلا واتجهت أنظاره صوب نجران لإخضاعها، سواء أكان ذلك بدافع ديني أم بدوافع سياسية واقتصادية.

لقد كانت نجران، أو ربَّة في عصر داوود، هي الجوهرة التي تُزين التاج اليمني نظراً لموقعها الفريد في عقدة مواصلات وخطوط التجارية العالمية؛ ولذا كان التنافس محموماً للسيطرة عليها لا بين اليمنيين أنفسهم، وإنما بين اليمنيين والعراقيين والمصريين القدماء في عصور إمبراطورياتهم الصاعدة. ولسوف نرى مغزى هذا الصراع بكل أُبهته البطولية، حين نُحلل الرواية التاريخية الزائفة التي روجها المخيال الأوربي عن السبي البابلي لليهود. (انظر الكتاب القادم)

تلفيق معارك داوود على الفرات

بعد أن أوقع داوود بالفلستيين-ها-فلشيم وأذلهم، وهزم المؤابيين- بني موءب في معركة وادي حبل، زحف نحو صُبيا لملاقاة ملكها هدد عزر بن رحوب[1]؛ بينما كان هذا مُتجهاً صوب ء فراة لبسط سلطانه عليها. لقد دارت في هذه الآونة سلسلة من المعارك المُتصلة، في وادي الملح وفي ء فراة أيضاً شاركت فيها الجماعات المُتحاربة نفسها. ولوضع القارئ في الأجواء الحقيقية كما وردت في رواية صموئيل؛ فسوف نتوقف عند نمط من التلاعب والتزوير كان الغرض منه إلى النهاية، تكريس انطباع خاطئ ومُضلل عن إمبراطورية إسرائيلية تمددت حتى الفرات العراقي. يقول النصّ ما يلي:

وأوقع داوود بهدد عزر بن رحوب ملك صُبا وكان مُتجهاً ليبسط نفوذه في النهر.

هذا هو منطوق الجملة في اللغة العبرية حرفياً؛ بيد أن الطبعة العربية من التوراة تعطي الجملة التالية:

وضربَ داوود هدد بن عزر بن رحوب ملك صوبه وقد كان ذاهباً ليسترد سلطته على نهر الفرات.

---

(١) من أسوأ الأخطاء السائدة في كتب التاريخ، التي يدرسها الطلاب في الجامعات العربية اليوم، الزعم بوجود ملك سوري- آرامي يدعى بن هدد. هذا الخطأ الفظيع ناجم عن الاستسلام للرواية الاستشراقية التوراتية عن تاريخنا. وآن الأوان لأن نسقط من هذا التاريخ كل ما يتصل باعتبار بن هدد ملكاً سورياً، وأن يوضع ضمن تاريخ اليمن وممالكه الآرامية.

في الواقع أُضيف اسم الفرات في هذا النص من جانب المحققين، إلى كلمة نهر في الجملة العبرية عن نصّ يوناني من التوراة يقول:

ل- حشب- يده- ب-نهر
(ليُبسط نفوذه في النهر)

وهكذا؛ فقد تحوَّل اسم ء فراة العبري، المأخوذ عن النصّ اليوناني، إلى نهر الفرات، ولتصبح الجملة وكأنها تُشير إلى توجه ملك صبُه نحو النهر العراقي لإخضاعه؟ وإذا ما تقبلنا القراءة المخيالية للتوراة والتي رسمت الاسم في صورة نهر الفرات، بطريقة ماكرة ومُخادعة لا أساس لها؛ فإن الأمر غير المفهوم والذي لا يُصدق في الرواية التوراتية هو التالي: كيف يكون بوسع ملك صغير من ملوك القبائل، هزمه داوود بسهولة، أن يواصل زحفه نحو نهر الفرات لإخضاعه؟ وأين ذهب الآشوريون أصحاب الإمبراطورية التي لا تقهر؟ إن التاريخ لم يسمع بمملكة تُدعى مملكة صوبا. ولا بملكٍ يُدعى هدد عزر بن رحوب، بل ولم يسمع بملك يُدعى داوود، إذ لا توجد وثائق تاريخية تُسجل مثل هذه الأسماء، كما لا توجد نقوش وآثار تؤكد ذلك. فكيف يكون بوسع أحدهما أن يُهدد نفوذ الآشوريين، في أوج صعود إمبراطوريتهم ببسط نفوذه على نهر الفرات؟ وما علاقة نهر الفرات أصلاً بالحكاية، إذا ما كانت المعارك تدور داخل فلسطين؟ مثل هذه الأسئلة ستكون ضرورية باستمرار لإعادة بناء الرواية التاريخية، التي يُقدمها نص صموئيل. لقد استخدمت القراءة الأوربية للتوراة كل طاقتها في الخداع والتضليل بغرض الإيحاء بالفكرة التالية: إن حدود إسرائيل القديمة بلغت منطقة الفرات العراقي، بعد ضمّ جماعات وشعوب وأراضٍ بالقوة في كل من سورية والأردن ولبنان

وفلسطين، وصولاً إلى شواطئ مصر. وبذلك تكون إسرائيل إمبراطورية كبرى من إمبراطوريات الشرق القديم؟ وفي هذا التلفيق التاريخي، يمكن للمُتلقي أن يجد في الشعار الذي يُزيِّن جدران الكنيست الإسرائيلي (أرضك يا إسرائيل من النيل إلى الفرات) نوعاً من التأكيد على صدقية الحدث التوراتي. ولكن لما كان داوود نفسه صاحب هذه الإمبراطورية المُتخيّلة، هو شخصية لا تاريخية بمقاييس علم التاريخ القديم، مع انعدام أية أدلة على حقيقته؛ فإن لمن المنطقي أن يُرى إلى حادث بسط النفوذ على نهر الفرات العراقي ومزاحمة الآشوريين بالمناكب، على نفوذهم التقليدي في عصر كان فيه هؤلاء قوة كونية عُظمى؛ على أنه هو الآخر حادث خيالي. وإذا ما تقبلنا هذه التصورات لأغراض السجال؛ فإن علينا أن نصدق أن فلسطين الخيالية في التراث الكتابي، كانت تعرف مملكة صوبا بالقرب منها وكان لدى ملك هذه المملكة ما يكفي من الوقاحة، لتحدي سلطة الآشوريين ونفوذهم على الفرات؛ بل ولدحر الملك داوود نفسه. لكل هذه الأسباب فسوف نُعيد بناء الرواية التاريخية استناداً إلى إعادة قراءة النصوص العبرية وضبط أسماء الأماكن والمواضع الواردة فيها.

لم يكن هدد عزر بن رحوب، في الواقع ملكاً على صوبا بل على صُبا؛ وهي اليوم صُبيا على الساحل اليمني؛ من مدن تهامة اليمن قرب جازان- جاسان في التوراة. والاسم الصحيح للملك - كما سنرى- هو: هدد عيزار بن رحوب (بن آل العيزار). والعيزار عند الهمداني من ملوك القبائل العربية القديمة، وكانت بعض بطونهم تسكن في وادي حَرْية في مخلاف رداع قرب مأرب- انظر حرية آنفاً-. وكنا رأينا الموقع الحقيقي لوادي رحوب. هاكم ما يقوله الهمداني في صفة جزيرة العرب (٢٠٣) عن عزر التوراة:

مخلاف رداع: العرش وحرية لبني الحارث بن كعب ورؤساؤهم آل العيزار.

وكنا رأينا صلة الحارث بن كعب بنجران، فهو مَنْ أسس للمسيحية فيها كما قلنا آنفاً. أما رحوب الوادي الذي ينتسبُ إليه هدد العيزار كاسم لقبيلة ووطن؛ فإنه يسيل حتى نجران، وهذا ما يقوله صاحب صفة جزيرة العرب: ٢٨٢:

أمْلح ورحوب مسيلهما إلى رباق واديان ينتهيان في الغائط والحضن بنجران.

ها هنا سادة نجران القديمة وأساقفتها من بني الحارث بن كعب الذين اضطهدهم يهود اليمن، يقطنون في سلسلة من المواضع المتصلة والممتدة بامتداد الوادي حتى نجران، وهم تحت إمرة ملوكهم ورؤسائهم من آل العيزار- عزر. بقي أن نلاحظ أن صُبيا، وقبل تكونها وتشكلها كوطن قبلي هي من الوديان التي تجري مياهها قرب جبل الرما- ها-رمه وجبل سامع-سامع لتصبّ في البحر. إليكم وصف الهمداني لوادي صَبيا حسب ضبطه: ١٣٥-١٣٦ - :

أودية تشرع في قاع تهامة وتسقي بلد حكم إلى البحر، أولها مما يُصالي حرض ثم خُلب، وبين خُلب أودية تسقي شمالي حكم ثم وادي صَبيا.

هذا هو الفضاء الجغرافي والإثني للمواضع والجماعات التي يتحدث عنها نص صموئيل؛ وهو كما يُلاحظ مُتطابق كل التطابق مع مسرح الأحداث. ولذا؛ فإن الصراع على موضع ربَّة (نجران القديمة) التي كانت

محطَّ أنظار داوود، ومن ثم اصطدامه بملك يُدعى هدد عزر بن رحوب من ملوك صُبا، سيبدو أمراً منطقياً في إطار التنافس الديني وتعارض مصالح الممالك القبلية الصغيرة في اليمن.بهذا المعنى؛ فإن محاولات فرض الوحدة بالقوة وبناء دولة مركزية في اليمن، تشكل الإطار التاريخي لهذه الحروب التي يتشابك فيها الدين والسياسة والتجارة. وهذا ما يُفسر لنا السر الحقيقي للمعتقدات الشعبية -الدينية والثقافية القديمة عند اليمنيين حتى اليوم والقائلة: أن داوود كان ملكاً يمنياً وأن ابنه سُليمان استقبل ملكة سبأ التي تدعى بلقيس. ليس هذا اللقاء مجرد خرافة من خرافات العرب؛ بل هو رواية تاريخية عن دويلات اليمن القديم، المتصارعة والمتحاربة فيما بينها، وقد تمت روايتها بلغة الأسطورة، من أجل تصوير الطور ما قبل تاريخي لوجود دولة مركزية في اليمن ستلعب أدواراً هامة للغاية، على صعيد السيطرة على شمال الجزيرة العربية. وهنا نص الهمداني عن الجماعات التي عاشت إلى جوار بعضها في ممالك صغيرة وردت في التوراة (صفة: ٢٠٢- ٢٠٣):

وقد يُعَدُّ من مخلاف رُعين: بنا وشراد وماوة. وكان ملوك رُعين من سبأ الصغرى (..) وجميع مخلاف رعين لا يسكنه إلا آل ذي رُعين والأملوك والأحروث. ويسكن خلاف جيشان بطون من يريم ذي رُعين، ويُعدُّ من مخلاف جيشان صور (..) ومخلاف رداع لا يسكنها ومخاليفها جميعاً إلا بطون مذحج والقليل من بقايا حِمْير. (..) العرش وحرية لبني الحارث بن كعب ورؤساؤهم آل العيزار.

هذا النصّ المُكثف يشير إلى توزّع الجماعات القبلية في عصر الهمداني على مخاليف، هي بقايا ممالك اليمن الصغيرة قبل نشوء الدولة المركزية، والتي كانت تعود إلى الحياة والازدهار مع كل تشرذم في هذه

الوحدة، إما بسبب الحروب الطاحنة أو الاحتلال الأجنبي. وفي هذه المخاليف-الممالك القديمة، تعيش الجماعات القبلية المؤسّسة ومنها سبأ والألموك- أماليك[١] في التوراة، فضلاً عن آل العيزار عزر. والأهم من ذلك وجود وادي بنا الذي سنتوقف عنده تالياً. هذا الصراع بين ملوك صَبيا كما تُلفظ اليوم، والملك التوراتي داوود لا يمكن فهمه إلا في إطار الصراع على نجران، التي سوف يسارع إلى احتلالها بعد دحر هدد العيزار. قال القاسم بن علي الذروري- من شعراء القرن السابع الهجري- ذاكراً صُبيا :

وأسيرٌ كلَّما لاح له بارقٌ من صَبيا صبا

في نهاية المطاف اجتاح داوود وادي رحوب وضرب صُبيا هذه، ثم عاد إلى وادي الملح ليترك فيه نقشاً لا نعلم عنه أي شيء، لكن صموئيل يُخبرنا أن داوود تركه هناك تخليداً لذكرى معاركه:

ويعس-دود-شم-ب-شبو-م-هكوتو- ءت-ءرم- بنيء-ملح-شمونه- عشر-ء لف

ولأن محققي التوراة لا يعرفون المعاني الحقيقية، للكثير من الكلمات الواردة في النصوص، كما يجهلون أصلاً، أنها مواضع بعينها، فقد سمحوا لأنفسهم بتقديم ترجمات اعتباطية وعشوائية؛ إذْ تحولت -مثلاً- جملة بنيء-ملح إلى: في وادي الملح. مع أن كلمة وادي في العبرية هي عمق. ولو كان المقصود حقاً وادي الملح، لكان على محرر النص أن

(١) بسبب جهل محققي ومترجمي التوراة، فقد جرى تخيّل (أماليك) هؤلاء على أنهم (العماليق). ونص الهمداني هنا يقطع الشك باليقين لأن أماليك التوراة هم قبيلة الألموك.

يكتب الجملة هكذا: ب-عمق-ها- ملح. لكنه أراد مكاناً آخر يُدعى بنيئ- بنا على مقربة من موضع آخر هو الملح نُسبَ إليه. ولذلك؛ فإن النص الآنف يقول ما يلي:

> **وصنع داوود نقشاً في (شابه) لأنه قتل ثمانية عشر ألفاً من ارم وبنا وملح.**

تعني يعس العبرية (يصنع، يعمل، يفعل، يشتغل) وفي تقاليد الحروب والمعارك عند ملوك اليمن القديم، والتي سجل الإخباريون اليمنيون صوراً عنها، غالباً ما يجري استخدام المعاني ذاتها في الجملة الآنفة، مثلاً: إن وهب بن منبه في كتابه التيجان في ملوك حِمْيَر يشير إلى أن الملوك اليمنيين، صنعوا فناراً في البحر يدل على انتصارهم، أو تركوا نقوشاً بقلم المسند يخلِّدون فيه ذكرى هذه المعارك. وقد يصعب - في هذا النطاق- إيراد المزيد من الأمثلة، ولكن يمكن للراغب بها أن يعود بنفسه إلى كتب الإخباريين اليمنيين، ليلاحظ معنى أن يترك داوود نقشاً باسمه في وادي بنا. ومن غير شك؛ فإن وادي بنا هذا كما وصفه الهمداني، من أهم أودية محافظة أبْيَنْ ويقع في المكان نفسه لسائر المواضع الوارد ذكرها في هذا النص- انظر أعلاه: حول مخلاف رُعين-. وهذا الوادي مؤلف من فرعين عظيمين كل فرع يُشكل مسيلاً مائياً له روافد تمدُّه بالمياه، ويقع أحدهما إلى الشمال من مخلاف الشعر غير بعيد عن وادي الملح والأحواض.

إليكم وصف الهمداني (صفة: ١٤٠-١٤١) لوادي الملح:

> **ثم يلقاه وادي الملح من أرض الركب وجنوب نخلة فيسكبان إلى البحر، ومآتي الملح من جبل شرعب وجبل الصيرة (..) ثم وادي زبيد**

وما بين بلد بني مجيد وأبْينْ من الأودية المنتهية ذات الجنوب إلى حيز عدن (..) ومفضى هذه المياه إلى وادي الأحواض.

يضيف الهمداني في نصِّه الطويل هذا وصفاً خاصاً بوادي أبْيَنْ، ليحدِّد لنا صلته بوادي بنا فيقول: (صفة: ١٤٦) ما يلي:

والثاني وادي أبْيَنْ وهو مما يلي لحج ومآتيه من بنا أرض رُعين

هذا هو وادي الملح الذي يُنسبُ إليه وادي بنا، تمييزاً له عن فروع أخرى تحمل اسمه، وتصب في أماكن مُتفرقة. وكما يُلاحظ فهي جميعاً في فضاء جغرافي واحد. إن السبب الحقيقي لرسم اسم الوادي في صورة: بنيئ-ملح لن يكون مفهوماً أبداً، من دون قراءة الملاحظة الهامة التالية، التي سجلها لنا محقق كتاب صفة جزيرة العرب (صفة: ١٤٦):

وادي بنا، له فرعان. كل فرع يشكل سيلاً عظيماً من الروافد التي تمدُّه وتُسمَّى باسم خاص.

بهذا المعنى؛ فإن فرعاً من وادي بنا هو الذي سمَّاه محرر النص بنيئ-ملح، أي بنا القريب من وادي الملح، تمييزاً له عن الروافد الأخرى. أما وادي شابه وصُبيا في هذا النص، فهما متجاوران، وقد وصفهما الهمداني في سياق حديثه عن أودية تهامة اليمن (صفة: ٢٣٢):

ووادي شابه وصَبيا وملوكه ممَّنْ ذكرنا من الحكميين ثم مخلاف عشر.

ها هنا وادي شابه قرب صُبيا، تماماً كما عند صموئيل حيث ترك داوود نقشاً باسمه يُسجل فيه ذكرى معاركه. والمثير للاهتمام، أن

الإخباريين اليمنيين الكلاسيكيين يستخدمون التعبير نفسه، في معرض الإشارة إلى ما يتركه ملوك اليمن بعد العودة من معاركهم. إن جملة ب- شبو- لا تعني عند عودته؛ لأن الباء هنا هي حرف الجر (في) و(شبو[١]) هي شبه- شابه الوادي قرب صُبيا، وليست (يشب العبرية بمعنى يثب، يجلس). في هذا الوادي دارت المعركة وهُزم هدد عيزار-هدد عزر. ولذا سيكون مفهوماً أن هدد عيزار تلقى، عبر هزيمته، ضربة موجعة لمخططاته بمهاجمة ءفراة والاستيلاء عليها. إننا لا نعرف أي شيء عن نهر الفرات قرب صبا أو وادي بنا أو وادي الملح، فهذه كلها أسماء لا وجود لها قرب النهر العراقي. ولذلك؛ فإن المقصود من ءفراة موضع آخر ليس في فلسطين وليس في العراق بكل تأكيد. إن نهر (ء فراة- فراة) هذا ليس سوى بيت لحم كما سيُخبرنا صموئيل نفسه في الرواية- انظر ء فراة في هذا الفصل- وذلك عندما يقول: (إن ء فراة هي بيت لحم). هذا يعني أن المقصود بها ليس نهر الفرات العراقي في كل الأحوال. والمثير للاهتمام أن البكري في معجمه يرسم الاسم نفسه في صورة فراة قائلاً عنها: فراة: موضع في حرّة الصيح- صيحان- في اليمن. وليس ثمة مكان يُدعى وادي صيح-صيحان في اليمن، سوى الوادي نفسه في تهامة غير بعيد عن وادي شابه وصُبيا. إن الفضاء الجغرافي الذي دارت فيه معارك داوود ضد ملك صُبا- صوبا حيث وادي بنا ووادي الملح وء فراة ورحوب وشابه، لا يمكن استنساخه وتخيله في فلسطين التاريخية، كما لا يمكن تلفيق وجود

---

(١) توهم المترجمون أن شبو -هي ذاتها يشب. بينما المقصود اسم الوادي شابة. وفي أخبار العرب القديمة ثمة حكاية طريفة عن الفارق بين لغة حمير ولغة العدنانيين المضريين، إذ تذكر إحدى الحكايات أن رجلاً من عرب الجزيرة وصل إلى اليمن ودخل على ملك من الملوك الحميريين: فقال الملك مخاطباً الضيف: ثب. فقفز الرجل وسقط. فاستغرب الملك. قال له: قلت لك: ثب، أي اجلس.

تاريخي لجماعات قبلية عربية، عاشت قديماً في هذه الأودية والجبال، أوإعادة وضعها داخل فلسطين لمجرد وجود تماثل لغوي عابر في أسمين أو ثلاثة بين مئات الأسماء.

إن عملاً من هذا الطراز يستلزم دليلاً جغرافياً وقرائن أثرية لا يطاولها الشك؛ بينما لا نحتاج، مع الهمداني، إلا لقليل من التبصر ورؤية والتوصيفات الجغرافية الدقيقة للجماعات نفسها، ولمنازلها التاريخية وبالصيغ والتراكيب اللغوية ذاتها من دون أدنى تلاعب. وفي هذا النطاق من المسألة، ستكون رواية صموئيل للأحداث مقبولة، فلا هجوم حربياً مفاجئاً وقع على الفرات العراقي للسيطرة عليه، وليس ثمة ملك صغير هُزم أصلاً أمام داوود- وهذا بدوره ملك صغير لجماعة قبلية صغيرة- يمكن أن يصل إلى الفرات العراقي بينما نصف العالم القديم يخضع لنفوذ الآشوريين. ومن ثم؛ فإن حدود إسرائيل القديمة المُتخيَّلة لم تتمدَّد حتى الفرات، شاملة آراميي سورية وسكان وادي العربة الأردني ومعها صور اللبنانية وشواطئ مصر. إسرائيل هذه هي إسرائيل من صنع وتلفيق مخيال أوروبي قرأ التوراة بعينين سحريتين. إننا لا نعرف وادي الملح في فلسطين؛ لكن محققي التوراة يُخبرون القراء أن هذا الوادي هو البحر الميت، إلى الجنوب من وادي العربة الأردني. وبالطبع من دون دليل واحد على هذا التحديد الاعتباطي. إذا كانت هذه الحروب دارت داخل فلسطين وقرب وادي الملح- الذي لا وجود له هناك بينما نجده عند الهمداني بالصيغة ذاتها- فلماذا ولأي غرض اتجه ملك صوبا- صُبا نحو الفرات العراقي؟ من الناحية الجغرافية سيبدو هذا التحرك لا معنى له ومستحيلاً، فهو يدور داخل جغرافيات متناقضة لا يجمعها جامع، تماماً كما لو أن مؤرخاً تعوزه المعرفة والحصافة، يخبرنا أن معركة واترلو جرت ضد القوات الإيطالية في الهند. وبالطبع لا توجد واترلو في الهند ولم

تحدث مثل هذه المعركة ضد الطليان هناك. في الواقع، هناك فراة يمنية كما يوجد نيل يمني، وهناك وادي الملح بالفعل وهو ليس البحر الميت. وهذا ما يقوله الهمداني (١٣٩-١٤٠):

ثم وادي نخلة ومصابُه من بلد الكلاع. تنتهي إليه مياه أرض حبُل (..) وجبل الصيرة، ومن شماليه جبل دمُت ثم يلقاه وادي الملح من أرض الركب.

من البديهي في ضوء تصوُّرات الهمداني وصموئيل المُتطابقة كلياً وحرفاً بحرف، أن تبدو الرواية الاستشراقية لأحداث هذا السِّفر اخْتِلاقاً. ففي أذهان مُتلقي النصوص التوراتية سوف تتعدى حدود إسرائيل المعاصرة، الطبيعية والتاريخية نطاق فلسطين المُستولى على أرضها وتاريخها، لتشمل كل الأرض الممتدَّة منها باتجاه سورية والأردن والعراق وشواطئ مصر. أما السؤال البسيط الذي تتفادى هذه القراءة طرحه على نفسها فهو: ولكن، إذا كانت إسرائيل الصغيرة هذه، تتمدد بسهوله في أراضي البلدان والجماعات الأخرى، فأين كان الآشوريون أصحاب القوة العظمى في العالم القديم، وماذا فعل المصريون آنذاك؟ بل لماذا حدث السبي البابلي أصلاً إذا كان لدى إسرائيل هذه القدرة العسكرية والبشرية الهائلة؟ إن مغزى مهاجمة ء فراة وهي بيت لحم كما يسميها صموئيل، سوف يتضح حين نعلم أن داوود نفسه من عائلة ء فراتية، وأن ء فراة هي قريته التي ولد فيها؛ وكانت تُدعى بيت لحم أي: بيت- قبيلة لخم اليمنية الشهيرة. وهذا ما سنراه في الفصل القادم.

الفصل الثالث

هزيمة داوود أمام الملك شاول وهروبه

(إعادة بناء الرواية التوراتية في سِفر صموئيل الأول)

أريدُ في بداية هذا الفصل، التأكيد على الفكرة التالية وهي تشكل الأطروحة المركزية في الكتاب: إن تخيل فلسطين وتصوُّرها مسرحاً للحدث التوراتي؛ أدى عملياً إلى تلفيق مملكة إسرائيل القديمة.

من دون إنشاء صورة خيالية مُنمقة لفلسطين توراتية، يكاد يكون من المُستحيل عرض تاريخ بطولي لإسرائيل قديمة ومُتجذِّرة في المنطقة. وهذه واحدة من الاستراتيجيات الكبرى للقراءة الاستشراقية، التي رأت إلى مهمتها على أنها تنحصر في تكريس الانطباع القوي والآسر؛ بأن الأحداث التوراتية جرت في مسرح فلسطيني. بهذا المعنى وحده يصبح تلفيق فلسطين توراتية، تلفيقاًلإسرائيل توراتية أيضاً. لكن التاريخ الحقيقي والمكتوب سيدحض على غرار ما ستفعله الجغرافية، مثل هذه الصور الزائفة. وذلك ما سنراه في هذا الفصل الخاص والمكرّس لسرد قصة هروب داوود بعد هزيمته أمام الملك شاول. يسردُ سِفر صموئيل الأول

قصة هروب داوود في أثناء صراعه مع الملك شاول بن قيس- ساول بن قيس، إلى وادي الرما-ها-رمه؛ وبالتالي اضطراره إلى التخفيّ عن أنظار الملك في مواضع وأماكن مختلفة، قبل أن يتمكن- أخيراً- من حسم الصراع لصالحه بعد مصرع شاول المفاجئ على يد الفلستيم في معركة جبل موتك. وقد توصلنا إلى هذا الاستنتاج من قراءة مرثية داوود نفسه التي رثى فيها مصرع الملك وابنه يونتان- يهونتن- والاسم تركيب من يهوه أي الرب وكلمة نتن بمعنى عطية الرب-. عندما احتدم الصراع بين شاول وداوود في سياق التنافس على الحكم، هرب داوود إلى وادي الرما-ها-رمه،حيث يعيش هناك النبي صموئيل راوي القصة نفسه. وصموئيل هذا كما أشرنا في مكان آخر من الكتاب، هو ذاته في المرويات العربية الكلاسيكية الشاعر السموأل، الذي لم يتحقق أحد بعد من صحة وجوده كشاعر- حتى أن نفطويه رفض الرواية الرائجة في عصره عن وجود ديوان شعري باسمه (انظر ما كتبناه عن السموأل في كتابنا أبطال بلا تاريخ - دار الفرقد ٢٠٠٥).

وصل داوود إلى مكان يُدعى سكو-سُكه فأقام فيه. ولكن ما أن علم شاول بالأمر، حتى قرر مطاردة داوود وملاحقته في الوادي؛ ولذا أسرع داوود في الهرب من وادي الرما نحو مغارة تدعى بيت عدّ لام- عدلم، ومنها اتجه إلى حارة-حارة عند الهمداني. وبذلك أفلت مرة أخرى من قبضة الملك الغاضب. ومع هذا استمرت مُطاردة داوود وكان جنود شاول يرصدونه في كل مكان ويستقصون أخباره، حتى ضيق عليه الخناق فلم يجد مناصاً من الاتجاه نحو قعلة - قعله. وفي هذا المكان صادف أن علم داوود بوجود جماعات من الفلستيم آكلي السُّحت -ها- مشحيت (أي آكلي الحرام) كانت تُهاجم الفلاحين وتنهب محاصيلهم. كان داوود قد تمكن في أثناء فراره، من اجتذاب أعداد من المقاتلين إلى جانب قضيته في الصراع والثورة ضد الملك شاول. ولذا سارع إلى قتال النهابين الذين

كانوا يسومون الفلاحين العذاب. بعد هذه الأحداث مباشرة، وصلت الأنباء إلى بلاط الملك شاول تُفيد بظهور داوود وعصابته في قعله قرب وادي الرما. كان الملك شاول يعرف وادي الرما جيداً، بما أنه رجل بنياميني -من جبل بن يامن-؛ وقد ساقته الأقدار إلى هذا الوادي يوم كان صغيراً يرعى الأغنام، وذلك عندما أرسله والده قيس، وراء أُتُنٍ له ضلت هناك وضاع أثرها. في هذا الوادي قُدِرَ لشاول الصغير أن يلتقي بالنبي صموئيل المُقيم في وادي الرما. لقد شاهدهُ النبي فتوسم فيه علامات الملك المُنتظر في بني إسرائيل، وحين أخبره النبي أنهُ هو الملك المُنتظر ردّ الصغير بدهشة قائلاً : ولكنني رجل بن ياميني؟ أي من سبط بن يامن الذي يُعد سبطاً صغيراً وهامشياً من أسباط بني إسرائيل، ومن ثم؛ فإن وصوله إلى العرش سيبدو أمراً مُثيراً للجدل مع المرشحين الأقوياء من الأسباط الكبيرة مثل سبط يهوذه الذي ينتمي إليه داوود. ثم شاءت الأقدار مرة أخرى، أن يجد شاول نفسه في الوادي الذي جرى فيه اختياره ملكاً، ولكن ليصارع أحد أكثر المُطالبين بالعرش جدارة وقوة. وبينما ينتسب شاول إلى سبط بن يامن الصغير؛ كان داوود ينتسب إلى السبط الكبير يهوذه. وبذلك يكون الصراع بين الرجلين قد صدر أصلاً، عن تنافس قبائلي وأسري قبل أن يتخذ طابعاً شخصياً أو سياسياً. بهذا المعنى؛ فإن وصول داوود إلى وادي الرما، هو على نحو ما، تكرار للقصة القديمة ذاتها : قصة اللقاء بالنبي صموئيل والحصول منه على فرصة اعتلاء العرش. كان داوود قد دخل في خدمة الملك شاول وخاض قتالاً شرساً لأجله؛ لكن العلاقات بين الرجلين سرعان ما تدهورت ثم انهارت كلياً. وعندما وصل داوود إلى وادي الرما اتجه، على الفور، إلى نوب- منوب عند الهمداني. وفي إحدى المرات في أثناء تنقله متخفياً كاد أن يقع في يد الملك. وأخيراً، يسرد السِّفر قصة موت النبي صموئيل نفسه واضطرار داوود إلى الخروج من المخبأ، للمُشاركة في المناحة الجماعية الكبرى

التي أقامها بنو إسرائيل في برية فاران. وبعد سلسلة من الأحداث، يُهزم شاول في معركة خاطفة مع داوود، لكن داوود يقرر الإبقاء على حياة الملك ويمنع أتباعه من الانتقام ليواصل هربه ثم صراعه. وهذا ما سوف يساهم في صعود نجمه كبطل. في إطار هذه القصة التي تُسجل خط هروب داوود ثم صعوده ملكاً بعد موت شاول، تظهر سلسلة من المواضع والأماكن الجديدة، فقد هرب داوود إلى موضع حرسه -حرسه في برية زوف-زف، حيث اختبأ في أكمة تُدعى الحكيلة- حقيلة جنوبي القفر، قبل أن يأخذ طريقه إلى عين جدي -عين- جد، عبر وادي العربه- ها- عربه ثم برية معون- معين. هذه هي أهم المواضع والأماكن الواردة في قصة هروب داوود كما رواها النبي صموئيل. وهنا القائمة كما ضبطناها استناداً إلى النص العبري وإلى الشعر الجاهلي وشهادة الهمداني:

النص العربي من التوراة	الاسم العبري	الضبط العربي
حارة	حاره	حارة
حرسه	حرسه	حرس
زيف	زوف	زوف
الحكيله	حكيله	الحقيله
عدلم	عدلم	عّدلام
سكو	سوكو	سُكه
جت	جت	جوة
عين جدي	عين- جد	عين جدي
الراما	ها-رمه	الرما
معون	معن	معين
نوب	نوب	منوب

وادي حارة

قبل الكشف عن نمط التلاعب والتزوير، في ضبط وتحديد المواضع التي تدور فيها قصة هروب داوود التوراتية؛ لابد من التوقف قليلاً عند اسم الرامه، حسب الرسم الشائع في طبعات الكتاب المقدَّس لليهودية. إن هذا الرسم خاطئ ومُضلل فهو يعطي اسم مكان لا وجود له على وجه البسيطة؛ إذْ ليس ثمة مكان بهذا الاسم لا في فلسطين ولا في أي مكان آخر من العالم. لقد بلغ الخيال اليهودي الأوربي، ولشدة تعلقه بقصص التوراة، حدّاً مفرطاً يستحيل رؤية ما يماثله في الأدب؛ إذ راح يتصور المكان كما لو كان حقيقياً وأنه موجود في فلسطين اليوم؛ حتى أن شركات صناعة الساعات السويسريّة الكبرى، التي يُديرها الأثرياء اليهود سمت أشهر ساعاتها باسم ساعة راما. يرتبط اسم الراما بقصة موت النبي صموئيل، واختيار شاول ملكاً على بني إسرائيل وبهروب داوود أيضاً؛ وهذه محطات كبرى في قصص التوراة. إن الرسم العبري للاسم هو رمه. وهذا الرسم لا يؤدي إلى كتابة الاسم في صورة الراما أو الرامه؛ بل يجب أن يرسم في صورة الرما أو الرمه تقيداً بالحروف الأصلية. وبطبيعة الحال لا تعرف فلسطين التاريخية هذا المكان في كل الأشكال التي يرسم فيها الاسم. وليس ثمة واقعة أو إشارة عابرة أو بيت شعر قديم، يشير إلى معرفة الفلسطينيين بموضع في بلادهم دُعي- ذات يوم- وادي الراما. بينما يعرف تاريخ اليمن كما تعرف جغرافيته التي وصفها الهمداني والشعر الجاهلي، وادياً شهيراً هو وادي الرُّما. واليمنيون يعرفون شاعراً شهيراً يُدعى ذا الرّمة- نسبة إلى الرمة الوادي. كما أن الهمداني يعطي اسم جبل من جبال اليمن هو جبل الرما، وهذا الجبل على مقربة تماماً من وادي حارة وغير بعيد عن وادي حار، الذي هرب داوود نحوه. وحارة هذه تتبع بلد يام- يم في التوراة- الممتد حتى نجران. وثمة- في هذا النطاق من

المسألة في جانبها اللغوي- صلة قرابة حميمة بين وادي الرّمة وجبل الرما؛ بل وصلة تجاور من نوعٍ ما إذا ما وضعنا المكانين في فضاء جغرافي واحد. إليكم وصف الهمداني لموضع حارة- صفة: ٢٢٦-:

بلد يام: ليام وطن بنجران نصف ما مع همدان منها ثم بلدهم يطرد عليها ناحية الحجاز إلى حدود زبيد، ونهد من ناحية حارة، وما يليها وبدر وصيحان وقابل نجران.

في هذا النص الواضح يُحدِّد الهمداني موضع حارة ضمن نطاق نجران، على مقربة من وادي صيحان - التي سنرى تالياً أنها المكان الذي نعثر فيه على ء فراة وهي بيت لحم حيث موطن داوود- وفضلاً عن ذلك، هناك ما يُسمّيه الهمداني قابل نجران، وهو موضع يُقال له قابل وفي التوراة - كبول (انظر منازل الأسباط). بهذا المعنى يكون داوود قد هرب إلى مكان حصين، هو سلسلة من الجبال والأودية في موطنه الأصلي حيث عاشت أسرته الإفراتية. مثل هذا المكان وبمثل هذه الصفة والاسم، لا وجود له في فلسطين التاريخية. أما الرما فهي جبل الرما من جبال السكاسك بين عدن ووادي نخلة وزبيد. وهنا وصف الهمداني للمكان (صفة: ١٣٦):

جميع ما بين عدن ووادي نخلة من أرض شرعب من الأودية الكبار التي تنتهي إلى البحر (....) يردُ العارة فشرقي ذُبحان فغربي جبل الرما.

هذا هو جبل الرما، حيث سلسلة الوديان الكبيرة المُحيطة به، وإلى جواره موضع العارة-عارة في التوراة. وإذا ما تتبعنا خطا الهمداني، من جبل الرما على الطريق الساحلي من عدن باتجاه زبيد؛ فإن حارة ستكون

أمامنا وجهاً لوجه؛ بينما سيكون من المستحيل علينا الوصول إلى أي موضع دُعي- ذات يوم-رما أو الرما أو الراما أو الرمة، إذا ما سرنا قاصدين حارة على الساحل الفلسطيني. يُرسم اسم الرما في نصّ صموئيل الأول (٥: ٢٠: ١٤: ١٩) في صورة رمه، كما يُرسم في صورة ها-رمته. وسوف نتوقف عند هذه الصيغة النادرة حين نناقش مسألة عد لام تالياً.

وفي كل هذه الحالات؛ فإن الترجمة العربية للتوراة تعطي مكافئاً واحداً هو الرامة. إن هذا الرسم المُضلل والذي لا يحدد المكان بصورته الصحيحة، يُفاقم من غرائبية المواضع التوراتية ويجعل من المُتعذر، بالفعل، تكوين تصورات صحيحة عن قصة هروب داوود. هرب داوود إلى الرما وهي جبل ووادٍ مشهور في اليمن على مقربة من سائر المواضع التي تردُ في نص صموئيل؛ وهذا ما سنراه بوضوح حين نفتش عن بقية الأماكن. ونضيف هنا مرة أخرى، ومنعاً لكل التباس، أننا لا نناقش مسألة صحة هذه المرويات، لأن هذا الأمر يقع في نطاق تحليل مختلف عما نقوم به في هذا الكتاب. يقول النص: إن داوود وبعد وصوله إلى جبل الرما، حيث بحث هناك عن النبي في سكا-سكو، اتجه إلى وادي نوب للقاء الكاهن أخي-ملك (ء حي-ملك). ونوب هذه عند الهمداني هي منوب - بأداة التعريف اليمنية المنقرضة-. وبالطبع لا وجود لمكان في فلسطين التاريخية يمكن الوصول إليه من الرما ويُدعى نوب. بينما يكون بوسعنا الوصول إليه بسهولة من جبل الرما اليمني. إليكم ما يقوله الهمداني (صفة: ١١٨-١٢٠) في وصف بلد شرعب ووادي نخلة- انظر النص أعلاه -:

وادي الملح وتسكنه- قبيلة- الأشعر ثم يتصل بلد المعافر في هذه السراة، بلد شرعب من حِمْيَر منها دخان ورؤوس (وادي) نخلة، وقبلة بلد الكلاع: منوب وشيعان وهما الواديان.

ها هنا وادي منوب- نوب في الفضاء الجغرافي نفسه لوادي نخلة، على الطريق من جبل الرما. بقي أن نلاحظ أن نص صموئيل يروي قصة لقاء داوود بيوناتن- يهونتن ابن شاول، في أثناء احتدام خلافه مع الملك شاول، وأن يونتن ساعد داوود على الذهاب إلى قريته بيت لحم- بيت لخم لحضور عيد الذبيحة[1]؛ الذي تُقيمه عشيرته الإفراتية أي عيد الأضحى القديم عند القبائل العربية الذي صار عيداً إسلامياً. ويبدو أن ذكرى هذا العرفان بالجميل ظلت حاضرة في ذاكرة داوود؛ ولذا قام برثاء يهونتن عند مصرعه في معركة جبل موتك. وكنا أشرنا إلى أن التوراة تقول عن ء فراة أنها بيت لحم، وهذا يؤكد بطلان الادعاء أن ء فراة هي الفرات العراقي. وبكل تأكيد لا تقع بيت لحم الفلسطينية قرب الرامه، ولم تُعرف في أي وقت بأنها (ء فراة) ولا يوجد بالقرب منها أي موضع يُدعى نوب أو منوب. وإلى هذا كله لا توجد حارة ولا سكا- سكو. بقي أن نقول: إن موضع سكو هذا، الذي يوصف بأنه في الرمه؛ إنما هو سلسلة الجبال التي تُعرف بالسكاسك، وهذا تضعيف اسم سكا- سكا.

هنا مقاربة للنص العبري و العربي من صموئيل ونص الهمداني عن المكان نفسه:

صموئيل	الهمداني (صفة: ١٤٤)
ها- رمته-و-يب ء-عد-بور- ها- جدول-ب-سكو (النص العبري)	جبل الرما، ثم يلقى هذه الأودية أودية السكاسك (سكا- سك)
	(إلى الرما، ووصل إلى البور الكبير في سكا- النص العربي)

(١) من أعياد اللخميين. وسوف نتحدث مطولاً عن العلاقة بين لخم وبيت لحم.

فهل هي محض مصادفة أن تكون الرما عند الهمداني، قرب أودية سكاسك؛ بينما الرمه عند صموئيل قرب سكا؟ إن الترجمة العربية السائدة تكافئ كلمة بور العبرية بكلمة بئر. ولذلك ترجمت الجملة (ويبء- عد- بور-ها- جدول) على هذا النحو (انتهى إلى البئر الكبيرة التي عند سيكو) بينما يتوجب ترجمتها بطريقة أقل تكلفاً وحذلقة على النحو التالي (ووصل إلى بور الكبير عند سكه). والسبب بسيط للغاية لأن بورلا تعني بئراً. ولو كان المقصود بها بئراً لتوجّب على محرر النص أن يُسجل الاسم في صورة ب ء ر، كما هو مألوف في النصوص التوراتية. في الواقع إن بور- ها- جدول تعني البور الكبير، بالفعل، وهو وادٍ قرب جبل الرما تماماً. إليكم وصف الهمداني للموضع المقصود (صفة: ١٣٥-١٣٦):

ثم وادي خُلب وهو الذي يشرع على جانبيه ومآتيه من البار، وجميع ما بين عدن ووادي نخلة من أرض شرعب فشرقي ذُبحان فغربي جبل الرما.

البار هذا، كان ذات يوم من القرى الكبيرة في اليمن، وهو يظهر في نص الهمداني أعلاه بوصفه وادياً كبيراً يدفع بمياهه إلى وادي خُلب-خلب في التوراة. إليكم ما يقوله محقق الكتاب:

البار: كانت قرية كبيرة وسوق عظيم في غربي رازح وحازة تهامة.

هذا التماثل مثير للدهشة حقاً، ها هنا وادي البار-الذي صار قرية كبيرة فيها سوق عظيم- بينما يحدثنا صموئيل عن بور-ها- جدول: البور الكبير. وسوف نتوقف تالياً أمام رازح الواردة في نص الهمداني ومحققه؛ وصلتها بالجماعة التوراتية زارح. إن هذا وحده ما يُفسر لنا السبب

الحقيقي لاستخدام صموئيل عبارة بور-ها- جبول في وصف وتحديد المكان الذي بلغه داوود؛ فهو على مقربة من جبال السكاسك وجبل الرما. وبكل تأكيد لا تعرف فلسطين التاريخية هذا التوصيف، الذي يجمع المواضع الثلاثة قرب بعضها. وفوق هذا وذاك؛ فإن لمن غير المنطقي الكلام عن بئر كبيرة، بين هذه السلسة من الوديان والجبال التي تشتهر بالمياه الغزيرة والعذبة، وهي تسيل حتى تصب في البحر؟ نخلصُ من ذلك إلى تأكيد الحقيقة التالية: ليس ثمة موضع يُدعى الرامه أو رمه لا في فلسطين القديمة ولا في أي بقعة على الأرض، كما لا توجد بئر كبيرة هناك؛ بل يوجد جبل الرما قرب سكا-سك وهي سلسلة جبال عظيمة تطل على تهامة، حيث الوادي الكبير المسمى البور- البار، ثم قريته الكبيرة التي دُعيت في عصر الهمداني بقرية البار العظيمة. أريد في ختام هذا القسم الإشارة إلى موضع هام ورد في هذا السِفر، وصله داوود بعد انتصاراته على العماليق وهو مكان يدعى عتك، القريب من وادي وتر-يتر-١٢: ٣١: ٢٧: ٣٠: (ل-ء شر-ب-عتك). وهذا الموضع يصفه الهمداني ويضبطه في سياق وصف اليمامة على النحو التالي (صفة: ٢٥٥):

ثم تمضي في العارض فترد القرية وهي قرية جيدة فيها قصر سليمان عليه السلام مبني بصخر منحوت عجيب خراب (..) وأودية منها وتر، ووتر لبني غُبر، وإلى رملة كُتلة، ثم تنزل إلى بطن العتك، فمن أيمن بطن العتك نقيل العرمة، وبأعلاه الحِقلة، وكل ما عددت من مياه العتك.

في هذا النص لدينا عتك-العتك تماماً كما في النص العبري، وهي إلى جوار وادي وتر-يتر وغير بعيد عنهما الحقِلة - الحكلة انظرها تالياً-

فضلاً عن مواضع أخرى سبق لنا التوقف عندها. تُرى من أين جاء الاعتقاد عند القبائل العربية أن القصر الأثرى في هذا الوادي هو لسليمان بن داوود؟ قال ذو الرّمة واصفاً وادي العتك:

خليلي ما بي من عزاءٍ من الهوى إذا أصعدَت في المصعدين غلابُ

فليتَ ثنايا العتكِ قبل احتمالها شواهقُ يَبْلغنَ السحاب صعابُ

الوصول إلى حَرْسَه من حقيل إلى فاران

يقول النص العبري: ٢٦: ١٠: ٢٣:

ويرء-دود- كي -يصء -شءول -ل-بقس -ءت- نفشو- ب-مدبر-زيف- ب- حرسه
(ورأى داوود أن شاول خرج يطلب دمه وكان في برية زيف في حرس)

حسب هذا النصّ الواضح والبسيط؛ فإن داوود سارع إلى برية زيف وتحديداً إلى حرسه-حرس، بعد أن علم بخروج الملك بنفسه لمطاردته. وهذا يعني أن داوود اضطر لمغادرة الوادي الحصين الذي كان يُقيم فيه، إلى مكان آخر يصفه صموئيل بأنه برية. وإذا ما تتبعنا هذه المُطاردة وفقاً للخريطة التي يرسمها النصّ، فسوف يكون من المحتم علينا التغاضي كلياً عن خريطة فلسطين، والسبب بسيط للغاية: أن فلسطين لا تعرف برية تُدعى زيف، يمكن الوصول إليها من الرما. كما أنها لا تعرف موضعاً في هذه البرية يُسمى حرسه أو حرشه. فهل كان داوود يهرب إلى مكان هو من تلفيق الرواة وساردي قصصه؟ أم أن هذه مواضع حقيقية جرى حجبها وتكميمها؛ بل وتغريبها بحيث تبدو في النهاية مواضع يستحيل

العثورعليها؟ طِبقاً لوصف الهمداني؛ فإن برية زوف-زيف هي بالفعل من براري زبيد وعدن وتمتد حتى يافع، وإلى اليوم لا يزال اسمها محفوظاً هناك. وإذا ما سار المرء في هذه البرية قاصداً موضع حرسه-حرس؛ فإنه سوف يصل بسهولة إلى المكان نفسه الذي اختبأ فيه داوود. إليكم ما يقوله الهمداني عن برية زوف - زيف وحرس- حرسه في هذين النصين المتوازيين (صفة: ١٨٢-١٨٤):

والمُحجر الأسفل والأكراب والمتار لبني منبه (...) ولسْ وشعبان والغول وهو لبني عبس من زوف (....) وغُفار لصنابح وهم من زوف (....) وذو كزان لبني حبيش من زُبيد وهم في وسط أرض زوف (...) فهذه أرض زوف في الميمنة إلى حدود يافع.

يُعرّف الهمداني المكان المُسمى المُحجر الأسفل في النص أعلاه، حيث تبدأ أرض زوف- برية زيف قائلاً (صفة: ٢٩١) ما يلي:

والمُحجر بين- قبيلة- غني وبني أسد- ثم- رمان بين غنيّ وطيئ (..) - ثم حرس: ماء لقبيلة غني ورمان وحقيل بين غني وطيئ أيضاً (..) وجدود ماء لغني.

ها هنا أرض زوف-برية زيف وها هنا مياه حرس- حرسه، وها هنا حِقلة أخرى تظهر في صورة حقيل، لا تبعد كثيراً عن الموضع السابق الحِقلة-الحكلة، تماماً كما في وصف صموئيل. يعني هذا أن داوود قصد موضعاً من مواضع القبائل المُتبدية في منطقة المُحجر الأسفل، ليحتمي في وادٍ من أوديتها (حيث أقامت قبيلة طيئ تالياً، ونقلت معها بيت العبادة فلس-فلست). إن هذا وحده ما يُفسر لنا السرّ وراء قول صموئيل أن داوود اتخذ في هذه الآونة من الصراع ضد شاول، مناصرين له ينتمون في

معظمهم إلى القبائل التي حاربها أي من الفلستيم[١]- الفلست. وكنا أشرنا من قبل إلى أن الفلستيم هم من القبائل الوثنية التي كانت تعبد الفلس. وهؤلاء من بطون طي القدامى أي قبل ظهور طي في صورتها التاريخية المعروفة.

قال حُمَيْد بن ثور (معجم: ٤٣٨):

ولقد نظرتُ إلى الحَمولِ كأنها زُمر الاشاء بجانبي حرسِ

يُقصد بكلمة ماء أو مياه في الموارد العربية القديمة التاريخية والجغرافية؛ الإشارة إلى الوديان الصغيرة أو مسايل المياه، وهذا هو المعنى الحقيقي الذي قصده الشاعر، حين صوَّر لنا جانبي وادي حرس في أرض زوف حيث تمر قوافل البدو. من المهم أن نلاحظ في وصف الهمداني الدقيق، قوله أن حرس هي إلى جوار حقيل. وهذا وادٍ صغير آخر بين القبيلتين. أهمية الوصف تكمن هنا، أن صموئيل سوف يخبرنا بوصول داوود من حرس إلى موضع يُدعى الحِقلة-حكِله. وليس ثمة مكان من المُحتمل أن يكون هو المقصود في رواية صموئيل، سوى هذا الوادي الصغير والقريب من مياه حرس؛ بل أن فهماً أفضل لمقاصد النص التوراتي، يجب أن يُلاحظ قول صموئيل أن داوود وصل إلى حكيله وعين جدي هارباً من حرسه. إن عين جدي أي مياه جدي هذه، ليست سوى الموضع نفسه الذي يُسمّيه الهمداني في نصه الآنف جدود - اسم الجمع من جدي- وهي ويا للمُصادفة مسيل مياه لقبيلة غني؟ فهل ينطوي الأمر

---

(١) أداة الجمع في الحميرية - اليمنية، لغة أهل اليمن هي الميم: حميرم- حميريون، أزدم - أزديون (أزد)، بككلم- بكليون (من بكيل القبيلة الشهيرة). يؤكد هذا الاستعمال الغريب لأداة الجمع (م) أن اسم الجمع الصحيح لفلستيم في العبرية هو فلستيون. للمزيد انظر: اللغة العربية لشرف الدين، مصدر مذكور.

على مُصادفة محض، أن تكون أرض زوف وحرسه وعين جدود وحقيل في المكان نفسه داخل نصّي صموئيل والهمداني؟ قال زهير بن أبي سُلمى:

هُم ضربوا من فرجها بكتيبةٍ كبيضاء حَرْسٍ في طوائفها الرجلُ

في هذا البيت النادر توضع مياه حرس- حرسه على مقربة من مسيل مياه الرجل- روجلم، والميم هنا أداة التعريف في اللهجة اليمنية المنقرضة. وقال الراعي النميري:

رجاؤكَ أنْساني تذكُّر إخوتي ومالكُ أنْساني بحرسين ماليا

وقال طُفيل الغنوي (من قبيلة غني صاحبة المكان- ياقوت: ٢: ٢٧٩):

فنحنُ مَنَعنا يومَ حرسٍ نساءكم غداة دعونا دعوة غير موئلِ

وقال لبيد:

وبالصفح من شرقي حرس محاربٍ شجاعٍ وذو عقدٍ من القومِ مُخبرُ

كلّ هذه القصائد التي تُسجل اسم مسيل مياه حرس-حرسه؛ تؤكد على أن فلسطين الحقيقية لا تعرف قطّ، أرض زوف. كما لا تعرف حقيل أو جدي قرب بعضها، بحيث يتسنى لداوود الهارب من قبضة الملك شاول، أن ينتقل من مكان إلى آخر بسهولة، ليختبئ تارة في وادٍ وتارة أخرى في أكمة ومرات بين الجبال. قال الراعي النميري (معجم: ٤٦٠) واصفاً مسيل مياه حقيل:

وأفضْنَ بعدَ كظومهنّ بحرّةٍ من ذي الأبارقِ إذ رَعينَ حقيلا

إن وصف الراعي النميري للإبل وهي عطشى، تجتاز حرّة من الحرّات قاصدة حقيل، يشير بكل دقة ووضوح إلى المكان بوصفه مسيل

مياه جارية. وبهذا المعنى استعاد جرير صورة حقيل هذه (ياقوت: ٢: ٣٢٢):

تداركنا عُيَيْنة وابن شمخٍ وقد مرّا بهنّ على حقيلِ

كما وصفها عمرو بن لجأ (ياقوت: ١: ٨٠):

ألمْ تَرْتَع على الطلل المُحيلِ بغربي الأبارق من حقيلِ

إذا ما تتبعنا التوصيف الدقيق لصموئيل والهمداني وسرنا في إثرهما، على الطريق ذاتها التي سار فيها داوود في أرض زوف - برية زيف، فحرسه ثم حقيل؛ فإن مقاصد النص التوراتي من اسم رمه ستبدو واضحة كلَّ الوضوح. إن المقصود بهذا الموضع جبل الرما وليس أي مكان آخر. يقول النص العبري ما يلي: ١٣: ٢٥: ١٧: ٢٤:

ويمت- شموءيل- ويقبصو- كل- يسرءيل- ويصفدو-لو- ويقبرو-ب-بيتو-ب-رمه- ويقم-دود- ويرد-مدبر- فءرن.

هذا النص مؤلف في الواقع من جملتين لا صلة عضوية أو بنيويّة بينهما، فهو يتحدث عن واقعتين الأولى وفاة النبي صموئيل- شموأل، والثانية ذهاب داوود إلى برية فاران:

ومات شموئيل فتجمع كل بني إسرائيل للنواح عليه، فدفن في بيته في رما. وقام داوود ونزل إلى برية فاران

لا يُشير هذا النص إلى أي علاقة بين موت النبي في جبل الرما، وبين ذهاب داوود المُطارد إلى مكان جديد هو برية فاران، لأن الموضعين في اتجاهين مُتعاكسين تماماً. وداوود نفسه لا يستطيع الوصول إلى جبل

الرما بعدما هرب منه إلى البرية. إن برية فاران عند صموئيل هي ذاتها عند الهمداني فاران، سلسلة جبلية في النجد تمتد حتى نجران فالحجاز، وتُعرف عند القبائل العربية العاربة ببرية فاران، حيث وادي الرمة الشهير. الأكثر شهرة. لقد حدث لبس فظيع في فهم مقاصد الجملة المؤلفة من المقطعين الآنفين؛ وفاة النبي في جبل رما وذهاب داوود إلى برية فاران، وكأن المقصود هو وصول داوود إلى وادي الرمة الشهير قرب جبال فاران، والذي تسمى به الشاعر اليمني الأصل ذو الرُّمة؛ بينما المقصود هو الإشارة إلى واقعتين إحداهما جرت عند جبل الرما حيث دُفن صموئيل والأخرى عند برية فاران، حيث واصل داوود هروبه من وجه الملك. يصف الهمداني برية فاران هذه على النحو التالي (صفة: ٢٨٥):

> **جبال الحرم جبال فاران. وذُكرت بذلك في التوراة، وإنما نُسبت إلى فران بن بلي بن عمليق.**

ومن هذا التحديد نفهم أن داوود قصد سلسلة الجبال في البادية، مواصلاً هروبه من شاول، بينما كان بنو إسرائيل يقيمون مناحة كبرى على النبي في جبل الرما في اليمن. إليكم ما يقوله الهمداني عن أماكن النواح الكبرى في اليمن. (صفة: ٣٢٢):

> **مواضع النياحة على الموتى: خيوان ونجران والجوف وصَعْدَة وأعراض نجد ومأرب وجميع بلد مَذْحج. فأما خيوان؛ فإن الرجل المنظور منهم لا يزال يُناح عليه إذا مات، إلى أن يموت مثله فيتصل النواح الأول بالنواح على الآخر.**

بهذا المعنى يمكن فهم إشارة نص السِّفر التوراتي إلى موت النبي والنواح عليه، بوصفه تقليداً ثقافياً من تقاليد القبائل اليمنية القديمة. وهذا

ما يجب أن يعيدنا إلى مسألة البكاء عند حائط المبكى والنواح على أورشليم، بوصفه التقليد الثقافي ذاته الذي كان من تقاليد قبائل يمنية دانت، في وقت ما، باليهودية وسجلت تجربتها في التوراة.

في مغارة عدلام

اختبأ داوود في أثناء هربه من الملك شاول في مغارة عدّ لام-عد لام. هذا ما يقوله صموئيل. ويبدو أن هذا الاسم أثار حَيْرة وارتباك الباحثين عن أرض التوراة في فلسطين الخيالية؛ إذ لا وجود لمكان يُدعى عد لام-عدلم، في طول فلسطين وعرضها. كما لاوجود له في بلاد عسير التي فتشها كمال صليبي. إن اسم هذا الموضع الذي تُسجله قصص التوراة -سفر التكوين-مثلاً (لقاء يهوذه برجل عدلامي) يُماثل في غرائبيته اسم موضع عمعاد-عمّ عدّ أو عر عده-عرعد. ولذلك فقد أهمل مع استحالة البرهنة على وجوده في فلسطين. يصف السِفر موضع عد لام بأنه مغارة (معرت-عدلم) ومن هناك مضى داوود إلى مصفاة مآب- صفاة-موءب، ومنها إلى حارة -حارة. ويبدو أيضاً من وصف صموئيل، أن داوود وصل مغارة عدلام قادماً من موضع يدعى جت. هذه الأسماء، وفي إطار قصة هروب داوود، كانت ألغازاً مُحيرة بالنسبة إلى مُتلقي النصوص الدينية، الذين يجهلون أسرار العبرية القديمة ولا يدركون المغزى الحقيقي للتراكيب اللغوية فيها. لكن الاسم كما هو واضح من التركيب البسيط الذي ينطوي عليه، له صلة عضوية بوصف المياه الغزيرة؛ لأن كل مياه غزيرة لا تنقطع تُدعى عد. وهذا هو المقطع الأول من الاسم. وبكل يقين فقد كان الهمداني شديد الحصافة والدقة في روايته الجغرافية، حين حرصَ على تسجيل كل المواضع في السراة اليمنية التي تحمل التركيب ذاته، مثل فتح عدّ وعد ورد- من وردَ المكان بمعنى بلغه ووصل إليه-.

ولذا؛ فإن البحث عن هذا الموضع يجب أن ينصرف إلى السراة اليمنية لا إلى فلسطين، فهي وحدها من دون سائر الأماكن على وجه الأرض، مَنْ يمكنها أن تقدم حلاً للغز الاسم. يصف الهمداني- ومحققه: انظر الهامش- بلاد لام - وهي قبيلة من أشهر قبائل العرب لا تزال لها بقية في جنوب العراق تعرف باسم عشيرة بني لام- على النحو التالي (صفة: ٢٣٤): لام: أرض نُسِبتْ إلى لام بن شهر، قرب جبل مَنْعا في أعلى وادي تنومة[1]. وعلى مقربة من الجْهَوة. وبلاد بني لام في الحجر إلى اليمين منها جبل عبال ووادي حبل. لقد زال هذا المكان نهائياً- اليوم- مع هجرة القبيلة من موطنها القديم فلم يعد أحد يعرفها. ولكن ذاكرة القبائل لا تزال تحتفظ باسم البلاد التي تُنسب إلى الأب الأعلى للقبيلة: لام بن شهر بن مالك. والمثير للاهتمام أن هذه القبيلة اليمنية نقلت معها في هجرتها إلى العراق القديم اسم تنومة الوادي اليمني- انظر نص الهمداني أعلاه- وأعطته لموضع على ساحل شط العرب- محافظة البصرة -وهو يُشكل في الواقع، شاطئاً مُطلاً على عبدان ضمن الأراضي الإيرانية اليوم. وعبدان هذا هو الاسم نفسه الذي نقلته القبيلة ذاتها من اليمن (انظر ما كتبناه عن عبدان في منازل الأسباط). وهنا يصبحُ أمراًمفهوماً على نحوٍ جيد تركيب الاسم: عدّلام-عدّلم؛ فهو موضع مياه في بلاد لام القبيلة في منطقة الحجر. وهذا المكان يشتهر بغزارة المياه وكثرة الوديان. وبكل تأكيد؛ فإن الموضع المقصود في نصّ صموئيل، هو هذه المياه التي تتبع بلاد لام الشهيرة عند العرب العاربة والمعروفة بطبيعتها الصخرية وجبالها

---

(١) عندما وصلت قبيلة بني لام إلى جنوب العراق في أثناء هجرتها الكبرى، في وقتٍ ما من التاريخ، وخلال استقرارها في البصرة قبل أن تنتشر بطون منها في ميسان وغيرها من مدن الجنوب، فقد قامت بإطلاق بعض الأسماء القديمة التي حملتها معها ومنها اسم تنومة هذا، الذي أطلقته على جزيرة صغيرة في شط العرب.

ومغاورها. إن اسمها - الحجر- يشير إلى أنها بلاد مغاور وكهوف. وفي هذا الفضاء الجغرافي عاشت قبائل بني مآب-موءب، الذين يقول صموئيل في وصف بلادهم أنها صفاة بني موءب. ولا تكون الصفاة، كما رأينا من أمثلة كثيرة إلا في مكان صخري. وإذا ما سار المرء من حارة قرب الساحل، غير بعيد عن زبيد مُتجهاً صوب نجران؛ فإنه سوف يصل إلى الحجر وبلاد لام بسهولة تامة. يتبقى أن نلاحظ؛ أن صموئيل يرسم اسم الرمة في واحدة من المرات النادرة في صورة رمته. وليس ثمة موضع وصله داوود في أثناء هروبه، ويمكن للمرء أن يتخيله حاملاً هذه الصيغة المُحيرة سوى وادي ريما في بلاد الحجر ذاتها. وكنا أشرنا مراراً إلى التاء اللاصقة في آخر الاسم مثل: قرشت، فلست، ريمت بوصفها لهجة يمنية منقرضة. إليكم وصف الهمداني للموضع (صفة: ٢٣٤):

فأول بلاد الحجر من يمانيها عِبال وادٍ فيه الحبل ساكنه بنو مالك ابن شهر (..) وذبوب وادٍ لبني الأسمر من شهر (والد قبيلة: لام- المؤلف) ثم ريما واد ذو عيون كثيرة وهو من صدور تَرْج وهي أقصى بلاد الحجر.

ها هنا وادي ريما-رمته على مقربة تماماً من جبل ووادي عيبال-عِبال وذبوب (انظر زبوب في التوراة) في المكان نفسه الذي وصل فيه داوود إلى مغارة عد لام. أي المغارة التي تنضح ماء غزيراً لا ينضب في بلاد لام (بن شهر). إننا لا نعرف مواضع متقاربة تحمل الأسماء نفسها في فلسطين، لكي يكون بوسعنا الزعم أن قصص داوود دارت فوق أرضها. وسوف نتوقف تالياً وبشكل تفصيلي عند مآب القبيلة. يتبقى الآن الإشارة إلى موضع قعله- قعيله الذي بلغه داوود في أثناء هروبه؛ فهو سلسلة جبلية صغيرة يعرفها الشعر الجاهلي باسم القواعل- اسم الجمع من قعله.

أما موضع جت الذي حير علماء التوراة والدارسين، فليس سوى الموضع نفسه الذي يرسمه الهمداني في الصورة ذاتها، ولكن بضبط عربي صحيح جوة قائلاً عنها (صفة: ١٩٤): إنها من أعمال مخلاف المعافر في سلسلة جبال السكاسك. والجوَّة هذه من الممالك اليمنية القديمة حتى أن الرسول ﷺ كتب إلى قيل من أقيال همدان كتاباً في مطلع الدعوة الإسلامية يذكر فيه اسم الجوَّة هذه. فهل ثمة مصادفة أن تقول التوراة: إن جت هي مملكة، بينما هي عند الهمداني مخلاف جوّة؟ بل وأن تكون في المكان نفسه؟ وهل هي مصادفة أن الرسول كاتب ملك جوة؛ القيل اليمني يدعوه إلى الإسلام؟

الفصل الرابع

فتح أريحا اليمن
والاستيلاء على العيّ الهمدانية

إعادة تركيب التاريخ التوراتي

(الإصحاح الثامن من سِفر يشوع)

من أجل إعادة تركيب التاريخ التوراتي الذي تمَّ تزويره في المخيال الاستشراقي، ومن ثم إعادة رؤيته بطريقة موضوعية وديناميه أكثر التزاماً بالسرد التاريخي؛ فإن القراءة المقترحة التالية سوف تتقيدُ باستراتيجية مُعلنة: رفض التلاعب أو المس بالتراكيب اللغوية للأسماء الواردة في نص يشوع، وفي سائر النصوص الأخرى المُعالجة. وفي هذا النطاق هناك أمران هامان أولاهما: أن التوراة تعرض توصيفاً لمكان شديد الاستثنائية دارت من حوله معارك بني إسرائيل، ضد الجماعات القبلية المُنافسة وأدى سقوطه، فيما أدى، إلى سقوط موضع مجاور له. هذان المكانان المتلازمان هما أريحا- يريحو وموضع العيّ- العي. لقد جرى تصوير أريحا التوراة في التراث الكتابي- اليهودي والمسيحي، بوصفها أريحا الفلسطينية، على الرغم من انعدام الدلائل الأثرية أو اللغوية المؤيدة لمثل

هذا النوع من المُطابقات، أو حتى دلائل تاريخية تُشير إلى وجود بطل معارك أريحا يوشع بن نون في فلسطين التاريخية. وثانيهما : أن التوراة تُحدد موضع العيّ- العي وسقوطه؛ بالتلازم مع ما يُدعى فتح أريحا وسقوطها في قبضة بني إسرائيل في عصر يوشع بن نون. أي أن أريحا هذه جرى فتحها والاستيلاء عليها بالقوة، ولم تكن من أراضي الأسباط في الأصل، كما لم تكن ميراثاً إلهياً لهم. إن هذه النقطة شديدة الحساسية؛ فهي ترسم خطاً فاصلاً بين التصورات التعسفية من جهة، وبين التوصيف الواقعي والجغرافي الدقيق من جهة أخرى. هذان الأمران اللذان تسعى قراءتنا إلى التقيُّد بهما؛ يسيران في اتجاه واحد هو تحديد العناصر التاريخية للرواية، وتفكيكها بهدف عرض منظور جديد ينطلق من رؤية موضوع الحروب في التوراة، بوصفه موضوعاً قبائلياً لا موضوعاً استعمارياً. بكلام آخر، تشذيب الرواية التاريخية من المسحة الكولنيالية التي أضفيت عليها، وتمكين القراء من رؤية الصراع القديم على أريحا التوراة، وقراءته كصراع بين جماعات قبليّة مُتنافسة، كانت تنغمس في نزاع نمطي وتقليدي على الأراضي لا أكثر ولا أقل. ولكن هذا الصراع مع ذلك، لا يشكل الباعث الوحيد في المسألة المطروحة، فإلى جانب هذا الباعث الدينامي هناك عامل الدين والتصادم في المصالح القبلية الضيقة وثقافة الغزو أيضاً، وهي ثقافة يتوجب النظر إليها باحتراس شديد لأنها تتضمن صوراً من الفروسية، تنسجم مع بيئة محلية ترى إلى القتال والحرب كموضوع بطولي قائم بذاته بقطع النظر عن بواعثه. كان الاستيلاء على الأرض وطرد هذه القبيلة أو تلك، موضوعاً بطولياً أكثر منه موضوعاً استعمارياً لتلبية حاجات فعلية، اقتصادية أو ثقافية أو دينية. وهذا ما يُفسر السر وراء وجود تراث غير مُنقطع من المعارك بين القبائل، ومن دون أن تكون هناك دوافع اقتصادية أو ثقافية مُلحة ومباشرة. إن الشعر الجاهلي الغني بهذه الصور، يعرض علينا تصورات ورؤى مقبولة عن معارك

وحروب القبائل على الأماكن؛ والتزاحم بالمناكب للاستيلاء عليها لا بدافع الحاجة؛ وإنما بدافع التنافس الثقافي وإبراز القدرة على ضرب المثال البطولي.

لقد كرّست القراءة الاستشراقية الكولنيالية ومنذ ظهور كتاب دوزي- الإله اليهودي: ١٨٦١- فكرة وجود أريحا الفلسطينية قرب العيّ، طِبقاً للرواية الواردة في سفر يشوع. ولأن أريحا التوراة تقع بالفعل قرب العيّ، حسب وصف يشوع، وقد أمكن الاستيلاء عليها عبر القتال والخديعة أيضاً؛ فإن لمن المهم بالنسبة إلى قارئ هذه النصّ أن يُلاحظ المفارقة الفظيعة في وصف المكانين: أريحا التوراة وأريحا فلسطين؛ إذ ليس ثمة أي إمكانية لمطابقتهما والتعامل معهما على أنهما المكان نفسه؟ إن هذه المُطابقة التعسفية تتجاهل التاريخ القديم وثقافة الغزو القبلي والبيئة المحلية التي صدر النص التوراتي عنها أصلاً. كما تعكس نمطاً شائعاً من الافتراضات الشاذة الغرائبية. وبدرجة أكبر من ذلك، تعكس تصوراً عن التاريخ لا يتضمن أي قراءة نقدية أو جذرية؛ بل استسلاماً تاماً للنصوص، ومن ثم استسلاماً أمام تأويلات لا تقوم على أي دليل. يقول سِفر يشوع (النص العبري: ٥: ٧: ١٨ : ٦):

ويشلح - يهوشع - ء نشيم - م - يريحو - ها - عي - ءشر - عم - بيت -ءون - م - قدم - ل- بيت - ءل.

وبعثَ يهوشع رجالاً من يريحو، والعيّ التي عند بيت أون، ومن قُدمْ إلى بيت ءيل.

يُفهم من هذا النصّ ما يلي: أن أريحا التوراة تُدعى يريحو العيّ وأنها قرب بيت أون، كما يمكن الوصول إليها من موضع يدعى قُدم، والذي يترجم عادة إلى (شرق). مع أن كلمة قدمه وليس قُدم هي التي تعني

الشرق. كما يمكن بلوغها من بيت ءيل أيضاً. وبكل تأكيد يصعب إهمال أو التغاضي عن هذا التحديد الواضح للمكان، فهو يشير إلى مكان يتلازم حضوره، مع مجموعة من المواضع المجاورة بما لا يترك أي هامش في خطأ الاستدلال إليه. إن فلسطين لا تعرف موضعاً يُدعى بيت ء ون ولا قُدم ولا بيت ءيل- الآل قرب أريحا. يُعرّف محققو التوراة موضع العيّ هذا على النحو التالي:

العي: مكان خرب، والاسم يعني الخراب، وهي تل في أيامنا، وكان خراباًمنذ أمد بعيد في أيام يوشع. ومن الصعب أن نولي هذه الرواية قيمة تاريخية.

هذا الاستدراك المُضلل يهدف إلى تفادي قول الحقيقة التالية: إن أريحا التوراتية لن تكون قابلة للمُطابقة مع أريحا الفلسطينية، فليس ثمة بيت ء ون ولا وجود لمكان يُدعى العي. ولذا؛ ولأجل إعادة ربطها بالتاريخ الإسرائيلي الافتراضي، فقد جرى تدمير أهميتها الجغرافية بتصويرها كموضع خرب، لا يعرف عنه أي شيء كما أن لا أهمية تاريخية له، ومن ثم إعادة تصويره للقراء في صورة تل، مجرد تل؟ ولكن ولأجل الالتفاف على هذه العقبة، فقد جرى الاستدلال على صحة فرضية وجود تل يدعى العيّ قرب أريحا، بالقول: إنها تقع قرب سهل عكور الفلسطيني. بيد أن وادي عكور هذا بعيد عن أريحا فلسطين، على نحو يستحيل معه إنجاز المُطابقة من الناحية الجغرافية. بسبب ذلك، بدت المُطابقة مرة أخرى ذات طابع فضائحي. يقول سِفر يشوع: إن يشوع وبعد أن استولى على أريحا، قرر مواصلة الهجوم والزحف باتجاه العي. ولأجل هذا الغرض اختار ثلاثة آلاف رجل لنصب الكمائن. كان الهدف من هذه العملية الماكرة خداع سكان العي المجاورة، واستدراجهم إلى

معركة خارج منازلهم المُحصنة، عبر الإيحاء لهم بأن رجال يشوع ينهزمون أمامهم، وأن بالإمكان مُطاردتهم واصطيادهم. وخدعة كهذه يمكن أن تحمل السكان المُتحصنين على الخروج في إثر المهزومين، حتى وإن تُركت المنازل القبلية خالية من حاميتها العسكرية. وهذا ما حدث بالفعل؛ إذ تمكن يشوع ورجاله من الاستيلاء على العي وإحراقها وإعدام ملكها في هجوم مباغت. بيد أن أولى المعارك كانت قد حدثت من قبل، حيث هُزم يشوع ورجاله وقُتل الكثير منهم. ومن بين هذه المعارك معركة تسمى جبل شعر ومعركة أخرى تسمى معركة شبريم، قبل أن يعود المحاربون ثانية لتدبير خطة الاستيلاء على العي: ٥: ٧: ١٨: ٦:

ل-فني-ها-شعر -عد- ها-شبريم- ويكوم-ب-مورد- (إلى فناء شعر، حتى شبريم ويكوم وفي موارد)

حسب هذا النصّ؛ فإن المعارك الأولى وقعت في جبل شعر، ثم في شبريم وفي يكوم- كوم، وفي مورد - موارد، وهذه أسماء مواضع يستحيل العثورعليها في فلسطين، بينما يمكن العثورعليها في السراة اليمنية متجاورة، تماماً كما في وصف يشوع. ترجمت كلمة يكوم العبرية إلى (ضربوهم) في حين أن العبرية لا تعرف مثل هذا التصريف للفعل (يكم). علماً أن المكافئ العبري لكلمة يضرب -ضربوهم هو: يكنيعم أو يقح. كما لا نجد في العبرية كلمة يكوم تؤدي معنى ضرب. في الواقع؛ قصد كاتب السِّفر الإشارة إلى معركة في موضع يُدعى كوم- كومان، بإلحاق النون الكلاعية، وكذلك الأمر مع كلمة مورد، التي تشير إلى موضع بعينه. إليكم وصف الهمداني والبكري لهذه المواضع التي دار فيها القتال، علماً أننا سبق وحددنا موضع شعر قرب بلد شاكر ونجران- (صفة: ١٦٣):

غربي بلد شاكر إلى دماج من أرض خولان (..) فالموارِيد (..) فَصعْدَة.

الموارِيد هذه - مفردها مورد- سلسلة من المواضع إلى الغرب من صَعْدَة، غير بعيد عن جبل الشعر الذي سبق لنا تحديده في المكان نفسه. أما شبريم فهي ذاتها الموضع المعروف في الشعر الجاهلي في صورة شُبرمن- بإضافة النون الكلاعية المألوفة في كلام أهل اليمن- وهي من أودية اليمن التي تصب في بلاد تميم في اليمامة. وعند الهمداني (صفة : ١٨٥) فإن هذا الوادي يُعرف باسم جماعة قبلية، تُدعى بني شبرمه وهم من قبيلة ناجية التي تتبع زوف. وقد ذكره المُخبَّل السعدي في شعره قال (معجم : ٣: ٦٢):

يُلاعبها تحتَ الخِباء وجاركم بذي شُبرمان لم تُزيَّل مفاصلهُ

وقال جرير مُستذكراً شبُرُمان هذا :

أو شُبُرمان يَهيجُ منك صبابةً لما تبدّل ساكن وديارُ

أما يكوم - كوم فهي عند الهمداني كومن- كومان (صفة : ٢٠٣):

وكومان بلد واسع يسكنها كومان وهم من زوف، وسلمه.
ويصلي كومان إلى بلد ذي جُرة. بلد الحدا من مَذْحج.

ها هنا وفي المكان نفسه بلد كومان، كوم- مثل يعرم -عرم- حيث دارت المعارك الأولى من أجل الاستيلاء على العيّ. على هذا النحو سيغدو واضحاً، أن المعارك الأولى التي هُزم فيها رجال يشوع، عند محاولتهم الاستيلاء على العي، قد جرت في جبل الشعر والموارد وشبرمان- شبرم. وهذه مواضع لا وجود لها في فلسطين التاريخية قطّ.

ولنلاحظ أن النص العربي السائد يعطي كلمة الباب، مقابل كلمة شعر لتصبح الجملة مثيرة وغير مفهومة (وطاردوهم من قدام الباب إلى شباريم) وبالطبع يصعب فهم معنى هذه الجملة في صورتها هذه، فما علاقة الباب بوادي شباريم؟ أما ب-مورد فقد تُرجمت إلى (في المنحدر) بينما هي تشير إلى موضع يدعى مورد تماماً كما في العبرية. وعلى هذا النحو أيضاً سيكون واضحاً كل الوضوح، أن العيّ المُدعى أنها فلسطينية، إنما هي موضع من مواضع اليمن، سنقوم بتحديده وضبطه ضبطاً عربياً صحيحاً بعد أن نفرغ من بقية الأماكن. يقول نصّ يشوع إن بني إسرائيل خاضوا معركة الاستيلاء على العيّ، بعد هزيمتهم في جبل شعر وشبريم ومورد: ٢٩: ١٤ : ٨: من النص العبري. وأن رجال العيَّ خرجوا عن بكرة أبيهم للحرب مع ورود أنباء عن الاستعداد لغزو بلدتهم. ولذا تجمعوا في أقرب موضع من العيَّ وهو العربة: (ل- فني- ها- عربة) أي في جهة العربه أو أمام العربة. وليس ثمة مكان قريب من مسرح هذه الحرب ويُدعى العربة سوى وادي العرب في زبيد حيث مخلاف شعر. ها هنا نصان متوازيان من الهمداني عن المكانين (صفة: ١٤١):

> **ثم وادي زبيد، وما بين بلد بني مجيد وأبْيَنْ من الأودية ذات الجنوب (..) من بلد السكاسك والشعر.**

ويضيف الهمداني- في نص موازٍ- التوصيف التالي لوادي العرب (صفة: ٢٠٥):

> **وجُبلان بين وادي زبيد ورمع. وجُبلان ريمه هي ما فرقَ بين وادي رمع وصيحان والعرب (..) ويفرق بين جبل بُرع وضلع وادي العرب.**

هذه الجغرافية ترسم على أكمل وجه الصورة التقريبية لمسرح

الحرب، حيث جرت الاستعدادات الأولى في المكان نفسه، في الشعر على مقربة من زبيد وقرب وادي العرب. هذا ما يُفسر لنا السبب الحقيقي لاختيار يشوع لأحد أهم قواد معركة العيّ من قبيلة زُبيد، وهو يُدعى في التوراة زبدي أي: الزبيدي- نسبة للقبيلة. إليكم هذا الاكتشاف - النص العبري: ٢٣: ٦: ٧ -:

ويقرب- ءت- مشفحته-ها- زرحي- ل-جبريم-ويلكد- زبدي.
وقدّم عشيرته الزراحيين بفرسانها فاختار زبدي.

تُرى هل هي محض مصادفة أخرى، أن يختار يشوع من قبيلة الزراحيين-رزاحيين[1] عند الهمداني قائداً ينتمي إلى بيت زبدي (قبيلة زبد من سبط يهوذه) لأجل معركة العي، وفي مكان يصفه الهمداني بأنه أودية زبيد؟ إن عشيرة الزراحيين هؤلاء عند الهمداني هم قبيلة بني زارح- رازح (العبرية تعرف التقديم والتأخير في بعض الحروف مثل عم بمعنى مع). هذا هو الفضاء الجغرافي والسكاني للمعركة التي بدأت فور سقوط يريحو العيّ من أجل استكمالها بالاستيلاء على الموضع نفسه. فهل تعرف فلسطين التاريخية مثل هذا التوصيف ومثل هذه الجماعات القبلية؟

صراع النجد والساحل

هذا المسرح التاريخي بقبائله المُتصارعة على المكان وبأوديته وجباله، يرسم صورة شائقة من صور النزاعات القبلية في عصر الطفولة البعيدة لبلاد اليمن، وظروف تشكلها وظهورها كقوة مهيمنة على شمال

---

(١) ظاهرة تقديم وتأخير بعض الحروف في العربية مألوفة حتى اليوم، زوجي- جوزي، عربون- رعبون، ولكنها في لهجات أهل اليمن شائعة ومقبولة.

الجزيرة العربية مع نشوء الدولة المركزية انطلاقاً من سبأ. وهي تطلبت، من بين ما تطلبت، إخضاع الممالك القبلية الصغيرة والمُستقلة، وإعادة دمجها في بُنية سياسية واجتماعية جديدة. هذه العملية التاريخية الطويلة والمُعقدة يمكن فهمها بعمق أكبر، عبر إعادة تركيب الروايات التاريخية التي سجلتها التوراة في إطار نظام سردي، يتوجب النظر إليه ومعاملته على أنه نظام السرد العربي القديم نفسه، المستمر والمتضمن للمادة ذاتها : رواية التاريخ بلغة الأسطورة. كانت معركة العيّ الحاسمة، عاملاً هاماً من عوامل نشوء الملكية في بني إسرائيل في عصر شاول؛ إذ مهدت السبيل أمام إخضاع الجماعات المُستقلة وقبولها للديانة اليهودية الأولى في اليمن. وسوف يتضح تالياً من تاريخ هذه الصراعات التي استعرت مع تفكك الدولة المركزية، إلى دويلات مبعثرة من جديد يعرفها التاريخ بدويلات ملوك الطوائف؛ أن الصراع على الساحل احتل أهمية من نوع ما ، ذلك أن السيطرة على الساحل الطويل والخصب، كان من بين إحدى أكثر الأولويات أهمية بالنسبة إلى كل الجماعات والقبائل المتصارعة. كما عَنت سياسات الاستيلاء على الساحل، وفي أوقات مختلفة، بداية فرض النفوذ على الممالك- المخاليف المزدهرة في اليمن كله، ونحن نعلم من تاريخ صراعات القبائل اليمنية أن قبائل زبيد وهمدان، ارتطمت بعضها مع بعض في معارك طاحنة في المسرح ذاته الذي تصوره التوراة. وفي هذا النطاق، يُقدمُ الشعر الجاهلي شهادة حاسمة عن استمرارية الصراع على العي التوراتية- اليمنية.

إليكم هذا الاكتشاف الذي يرسم صورة دقيقة عن معارك القبائل اليمنية على العي: قال خدّاش بن زهير العامري (من شعراء بني عامر- انظر: أشعار العامريين الجاهليين: جمعها ووثقها وقدم لها د. عبد الكريم يعقوب، دار الحوار ١٩٨٢- سورية) في معرض وصفه للمعارك:

عدوتمْ على مولاي تهتظمونهُ بناحيةٍ من جانب العيّ تَرْتَعي

هذا البيت النادر والثمين الذي اكتشفناه في أثناء العمل على أعداد مادة هذا الكتاب، يضبط اسم المكان ضبطاً عربياً ينسجم كل الانسجام مع الرسم العبري؛ كما أنه يصف معارك بني عامر ضد منافسيهم من القبائل الأخرى. وقبائل بني عامر الذين تكررت الإشارة إليهم هم من زوف- زيف في التوراة، وكانوا يقطنون سلسلة من المواضع الممتدة حتى الساحل اليمني قرب زبيد. ها هنا وصف الهمداني لبني عامر ومنازلهم (صفة: ١٨٢):

وبنو عامر بيتان: زوف وناجية. وزوف بيوت. لسْ وشعبان والغول لبني عبس من زوف وللصقاعب، أحلاف لهم من همدان.

ويقول في (صفة: ١٣٦):

ثم بعد وادي خُلب وادي جازان مآتيهما من جبل بني رازح ويسقيان أرض ضمد وجازان إلى البحر، ثم وادي صبيا ومآتيه من قيوان وبلد بني عامر (....) ومن أودية السكاسك يرد العارة فشرقي ذبحان فغربي جبل الرما.

ها هنا بنو رازح- زارح (الزراحيون من سبط يهوذه وفارسهم زبدي) إلى جوار بني عامر على الساحل اليمني من زبيد، وقرب العارة-عارة في مراثي أنبياء التوراة وقرب جازان- جاسان التوراة ووادي صبيا- وادي صُبا؛ فضلاً عن أودية السكاسك والرما. هذا النص الرائع الذي يُحدد الهمداني من خلاله شكل التجمع القبلي على الساحل اليمني، يعطي فكرة واضحة كل الوضوح عن التصادمات والنزاعات، التي سوف تنشب

باستمرار للسيطرة على المواضع وإزاحة هذه الجماعة أو تلك. بهذا المعنى يمكن تفهم المضمون الحقيقي لبيت الشاعر العامري الجاهلي خدّاش بن زهير، على أنه تصوير لمعارك بني عامر ضد قبائل الساحل للسيطرة على العي. بقي أن نشير إلى أن اسم بني عامر يظهر في نصوص يشوع في صورة العموريين- العامريين، كما سنرى في الفصل الخاص بالقبائل التوراتية، وهم يوصفون بأنهم من سكان البحر. إن فهماً مُتطلباً لأحداث سِفر يشوع؛ بما هو تسجيل للتجربة الحياتية والتاريخية للقبائل اليمنية، ومن ثم فلا صلة لهذا السجل بفلسطين لا من قريب ولا من بعيد، يجب أن يلاحظ الفكرة التالية: إن الصراع على يريحو العي والذي قاده سبط يهوذه - قوم هود في المرويات العربية- كان يعكس واحدة من الحقائق الهامة عن صراع قبائل النجد اليمني ضد قبائل الساحل، أي القبائل التي تقيم في المرتفعات ضد القبائل التي تقيم في الساحل. وهو ما عكسته بدقة معركة هر-مجدو- بني مجيد[1]. وهم كما قلنا في صفحات سابقة من أعظم قبائل الساحل وأكثرها نفوذاً وأفضلها تنظيماً. لقد كانت القبائل النجدية أو تلك التي انحشرت في الأماكن المرتفعة داخل عزلات جبلية، تحاول بكل الوسائل الاقتراب من الساحل والسيطرة عليه. ولأجل هذه الغاية دخل الهمدانيون في حلف مع بني عامر، الذين تمكنوا من النزول عند الساحل وامتلاك منازل حصينة فيه. يصف الهمداني (صفة: ٢٢٠) منازل جماعة قبليّة قديمة تُعرف عنده بالعويين-نسبة إلى العي- يُقيمون اليوم في منطقة البون-البونت التوراتية، وهما بونان أعلى وأسفل إلى الشمال من صنعاء. ويُعد البون من أوسع قيعان نجد اليمن قاطبة حسب قول الهمداني:

---

(١) في الفصل الخاص بمعركة مجدو سنعطي تالياً تفصيلات لغوية هامة، ففي لغة أهل اليمن تستخدم الواو في الاسم استخدامات متنوعة منها أنها تلحق بضمير الغائب المفرد مثل: مقامهو- في مقامه.

رَيْدَة للعَوْيين ورؤوس -أي شيوخ قبيلة- بكيل (..) وعثار للعَوْيين وصيحة ومساك وبيت الفواقم وضُباعين لشاكر.

هذه هي بقايا منازل سكان العي الهمدانية في نجد اليمن، وهم يُعرفون حتى عصر الهمداني باسم العَوْيين نسبة إلى بلادهم القديمة العيّ. وفي هذا النطاق وحده سوف تبرز إلى الواجهة صورة أريحا اليمن الوارد ذكرها في التوراة، فقد عرف العرب القدماء حياً من قبائل اليمن يُدعى أريح-يريحُ فقالوا: أريح حي من اليمن. وهذا الحي من بطون همدان، ومنه جاء اسم المنازل القبائلية يريحو، حسب النطق اليمني القديم. وسوف نتوقف مُطولاً عند أريحا هذه في الفصول القادمة حيث يرد ذكرها في نصوص موازية هامة للغاية. بقي أن نتأمل في مغزى حيرة الجغرافيين العرب والمسلمين، أمام الكيفية التي يتوجبُ فيها قراءة بيت أرطأة بن سُهيَّة التالي (ياقوت: ٢:٨٢، ومعجم: ٩١٥):

ولم تعفُ الرياحُ وهُنَّ هَوجُ   بذي أرلٍ وبالعاه القبورا

إذْ قالوا أن العاه مكان دارس وجدناه في شعر أرطأة بن سُهيَّة، وهو من منازل فزارة اليمنية. والحقيقة أن الاسم لم يُضبط في الرواية الشعرية العربية ضبطاً صحيحاً، لأن الموضع المقصود هو العاي-العي وليس العاه كما يتضح من وصف الهمداني لمنازل العَوْيّن في نجد همدان.

استراحة المحاربين في دارة جُلجُل

فور سقوط العيّ، قرر يشوع أن يبني مذبحاً للإله يهوه في أعلى جبل عبال، وهناك كتب على صخرة من صخور الجبل سِفر تثنية الاشتراع- الذي كتبهُ موسى أصلاً أمام بني إسرائيل- طبقاً للرواية التوراتية. قبل هذا الوقت وحين كان يشوع يستعد لمعركة يريحو العي، توقف في موضع

جُلجُل في سهول يريحو. وها هو وبعد الانتهاء من المعركة وسقوط المكان في يده، يعود إلى جُلجُل مرة أخرى، ليستقبل هناك سكان جبع المذعورين الذين رأوا ما حل بيريحو العيّ. هذا التوصيف للمكان يستحيل العثور عليه في فلسطين؛ لأن سهول أريحا الفلسطينية بعيدة عن جبل عيبال، كما أن فلسطين لا تعرف-قرب أريحا- موضعاً يُدعى جُلجُل أو العيّ. على العكس من ذلك؛ فإن نجد اليمن يعرف هذه المواضع متجاورة. ولذلك اضطر محققو التوراة إلى القول:

جلجال يشوع يقع بين الأردن وأريحا في حدود أرض أريحا الشرقية لكن مكانها الدقيق غير معروف.

فهل حقاً، أن جُلجُل يشوع ليس معروفاً بدقة مثله مثل العيّ، ولماذا؟ ببساطة لأن القراءة الاستشراقية بحثت عن المكان في فضاء جغرافي لاعلاقة له بقصص التوراة، فسوف تجد نفسها تلقائياً أمام معضلة غير قابلة للحل. لكن جُلجُل غير المعروفة بالنسبة إلى محققي التوراة، هي ذاتها جُلجُل امرئ القيس التي خلدها في مُعلقته وسماها دارة جُلجُل أي منازل السهول، فألهبَ بهذه التسمية خيال رواة شعره ونقاده، فراحوا يُفتشون عنها دون جدوى. أما جبل عِبال عند الهمداني، فهو يقع على مقربة من جُلجُل تماماً كما في وصف يشوع. وسوف نتوقف عند هذا الجبل في نهاية الفصل. قال امرؤ القيس-المعلقة، وشرح الأنباري للمعلقات: ٣٢ - واصفاً جُلجُل يشوع:

ألا رُبَّ يَومٍ لكَ منهنّ صالح ولا سيما يومٌ بدارة جُلجُلِ

يقول ابن الكلبي: جُلجُل هي عند غَمْر كندة. أما الهمداني فيقدم في عرضه لمنازل القبائل ومواضعها في مخلاف صَعْدَة (صفة: ٢٢٥) وصفاً مُتكاملاً عن المكان باعتباره جزءاً من نجد همدان. يقول:

أما حقل صَعْدَة فهو مُختَزل من همدان (...) وأودية صَعْدة قضان والغيل ويسلك في البطنات (.........) بلد وادعة النجدية: بقعة، وعوذان ووادي عرد وأعلى وادي نجران فإلى جبل شوك فجلاجل.

ولسوف يعود الهمداني إلى ضبط الاسم نفسه في الصورة ذاتها التي ضبطها الشعر العربي القديم من قبل، أي: جُلْجُل. ولكن لنلاحظ أن هذا الوصف يضع جُلجُل إلى الشمال الغربي من صَعْدة، على مقربة من وادي عرد وهو الوادي نفسه الذي تُسجّله التوراة في صورة عرد، فضلاً عن قربها من جبل شوك- سوكه والبطنات- بطونيم في التوراة. ومن غير شك؛ فإن توصيف امرئ القيس لموضع جُلجُل بأنه دارة، إنما يُشير إلى كونه غدير ماء. وهذا ما يُفسر لنا سبب إقامة يشوع في هذا المكان بعد الانتهاء من المعركة. فهل تعرف فلسطين الخيالية غدير ماء يُدعى جُلجُل في المكان نفسه الذي يُزعم أن العي وجدت فيه؟

من أريحا التوراة إلى بيت ء ون

يواجه قارئ نصّ يشوع، فضلاً عن الأخطاء في تحديد المواضع والأماكن الحقيقة التالية: أن القراءة الاستشراقية تلاعبت تلاعباً مثيراً في توصيف الأماكن، من خلال الإيحاء - مثلاً- بأن كلمة قُدم العبرية تعني الشرق. ومن ثم؛ فإن جملة م-قدم تعني من شرقي. بينما نعلم من اللغة العبرية أن قدمه وليس قُدم هي التي تعني الشرق. وهكذا؛ فسوف يتسبَّب الفهم الخاطئ للكلمة في حدوث سوء فهم أكبر للنصّ، وكذلك لتحديداته الواضحة للأماكن. ولتوضيح هذا المثال إليكم الجملة التالية من النص العبري الذي يتحدث عن مرحلة الاستعدادات لاقتحام العيّ. وأهمية هذا النص تكمن في أنه يرسم خريطة دقيقة توصلنا إلى المكان المقصود:

(ويشلح- يهوشع-ء نشيم-م-يريحو-ها-عي-ء شر- عم-بيت-ء ون- م-قدم- ل- بيت-ءل)

ويرسل يشوع رجالاً من يريحو، والعيّ التي عند بيت أون ومن قُدُم إلى بيت ءيل

ما يقوله النص ببساطة هو التالي: إن يشوع وفي سياق الاستعداد لاقتحام العي، قرر استطلاع المكان. ولذا أرسل رجالاً من يريحو ومن العيّ نفسها، ورجالاً من قُدم إلى وادي بيت أون، طالباً منهم تقديراً سديداً للموقف. ومن الواضح أيضاً أن النص العبري يخلو تماماً من حرف الجر (إلى) في الجملة التي تتضمن اسم المكان؛ فهو يقول م-يريحو-ها-عي أي: من يريحو والعي. لكن المترجمين وعلى خطا المحققين، وفي سبيل الإيحاء بأن المقصود هو أريحا الفلسطينية، أضافوا حرف الجر (إلى) لتصبح الجملة على النحو التالي: من أريحا إلى العيّ. كما قاموا بمكافأة جملة م- قدم بالجملة التالية: من شرق أو شرقي بيت أون، بينما تشير الجملة إلى رجال من قُدم أرسلهم يشوع. وهؤلاء هم سكان سراة عظيمة تدعى سراة قُدم ويُعرفون بالقدمونيين نسبة إلى قُدم بن قادم، الذي تُسجل التوراة اسمه في صورة قُدمه- سفر التكوين. ولكنهم عند الهمداني ينتسبون إلى قُدم بن قادم من قبيلة حاشد، ويُعرف موضعهم بهذا الاسم إلى الشرق من مدينة حجّة. لقد سبق لنا تحديد موضع بيت ءون بوصفه مسيل مياه من وديان الجوف اليمني، والشعر الجاهلي ثم الإسلامي يسجل اسمها في صورة أون تماماً كما في العبرية. هنا إعادة لشطر واحد فقط من بيت شعر يذكر أون. قال أحد الأعراب (ياقوت: ١: ٣٢٦):

أيا أثلثي أوَنْ سقى الأصل منكما مسيل الرُّبى والمُدجناتِ رُباكما

ها هنا بيت ءون التوراتية في نجد اليمن وليس في فلسطين. وكنا حدَّدنا موضع الآل-بيت ءل، كما حدَّدنا موضع قُدم. لأجل ذلك كله؛ فإن يريحو لا صلة لها بأريحا الفلسطينية التي لم يفتحها يشوع بالقوة، ولم يدخلها بنو إسرائيل بالخديعة؛ بل لم تكن من المدن الإسرائيلية في عصر يشوع أصلاً.

مملكة حصور ومملكة مدون

في إطار تلفيق التاريخ الإسرائيلي في فلسطين، جرى تصوير معارك القبائل اليمنية في وادي حضُور وماذن ووادي العرب والتي سجلها سِفر يشوع بدقة؛ على أنها معارك بني إسرائيل في فلسطين. وبالطبع من دون دليل واحد مقنع. ومن بين هذه المعارك ما يُدعى في التراث الكتابي اليهودي بمعركة مياه مروم، التي تُصور كانتصار إسرائيلي مهد السبيل أمام سقوط الشمال الفلسطيني في يد الإسرائيليين. وسوف نبرهن-هنا- أن الشمال الفلسطيني لم يقع تحت السيطرة الإسرائيلية، وأن هذا الشمال المزعوم هو شمال فلسطيني من اختراع الغرب، وأن ما يُدعى بانتصارات بني إسرائيل في مروم لا يعدو أن يكون معركة خيالية؛ نتجت عن قراءة استشراقية للرواية التوراتية الخاصة بمعارك القبائل اليمنية في سراة اليمن. نشبت معركة مياه مروم في أعقاب سقوط يريحو العيّ؛ فقد سمع ملك حصور وملك مدون وآخرون في وادي ها-عربه ودور وحرمون، بأنباء تقدم يشوع وقواته في النجد باتجاه الساحل. ولذلك حشدوا قواتهم لملاقاته في وادي مروم. ويبدو أن المعركة كانت خاطفة وشديدة الضراوة، فقد انهزم تحالف ملوك حصور ومدون بسرعة غير مُتوقعة، وتمت مُطاردتهم في الوديان والشِّعاب الجبلية في صيدون ربة ومشرفت - مييم وفي بقعة مصفه إلى الشرق. وهو ما أدى فعلياً إلى سقوط حصور

ومدون في يد يشوع، الذي لم يتوانَ عن إحراق حصور وإبادة سكانها. هذا هو باختصار شديد الإطار الإخباري لما يُدعى في التوراة الانتصار في مروم. لقد تم تصوير هذه المعركة على أنها جرت في الشمال الفلسطيني في تل حاصور- قرب القدس المحتلة اليوم وهو تل خرب-. وبالطبع من دون تقديم تفسير لهذا الزعم؛ إذْ لا توجد في المكان أو في فلسطين كلها مياه تُدعى مياه مروم، كما لا وجود لدلائل على بقايا مملكة تُدعى مدون. أما تل حاصور الفلسطيني قرب القدس، فمن غير المنطقي تخيّله على أنه مملكة قديمة من الممالك الفلسطينية. وفضلاً عن ذلك لا تعرف فلسطين التاريخية أودية تُدعى صيدون ربَّة ومشرفت- مييم أو بقعة- مصفه، يمكن مُطاردة الملوك فيها؛ بل وأن تؤدي طرقاتها إلى حصور؟ وإذا ما صدقنا مزاعم القراءة المخياليةهذه؛ فإن الطرق والمسالك من تل حاصور الفلسطيني، لا تؤدي إلى هذه السلسلة من الوديان والشِّعاب الجبلية؟ على الضد من ذلك سنرى وادي حضُور اليمني- وهو مملكة من الممالك اليمنية القديمة بالفعل، كما برهنت الحفريات والوثائق التاريخية إلى جوار مملكة ماذن-مدون. وهما مخلافان شهيران يسميهما الهمداني (جنتي اليمن). وغير بعيد عنهما وادي صيدون ربَّة ومشرفت-مييم وبقعة. كما أنهما لا يبعدان كثيراً عن وادي مروم الذي شهد المعركة الكبرى. إليكم وصف الهمداني لسائر هذه الوديان والجبال والممالك القديمة وقبائلها.

في وصفه لمخلافي حضُور وماذن-حصور ومدون يقول الهمداني (صفة: ٢١٦) ما يلي:

فالذي يصب إلى الجوف، منها السر، ويلاقيها سيل صنعاء من مخلاف مأذن وحَضُور.

في هذا النص لدينا مملكة-مخلاف حضُور ومأذن إلى جوار بعضهما، تماماً كما في النص العبري (ملك-حصور- ويشلح-يوبب-ملك-مدون) ملك حضُور ويرسل إلى يابب ملك مأذن. ومن غير شك؛ فإنّ وجود المخلافين- المملكتين في المكان نفسه لوادي صيد-صيدون، وهو من الأودية الشهيرة بمرتفعاتها وشِعابها الكثيرة والوعرة، سيكون أمراً حاسماً على صعيد التثبت من صحة التطابق بين نصّي يشوع والهمداني. ها هنا نص موازٍ للهمداني عن هذه المواضع (صفة: ١٣٣):

ثم يتلوه وادي سُردد فمساقط حضُور من شُم، وبلد الصيد.

وهاكم نصّاً إضافياً (صفة: ١٥٧-١٥٨):

ويلقى هذه الأودية سيل مخلاف مأذن من حضُور (..) فصيحة فمساك وناعط وبلد الصيد، وبه أودية من ظاهر همدان مثل يناعة وذي بين وما يسقيها من ظاهر الصيد.

تُدلل هذه المُقتطفات من نصوص الهمداني، عن الفضاء الجغرافي الذي يجمع حضُور ومأذن وصيد - صيدون، على أن مقاصد نص يشوع تنصرف إلى هذا المكان، وليس إلى فلسطين التي لا تعرف مثل هذه الجغرافية. ولذا يمكن إعادة تركيب الرواية التوراتية على النحو التالي:

بعد أن تلقت القبائل أنباء سقوط العيّ الهمدانية في قبضة يشوع، سارع ملك مملكة حضُور وحليفه وجاره ملك مملكة مأذن، إلى طلب المؤازرة من ملك دور-دور، ومن ملك حرمون-حرم ومن ملوك آخرين، من أجل مقاومة زحف يشوع وصدّه. وبالفعل تجمعت القوات في وادي مروم حيث نشبت معركة ضارية انتهت بهزيمة تحالف الملوك، وسقوط

مخلاف حضُور ومخلاف مأذن في قبضة يشوع، الذي لم يكفّ عن مُطاردتهم حتى وادي صيد-صيدون ومشرفت-ميم. ليست مشرفت-شرفت (الميم اليمنية أداة التعريف المنقرضة) هذه، سوى وادي الشرفة- شرفت أعظم أودية سرو مَذْحج غير بعيد عن وادي طُب- طوب. وهذا ما يقوله الهمداني في صفة: ١٧٨ : الشرفة: وادٍ عظيم وهو لبني عدا بن أسامة. وهاكم ما يقوله في موضع آخر من كتابه عن وادي الشرفة (صفة: ١٣٢):

> **وادي زبيد وهو بعيد المآتي، وأول مسايله من أشراف - وادي- الشرفة، فيمدها سيل لحج وملح فيسقي جميع ما حف به إلى البحر.**

ولنلاحظ هنا المعنى الحقيقي للاسم المركب في النص العبري مشرفت-ميم، أي: شرفة المياه، ولنقارب هذا المعنى مع قول الهمداني: الشرفة وادٍ عظيم. أما مياه مروم-مي-مروم (الميم بديل عن النون: مَرْون وهي لهجة يمنية معروفة[1]) التي دارت فيها المعركة الخاطفة، فهي الوادي ذاته الذي يُسميه الهمداني وادي المَرْون على مقربة من وادي صيد وحرم-حرمون. وهاكم ما يقوله في (صفة: ١٨٣):

> **المرون لبني ثماد من سبأ (..) حرم قلعة في وادٍ عظيم ودون هذه المواضع أودية منها صيد.**

ها هو وادي المَرْون -مياه مروم في المكان نفسه لسائر المواضع الواردة في نص يشوع. وفي هذا المكان جرت المعركة التي أدت إلى سقوط مخلافي حضُور ومأذن. يتبقى أن نشير إلى أن يشوع طارد القبائل

---

(١) في اللغة الحميرية: تحل الميم محل النون في المفرد المؤنث مثل ذات بعدنم - ذات بعدان.

في موضع يُدعى بقعة- مصفه: بقعة التي هي صفاة.والصفاة كل أرض حجارتها بركانية، والاسم المركب مصمم لتمييزها عن بقعة أخرى؛ وهذه ذاتها عند الهمداني بقعة في وادعة النجدية في المكان نفسه لجُلجُل (صفة: ٢٢٥ ٩). ترى هل تعرف فلسطين التاريخية موضعاً يُدعى بقعة قرب جُلجُل؟

بلد وادعة النجدية: بقعة، ووادي عرد فإلى وادي نجران فجلاجل.

أريحا التوراة وسهل عكور

أريدُ في ختام هذا الفصل، العودة إلى مسألة العلاقة الافتراضية بين سهول عكور وأريحا الفلسطينية، والتي اتخذت كذريعة للمُطابقة التعسفية مع الاسم الوارد في التوراة؛ بحيث تسنى الادعاء أن سهل عكور الفلسطيني هو ذاته وادي عكور الوارد في التوراة قرب يريحو العي. وبالطبع في سياق الاستيلاء على السرد التاريخي. يعطي الهمداني (الإكليل: ١: ١٩٩) اسم وادي عكور اليمني ضمن قائمة أنساب سكان هنوم- الأهنوم وهم الجماعة القبليّة التي أعطت اسمها لسلسلة جبال هنوم. ولكنه يضبط الاسم في صورة وادي العُكار. وهذا رسم مُطابق كل التطابق للرسم في اللغة العبرية وادي عكر- من دون تصويت- ويضعه ضمن قائمة أودية بلد همدان. كما يشير إلى المعارك الضارية التي اندلعت فيه بين قبيلة مراد وهمدان، وتُعرف عند العرب القدماء بيوم العكار (الإكليل: ١٠: ١٠٥). في الواقع، ليس ثمة أدنى صلة بين وادي عُكار اليمني وبين عكور الفلسطيني، وهذه المُطابقة هي استطراد في تلفيق أعم. هنا نص الهمداني من كتابه الشهير الإكليل:

(هذا ما يقوله نسّاب همدان: أما عراف الأهنوم- أي: العارفين بنسب قبائل هنوم-وقد سألتهم عن نسبهم: أولد الأهنوم كراث بن هنوم ويكنى ابن هنوم، فأولد بني عائذ وهم أهل صور. وبني عبيد وهم أهل وادي العُكار)

في هذا النصّ الرائع والنادر، يفكك الهمداني جملة من ألغاز التوراة دفعة واحدة: ها هنا جماعة تنتسب إلى هنوم تُدعى كراث- كرت في النص العبري. وهؤلاء هم الكرثيون- الكرتيون الذين تخيلتهم القراءة الاستشراقية كجماعة مُتسللة من كريت اليونانية إلى فلسطين؟ وفي هذا النص لدينا كذلك اسم وادي العُكار اليمني من أودية بلد همدان، حيث تقع يريحو العي كما رأينا أي: تماماً كما في النص العبري الذي يتحدث عن يريحو- أريحا وعن وادي عكور-عكار. ولدينا بالإضافة إلى ذلك تحديد دقيق لسكان صور اليمنية الذين يعيشون عند الساحل اليمني؛ ويرتبطون بقرابات دموية مع سكان هنوم. بكلام آخر: ها هنا صور اليمنية قرب وادي العُكار ويريحو العي وقرب الكرتيين. وهذا ما لا وجود له في الفضاء الديموغرافي الفلسطيني ولا في خريطة فلسطين القديمة. وإذا ما صدقنا المزاعم الاستشراقية وقبلنا تفسيراتها؛ فهذا يعني أن علينا أن نصدق الآتي: أن صور اللبنانية كانت في فلسطين القديمة قرب أريحا، وأن وادي عكور كان مُحاذياًلجزيرة كريت اليونانية؟ وبذلك سنشاهد عبثاً لا مثيل له في الخرائط. بقي أن نتأمل بعمق في مغزى إشارة الهمداني (من نص الإكليل) إلى ابن هنوم ولنقارن هذه الصيغة مع ء بن- هنوم في التوراة؟ إن ابن هذه هي التي تطورت في صورة أوبن الوادي، الذي تسيل مياهه في السراة ذاتها. هل ثمة مصادفة مجردة أن الهمداني ويشوع يعطيان الاسم نفسه: ابن هنوم؟ إن وادي عكر-عكار التوراتي لا صلة له بوادي عكور الفلسطيني، ويريحو العي الهمدانية لا صلة لها بأريحا الفلسطينية.

والآن إلى المثال التالي: صعد يشوع- يهوشع بعد سقوط يريحو العي، إلى جبل عبال -عبال لبناء مذبح للرب. وبينما وقف نصف بني إسرائيل قبالة جرزيم، وقف النصف الآخر في ناحية عبال يتفرجون. فهل تعرف فلسطين جبلاً يُدعى جرزيم قرب يريحو؟ وقرب جبل عبال؟ يرسم النص العبري (١١: ٩: ٣٠: ٨) الاسم في صورة هر-جرزيم - اسم الجمع من جرز-. وإذا ما ضبطنا هذا الاسم ضبطاً عربياً صحيحاً يلتزم رسم الاسم كما في العبرية؛ فإنه سوف يظهر في صيغة الجمع وهو: جُرُز.

هنا وصف الهمداني للمكان وبصيغته العبرية (صفة: ١٥١):

جُرُز اليمن الشرقي، وهي بمنزلة تهامة. أول هذا الحيز مما يُصالي عدن.

تعني كلمة جُرُز- حسب محقق الكتاب-: الأرض التي لا تنبت ولم يُصبها مطر. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ [السجدة: ٣٢/ ٢٧]. إن رفضنا للقراءة الاستشراقية لا يستند إلى مقاربات لغوية وحسب؛ وإنما إلى قراءة منهجية بديلة تعيد تركيب التاريخ التوراتي. ليس ثمة فلسطين في التوراة ولم يذهب يشوع إلى أريحا للاستيلاء عليها ولم يصعد نصف بني إسرائيل قبالة جرزيم لرؤية المذبح، ولم يتسلل الفلسطينيون من جزيرة كريت. هذه هي خلاصة هذا الفصل. يروي الهمداني (الإكليل: ١: ١١٥) الرواية التالية عن مكحول - ت: ١١١هجرية-:

(إن الضحاك بن معد أغار على بني إسرائيل في أربعين رجلاً، عليهم درائع من الصوف خاطمي خيلهم بحبال من الليف فقتل وسبى منهم. فقال بنو إسرائيل لموسى: يا موسى إن بني معد أغاروا علينا وأنت نبينا فادع الله عليهم)

تُرى: ما الذي يحمل الإخباريين والفقهاء المسلمين على رواية مثل هذه الأخبار، عن حروب قبيلة معد العربية ضد بني إسرائيل في عصر موسى؟ وهل كانت قبائل معد في فلسطين أم كانت في اليمن وشمال الجزيرة العربية؟ وهل من المنطقي تخيُّل هذه المرويات على أنها مجرد مختلقات، أم ثمة تاريخ شفاهي كامل لم يتسن، بعد، التنقيب في طبقاته؟ وسوف نعود تالياً للحديث عن جبل عبال وسواه من الأماكن الواردة في هذه النصوص.

الفصل الخامس

حملة نبوخذ نصَّر على القبائل العربية وبني إسرائيل في نجران

سقوط قدس والسبي البابلي

تعرضت حملة نبوخذ نصَّر ٦٤٠-٥٦٢ ق. م على القبائل العربية وبني إسرائيل؛ في الرواية السائدة والمُتداولة إلى التباس جغرافي مُدمر للحقيقة التاريخية، ومُمزّق لعناصر الصدقية والإقناع فيها، مصدره مرة أخرى القراءة الأوربية للتاريخ القديم في المنطقة. شكلت هذه القراءة، التي هيمنت على كل قراءة أخرى مضادة، الأساس الذي نهضت عليه الدراسات الحديثة في الجامعات والمعاهد البحثية وفي كتب التاريخ؛ والمثير أن القواعد الناظمة لهذه الدراسات كانت ترتكز إلى التراث الكتابي- اليهودي-المسيحي، بوصفها قواعد للتأويل المُسيطر؛ بأكثر مما كانت ترتكز إلى الحفريات وعلم الآثار، ولذا بدت قراءة التوراة أمراً مُلزماً لكل مراجعة نقدية في الإطار التاريخي لحملة نبوخذ نصر الحربية. وفي هذا المنحى المُحدد من العمل المُنظم جرى الاعتماد كلياً - في أحيان كثيرة- على التفسير الاستشراقي للحملة الحربية، التي نُظر إليها

كعمل كان مُصمماً في الأصل لتدمير إسرائيل المقدسة وحدها، وليست حملة ضد القبائل العربية القديمة المتمردة. في هذا الإطار، ولدت في الأبحاث والدراسات التاريخية الأوربية عن فلسطين، فكرة أرض الميعاد اليهودي من جديد، كاستعادة استرجاعية لوطن تاريخي خيالي. وعلى نحوٍ ما، جرى النظر إلى حادث السبي البابلي لا بوصفه حادثاً يخصّ تاريخ المنطقة والجماعات القديمة التي عاشت فيها، وإنما بوصفه حادثاً يخص بني إسرائيل وحدهم. كانت حمى البحث في أوروبة عن أرض الميعاد التوراتي، تقود خطا الباحثين إلى تصور فلسطين كمسرح لقصص التوراة. ولذلك جرى تركيب الرواية التوراتية والتلاعب بها، لتتلاءم مع أسماء المواضع والأماكن في فلسطين. إليكم شهادة الهمداني الحاسمة عن المكان الذي استهدفته حملة نبوخذ نصّر (صفة: ٨٣):

أما حديث عبد الله بن عباس في -جزيرة العرب- فإنه ما نُقل لنا عن محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: ولد نزار بن معد وهم أربعة: مُضَر وربيعة وأياد وأنمار ومنازلهم مكة وما والاها من تهامة. انتشروا فيما يليهم من البلاد وتنافسوا في المنازل والمحال، وأرض العرب يومئذٍ خاوية ليس فيها بتهامتها ونجدها وحجازها وعروضها كثير أحد، لخراب بُختْ نصر إياها وإجلاء أهلها إلا مَنْ كان اعتصمَ منهم برؤوس الجبال وشعابها ولحق بالمواضع التي لا يقدر عليه فيها أحد متنكباً لمسالك جنوده فاراً إليها منهم.

هذا هو، بصورة تقريبيّة تصور العرب القدماء للحملة الحربية التي قادها نبوخذ نصَّر: بطش القائد الآشوري بالقبائل العربية الأولى العاربة، وطاردها وخرب منازلها في الحجاز وتهامة؛ بل وقام بإجلاء سكانها ونفيهم أو أسرهم، باستثناء الجماعات المتمردة التي تمكنت من العصيان

والفرار في الجبال الوعرة. وهذا التوصيف يتطابق كل التطابق مع المرويات التوراتية كما سنرى؛ إذْ صورت التوراة ظروف الفرار إلى الجبال والاحتماء بها من بطش الآشوريين. إن الرواية العربية الكلاسيكية عن الحملة لا تشير إلى فلسطين نهائياً. تعرف هذه الحملة -في المرويات الكلاسيكية الإخبارية- بحملة البُخت نصّر على العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم-المسعودي: مروج الذهب: ٢: ٢٨٤ وسوف نرى مغزى هذا التعبير تالياً، حين نقوم بتحليل المرويات والقصائد التوراتية التي تناولت الحادث؛ فهي تستعمل التوصيف ذاته: العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم أي: الجماعات البدوية المُقيمة في منازل مُتنقلة. وبالطبع لا يشير مثل هذا التوصيف إلى سكان فلسطين المُتمدنين في هذا العصر، الذين كانت بلادهم جزء من الإمبراطورية الآشورية.

يقول المسعودي-النصّ الآنف-:

فأوحى الله - عزّ وجل- إلى نبي كان في عصره-عصر نبوخذ نصر- وهو: برخيا بن زُر بابيل وكان من سبط يهوذه بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، أن يأتي البُخت نصر وكان بالشام وقيل غيره من الملوك؛ فيأمره أن يغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم (.....) فمن الناس مَنْ رأى أنهم كانوا بأرض السماوة وذلك بين العراق والشام إلى حدّ الحجاز، وهي الآن -عصر المسعودي-خراب برارِ وقفار. ومنهم مَنْ رأى أن ديارهم كانت بلاد جند قنسرين إلى تل ماسِح إلى خناصرة إلى بلاد سورية.

تبدو رواية المسعودي لأول وهلة، مُفرطة في التشوش، أو أنها -على الأقل- تنسب الحادث التاريخي برمته إلى سبب غير منطقي: تحريض قام به نبي إسرائيلي يدعى زُر ببل. وهو شخصية يهودية عاشت في بابل بعد وقوع الغزو الآشوري بسنوات؛ بل إن زرببل هذا كان من أوائل العائدين

من الأسر، بعد سقوط بابل عام ٥٣٩ ق. م في بد قورش الفارسي. ولذلك فلا صلة له بحملة نبوخذ نصَّر. ومن هنا يمكن النظر إلى مروية المسعودي على أنها مُفرطة في تشوشها بالفعل. ومع ذلك لا بد من النظر بعمق أكبر إلى هذه المسألة. إن مصدر التشوش الرئيس فيها رواية يكمن هنا: في الخلط غير العقلاني بين أبطال وأحداث لا يكاد يجمعها جامع، وكأنها إعادة إنتاج لرواية الطبري الأصلية (١: ٦٤٣) المُشوشة- بدورها - على نحو مُفرط أيضاً. لا يبدو هذا الانطباع صحيحاً بصورة مُطلقة، فالروايتان مع ذلك، تحتفظان بطاقة مُذهلة على البوح بخط الحملة الحربية الحقيقي. إنهما تطرحان، بفطنةٍ نادرةٍ، إمكانية أن تكون الحملة استهدفت الجماعات العربية البدوية المتمردة على الإمبراطورية الآشورية، بأكثر مما كانت موجهة نحو بني إسرائيل وحدهم، وبالتالي فهي لم تتجه إلى فلسطين كما هو شائع، لأنّ هذه الجماعات كانت تقيم على أطراف الحجاز وساحل البحر الأحمر وليس على شواطئ المتوسط. وهذا احتمال حقيقي تطرحه سائر الإخباريات وتؤيده رواية التوراة ذاتها. لقد أهملت القراءة الاستشراقية للتوراة كل ما قالت به الإخباريات العربية القديمة، بما في ذلك تأكيدها أن الحملة استهدفت قبائل العرب المتمردة على أطراف الحجاز وفي قلب تهامة؛ بل وأهملت إشاراتها وتلميحاتها إلى وقوع الحادث في مسرح آخر غير المسرح الفلسطيني. وعلى العكس من ذلك اندفعت في اتجاه توطيد الانطباع بأن حملة نبوخذ نصّر، اتجهت أساساً لتدمير أورشليم في فلسطين القديمة.

في الواقع لم تكن هناك أورشليم في فلسطين في هذا الوقت قط؛ والمدينة التي ظهرت في العصر الروماني لا يرقى عمرها الحقيقي إلى أكثر من ٢٠٠ق. م. كما أن ظهورها تزامن مع استقرار قبائل عربية يهودية مهاجرة من اليمن إلى بلاد الشام، وهي من أطلق اسم أورشليم في سياق سلسلة من الأسماء حملتها معها كما تفعل أي جماعة مهاجرة، مثل بيت

لحم، وقدس- قدش، وأريحا، وسواها. أي إن أورشليم الفلسطينية هذه لم تظهر إلى الوجود إلا بعد نحو ٧٠٠عام من حملة نبوخذ نصَّر؛ وهذا يعني أن التوراة كانت تتحدث عن أورشليم أخرى يمنية نقل المهاجرون، من يهود اليمن، اسمها وذكراها إلى بلاد الشام إبان هجرة القبائل العربية. وتلك هي المدينة التي هاجمها العاهل الآشوريون، ولم يكن اسمها قدس أو القدس؛ بل كان اسمها أورشليم، بينما كان هناك مكان آخر يدعى قَدَش- قَدَس هاجمه الآشوريون في حملات متكررة.

لقد تم دمج تاريخين متناعدين للمدينة القديمة؛ أحدهما سجلته التوراة عن حملة في عصر نبوخذ نصَّر؛ والآخر تاريخ ظهورها من جديد في العصر الروماني. إن هذا وحده ما يُفسر لنا السر في التناقض المستعصي على الحل بين رواية التوراة للحادث وتسجيلها لأسماء المواضع التي اتجهت إليها الحملة الحربية من جهة، وبين التفسير الاستشراقي الذي يُصرّ على أن الحادث وقع في فلسطين من جهة أخرى. وهما تاريخان متناقضان يستحيل الجمع بين وقائعهما. هذا التناقض غير القابل للحل، بسبب استحالة المُطابقة بين أسماء المواضع الواردة في الرواية التوراتية، وما يُماثلها في فلسطين التاريخية؛ مصدره إصرار القراءة الاستشراقية على حجب المسرح الحقيقي للحملة العسكرية. ومع هذا الإصرار ورسوخ أسطورة السبي البابلي في فلسطين-كما أشاعتها الروايات والدراسات التاريخية في أوروبة- توطّدت أركان الصورة النمطية للحملة في التراث الكتابي وفي أبحاث المؤرخين وأعمالهم التاريخية. يُعد سِفر يهوديت-يهودية وهو من كتب الأبوكريفا غير المُعترف بها في الديانة اليهودية- من الكلمة اليونانية: apokryphos وتعني المُخبأ أو كما نقول اليوم عن الكتب الغامضة والقديمة: الجفر؛ الوثيقة الوحيدة تقريباً التي تروي الشيء الكثير عن حادث السبي البابلي. ولذلك سوف نعامل هذه الرواية معاملتنا للرواية العربية بطابعها المثيولوجي. إنهما تنتسبان إلى النسيج ذاته من السرد القديم.

الرواية العربية لحادث السبي البابلي

آشوريون وعرب

يبدو أن ضعف وتشوُّش، وحتى التباس، كثرة من المرويات الإخبارية العربية- الإسلامية عن حملة نبوخذ نصَّر؛ والتي وصلتنا مشفوعة بتأييدات غير مُتبصرة من بعض الفقهاء المتأخرين ومن رواة الأخبار أيضاً، وخصوصاً في الجوانب المُتصلة بالمواضع التي دار فيها القتال، بين القبائل العربية وجنود الإمبراطورية الآشورية، قد دعمت بطريقة ما، أعمال أجيال من الباحثين العرب المعاصرين الذين قاموا، ودون تبصر أيضاً وربما دون معارف كافية بالمسرح التاريخي الحقيقي للحدث، بتصعيدٍ موازٍلحادث السبي البابلي.

هذه الحملات المُتتابعة والمتواصلة،كانت تستهدف قمع وتأديب القبائل العربية البدوية المتمردة في البادية، وعلى امتداد سواحل البحر الأحمر حيث طرق التجارة الدولية؛ ومن ثم فلا دلائل على أن فلسطين كانت موضوعاً صراعياً. على العكس من ذلك؛ فإنّ فلسطين التي لا ترد، ولا بأي شكل من الأشكال في السجلات الآشورية، كما لا وجود لبني إسرائيل أو لمملكة إسرائيل فيها، لم تكن مسرحاً للاضطرابات السياسية. وعلى العكس، فقد كان الجنوب السوري هادئاً بالنسبة إلى الإمبراطورية الآشورية، إذا ما قمنا بمقارنته مع الثغور الصحراوية. وإذْ صار أمراً مألوفاً في السرديات العربية التاريخية، رؤية حادث السبي البابلي بوصفه الجزء الأهم في موضوع الحملة الحربية، فقد جرى إمحاء غير مقصود لمعالم المسرح الحقيقي الذي جرت فيه الأحداث. ومن المؤلم أن السرديات

العربية لا تزال حتى اليوم، تغرف من خزان الرواية التوراتية-الاستشراقية، رؤيتها وفهمها للأحداث،ومن تصوراتها كذلك للمواضع التي سار نحوها الجيش الآشوري، ومن دون إنعام الفكر بغرائبية الأسماء أوانعدام أي إمكانية للعثورعليها داخل فلسطين. وبذلك تلاشى المسرح الحقيقي للحدث التاريخي وبزغ الترابط الوثيق بين اسم نبو خذ نصَّر وإسرائيل.

إن رواية ابن العبري في تاريخ مختصر الدول[1] لا تكاد تتورط في قضية المكان الذي دارت فيه الحملة الحربية، وهي تترك الأمر همْلاً لحساب الخبر التاريخي.

يكتب ابن العبري قائلاً :

بخت نصر بن نبو فلسر-نبو بلا سر- مَلَكَ قبل إحراق هيكل الرَّب وإخرابه أورشليم تسع عشرة سنة، وبعده أربعاً وعشرين سنة واسمه بالسريانية نبوخذ نصَّر أعني : عُطارد ينطق. وإنما سمي بذلك لأنه نطق بالعلوم والآداب. وفي السنة الثالثة من قمعه اليهود رأى مناماً راعت له روحه منه.

هذا النصّ المحترس والحَذِر من مسألة تحديد المكان الذي سارت إليه الجيوش، يعطي فكرة عن الاضطراب في المرويات المتأخرة. فهو لا يتقيّد بمنطق الكتابات السابقة عليه، والتي حددت المكان في الصحراء العربية مثلما هو الحال مع رواية الطبري والمسعودي. ويبدو أن المدوَّنات الكنسيّة التي عاد إليها ابن العبري، كانت تكتفي بالإشارة إلى إحراق

(١) العلّامة غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري. ت: ١٢٨٦- المطبعة الكاثوليكية -بيروت ١٩٥٨ .

الهيكل وسقوط أورشليم من دون تحديد المكان بالضبط؛ بينما تشير التوراة نفسها إلى المكان بوضوح. ففي سِفر إرميا (النص العربي: ٤٩ : ٢٦ : ٣٦ لتسهيل عودة القراء إليه) نقرأ ما يلي:

قوموا اصعدوا على أمة

مطمئنةٍ ساكنة في أمان. يقول الرَّبُّ

لا إغلاق لأبوابها[1]

سكناها في العزلة

تصير إبلهم نهباً

ومواشيهم الكثيرة سلباً

هذا التوصيف الدقيق لا يشير إلى سكان فلسطين؛ بل إلى سكان البادية العربية التي اتجهت إليها الحملة. وسوف نبرهن عبر مقاربة النص العبري مع نصوص الهمداني، على أن فلسطين لم تكن موضوع هذه الحملة ولا هدفها، وأن البادية وساحل البحر الأحمر ونجران وصولاً إلى العمق اليمني، كانت هي المسرح الحقيقي للحملة. إن الخلط الفظيع بين أسماء المواضع في التوراة، وما يماثل بعضها بصورة جزئية للغاية ومقطوعة السياق، أو معزولة عن بعضها البعض؛ هو جوهر الاستغلال الذي قامت به القراءة الغربية، من أجل إنشاء فكرة زائفة عن استيطان يهودي موغل في القدم، وأن هذا الاستيطان كان قادراً حتى عصر نبوخذ نصر، على بناء مملكة مترامية الأطراف تتحدى الإمبراطورية الآشورية. ولعل هذا الاستغلال هو الذي دفع إلى الواجهة، وبخلاف الواقعة التاريخية، بمسألة السبي البابلي لتكون مُنطلقاً، للإيحاء بأن المستوطنين اليهود المعاصرين إنما يعودون إلى وطنهم القديم. كما دفع إلى الواجهة

---

(١) قارن العبارتين عند المسعودي وإرميا.

وبقوة، بمسألة استبعاد سِفر يهوديت- يهودية من قائمة الكتب القانونية والمعترف بها من جانب المتدينين. لقد اتسمت معالجات بعض المشتغلين في حقل التاريخ والكتاب المقدس من المستشرقين وعلماء الآثار، بقدرٍ فظٍّ من الاستخفاف بهذا السِّفر تحديداً، لا لشيء إلا لأنه يعطي أسماء مواضع الحملة الحربية على نحو لا يتوافق مع القراءة الاستشراقية. أي إن السفر لا يُصادق على الدعاوى الغربية القائلة: إن نبوخذ نصَّر اتجه نحو فلسطين. وهذا هو المغزى الحقيقي من استبعاد السِّفر، الذي يُنظر إليه عادة على أنه من كتب الأبوكريفا، مثله مثل الأسفار المتأخرة الأخرى. كُتبَ سفِر يهودية في الأصل بالكنعانية القديمة واليونانية، وهو يصوّر على نحو ممتاز المواضع التي سارت إليها جيوش الآشوريين. لكن القراءة الغربية لم تجد في هذه التوصيفات ما يلائم نزعاتها غير العقلانية، للمُطابقة -على حساب العلم والحقيقة الجغرافية- بين هذه الأسماء، وما قد يماثل بعضها من أسماء في فلسطين الحقيقية. ولذا حكمت على خط الحملة كما صوَّره السِّفر بأنه خط سير مجهول. إن هذا الخط مجهول وغير صحيح من وجهة نظر القراءة الاستشراقية، لأنه لا يتطابق مع وصف فلسطين. وبينما نرى من جانبنا أن سِفر يهوديت -يهوده- سِفر نموذجي بالنِّسبة إلى الباحث في المثيولوجيا القديمة وليس التاريخ -إذ هو وجهاً لوجه أمام وثيقة تصفُ بدّقة مسرح الأحداث بلغة أسطورية- فإننا في المقابل، نرى فيه تقليداً كتابياً يسير على الطريق ذاتها التي سارت عليها تالياً الإخباريات العربية الكلاسيكية في سرد التاريخ، وفي ووصف المواضع بأكبر قدر من العناية بالتفاصيل. وبقطع النظر عن القيمة الروحية - الدينية- لهذا النصّ؛ فإنه يحتفظ بأهمية استثنائية من منظور تعامله التقليدي مع أسماء المواضع والأماكن. بكلام آخر؛ فإن أهمية السِّفر تتجلى في طاقته على رسم خريطة للأحداث لا نملك بديلاً عنها حتى الآن. إننا حيال نصٍّ قابل لأن يُجرد من أغراضه ومقاصده الدينية

المباشرة، ويسمح بالتعامل معه كنصّ إخباري يمكن تفكيك بناه السردية من أجل إعادة بناء الرواية التاريخية عن حادث السبيّ البابلي. وهذا هو الحال عينه مع الإخباريات العربية الكلاسيكية الكبرى، التي كتبها الطبري والمسعودي والأزرقي وابن الأثير وابن كثير والوا قدي وسواهم؛ بل لعله ينتسب بفضل هذه المزيّة، إلى النسيج ذاته من المرويات اليمنية القديمة التي عظَّمت أمجاد اليمنيين- الحميريين- وممالكهم في سبأ وحضرموت وريدان. لاشكّ أن العودة إلى سِفر يهوديت - يهوده، والتعامل بجدية وثقة مع خط الرحلة الحربية منذ انطلاقتها من نينوى العاصمة الآشورية، حتى سقوط أورشليم - أورى سلم، ومقاربة هذا الوصف مع وصف الهمداني للمواضع التي لا وجود لها في فلسطين، ثم فحص النتائج التي تسفر عنها هذه المقاربة من خلال شهادة الشعر الجاهلي؛ سوف تمكن الدارس من الحصول على نتائج جديدة وغير مُتوقعة، تفضح نمط التزوير والتلاعب في الحقائق التاريخية. إن التحقق من صحة الخريطة المرسومة، والتثبُّت من واقعية ودقة التوصيف الجغرافي، أمران يستحيل حسم النقاش حولهما من دون وجود لُقى أثرية مطمورة تحت الأرض، تعطي البرهان على المكان الذي دارت فيه الحروب. أو الحصول على مصدر ثقافي بديل يمكن استخدامه بالتوازي مع نص يهوديّة. وفي هذه الحالة ليس ثمة من منافس حقيقي للشعر الجاهلي في القدرة على إعطاء سجل مضبوط للمواضع والأماكن القديمة.

وصف الحملة الآشورية

يبدأ السِّفر بنقل أخبار حملة نبوخذ نصَّر عندما كانت تتجه صوب سلسلة جبال اليهوديّة على النحو التالي: أوفد العاهل الآشوري في العام ٦٤٠ ق. م. وعند صعوده إلى عرش الإمبراطورية خلفاً لوالده نبو بلا سر، ومع أولى الاضطرابات القبلية التي أعقبت نبأ وفاة الملك؛ موفدين

ورسُلاً إلى الشرق والغرب وإلى جميع رعاياه. وحسب التسلسل وحرفياً: في فارس ودمسق- دمسق ولبنان وأمم الكرمل والجليل وسهل يزرع ءيل وأورى شلم وبيت عنوت- بيت عُنة وكلواذ وَقَدس- قَدَش ونهر مصر- مُضَر وتحنفيس ورمسيس- رمس وأرض جازان كلها، إلى ما وراء صُعن ونوف وجميع سكان مصر- مُضَر إلى حدود الحبشة؛ طالباً منهم الطاعة والهدوء والخضوع لإرادته الإمبراطورية.

وحسب هذا التسلسل أيضاً، للمدن والقرى والبلدان التي شملها العاهل الآشوري في رسائله وموفديه؛ فمن الواضح أن الكثير من هذه الأسماء مألوف في نصوص التوراة والخرائط القديمة، فيما بعضها الآخر يبدو غريباً ومجهولاً. ومع ذلك فالأسماء تشير إلى كثرة من الأماكن المعلومة -على الأقل من جانب كاتب السِّفر- أو من جانب الملك الجديد؛ وإلا لما كانت هناك حاجة إلى رسائل موجهة للزعماء فيها. الأهم من كل هذا أن السِّفر لا يشير البتة إلى فلسطين. كانت سياسة العاهل الآشوري الجديد، تواصلاً في علاقات القوة مع القبائل، التي أرسى أسسها والده نبو بلاسر بنفسه، من أجل منعها من التفكير بالتمرد أو الاستقلال عن الإمبراطورية. ويبدو أن ساحل البحر الأحمر كان الموطن الفعلي للاضطرابات القبلية، وهذا ما تعكسه بدقة سلسلة الأماكن الواردة في النص الآنف؛ إذ من غير المنطقي تخيل الاضطرابات في فلسطين بينما يوفد العاهل الآشوري رُسُلاً إلى حدود الحبشة؟ أو إلى وبيت عُنة وجازان ونوف وهي أماكن يمنية معروفة؟ بل سيكون أمراً خالياً من كل منطق، تصور الحملة الحربية على فلسطين فيما يتجه الرُّسُل إلى حدود الحبشة ومصر وجازان على ساحل البحر الأحمر؟ فهل وقع كاتب السِّفر في الوهم؟ وهل كان جاهلاً إلى هذا الحدّ المفضوح بالجغرافية؟ قوبلَ نداء العاهل الآشوري منذ اللحظة الأولى، بالسخرية واللامبالاة، من جانب سائر الجماعات المتمردة التي رأت في موت نبو بلا سر

فرصتها التاريخية، في الانعتاق والتفلت من السيطرة الآشورية. ويبدو أن رد الفعل جاء سريعاً وبأكثر ممّا توقعه الساخرون. ثار العاهل الآشوري غضباً وشرع في تجهيز حملة حربية مُدمرة قوامها نحو ١٢٠ ألف جندي. ولذا استدعى أكفأ ضباطه وأكثرهم قدرة وحزماً وكلفهم قيادة حرب لا رحمة فيها لتأديب الجماعات المتمردة. ولتتبع خط الحملة كما رسمه كاتب السِّفر، سنقوم بإيجاز النصّ وتحديد الأماكن التي اتجهت إليها أو صادفتها في الطريق. خرج الجيش الآشوري من نينوى متجهاً صوب نجد كتلت- كثلة وقد وصله بعد ثلاثة أيام. ثم غادر معسكراته المؤقتة ليعسكر قرب كلكية. ومن هناك مضى باتجاه المناطق الجبلية ليسحق جماعات قبلية بدوية صغيرة ومُبعثرة هي: لود وفود،كما قام بنهب مواشي أملاك بني رشيش وبني إسماعيل الذين كانوا يقيمون في بادية كلواذ. وعندئذٍ سار في محاذاة نهر الفرات مُخلفاً بلاد ما بين النهرين وراءه وليدخل في عمق البادية العربية، مُدمراً جميع المنازل المحصنة على ضفاف سيل عبرون، وليصل بسرعة إلى مواضع على مقربة من ساحل البحر. وحسب هذا الوصف يكون جيش العاهل الآشوري قد سحق الجماعات المقاومة حتى حدود بلاد يافث إلى الجنوب من البادية. كما قام بتطويق منازل بني مدين-مدين وأحرقها ونهب مواشيها، قبل أن ينزل إلى نجد دمسق- دمشق؟ لينهب ويدمر المزارع هناك. وحين تناهت إلى أسماع سائر الجماعات القبلية أنباء الحملة المدمرة، دبّ الذعر في صفوف سكان الساحل في صيد، وصور، وعكن، ويمنع، وء شقلون، وء شدود، ولذا بادروا إلى إرسال موفدين يطلبون الرحمة ويعلنون الطاعة. وفي وقت لاحق نزل الجيش في الساحل ليقيم معسكراته وتحصيناته، حيث جاءت بعض القبائل بالأكاليل وجوقات الراقصين ترحيباً بمقدمه. لكن قادة الجيش الآشوري لم ينتظروا طويلاً في الساحل؛ بل واصلوا زحفهم حتى يزرع ءيل- أذرع- الآل على مقربة من دوتائين-دوتان وهي من المواضع

التي يصنفها كاتب السِّفر في سلسلة (جبال اليهودية الكبيرة). وعلى مقربة من دوتائين- دوتان هذه أقام الجيش معسكراته ما بين جبع- جبع وبيت شان- بيت شان. وآنئذٍ استراح لمدة شهر كامل قبل أن يباشر استعداداته من جديد، لمواصلة الزحف في المرحلة التالية من الغزو. في هذا الوقت سمع أسباط من بنو إسرائيل، كانوا يقطنون سلسلة جبال اليهودية، بأنباء اقتراب الحملة من مراكز إقامتهم. ولذا قاموا بإرسال موفدين من الكهنة إلى أراضي السمرة-السمرا وكونه- كونه وبيت حورون- بيت حوران وبلمائين- بلمه ويريحو- أريح وكوبه- كبُه وعزورة- عزورة ووادي شليم- وادي سليم، طالبين من سائر القبائل الإسراع في قطع الطريق على تقدم الجيش الآشوري، وذلك باحتلال رؤوس الجبال وتسو ير وتحصين القرى. كان يهوقيم- يواكيم كبير الكهنة في هذه الآونة، في أورشليم- أورى سلم، يكتب وفي أثناء تقدم الجيش، إلى قبائل بيت فلوى- فلوه وبيت مستئيم - المسات؛ وهما موضعان يجعلهما كاتب السِّفر على مقربة من بيت يزرع ءيل، طالباً منهم إعاقة تقدم الآشوريين ومنع اقترابهم أكثر من جبال اليهودية، وأن يبادروا إلى قطع الممرات الجبلية الضيقة المؤدية إليها. تلقى قائد الجيش الآشوري تقارير تفيد بوجود استعدادات قبلية غير مسبوقة من جانب بني إسرائيل، لصد الحملة ومنع الجيش من الاقتراب أكثر باتجاه جبال اليهودية. ولذا استدعى وجهاء بني عمون وسكان ربة (ربة نجران) ورؤساء قبائل كنانة على الساحل وخاطبهم بقوله:

أخبروني بابني كنعان: مَنْ يكون ذلك الشعب المُقيم في الجبال؟

وبعد أن استمع قائد الجيش من شيوخ القبائل الكنعانية- الكنانية في الساحل، إلى قصة بني إسرائيل، وعرف شريعتهم الدينية، واصل زحفه نحو بيت فلوى- فلوه، فاحتل المنحدرات الجبلية قبل أن يعسكر في

الوَهْدَة المجاورة، ثم ليأمر الجيش بالانتشار في الوادي من دوتائين- دوتان إلى بلما- بلما، ومن فلوى- فلوه إلى قلمون- قلامة قبالة يزرع ءيل. وبذلك أحكم قبضته من الناحية العسكرية على أورشليم، التي سرعان ما سقطت في يده كالثمرة المتعفنة. وعندئذٍ بدأت عمليات أسر فجلاء القبائل في ما يعرف بالسبي البابلي. يقول محققو التوراة - ط / العربية- في ملاحظات مثيرة ما يلي:

يحتوي خط السير على عدد من الأماكن المجهولة، أو التي لا تُعرف معرفة أكيدة. وهناك أماكن يُطلق عليها أسماء معروفة ولكنها تُستعمل على نحو غير مألوف. وعلى كل حال، فخط السير الموصوف هنا غير معقول، ولربما كان المؤلف يجهل جغرافية تلك البلاد.

فهل حقاً؛ كان مؤلف السِّفر يجهل جغرافية فلسطين التاريخية، إلى الحدّ الذي يقدم فيه وصفاً لا يوجد فيه اسم فلسطين، ومسجّلاً أسماء مواضع لا وجود لها قط هناك؟ بل وأن يبلغ الجهل به حداً بحيث يرسم خط سيرٍ للحملة الحربية، مُبتعداً به عن بلاد الشام بمسافة هائلة؟ وهل حقاً أن خط السير الموصوف غير معقول، وينمُّ عن فوضى جغرافية في عقل كاتب النصّ؟ لكن، لماذا يبدو هذا الوصف غير مقبول أو معقول؟ إن إعادة بناء الرواية التاريخية المُصادرة والمُستولى عليها، يتطلب قبول المعطيات التي يتركها لنا النص كما هي دون تلاعب، عملاً بالمبدأ نفسه الذي يحرص عليه التوراتيون، الذين يعتبرون النصوص التوراتية ذات قيمة تاريخية. إنه غير معقول، بالنسبة إلى القراءة الاستشراقية، لأنه خط سير لا يؤدي إلى فلسطين؛ بل إلى السراة اليمنية وإلى سرو حمير (سلسلة جبال اليهودية، عدن وما يعرف اليوم بمحافظات اليمن الجنوبي) تحديداً. بكلام ثانٍ: إنه خط غير معقول ومجهول وغير مقبول؛ لأن من

المفترض أن نبوخذ نصَّر قام بالسبي البابلي في فلسطين وليس في أي مكان آخر؟.

أين نجد بيت فلوى - فلوه وبيت عنة وحورون وجبع ومستئيم ودوتان ووادي شليم وكبُة وكونه وعزورة في فلسطين؟ إذا كانت حملة نبوخذ نصَّر تستهدف فلسطين حقاً، فلماذا اتجهت صوب الساحل حيث بنو كنعان وبنو عمون وربَّة؟ وهؤلاء، مثلما نعلم، هم سكان الساحل اليمني بشهادة الهمداني ولا وجود لهم أبداً في الساحل الفلسطيني؟ في سياق هذه الحقائق سنتوقف- هنا- لرسم منظر خلفي لصعود نبوخذ نصرّ كما عرضته الوثائق التاريخية: مثَّل صعود نبوخذ نصَّر كسياسي وقائد عسكري، تحولاً مثيراً في تاريخ الإمبراطورية الآشورية التي كانت تواجه سلسلة من التحديات العسكرية، من المصريين والعيلاميين في آن واحد، وسلسلة موازية من الاضطرابات القبلية العنيفة على حدودها مع الجزيرة العربية (البادية). وهذا أمر معروف جيداً بالنسبة إلى المؤرخين وأهل الاختصاص. كانت القبائل العربية المُتمردة على سلطة الآشوريين خليطاً من جماعات مستقرة وبدوية وشبه مدينية؛ وقد لعبت القبائل القاطنة في جبال اليهودية- أي في سرو حِمْيَر- دوراً تحريضياً هائلاً، استناداً إلى حسابات سياسية خاطئة وانتهازية روَّج لها كبار الكهنة، الذين بدؤوا في هذه الآونة باستغلال ظروف الحرب؛ لفرض نفوذهم الديني والسياسي. سعى هؤلاء إلى استغلال التحديات الدولية التي كانت تواجه الآشوريين، ثم الموت المفاجئ لنبو بلاسر (وهم ذاقوا على يده الأمرّين) وذلك بإعلان سياسة تحالف مع مصر. وفي سِفر إرميا هناك إشارات دقيقة إلى مخاطر هذه السياسة، التي حذر منها أنبياء بني إسرائيل، خصوصاً وأن مملكة بني إسرائيل، أو ما يُدعى في التراث الكتابي بمملكة الجنوب- إلى الغرب من صنعاء- كانت قد اندحرت في حملة سابقة وتمَّ فعلياً القضاء عليها على يد سرجون الثاني ٧٢٢-٧٠٥ ق. م. لكن، ومع حلول العام

٦٤٠ ق. م، أي بعد نحو ستين عاماً من زوال مملكة بني إسرائيل، كان الكهنة في جبال اليهودية أو ما يُعرف بمملكة الشمال، يتلقون إشارات من مصر -في إطار التنافس مع الآشوريين على خطوط التجارة الدولية في العالم القديم- تفيد باستعداد المصريين للتعاون معهم لطرد هؤلاء. ونحن نعلم أن ثروات العالم القديم كانت تتمركز فعلياً في تجارة البخور واللّبان، وهما مادتان رئيسيتان في الخزان اليمني، ومعلوم كذلك أن مصر كانت تنفق أموالاً طائلة على استيراد البخور إلى معابدها. لم يستوعب كهنة اليهوديّة جيداً، التطورات التي كانت تحيط بمملكتهم الصغيرة مع صعود نبوخذ نصَّر؛ بينما كانت القبائل العربية على الساحل اليمني وخصوصاً قبائل مُضَر- أمّ قبائل العرب- أكثر حذراً واحتراساً إزاء سياسات التمرد على الإمبراطورية الآشورية، وهذا ما تمَّ التعبير عنه بالمواقف الحذرة التي اتخذتها قبائل كنانة المُضَرية- كنعان في القراءة الاستشراقية. وهذا ما تؤكده إشارات قصائد إرميا كما سنرى تالياً. كان صعود نبوخذ نصَّر تعبيراً، من بين تعبيرات عدة، عن صعود قوى جديدة في مسرح الصراع الدولي الآشوري - المصري، أكثر منه مجرد انتقال تقليدي للسلطة، وذلك ما استوعبه بدقة النبي إرميا، الذي كان أكثر تبصراً من سائر الكهنة والساسة في اليهودية؛ حين أطلق تحذيرات صريحة من مخاطر التحالف مع مصر، ومن المغامرة في مجابهة غير متكافئة مع الآشوريين. وقد أدَّت مواقفه وأشعاره الناقدة هذه إلى القبض عليه من قبل الكهنة نحو العام ٥٨٨ ق. م في أثناء حصار أورشليم، حيث عومل كجاسوس آشوري، وجرى التشنيع عليه والسخرية من نظراته المُتبصرة ومواقفه الواقعية. كان المصريون نحو العام ٦٠٥ ق. م يفرضون بالفعل، نوعاً من السيطرة السياسية على أجزاء من جنوب غرب الجزيرة العربية (وهذا ما يُعيد تذكيرنا في العصر الحديث بالتدخل المصري في اليمن في عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في الستينيات من القرن الماضي).

ولذلك قام نيخو الثاني- نكو في رسم آخر للاسم ٦١٠-٥٩٥ ق. م. بتعيين يهوياقيم- يواكيم حاكماً على اليهودية، لكن المصريين سرعان ما اندحروا في معركة كركميش- كر- كامس (أي مرج كامس كما سنرى تالياً- انظر الخريطة الخاصة بالمعركة). كانت معركة كر- كامس حاسمة وقادها نبوخذ نصَّر بنفسه، فتمَّ القضاء على نفوذ المصريين الفعلي في الجنوب الغربي لجزيرة العرب. ولذا سارع يهوياقيم- يواكيم إلى تبديل ولائه بسرعة وعاد يقدم للآشوريين فروض الطاعة والولاء.لم يمض وقت قصير على إذعان يهوياقيم حتى انقلب مرة أخرى على الآشوريين، مُفترضاً أنهم سوف يخسرون المعركة التالية التي تحسَّب لها المصريون جيداً. لكن شيئاً من هذه التوقعات لم يحدث. وفي العام ٥٩٧ ق. م أي بعد نحو ثلاثة عشر عاماً من تعيين يهوياقيم حاكماً على اليهودية، زحف نبوخذ نصَّر ليضع حدّاً لتلاعب هذه المملكة الصغيرة به. وليفرض -من ثم- حصاراً مُدمراً على أورشليم. في هذه الأثناء توفي يهوياقيم[١] فخلفه ابنه صدقيا. ولسوف تُفقأ عيناه ويؤخذ أسيراً إلى بابل مع سقوط اليهودية أو ما يُعرف بمملكة الشمال[٢]. وبذلك تُطوى صفحات هذه المملكة القبلية المتمردة في سرو حِمْيَر، ولكن ليس إلى الأبد كما سنرى تالياً.

تُعيد هذه الحملة تذكيرنا بالحقائق التالية:

١- أن فلسطين لا تُذكر بالاسم، قطّ، في هذا النصّ، ولا في كل النصوص التوراتية التي تناولت مسألة السبي البابلي. كما لم تذكر في أي نصّ آخر من التوراة. وخط الحملة كما سنبرهن، يشير إلى توجه القوات صوب سلسلة جبلية تُدعى اليهودية. وهذا اسم يعرفه الإخباريون العرب

---

(١) يهوقين: الاسم تركيب من يهوه أي الرَّب ومن قين بمعنى عبد، والميم في يهوقيم أو واكيم تقرأ نوناً حسب قواعد الحميرية.

(٢) سفِر الملوك الثاني: الإصحاح ٢٥.

القدماء كاسم رديف لسرو حمير. وليس ثمة سلسلة جبلية في شمال فلسطين تعرف بهذا الاسم. وما يدعى مملكة يهوذا- أي الضفة الغربية اليوم- إنما هو اصطلاح توراتي حديث لا يقوم على دليل جغرافي. وبالطبع يستحيل العثور على كركميش أو مستئيم أو عُنة أو حورون على الطريق إلى القدس؛ إذا ما اعتبرنا أن القدس هي أورشليم؟

٢- إن فلسطين وبلاد الشام كانتا تحت السيطرة الآشورية، وليست هناك إشارات مهما كانت عابرة، إلى تمرد القبائل أو محاولاتها إنجاز تحالف حقيقي مع المصريين. بينما كانت التمردات القبلية مستعرة على الحدود البرية الطويلة مع البادية العربية، وصولاً إلى ساحل البحر الأحمر حيث التنافس المصري- الآشوري المحموم على أشدِّه من أجل السيطرة على خطوط التجارة الدولية.

٣- إن التاريخ يُخبرنا بحقيقة أن كل ممالك العراق القديم تقريباً، نظمت حملات حربية على الجزيرة العربية واليمن، واستهدفت نجران وسرو حمير بشكل مباشر ودون توقف أو انقطاع. لعل تاريخ مملكة الحيرة في العراق أفضل مَنْ يقدم صورة عن طموح العراقيين القدماء، للسيطرة على ساحل البحر الأحمر. (واليوم يمكن للمرء أن يُلاحظ أن الزعماء الذين تعاقبوا على حكم العراق، حتى في الفترات التي كان فيها العراق خاضعاً للاحتلال ثم النفوذ البريطاني ١٩١٤-١٩٥٨، لم يكفوا عن طرح المشاريع أو الأفكار؛ بل الشروع عملياً في محاولات الاقتراب من الساحل، وفي هذا السياق يجب أن توضع حكاية الدخول العراقي إلى الكويت في آب ١٩٩٠، فهي استطراد في حلم قديم ارتبط مع حلم إنشاء دولة قوية في العراق). كانت نجران والسرو الحِمْيَري حلماً عراقياً قديماً، تؤمّن السيطرة عليهما لا وضعاً مريحاً للخاصرة الصحراوية بالنسبة إلى عراق إمبراطوري وحسب؛ وإنما كذلك تأمين تمدد مريح على رمال

الساحل، لمراقبة القوافل التجارية البرية والبحرية. ولذلك لم يكفَّ ملوك الحيرة عن تنظيم الحملات الحربية للسيطرة على نجران، القلب النابض لسلسلة الجبال الحصينة. وحتى في الحقب التي كان فيها المناذرة في العراق يحكمون الحيرة، ويغطسون في مغطس الصراعات الدامية مع الغساسنة في الشام؛ فإن أنظارهم لم تكد لتحيد، أبداً، عن نجران البعيدة. ولعل حملات المنذر بن ماء السماء الملك القوي في الحيرة ٥٥٤ م، والتي تركزت في البادية وصولاً إلى نجران، هي في هذا السياق من الطموح؛ ولم تكن مجرد مطاردات عنيفة للجماعات المُتمردة. كان المنذر بن ماء السماء مدركاً، على نحو حصيف للغاية، للأهداف الاستراتيجية لحروبه في البادية؛ فعدا عن أنها كانت توفر له حرية أكبر على صعيد إنشاء شبكة أمان إزاء التهديدات الفارسية، فإنها كانت تعيد تقديم مملكة الحيرة كمملكة عراقية تتمتع بالقوة والنفوذ، لا مجرد محمية قبلية يديرها الفرس بواسطة شيخ قبلي. ولهذا السبب كانت مطاردات المنذر بن ماء السماء للقبائل تتخذ مع الوقت وتحديداً من العام ٥١٦ وحتى ٥٥٤ م، وهو العام الذي لقي فيه مصرعه في معركة عين أباغ الشهيرة؛ بُعدها الإقليمي كحروب ذات طابع سياسي هدفها المباشر بناء مملكة عربية قوية، يمكن لها أن تلعب دوراً أكبر في تقرير مصائر العرب التاريخية. وبالطبع لم تكن هذه الحروب مجرد محاولات لضمان الولاء التقليدي للقبائل. في هذا الإطار يمكن النظر إلى حملات امرئ القيس - صاحب نقش النمَّارة- أحد أعظم ملوك الحيرة ٣٢٨م؛ والذي كان أول ملك عربي يحمل لقب ملك العرب والعجم، على أنها استطراد في حلم الاقتراب من الساحل اليمني. إن حملات امرئ القيس على نجران والمعروفة في المصادر الأدبية والتاريخية[١] يجب أن تُفهم في سياقها

(١) الحملة على نجران- انظر مثلاً: بروكلمن: تاريخ الشعوب الإسلامية: ٢٢

التاريخي، فهي لم تكن مجرد محاولات للاقتصاص من ملكها شمر يهر عش-يرعش أو لتأديبه؛ بل استهدفت وبشكل مباشر الاقتراب من الساحل اليمني. وسيكون هذا الأمر مفهوماً أكثر، حين نعلم أن الدور الذي لعبته الحيرة في وقف الاضطهادات اليهودية اليمنية لنصارى نجران، كان مُصمماً - في الأصل- للبرهنة على قوة تأثيرها ونفوذها هناك، وليس حُباً بالمسيحية. كانت الحملة على نجران عام ٢٣٨م ذروة هذه السياسة التقليدية التي انتهجتها ممالك وإمبراطوريات العراق المُتعاقبة. وفي هذا الصدد يمكن القول: إن الطبري ترك لنا وصفاً ممتازاً عن هذه الحملة، حدَّد فيه المواضع التي اتجهت إليها؛ إذ اجتاز امرؤ القيس البحر واستولى على بلاد البحرين وبلاد قيس واليمامة - منطقة الرياض اليوم ضمن أراضي المملكة العربية السعودية- قبل أن يحاصر نجران. قال أوس بن عَفراء (انظر ترجمته في معجم المرزباني للشعراء وفي الإصابة):

ماذا يَهيجكَ من دارٍ بفيحانا قفر توهمتَ فيه اليوم عرفانا

بثَّ الجنود ببطن الأرض يطلبهم من بين بُصرى إلى آكام نجرانا

إن تغنّي أوس بن عفراء بالحملة على نجران، لم يكن محض مديح تقليدي للملك يُعيد فيه الشاعر تذكير القبائل بأمجاد المُضَريين، وتمكنِهم من دحر منافسيهم من عرب الجنوب؛ بل كان تعبيراً عن البعُد الحقيقي للحملة الحربية: حلم التوسع باتجاه الساحل.

٤- بهذا المعنى؛ فإن حملة نبوخذ نصَّر على القبائل العربية المتمردة في السراة اليمنية- وليس في فلسطين المُتخيَّلة -هي استطراد في السياسة التقليدية ذاتها التي انتهجها سرجون الثاني وسنحاريب ونبو بلاسر، وقد تحدثت عنها التوراة من دون أدنى إشارة إلى اسم فلسطين. وبهذا المعنى تمّ تلفيق الصورة الفلسطينية لهذه الحروب. إن ما يُدعى في

التوراة بجبال اليهودية- أو مملكة يهوذا في التراث الكتابي- لا يُقصدُ به شمال فلسطين؛ ولايوجد دليل لغوي أو جغرافي على ذلك؛ بل يُقصد به سرو حِمْيَر (ونجران هي في آخر هذا السرو الممتد من صنعاء). لهذا السبب وحده ميز الهمداني كما ميز الجغرافيون اليونانيون القدماء بين فلسطين واليهودية. يقول الهمداني (صفة: ٧٣ انظر الجزء الأول من الكتاب حيث أشرنا إلى الاقتباس نفسه) في سياق نص يعلق فيه على أقوال بطليموس:

وأما سائر أجزاء هذا الربع - أي ربع الأرض عنده- الذي يلي وسط جميع الأرض المسكونة وما يقع في جزيرة العرب منها: مثل أيدوما وأرض سورية وأرض فلسطين، وبلاد اليهودية العتيقة من إيليا وتسمى بالعبرية يرشلم وتعربها العرب فتقول أوراشلم.

إذا كان المقصود ببلاد اليهودية القديمة؛ التي تُعرف باسم إيليا عند بطليموس والهمداني، هو فلسطين على وجه التحديد وليس أي مكان آخر، فلماذا تم تمييزها عن أرض فلسطين وأرض سورية؟ لا ريب أن التقسيم الفلكي الذي يعرضه الهمداني استناداً إلى معارف اليونانيين، يهدف إلى رسم خريطة تتضمن أفضل ما يمكن من التوصيف للطباع البشرية، طِبقاً لتصورات القدماء عن تأثير المناخ في تكوينها. وفي هذا التقسيم يمكن للمرء أن يُلاحظ صرامة التحديد للبلدان القديمة المتجاورة. ودون الحطّ من قيمته؛ فإنه يمثل أكثر التصورات الجغرافية الفلكية رواجاً في عصر بطليموس. ما يقوله هذا الاقتباس من الهمداني وبطليموس ببساطة: أن بلاد اليهودية العتيقة هي جزء من الجزيرة العربية وأنها مكان بعينه في فضاء جغرافي محدد لا صلة له بفلسطين. ولذلك؛ فإن الخطأ الشائع الذي روج له الاستشراقيون والقائل: إن فلسطين عُرفت باسم

إيليا-إيلياء هو خطأ قابل بسهولة لأن يندرج في سياق التضليل. وسوف يتضح المقصود من هذا التحديد على نحو لا يحتمل أدنى لبس، عندما نقوم بتحليل سِفري المكابيين الأول والثاني [١] حيث دارت حروب اليونانيين ثم الرومان هناك. ها هنا فلسطين وهاهنا بلاد عتيقة عرفها العرب واليونانيون ببلاد اليهودية. وبالطبع فهم لم يقصدوا من هذه التسمية البلاد التي نعرفها باسم فلسطين.

وفود آشورية في السراة اليمنية

الاستعداد لحملة تأديب القبائل

لأجل التحقُّق من صحة الأسماء الواردة في نص يهودية-يهوديت، فسوف نتقيد -مبدئياً- بالرسم العبري والعربي، بالتوازي مع ضبطنا لها. يقول النص: إن العاهل الآشوري أرسل موفدين لإبلاغ القبائل بضرورة الالتزام بالمعاهدات والمواثيق المبرمة مع الإمبراطورية، وأن هؤلاء وصلوا، بالفعل، إلى المواضع التي تقيم فيها. وهنا النص:

إلى أورشليم -يروسلم وبيت عنوت- بيت عُنة وكلود - كلواذ وقدش- قَدَس ونهر مصر ورمسيس وأرض جاسان - جازان كلها إلى ما وراء صوعن- صُعن ونوف- نوف وجميع سكان مصر- وجميع شعب مُضَر إلى حدود الحبشة.

(١) إن مراجعة معمقة لهذا السفر سوف تكشف عن المسرح الحقيقي للمعارك ضد الرومان.

الأسماء الواردة في هذا النصّ تجعل منه، بالفعل، نصاً غير مفهوم أو معقول. وهي لن تكون مفهومة أبداً ما دامت قد وضعت في إطار وصف فلسطين. فما صلة الحبشة بقدس؟ وما علاقة جازان اليمنية بحملة حربية على فلسطين؟ وسيكون أمراً متعذراً فهم معاني هذه الأسماء والمقاصد منها، إذا ما تصورنا أن الموفدين اتجهوا صوب الحبشة، بينما نعلم أن الحملة نفسها موجهة صوب فلسطين؟ مثلاً: ماذا تعني بالضبط جملة: (وجميع سكان مصر)؟ هل من المنطقي تخيل العاهل الآشوري الشاب، الذي واجهته المتاعب فور صعوده إلى العرش وثارت القبائل بوجهه، وقد أرسل موفدين إلى جميع سكان مصر طالباً منهم الإذعان؟ إن فهماً أفضل لجغرافية الحملة الحربية؛ يجب أن يلاحظ أنها اتجهت إلى سواحل البحر الأحمر، وليس نحو شواطئ البحر الأبيض المتوسط. وليس ثمة (شعب عظيم وقوي هناك) سوى شعب مُضَر بقبائله الكثيرة والشهيرة، وأهمها كنانة-كنعن سيدة الساحل. (اسمهما التوراتي: كنعان). بذلك يستقيم فهم النص تماماً، فالوفود اتجهت إلى البادية والساحل اليمني. أما عبارة (نهر مصر) في النص فالمقصود بها النيل. وكنا أشرنا في مكان آخر من الكتاب إلى وادي النيل اليمني، وإلى أن القدماء كانوا يسمُّون الوادي نهراً، وهذا أمر شائع ومألوف. ومع ذلك؛ فإن الأسماء وبالصيغ التي تظهر فيها داخل هذا النص، لا وجود لها قط على الطريق إلى فلسطين التاريخية، كما أنها غير موجودة ضمن الفضاء الجغرافي لفلسطين وبلاد الشام، إذْ لم تعرف خرائط العالم القديم أورشليم وقَدَش- قَدَس قرب نهر مصر، كما لا يُعرف (جميع شعب مصر) سواء أكان المقصود به شعب مصر الإقليم، أم قُصِدَ به قبائل مصر، لا قرب فلسطين ولا قرب الحدود مع الحبشة؟ بل إن الصيغة التي تجعل أورشليم مكاناً خاصاً ومنفصلاً عن قَدَش-قَدَس، كما في نص السفر أعلاه، من شأنها أن تحطم الأساس الهش وغير المعقول الذي قامت عليه الفكرة القائلة: إن أورشليم هي القدس؟ ها هنا

موضعان يُدعى أحدهما أورشليم ويدعى الآخر قدس، وهما معاً قرب سلسلة من المواضع بعيدة تماماً عن فلسطين.وأخيراً، أين يمكن لنا أن نجد نوف وصوعن ورمسيس؟

قدس وأورشليم

عرف اليمنيون القدماء أكثر من موضع ومكان في اليمن يدعى أورشليم (أورسلم-ير-سلم). وفي شعر الأعشى الهمداني ورد الاسم بوصفه من المنازل القبلية القديمة في قلب السراة. كما عرفت القبائل العربية سلسلة من المواضع والوديان باسم سلم. هذا يعني أن الاسم شديد الألفة في الثقافة القديمة عند العرب، نظراً لارتباطه بعبادة الإله سلام وبالمعبودة الكبرى سلمى. وبهذا المعنى؛ فإن وجود مدينة السلام أي يروشلم لا يقصد به حصراً المكان نفسه في التوراة. والدليل على ذلك أن بيت بوس قرب صنعاء كانت تُدعى يروشلم أيضاً. لكن أورشليم بلاد اليهودية العتيقة التي اجتاحها نبوخذ نصر؛ كانت مع ذلك مكاناً بعينه وليست موضعاً بإطلاق. إلى هذا كله؛ فإن اليمنيين والعرب، عرفوا ثلاثة مواضع باسم قَدَس اثنان منها قرب وادي شليم-وادي سليم، والثالث جبل شهير إلى الجنوب من تعز يعرف حتى اليوم باسم جبل قَدَس. في هذا الإطار لابد من الإشارة إلى أن نص سفر يهودية- يهوديت يشير إلى (قدس وأورشليم ووادي شليم) على التوالي، بوصفها أماكن بعينها قصدتها الوفود ثم اتجه الجيش الآشوري لتدميرها. ولذلك يتطلب تحديد المواضع تميزاً دقيقاً على غرار ما يفعل سارد النص التوراتي، أي: فكّ الارتباط بين الأسماء الثلاثة وإعادة توصيفها من دون أدنى تدخل في بنياتها اللغوية. سنلاحظ، عند قراءة الشعر الجاهلي، كيف أن العرب عرفوا جبلاً عظيماً يدعى إير غير بعيد عن وادي سلم، كما سنلاحظ وجود جبل

قدس على مقربة منهما. ومن غير شك؛ فإن هذه المعارف الشعرية تتعزز بالتوصيف الدقيق الذي يقدمه الهمداني، بما يؤكد لنا أن الجغرافية الموصوفة في السِّفر، هي جغرافية حقيقية وليست ضرباً من الخيال. قال الشمّاخ (ياقوت: ١: ٣٤٥):

علـى أصلاب أحقبَ أخْدَرٍ   من اللائي تضمنَهن إيرُ

وقال زهير بن أبي سلمى واصفاً جبل إيرُ هذا حيث دارت فيه معارك القبائل:

فإنْ تكُ صرْمَةُ أخذت جهاراً   لغرس النخلِ أرَّزهُ السكير[(١)]

فإن لكم مآقطَ غاشياتٍ   كيوم أضرّ بالرؤساء إيرُ

يقع جبل إير هذا في نجد غير بعيد عن جبل ينوف-نوف أسفل نجران. يقول الهمداني واصفاً الموضعين (صفة: ٢٩٤) ما يلي:

> **ناحية البحرين واليمامة إلى نجد: دفار أسفل نجران. . . وينوف والقواعل جبلان (...) إيرُ جبل.**

وكنا رأينا في فصل حروب داوود، أنه هرب إلى موضع يُدعى قعله - مفرد قواعل- بينما سنرى نوف هذه تتكرر في أشعار إرميا وأشعيا. ولنلاحظ ضبط الهمداني للاسم في صورة إيرُ بالضمة الظاهرة على آخره كما لو كانت حرفاً من أصل الاسم، لا مجرد حركة إعرابية وذلك ما يتطابق مع الرسم العبري (يرو). لا يعني وجود هذا الجبلِ الافتراض التلقائي بإمكانية اعتباره الاسم المقصود يروشلم. وقصارى القول، التأكيد على أن له أصلاً في أسماء المواضع والأماكن في البادية العربية. تعني

---

(١) وادي السكير. وهذا الاسم يرد في التوراة بالصيغة نفسها (السكير).

كلمة إيرُ عند العرب القدماء السماء وريح الشمال؛ والاسم نفسه يطلق، من حيث الدلالة، على جبل شهير آخر هو آرة قرب جبل قَدَس وهما معاً في وادي سليم-وادي شليم في التوراة. يصف البكري (معجم: ٩١) جبل آرة وإلى جواره جبل قَدَس على النحو التالي:

آرة: جبل شامخ أحمر من جبال تهامة يُقابل قدساً وهما - لقبيلة - جُهينة بين حرَّة بني سُليم وبين المدينة.

إننا لا نعرف موضعاً في فلسطين التاريخية قرب وادي شليم، غير بعيد عن أورشليم ونوف يُدعى قدس؟ بينما نجد سائر هذه المواضع في الفضاء الجغرافي نفسه. وإذا ما تصوَّرنا جنود الإمبراطورية وهم يزحفون على هذه المواضع، منتقلين من مكان إلى آخر؛ فإن لمن المستحيل العثور عندئذٍ على توصيف مقبول في جغرافية فلسطين، ذلك أنها لا تعرف مثل هذه الأسماء. ولذا، لابد من إعادة وضع الأسماء في جغرافيتها الصحيحة. تُعد حَرّة بني سُليم وهي من الوديان الشهيرة في البادية، وموطن قبائل عربية قديمة عُرفت ببأسها؛ مكاناًمثالياً يمكن لوفود العاهل الآشوري أن تقصده بهدف إقناع القبائل بالكفّ عن تمردها، والسِّفر يسمي المكان وادي شليم ويضعه قرب قَدَش- قَدَس تماماً كما يفعل الهمداني والبكري. قال مُزرّد بن ضِرار:

وأنتَ امرؤ من أهل قَدَس آرة   أحلتكَ عبد الله أكنافَ مُبهلِ

يميز الشاعرُ جبل قدس هذا عن سائر الجبال والمواضع التي تحمل الاسم نفسه؛ وذلك بجعله مقروناً بجبل آخر آرة. بما يذكر بالتمييز التوراتي لجبل قَدَس؛ إذ هناك ثلاثة مواضع في التوراة تحمل الاسم نفسه منها قَدَش المسماة قَدَش برنيع -سِفر التكوين وقصص الخروج- والتي لا يعرف

علماء التوراة معناها ولا سبباً لتسميتها، ومنها جبل قَدَش-قَدَس الذي يظهر على مقربة من وادي شليم ومن أورشليم أيضاً؛ فضلاً عن قَدَش أخرى في منازل يهوذه. هذا التمييز الدقيق للمواضع التي تحمل اسم قَدَس في التوراة، هو ذاته التمييز الذي حرص عليه الهمداني والشعر الجاهلي. وبالفعل هناك ثلاثة مواضع تحمل اسم قَدَس أحدها إلى الجنوب من تعز، والآخران قرب وادي بني سُليم. لكل ذلك؛ فإن لا دليل لدى التوراتيين على أن القدس العربية هي أوشليم؟ وذلك ما سنراه في القسم الخاص بمشكلة القدس. إذا ما سرنا على خطا موفدي العاهل الآشوري؛ فإن قَدَس ستكون وجهاً لوجه أمامنا، غير بعيد عن وادي عُنَّة-بيت عنوت، في سلسلة جبال السريح اليمنية إلى الجنوب -اليوم- من مدينة تعز (بيت عُنّة هي من منازل سبط نفتلي وعلى مقربة تماماً من جبل قَدَس ببضع كيلومترات). إننا لا نعرف مثل هذا المكان في فلسطين، بينما يمكن للسائر في تهامة اليمن مُتجهاً صوب زبيد، أن يشاهد أعظم وأشهر مخاليف اليمن القديم: وادي عُنَّة (المُندثر اليوم حيث لا شيء سوى الأطلال والذي بات من الأودية الموبوءة كثيرة الوخم). ومن غير شك؛ فإن وجود مملكة يمنية قديمة كانت مزدهرة وفيها قبائل قوية، تُدعى بيت عُنّة على مقربة من جبل قَدَس، أمر لا يمكن تصور حدوثه لمجرد المُصادفة. وإذا كان لمثل هذه المُصادفة أن تحدث وتتكرر فلماذا لا تحدث مع فلسطين؟

المثير للاهتمام أن بيت عُنّة هذه تقع على مقربة من رافد من روافد الحجر يُدعى قمران- انظر قمران قرب البحر الميت وفيها عثر فيها العلماء على ما يُعرف اليوم بلفائف البحر الميت-. قال الشاعر اليمني طفيل الغنوي- من قبيلة غني- في وصف وادي بيت عُنّة:

إذا انصرفت من عُنّةٍ بعدَ عَنّةٍ وجَرَسٍ على آثارها كالمؤلب

إلى قوله:

فـلـمـا بـدا حَـزْم الـقـنـان وصـارةٌ   ووازن من شرقي سلمى بمنكبِ

وهذه كلها مواضع سبق لنا التحدث عنها في منازل الأسباط. يقع وادي عُنّة على مقربة من زبيد، وفيه تصبُّ مياه نحو خمسين وادياً مجاوراً لتجتمع المياه أخيراً في البحر الأحمر. وهذا سر ازدهاره كمملكة يمنية قديمة، وسرّ خصوبة أرضه ونشاط قبائله ومياهه الغزيرة، التي اعتبرت من بين أهمّ عوامل الأزهار الذي سجلته الأشعار والأمثال الشعبية الدارجة حتى اليوم. وغير بعيد عن هذا المخلاف تقع صيدا اليمنية وهي بلد ساحلي تماماً كما وصفته التوراة. ولذلك يبدو مفهوماً قول التوراة أن الموفدين الآشوريين توجهوا إلى بيت عُنّة وصيدا، كما يصبح مفهوماً قول كاتب السِّفر، إن سكان صيدا -على الساحل- ارتعدوا وهم يسمعون أخبار الحملة الحربية؛ إذ لا توجد صيدا ساحلية في فلسطين يمكن الوصول إليها من بيت عنوت أو من القدس، كما أن صيدا اللبنانية- إذا افترضنا أنها هي المقصودة- بعيدة كل البُعد عن هذا الفضاء الجغرافي المرسوم. فأين صيدا من الحبشة؟ وهل يمكن التوجه من القدس الفلسطينية إلى صيدا اللبنانية مباشرة؟ يقول الهمداني في وصف وادي عُنّة (صفة: ١٣٢-١٣٣) ما يلي:

ووادي زبيد وهو بعيد المآتي (...) وأول مسايله من أشراف الشرفة. فتلتقي بسيل السحول ثم أودية عُنّة ويجمعها حجر قمران، فيسقي جميع ماحفَّ به إلى البحر. ثم يتلوه وادي سهام ورأسه نقيل السود- وبيت بوس وهي أورشليم: المؤلف-فيهريق إلى وادي العرب ومساقط جُبلان ريمه، ثم يتلوه حضُور وبلد الصيد.

حسب هذا الوصف الدقيق والمتسلسل للمواضع؛ فإن وادي عُنّة يقع على مقربة من الشرفة -انظر مشرفوت في التوراة- وقرب قمران. وهذه

كلها مواضع ساحلية شهيرة في اليمن. والأهم أن السائر في وادي عُنَّة من زبيد على الساحل متوجهاً صوب صنعاء سوف يصل إلى بيت بوس-بيت بوس في حروب داوود ومنازل يهوذه، والتي تصفها التوراة بأنها أورشليم ولا تصفها بأنها قَدَش- قَدَس. بل إن السائر في هذه الوديان مُتتبعاً خطا الهمداني ويشوع وصموئيل وكاتب السِّفر المجهول، سوف يصل إلى وادي العرب-ها-عربه وريمه- رمه، قبل أن ينعطف باتجاه بلد صيدا ماراً بالمملكة اليمنية القديمة مخلاف حضُور-حصور. هذه الخريطة المثيرة لا يمكن مماثلتها مع الخريطة الفلسطينية؛ فأسماء المواضع الواردة تبزغ أمامنا بصيغها العربية المُتطابقة والمنسجمة مع تصور كاتب السِّفر لخط الحملة الحربية. ها هنا سكان صيدا الساحلية الذين ارتعدوا من أخبار الحرب القادمة إليهم، وها هنا أورشليم القديمة بيت بوس (انظر الوصف التوراتي لبيت بوس في حروب داوود وانظر الخريطة الخاصة بمعركة داود للاستيلاء على حصن صهيون). وإذا ما اتجه السائر صوب جنوب تعز، فسوف يصل إلى جبل قَدَس المبارك في سلسلة جبال ذات السّريح[١]. ولكن، وبمراجعة النص التوراتي الذي يحدد ويرسم أسماء المواضع؛ فإن السائر من وادي عُنَّة سالكاً الطريق الساحلي نزولاً باتجاه الطائف، يمكنه أن يتجه مباشرة إلى جاسان-جازان على الساحل، وهناك سيرى بأم عينه شعب مُضَر العظيم، وهو ينتشر في الساحل المعروف بساحل كنانة؛ بل يمكنه أن يرنو ببصره إلى الحدود البحرية مع الحبشة. أما إذا واصل طريقه من صنعاء صوب النجد اليمني، فسوف يصل إلى نوف- ينوف ووادي صاع- صُعن الذي تقع فيه لدة التوراتية وهي عند الهمداني وفي الشعر الجاهلي لذة بالذال المعجمة، وتجمع في صورة اللذات والتي قال فيها المُتلمس:

---

(١) الصريح في نطق أهل اليمن اليوم.

والـغـمُـر والإحـسـاء والـلـذ ات مــن صــاع وديـسـق

ها هما وادي صاع- صعن، وهذا هو الفضاء الجغرافي لخط رحلة موفدي العاهل الآشوري، الذين حملوا للقبائل العربية وبني إسرائيل رسائل التهديد بالحرب. وهؤلاء سلكوا الطريق الساحلي من عنّة إلى صيد، ثم إلى وادي صاع. قال عائذ بن عبد الله بن مالك[١] (صفة : ٣٢٨) :

لقد رُدتُ صيدا والسحولين بعدهُ وعُـنَّـة والـسـيـال بـيـن الـذنـائـبِ

وفي هذا الحيز الجغرافي تقع رمسيس التوراتية، وهي حسب ضبط الهمداني الرسيس من أهم وأقدم وديان البادية العربية في حِمى ضرية- بمعاملة الميم كأداة تعريف منقرضة مثل: مكمس: الكامس يا ابن معم في: يا ابن العم. قال زهير :

لِمَنْ طلل كالوحي عافٍ منازله عـفـا مـنـه فـالـرَّسيس فـعـاقـلـهُ

فرقـد فـصـارات فـأكـنـاف مـنـعـج فـشـرقي سـلمى حوضه فأجاوله

هذه هي رمسيس-الرسيس. وقال لبيد (معجم، ط، بيروت: ٢ : ٢٤٨) :

طـلـل لـخـولـة بـالـرَّسيس قـديـمُ فـعـاقـل فـالأنـعـمـيـن رسـومُ

والرَّسيس هذا غير الرَّس الوارد في حروب داوود، وكنا أشرنا إليه بوصفه من المواضع اليمنية في ناحية صيهد. وفي هذا الفضاء الجغرافي يمكن لنا أن نرى كلود-كلواذ التي خاطب العاهل الآشوري سكانها طالباً منهم الهدوء. إننا لا نعرف موضعاً في فلسطين يُدعى كلود[٢]، ولا نعرف مصدراً ثقافياً موثوقاً به ذكر اسم هذا المكان، كما لا نعرف أية سجلات

(١) لا أعرف هذا الشاعر ولا نسبه.

(٢) من بين الأسماء الغربية الشائعة كلود المأخوذ من التوراة.

أو وثائق أو نقوش ذكرت الاسم؛ ولكننا نعرف موضعاً قديماً ومندثراً عُرف باسم كلواذ -بالذال المعجمة التي لا تعرفها العبرية- وهو موضع قديم في بلد همدان. يرتبط موضع كلواذ بأسطورة انهيار سد مأرب في المرويات التاريخية، حيث نصح كاهن أسطوري يُدعى عمران[1] -انظر وادي عمران قرب صنعاء عند الهمداني- قبائل اليمن قبيل انهيار السد بالتوجه إلى جبال تهامة. وكلواذ هذه في المرويات اليمنية من أرض وادعة النجدية المُتصلة بسراة عذر وهنوم وبلد الجواشة والشاكريين. قال الراجز (ياقوت: ٤ : ٥٤٢):

كـأن أصـوات الـغـبـيـط الـشـادي   زيـرُ مـهـاريـق عـلـى كـلـواذِ

والكلواذ حسب تأويل القدماء الذين نقل عنهم ياقوت روايته، اسم المكان الذي دفن فيه تابوت العهد[2]، حيث وضعت فيه النسخة الأصلية من التوراة التي نزلت على موسى. ويبدو أن الاسم يرتبط بمعارك قبلية ضارية شهدت سقوط تابوت العهد في يد ها-فلشتم- الفلست كما في

---

(١) وفي الأنساب الأسطورية يقال موسى بن عمران.

(٢) ظلت صورة تابوت العهد غامضة في التوراة وفي تأويلات الاستشراقيين، وثمة من يربط بين الكلمة وبين كلمة تابوه (محرّم). بيد أن العرب القدماء رسموا كلمة تابوت في صورة تابوه (انظر لسان العرب). ولا يبدو صحيحاً ما زعمه فرويد في (التابو والطوطم) من أن كلمة Tapo هي الكلمة التي لا وجود لها إلا عند القبائل البدائية الأفريقية؛ والأدق أنها كلمة عربية بمعنى (تابوت) أي المحرّم، بما أنه يرتبط بفكرة الحفاظ على (الكتاب المقدس- الشريعة). ولا علاقة لهذه الكلمة بما يدعى العقل القبلي: Tribl Mind الذي ينتج، وحده، هذا النمط من التحريم. وما تقوله المرويات العربية القديمة من أن بني إسرائيل حفظوا شريعة موسى، أي الألواح التي كتبت عليها نصوص التوراة، داخل التابوت وكان يحمل معهم في أسفارهم وحروبهم، وأنه لم يفتح قط، ولكن كان يُستعان به لجلب الانتصارات في الحروب؛ إنما يندرج في هذا السياق من نظام التحريم (التقديس).

رواية صموئيل؛ إذ دُفن تابوت العهد في هذا المكان وصار يُعرف عند القبائل بالكلواذ. يعطي ياقوت دليلاً على صحة روايته وسلامة فهمه لمعنى الاسم، الذي صار اسماً لمدينة بعينها في بلد همدان الرواية التالية وهي منقولة حرفياً عن كتاب جبهة الأدب لمحمد بن الحسن الحاتمي في رده على المتنبي. قال الحاتميّ:

قلتُ للمتنبي: أخبرني عن قولك:

طــلــب الأمــارة ونــشــوة ما بيـن كـرخـايـا إلى كـلـواذى

فمنْ أين لك هذه اللغة في كلواذى؟ وما أحسبك إلا أخذتها عن الملاحين. قال: وكيف؟ قلتُ: لأنكَ أخطأتَ فيها خطأ تعثرت فيه ضالاً. كِلواذ بكسر الكاف وإسكان اللام وإسقاط الياء. قال وما الكِلْواذ؟ قلتُ: تابوت التوراة وبها سميت المدينة). وهذه أقدم رواية بين أيدينا عن اسم هذا المكان الذي يرتبط بالحملة على القبائل العربية وبني إسرائيل، وهي إلى هذا، أوثق وأدق رواية يمكن الحصول عليها. فهل هي مصادفة محض أن ترتبط كلواذ بالتوراة في المرويات العربية، وأن تكون في الآن ذاته اسماً لمدينة قديمة من مدن اليمن؟ بينما ترتبط في سِفر يهوديت بالحملة الآشورية على السراة اليمنية؟ ولماذا لا نعرف اسم كلواذ في فلسطين؟

حول نوف التوراتية وقبائل مُضَر المتمردة

تأملات في مراثي أشعيا وإرميا

قبل أن نشرع في تحديد ما تبقى من أسماء المواضع والأماكن، التي توجه نحوها رُسل العاهل الآشوري أو التي استهدفتها الحملة الحربية على السراة اليمنية؛ سوف نتوقف عند موضع نوف-ينوف لإزالة الأوهام

الاستشراقية القائلة: إن ينوف التوراة هي من مدن الدلتا المصرية، وأن الأصل فيها هو ممفيس-بقلب النون ميماً وإلحاق السين وحذف الواو وإضافة ياء وسطية-. وهذا قلب تعسفي للكلمة من أجل إرغامها على التماثل مع اسم مدينة مصرية. يصدر هذا الوهم عن وهم آخر: الاعتقاد أن (شعب مصر) أو (جميع سكان مصر) إنما قصد بهما مصر الإقليم العربي. وفي الواقع لا يُعقل أن العاهل الآشوري كان في وضع يؤهله لمخاطبة أهل ممفيس وشعب مصر كلها، بوصفهم من رعايا إمبراطوريته؟ ولماذا تنفرد ممفيس عن بقية المدن بحيث يخاطبها وحدها من دون بقية مدن مصر؟ هل يُعقل أن تتمرّد مدينة مصرية واحدة ضد الآشوريين وبحيث يضطر العاهل الآشوري إلى توجيه إنذار لها من دون بقية المدن المصرية؟ وهل يذكر لنا التاريخ العراقي القديم أن ممفيس المصرية شكلت تهديداً من أي نوع للإمبراطورية الآشورية؟ أو أن سكان مصر كلهم كانوا يشكلون مثل هذا التهديد؟ وبحيث يخاطبهم العاهل الآشوري بهذه الطريقة الاحتقارية؟ لا يوجد أدنى قدر من الحقيقة التاريخية في هذا التصور، كما لا يؤيد التاريخ مزاعم من هذا النوع حتى في الحدود الدنيا، وليس ثمة أي واقعة تاريخية موثقة يمكن أن تنسب للآشوريين فضل السيطرة على سكان مصر. تسجل التوراة اسم هذا الموضع في صورة ينوف، وهي كما رأينا من بناء الأسماء العبرية واليمنية القديمة نوف -بإسقاط الياء تلقائياً مثل يكرب في كرب ويعرم في عوم-. والموضع نفسه تسجله مراثي أشعيا في الصورة ذاتها مقترناً مع اسم شعب مُضَر - قبائل مُضَر- كما في (أشعيا: ١٩: ٥: ٢٠- النص العربي لتسهيل عودة القراء إلى النص):

قد جُنَّ رؤساء صوعن (صُعن)

وانخدع رؤساء ينوف

وأضلّ مصرَ حجار الأساس في قبائلها.

وهذه ترجمة غامضة وغير مفهومة؛ فما علاقة مصر بالقبائل؟ إننا نتحدث عن دولة عظيمة كانت تتنازع مع الآشوريين حول النفوذ السياسي والعسكري؟ وما علاقة نوف وصوعن؟ إن تأملاً عميقاً في مرثية أشعيا وهي برأينا من أشعار المراثي القديمة التي نجد ما يماثلها في الشعر الجاهلي (شعر الرثاء في طفولته البعيدة) سوف يقود إلى التساؤل عن المعنى الحقيقي للجملة: وأضلّ مصرَ حجار الأساس في قبائلها؟ إذ المقصود فيها قبائل مُضَر التي خدعت وانساقت في حركة التمرد على الآشوريين. كان النبي- الشاعر أشعيا سياسياً حصيفاً مُدركاً للمخاطر الناجمة عن هذا التمرد، وسعى بكل جهده إلى الوقوف بوجه الكهنة في السراة اليمنية، وإلى إعاقة سيطرتهم على مشاعر القبائل ومواجهة تضليلهم وترويجهم للفكرة الحمقاء القائلة بإمكانية دحر الإمبراطورية الآشورية. ولذا بادر إلى إشهار نقده اللاذع للاستراتيجية التي اتبعها الكهنة، وأساسها التحالف مع مصر-الإقليم العربي- ضد آشور. ومن الواضح -هنا- أن اسم مصر كان مخادعاً، فهو يرسم في العبرية على نحو مماثل لاسم مُضَر، أي في صورة مصريم[(١)] -والميم أداة الجمع: المُضريين- والعبرية لا تعرف حرف الضاد المُعجمة. وبسبب هذا الوهم جرى خلط الاسمين مصر ومضر. إنه لمن المنطقي التفكير بأن من الصعب، بالفعل، تقبل فكرة قيام نبوخذ نصَّر بمخاطبة شعب مصر الإقليم بوصفهم قبائل؟ ومن الصعب كذلك توقع حدوث التباس عند أشعيا، بحيث يخطئ في قصيدته فيصور مصر- الدولة العظمى- في صورة قبائل مخدوعة؟ بينما سيكون أمراً منطقياً التفكير بالتالي: يحذر أشعيا بني إسرائيل وقبائل العرب كلها من سوء تقدير قوة وجبروت الآشوريين. ومن بين هذه القبائل التي يتوجه إليها

---

(١) أداة الجمع عند الحميريين اليمنيين هي الميم (الياء والميم في العبرية) حميرم- الحميريون، مصريم - المُضَريون.

بالتحذير قبائل المُضَريين ونوف والقبائل المقيمة في وادي صاع-صُعن- بإلحاق النون الكلاعية. والأمر ذاته ينطبق على مراثي إرميا، الذي انتهج السبيل نفسه تقريباً في مراثيه. يقول إرميا في قصيدة أخرى يُحدد فيها علاقة نوف بقبائل مُضَر النص العربي: ٤٦ : ١٧ : ٢٨):

أيتها الساكنة بنت مصر

فإن نوف تصير خراباً

ودمارا لَّا ساكن فيها

يصعب في هذا المقام تخيُّل أن المقصود بمصر هنا البلد العربي؛ بينما يمكن فهم النص جيداً إذا ما قرأنا الاسم مصريم- مصرم في صورة المُضَريين:

ينوف يا ابنة المُضَريين

أيتها الوادعة.

خراباً لا سكن فيه

ودماراً تكونين

وبما أن العبرية تستعمل حرف الصاد كحرف بديل للضاد المُعجمة التي تفتقدها مثل: أرض في ء رص، وحضور في حصور- فإن المقصود من مصريم- مصرم يصبح مفهوماً ويستقيم فهم مقاصد المرثية بصورة صحيحة. يرثي إرميا موضع نوف-ينوف حيث أقامت بطون قبائل مُضَر، التي انساقت وراء التمرد على الآشوريين، ولذا فإن مصيرها سيكون هو الخراب والدمار. هذا هو فحوى التحذير وهذا هو المكان المقصود: ينوف وليس ممفيس المصرية[1] وبالطبع، لا يمكننا تصوُّر الآشوريين وهم

---

(١) قلب اسم ينوف إلى ممفيس من أعجب ما أنتجه المخيال الاستشراقي التعسفي. انظر ملاحظات المحققين في النسخة العربية من التوراة.

يهددون مدينة ممفيس المصرية إذا ما كانوا توجهوا بالفعل إلى فلسطين، وذلك بسبب المسافة الشاسعة بين المكانين. كما لا يمكننا تخيل إرميا وقد تكفل بتحذير ممفيس المصرية، بينما تواجه المدن والمواضع التي يقيم فيها بنو إسرائيل، الخطر المباشر مع تقدم الجيش الآشوري؟ وللتدليل على صحة هذا الاستنتاج وأن إرميا، مثله مثل أشعيا، كان أكثر تبصُّراً من كل الساسة في بلاد اليهودية العتيقة، بالعواقب الناجمة عن استراتيجية العداء للآشوريين وأن تحذيراته كانت موجهة للكهنة؛ سنأخذ المقطع التالي (سفر الملوك الثاني: ١٦ : ١٩ : ١٧ : ٩) الذي يفسر المقاصد من الاسم مصريم:

> **وعلم أشور أن هوشع متآمر عليه. وقد أرسل رُسلاً إلى سوء ملك مصر، ولم يؤدِ الجزية كما كان يفعل كل سنة. فقبض عليه ملك آشور وجعله مقيداً في السجن.**

لا يعرف التاريخ المكتوب مثل هذه الواقعة. ولم يحدث قطّ أن فرض الآشوريون الجزية على أي ملك مصري، ولم يحدث أن تمكنوا من إلقاء القبض على أيٍّ من ملوك مصر المعروفين، ومن ثم الزج به في السجن لامتناعه عن دفع الجزية السنوية. كما أن مصر لم تكن، في أي وقت من التاريخ تدفع الجزية للآشوريين. فهل كان كتبة التوراة يتخيلون الوقائع ويلفقون القصص؟ أم أن الأوربيين هم الذين قرؤوا التوراة بطريقة خاطئة وهم مَنْ تخيَّل هذه الأحداث؟ وهل ما نراه في هذه النصوص محض تخيلات؟ ولكن: إذا ما قُرئ الاسم مصريم- مصرم مرة أخرى، في صورة المُضَريين؛ فإن المقصود من النص سيكون واضحاً: لقد تآمر هوشع أحد ملوك بني إسرائيل على الإمبراطورية الآشورية، وحرّض الملك سوّء ملك قبائل المُضَريين على الامتناع عن تقديم الجزية السنوية

للآشوريين. ولذا سارع الآشوريون إلى إلقاء القبض على الملك سوّء ملك قبائل مُضَر الساحلية وزجّوا به في السجن. هذه الواقعة ستكون مفهومة ومقبولة من منظور تطور العلاقات التقليدية بين الإمبراطوريات والقبائل، وهي تشير إلى الحقيقة التالية: لقد تورطت قبائل المُضَريين في عصر سلالة بني سوّء، وبدفع وتشجيع من كهنة اليهودية في السراة الحميرية، بانتهاج سياسة عداء مكشوفة للآشوريين. هذا الإطار التاريخي للواقعة ينسجم، كلياً، مع تاريخ الحملات التأديبية التي قام بها الآشوريون ضد القبائل العربية على ساحل البحر الأحمر ونجران. ودليلنا على ذلك أننا نعثر- في أنساب القبائل العربية في ساحل كنانة-على البطن القبلي المتمرد نفسه: بنو سوّء. إليكم ما يقوله الهمداني (صفة: ١٣١):

سراة الخال لشاكر، نَجْدُهم خثعم وغورهم قبائل من الأسد بن عمران، ثم سراة زهران من الأزد وغامد والحر، نجدهم بنو سواءة بن عامر، وغورهم لهب. وبنو سواءة خليطي والدعوة عامرية.

ها هنا بنو سواءة -بنو سوّء (والضبط الصحيح للاسم هو كما عند الهمداني الأكثر خبرة في أنساب العرب وقبائل اليمن بين كل المؤرخين). وهؤلاء ينتشرون في الساحل بين سراة الخال وزهران غير بعيد عن نجران القديمة. وكما يُلاحظ من نصّ الهمداني؛ فإن هذا البطن القبلي اندمج- مع الوقت- في بني عامر الذين حددنا- في صفحات سابقة من هذا الكتاب- مواطنهم على الساحل. بهذا المعنى يصبح واضحاً كل الوضوح أن إرميا حذر من خطورة انسياق القبائل المُضَرية- الكنانية في نوف وراء سياسات التمرد على الإمبراطورية الآشورية، والتي كان كهنة بلاد اليهودية في سرو حمير، يشجعون على اتباعها، وهي أدَّت -بحسب نص سِفر الملوك الثاني- إلى سقوط الملك المُضَري سواءة في قبضة الآشوريين. إن

تصحيح الواقعة التاريخية المُلتبسة، بإعادة تركيب منطوقها الاستشراقي، هو الذي يمكننا من رؤية مسرح الحملة العسكرية على بلاد اليهودية في السراة اليمنية على حقيقته. كانت نوف في قلب الأحداث، وليس ثمة ما يجمعها مع ممفيس المصرية المزعومة سوى خيوط واهية من نسج مخيال غربي مهووس بمصر. قال امرؤ القيس (معجم البكري ١١٠١) واصفاً نوف- ينوف المندثرة على مقربة من جبل لبونة- انظر جبل لبونة في التوراة:

كـأنّ دثـاراً حَـلّـقـت بـلـبـونـةٍ عُقاب ينوف لا عقاب القواعلِ

ميدان المعارك

استناداً إلى التسلسل الوارد في هذا السفر؛ فإن الحملة الحربية بدأت باحتلال كليكية وتحطيم جماعات قبائلية لا وجود لها في فلسطين قطّ؛ بل هي عاشت في البادية العربية حتى اليمامة. إن الجغرافيين القدماء لا يعرفون هذه الجماعات، ولم يذكروا لنا أنها عاشت في فلسطين أو بلاد الشام التاريخية؛ فيما نملك، على الضد من ذلك، أدلة وبراهين قويةعلى أنها أقامت في البادية العربية. ومن بين هذه الجماعات القبيلة العربية لوذ التي تسجل التوراة اسمها في الصورة ذاتها لود- بالدال المهملة، لأن العبرية لا تعرف هذا الحرف المُعجم-. قال المُتلمّس:

إن العلافَ ومَنْ باللوذِ ومن حَضَنٍ لـمـا رأوا أنـه ديـنٌ خـلابـيـسُ

وقال عمرو بن معد يكرب-كرب الزبيدي الفارس اليمني الشهير:

لقد أحميتُ ذات الروض حتى تـربّـعـهـا أدامـى الـنـعـامِ

يسيرُ بين خطم الّلوذ عمرو فلوذ القارتين إلى برامِ
فصفح حبونن فحليفَ صبحٍ فنخل إلى رنين إلى بشامِ

وسائر هذه المواضع هي في السراة اليمنية، ورد بعضها في التوراة مثل: أدامى، القارة، حلف، بشام. واللوذ في هذه القصيدة اسم مكان كما هو اسم الجماعة القبائلية التي تعود أنسابها إلى بني عامر. وقال كثير:

سَقَى الكُدْرَ فاللَّعباء فالبرقِ فالحمى فلوذ الحصى من تغلمين فأظلما

من المهم ملاحظة أن المواضع الواردة في قصيدة كثير، تقع في السراة اليمنية وليس في أي مكان آخر؛ وقد ورد ذكر بعضها في التوراة مثل برق ولوذ غير بعيد عن جبل أظلم. لقد كانت هذه المواضع- في الماضي البعيد- يمنية الطابع، ولكنها أصبحت في وقت ما قبل الإسلام من منازل بني سليم، ضمن ما سوف يُعرف باليمامة (انظر معجم البكري: ١١٦٥، ٣١٦، ٤٥٥، ٤٣٨). وعند الهمداني تحديد أدق للمكان فهو أنف اللوذ - بالذال المُعجمة- من مواضع الجوف اليمني. يقول (صفة: ١٥٤ - ١٥٦):

الجوف: وهو مُنفهق من الأرض بين جبل نهم الشمالي الذي فيه أنف اللوذ وأوبن (..) وما أقبل من بيت بوس.

ها هنا جبل اللوذ- لوذ على الطريق من الجوف اليمني إلى بيت بوس- بيت بوس وهي أورشليم كما في التوراة. وهذا تطابق لا مثيل له مع النص التوراتي، على صعيد توصيف خط الحملة الحربية الآشورية في سراة اليمن. أما القبيلة الأخرى التي سحقها الجيش الآشوري فهي تُدعى فود؛ وقد ذكرها القدماء من العرب بالصيغة ذاتها الواردة في التوراة -

فود- بوصفها اسماً لمكان وقبيلة بدوية (معروفة جيداً عند الإخباريين العرب القدماء) وورد ذكرها في بيت شهير لأبي صخر الهذلي (ياقوت: ٤ : ٣١٦) كاسم لجبل من جبال العرب أقامت فيه القبيلة نفسها. قال:

بنا إذا أطرتْ شهراً أزمّتها وأزنتْ من ذرا فود فأرياد

وبالطبع لم يبقَ من أثرٍ لهذه المواضع المدمرة؛ ولكن الشعر القديم حفظ لنا بقية منها في الذاكرة القبائلية تساعدُ على تتبع وجودها، بالتلازم مع مواضع معروفة مثل جبل أظلم -في شعر كثير- وأدامى -في شعر عمرو معد يكرب الزبيدي- ومثل تغلمين وأرياد. وهذه مواضع لا وجود لها في فلسطين التاريخية بكل تأكيد، بينما يمكن الاستدلال إليها في البادية العربية وسراة اليمن كما هو واضح من القصائد. في هذا السياق يقول النص التوراتي ما يلي:

وقع الخوف وارتعد سكان الشاطئ في صيدا وصور وعكن وجميع سكان تمنع (٢: ١١:١٨)

إذا ما أخذنا هذا التسلسل بنظر الاعتبار؛ فإن مدينة صور التوراتية تقع على مقربة من عكن-عك وتمنع- منع. وبالطبع ليس ثمة -في خريطة فلسطين التاريخية أو بلاد الشام القديمة- ما يشير إلى معرفة السكان بهذه الأسماء. وسبق لنا تحديد صور هذه بوصفها مدينة يمنية زائلة، دارت حول احتراقها ودمارها قصص ومرويات كثيرة وردت في كتب الإخباريين العرب (صفة: ٢٠٣) وكانت تقع في مخلاف جيشان، الذي لم يعد بدوره موجوداً إذ اختفى ولم تتبق منه سوى أطلال. حسب وصف الهمداني؛ فإن صور اليمنية تقع إلى الغرب من عدن بمحاذاة البحر، ومن ثم فهي مدينة بحرية تماماً كما وصفتها أسفار التوراة، وإلى الجوار منها وادي صيد-

صيده الشهير الذي كان مخلافاً عامراً من مخاليف اليمن. وبينما لا توجد في فلسطين القديمة مدينة أو موضع يُدعى تمنع-منع على الطريق إلى صور وصيدا؛ فإن منازل منع اليمنية -كما رسم اسمها الهمداني- تقع على الطريق بين جُرش وصَعْدة. أما عكن-عكنه فليست سوى بلاد عك- بإلحاق النون الكلاعية القبيلة العربية الأكثر شهرة في التاريخ القديم، وقد وصفها الهمداني في المكان نفسه ضمن الفضاء الجغرافي، الذي يجمع بلاد همدان وشاكر ونجران وصعدة في الجوف اليمني. يقول الهمداني واصفاً بلاد عك-عكن القديمة (صفة: ٢٢٢) ما يلي:

فهذا ظاهر بلد حاشد. فأما بلد حاشد فأولها لاعة (....) وبلاعة جبل جرابي في أسفلها لعك، وهو أول بلاد عك من هذا الصقع، وهو يتصل من بلاد عك بالفاشق (...) وجبل المضرب لعك وقهيمة لعك.

وإليكم وصف الهمداني لوادي منع في المكان نفسه (صفة: ٢٣٥):

من جُرَش إلى صَعْدَة: تخرج من جُرَش قصد صعدة على بلد جنب: وادي بني بشر (...) ثم وادي منع.

على هذا النحو تبدو المواضع الواردة في السِّفر التوراتي متجاورة بالفعل، وهي كما نلاحظ من وصف الهمداني، متجاورة كذلك وتقع في الفضاء الجغرافي ذاته. بينما لا نجد دليلاً مقنعاً على وجود المواضع الموصوفة في السِّفر التوراتي ضمن خريطة فلسطين التاريخية. لهذا السبب وحده يصبح الحديث عن وجود خطأ وقع فيه كاتب السِّفر، تعبيراً عن جهل فاضح بجغرافية المكان الموصوف في التوراة. وبكل تأكيد تشير المواضع المذكورة إلى الخط الحقيقي للحملة الحربية الآشورية على

الساحل اليمني، من أجل إخضاع قبائله المتمرِّدة ولتأديب القبائل العربية التي شاركت في العصيان، وبكل تأكيد لم يكن هدفها فلسطين مثلما هو شائع. وعندما تناهت أنباء الحملة الحربية إلى أسماع القبائل والجماعات المُتمردة؛ سارع بنو إسرائيل المقيمون في سلسلة جبال اليهودية، وعبر كهنتهم الذين قادوا حملة التحريض على نبوخذ نصَّر، إلى إرسال رسائل موجهة لسكان السمرا- السامرة في الرسم العربي الشائع، وإلى سكان كونه وبيت حورون وبلمائين ويريحو-أريحو[1] وإلى سكان موضع كبه - كوبه في الرسم الشائع وعزورة- عزور ووادي شليم-وادي سليم، طالبين منهم قطع الطريق على القوات الآشورية لمنع تقدمها في السراة الجبلية الوعرة؛ وذلك من خلال احتلال رؤوس الجبال والممرات الضيقة وتسوير القرى الجبلية، والمسارعة إلى التزود بالمؤن استعداداً لحملة مقاومة مضادة وطويلة. وحسب النصّ التوراتي؛ فإن رسائل الكهنة إلى الجماعات القبائلية المختلفة هدفت إلى حشد القوى، لإعاقة سقوط اليهودية ومركزها الرئيسي نجران بأيدي الآشوريين، بوصف ذلك تطوراً يشير إلى نهاية أول ديانة توحيدية عربية انطلقت من اليمن. إننا لا نعرف كُبه- كوبه ولا كونه- كونا قرب عزوره وأريحا، كما لا نعرف موضعاً فلسطينياً يُدعى بلمائين- بلما قرب حورون. وإذا ما تقبلنا فرضيات الغزو الآشوري لفلسطين مثلما تخيّله التوراتيون؛ فإن لمن المستحيل البرهنة على وجود وادي شليم في فلسطين؟ وبينما نستطيع القول بثقة: إن وادي شليم هو من الوديان المعروفة في الجزيرة العربية، ويقع بالفعل على مقربة من جميع المواضع الواردة في توصيف كاتب السِّفر التوراتي؛ فإن أحداً لا يستطيع الادعاء

---

(١) حول حرف الواو الملصق بآخر الكلمة في اللغة العبرية سوف نعطي المزيد من الأمثلة عن قواعد اللغة الحميرية وكيفية استخدامها لهذا الحرف في الأسماء والأفعال: مثلاً ضمهو: بمعنى أرضاهم. نثعتهمو: دارهم. أفرسهمو: خيولهم. وسيأتي الكلام على يريحو- أريحو وحرف الواو هذا.

بعكس ذلك. فهل كان كاتب السِّفر يجهل جغرافية الحملة الحربية الآشورية حقاً؟ أم أن فرضيات الغزو الآشوري لفلسطين هي تلفيق استشراقي؟ إن شهادة الهمداني التي ضمَّنها في كتابه صفة جزيرة العرب، والتي نُعيد اكتشافها اليوم بعد مضي قرون عدة؛ هي الشهادة الأهم من بين سائر الشهادات الجغرافية التي يملكها العالم، عن خط الحملة الحربية الآشورية على السراة اليمنية لإخضاع ساحل البحر الأحمر برمَّته، ومن ثم تأديب القبائل المتمردة المراهنة على التحالف مع مصر. ولذلك سنرسم إطاراً تاريخياً عمومياً ولكن جديداً عن هذه الحملة التي بدأت بهزيمة مبكرة للجماعات البدوية على أطراف الجزيرة العربية.

قبل صعود نبو خذ نصر إلى عرش الإمبراطورية الآشورية، وإبان حياة والده نبو بلاسّر، تمكنت القوات الآشورية من احتلال إقليم نصيبين السوري إلى الغرب من نينوى-الموصل اليوم- فيما يعرف تقليدياً بالجزيرة الفراتية. ولكن هذا النجاح العسكري المحدود ظل ناقصاً مع بقاء قليقية خارج السيطرة الآشورية. ومع هذا تمكن الآشوريون من السيطرة على حرّان القريبة-وهذه لا علاقة لها بحران سفر التكوين لا من قريب ولا من بعيد كما سنبرهن-. ترك الآشوريون إثر هذا النصر السريع حامية عسكرية في حرّان، شديدة الانضباط والقوة لضمان السيطرة الفعلية على المناطق المجاورة. وحين وقع الصدام مع الجيش المصري نحو العام ٦٠٥ ق.م انسحب المصريون من حرّان، بعد هزيمة منكرة قادتهم إلى التراجع صوب مصر. وفي سِفر إرميا (الإصحاح : ٤٦) إشارات عن هذه الهزيمة التي تنبأ بها إرميا نفسه، وحذر القبائل العربية وبني إسرائيل على حدّ سواء من عواقبها المريرة. لهذا السبب كان احتلال قليقية بالنسبة إلى نبوخذ نصَّر عملاً عسكرياً، مُصمماً في الأصل لاستكمال السيطرة على هذه المناطق التي أخضعها والده. ارتعدت القبائل العربية البائدة بالفعل، من أنباء الحملة الجديدة والكبيرة خصوصاً وأن جراحها لم تكن قد اندملت بعد

من هزيمتها في عهد نبو بلاسّر[١]. ذلك ما يفسر لنا سبب هلع أنبياء اليهودية وعلى رأسهم إرميا وأشعيا، وهلع بني إسرائيل أيضاً ثم اضطرارهم إلى الاحتماء بالجبال، فهو يندرج في إطار الخوف من النتائج المدمّرة لسياسة التحالف مع مصر؛ إذ من بين المواضع التي طُلب من سكانها تقديم المساعدة في صد الغزو الآشوري للسراة اليمنية، موضع يُدعى كونه-كونا وآخر يُدعى عزوره-عزور، وهما موضعان يقعان على مقربة من موضع كوبه-كبه. فهل عرفت فلسطين التاريخية- في أي من عصورها القديمة- مثل هذه الأسماء؟ يصف الهمداني (صفة: ٢٨٣-٢٨٤) وطناً قديماً من أوطان القبائل العربية قرب نجران يُدعى كُنه-كونا كان يُعد في عصر الهمداني من أوطان بلحارث، وإلى جواره موضع يُدعى عزور-عزوره، وهما من المنازل الحجازية حيث تقيم قبيلة تميم. (الهاء الأخيرة في الأسماء العبرية حركة إعرابية وليست حرفاً من أصل الاسم، مثلها مثل الضمة التي تُرسم في الترجمات العربية في صورة حرف: كُنه- كونه وكُبه- كوبه). قال عمر بن أبي ربيعة (معجم: ٩٤١):

أشارت بأن الحي قد حان منْهمُ هَبوبٌ ولكن موعدٌ لكِ عَزْورُ

أما كُوبه- كبه فهي حسب الهمداني والبكري من منازل بني تميم. والمثير للاهتمام أن القدماء من العرب كانوا يطلقون على قبيلة قيس عيلان اسم (قيس كُبه)[٢] ويُحددون مساكنهم في نجران. ومن غير شك؛ فإن تحديد البكري والهمداني لمنازل هذه القبيلة قرب نجران (انظر: معجم البكري: ١ : ٦١) والقول: إنها تتبع أكبر قبائل العرب مُضر نعني

---

(١) كما يسجل هيرودوت: انظر هاري ساكز، عظمة بابل: ١٧٠.

(٢) وحتى اليوم لا تزال في العراق بقايا هذه القبيلة المنسوبة إلى المكان (كبّة) وتعرف بعائلة (كبة) ويتوهم بعض العراقيين أنها من اسم مهنة بيع وصنع الكبة- نوع من الطعام. وهذا وهم.

قبيلة قيس[١] له أهمية خاصة في إطار تحليلنا لاسم مُضر الوارد في التوراة، ذلك أن جملة (كل سكان مُضر، كل شعب مُضر) التوراتية ستكون مفهومة تماماً إذا ما وضعت في سياق تحليل اسم كُبه هذا. بيد أن الهمداني يُعطي رسماً للاسم قد يبدو مختلفاً بعض الشيء: كُبا. ومن هذا الاسم جاء اسم الموضع العربي المعروف كابه الذي أورده جرير في شعره (معجم: ١١٠٧) قال:

من نحو كابة تَحث الحُداة بهم   كي يشفعوا آلفاً صُبّاً فقد شغفوا

وبينما لا نعرف -في فلسطين التاريخية- موضعاً قرب أريحا- يريحو يُدعى كُبا أو كابه أو كوبه حسب الوصف التوراتي؛ فإن بيت شعر لجرير يحددها قرب اليمامة (وعاصمة اليمامة القديمة هي الحجر). وهذا ما يتوافق مع التحديد التوراتي تماماً. تقول التوراة في وصف أريحا ما يلي: يريحو قبالة العرب. فهل نعرف في فلسطين القديمة موضعاً يُدعى أريحا قبالة العرب؟ إليكم وصف جرير (ياقوت: ١ : ١٩٧) لموضع قديم عرفته قبائل العرب باسم أريحا- أريحو وهو حيّ من أحياء اليمن أقامت فيه في وقت ما من التاريخ قبيلة بني نمير. قال:

فإذا رابَ عبدَ بني نُميرِ   فعليّ أن أزيدهم ارتيابا

أُعدُّ لها مكاوي مُنْضجات   ويَشفي حَرَّ شُعلتيَ الجرابا

---

(١) قيس إله ومعبود عربي قديم (إله القوس) ورد في التوراة. ونعلم من نصوص الكتاب المقدس لليهودية أن شاول يدعى شاول بن قيس. ورد اسم الإله قيس في النقش الموسوم Gls 11-197 في صورة (قيشح) التي اعتبرها العلماء (قيس) وكان معبوداً كبيراً من معبودات قبائل الحجاز. لكن الاسم ورد بصورة أوضح في نقش بصرى المعروف في صورة (قيسو). والواو في الاسم لهجة حميرية، قارن مع أريحو: انظر: جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٣ : ٣٨

شياطين البلاد يُخفْن زأري   وحية أريحاء لي استجابا

وبالطبع؛ فإن منازل بني نُمير الذين هجاهم جرير مُذكراً إياهم ببرية أريحاء العربية- اليمنية القديمة، والتي صارت مكاناً موحشاً، هي موطن من مواطن بني نُمير في النجد اليمني وليس في فلسطين، إذ تبعد عن نجران بنحو ثلاث مراحل حسب وصف الهمداني (صفة: ٢٧٩). كانت بعض بطون يريحو-أريحو اليمنية، تجاور بني تميم عدوَّتهم اللدود. وهذا هو سر كراهية وهجاء جرير التميمي الأصل. وفي حديث الرسول ﷺ-: «أحبّ أموالي إليّ أريحاء». وفيه إشارة إلى موضع عربي في البادية كانت فيه أملاك بني هاشم، الذين قادوا تجارة العرب القديمة فيما يُعرف تاريخياً بتجارة الإيلاف. أما موضع السمرا -السامرة في الرسم السائد في الترجمات العربية، فهو يقع حسب وصف التوراة في البادية. وليس ثمة مكان في فلسطين التاريخية يقع في البادية وفي الآن ذاته قرب أريحا وكُبه ويُدعى السامرا. إننا لا نعرف مثل هذا المكان ولن يكون بوسعنا الوصول إليه مهما فتشنا؛ بينما يمكن لنا الوصول إليه في البادية العربية والتعرّف عليه بالاسم نفسه السمرا، وقد وصفه الهمداني وضبطه في الصورة ذاتها السمرا، وقال عنه: إنه من المواضع المعروفة في اليمامة (صفة: ٢٥٢)، حيث يُقيم بنو تميم وأحلافهم من عقيل وحنيفة. وموضع السمرا هذا (ومنه جاء اسم سامراء في العراق القديم والذي أحياه العباسيون مع إنشاء مدينة سامراء، كما جاء منه اسم السامرة في فلسطين) ورد ذكره في الشعر العربي القديم بوصفه من منازل العرب العاربة. قال ابن مقبل:

أرى إبلي مَلّت قُساساً وراعها   محاحٌ بعاناتِ السُمار وناعقِ

والسُّمار صيغة جمع المذكر من اسم الموضع نفسه السمرا على مقربة من قُساس، وهما موضعان في النجد اليمني. قال ابن أحمر (معجم: ٧٥٤):

لـئـن وَرَدَ الـسُّـمـار لـنـقـتْـلَـنـهُ فـلا وأبـيـكَ لا أردُ الـسـمـارا

تقع السمراء حسب ضبط الهمداني على الطريق إلى اليمامة من بطن وادي قوّ- قوى في التوراة، في نجد العليا حيث منازل بني سليم وواديهم الشهير الذي يحمل اسمهم وادي سليم. وهذا الوادي هو الذي يُدعى في الأشعار والمرويات التاريخية باسم معدن سليم -والمعدن من عدن بمعنى الإقامة الطويلة في المكان-. ومن غير شك؛ فإن وجود موضع يُدعى- في عصر الهمداني-السمرا- السمرا قرب وادي سليم، يتوافق كل التوافق مع تحديد التوراة. فهل هي مجرد مُصادفة أن كاتب سِفر يهودية-يهوديت يُحدد المكانين قرب بعضهما، فيما يجعلهما الهمداني متجاورين أيضاً في نجد اليمن؟ وهل هي محض مُصادفة أن فلسطين لا تعرف الموضعين في خرائطها القديمة؟ يعني هذا أن الحملة الحربية الآشورية اتجهت صوب نجد اليمن وليس صوب فلسطين، وأن كهنة بني إسرائيل خاطبوا القبائل العربية البدوية من أجل أن تُسارع إلى قطع الطريق على تقدم القوات الآشورية؛ لأنهم أدركوا وإنْ مُتأخرين، مخاطر الاندفاع السريع للآشوريين في النجد، وأن الحملة تتجه نحو بسط نفوذ هم في السراة كلها وصولاً إلى الساحل الطويل؛ وأنها- أخيراً- سوف تستهدف تأديب القبائل المتمردة وإخضاعها في عمق الجزيرة العربية. قال مُزاحم العقيلي (معجم: ٣٤٣):

كـأن سنـاه بـيـن عـروى سُـمـارةٍ وبين صُدّا بالسبسب المُتراغبِ

تـكـشـفُ بُـلـق أو يـداً مـأربـيّـةً نعت هـالـكـاً ضرابة بـالـمعاذبِ

ها هنا صيغة أخرى من الاسم نفسه في صورة اسم التأنيث سُمارة، وهي الصيغة نفسها الرائجة في العصر الأموي عندما كتب جرير قصيدته في هجاء جعد بن قيس. ولنلاحظ أن العقيلي في هذه القصيدة يستخدم

أسماء مواضع يمنية مثل صُدّا وهي حيّ من أحياء اليمن ورد في التوراة في صورة صديم (اسم الجمع صُداء كما عند الهمداني) وكذلك مأرب. قال جرير (الديوان):

إليكَ إليكَ ياجعدَ بن قيسٍ إنكَ لستَ من ابني نزار

ولكن من سُمارةَ شرّ حيّ إذا نزلوا المُصيَّحَ من نُمار

إن سمارا-سمره في الرسم العبري للاسم، هي صيغة متحوّلة من الاسم الأصلي (السمراء[1]) التي عناها الهمداني وهي من منازل قبيلة بني عقيل. ولأن السمرا-السامرة حسب الرسم الشائع في ترجمة التوراة، والتي طُلبَ من قبائلها التقدم لقطع الطريق على الجيش الآشوري ومهاجمتها، تقع قرب كونه وكُبه وعزوره؛ فإن لمن المنطقي أن ينصرف تفكيرنا نحو هذا الفضاء الجغرافي وليس نحو فلسطين.

ذلك ما يفسر لنا الأمر التالي: لماذا طلب بنو إسرائيل المساعدة من هذه القبائل؟ إذ لو كانت هذه المواضع حقاً في فلسطين فلماذا لا نعرفها قرب بعضها البعض؟ إن أحداً لا يعرف وجود كونه وكبه وعزوره قرب السامرة، أي على تخوم الضفة الغربية من نهر الأردن؛ بينما نعلم بوجودها في نجد اليمن الذي تتصل به نجران اتصالاً وثيقاً من منظور جغرافية اليمن القديم. وإلى هذا كله فمن المستحيل علينا تخيّل وجود هذه المواضع قرب أريحا-يريحو التوراتية في فلسطين، وبالطبع لا وجود لها قرب وادي شليم-سليم. تقول الرواية التوراتية عن الغزو الآشوري المُتخيّل لفلسطين ما يلي: إن كهنة بني إسرائيل

---

(١) السمرا- من دون همزة- ولاحظ العلاقة بين السامرا في فلسطين وسامراء في العراق.

طلبوا من قبائل حورون- بيت حورون الصعود إلى رؤوس الجبال والسيطرة على مداخلها وممراتها لمنع تقدم الجيش الآشوري. (يجب أن تنذكر- هنا-حديث ابن عباس الذي نقله الهمداني عن صعود القبائل العربية إلى رؤوس الجبال فور سماعها بتقدم الآشوريين). فهل سيكون بوسعنا أن نجد بيت حورون الجبلية هذه، قرب السامرة في فلسطين؟ وهل تعرف خريطة فلسطين القديمة مثل هذه الجبال الشاهقة التي يمكن للقبائل المتمردة أن تعتصم فيها (حسب قول التوراة وابن عباس)؟ ليس ثمة موضع بهذا الاسم في طول فلسطين وعرضها، ولاوجود لموضع جبلي يمكن السيطرة عليه من جانب القبائل هناك. ولكن ثمة بيت حورون يمنية وهي وادٍ خصب من أودية اليمن إلى الجنوب الغربي من وادي حريب (بما يُعرف بالمسمّق الأعلى- وانظر حوريب في التوراة) في محافظة البيضاء اليوم. وهذا هو المكان المقصود. يضبط الهمداني اسم الوادي في صورة حوران، في ضبط مماثل للضبط العبري من دون تصويت: حورن. والمثير في وصف الهمداني إشارته إلى إن وادي حوران يقع على مقربة من وادي صيد؛ فهما معاً يقعان في سرو مذحج (انظر ما كتبناه عن حوران وصيد في منازل الأسباط). ويقول كاتب السِّفر في وصف تقدُّم الجيش الآشوري ما يلي:

> **فعسكروا في الوهدة المجاورة لبيت بلو عند عين الماء ثم انتشروا في الجوف ٦: ١٨: ٧: ١٣**

يُفهم من الجملة في العبرية أن المقصود بكلمة العمق موضعاً بعينه يدعى العمق. كما يفهم منها (الجوف، سلسلة وديان كبيرة وعميقة) وبالطبع

لا تعرف فلسطين القديمة موضعاً بهذا الاسم، كما لا تعرف الوهدة- الوهدة ولا بيت بلو-فلوه، بينما يعرف نجد اليمن منطقة الجوف حيث تسيل مياه الوديان على مقربة من وادي سليم في الفضاء الجغرافي نفسه لميدان الزحف الآشوري على البادية العربية (وسوف نتوقف مطولاً عند الوهدة وبيت بلو في القسم التالي). يصف الهمداني نجد اليمن المتصل بنجد الجزيرة العربية (صفة: ٢٦٧) فيقول ما يلي:

ومعدن[١] -وادي- العقيق ومعدن المحجّة بين العمق وبين أفيعية. ومعدن -وادي- البيشه ومعدن الهجيرة ومعدن بني سليم. فهذه معادن نجد.

في هذا الفضاء الجغرافي الفسيح أقامت بعض بطون تميم إلى جوار بني سليم، وهؤلاء كانوا يقيمون فوق مساحة شاسعة تمتد حتى وادي أضمّ فوادي القرى، ثم خيبر حتى شرقي المدينة المنورة-. كما تُعرف إحدى الحرات الشهيرات عند الجغرافيين العرب بحرّة بني سليم. ها هنا وادي سليم- شليم الذي أقامت فيه القبيلة العربية المعروفة بهذا الاسم، وغير بعيد عنه منطقة الجوف (العمق). فهل هي محض مُصادفة أن الواديين يتجاوران في نجد، بينما لا تعرفهما فلسطين؟ قال ربيعة بن مَقروم الضبيّ (معجم: ٧٥٢):

ولـولا فـوارسـنـا مـا دَعَـت بذات السُّليم تميم تميما

---

(١) يُقصَد بكلمة معدن التي يستعملها الهمداني -على غرار القدماء- المكان الخصب، الثري بمعادنه. كما يُقصَد به مكان إقامة القبائل.لقد برع العرب القدماء في وصف مواضع إقامتهم وازدهارها، ومن بين هذه التوصيفات الأثيرة وصف المكان بأنه معدن للدلالة على خصب الأرض.

المواضع التي استهدفها الهجوم الآشوري

قبل أن يباشر الجيش الآشوري هجومه الكاسح على سلسلة جبال اليهودية، نظم قادته انتشاراً استراتيجياً شديد الفعالية مكّن الوحدات العسكرية من وضع يدها على مداخل أهم المواضع؛ ومن بينها منطقة الجوف والوهدة، وهي أرض مُنخفضة غزيرة الأمطار كما يدل اسمها على ذلك. وبهذا يكون الآشوريون قد فرضوا سيطرتهم على أهم المصادر المائية؛ فجرى حرمان السكان من إمكانية المقاومة لفترات طويلة. كانت هذه الاستراتيجيةحصيلة نصيحة تلقاها الآشوريون من العمونيين والمؤابيين خصوم بني إسرائيل التقليديين، ولم تكن من ابتكارهم كما يُخبرنا كاتب السِّفر اليهودي. شمل الانتشار المكثف للجيش، فرض السيطرة على سلسلة من المواضع المجاورة والقريبة مثل الدوتان (تثنية دوّة وبلمه). كما شمل قلمون - قلمن. وبذلك تمَّ للآشوريين فرض سيطرة شبه شاملة على مساحة جغرافية واسعة، من الأراضي والوديان ومسايل المياه وأخيراً: تمّ لهم ما خططوا لأجله، عزل وحرمان القبائل من تلقي أي مساعدة. كما أمكن،بفضل نصائح القبائل المتواطئة معهم محاصرة بيت بلو - وادي بلو، وذلك لتجنيب الجيش خسائر بشرية محتملة. لأجل هذه الغاية قام خمسة آلاف جندي بحراسة مصادر المياه ومنع الاقتراب منها. في المقابل عسكر بنو عيصو-العيص أبناء عمومة الإسرائيليين، قبالة الدّوتان- انظر العيص عند الهمداني-وأرسلوا رُسلاً إلى غربء يل وحس- الغرب وحس - وكذلك مُحمر- حمر، طالبين مدّهم بالمساعدة العاجلة. في حين اتجه الآشوريون بقوات خفيفة إلى النجد القريب لمراقبة تحركات القبائل المتمردة. هذا هو بإيجاز شديد وأمين، الوصف المقبول

لميدان المعارك لحظة اندلاعها كما سجله كاتب السِّفر اليهودي. فهل تعرف فلسطين التاريخية المواضع الواردة في السِّفر، إذا ما كان المقصود من أحداثه تقديم رواية عن الغزو الآشوري المزعوم لفلسطين؟ وأين يمكن للمرء أن يعثر هناك، على ما يدلُّ -حقيقة-على أثرٍ جغرافي ولغوي لبيت بَلوَ المُحاصرة، وأين تقع وَهْدة؟ وما صلتهما بوادي العمق (الجوف)؟ تستخدم التوراة لوصف المواقع السكنية في الوديان كلمة بيت- العبرية والعربية- ولذلك فالمقصود من جملة (بيت بَلوَ- فلوه) ليس سوى وادي بَلوَ الذي كانت تُقيم فيه جماعات قبائلية مناهضة للحكم الآشوري. إن فلسطين التاريخية لا تعرف هذا الوادي كما لا أثر يُدل عليه؛ بينما تعرف أرض نجد هذا الوادي جيداً على مقربة من سائر المواضع التي ذكرها كاتب السِّفر اليهودي. يضبط البكري اسم الوادي في صورة بِلْو: بكسر أوله وتسكين ثانيه، تماماً كما في النصّ العبري؛ ويقول عنه أنه على مقربة من روض القطا- قطه في التوراة. قال المُخبَّل السعدي (معجم: ط بيروت ١: ٢٥٢):

فروض القَطَا بعد السواكن حِقْبَةً فبِلْو عفتْ ناحاته[١] ومسايلهُ

وهذه إشارة صريحة للغاية تفيد أن المكان المقصود مسيل مياه وادٍ قديم يُدعى بِلْو جفت مياهه، ولم يعد له من أثر؛ وأنه يقع على مقربة من روض القطا. هذا الوادي من وديان نجد غير بعيد عن اليمامة. والآن: أين تقع دوّتان (مفرد دوة) وأين تقع وهدة؟ إن فلسطين التاريخية لا تعرف هذين الموضعين؛ بينما يعرفهما الشعر العربي القديم في توصيفه لنجد واليمن. وكنا أشرنا إلى وادي بني سليم- شليم المُمتد حتى أعراض الحجاز، وإلى المواضع القريبة منه باعتبارها -جميعاً- الفضاء الذي

(١) كلمة ناحات في القصيدة في لغة قبيلة طي: نواح (ناحية بالمفرد وأنحاء بالجمع).

انتشرت فيه منازل سائر القبائل العربية، سواء تلك التي شاركت في التمرد على الإمبراطورية الآشورية خلال حقب وفترات متعددة، أم تلك التي خضعت واستسلمت لنفوذ الآشوريين في حقب أخرى. ومن بين هذه القبائل القبيلة العربية ثقيف التي عرفت في وقت ما انتشار اليهودية بين بعض بطونها. أقامت ثقيف تاريخياً في موضع قريب من ساحل البحر الأحمر يُدعى وهدة- يهده. وهذا الاسم ليس له نظير بين أسماء المواضع المعروفة؛ ويبدو أن المسلمين احتاروا في تأويل أصل الاسم، ولم يتمكنوا من تقديم تصور مقبول عنه. ولذلك ضبطه البكري في صورتين هَدْة وهدأة قائلاً (معجم: ١٣٤٧: هكذا رواها المحدثون فلا أعلم هل هي هَدْة أو غيرها؟) هذا الموضع الذي احتار البكري في ضبطه ورسمه يرتبط عند المسلمين مع الإسلام المبكر بواقعة رواها أبو هُريرة. قال:

بعث رسول الله ﷺ رجالاً بقيادة عاصم جد عمرو بن الخطاب، حتى إذا كانوا بالهَدْأة بين عُسفان ومكة.

وينقل البكري (المصدر أعلاه) استناداً إلى الأنباري عن أبي حاتم السجستاني ما يلي:

(سألتُ أهل هَدَة من ثقيف: لِمَ سُميت هَدَة؟؟فقالوا: إن المطر يصيبهم بعد هدأة من الليل).

يبدو الاختلاف في رسم الاسم وتأويل معناه عند المسلمين المُتأخرين، وكأنه يصطدم بعقبة وجود معنى مندثر كان لا يزال مع ظهور الإسلام، يحمل صيغة أصلية من الاسم القديم نفسه، لا نجد لها نظيراً في فلسطين. ولعل وجود يَهْدَه-هَدْأة، على ساحل البحر الأحمر في السلسلة الجبلية العظيمة لسرو حمير غير بعيد عن نجران-حيث تنتشر

القبائل العربية التي أعلنت العصيان على الآشوريين، أمر يصعب ردّه إلى المُصادفة الجغرافية وحدها؛ فهذا الموضع يتصل بوادي العمق- العمق. أي بالفضاء الجغرافي لمسرح الحملة الحربية الآشورية في الجوف. قال العجلي (صفة: ٣٣٧):

فمداريجها يَلَملُمُ فالعمقُ فتلك السواحلُ اليهماءُ

فالفقيَّان من خُذارقَ فالفرشُ فها تلك جدة القوراءُ

ها هنا وادي العمق لذي لا وجود له بهذه الصيغة في فلسطين، وها هنا سواحل البحر الأحمر حيث موضع الفرش- فرشت[1] في النقوش المصرية؛ وهذه صيغة يمنية لا تماريها العين. يعني هذا أن الحملة الحربية الآشورية سلكت الطريق المؤدي إلى السواحل عبر النجد -المرتفعات- لتصفية الجيوب المتمردة، وأن الجيش انتشر على مساحة واسعة بالفعل لقطع إمدادات القبائل، وحرمانها من تلقي المساعدة ومن مصادر المياه أيضاً. وبينما سلك الجيش الآشوري هذه الطريق وصولاً إلى نجران لمحاصرتها؛ كان بنو عيصو-العيص يعسكرون في دوتائين ويرسلون الرسائل إلى حيس-حيس عند مسيل مياه مُخَمر-الخمر، وإلى غرب ءيل- الغَرَب، طالبين مدّهم بالمساعدات. فهل تعرف فلسطين مثل هذه الأسماء؟ لدينا الآن صيغة أخرى من الاسم نفسه: دوتائين كما لدينا دوتان- مفردها دوّ-خيّم فيهما بنو عيصو لمقاومة الغزو الآشوري. يعطي الهمداني (صفة: ٣٤٦) تصوره عن دوة-مفرد دوّتان في أبيات الشعر التالية:

---

(١) اشتبه على بعض الباحثين الذين يغرفون معارفهم من الرؤى الاستشراقية للنص التوراتي أن فرشت الواردة في سجلات الكرنك المصرية قد تكون صيغة محرَّفة من فلست بتحول الراء إلى لام أي الفلسطينيين. وهذا وهم.

حُزيَت لي بحزم فيْدةَ تحذي   كاليهودي من نطاة الرقالِ

حين وركنَ دُوّة بيمينٍ   وسريرُ البُضَيعِ ذات الشمالِ

والعُبلاء منهم بيسارٍ   وتركنَ العقيق ذات النصالِ

وقال كثير (معجم: ١٢٤٠):

إلى أبي العاصي بدوّة أرقلتْ   وبالسفح من ذات الرُّبا فوق مُطعَنِ

دوّة هذه ترد في صورة المفرد عند الشعراء، وهي ذاتها ما يعرف بموضع الدّو الذي وصفه الهمداني إلى الشرق من اليمامة (صفة: ٢٧٨) قائلاً:

> يبرين إلى الشرق من اليمامة، وهي على محجة عُمان إلى مكة(..) ومن الفقي عارضة الدهناء والصمان والدّو: قيعان وحزون وغير ذلك إلى اليمامة.

إلى هذه القيعان والحزون حيث إمدادات البادية، أرسل بنو عيصو نداء الاستغاثة طالبين من القبائل التي تقطن في الدّو، المسارعة في مدّ يد العون لهم؛ كما خاطبوا القبائل المقيمة في دوتئين- والضبط العربي لاسم الموضع هو: دوين، طالبين منهم التعجيل في قطع الطرق والممرات الجبلية. إننا لا نعرف دوتين أو دوين في فلسطين بينما نعرفها في السرو الحميري. إليكم ما يقوله البكري (معجم: ٥٦٨):

> دوّين: بضمّ أوله على لفظ التصغير من سرو حمير

وهكذا يتضح أن بني عيصو-العيص توجهوا إلى القبائل البدوية في الدّو، وإلى القبائل اليمنية-شبه المدينية والمستقرة- في سرو حمير في

دوين طالبين منهم مدّ يد المساعدة. وبالطبع لا تعرف فلسطين التاريخية دوتائين كما لا تعرف دوتان. ولذا سيبدو أمراً مثيراً أن الشاعر ربط موضع الدّو باليهود، كما في أبيات الشعر التي نقلها الهمداني. لم يبلغ الجيش الآشوري في حملته هذه المواضع ولم يفكر بالوصول إليها، مادام أحكم إغلاق الحصار على الطرق الرئيسة المؤدية إلى سرو حمير، ولكنه أصبح في وضع يؤهله لأن يفرض عليها طوقاً مميتاً. قال النابغة الذّبياني في وصف الدّوّ:

وأنَّى اهتديتُ والدّوّ بيني وبينها   وما كان ساري الليل بالدوّ يهتدي

ويقول النص التوراتي عن موضع بيت بِلْوَ-بلو السابق ما يلي (النصّ العربي: ٣: ١: ٤: ٨):

> **بيت بِلْوَ- فلوه وبيت مستئيم- مسة ءيم حيال يزرع ءيل وقبالة السهل القريب من دوتئين- دوتائين في الرسم الشائع**

فهل يمكن للمرء أن يجد أي دليل على أن هذه المواضع في فلسطين؟ والآن: ما دمنا قد حددنا بيت بِلْوَ-فلوه وصلتها بالمواضع السالفة؛ فإن لمن المهم تحديد المواضع التي ترتبط معها ضمن هذا النص، وخصوصاً بيت مسة ءيم-مستئيم. لنلاحظ أن الميم في الاسم هي أداة الجمع والتثنية في العبرية أي: المسات أو الميسات. وهذا هو الضبط العربي الصحيح للاسم. ولما كان النصّ يشير إلى وجود بيت بِلْوَ وبيت مسة ءيم-المسات، في حيز جغرافي واحد على مقربة من سرو حمير حيث دوتئين، فهذا يعني ما يلي: إن بني عيصو-العيص توجهوا بندائهم إلى القبائل اليمنية هناك وليس إلى القبائل في فلسطين. يقول ياقوت (٥: ١٤٤) ما يلي: موضع المسات من مواضع نجد وهو من ديار قبيلة كلب (انظر: قبيلة كلب في التوراة، راجع سِفر التكوين وحروب داوود، فأحد

أولاد داوود يُدعى كلب) أما الهمداني (صفة: ٢٩٥) فقد سبق له تحديد هذه المنازل في نجد؛ ويبدو أن ياقوت نقل عنه هذا التحديد، ولذا اكتفى بإيراد شطر من بيت ضائع يقول:

بيــن خَبْـتٍ إلـى الـمُـسـاتِ

ويقول النصّ التوراتي ما يلي (٧: ١٤: ٣٠):

> **وأرسلوا أناساً منهم نحو الجنوب والشرق قبالة غرب ءيل التي بالقرب من حيس عند مسيل مُخمَّر. وخيَّمت بقية من القوات الآشورية في السهل فغطت وجه الأرض كله.**

طِبْقاً لهذا التوصيف؛ فإن الجيش الآشوري وبعد سقوط وادي بَلْو، زحف باتجاه اليهودية لاحتلالها. إن المواضع الآنفة لا وجود لها في فلسطين والمصادر القديمة والخرائط لا تذكر أي شيء عنها، كما أن الجغرافيين الكلاسيكيين من اليونانيين والعرب لم يشيروا إليها. بينما، على الضد من ذلك، لدينا معطيات كافية عن وجودها في اليمن. في وصفه الشائق لنجران وللأودية والمسالك الجبلية المؤدية منها إلى النجد اليمني والحجاز، يحدد الهمداني بدقة موضع غرب ءيل-الغَرَب، الذي وصلته الرُسل طلباً للمُساعدة قبل سقوط اليهودية. يقول في صفة: ٢٢٨ ما يلي:

> **وتثليث-وكان لعمرو بن معد يكرب، فيه حصن ونخل. والقرارة والريان وجاش (..) وعبالم وغرب (..) بالعرض من نجران.**

حسب هذا الوصف؛ يكون موضع غرب في الفضاء الجغرافي لنجران، أي في المسرح ذاته للمعارك تماماً. قال عنترة بن شداد:

وكـالـورَقِ الـخـفِـافِ وذاتُ غـربٍ   تـرى فـيـهـا عـن الـشـرع ازورارا

وحسب وصف عنترة بن شداد؛ يتضح أن الغرب أو ذات غرب أو غرب ءل[١] (ءل ألف ولام التعريف المتأخرة) هذه، بعيدة عن الساحل قليلاً. إنها تنحرف عن الساحل على نحو يمكن ملاحظته- ترى فيها عن الشرع ازوراراً-. وذلك ما يُفسر لنا السبب الحقيقي لطلب المساعدة: لقد سعت الجماعات المُتمردة إلى المعونات العاجلة من قبائل الساحل، التي لم تكن تتعرض آنئذٍ للهجوم، لأنه كان مُتمركزاً في مراحله الأولى على البادية العربية ونجد اليمن، ولم تكن القوات الآشورية قد اقتربت من البحر. قال زهير بن أبي سلمى مُستذكراً المنازل القبائلية وطفولته في غرب:

أذاكـرُ غـربـاً بـعـدَ غـربٍ أعـادهُ   عـلى رغـمـهِ وافي الـسِّبـالِ عنيفُ

تذكرتُ فيها الجَهلَ[٢] حتى تبادرت   دمـوعـي وأصـحـابـي عـلـي وقـوفُ

وبالطبع لا توجد حيس في فلسطين التاريخية؛ بينما نجدها عند الهمداني في صورة وادي حيس تماماً في السفر. يتبقى أن نلاحظ صلة هذه المواضع بالموضع الذي حير علماء التوراة مسيل مُخمر: مخمور في الترجمات السائدة. لعل وجود هذا المكان ضمن التوصيف الجغرافي الآنف سيكون حاسماً، على صعيد قبول نص للتوراة هذا. يُرسم الاسم في العبرية في صورة محمور-بالحاء المهملة- محمر. ولكن مترجمي النص العبري رسموه في صورة مخمور-مخمر بالخاء المعجمة. قال يزيد بن الطُّثريّة (معجم: ١١٩٨):

---

(١) إن وجود صيغة ءل في العبرية قد تدلُّ، بصورة ما من الصور، على الطفولة البعيدة لأداة التعريف العربية الراهنة يوم كانت تستخدم كألف ولام متأخرة (مثل غرب‌ءل).

(٢) الجهل: الطفولة وريعان الصبا.

خليليَّ بين المُنحنى من مُخمّرٍ　　وبين اللوى من عرفجاء المُقابلِ

وصف الشاعر المكان بأنه وادٍ من الأودية اليمنية. وهذا ما يؤكده البكري بقوله: مُخمّر من الأودية التي تصبُّ في وادي التسرير في ديار غني قرب تبالة. ونحن نعلم أن تبالة هي بالضبط في العرض من نجران. ومعنى عبارة مسيل محمَّر- مخمَّر التوراتية لا يقبل اللبس، فالمقصود من المكان وادٍ من الأودية يُدعى مُخمَّر-مخمّر وليس ثمة موضع بهذه الصفة وهذا الاسم في فلسطين. قال ابن هرْمَة في وصف الوادي:

عفا سائرٌ فيها فهضبُ كتانةٍ　　فدر فأعلى عاقل فالمُخمَّرِ

فهل هي محض مُصادفة لغوية أو جغرافية أن الوادي يقع أسفل نجران، وأن يكون من أودية زبيد مثله مثل وادي عنَّة وليس في فلسطين؟ يقول النص التوراتي أخيراً ما يلي (٧: ١٤: ٣٠):

> **وانتشروا في العمق من دوتان- دوتن إلى بلمَ- بلما وفي الطول من بيت بَلْوَ إلى قلمون قبالة يزرعء يل.**

تُرى هل عرفت خريطة فلسطين القديمة موضعاً يُدعى قلمون قرب وادي العمق ودوتن؟ وإذا لم يكن هناك ما يؤيد هذا الافتراض؛ فأين يمكن لنا أن نعثر على مثل هذا التوصيف؟ ليست قلمون التوراتية هذه سوى موضع قَلامَة (والبناء العبري واليمني القديم قلمون مثل صيد- صيدون). وسيكون أمراً مفهوماً تماماً أن قلامَة هذه هي من أعمال مخلاف الكلاع الذي اشتهر سكانه بزيادة النون في الأسماء، على مقربة من مخلاف زبيد الساحلي. إليكم وصف الهمداني (صفة: ١٩٨):

> **وبطن السحول وفروع زبيد، وملحة وخلقة وظُبَا ودمت وحميم غربي قلامة، وبلد الكلاع على ما اكتنف سائلة زبيد.**

بهذا المعنى يكون الجيش الآشوري قد انتشر على مساحة شاسعة تغطي أهم المراكز في الساحل، من أجل إخماد ثورة القبائل العربية البائدة؛ من وادي العمق ودوتائين ووادي بَلْو حتى قلامة- قلمون. ها هنا سلسلة من المواضع الواردة في نصوص التوراة بوصفها من منازل الأسباط مثل ملحة ودمت وخلقة إلخ. بذلك تكون جبال اليهودية في السرو اليمني قد سقطت في يد الآشوريين فعلياً، ويكون السبي البابلي قد حدث هناك وليس في فلسطين المُتخيّلة.

إن فهماً مُتطلَّباً وأكثر جذرية للمغزى التاريخي في هذه الحملة الحربية الكبرى، يجب أن يُلاحظ أنها حملة تقليدية لإخضاع القبائل المُتمردة، ومن بينها قبيلة بني إسرائيل على الإمبراطورية العراقية القديمة؛ والتي روتها وسجلتها المصادر الآشورية نفسها في سجلات ووثائق لا يرقى إليها الشك. كما يجب أن يلاحظ أنها جرت في إطار الصراع الآشوري-المصري على سواحل البحر الأحمر. وليس ثمة أي دليل تاريخي أو جغرافي يدعم مزاعم القراءة الاستشراقية المضللة، عن وقوع الحدث في المسرح الفلسطيني. ما نملكه اليوم بفضل وصف الهمداني والشعر العربي القديم، يؤكد على أن الحدث جرى في العصر التاريخي الحقيقي، الذي كان فيه بنو إسرائيل جماعة قبائلية يمنية- في الطفولة البعيدة للعرب- تُقيم في السراة اليمنية، ولم تكن بقاياها قد هاجرت بعد مع سائر القبائل العربية الأخرى صوب بلاد الشام، لتسجل هناك فصولا من روايتها عن نفسها وتاريخها؛ ولتترك ذكرياتها عن طفولتها البعيدة في صورة أسماء لمواضع قديمة، في أماكن جديدة تماماً كما يفعل كل مهاجر في عالمنا المعاصر. إن الرواة المتأخرين- خصوصاً رواة الغرب الأوروبي- هم الذين اختلقوا دون دليل واحد مسرحاً فلسطينياً لحادث السبي البابلي، من خلال مطابقة أسماء المواضع في التوراة مع ما يماثلها في فلسطين. (سوف نقدم تفاصيل أكثر عن هذه الحملات في كتابنا الثالث حملات أسرحدون وسنحاريب في نجران).

الفصل السادس

شعوب وقبائل التوراة

١ : هل جاء الفلسطينيون من البحر؟

حول جزيرة كريت وصلتها بفلسطين

شاعت نظرية الأصول البحرية للفلسطينيين في التراث الكتابي الاستشراقي، وفي الثقافة المسيحية- اليهودية، منذ مطلع القرن الماضي مع صدور سلسلة من المؤلفات والدراسات التاريخية المكتوبة بأدوات ومناهج توراتية. كان الأمر مُتعلقاً في الجوهر، ومنذ البداية بمحاولة ترويج أصل غريب (جذر اثني) للفلسطينيين؛ يمكن بواسطته البرهنة على أن هذا الشعب الطارئ، أقام عن طريق التسلل من البحر في الوطن التاريخي لليهود. وبالتالي؛ فإنَّ الموجات المُتابعة من المهاجرين اليهود القادمين إلى فلسطين، قبل وبعد الانتداب البريطاني، ليست سوى عائدين يقومون باسترداد حقهم في الإقامة داخل وطنهم. على هذا النحو جرى- في نظرية الأصول البحرية للفلسطينيين - تغريب منهجي منظم للسكان

الأصليين ونفيهم من التاريخ تمهيداً لنفيهم من الأرض، وقطع كل رابطة لهم مع الفضاء الجغرافي الذي احتضن تجربتهم التاريخية. إنهم غرباء وطارئين تسللوا عبر بحر إيجة -وكريت-. لقيت هذه النظرية التلفيقية تقبلاً من نوع ما، من جانب بعض الدارسين العرب المعاصرين؛ فراحوا يُردِّدون هم أيضاً، وعلى مسامع قرّاء جُرحت كرامتهم القومية مع احتلال فلسطين، فكرة وجود أصول إيجية أو جذور كريتية للفلسطينيين. وفي هذا الإطار، جرى الربط بين كريت اليونانية-الإغريقية وبين الفلسطينيين الغرباء استناداً إلى قصيدة من قصائد صفنيا النبي والشاعر اليهودي (٢: ١: ٧) تقول- حسب النص العربي المتداول:

غزَّة ستكون مهجورة
وء شقلون مُقفرة
وعند الظهيرة ءشدود تُطرد
وعقرون تُقلع
فويل لسكان البحر
لأمة الكريتيين
إنْ كانَ الرَّبُّ عليكم
ياكنعان أرض الفلسطينيين

وبالطبع لا يقول النص العبري الأصلي أي شيء - تقريباً- ممّا يقوله النص العربي الآنف كما سوف نبيّن. لقد فُهم الاسم كرتيم-الكرتيين[1]

---

(١) أعطى المترجمون لاسم الجمع كرتيم مكافئاً عربياً هو كرتيين، من دون ألف ولام التعريف. وهذا أمر مثير للاستغراب ولا ينتسب إلى قواعد العبرية في الجمع والتثنية، التي تشترط الياء والميم، في حين أن كرتيم بياء واحدة من أصل الاسم كرتي والميم بالتالي ليست أداة الجمع أو التثنية. ومع ذلك فقد =

من المفرد كرت، على أنه يعني جزيرة كريت اليونانية، بما أنه يرتبط بجملة سكان البحر. ولذا رُبِطَ بالمقطع السابق من صفنيا، الذي يشير إلى أرض كنعان وإلى سكان الساحل؛ وهذا بدوره تمت قراءته في سياق الإشارة إلى ها- فلشتيم، حيث تمَّ تأويلها في صورة الفلسطينيين. يُلاحظ كيت وايتلام[١] أن هذه النظرية قامت على أساس الفكرة التالية: إن إسرائيل ذات الماضي المُتخيَّل، مثلُها مثل إسرائيل المعاصرة، تدعي ملكية أرض خالية من البشر. إن ويتلام على حق في هذا الربط، فهذا هو المضمون الحقيقي للنظرية الاستشراقية عن الأصول البحرية للفلسطينيين: أي تقديم رواية تاريخية مُستمدة من التوراة مباشرة، وليس من نتائج البحث الأثري العلمي والموضوعي؛ وذلك من أجل طرد الفلسطينيين من تاريخ فلسطين القديم. في هذا السياق قام علماء الآثار الكتابيون[٢] بتزويد النظرية بكل ما يلزم لدعمها وتثبيت أركانها عبر استخدام أدلة أركيولوجية مزيفة وذات طابع تأويلي. يتجلى هذا الأمر في أفظع صوره، في القراءة التعسفية لاسم موضع ورَدَ في نقش رمسيس الثالث ١١٩٣ : ١١٦٢ ق. م. هو موضع فرشت، زُعِمَ أن المقصود به ها-فلشتم، بقلب حرف الراء لاماً (فلشت). وبذا جرت عملية تمهيد ماكرة للربط بين كريت الإغريقية والفلسطينيين، تكرّس إحدى الصور النمطية القابلة لإعادة الإنتاج، عن هذا الشعب الغريب والمُتسلل عبر البحر. إنه جماعة قبائلية طارئة على التاريخ الفلسطيني، الذي أصبح مع الاحتلال ملكاً للإسرائيليين مثله مثل الثقافة القديمة بكل تعبيراتها، الطعام والملابس، الغناء، الرقص؛ مُهاجرة ولا تنتمي إلى النسيج العرقي والثقافي بقدر ما تنتمي إلى الفلسجيين في

= جاء الاجتهاد صحيحاً ولكن على أساس قواعد الحميرية لا العبرية، ففي الحميرية كرتيم: الكرتيين مثل: حميرم: الحميريين

(١) تلفيق إسرائيل: دار قدمُس - دمشق: ٢٠٠٠

(٢) من الكتاب: العهد القديم.

شرقي بلاد الإغريق، أي في قبرص أو الشواطئ الغربية لآسيا الصغرى. كما جرت، وفي السياق ذاته، محاولة للربط بين الاسم فلست الوارد في نقوش رمسيس التاسع ١١٣٤-١١١٧ ق.م، وبين الاسم في العبرية فلشتم، للتدليل على أن المقصود بهما الاسم نفسه: الفلسطينيون. إن كرتي- كرتيم التي تم تَخْييلها وتغريبها؛ لا تشير كما هو واضح من قصيدة صفنيا إلى مكان وإنما إلى اسم جماعة قبائلية بعينها، لها صلة بمواضع عدة منها غزة وء شدود وأرض كنعان. ولذا فإن لمن المُتعذر بالفعل، فهم هذا الربط التعسفي. إذْ ما هي صلة أرض كنعان ببلاد الإغريق؟ ولماذا يكون ل-كرتيم-هؤلاء دون غيرهم من القبائل في التوراة علاقة عِرْقية وثقافية بالإغريق، في حين أن نصوص التوراة كلها لا تشير البتة، ولا بأي صورة من الصور إلى مثل هذا الأمر؟ في الواقع لا توجد دلائل أركيولوجية مهما كانت تافهة أو عديمة القيمة، يمكن أن تدعم هذه النظرية الخيالية. ولكن ينبغي مع ذلك ولأغراض البحث العلمي، إخراج هذا السجال من طابعه المهني الضيّق وشبه الاختصاصي، وإعادة إدراجه في إطار قراءة عربية للتوراة، مُضادة ومُناوئة للقراءة المخيالية الأوربية. (انظر الخريطة الخاصة بتسلل الفلسطينيين كما رسمتها المخيّلة الغربية).

ومن أجل هذا الهدف فسوف نعود من جديد إلى الخزان الثقافي العربي القديم، المُغلق والمسكوت عنه، ففيه يمكن لنا أن نجد نقوشنا التي لم تُدفن في باطن الأرض؛ بل تركتها القبائل على شفاه الرواة جيلاً إثر جيل في صورة مرويات وتوصيفات شعرية-جغرافية وقصائد جاهلية وقوائم أنساب. ولأن الاسمين التوراتيين كرتيم- كرت وفلشتيم- فلشت هما مجرد اسمين في قائمة طويلة،من أسماء الشعوب والجماعات العربية الأولى الواردة في التوراة؛ فإن التحقُّق من المعنى المباشر لهما لن يكون

ممكناً من دون تفكيك ألغاز سائر الأسماء التوراتية، وفك الارتباط بينها وبين القراءة المِخْيالية. لنلاحظ أولاً، أن التوراة تشير إلى إن معارك داوود -عصر النبي صموئيل- دارت قرب جبل الرما وقرب جبل أبان ها-عيزر، كما تشير إلى أنها امتدت حتى وادي الرُّمة. ولنلاحظ ثانياً؛ أن هذه الأسماء لا وجود لها في فلسطين قطّ، فليس ثمة جبل يُدعى الرما ولا وجود لوادٍ يُدعى الرُّمة. وهذه الأسماء -كما بينا- موجودة في اليمن والجزيرة العربية، وليس في أي مكان آخر من العالم القديم. ولنلاحظ ثالثاً؛ أن سكان أرض الَفلَس ء رص-ها-فلشتيم-يقصد بها جماعة كانت تُقيم قرب وادي-جبل أوبن آل العيزار-ء بن-ها-عيزر. وأنها عُرفت باسم معبودها الإله الفَلَس، معبود قبيلة طي اليمنية كما في الروايات التاريخية الموثقة. ولنلاحظ رابعاً، أن الجماعة الوحيدة التي أقامت على مقربة منهم، هي القبيلة اليمنية التي نُسِبَتْ إلى موضع يدعى الفَرَش-فرشت. واسم هذا الموضع يُكتب في النقوش اليمنية في صورة فرشت تماماً كما في النقش المصري موضع الجدال. ولذا فإن التلاعب اللغوي الذي قام به المُستشرقون بقلب الرّاء لاماً، هو تلاعب باطل ولا أساس له. ولنلاحظ خامساً وأخيراً، أن القبيلة اليمنية التي أقامت قرب هؤلاء وعُرِفَتْ باسم واديها-وادي كرث- بالثاء المُثلثة المُفتقدَة في العبرية تُنسَب عادة، في الأنساب اليمنية التي سجلها الهمداني، إلى كراث بن هنوم. وهذا الأخير تسجل التوراة اسمه في الصورة ذاتها: هنوم. يتضح من ذلك أن نظرية الأصول الإغريقية للفلسطينيين لا أساس لها سوى وجود كلمة (كرتي- كرت) التي تمت تهجئتها بطريقة مغلوطة فهي كرث بالثاء المعجمة، والمقصود بها كراث بن هنوم الأب الأعلى لجماعة يمنية وثنية. وذلك ما سوف نبرهن عليه في سياق تحليل أسماء الجماعات التوراتية التالية:

أ - العويّون

من بين الجماعات التي حرَص ساردو النصوص التوراتية على تسجيل اسمها بعناية، سوية مع الفلستيين والكرثيين، جماعة وثنية صغيرة يُرسَمُ اسمها في صورة: العويين-عويم اشتهرت بصناعة تماثيل الآلهة والمعبودات القبائلية. مثلاً (يشوع / النص العبري: ١٦ : ١٣ : ٢٢ : ١٢) يقول النصّ في وصف هذه الجماعات المتجاورة ما يلي:

> **وشيوخ الفلستيين الخمسة هم العِزي والإشدودي والإشقلوني والحثي. وهناك العقروني والعويون.**

يعطينا هذا المقطع من يشوع صورة نمطية عن البطون الخمسة الكبرى للعشيرة الفلستية (للفلستيين- ها- فلشتم) الذين اصطدم بهم بنو إسرائيل في سياق الصراع الديني الطويل. إن أحداً لا يعرف هذه الجماعات في التاريخ الفلسطيني، ولا يوجد أي أثرٍ لغوي أو جغرافي أو أركيولوجي يوصلنا إلى منازلهم. لقد تلاعب المُترجمون باسم عزة- بالعين المهملة وقاموا برسمه في صورة غزة -بالغين المُعجمة- من أجل الإيحاء بأن المقصود بالعِزي إنما هو اسم النسبة إليها أي الغزي. وهذا تلاعب مفضوح وغير مقبول لأن المقصود به بالفعل، موضع عزا - والنسبة إليه العزي- القريب من منازل هذه الجماعات. في وصفه للجماعات اليمنية القديمة، يعطي الهمداني اسم العويين ويحدد منازلهم بدقة، فهم سكان بلد همدان إلى الشمال من صنعاء. يقول الهمداني (صفة: ٢٢٠) ما يلي:

> **وأما البون فقراه: رَيْدة للعويين (..) وبيت ذانم للعويين وعثار للعويين (..) وصيحة ومساك وجوب لشاكر.**

هل ثمة ما يُشير إلى مُصادفة أخرى؟ ها هنا منازل العويين قرب جوب في بلد همدان من قرى البون- بونت في النقوش اليمنية (البون جزء من الداخل اليمني وليس من الصومال أو الحبشة). وقد رأينا مما سبق من صفحات، أن جوب هذه كانت مسرحاً لمعارك داوود ومعارك يشوع حول العيّ. ومن غير شك؛ فإن وجود هذه البطون الكبيرة التي تُشكل قوام الجماعة الفلستية، داخل جغرافية بلد همدان اليمني، أمر لا يمكن رده إلى عامل المُصادفة اللغوية أو الجغرافية، ذلك أننا لا نستطيع العثور على منازل العويين في فلسطين، كما لاوجود لأثر يخص البطون الأخرى؛ بينما نعثر على الكثير من الأدلة حين نفتش جغرافية وأنساب اليمن القديم. وهذا ما سنراه مع أسماء الجماعات الأخرى:

ب - أرض زوف

تُسمّي التوراة في أسفار مُتفرقة إحدى الجماعات القبائلية، وتصف أرضها على النحو التالي: زيف، برية زيف، الزُّوفيون. والاسم يرتبط بقصة هروب داوود إلى موضع يُدعى حَرَسه-حرس حيث جرى صدامٌ عنيف بين شاول-ساول والفلستيين على نحو ما بينّا (صموئيل ١: ٢٣ : ٢٠ : ٢٤ : ٩- من النص العربي لتسهيل عودة القراء). إذا كانت هذه القصة حدثت في فلسطين التاريخية، أو أن قصة نشوء الملكية في إسرائيل جرت فوق أرض فلسطين، كما يزعم الاستشراقيون التوراتيون؛ فمن المنطقي أن نعثر على أدلة لغوية وجغرافية قديمة عن وجود بادية أو أرض باسم بادية زيف- زف في العبرية، أو جماعة تُدعى الزّيفيون-الزوفيون لها صلة بالفلسطينيين أو فلسطين؟ وحسب وصف الهمداني والتوراة؛ فإن البطون الكبيرة للفلس أقامت في بلد

همدان على مقربة من المكان نفسه الذي يقول يشوع عنه: إنه شهد سلسلة من المعارك الدامية، حيث يوجد موضع جوب -انظر جوب في النص أعلاه-. إليكم ما يقوله الهمداني عن هذه البادية والجماعة التي أقامت فيها، وهو- ويا للدهشة- يستخدم التعبير نفسه في وصف البرية أو البادية (صفة: ١٨٣):

عبَس من زوف، وللصقاعب أحلاف لهم من همدان والمرون والجروبان لبني ثماد من سبأ وهم أحلاف لبني عبَس ودعوتهم معهم. وهم من عبَس زوف (..) فإلى صلحلح مُشرقاً على السر ولبني سَلمَة من زوف وهم عماد الزّوفيين.

ثم يضيف في الصفحة التالية ما يلي:

حُبَيش من زبيد وهم في وسط أرض زوف (..) فهذه أرض زوف في الميمنة حمرة، وما والاها من البلاد إلى حدود يافع.

هذا التطابق في وصف المكان أرض زوف- برية زيف بين نصي يشوع والهمداني، معطوفاً على تماثل في أسماء المواضع صلحلح عند الهمداني: صلصح في صموئيل الثاني، كما سنرى تالياً، يؤكد الحقيقة التالية: إن صموئيل ويشوع والهمداني كانوا يصفون القبائل والمواضع ذاتها في المكان ذاته: أرض اليمن وليس في فلسطين. ولنلاحظ كيف أن الهمداني يسمي الجماعة (الزوفيين) بينما يسميهم النصّ التوراتي (الزوفيين). ماذا يعني هذا التماثل المذهل؟

ج- هل قبر راحيل في فلسطين؟

بنو مَرر وجُرَش

قبل أن نشرع في عرض تصورات الهمداني وتوصيفاته وضبطه- كذلك- لأسماء ومواضع هاتين الجماعتين: بني مَرر وجُرْش، سنتوقف عند موضع صلصح الآنف. جرى مسح شاول ملكاً على بني إسرائيل في هذا المكان قرب قبر راحيل. هذا ما تقوله التوراة. وهذا يعني أن قبر راحيل المزعوم في فلسطين، ليس سوى خرافة لأن فلسطين لا تعرف إطلاقاً اسم موضع جرى فيه تنصيب شاول ملكاً، وفيه قبر راحيل ويُدعى صلصح؟ تقول الرواية التوراتية ما يلي: إن صموئيل استدعى شاول وصبّ قارورة الزيت على رأسه، عند مدفن راحيل في حدود بن يامن، في صلصح. (النص العبري: ٨ : ١٠ : ٢٢ : ٩ : عم-قبرت-رحل-ب-جبول-بن-يمن-ب-صلصح). يقول محققو التوراة عن هذا المكان واسمه ما يلي: لا يُعرف معنى هذه الكلمة. أي لا يُعرف معنى اسم صلصح. ويضيف المحققون: أما الحدود فهي حدود بين بنيامين وأفرائيم (..) إنه التقليد القديم عن قبر راحيل الذي حُدد مكانه بالقرب من بيت لحم حيثُ يُرى إلى هذا اليوم؟ التلفيق الاستشراقي إذن، لا يعرف معنى كلمة صلصح؛ ولكنه يستطيع الجزم بأنها موضع يقع في حدود بن يمن (بنيامين). أما أين تقع هذه الحدود فلا أحد يعرف؟ ومع ذلك لا يسع المرء إلا تخيل المكان المزعوم في فلسطين- قبر راحيل- على أنه هو ذاته الذي يصفه صموئيل، حتى مع عدم وجود أثر لموضع صلصح أو بن يامن؟ (انظر الخريطة: جبل بن يامن) هذا يعني أن القراءة المِخْيالية للتوراة استندت إلى مُطابقة عشوائية بين أسماء مواضع في فلسطين لا سياق لها في التوصيف الجغرافي؛ وبين أسماء مماثلة وردت في التوراة. في الواقع توجد صلصح على مقربة من جبل يامن، ولكن الهمداني يضبطها

طبقاً لشكل نطقها في عصره في صورة قريبة الشبه: صلحلح. وهذا الموضع غير بعيد عن جبل حُمر -حمر عند يشوع- انظر سيل حُمُر في المادة السابقة عن الحملة الآشورية على نجران - في سلسلة جبال السر. إليكم وصف الهمداني وتحديده لجبل بن يامن- في سياق وصفه السابق لصلحلح شرقي جبال السر في همدان- (صفة: ١٥٠):

> **ومن جُبلان: جبل يَامَن-بفتح الميم- وهو على شط رَمَع الشمالي مع عتمة، وجبل حُمر.**

ها هنا جبل يامن-بن يامن. وهناك غير بعيد عنه صلصح، التي صارت تنطق وتلفظ في عصر الهمداني في صورة صلحلح. فهل هي محض مُصادفة أخرى؟ يتبقى أن نلاحظ صلة غابة افرائيم- ء فرئيم بهذا الموضع؛ إذْ بحسب ادعاء المحققين التوراتيين، تقع صلحلح وقبر راحيل في هذه الغابة التوراتية. وبالطبع ليس ثمة غابة قرب بيت لحم الفلسطينية؟ بينما يمكن رؤية هذه الغابة في الموضع القريب من جبل بن يامن، والذي يسميه اليمنيون ساق الفروين أي غابة الفروين- فرءيم: تثنية فرء.والساق في لغة العرب: الموضع كثيف الأشجار، ويراد بالساق ساق الشجرة. هذا المدخل ضروري لأجل فهم وتوصيف أماكن إقامة العشائر التي ورد ذكرها في التوراة.

في نصوص متفرقة من التوراة يردُ الاسمان التاليان: بني مَرَر- بني مرري، وبني جُرَشن[١] (الجرشيون من جُرَش) بوصفهما اسمي جماعتين

---

(١) النون في جرشن تبدو غريبة في التراكيب اللغوية العبرية (في البناء العبري تستخدم الواو والنون: صيد- صيدون). إن الأصل البعيد لهذا التركيب له صلة بالنون الكلاعية: صنعا- صنعن. وهذا ما يؤكد ويدعم تصورنا عن كون العبرية لهجة يمنية زائلة.

عتيقتين عاشتا مع بني إسرائيل في المكان نفسه (مثلاً: سِفر العدد: ٤ : ٣: ٥٢: و٤: ٦٢: ٤٨،ويشوع: ٢١: ١٠: ٣٦ من النص العربي لتسهيل عودة القراء، مع ضبطنا له عن النص العبري: ٣٢:١٥:٤ -سفر العدد- ب- مدبر):

> **١- وكلَّم الرَّبُّ موسى قائلاً: أحص بني جُرشْن أيضاً بحسب آبائهم وعشائرهم**
> **٢- أحص بني مرري بحسب عشائرهم وبيوت آبائهم**
> **٣- وأُعْطِيَ بنو جَرْشون- جُرشن-من عشائر اللاويين.**

لقد تمَّ الخلط في المرويات الإسلامية المُتأخرة، وفي الدراسات المعاصرة كذلك،بين جُرَش الأردنية الموجودة اليوم وبين جُرَش التوراة اليمنية التي زالت عن الوجود نهائياً. وقامت القراءة المِخْيالية بمُطابقة ماكرة ومُخادعة بين الاسمين دون مراعاة للحقيقية العلمية والجغرافية، وعلى نحوٍ مُنافٍ لكل تقاليد البحث الأثري والتاريخي؛ إذْ صورت جُرَش الأردنية (جَرَش كما تُلفظ اليوم) على أنها الموضع المقصود في التوراة، فيما جرى وبقصدٍ فاضح إقصاء جُرَش اليمن القديمة المُندثرة والزائلة عن المسرح الجغرافي. لقد عرفت القبائل العربية العاربة جُرَش اليمن وعاشت فيها تجربتها التاريخية كقبائل من أصول قحطانية-يمنية، قبل أن تنقل اسمها إلى بلاد الشام إبان هجرتها الكبرى. ولأن فلسطين التاريخية تنكر كل معرفة لها بهذه الأسماء، كما لا يوجد دليل تاريخي أو لغوي يشير إلى هذه الجماعات هناك؛ فإن وضعهم ضمن التاريخ الإسرائيلي ينطوي على مُخادعة. هنا نص الهمداني الذي يضبط أسماء المواضع والجماعات (صفة: ٢٢٩):

جُرَش هي كورة نجد العليا، وهي من ديار عنز (..) وفي شق جُرَش فرق من النزارية يُدعون: الجزارين، من موالي قريش. وجُرَش في قاع وِلها أشراف غربية منها تنحدر مياهها في مسيل يمر في شرقيها.

ها هي جُرَش اليمن بضمِّ الميم وفتح الرَّاء آخره شين مُعجمة، لا تُعرف اليوم في الفضاء الجغرافي لليمن المعاصر، ولا في نجد العليا بعدما أصبحت أطلالاً. كما لا يُعرف على وجه الدّقة العصر الذي اختفت فيه من الوجود. لكن وبحسب توصيف الهمداني؛ فإن جُرَش تتصل بسراة غامد وزهران وهي راس وادي بيشه- بيش في التوراة. والعديد من قبائلها تنتسب إلى الأزد وعنم -عنم في التوراة؛ وفيها سلسلة من المواضع مثل الينيم-ينم في التوراة. ومع أننا لا نعرف زمن اندثارها؛ فإن الأمر المؤكد هو أنها كانت لا تزال تحتفظ، حتى ظهور الإسلام، ببعض القرى والمنازل القبائلية؛إ ذ جاءت وفود جُرَش إلى الرسول ﷺ طالبة اعتناق الإسلام. وفي مروية ابن هشام عن بلاد يشكر -شاكر- التي أوردناها في الجزء الأول من هذا الكتاب- رأينا كيف أن سارد النص يشير إلى رجلين جُرْشيين قاما في مجلس الرسول ﷺ وأجابا عن سؤاله: بأي بلاد الله يشكر- شاكر؟ بقولهما: إنها من أرض اليمن، وهي بلادهما. وبالطبع؛ فإن المقصود من جُرَش هذه العتيقة والزائلة مكاناً بعينه في سراة غامد وزهران. وفي المرويات الإخبارية الكلاسيكية العربية؛ كان أهل جُرَش أول من اتخذ الأصنام بعد زوال دين إسماعيل، وهم من مَذحِجْ بن أدد (الروض المعطار: ١٥٩، ياقوت: ٢: ١٤٧). وعن أبي السريّ -من جبال السر- عن أبي المنذر الكلبي. قال:

جُرَش قبائل من أفناء الناس تجرَّشوا وكان الذي جرّشهم رجل من حمير يُقال له يزيد بن أسلم، خرج بثور له عليه شعير في يوم شديد

الحرّ؛ فشرد الثور فطلبه فاشتدّ تعبه، فحلف لئن ظفر به ليذبحنه ثم ليجرشنّ الشعير وليدعونّ على لحمه. فأدركه بذات القصص عند قلعة وكل مَنْ أجاب-دعوته -وأكل معه يومئذٍ كان جُرشياً.

تروي هذه الخرافة الإخبارية بشروط إنشاء الأساطير الشعبية المُتداولة، تأويلاًكان سائداً عند العرب القدماء، مع كل مشكلة كانت تواجههم في فهم معاني ودلالات بعض أسماء القبائل. ما هو جوهري في هذه المروية هو إشارتها الثمينة إلى أن جُرَش اليمن كانت تقع عند قلعة في موضع ذات القصص- قصص في التوراة تُعرف -عند القبائل العربية- بجرش، وكل من جاء إلى وليمة القبيلة صار جُرشياً، وهذا ما يُعيد تذكيرنا بحقيقة أن الجُرشيين هم تحالف قبلي اجتمعوا عند قلعة جُرَش، تماماً كما هو الحال مع تحالف تنوخ اليمني، ومع تحالف غسان، وهما تجمعان قبائليان ظهرا بعد اجتماع القبائل عند مياه تنوخ ومياه غسان. هذه هي جُرَش اليمن وهذا هو تصور العرب القدماء للقبائل المُتحالفة. وبطبيعة الحال؛ تشير التوراة إلى عشائر جُرش وبطونها ولا تقول أنها قبيلة واحدة. وهذا يتطابق مع تصور العرب القدماء. أما بني مَرر- مرري فهؤلاء يمكن العثور على أقدم تصور عنهم وعن موطنهم التاريخي داخل الجغرافيا اليمنية وليس في فلسطين، لأنهم سكان وادي رُواف -جمع روف، روف ءيم في العبرية. وحسب وصف الهمداني (صفة: ١٨٦) فإن:

حوران ورُواف وقانيه وذو حديد ورَمْضَة وذو حلفان كلها لبني مرّ.

هذا التصور يتطابق مع تصور التوراة عن وادي روفائيم- الجمع العبري لروف، حيث أقام فيه بنو مرر- مرري. فهل هي مُصادفة أخرى أن

كلاً من التوراة والهمداني يعطيان الأسماء ذاتها والتحديدات الجغرافية ذاتها؟ وادي رُواف- الذي سبق لنا تحديده-هو من أودية مخلاف ردمان الزائل والمندثر، وقد عدّه الهمداني جزءاً من أرض زوف-زيف التوراتية، وهذا أمر مثير آخر يصعب تجاهل أهميته؛ إذ يستحيل العثور على زوف ورُواف وبني مرر في جغرافية فلسطين التاريخية. بقي أن نشير إلى أن المرويات التاريخية الكلاسيكية العربية والشعر الجاهلي يقولان لنا: إن أكبر شعراء العرب القدامى امرؤ القيس هو من بني آكل المُرار-مرر؛ فهو بن حجر بن آكل المُرار. وهؤلاء كانوا ملوك كندة- المملكة اليمنية التي نصَّب الفرس أحد ملوكها، ملكاً على الحيرة في العراق بعد إزاحة المنذر بن ماء السماء. إننا لا نعرف بني مرر-مرار في فلسطين قرب وادي رُواف-روفاءيم كما لا نعرفهم قرب أرض زوف-زيف.

د- عشيرة مَطِرَه وسبط بن يمن

أشرنا في المقطع السابق إلى جبل بن يامن، وصلته بموضع يدعى صلصح وآخر يدعى غابة فرئيم، وبرهنا على أن هذه الأسماء لا وجود لها في فلسطين. ولمزيد من الأدلة-في إطار تحديد وتحليل أسماء القبائل والجماعات التوراتية-سنتوقف عند اسم العشيرة التي وقع عليها الاختيار لتقدم أحد أبطالها ليكون ملكاً في بني إسرائيل، وهي عشيرة تنتسب إلى سبط بن يامن-بنيامين. يقول سِفر صموئيل الأول (النص العبري: ١٠: ٩: ٢٧: النص العربي: ١٠: ١٧: ١١: ٦) ما يلي:

ويقرب- شموءل-ءت- كل -سبطي- يسرءل- ويلكد-سبط-بن-يامن-ويقرب-ءت-سبط بن-يامن- ل-مشفحتم-وتلكد-مشفحت-مطري-ويلكد-شاول- بن-قيش.

(الترجمة البديلة: وقدمَ سموءل-شموئيل كل أسباط إسرائيل، فضمّت سبط بن يامن. ثم قدمَ سبط بن يامن عشائره فضمّت عشيرة مطره و-هذه- ضمّت شاول بن قيس)

في الواقع لا يوجد أثر لسبط بن يامن هذا في فلسطين التاريخية، كما لا أثر لعشيرة مطره-مطرة هناك؛ بينما يشير اسم السبط إلى اليمن بوضوح تام. فهل اختلق سارد النص هذه الواقعة التي تخص مؤسس المَلَكية في إسرائيل شاول بن قيس؟ إليكم ما يقوله الهمداني عن عشيرة مَطِرَه-مطرة هذه (صفة: ١٥٠-١٥٤):

(النص مختصراً: ومن جُبلان، جبل يامن- بفتح الميم- ثم ميزاب اليمن الشرقي (..) ومساقط بلد خولان إلى موضع السد بين مأزمي مأرب (..) ثم من بعد مأرب أودية لطاف إلى الجوف ومساقط بلد عُذر مَطِرَه)

وفي تعريفه لعشيرة مَطِرَه-مطرة التي أعطت اسمها لوادٍ شهير في اليمن، يقول الهمداني (صفة: ٢٢٣) ما يلي:

شَعبْ قبيلة من حاشد، وهم أصحاب السبق، وتسمى عُذر، عُذر شعب؛ ومن عُذر هذه عُذر مَطِرَه. فهذه بلد همدان على حد الاختصار وهي أمنع ديار اليمن.

يضيف الهمداني إلى هذا كله (صفة: ٢١٧) ما يلي:

ويسكن هذه المواضع بلحارث ومن همدان، ووادي شرع، ومَطِرَه لعُذر بن سعد، وبمطِرَه أودية عِظام فيها الزرع والعنوب-عنب- وعُذر مَطِرَه أحد العرب وأقْنَصه.

يتضح من هذا التوصيف الدقيق للموضع (الوادي وللقبيلة اليمنية مَطِرَه) أنهم أشهر قبائل العرب في الفروسية وفنون القتال والصيد، كما يُفهم منه طبيعة صلة القبيلة والوادي بجبل يامن وهو ما يتوافق كل التوافق مع الصور التي يقدمها صموئيل، الذي يروي قصة صعود شاول بن قيس ملكاً على بني إسرائيل. فهل ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد أن هذا الأمر يمكن أن يندرج في إطار المُصادفة اللغوية أو الجغرافية؟

٢ : حول كرت التوراتية وفرشت

التلاعب بالموضوع الفلسطيني

ربطت القراءة الاستشراقية للتوراة بين ما تسمِّيهم الفلسطينيين، وبين ما تسميه جزيرة كريت الإغريقية، من أجل أن تؤسس للأصول الإيجية المُتَخيَّلة، وتصوير السكان الأصليين كغرباء جاؤوا عبر البحر متسللين ومغتصبين؛ وهي وجدت في الاسمين التوراتي: كرت والمصري فرشت- فرش، ضالتها لتركيب نظرية جديدة، تقوم على قواعد تعسفية نموذجية. أما الحقيقة التاريخية فتقول: إن كرت العبرية هي كرث- بالثاء المثلثة لأن العبرية لا تعرف هذا الحرف، وتستعيض عنه بالتاء كما بينا في أكثر من موضع. وكرث هذا كان من أشهر وديان اليمن القديم (وادي كراث) على مقربة من سلسلة جبال هنوم- هنوم في التوراة. لكنه زال عن الوجود اليوم ولم يعد له من أثر يُذكر. ولذا احتفظ اليمنيون بالاسم في أنسابهم وعدُّوه ابناً لهنوم. إن أي مراجعة لأنساب اليمنيين سوف تُبين لنا المعنى الحقيقي لوجود كراث باعتباره ابن هنوم. يقول الهمداني ما يلي (الإكليل: ١٠: ١٠٤):

> **فَوَلدَ شاحذ بن حذيق صعباً وعبد شمس والأهنوم (..) فأولدَ الأهنوم (هنوم) بن الحارث مالكاً وكراثاً.**

ها هنا رابطة دم مُتخيَّلة بين بني مالك-بني ملك في التوراة، وبين قبيلة كرث-كرت التوراتية؛ فهما من نسل هنوم-هنوم. إليكم ما يقوله الهمداني عن هذه الروابط، كما سمعها من أفواه سكان همدان وهنوم مباشرة، حين جمع مادة كتابه (الإكليل: ١٠: ١٠٥):

هذا قول نسابة همدان: أما عرّاف الأهنوم وقد سألتهم عن نسبهم: أولدَ الأهنوم كراث بن الأهنوم، فأولد بني عائذ، وهم أهل صور (..) وأولدَ كراث حيي وبني نوف.

في هذين المُقتَطَفين النموذجيين من الإكليل يُحدد الهمداني، على أكمل وجه، صلة سكان صور اليمنية بسلسلة أنساب هنوم (هذا ما يفسر لنا المعنى الحقيقي لوجود ثلاثة جبال تحمل اسم هنوم متصلة بعضها ببعض بمحاذاة الساحل) كما يُحدد اسم الجماعة المقصودة: كرت- كراث الوادي، قريباً من ساحل البحر الأحمر. وإلى هؤلاء ينتسب الفرع البدوي نوف-ينوف في التوراة الذي تخيله التوراتيون في صورة ممفيس المصرية- بعد قلب تعسفي وغاشم لحرف النون إلى ميم وإلحاق سين أخيرة وإضافة ميم أخرى وياء -. ولأن كرث هم من سكان سلسلة جبال هنوم وعلى مقربة من الساحل؛ فإن فهم المعاني الحقيقية لقصيدة صفنيا سيكون ممكناً على النحو التالي:

ويل لسكان ساحل البحر

لأمة الكرثيين

عليكم كلمة الرَّب

ياكنعان ويا أرض الفلستيين

ليس ثمة كرتيين أو كريتيّين في صور اللبنانية، كما لا وجود لهم على سواحل فلسطين بحيث يمكن لداوود أن يتخذ منهم حرساً -حسب رواية التوراة-. ولكن هناك قبيلة يمنية تنتسب إلى كرث بن هنوم- كراث بن هنوم، كانت تقيم على مقربة من مدينة صور غير بعيد عن ساحل البحر. وكنا رأينا من وصف الهمداني أن الساحل الذي أقامت فيه القبائل العدنانية- الشمالية كان يُعرف بساحل كنانة- كنعن- وهو الامتداد الطبيعي

للساحل اليمني. وهذا وحده ما يُفسر لنا إشارات قصيدة صفنيا، التي تجعل من الكرثيين وكنعان والفلستيين، سكان جغرافية معلومة لا وجود لها في فلسطين. والآن أين تقع فرشت التي ذكرتها النقوش المصرية؟ يعطي الهمداني اسم الموضع الذي أقامت فيه جماعة ساحلية أخرى، عُرفت عند العرب القدماء بـ (بني فرَاش) وموضعهم يُعرف بـ (فرش) وهو يُكتب حسب تقاليد التدوين اليمنية في صورة فرشت، مثل: قرشت في قريش وفلست في فلس. قال العُجلي (صفة: ٣٣٧):

فالفُقيّان من خُذارق فالفَر شُ فها تلك جُدّة القوراءُ

وهذا الموضع يُعد اليوم من أحواز مكة وساحلها البحري. يقول الهمداني (صفة: ٢٩٤: العير والعيرة وكُدى وكداء والفَرَش والبرك وعزور من أحواز مكة). من الواضح أن المصريين في معاركهم مع الآشوريين من أجل السيطرة على سواحل البحر الأحمر، عرفوا هذا الموضع في صيغته اليمنية التقليدية: فرشت وقاموا بتسجيله في سجلاتهم الحربية وفي نقوش ملوكهم؛ ومن ثم لا علاقة لهذا الاسم باسم الجماعة التوراتية فلشتيم-فلشت. وفضلاً عن ذلك لدينا الاسم المثير للجدل صربه-سُربه الذي يُزعم أنه وردَ في نقوش المصريين عندما سقط الموضع في أيديهم في أثناء المعارك مع الآشوريين (انظر الكتاب القادم حول حملات سنحاريب وأسرحدون في نجران وانظر كذلك حول سُربه القائمتين المعروفتين باسم قائمة مجدو ونهاريا- السجلات المصرية-حيث يُسجل اسم صربه مع طائفة من الأسماء الأخرى).

٣ : من النيل إلى الفرات

لا تزال الخرافة الاستشراقية عن الوعد الإلهي الذي قطعه الرّب مع إبراهيم، والذي اعتبر وعداً لبني إسرائيل واليهود وإسرائيل تالياً، وبموجبه حصلوا على حدود دولة إمبراطورية، لا يعرف التاريخ عنها أي شيء؛ تعيش في الوجدان الروحي لهؤلاء منذ أن قدمت هذه القراءة تصوراتها عن الأرض الموعودة، التي تتجاوز في مساحتها أرض الميعاد الفلسطيني نفسه. إن تكبير وتعظيم حجم الأرض الموعودة وتخْييلها، بحيث تبدو مساوية على نحو ما لمساحة أمريكا الشمالية، يرتبط بوصول يهود أوربة المهاجرين إلى القارة الجديدة مع اكتشافها. لقد بدت الأرض الكبيرة التي وصلها هؤلاء المهاجرون المشبعون بالمخيال التوراتي، آنئذٍ، كما لو كانت هي الوعد الإلهي الذي قطعه الرَّب مع إبراهيم. ولهذا السبب سُميت الولايات المتحدة الأمريكية باللغة العبرية ءرصوت-ها-بريت-أراضي البرية. وبذلك تمت مماهاة البرية الأولى في عهد إبراهيم، بالبرية الجديدة المكتشفة على يد كولومبوس، ونُظر إليها على أنها هي ذاتها التي تجلى فيها الرَّب لإبراهيم. وفي هذا الإطار جرى الترويج للوعد الإلهي كحقيقة تاريخية لا مجرد معتقد روحي، وراجت خرافة تقول إن أرض إسرائيل تمتد من النيل المصري إلى الفرات العراقي (من النيل إلى الفرات أرضك يا إسرائيل). ومع انتشار طبعات الكتاب المقدس في العالم العربي، وتعاظم الاهتمام من جانب الباحثين العرب والغربيين بالتاريخ القديم، الخاص بهذه المنطقة ومن أجل معرفة الحقيقة، راجت وعلى نحو غير متوقع فكرة زائفة موازية مفادها: أن التوراة تتضمن مثل هذا الوعد. المصدر الحقيقي لهذه الخرافة وللفكرة الزائفة الموازية لها، يكمن في

الثقافة الدينية التي عززتها القراءة الغربية المِخْيالية وزوَّدتها بكل الزخم المطلوب. في الواقع لا يتضمن النص التوراتي عن الوعد الإلهي، أدنى إشارة إلى نهر النيل المصري أو نهر الفرات العراقي. والعودة إلى النص العبري كفيلة بالكشف عن ذلك. إن النص وعلى الضد من هاتين الفكرتين الزائفتين يشير إلى جماعات وقبائل، لا وجود لها أصلاً فوق هذه المساحة من الأرض؛ بل هي موجودة -حصراً- في جغرافية اليمن القديم. وفي مواضع عدة من التوراة تُذكر هذه الجماعات على أنها قبائل، إما أقامت بعيداً عن بني إسرائيل، وإما أنها كانت طرفاً في الصراعات الدينية ضدهم. ولما كانت فلسطين لا تعرف مثل هذه الجماعات، كما أن الأرض الممتدة من النيل إلى الفرات لا تعرف جماعة واحدة منها، فقد اضطرَّ كتاب التاريخ من التيار التوراتي إلى إهمال البحث عنها ضمن التاريخ الفلسطيني، مثلاً في (سفر التكوين النص العربي لتسهيل عودة القرّاء: ١٥ : ١٠ : ١٦ : ١٧ - النص العبري: ١٥ : ١٤ : ١٦ : ١١) نقرأ ما يلي:

(ل-زرعك-نتني-ءت-ها-ءرص-ها-زءه م-نهر-مصريم-عد-ها-نهر-ها-جبول-نهر-فرت ءت-ها-قيني-وءت- ها-قنزي-وءت-ها-قدمني- وءت-ها-حتتي-وءت- ها- فرزي-وءت-ها- روفئيم-وءتءمري.وءت-ها-كنعني-وءت-ها-جرشي-وءت-ها-يبوسي)

(لنسلك أعطي هذه الأرض: من ساحل المضريين حتى قابل نهر فراة. مع القينيين والقنزيين والقدمنيين، والحوثيين مع الفرزيين والرُّوافيين والأموريين والكنعانيين والجرجشانيين واليبوسيين)

في هذا النص وفي سائر ترجماته المعروفة، تمت مكافأة جملة (م-نهر-مصريم-عد-ها-جبول-نهر-فرت) تقليدياً بالجملة التالية: (من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات). وحتى مع افتراض صحة هذه الترجمة؛

فإن القبائل المذكورة لا تقيم هناك. وليس ثمة إشارة وإنْ كانت عابرة، في السجلات المصرية والبابلية ووثائق إمبراطوريات دول العالم القديم، تفيد أو يمكن أن يفهم منها، بوجود هذه القبائل على امتداد المساحة التي يشملها الوعد الإلهي المُتخيل؛ وهناك إجماع بين العلماء أن هذه القبائل لا وجود لها في التاريخ الفلسطيني. فهل لفق كاتب النصّ هذه الجماعات؟ ثمة قراءة أخرى أكثر ديناميكية وعلى أساس التهجئة الصحيحة تفيد أن المقصود بجملة (م- نهر- مصريم) هو التالي: (من ساحل المُضريين) وليس من (نهر مصر) لأن الميم من دون ياء ليست هي ذاتها أداة الجمع العبرية؛ بل هي أداة الجمع الحميرية: حميرم: الحميريون. ولذلك فإن مقاصد النصّ العبري واضحة كل الوضوح، فهي تشير إلى مصريم- المُضريين وليس إلى مصر البلد العربي. وهذه القبيلة العربية العظيمة يرد اسمها -مراراً وتكراراً-في التوراة وخصوصاً في أشعار ومراثي إرميا وأشعيا كما سنرى. وفضلاً عن ذلك تعني كلمة (نهر) العبرية نهر بالفعل، ولكنها تعني أيضاً مجرى الماء أو مسيل المياه أو طريق الماء بإطلاق. ولو كان المقصود (نهر النيل) حقاً كما فهم المحققون والمترجمون لما كانت هناك حاجة إلى ذكر اسم مصر الإقليم العربي؛ ولقال سارد النص (م- نهر- ها- نيل) كما قال (من نهر- فرة). لقد سعى سارد النص إلى وصف ساحل المُضريين بكلمة نهر استطراداً في وصف تقليدي للساحل بما هو مياه وباعتباره حداً بحرياً، ينطلق منه السائر وصولاً إلى نهر فراه. إن العبرية لا تعرف حرف الضاد وتستبدلها بالصاد: مصريم- أي (المضريين) سكان الساحل وهم شعب كثير العدد والبطون، وأكبر بطونه كنانه التي ورثت السيادة على الساحل، وصار يُعرف عند العرب باسمها: ساحل كنانه؛ وهي اشتهرت بصنع القباب الحمراء[1]. مع زوال مُضر عن المسرح

---

(١) في مؤلفات علماء الآثار والمستشرقين وعلماء التوراة، غالباً ما يقال: إن الكنعانيين على الساحل اشتهروا - استناداً إلى التوراة- بصنع الثياب القرمزية =

التاريخي بعد هجرتها إلى شمال الجزيرة العربية ثم العراق ظلت بطون من كنانة هناك. وكنا تحدثنا بشيء من التفصيل عن مُضر وعن نهر الفَراة-فرت (انظر الفصل الخاص بحروب داوود والفصل الخاص بمراثي إرميا وأشعيا). يعطي الهمداني وصفاً مُسهباً لمواضع هذه الجماعات والقبائل، وهي تنتشر بالفعل فوق مساحة جغرافية شاسعة تمتد من الساحل حتى البادية. ولمعرفة الحدود في صورتها الواقعية، فسوف نقوم بتعيينها مع إهمال الجماعات التي سبق لنا الحديث عنها: مثل: اليبوسيين والرُّوافيين-نسبة إلى روفئيم-روف -. أولى هذه الجماعات، الجماعة المُسماة (الفرزيين) الذين ينتسبون إلى موضع يدعى فرزة. وبالطبع لا توجد فرزة في فلسطين أو في المساحة الممتدة من النيل إلى الفرات العراقي؛ بل في اليمامة وتحديداً في نجد السفلى. وهذا ما يقوله الهمداني (صفة: ٢٥١):

البحرين ونواحيها: عن أبي مالك اليشكري وهي: شباك، وروضة القُرح، ثم يعارض العرض من وسط الفضاء عن يساره الفرِزة.

قال الراعي النُّميري:

فاطلعتَ فِرزة الآجام جافلة ... لم تدرِ هل أتاها أولَ الذُعُرِ

يشير التوصيف التوراتي عن أرض الميعاد، إلى مساحة ممتدة من الساحل حتى مسيل ء فراة؛ وفي هذه المساحة الشاسعة أقامت مجموعة

= (الحمراء). لكننا نعلم من المؤرخين العرب القدماء أن الكنانيين هم سكان الساحل وهم من اشتهر بصنع القباب الحمراء. وروايات الإخباريين العرب تضم الكثير من الأساطير والقصص عن هذا الجانب من صناعات الساحل القديمة. فهل ثمة مصادفة أن تكون كنعان سيدة الساحل وتشتهر بصباغة الثياب القرمزية وصنعها، وأن تشتهر كنانة عند العرب بسيادتها على الساحل وبصنع القباب الحمراء؟

من القبائل من بينها كنانه- كنعن (العين تُحذف في النطق مثل: أشير في: أشعر وشير في: شِعر) والأموريين-العموريين واليبوسيين، وهؤلاء سكان موضع له أهمية خاصة في التوراة لارتباطه بأورشليم يُدعى بوس. كما أقامت فيه القبيلة العربية- اليمنية: حوث-حت في العبرية وهم الحوثيون (الذين أصبح لهم اليوم ذكر في وسائل الإعلام). إننا لا نعرف مثل هذه الجماعة في الجغرافية الممتدة من النيل إلى الفرات؛ إذا ما سلمنا جدلاً بصحة القراءة، لأن حوث-حت شاطيء كونته مياه وادِ يمني عُرف بخصب وجمال أرضه، وقد حملت الجماعة اسمه أو أعطته إياه. قال نشوان بن سعيد الحميري (وانظر: هامش محقق صفة: ١٦٠)

بشاطئ حوث من ديار بني حرب لقلبي أشجان مُعذبة قلبي

ويصف الهمداني وادي حوث هذا (صفة: ١٦٠) حيث تجتمع مياه سلسلة من الوديان مخترقة الفلج:

ويلج الفلج إلى خَبَش، فتلقاه سيول بلد بني حرب بن وادعة وحوث (..) وقبلة ظاهر الصيد وجبل ذَيْبان الكبير.

ليس ثمة من حثيين أو حتيين- بالتاء- أو حوث أو حت، في أي مكان آخر خارج جغرافية اليمن. ليس ثمة موضع بهذا الاسم لا في فلسطين ولا في الحيز الجغرافي بين النيل والفرات. لكن وادي حوث-حت وحسب الضبط العربي: ثُ، هو من أودية اليمن التي تغنى بها الشعراء، مياهه تصبّ في الفَلَج (فلج اليمامة) حيث يُقيم جيرانهم الفرزيون -في فرزة. إن الهمداني الذي يستفيض في وصف منازل الحوثيين- الحثيين في حاشد (صفة: ٢٢١ بما لا يتسع له كتابنا) يرسم صورة دقيقة عن هذا الوادي وسكانه؛ فهم إلى جوار سلسلة من المواضع التوراتية مثل ديبون-جبل ذَيْبان.

وفي الإكليل (١: ٦٦) يعطي الهمداني ضبطاً دقيقاً لاسم حت التوراتي:

(ولد حت عامراً، فأولد عامر أهل قرى لوط)

هذه الرابطة الدموية التي تجمع بني حت-حسب ضبط الهمداني لاسم القبيلة -وبني عامر العموريين- الأموريين تتطابق مع رؤية التوراة تماماً؛ فهم سكان إقليم واحد وينتسبون إلى أب أعلى. إننا لا نعرف في أنساب القبائل التي أقامت في فلسطين أو بين النيل المصري والفرات العراقي، جماعة تُدعى حت تقيم إلى جوار بطن من بطونها يُدعى عامر أو عموريين، كما أن هذا التطابق المدهش بين صيغتي الاسم عند الهمداني وفي التوراة (حت) يجعل من شبه المستحيل تخيله على أنه محض مُصادفة لغوية. ولذلك؛ فإن الزعم القائل: إن النص التوراتي كان يصف الحيز الجغرافي بين النيل المصري والفرات العراقي؛ باعتباره حدود الوعد الإلهي لإبراهيم سوف يصطدم بجملة مشكلات، ليس أقلها البرهنة على وجود موضع يُدعى ديبون، أو جماعة تُدعى الفرزيين؟ وفي حين يتضمن وصف التوراة تصوراً واقعياً لمنازل القبائل المستقرة وأوطانها، فإنه يشير، في الآن ذاته، إلى بني إسرائيل بوصفهم جماعة بدوية، عاشت في عصر الوعد الإلهي، وهي تحلم وتغبط القبائل الأخرى لنجاحها في امتلاك مواطن استقرار، كما هو واقع الحال بالنسبة إلى سائر الجماعات البدوية المتنافسة على الاستقرار وخصب العيش. ولذلك يبدو التأويل السائد للجملة بأكملها مشوشاً وغير منطقي. أين يمكن للمرء أن يعثر على مواطن هذه الجماعات في الحيز الجغرافي الممتد من النيل إلى الفرات؟

٤ : حول آرام - إرم

ارتبطت صورة آرام-إرم التوراتية ببطل يُدعى هدد بن عَزَر، وهذا تمَّ الربط بينه وبين فلسطين في إطار عملية التزوير الفاضحة ذاتها لجغرافية التوراة، بحيث صارت آرام تعني سورية. كما يُعرف هدد بن عزر أيضاً بأنه هدد الدمشقي-الدمسقي. بيد أن سِفر صموئيل الثاني يشير إلى ما يلي: إن معارك داوود ضد الآراميين-الإرميين وضد هدد بن عَزَر هذا، جرت في وادٍ يُدعى وادي حَبل. فهل يمكن قبول الادعاء القائل: إن آرام هي سورية؟ لا تعرف سورية قطّ وادي حَبل هذا، ولا يوجد في تاريخها المكتوب ما يشير إلى مثل هذه المعارك. فهل جرت هذه المعارك ضد بطل خيالي وفي مسرح خيالي؟ وأن هذه الحروب هي قصص خيالية؟ يقول صموئيل الثاني (٨: ١: ١٦ - النص العربي مع ضبطنا له بمراجعة النص العبري):

> **فهب آراميو- إرميو دمسق (بالسين) لنجدة هدد بن عيزار ملك صُبا.**

يعني هذا أن الآراميين الذين ساعدوا البطل التوراتي، هم سكان مكان يُدعى دمسق- بالسين، وأن هذا البطل كان ملكاً على موضع يُدعى صُبا-صوبا. وبالطبع لا تعرف بلاد الشام القديمة مثل هذه الأسماء. وزيادة في غرائبية مسرح الحرب يضيف صموئيل ٢: (النص العبري: ٨: ١٣: ٩: ١٢- النص مختصراً).

> **ويعس- دود - شم- ب-شبو- م-ءرم- بنيء-ملح (حسب الترجمة السائدة: وأقام داوود لنفسه اسماً عند رجوعه في وادي الملح)**

إن إرم وبنا وملاحا التي تخيلها التوراتيون في صورة مكان واحد يدعى وادي الملح، كما لاحظنا من نص سابق (انظر ما سبق من صفحات حول هذه المسألة) بسبب عدم وجود فواصل في النص العبري، هي التي تنسف كل أساس يمكن أن تقوم عليه أسطورة (آراميو سورية). ذلك أن هذه الأودية القديمة تقع في فضاء جغرافي واحد (انظر ما كتبناه عن وادي بنا). ولأجل فهمٍ أفضل لمقاصد النص التوراتي فسوف نشير إلى وادي ملاحا الذي عاد منه داوود بعد معارك مع الآراميين-سكان آرام- إرم. يصف الهمداني وادي ملاحا هذا (صفة: ٢١٥ -٢١٧) في سياق وصف مخلاف خولان وذي جُرَة على النحو التالي:

ومن أقصاه الحجلة، ووادي ملاحا (المحقق: يقع وادي ملاحا في بني شداد وفيه العنب الأبيض والأسود) بالجوف، وإليها يُنسب يوم رزام ملاحا، وقتلت همدان من مذحج بشراً (..) ووادي سيان ووادي سامك ووادي دبرة (..) ويلاقيها سيل مغارب صنعاء من مخلاف مأذن وحضُور. بلد همدان: ووادي مَطِرَة لُعذر وبمَطِرَة أودية عظام إلى أصحر، جبل يام.

ها هنا وادي ملاحا الذي دارت فيه معارك القبائل منذ عصر داوود. يعني هذا أن شهرة داوود بعد المعارك ضد هدد بن عيزار ملك صُبا، وضد الإرميين قد تعاظمت عند جماعات جديدة في وادي ملاحا. وهؤلاء لا علاقة لهم بالآراميين سكان آرام، بل هم قبائل مقيمة في موضع يدعى إرم. يصف الهمداني إرم بأنها فلاة تقع بين عدن وأبْين. وفضلاً عن هذا؛ فإن سورية لا تعرف وادياً يُدعى وادي الملح ولا وادي بنا أو ملاحا. إليكم وصف الهمداني (صفة: ٩٤):

عدن جنوبية تهامية وهي ساحل يحيط به جبل، وموردها ماء يُقال له الحِيق أحساء في رمل في جانب فلاة إرم، وسكانها الملاحيون.

يضيف الهمداني (صفة: ٢٣٧): (عدن وأبْيَن بين المَربين والملاحيين).

هذه هي إرم وتلك هي ملاحا. أي قبائل إرم (الإرميون) التي تُنسب إلى وادي ملاحا -الملاحيون- تمييزاً لها عن آرام المنسوبة إلى صُبا-. (وانظر ما كتبناه عن وادي حبل) أما الملك التوراتي هدد؛ فإن الهمداني يعطي اسم الجماعة ذاتها والضبط ذاته لاسمها بني هدد، تماماً كما في النص التوراتي. إليكم ما يقوله في الإكليل (١٠ : ٦٧):

وبنو هدد بطن يُقال هم من ناعط ويسكنون بالجُند - مخلاف الجُند -.

يُعدّ مخلاف الجُند هذا، من المعافر اليمنية القديمة والمشهورة في سلسلة جبال السكاسك، غير بعيد عن عدن. وقد أسهب الهمداني في وصفه وفي تحديد مواضعه وقبائله. ولأن هذه الجماعة سكنت قديماً في هذا المكان، فهذا يعني أنها كانت على اتصال دائم بسائر القبائل، على امتداد محجة عدن العليا والنجد (صفة: ٢٠٣-٢٠٦). لقد تحدثت نصوص متفرقة من التوراة عن معارك بني إسرائيل ضد الآراميين- الإرميين بقيادة ملكهم هدد بن عيزار. وكنا رأينا أن آل العيزار- في نصوص الهمداني- كانوا ملوكاً (انظر ما كتبناه عن أوبن العيزار في مادة أبان). فهل هي مصادفة محض أن يكون بطن هدد وآل العيزار في المكان نفسه؟ بينما لا تعرف بلاد الشام ولا فلسطين هذين الاسمين؟ لقد خلطت القراءة الاستشراقية بين الآراميين الذين كانوا يُهاجمون الإمبراطورية الآشورية ويهددونها نحو ١١٠٠ ق. م، وهم هاجروا-تالياً- إلى بلاد

الشام؛ وبين الإرميين سكان إرم اليمنية في فلاة أَبْيَنْ -المحافظة الثالثة في الجنوب اليمني-. هذا الخلط هو مزيج من الجهل ومن إغراء المِخْيال التوراتي الذي كان يُغذي نزعات المُطابقة العشوائية؛ بين كل اسم توراتي وما يُزعم أنه اسم شبيه في تراكيبه داخل جغرافية فلسطين. ويبدو أن الاسم التوراتي دمسق-بالسين، في هذه النصوص وسواها كان يمثل دافعاً كافياً للمضي قُدماً بالمُطابقات التعسفية، وفي تأسيس فرضيات وجود إمبراطورية داوودية قامت على حطام الآرميين المهزومين، وضمّت سورية وفلسطين في وحدة جغرافية-إسرائيلية- بما أن دمسق تعني في القراءة الاستشراقية دمشق-. في هذا السياق وجد التوراتيون من علماء الآثار ضالتهم في الاسم هدد، وقاموا بمقاربته مع اسم حدد الإله السوري-اليمني القديم وهو ذاته أدد الآشوري والعربي[1]-. بيد أن سائر المواضع الواردة في النصوص، ومعها سائر الجماعات والقبائل، لا تشير قطّ، ولا تلمح إلى فلسطين أو سورية أو الأردن. كما أن المواضع الواردة لا وجود لها هناك؛ إذ لا وجود لرحوب أو صوبا قرب جازان أو أرض زوف في دمشق. يقول سِفر صموئيل ٢: إن هدد بن عيزار هو ملك صوبا-صبا وأنه ابن رحوب، وأن آراميي-إرميي صوبا هم آراميو دمسق-بالسين-. فهل تعرف دمشق العاصمة السورية في تاريخها القديم المكتوب، مثل هذا الاسم أو مثل هذه المملكة؟ وأين؟ وفي أي وثيقة تاريخية؟ لأجل تحديد أدق لمعنى وحدود هذا الخلط المُتعمد وصوره الشعرية التي ألهبت الخيال الأوروبي، ودفعت به إلى تصور الإمبراطورية الداوودية كحقيقة تاريخية في بلاد الشام، فسوف نقوم بإعادة تحليل اسمي رحوب ودمسق، بما أن هدد بن عيزار قاد آراميي دمسق في المعارك ضد

---

(١) كما في أنساب العرب: انظر كتابنا: شقيقات قريش: بيروت: ٢٠٠٢ الريس للنشر.

داوود. يقول النصّ إن داوود اصطدم - في معركة حبل الكبرى- بجيش هدد بن- عيزر هذا وكسره، قبل أن يتجه نحو بنيء- ملح ليترك هناك نقشاً باسمه تخليداً لانتصاره. ينتسبُ الملك الآرامي هدد إلى رحوب، واسمه هو (هدد بن عيزر بن رحوب). ولأن رحوب اليمن تقع قرب وادي حبل تماماً؛ فهذا يعني أنه ينتسب إلى موضع بعينه. ها كم مقاربة مُختصرة بين نصّي الهمداني والتوراة:

نص التوراة	نص الهمداني صفة: ٢٨٢
وضرب المآبيين في حبل	مياه أرض حبل
ضرب داوود هدد بن عيزر بن رحوب	حبل ورحوب

وهنا نص الهمداني الذي يصف فيه الموضعين صفة: ٢٨٢):

وحبل وعُضلة والصمع أودية تسيل في الغائط (..) ورحوب مسيلها إلى رباق ومُرَن واديان ينتهيان في الغائط. وكتاف يسيل إلى العقيق. (..) والفتول (..) ومواضع أوبن.

ها هنا وادي حبل ووادي رحوب تماماً كما في التوراة وهما على مقربة من جبل أوبن، الذي يُقيم فيه آل العيزار سادة وملوك الجماعات المقيمة هناك كما رأينا (انظر مادة أبان وأوبن عندنا). يعني هذا أن البطن القبائلي المعروف في أنساب اليمن هدد- هدد في التوراة، له صلة بوادي رحوب وبجبل أوبن بوصفهما من أماكن إقامة القبائل. الأمر الذي يؤكد أن اسم الملك التوراتي، تضمن على غرار تقاليد الانتساب القديمة عند الجماعات البدوية وشبه المستقرة، انتساباً إلى مواضع بعينها في اليمن ولا وجود لها في فلسطين. يتبقى الآن وضع تصور حقيقي لاسم الموضع دمسق- بالسين- الذي تخيله التوراتيون في صورة دمشق العاصمة السورية.

ليست دمسق الآرامية هذه سوى دمسق النجد، التي كان الآراميون-العرب في طفولتهم البعيدة- ينتشرون على امتدادها طوال العام ١١٠٠ ق. م. وينطلقون منها لمهاجمة الإمبراطورية الآشورية. قال الشاعر التهامي (من تهامة: أبو الحسن علي بن محمد الشاعر العباسي- المتأخر- ٤١٦ هجرية، وهو شاعر مُجيد من مواليد مكة ذاكراً دمسق النجد القديمة والمُندثرة (انظر الديوان):

زارني في دمسق من أرض نجدٍ[1] لك طيف أسرى ففكَّ أسري

هي - دمقس عند امرئ القيس، وهي نجدية - يمنية هذه هي دمسق عاش فيها الآراميون -من قبائل آرام وليس إرم كما نوهنا- وذكرتها التوراة في أكثر من موضع؛ وبالطبع لا صلة لدمسق هذه- بالسين المهملة- بدمشق العاصمة السورية. بهذا المعنى، يصبح تلفيق الحروب الآرامية في سورية القديمة استطراداً في تلفيق فلسطين.

---

(١) إن بيت امرئ القيس (المعلقة) الذي يذكر دمسق (بالدمسق وبالحرير) فهم من جانب نقاد الشعر المتأخرين (مثل الأنباري) على أنه إشارة إلى دمشق التي عرفت بصناعة الحرير. وهذا وهم. والمقصود به دمقس (دمسق) النجد التي تلاشت من الوجود.

٥ : الماعزيون والعماليق و (منية)

في سِفر القضاة (١٠: ٧: ١١: ٧ و:١١: ٢٥: ١٢: ١ من النص العربي لتسهيل عودة القراء) نعلم أن الرَّب قال لبني إسرائيل: إنه خلصهم من العماليق والماعزيين- المعوزيين حسب الرسم في الطبعة العربية. كما يُخبرنا النص أن يفتاح الجلعدي ضرب بني عمون في موضع يُدعى منية، وفي موضع آخر يُدعى ء بل كرميم على مقربة من عروعير. ولما كانت فلسطين التاريخية لا تعرف شعباً قديماً يُدعى العماليق ولا شعباً يُدعى الماعز-المعز، كما لا يوجد موضع يُسمى منية تمكن فيه البطل الأسطوري يفتاح الجلعدي، من إلحاق الهزيمة ببني عمون؛فمن الضروري البحث عن هذه الجماعات والمواضع في جغرافية أخرى. إليكم ما يقوله الهمداني عن شعب عربي قديم عاش في غرب صنعاء ويُدعى الماعز- الماعزيون (صفة: ٢٢٢):

> **فأما أول بلد حاشد وهي داخلة نحو الجنوب في غربي صنعاء (...) ففيه أوطان الماعز وشاحذ والباقر. وهذه قبائل يحادها حِمير وهمدان في النسب، وسادة وادي الحبل البحريون من حِمير. وهذه المواضع زاوية من تهامة داخلة بين جبال السراة لهمدان.**

ها هنا قبائل الماعز الهمدانية وهي تقيم في أوطانها التاريخية في تهامة اليمن. وهذا يعني أنها في الفضاء الجغرافي نفسه لموطن العماليق -حكام مكة- الذين أقاموا في سلسلة جبال فاران- فاران في التوراة. وها هنا سادة وادي الحبل وملوكه من البحريين الحميريين. أما موضع منية الذي جرت

فيه المعارك ضد بني عمون سكان نجران؛ فإن الهمداني يكتب ما يلي في سياق توصيف ضرية ووادي الرّمة (صفة: ٢٥٩):

ثم عن يسار ذلك أمواه الضباب، فمنها وادي ذي أجراد وعن يسار ذي أجراد ماء يُقال له منية.

يعلق محقق الكتاب العلّامة الأكوع بالقول (منية هضبة عظيمة لا تزال معروفة في طريق المتجه من نفء[1] إلى ضرية). هذا الفضاء الجغرافي الذي يجمع القبائل والمواضع الواردة في التوراة في وحدة اركيولوجية مُتناغمة؛ مقبول تماماً كمسرح للمعارك بين جماعات بدوية باحثة عن الاستقرار والأرض الخصبة، ذلك أن منية مسيل مياه على مقربة من جبال الحجاز أي حيث يقيم العماليق. وهذا يعني أيضاً أن الصدامات التي تحدثت عنها الإخباريات العربية القديمة، وبصرف النظر عن مقدار صدقيتها التاريخية، وما إذا كانت مجرد مرويات إخبارية أم لا، بين بني إسرائيل وجُرْهَم والعماليق، ليست من نسج خيال المؤرخين العرب وتلفيقهم مادام المسرح؛ الذي يُزعم أن المعارك دارت فيه هو مسرح معلوم بدلالة وجود المواضع والجماعات ذاتها. أما كرميم فهي الكروم التي امتدت إليها المعارك- وسبق لنا تحديدها- فقد وصفها شاعر يمني يُدعى حزازة العامري[2] (صفة: ٣٣٤) بقوله:

فعلى مأرب فنجران فالجو ف فصنعاء صبّة عزلاء
فقرى الجِنْو فالمناضج منها فسروم الكروم فالطرفاء

ها هنا صبّة- صبّا- صوبه في التوراة وهاهنا الكروم- كرميم وهي في

(١) نفء في التوراة- هي موضع نفي في اليمن
(٢) لا أعرف نسبه ولا شعره

الطريق من صنعاء، وقد رسم الشاعر اسمها بحسب تقاليد التدوين اليمنية القديمة. يجدر التنويه هنا إلى أن غياب الفواصل في النص التوراتي[١] توقع المترجمين -غالباً- في فخ الخلط أو الدمج بين أسماء المواضع. ولدينا في هذا الإطار خلط من هذا النوع؛ فقد تخيل المترجمون جملة ء بل- كرميم في صورة موضع بهذا الاسم. في الواقع، قَصَد كاتب النص العبري الإشارة إلى موضعين يُدعى أحدهما ء بل- إبل والآخر كرميم - الكروم. هاكم ما يقوله الهمداني عن الموضع الثاني ء بل (صفة: ٢١٥):

وعن يسار الفرزة ويقابل العرمة رحا إبل. وقد ذكر الأعشى أكثر هذه المواضع فقال: قالوا نمار فبطن الخال جادهما فالعسجدية فالإبلاء فالرجلُ[٢]

هذه هي إبل-ءبل تماماً كما في النص التوراتي على الطريق إلى وادي حبل. كما يعطي سفر التكوين (برء شيت: ١٤: ٣: ١٨: من النص العربي، و١: ٣: ١٧: ١٦: من النص العبري) أسماء المواضع والجماعات التالية:

الاسم بالعبرية	الضبط العربي
عين-مشفط -هوء- قدش	عين قاضي وهي قَدَس
شده-عمليق-	نجد -عماليق
حصصون-تمر	خصصون- تمر

(١) ثمة تماثل مدهش في طريقة رسم الحروف عند الثموديين والسبئيين والمعينيين وما يدعى (العبريين) فهم يكتبون من دون فواصل. انظر: الرسم المرفق مع الكتاب حول طريقة كتابة الحروف عند القبائل القديمة.

(٢) انظر القصيدة في هذا الكتاب.

سعير	سعير
ها-ء يميم	اليامين
ها- ءحري	الحري
ءيل -فءرن	فاران

لدينا في هذا النص الذي اكتفينا منه بأسماء المواضع والجماعات القبائلية، سلسلة جديدة من الأسماء لا تعرفها فلسطين التاريخية. ومن نافل القول الإشارة إلى حقيقة أن محققي التوراة، لا يملكون مصدراً واحداً يدلّهم إليها لا في فلسطين ولا خارجها. ربما لهذا السبب وحده قام المترجمون برسم بعض أسماء الجماعات بصورة اعتباطية، مثل اسم ها-حري، الذي رسم في صورة: الحوريين؛ وهو ما من شأنه أن يدفع القارئ إلى الخلط بينه وبين اسم شعب قديم عُرف باسم الحوريين، وهم جماعة تاريخية في الأناضول. والحال ذاته مع بقية الأسماء. إن الهمداني يعرض علينا الأسماء ذاتها في ضبط عربي صحيح، وفي الأوطان التاريخية التي أقامت فيها. إليكم ما يقوله بالتفصيل:

أولاً: عين-مشفط (عين قاضي). وحسب الترجمة المُعتمدة عين القضاء. والضبط الصحيح عين قاضي الدين (عين-مشفط -وهوء- قدش). في الواقع لا بد من رسم الاسم في صورة قاضي، حكم، قاعدة، عدل؛ وليس قضاء، لأن مشفط العبرية تنصرف بفضل تركيب الاسم إلى هذا المعنى المحدد. وبالطبع؛ فإن فلسطين التاريخية لا تعرف موضعاً يُدعى عين قاضي، كما لا تعرف عين القضاء؛ بينما تعرف اليمن هذا الاسم على وجه التحديد بوصفه جبلاً غزير المياه. بل إن اليمنيين يعرفون لقب القاضي الذي لا تزال تحمله جماعات قبائلية عزيزة الجانب.

يقول النص العبري ما يلي:

ويشبو-ويبءو-ءل-عين- مشفط-هوء- قدش (ثم رجعوا ومضوا إلى عين قاضي وهي قدس)

من الواضح أن الجملة تشير إلى جماعة مهاجرة كانت تفتش عن مياه بعد أن داهمها العطش. والجملة- في سياق النص- تتحدث عن هذا الأمر في معرض الإشارة إلى عودتهم من جبال فاران، بعد أن حاربوا خصومهم من القبائل هناك. ولأن فلسطين لا تعرف مكاناً يُدعى جبال فاران، فمن المنطقي ألّا تعرف مياهاً باسم عين قاضي؛ بينما تعرف الجزيرة العربية سلسلة جبال فاران الممتدة حتى الحجاز، وهي عند العرب والمسلمين جبال مكة التي تقع في طريق السائر باتجاه نجران. ومن الواضح كذلك أن المقصود بعين قاضي مسيل مياه عثرت عليه الجماعة المهاجرة، حين وجدت نفسها تشتبك مع القبائل المعادية هناك. وهذا ما يُفسر لنا سبب استخدام النص العبري لكلمة سده بمعنى نجد- في وصف المكان-. ولنلاحظ أن المترجمين الذين لا يعرفون المكان ترجموا سده هذه إلى سهل. يصف الهمداني عين ماء تدعى قاضي، ويضبط اسمها بهذه الصورة ويضعها في الفضاء الجغرافي نفسه بين جبال فاران ونجران، تماماً كما في النص العبري. يقول (صفة: ١٦٤ و٢٢٥) ما يلي: إن مياه قاضي هي مسيل مياه من أودية نجران:

سيل كتاف يصبُّ بأسفل الحربا من وادي نحرد وبلد سابقة من وادعة، ويمدّها سيل قاضي (دينه) (..) ويتقدم في شوكان من أعلى وادي نجران.

إن الاسم المُركب الذي يعطيه الهمداني (قاضي دينه-دين) للجبل الشاهق في رأس وادي نجران، يجب أن يُحيلنا إلى الاسم العبري

المُركب مشفط - قدش، الذي يعني قاضي دين، حكم، قرار، عدل أو (مقدس). ونحن نعلم أن كلمة قدش العبرية تعني تطهّر، حُرم الاقتراب منه، منذور إلخ.. وفي كل هذه المعاني يتحدد معنى التقديس. إن الجغرافية التي ترسمها التوراة للمكان مُتطابقة كل التطابق مع الجغرافية التي يصفها الهمداني؛ إذ بالنسبة إلى السائر باتجاه نجران قادماً من سلسلة جبال فاران، فمن المؤكد أنه سوف يتوقف عند مسيل مياه قاضي المقدسة هذه ليرتوي منها. والتناظر بين كلمتي دين- التي يستعملها الهمداني في وصف المياه، وكلمة قدش -التي يستعملها النص التوراتي للغرض ذاته، هو تناظر تام من حيث الدلالات في الكلمتين في نجد اليمن. وفي هذا المكان دارت معارك بني إسرائيل، في طفولتهم البدوية البعيدة، مع العماليق حكام مكة قرب سلسلة جبال فاران. قال خَفاف بن عُمير (معجم: ٢٩):

متى كان للقينين قين طُمية وقين بَلْـي معدن بفارانِ

ويقول الهمداني، (صفة: ٢٨٥):

> **وأما معدن فاران فإنه يُنسب إلى فران بن بلي عمرو.كما قيل في جبال الحرم -مكة- جبال فاران بن عمليق.**

ثانياً: يتطابق هذا التحديد لفاران التورانية بوصفها من منازل العماليق، مع رواية التوراة عن الصدام العنيف الذي وقع في سده أي: في النجد (المرتفعات) الممتدة حتى نجران. فهل يمكننا اعتبار هذا التوافق محض مصادفة؟ها هنا العماليق وفاران وهناك مسيل مياه قاضي المقدسة تماماً كما في رواية التوراة. في هذا الإطار لابد من رؤية الموضع الذي تسميه التوراة حصاصون-تمر (خصاصون- تمر بالخاء

المُعجمة) على أنه موضع شديد الخصوصية بسبب تركيبة الاسم، وبسبب وقوعه في جغرافية تضم جماعات رأينا أنها عاشت في اليمن والجزيرة العربية. يُعرف هذا الموضع في النقوش اليمنية في صيغة أرض خصصتن[١]- حصصتن، وعند العرب القدماء أرض خصصة-حصصة، وحسب البناء العبري خصصون. أما تمر فهي ذاتها جبل ثمر - بالثاء التي تستعيض عنها العبرية بالتاء-. إليكم ما يكتبه الهمداني عن جبل تمر- ثمر (صفة: ١٧٢)

العر، وثمر(..) وثمر-جبل- للذراحن من يافع (المحقق: ثَمَر بالتحريك: أعلى جبل في يافع وفيه القرى والمزارع). ومن الأودية: الضباب الذي فيه محجة عدن إلى صنعاء.

يوضح تحديد ثمر-تمر هذه بوصفها أعلى جبل في يافع، على طريق عدن-صنعاء، المقصود بالضبط من الاسم المركب خصصون-تمر، وهو في الواقع ليس اسماً مركباً، بل هما اسمان متلازمان من حيث الجغرافية: جبل ثمر وأرض خصصون. غير أن انعدام وجود الفواصل أسهم في شيوع هذا الوهم. وكما أن ثمر جبل شهير في يافع بفضل كونه من أكثر الارتفاعات في المكان أهمية، فإن أرض خصاصون-خصصتن هي إمارة شهيرة في التاريخ اليمني لعبت دوراً مثيراً في عصر ملكها امرئ القيس، الذي حارب ملك سبأ وريدان إيلشرح يحضب زهاء العام ٦٥-٥٠ ق. م. وتشير نقوش عالم الآثار يَمه[٢] إلى أن أرض خصصتن الدويلة

---

(١) بلفظ التي تُذكر في قوله تعالى ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩/٥٩] بليد في ديار زُبيْد وبني الحارث بن كعب بين الحجاز وتهامة: ياقوت، ٢: ٤٢٩

(٢) انظر جواد علي: المفصل: ٣: ٣١٧- حول نقوش جام- والرسم الصحيح في العربية لاسم هذا العالم هو: يمه. وكما يُلاحظ فهو اسم توراتي.

المتمردة، كانت تتبع عدن من الناحية الإدارية. ويبدو أن الصراع الذي اندلع بين ملوك دويلات اليمن في هذا العصر، شهد منذ مطالع القرن الميلادي الأول تحالفات قبائلية بين مملكة كندة وملكها -مالك - وبين عدن ودويلتها المعروفة باسم أرض خصصتن، من أجل قطع الطريق على مشروع إيلشرح يحضب لتوحيد الإمارات اليمنية في دولة مركزية. وامرؤ القيس هذا لا علاقة له بالشاعر المعروف[١]. ها هنا جبل ثمر أعلى جبل في يافع على الطريق إلى عدن وهاهنا أرض خصاصون-خصصتن-خصصة. يتبقى أن نشير إلى ملاحظة هامة لمحقق صفة جزيرة العرب العلّامة الأكوع (صفة: ٣٧٨) إذ أورد الهمداني بيت الشعر التالي:

قد غادرتُ بالوخد والإيضاعِ   حصاصة العرفط ذي الأقراع

لنلاحظ كذلك أن الهمداني رسم اسم الموضع بالحاء المهملة تماماً كما في التوراة، وقال عنه: إنه سلسلة جبال تتخللها أودية كانت تتبع عدن قديماً وعرفت باسم حصاصة. يقول المحقق: وفي الأصول كلها- أصول المخطوطة- بالخاء المعجمة: خصاصة. بماذا تفيد هذه الملاحظة؟ إنها تعيد تذكيرنا بالتحول الفونوطيقي الذي حدث لحرف الحاء المهمل، بعدما كان يُلفظ في صورة خاء معجمة كما في النطق العبري؛ وكما في المثال الذي ضربناه عن وادي وسخه ووسحه وبيت لحم، بيت لخم- راجع الجزء الأول من الكتاب.

ثالثاً: يرسم المترجمون اسم ء حري في صورة الحوريون، وهذا رسم غير مقبول والصحيح الحري أو الحر. ومع ذلك؛ فمن المستحيل العثورعلى جماعة قبائلية بهذا الاسم في فلسطين، بينما يمكن العثورعليهم

---

(١) انظر كتابنا الجديد: أبطال بلا تاريخ: دار الفرقد، دمشق، سورية: ٢٠٠٥ وطبعة دار قدموس، بيروت: ٢٠٠٣

في اليمن وتحديداً في سراة الخال لبني شكر-يسكر. وسراة الخال هذه موطن قبائل الأزد اليمنية وأحد أهم بطونها القديمة البطن المعروف ب- الحر-. إليكم ما يقوله الهمداني (صفة: ١٣١)

ثم سراة الخال لشكر، نجدهم خثعم وغورهم قبائل الأسد بن عمران، ثم سراة زهران من الأزد، وغامد الحر. (..) ثم سراة الطائف وغورها مكة.

لا شك أن وجود جماعة يمنية قديمة تُدعى الحر-ء حر في المكان نفسه الذي تصفه التوراة، ينسجم كل الانسجام مع وصف الهمداني وتحديداته لسائر الجماعات والمواضع في سراة الخال. أما ء ميم: اليامي بالمفرد- الياميون في صيغة الجمع، فهم قبيلة لا وجود لها في فلسطين لا في صورة ء يميم العبرية ولا في صورة المكافئ العربي الصحيح لها اليامي- الياميون. هذه الجماعة أخذت اسمها من اسم مكان في اليمن يعرف ببلد يام. وفي التوراة يم، ويمه. ومعروف عند اليمنيين القدماء أن بطوناً من هذه القبيلة أقامت في سرو مَذْحِج، وكانت تُعرف باسمها هذا: اليامي.ها هنا وصف الهمداني وتحديداته لمنازل هذه القبيلة (١٧٩-١٨٠):

أول بلاد مَذْحِج بعد أن تخرج من ذمار متوجهاً نحو الشرق (....) فإلى حقل شرْعَة ومن ناحية المشرق ثات وبها اليوم بطون عنس: النهديون والقُريون واللميسيون والياميون، وهم رهط أبي العشيرة اليامي.

وبلد يام القديم هذا، الذي ينتسب إليه الياميون من الأوطان القبائلية المعروفة التي تمر فيها أودية اليمن الكبيرة باتجاه خولان- كولان-

جولان[1] التوراتية؛ قبل أن تشرع على جانب من ديار بلحارث وشاكر ونجران. وهذا يعني أن التوراة كانت تتحدث عن جماعة مقيمة في المكان نفسه الذي وصل إليه بنو إسرائيل، عند عودتهم من الحرب مع عماليق مكة. وسيكون أمراً مستحيلاً إلى النهاية الحصول على دليل واحد في فلسطين، يؤكد وجود العماليق وء ميم-اليامي، اليامیون في جغرافية واحدة؛ بينما يمكن رؤية كل المواضع والقبائل الواردة في هذا النص داخل مكان واحد ومعلوم من اليمن القديم. (سوف نفرد فصلاً خاصاً بمشكلة سعير التوراة في كتاب قادم).

---

(١) انظر حول كولان التوراة ما سنكتبه في الصفحات القادمة من الكتاب.

٦ : الجليل اليمني وجبل قدس في وصف الهمداني وصموئيل

يبدو الترابط المدهش بين المواضع والجماعات القاطنة فيها والتي وصفتها التوراة؛ وكأنه العامل الأكثر أهمية من بين سائر العوامل الأخرى في فهم مقاصد النصوص؛ إذ لا يكفي الاستدلال إلى التطابق بين هذا المكان أو ذاك داخل النصّ التوراتي، وبين نظيره أو شبيهه في فلسطين لمجرد وجود تماثل في مباني الأسماء. هذا التماثل لا يكفي بذاته ولذاته من أجل تطبيق التصورات النظرية؛ بل لابد من وجود الموضع نفسه في بيئة جغرافية مُتجانسة يمكن العثور داخلها على سائر المواضع الأخرى. وبمقدار ما يثير هذا الأمر مشكلات مستعصية على الحل، بالنسبة إلى القراءة الاستشراقية للتوراة؛ فإنه- على العكس من ذلك- يقدم مساعدة مذهلة بالنسبة إلى الباحث في جغرافية اليمن، حيث الترابط بين المواضع والجماعات المقيمة فيها يصبح منطقياً ومفهوماً وحقيقياً مع كل اكتشاف. إن مشكلة الجليل التي لم تواجهها القراءة الاستشراقية بشجاعة علمية تكمن هنا: تصف التوراة جليلاً لا يمكن مُطابقته مع الجليل الفلسطيني؛ ومع ذلك فقد مضت هذه القراءة قُدماً باتجاه مُطابقة الاسمين وتخيلهما على أنهما المكان نفسه. إليكم وصف التوراة للجليل الذي يُزعم أنه الجليل الفلسطيني (يشوع: ٢٠: ٤: ٢١: ٩ من النص العربي لتسهيل عودة القارئ، و: ١٩: ٤٢: ٢٠: ٩: من النص العبري):

ويقد شو - ءت - قدش - ب - جليل - ب - هر - نفتلي - وءت - شكم - ب - هر - ءفرئيم - وءت - قريت - ءربع - هيء -

حبرون - ب - هر - يهوده - وم - عبر - ل - يردن - يريحو - مزرحه - نتنو - ءت - بصر - بمدبر - ب - ميشر - م - مطه - رءوبن - وءت - رءمت - ب- جلعد.

(وحرَّموا قدس الذي في الجليل في جبل نفتلي وُشكم في جبل ءفرئيم والقرى الأربع، وهي حبرون في سراة يهوذه؛ ومن عبر اليردن يريحو شرقاً. أعطوا بُصره التي في البادية وميسر من سبط رؤبين ورامات في جلعد)

النص الآنف، على خلاف ما هو الحال في الطبعة العربية من التوراة، يشير إلى أسماء مواضع بعينها ترتبط بالجليل. وفي الواقع يستحيل مُطابقة هذا التوصيف مع وصف الجليل الفلسطيني، فليس ثمة جبل يُدعى جبل نفتلي- نسبة إلى السبط الإسرائيلي- كما لا يوجد قرب الجليل موضع قديم يسمى شكم في جبل ء فرئيم-شكيم في سراة الفروين. وفضلاً عن ذلك لا وجود لجبل يهوذه (سراة يهوذه بما أنها توصف في نصوص توراتية أخرى بأنها سلسلة جبال يهوذه). وليس ثمة راموث-راموت حسب ضبطنا للاسم ضمن أراضي جلعد- جلعاد حسب الرسم الشائع. وإلى هذا كله فقد قام المترجمون بإعطاء مكافئ اعتباطي لبعض الأسماء، لأنهم لا يعرفون أي شيء عنها، مثل وادي ميشر-ميسر، التي ترجمت إلى السهل؛ بينما هي وادي ميسر في اليمن. وإذا ما قمنا بتقويم هذا التوصيف من الناحية الجغرافية الصرف؛ فإن الفضاء الموصوف على أنه في فلسطين، سيبدو خيالياً؛ إذ يصبح سبط يهوذه - في هذه الحالة- شرقي نهر الأردن بينما نعلم من سفر يشوع أنه غربي الأردن؟ وهكذا يتضح أن القبول بهذا التوصيف على أنه توصيف للجليل الفلسطيني، سوف يكون نسفاً لكل مقولات التوراة عن أسباط غربي الأردن؟

ما حقيقة الأمر؟

هل وقع سارد النص في أخطاء مدمرة من هذا النوع بحيث أعطى وصفاً للجليل، مغايراً لما هو عليه في الواقع؟ لنبدأ أولاً بوصف القدس التوراتية التي نراها -هنا- في الجليل. قدس هذه، وحسب توصيفها التوراتي لا صلة لها بمدينة القدس الفلسطينية؛ فهي هنا تنصرف إلى جبل قَدَس المبارك في سلسلة جبال السريح، إلى الجنوب من تعز. كما أن قدس- في هذا النص - هي غير قدش برنيع في سفر التكوين. في الحقيقة نحن أمام ثلاث أماكن داخل نصوص التوراة، يُدعى كل منها القدس[١] وهي على التوالي: قدس الجليل- في النص أعلاه- وقدس برنيع- في سفر التكوين- وقدس أخرى سيرد الكلام عليها.

ولذلك يجب أن نعيد فهم واستيعاب معنى الكلمة العبرية (يقد شو[٢]) والتي نرى أنها تعني يحرّموا. ونظام تحريم المواضع في الثقافة البدوية القديمة معروف جيداً في الإخباريات العربية، وحتى اليوم تسمى جبال مكة جبال الحرم أي الجبال المقدّسة. إن قدس هذه وطبقاً للوصف الآنف هي جبل بعينه في الجليل تمّ تحريمه وسميّ قَدَساً. وفي الواقع لا يوجد في فلسطين جبل يُدعى قدس كما أن القدس ليست فوق جبل؛ بينما يوجد جبل قدس العربي الشهير في الجليل اليمني؟ وإلى هذا فإن عبارة (يردن يريحو شرقاً) تتناقض كلياً مع الوصف التقليدي لأريحا الفلسطينية. وأخيراً: لدينا مشكلة رسم الكلمة رءمت والتي تمت مكافأتها في الطبعة العربية من التوراة ب-راموث والصحيح راموت-رامات طِبقاً للضبط العربي واستناداً إلى الرسم العبري للكلمة. إننا لا نعرف-في الجليل الأعلى الفلسطيني- لا اليوم ولا بالأمس البعيد، ولا في أي جزء من

---

(١) انظر ما سنكتبه تالياً عن القدس بوصفها ثلاثة أماكن.

(٢) قارن بين الواو في آخر الاسم أو الفعل في العبرية، وبين مثيلتها في الحميرية: مراهمو: أمرائهم. ولنلاحظ صلة الكلمة باسم العاصمة الصومالية مقاديشو (المقدسة).

فلسطين التاريخية، موضعاً يمكن وصفه بأنه قدس أخرى تمّ تحريمها (تقديسها). ولذا؛ فإن فهم النص برمته يجب أن ينطلق من هذه الحقائق. يقع الجليل التوراتي عبر وادي اليردن -وليس عبر نهر الأردن البلد العربي- وإلى الشرق منه. من الناحية الجغرافية المحض ليس بوسع أي عاقل أن يفكر مجرد تفكير، بإمكانية المُطابقة بين الاسمين، بينما تبدو الجغرافية متناقضة بشكل صارخ. ولكن إذا ما قمنا بنقل هذه الصورة المِخْيالية للجليل إلى الحيز الجغرافي الحقيقي، أي الجليل اليمني على تخوم الحجاز؛ فإن من الممكن آنئذٍ العثور على سائر الأسماء الواردة في النص بما فيها جبل قدس. في وصفه للجليل وهما جليلان[١] أحدهما من مواضع الوحش على طريق اليمامة إلى نجد، وجليل آخر أدنى على طريق محجة نجد (وسوف نرى تالياً المغزى الحقيقي من وجود جليلين في التوراة؟) يقول الهمداني (صفة: ٢٩٥) ما يلي:

ذو الجليل من مواضع الوحش. وذو الجليل على محجَّة نجد، فيه ثُمام وهو الجليل.

وعند ياقوت (٢: ١٢٩ وصاحب الروض المعطار ١٥٧) يُعرّف جليل اليمامة بأنه وادٍ في بلاد طيئ. وكنا رأينا مما سبق بصدد الفلستيين، أن بلاد طيئ القديمة عرفت معبوداً يُدعى الفلس، كما عرفت مواضع مثل سلمى-سلمى في نشيد الإنشاد[٢] وأبان- أبان عند صموئيل. ومن الواضح

(١) وهذا أمر مثير للدهشة حقاً فهناك جليلان (أعلى وأسفل) عرفتهما القبائل العربية في اليمن وعلى تخوم الحجاز. ويبدو أن القبائل اليمنية والعربية نقلت معها إلى بلاد الشام وفلسطين هذين الاسمين في أثناء هجرة كبرى

(٢) أنظر ترجمتنا لنشيد الانشاد في كتابنا الصادر حديثاً عن دار الفرقد - دمشق ٢٠٠٥ (قصة حب في أورشليم) وفيه تحديد دقيق لجبل سلمى.

أن هذا الوادي الموبوء كان موحشاً ومهجوراً في عصر الهمداني بحيث وصفه بأنه من مواطن الوحش. قال النابغة الذّبياني في القصيدة الشهيرة التي يقول مطلعها : يادار مية بالعلياء فالسند :

كأنَّ رَحْلي وقد زال النهارُ بنا يوم الجليل على مُستأنسٍ وَجِدِ

من وحش وَجْرَة موشي أكارعهُ طاوي المُصَير كسيفِ الصيقل الفردِ

وفي الروايات التاريخية العربية-الإسلامية أن بلال مؤذن الرسول ﷺ كان إذا ما مرض وذهبت عنه الحمى يرفع عقيرته وينشد :

ألا ليت شعري هل أبيتَنّ ليلةً بوادٍ وحولي أذخر وجليلُ

الجليل-في هذا البيت من مُغناة بلال- ينصرف إلى النبات الذي أخذ منه الوادي اسمه الجليل ؛ والذي يعني زهور الجليل الجبلية أو الثمام. إن وجود وادٍ في بادية اليمامة بهذا الاسم إلى الشرق من وادي (يرد- ن) اليمن-يرد في التوراة ينسجم تماماً مع توصيف التوراة للمكان. ولكن ومن أجل رسم صورة دقيقة عن جغرافية المكان الموصوف فسوف نباشر بالبحث، عن أسماء المواضع المذكورة في النص ومن بينها اسم وادي ميشر. يُكافأ اسم الموضع التوراتي ميشر-ميسر بكلمة السهل، وذلك ما يثير اشتباهنا لأن الكلمة العبرية لا تؤدي معنى سهل مطلقاً. إن كلمة ميشور-ميسور هي التي تؤدي معنى سهل وليس ميسر. وهناك فارق واضح بينهما. ولذلك فإن الاسم ميسر بالسين المهملة ومن دون حرف الواو، هو المكان المقصود ويراد به اسم وادٍ لم يعد يُعرف اليوم لأنه اندثر كاسم، وقد بحث عنه العلّامة الأكوع في المكان الذي وصفه الهمداني، فلم يعثر له على أثر في سراة مَذْحِج (صفة : ١٧٦) :

> **(أرض بني زائد أولها الخزانة-..-ولهم دبان ومسر. وكل هذه المواضع لبني زائد بن حي- المحقق: مسر لا يُعرف).**

هذا الوادي الذي لم يعد موجوداً اليوم في سراة مذحج، وسجل الهمداني اسمه في صورة مسر بحذف الياء واستبدالها بالحركة الإعرابية الكسرة، هو ذاته الوادي الذي ذكره امرؤ القيس (الحميري) في قصيدة شهيرة:

وما جَبُنَتْ خيلي ولكن تذكرتْ مرابطها في بربعيص ومَيسرا

ها هنا وادي ميسر تماماً كما في الرسم العبري. أما بربعيص هذه التي ذكرها الشاعر بالتلازم مع ميسر فهي من مواضع قبيلة طي اليمنية في اليمامة. على أن الهمداني أعاد تسجيل الاسم نفسه في ضبطه الصحيح (صفة: ٢٩٤): (تاذق وطرطر وبربعيص وميسر مواضع في بلد طي). من ذلك كله يتضح أن المغزى الحقيقي لتوصيف التوراة واستخدامها كلمة مدبر -بادية في تحديد موضع ميشر- ميسر، يكمن في الإشارة إليه بوصفه أحد وديان اليمامة، وليس سهلاً من السهول كما في الترجمة العربية السائدة. أما باصر- بصر، حسب ضبطنا فهي التي ذكرها خفاف بن نُدبة السُّلمي. قال:

إنْ كنتَ جلمود بُصر لا أوبسهُ أوقد عليه فأحميَهُ فينصدعُ

وقال ساعدة بن جؤيّة يصف المطر في بادية نجد (صفة: ٣٥٢):

والدوم من سعيا وحلية منزل والدوم جاء به الشجون فعيلبُ

ثم انتمى بُصرى وأصبح جالساً منه لنجد طابق متغرّبُ

ويبدو لي أن رواة شعر رؤبة ضبطوا بُصرَ هذه، في صورة بُصرى مع اندثار الموضع الأصلي في نجد، وشيوع ومن ثم غلبة اسم الموضع في بلاد الشام بُصرى عليه، بينما المقصود به بُصرة- بصر نجد القديمة والزائلة. وموضع بُصرَ هذا هو ذاته الموضع الذي يرد في التوراة، بالتلازم مع موضع سلام كما في قصيدة ذي الرّمة. إليكم هذه المقاربة بين بُصرة عند ذي الرُّمة و بُصرة عند إرميا وعاموس. قارن بين اسمي الشاعرين ذي الرمة وإرميا:

ذو الرمة	إرميا (النص العبري: ٤٩: ٢٣:١١)
إذا ساقيانا أفرغا في إزائه على قلصٍ بالمقفرات حيام	بُصرة وكل منازلها تصير خرابا
تداعين باسم الشيب في متثلمٍ جوانبه من بُصرة وسلام	وفي يام وزوف يُسمع صراخها فيفرش أكتافه على بُصرة
	عاموس (النص العبري: ١: ١٢: ٢:٩)
	سأرسل النيران في تيمن لتأكل قصور بُصرة

إن بُصرة هنا ليست بصرى الشام، ومن غير المنطقي تخيُّل ذلك لأن صراخها سوف يُسمع في جبل يام وفي أرض زوف، وهما موضعان في اليمن. ولنقارب الجملة الشعرية (صخور بُصرة) مع توصيف السّلمي في قصيدته الآنفة: جلمود بُصر. إن الكلمة العبرية (ء رمون) تُترجم عادة إلى قصور، أبنية فخمة، بلاط، قلعة، حصن. لكن المقصود من (ء رمنوت) في النص التوراتي يختلف عن المقصود من (ءرمون) القاموسية. ولذلك فلابد أن الشاعر أراد الآرام وهي الصخور البيضاء. ومنها جاءت دلالة الاسم بُصرة فهي كل حجارة بيضاء. في هذا النطاق من التحليل يتكشف أمامنا التوصيف الجغرافي كمعطى سردي، غرضه الإشارة إلى مواضع كانت مسرحاً لصراعات وتنافسات قبائلية لا صلة لفلسطين أو بلاد الشام بها. والآن أين تقع راموث الاستشراقية وراموت الحقيقية؟ وهل يعرف الجليل الفلسطيني بُصرة وراموث- راموت-؟ بكل تأكيد لا يوجد في فلسطين موضع يُدعى بُصرة أو راموت. بينما يعرف الجليل اليمني سائر هذه المواضع؛ فهناك وادي الرُّمة-راموت غير بعيد عن بُصرة ووادي ميسر. وكنا أشرنا مراراً إلى وجود وادي الرُّمة، بالتلازم مع وجود منازل وجبال ووديان قبيلة طي مثل: ميسر، جبل سلمى، أبان. والأهم من ذلك

وجود جبل قدس الأكثر شهرة في الشعر العربي؛ وهو من الجبال التي تشكل معلماً بارزاً من معالم وادي الرّمة (انظر القسم الخاص بمشكلة القدس التوراتية).كل هذا يعني أن الجليل التوراتي ليس سوى الجليل اليمني، حيث دارت فيه معارك وحروب بني إسرائيل بوصفهم قبيلة يمنية زائلة. إن لمن المستحيل على المرء، مهما كانت درجة معارفه الجغرافية متدنية، تخيُّل وجود الجليل الفلسطيني والقدس والرمة وميسر وبصر في فضاء جغرافي فلسطيني واحد؛ وببساطة لأن مثل هذه الجغرافية لاوجود لها ومن العبث البحث عنها هناك.

٧ : جاسان ومشكلة (أرض مصر-مصريم)

ثلاثة أماكن باسم قدس؟

يُزودنا المثال الآنف الخاص بمشكلة الجليل التوراتي، بنموذج هام للغاية عن نمط المشكلات التي تثيرها القراءة الاستشراقية للتوراة؛ فهي تختلق وتلفق جغرافية لا وجود لها على سطح الأرض من جهة، كما تقوم بتكميم وحجب الجغرافية الحقيقية الموصوفة بدقة داخل النصوص من جهة أخرى. إليكم هذا النموذج من التلفيق (تك: ٤٧ : ١٩ : ٤٩ : ٤ : من النص العبري):

> ويشب- يسرءل-ب-ءرص-مصريم-ب- ء رص- جسن

وحسب الفهم التقليدي الشائع فإن المقطع يشير إلى ما يلي:

> (وأقام إسرائيل في أرض مصر في أرض جاسان).

من المستحيل- طِبقاً للفهم التقليدي للتوراة، السائد والشائع اليوم، العثور على أرض مصر في أرض جاسان. إننا لا نعرف مثل هذه الأرض ولا نحسب أن أحداً من الجغرافيين اليونانيين شاهد أو عرف أو سمع أو وقع مُصادفة، على أرض تُسمى أرض مصر في مكان يُدعى أرض جاسان. وليس ثمة في تاريخ هيرودوت مثلاً، والذي زار مصر وشاهد مدنها و تجول في قراها نحو ٥٠٠ ق. م، (وهذا عصر كتبت فيه التوراة على أحسن تقدير) أدنى إشارة إلى وجود أرض جاسان هذه. فهل العبارة

الآنفة هي من نسج خيال سارد النص التوراتي؟ أم أن المشكلة تكمن في فهم المعنى الحقيقي لاسم مصر هنا؟ كانت محاولة د. كمال صليبي، لفك لغز مصر، على أهميتها كمحاولة مبكرة ورائدة، تتجه إلى إيجاد مكافئ للاسم من بين أسماء القرى في عسير. ولذلك تركزت في الجانب اللغوي المحض. ما نقوم به اليوم مختلف كل الاختلاف: سنقوم بربط الجانب اللغوي بالتاريخ وبربط التوصيف الجغرافي بالشعر القديم. لنلاحظ، قبل كل شيء، أن مصدر الخلط الذي وقع فيه مترجمو وقراء التوراة، يكمن في فهم الاسم في العبرية (مصريم)[١] وهو اسم يُستخدم تارة بالتلازم مع كلمة (مشفحت) أي: عشيرة، وتارة بالتلازم مع كلمة (ء رص)- أرض؛ بينما يُستخدم مرات لا حصر لها في معرض الإشارة إلى أحداث تاريخية حقيقية لها صلة بالحروب الآشورية مع مصر الإقليم العربي. وبالطبع؛ فمن غير المنطقي تصوُّر أن كل هذه والتوصيفات يُقصد بها الاسم نفسه، ومن غير المعقول كذلك أن تسمي التوراة مصر الإقليم بأنها عشيرة أو أرض. ولذلك لابد من التمييز بدقة بين سائر هذه المقاصد. (انظر مثلاً: وصف سِفر زكريا: مشفحت- مصريم: عشيرة مصر، وقارن مع وصف سفر التكوين أعلاه: ء رص مصريم: أرض مصر). برأينا أن مصدر الخلط يكمن هنا: أنَّ المقصود بـ مشفحت-مصريم: عشيرة مصر؛ إنما هو عشيرة المُضَريين أم القبائل الكنعانية-الكنانية التي (لعنتها التوراة) لأنها كانت تُسيطر على طول سواحل البحر الأحمر. والساحل المعروف عند الجغرافيين العرب بساحل كنانة؛ هو الساحل الذي ورثته أكبر بطونها وأقواها قبائل كنانة التي أنجبت قريش. وفي جزء من هذا الساحل وعلى

---

(١) تأكيد التوراة على أن (مصريم) هي (مشفحت- مسفحت) أي قبيلة، عشيرة، يدعم تصورنا عن وظيفة حرف الميم في الاسم، فهو أداة الجمع المنقرضة التي استخدمتها اللغة الحميرية: حمريم: الحميريون، مصريم: المُضْريون.

أطرافه أقامت قبيلة مُضَر. كانت أرض المُضَريين بالفعل، جزءاً من إقليم يدعى أرض جاسان-المدينة الساحلية القديمة والمزدهرة- هذا ما يُفسر لنا المعنى الحقيقي للعبارة التوراتية (ء رص مصريم ب-ءرص جسن). إليكم وصف الهمداني البليغ والدقيق لجاسان التوراة ولساحل المُضَريين (مضر الأم الكبرى لقبائل كنانة، انظر: صفة ١٣٦):

وادي جازان، ووادي ضمد ومآتيهما من غيلان ويسقيان أرض ضمد وجازان إلى البحر.

هذه هي أرض جازان -حرفياً أرض كما في التوراة- وهي الوادي والقرية الساحلية؛ التي تتصل بساحل عثر الأكثر خصوبة وجمالاً من بين السواحل اليمنية -تبعد نحو ٣٥ كم شرقي البحر الأحمر-. وجاسان هذه موضع قديم ومعروف حتى اليوم باسم جازان. أما ساحل كنانة فهو ذاته ساحل القبائل المُضَرية الذي يتصل بجازان (صفة: ٢٣٢):

ووادي شابة وجازان وصبّا (..) وعثر ساحل جليل ووادي بيش، ووادي بيض ووادي زنيف وهو لخولان وكنانة والأزد وملوكه من بني مخزوم (..) وحلي العليا والسرين ساحل كنانة والليث (..)

ها هنا ساحل كنانة -أكبر بطون مُضَر- وقد اتصل بسلسلة من الوديان والأراضي، وردت كلها في التوراة مثل: بيش- يبيش عند يشوع وصموئيل ووادي بيض- بيت بيصي في سفر المكابيين، وفي العبرية: بيضة، بيصه؛ وحلي-حلي عند يشوع، والليث- لييش (انظر ما سنكتبه عن الليث). بهذا المعنى يصبح مفهوماً لماذا تقول التوراة: (إن أرض مصريم في أرض جازان) حيث أقام بنو إسرائيل في طفولتهم البعيدة كقبيلة يمنية سوية مع قبائل كنانة-كنعان على الساحل. وبهذا المعنى فقط، يصبح

مفهوماً وصف التوراة (ل- مصريم) بأنها (مشفحت مصريم) أي عشيرة مُضَر- المضريين. لقد احتار القدماء من جغرافيي العرب كما احتار علماء التوراة، في تحديد موضع جازان القديمة-جاسان وفي رسم اسمها؛ إذ عُرِفَت في صورة جيزان كما أُشير إليها في الشعر القديم على أنها أرض جاس-بالسين المهملة، أو جاش حتى أن الجغرافيين خلطوا بينها وبين جاش القريبة من مأرب. تُعرف مُضَر كبرى القبائل العربية البائدة عند الشعراء والمؤرخين العرب القدماء ب- مُضَر الحمراء -. وهذا اللقب الذي غلب على اسم القبيلة الحمراء، يجب أن يُحيلنا إلى الفكرة الشائعة في كتب التاريخ عن شهرة مُضَر بصناعة القباب الحمراء. كما يجب أن يُحيلنا إلى الفكرة التوراتية عن ارتباط اسم كنعان ساكنة الساحل بالثياب القرمزية- الحمراء؛ والتي يُزعم أن لها صلة بأصل الاسم كنعان. ولما كانت كنانة بطناً قبائلياً كبيراً من مُضَر؛ فإن لمن المنطقي أن يرتبط اسمها بصناعة القباب الحمراء.

قال الطرماح:

إنْ تختلف مُضَر تتبع عدوهم   أو تجتمع تُنْفِكُم عن أرضها مُضَرُ

وقال النابغة الذّبياني:

هُم طردوا عنها بَلياً فأصبحت   بلي بوادٍ من تهامة غائرِ

وهُم منعوها من قُضاعة كلها   ومن مُضَر الحمراء عند المغاور

وهُم قتلوا الطائي بالحجرِ عُنوةً   أبا جابرٍ واستنكحوا أم جابرِ

ها هنا أرض مُضر كما في الشعر القديم، وها هنا أرض جاسان- جازان القديمة في فضاء جغرافي واحد لا علاقة له بمصر البلد العربي.

٨ : حول الأردن التوراتي: لُغز ها-يردن

مثَّلَ اسم الأردن-في النصوص التوراتية - وعلى أكمل وجه، النموذج التلفيقي الأكثر خداعاً وقوة إغراء، بالنسبة إلى القراء المُتدينين نظراً لارتباطه بقصص العبور والتعميد المسيحي. وأصبح الاسم، بفضل هذا الباعث، لُغزاً مُحيّراً ناجماً عن سلسلة من المُطابقات التعسفية التالية، التي قام بها المِخيْال الاستشراقي، بين اليردن التوراتي والأردن البلد العربي؛ أسفرت بدورها، عن ظهور جغرافية غير معقولة وغير قابلة للتصوُّر. وفي هذا النطاق الشائك من المسألة اجتهد د. كمال صليبي، مرة أخرى، سعياً وراء إيجاد مخرج منطقي من مأزق الاسم وإشكاليته، فاقترح في كتابه (التوراة جاءت من جزيرة العرب) ترجمة بديلة للاسم العبري (ها- يردن) تأخذ بنظر الاعتبار الدلالة المباشرة للاسم. وهكذا ظهر اسم (الشفا أو الشق) كبديل عن (ها- يردن). ومع أن هذا الاقتراح لا يلبي الحاجة إلى حل حقيقي؛ فإن الترجمة-حتى في هذه الحدود-هي ترجمة صحيحة لأنها تعطي بديلاً دلالياً جيداً.

تقوم وجهة نظر كتابي هذا وعلى العكس مما اقترح صليبي؛ على اعتبار (الشفا أو الشق)- رغم وجاهته ضرباً من ضروب مُفاقمة الغموض والالتباس غير القابل للحل. فهل لدينا بديل آخر يُساعد في تفكيك هذا اللُغز؟ إن نصوص التوراة تقدم الصورة التالية للأردن المزعوم (مثلاً: يشوع: ٢٠ : ٤ : ٢١ : ٩):

ب- هر- يهوده-م-عبر- ل-يردن-يريحو
(في سرو يهوده عبر يردن يريحو- أريحا)

فُهم الاسم يردن تقليدياً -من دون أداة التعريف العبرية- على أنه يعني نهر الأردن. لكن التوصيف الجغرافي المُعطى لهذا الأردن يجعل من شبه المستحيل قبوله، وذلك بسبب التناقض الصارخ بين الواقع والنص التوراتي لأن (أردن أريحا-يردن-يريحو) هو مكان مجهول ويستحيل تحديده؛ إذ لا تعرف جغرافية فلسطين التاريخية ولا شرق الأردن موضعاً أو مكاناً أو مدينة أو جبلاً يُدعى أريحا؛ يُمكن أن يُنسب الأردن إليه. أما أريحا الفلسطينية؛ فإن من الصعب إعادة تنسيبها وربطها بالضفة الشرقية من نهر الأردن، وذلك لبعد المسافة الفاصلة بينهما. وإذا ما أضفنا إلى هذه المعضلة سلسلة من الإشكاليات الخاصة، بوجود مواضع تذكرها التوراة عند ضفاف وادي الأردن مثل (جلجال، وبيت ءون، وبحر الملح) وسواها مما ذكرناه؛ فإن القبول بالمُطابقة سيعني قبولاً بالتلفيق. ويبيّن البحث الأثري، حتى اللحظة، أن من الصعب إيجاد رابطة لغوية أو جغرافية أو تاريخية، بين الاسم التوراتي (ها-يردن) ونهر الأردن. ولئن وجدت، وبالضد من إرادة البحث التاريخي النزيه، مثل هذه الرابطة الواهية والشكلية وغير المُبرهَن عليها؛ فإنها لن تكون سوى صورة زائفة من صور المطابقات المِخيْالية التي ربطت بين قصص التوراة وفلسطين. ولأجل تفكيك لغُز الأردن التوراتي هذا؛ فسوف نعود إلى الهمداني لمُقاربة نصوصه الرائعة مع نصوص صموئيل ويشوع وسفر القضاة. يعرض علينا الهمداني (صفة: ١٣٤) كل ما يستلزمه عمل تفكيكي من هذا الطراز. ثمة وصف دقيق وشامل لسلسة من الأودية والشِّعاب والجبال والمنازل القبائلية في مخلاف خولان-كولان[١] (جولان في التوراة والعبرية تنطق الخاء جيماً مصرية، وحتى اليوم ينطق اليمنيون المعاصرون الجيم العربية في صورة جيم مصرية) لا يمكن مضاهاته إلا بوصف التوراة نفسها. وثمة

---

(١) انظر حول جولان التوراة الصفحات القادمة.

وصف دقيق كذلك لسلسلة من الأماكن في الحيز الجغرافي لغربي همدان، وهو نجد ممتد مليء بالأودية والمرتفعات وعيون الماء. هذا التوصيف يتناظر كل التناظر مع أسفار التوراة وتوصيفاتها التفصيلية. ولكن إلى جانب هذا التوافق والتماثل في التوصيف؛ هناك الأسماء ذاتها دون أدنى تغيير. إن أول ما يثير اهتمام القارئ هو وجود الوادي نفسه الذي تسميه التوراة يردن، وهو ليس شقاً أو شَفَا كما افترض كمال صليبي؛ بل وادٍ قديم أخذت القبيلة منه اسمه أو أعطته له، نعني القبيلة اليمنية- التوراتية يرد بن مهلئيل (انظر أنساب التوراة في سفر التكوين وكذلك أنساب اليمنيين قي الإكليل فهو: يرد بن مهلئيل، وانظر كتابنا شقيقات قريش - الريس للنشر، بيروت: ٢٠٠٢) ولأننا لا نريد الانسياق وراء اللعبة اللغوية أو التماثلات الشكلية؛ فسوف نكتفي بالإشارة إلى أن اسم القبيلة اليمنية البائدة يرد، يُنطق في صورة يردن بزيادة النون، وهذا تقليد ثقافي قديم موطنه الأصلي مخلاف الكلاع اليمني. والتوراة من جانبها، تسجل اسم القبيلة في الصورة ذاتها يرد بن مهلئيل بن سام بن نوح (انظر الجدول في ملاحق كتابنا شقيقات قريش). والمثير أن الهمداني يعدّها من القبائل العربية البائدة التي عاشت في بلاد الشرق. وهذا التعبير تستخدمه التوراة حرفياً. هنا نصّ الهمداني عن وادي يرد أهم وديان اليمن القديم:

وادي مَوْر وهو ميزاب تهامة الأعظم. ثم يتلوه في العظم وبُعد المآتي: زُبيد. ومساقي مَوْر تأخذ غربي همدان جميعاً، وغربي بعض خولان وبعض غربي حِمْيَر. فأول شِعابه ذُخار وشريب من جبال ذُخار، ومسوْر فالشوارق (..) فبلد صُحار فبلد بني حارثة، وحماد، ويرد(..) فأدران وشرس (......) فبلد عذروهنوم فيه أراب.

إذا ما قمنا بتفكيك هذا النص؛ فإن الجماعة القبائلية البائدة التي تحمل اسم يرد (يردن) والتي تقطن عند ضفاف وادي مور، وتنسب عند

الهمداني إلى (يرد بن مهلئيل وينطق في صورة يردن) هي من أعطى أو أخذ اسمه من اسم الوادي. وهو، كما نرى فرع من أعظم فروع وادي مَوْر (مور في سفر التكوين). وقد تكون للاسم من حيث الدلالة المباشرة، صلة بالكلمة العبرية-العربية يرد بمعنى: بلغ، وَرِدَ. أي أن للدلالة صلة بدلالة وصول مياه الوادي إلى هذا الجزء من اليمن. وفي العربية: وَرَدَ المكان، وَرَد الماء بلغه ووصله. هذا الوادي الكبير الذي تتدفق مياهه من أعلى تهامة وتستمر حتى غربي همدان في نجد اليمن، فتسقي خولان وسرو حمير هو شعبة من شعب وادي مَوْر؛ عند ضفافه أقامت القبيلة موطنها ومنازلها المعروفة بـ بلد يرد (بلد يردن) حيث تختلط، آنئذٍ مياه الوادي بمياه سلسلة من الوديان لتبلغ سراة هنوم-هنوم في التوراة. بكلام آخر: إن مياه الوادي تشق طريقها من تهامة على امتداد السراة اليمنية. وهذا مغزى عبارة يشوع (ب-هر- يهوده -م-عبر- يردن: في سرو يهوده عبر وادي يردن). لسوف نجد في هذا المكان طبقاً لوصف الهمداني ويشوع سائر لمنازل والمواضع المذكورة ضمن قائمة سبط يهوده مثل: عذر-عذر وهنوم- هنوم و شرس- شرس وأدران - أدر وأراب- أراب. وهذا أمر مدهش للغاية. في إطار تفكيك نصّ الهمداني الآنف ومُقاربته مع وصف يشوع لوادي يردن نعرض هنا التماثلات التالية:

١

نص الهمداني	نص يشوع (٦٢: ٢١: ١٥)
يرد فأدران وشرس (..)	من جهة الشمال يردن ثم تهبط إلى طرف السرو
عذر وهنوم	تجاه هنوم وتنحدر في وادي هنوم

٢

نص الهمداني	نص يشوع
ويرد وشرس فبلد عذر	وفي السرو أراب وشرس
(..) وأراب	

من الصعب بالفعل، تخيل وجود مُصادفة جمعت بين نصَّي الهمداني ويشوع في وصفهما لليردن. إن الأردن الاستشراقي المُتخيل يعرف شرس وأراب كما يعرف عذر وهنوم، بينما لا يعرف نهر الأردن الحقيقي أياً من هذه الأسماء؛ فليس ثمة سراة عذر وهنوم فيها أراب، كما لا يوجد فرع عظيم للنهر يشق السراة طولاً ليبلغ كل هذه المواضع. ومن غير شك؛ فإن الهمداني المولود في ٢٨٠ هجري ويشوع المولود نحو العام ١٢٥٠ ق. م، لم يكونا في وضع يؤهلهما لتقديم وصف جغرافي عن نهر الأردن؛ بل كانا يصفان المكان ذاته والجماعات ذاتها في السراة اليمنية. وبالطبع؛ فإن النصين لا يقدمان وصفاً جغرافياً لفلسطين التي يخترقها نهر ها- يردن التوراتي؛ بل لسراة اليمن التي يخترقها وادي ها- يردن (وهو يدعى أيضاً وادي مَوْر) الذي يصبُّ من أعلى تهامة فغربي همدان وخولان، حتى يبلغ مضارب القبيلة التي ستعرف به، وليأخذ هناك اسمه الجديد وادي يرد- يردن حسب نطق أهل اليمن. هذا وحده ما يُفسر لنا العلاقة الجغرافية الغامضة والمُلتبسة بين نهر الأردن المزعوم والجولان السوري، والتي أشاعها وكرّسها المخيال الأوربي. إن نهر الأردن لا صلة له من المنظور الجغرافي الصرف بالجولان، فهو لا يخترقه ولا يصل إلى غربيه؛ بينما يبلغ وادي مور (اليردن القديم) غربي خولان-كولان بالفعل. لقد نجم عن تلفيق الأردن تلفيق موازٍ، إذ أصبح الجولان-خولان جزء من

جغرافية المرتفعات السورية الجنوبية الغربية وهذا غير منطقي. وفي الواقع؛ فإن مقاصد التوصيف الجغرافي في التوراة، تذهب صوب تقديم تصور عن مخلاف خولان وليس جولان، الذي يقع عبر اليردن بالفعل وليس عبر نهر الأردن. هل ثمة مُصادفة في وجود وادٍ مندثر في عصر الهمداني يدعى يردن، يمرّ بالأماكن نفسها الواردة في نصوص التوراة؟ ولكن: لماذا لا يكون بوسعنا العثور على الوصف ذاته والأسماء ذاتها دون تلاعب لغوي، في خريطة فلسطين التاريخية والحقيقية؟ ولماذا لا نعثر على الأردن التوراتي هذا، بحيث نتمكن من عبوره كما فعل يشوع والهمداني فنصل، أو نرتقي سلسلة جبال هنوم وعذر ووادي شرس وأراب وشمير؟ بينما ،على الضد من ذلك، نستطيع عبر تتبع وصف الهمداني للسراة العثور على هذا الوادي، وعلى بقايا القبيلة المندثرة يرد بن مهلئيل؛ بل وأن نجتازه نحو هنوم ببساطة. إن اقتراح كمال صليبي بشأن اليردن التوراتي لا ينسجم مع الحقيقة الجغرافية، إلا في حدود ضيقة لأن المقصود في نصوص يشوع وصموئيل، ليس مجرد- شفا - أو مجرد شق أرضي-صدع أرضي، بل الوادي عينه، كما رسم الهمداني اسمه في صورة وادي يرد، من دون النون الكلاعية التقليدية في النطق. يتبقى أن نلاحظ المغزى الحقيقي من استخدام نصوص التوراة لتعبير نهر في وصف الوادي. إن القدماء من العرب يستخدمون التعبير نفسه في وصف مياه الوديان، فهم يُسمون مياه الوادي نهراً، تماماً كما في التوراة نهر اليردن -وادي اليردن. لقد كانت القبائل في طفولتها البعيدة تُسمي مياه كل وادٍ نهراً؛ بما أن المياه الغزيرة تبدو في جريانها بين الجبال، كما لو كانت أنهاراً لشدة تدفق الماء فيها. ولعل وصف القدماء من الشعراء والجغرافيين واللغويين العرب لوادي الرّمة بأنه نهر -انظر ياقوت مثلاً- كافٍ بحد ذاته لفهم هذا المغزى.

٩ : جولان التوراة وجولان اليمن

في سِفر يشوع (النص العبري: ٤٠ : ٢٢ : ٢١) تسجل التوراة التوصيف التالي لخولان-جولان-الجيم العبرية تلفظ في صورة جيم مصرية لعدم وجود حرف الخاء المعجم-:

> **[ول- بني- جرشن- م-مشفحت-ها-لويم-م-حصي-مطه-منسه-ءت-عبر- مقلط- ها-رصح -ءت-جولان-ب-بسان].**
> **(ولبني جرش من عشائر اللويين [لؤي] من حصي التي لسبط منسه. ومنازل الإجارة -من القتل- خولان وفي بُشان)**

في سائر نصوص التوراة العربية، وحيث وردَ الاسم كولان- خولان، تمت مكافأته بالرسم العربي جولان. علماً أن القراءة الاستشراقية تقول: إن المقصود بجرش التوراة جرش الأردن. وفي هذه الحالة يصبح علينا تخيل الفكرة الخرقاء التالية: أن أهالي جرش الأردنية حصلوا -في وقت ما من التاريخ- على الجولان السوري، وأقاموا فيه طبقاً للنصّ التوراتي الآنف؟ وهذا أمر مستحيل وغير معقول لا جغرافياً ولا تاريخياً. كما أن اسم لويم يُرسم عادة في صورة لاويين؛ بينما المقصود به وطِبقاً للرسم العبري اللويين (من لؤي). ولؤي هذا بطن شهير من بطون العرب الضائعة وغير المُعترف بها، لضياع نسبها واختلاطه وتداخله بأنساب أخرى؛ وهم من سكان مخلاف خولان اليمني وجُرش (انظر كتابنا: شقيقات قريش ففيه تفاصيل وافية عن مشكلة أنساب لؤي-لوي). وإذا ما صدقنا هذه المزاعم عن الجولان السوري، الذي حصل عليه اللاويون من بني

جرش؛ فسوف يتحتَّم التساؤل عن أي أثرٍ محتملٍ في المرتفعات السورية؛ يمكن أن يدلَّنا إلى القبيلة وبطونها؟ وإلى هذا كله؛ فإن الجولان السوري لا يعرف في تاريخه وتقاليده القديمة، شيئاً عن منازل - أماكن- خاصة تأوي القتلة أو المطلوبين للعدالة القبائلية؟ بينما؛ على الضد من ذلك، هناك تقاليد يمنية- عربية قديمة تشير إلى هذا العرف أو القانون القبلي، الذي يؤمِّن للقاتل والمُطارد حماية شرعية تحترمها كل القبائل وتُعرف بقانون الإجارة. وكنا شرحنا هذا الأمر في (كتابنا قصة حب في أورشليم - مصدر مذكور) في هذا السياق تمَّ التلاعب باسم بسان- بسن دون تصويت، عبر مكافأته برسم عربي مماثل لاسم جبل حوران العظيم باشان. وهكذا أصبحنا نرى المترجمين يرسمون بسان التوراتي، في صورة باشان استكمالاً للمطابقات الزائفة وغير العلمية. بيد أن المُعضلة غير القابلة للحل والتي سترتطم بها مثل هذه القراءة، تكمن هنا: لا وجود لكولان- خولان وجبل بسان- باشان في بلاد الشام، ضمن منازل بني جُرَش الأردنيين؟ فكيف نوفق بين الأمرين؟ من المستحيل بالنسبة للعاقل قبول التصور التالي استناداً إلى التأويلات السائدة: إن بني جرش الأردنيين- سكنوا في حوران الشام وحصلوا على ملكية الجولان السوري مع جبل باشان؟ وإلى هذا كله؛ فإن المكانين غير موجودين قرب المواضع التي يوردها النص التوراتي، فليس هناك نهر الأردن ولا وادي دبرة ولا وادي رحب. كما لا وجود لوادي مشال-مثال؟ بينما نجد سائر هذه الأسماء في خولان اليمن؟ إذا ما صدق المرء بدافع عدم المعرفة وحدها أو لأغراض السجال، أن كولان التوراة هو ذاته جولان سورية؛ فإن عليه أن يجد دليلاً واحداً يؤكد أنه على مقربة من وادي دبرة، أو أن يعثر على دليل لغوي أو جغرافي أو تاريخي واحد يؤكد وجود وادي رحب هناك؟ أو يثبت وجود بيت بسان ضمن الجولان السوري. إن تفكيك هذه الصور المُلفقة وإعادة تركيبها يتطلب مقاربات جديدة لنصوص الهمداني ويشوع.

يشوع: ٣٦: ١٠: ٢١	الهمداني: صفة: ٢١٦
وأُعطي بني جرش كولان	وادي دبـرة ووادي مـرحـب وعـرقـب الحد من خولان
منزلاً للإجارة (من القتل)	يختلط بينهما بوسان في بوسان
ودبرة ورحب مثال	

ها هنا وادي دبرة -دبرة و كولان- خولان ووادي بُسان-بوسان (باشان) وإلى جوارهما وادي مرحب-رحب. فهل ينبئ هذا التماثل في التوصيف الجغرافي بوجود مُصادفة محض، جمعت الوديان والمواضع في فضاء واحد والأسماء نفسها؟ أم أن الهمداني كان يصف حقاً، المكان نفسه لخولان التي وصفها يشوع من قبل؟ لا شك أن وجود وادي بُسان-بوسان كمكان للإجارة من القتل قرب مخلاف خولان، حيث تختلط مياهه بمياه وادي دبرة ووادي مرحب-رحب، يشير إلى أن المكان مثالي للغاية بالنسبة إلى القبائل لتُعده منزلاً للإجارة من القتل؛ فها هنا سلسلة من الوديان والمرتفعات الوعرة المُتداخلة بعضها مع بعض؛ حيث أقامت أقوى القبائل اليمنية في مكان تحول مع الوقت، إلى مخلاف -مملكة مزدهرة بفضل خصوبته. يقع مخلاف خولان إلى الشرق من صنعاء وقبائله العربية اليمنية تُعرف بـ (خولان العالية) الذين ذكرهم الرسول ﷺ: «اللهم صلِ على السكاسك وعلى الإملوك أملوك ردمان وعلى خولان العالية».

وهذا المخلاف يُسمى خزانة اليمن؛ ففيه سلسلة من الوديان والمياه التي تُعدّ من عيون أودية اليمن؛ وهو يتصل بمخلاف همدان الممتد باتجاه تهامة من نجد والسراة اليمنية شمالي صنعاء. وأخيراً فإن المخلاف العامر يقع -عملياً- ما بين همدان وصعدة. يلاحظ العلّامة الأكوع محقق كتاب صفة جزيرة العرب: أن ضبط الاسم بوسان عند الهمداني، وردَ في إحدى

مخطوطات الكتاب بالسين المُهملة بوسان. وهذه النسخة هي التي اعتمد عليها المحقق في ضبط اسم الوادي؛ بينما وردَ في النسخ الأخرى بالشين بوشان وهو ما اعتبره المحقق تصحيفاً. بيد أننا نرجح احتمال صحة الضبط الثاني؛ دليلاً على أن الاسم كان يُنطق -في وقت ما- في صورة بوشان- باشان تماماً كما في التوراة؟ وهذا ما تفيد به شهادة ياقوت الحموي (١: ٦٠٢) الذي يقول: إن بوشان مخلاف من مخاليف اليمن. (لاحظ أن ياقوت يرسم بالشين إذ يبدو أنه اعتمد النسخة نفسها من صفة جزيرة العرب). هذه هي جولان التوراة المزعومة، وهذا هو وادي بُشان- باشان إلى جوار سائر المواضع الواردة في نص يشوع. يبقى أن نلاحظ ما يلي: إن وادي يرد (اليردن) عند الهمداني يبلغ غربي خولان، وهذا ما يتوافق تماماً مع وصف التوراة عن وادي يردن الذي يبلغ خولان؛ بينما لا يصل نهر الأردن إلى الجولان السوري. وليس ثمة إلى جواره بوشان أو بوسان أو وادي دبرة أو رحب. ولنلاحظ الخطأ الذي ارتكبه المترجمون الذين ترجموا جملة (م-حصي-سبط-منسه) إلى (من حصة سبط منسه) وذلك للإيحاء أن ثمة حصة في الميراث المزعوم هي لسبط منسه. بكل تأكيد لا تعني كلمة (حصي) العبرية حصة العربية، ولا يوجد مثل هذا المعنى في الجملة قط، وإنما أراد سارد النص تعيين المواضع التي أقام فيها بنو جُرش- جرشون في أعالي اليمن. إن حصي هذه هي ذاتها (حصي) عند الهمداني واحدة من أقدم مدن اليمن الأثرية، التي لم يبق -اليوم- من معالمها أي شيء؛ لكن نقوشها التي وجدت فيها تشير إلى ماضٍ غابر وإلى تاريخ عريق. وفي حصي عثر علماء الآثار على تماثيل ونقوش وهياكل تشير كلها، إلى حقيقة أن الموضع كان عاصمة كبرى من عواصم السرو. ولنلاحظ أن حصي هذه تقع إلى الشمال من مدينة البيضاء على مقربة من البترا-بترون في التوراة. إليكم ما يقوله الهمداني عن حصي (صفة: ١٠٢):

ردإع بين نجد حمير الذي عليه مصانع رُعين[١]، وبين نجد مَذْحِج الذي عليه ردمان، وفي جنوبها حصي، وبترى من أرض السرو.

وبذلك يتَّضح أن المنازل التي أقام فيها بنو جرش-جرشن هي في حيز جغرافي واحد. ها هنا حصي التي تخيلها المحققون والمترجمون في صورة حصة أو نصيب حصل عليه سبط منسه.

(١) قارن بين الاسم اليمني الشهير رعين وبين الاسم رعنان عند اليهود الغربيين اليوم؟

١٠ : عصيون جابر، زمزم، وادي زرُد

في سِفر تثنية الاشتراع (٢: ١: ١٣) تُسجل التوراة اسم الجماعة القبائلية الزمزميون. كما تُسجل أسماء مواضع جديدة منها: عصيون جابر بوصفه الطريق الواصل بين وادي ها-عربه وإيله باتجاه برية موءب. لقد بحث علماء التوراة عن هذه الأسماء، وفتشوا عنها في الخرائط القديمة والحديثة لفلسطين فلم يعثروا على أي أثر، أو على دليلٍ، يمكن أن يُربط بينها وبين فلسطين. وفضلاً عن هذه المواضع؛ فإنَّ نصوص تثنية الاشتراع تُسجل اسم الوادي التالي: وادي زَرُد، قائلة عنه أنه الطريق المؤدي إلى قدش برنيع- قدس برنع. وبالطبع ليس ثمة من وادٍ في القدس العربية، أو على مقربة منها يُدعى وادي زَرُد؛ كان بنو إسرائيل قد اجتازوه في رحلتهم نحو قدس. علماً أن نص السِفر يشير إلى أن الجماعة القبائلية المُسماة (الزمزميون[١]) تُقيم فيه. وهنا النصوص كما في العبرية:

(١٣ : ٢ : ٣٩ : ١) ونعبر-م-ءت-ء حينو- بني-عيصو-ها-يشبيم- ب- سعير- م - درك-ها-عربه -م-ءيله-و-م-عصيون-جابر-ونفن- ونعبر- درك- مدبر-موءب.

(فجُزنا أخوتنا بني عيصو القاطنين في سعير، في طريق عربه من إيله وفي عصيون جابر، ثم تحولنا وعبرنا من طريق برية موءب)

---

(١) الزمزميون (من زمزم) وسيأتي الكلام عن هذه الجماعة التي يدلُّ اسمها على أن نصوص التوراة لا علاقة لها بفلسطين لا من قريب ولا من بعيد، إذ من أين جاء الزمزميون هؤلاء؟

١٣ : ٢ : ٣٩ : ١ : عته- قمو- وعبرو- لكم- ءت نحل- زرد
(والآن قوموا لتعبروا وادي زرُد)
٢ : ١٤ : ٣٦:ءرص- رفءيم- تحشب-ءف- هوء- رفءيم- يشبو- به-لفنيم -وها-عمنيم -يقرءو- ل-هم- زمزميم.
(وأرض رفئيم. لأن رفئيم أقاموا فيها. والعمونيون يُسمونهم: زمزميين).

ظن الكثيرون خطأ أن إيله في هذا النص هي ذاتها ميناء ومدينة العقبة الأردنية؛ فيما هي أيله المدينة الساحلية القديمة المندثرة، التي عرفتها القبائل العربية باسم إيليا-إيلياء. إن أيله- إيليا هذه هي المدينة القديمة التي وصفها القرآن بأنها (حاضرة البحر) وأشار إلى كونها مدينة يهودية في آية صريحة. ونحن نميز بينها وبين إيله الجبل، وهما معاً من المواضع الساحلية على البحر الأحمر. وسوف نلاحظ في ضوء المرويات والأشعار أن المتأخرين، من اللغويين والجغرافيين العرب والمسلمين، لم يعرفوا إيلياء هذه ولم يُميزوا أو يحددوا مكانها. ولذا اختلطت صورتها باسم الجبل أو بخليج أيله؛ حتى ظن الكثيرون أن إيلياء في المرويات العتيقة ليست سوى عقبة الأردن البلد العربي. بينما نرى أن أيله القديمة التوراتية هي التي تحولت، مع الوقت إلى إيلياء وأعطت اسمها، مع هجرات القبائل نحو بلاد الشام، إلى خليج أيله-خليج العقبة. ولذلك؛ فالمقصود من هذا الموضع التوراتي إنما هو إيلون المدينة المندثرة، التي ذكرتها التوراة والقرآن بوصفها عاصمة البحر الأحمر. بكلام آخر: إن النص التوراتي يشير إلى المدينة القديمة على البحر الأحمر قرب عصيون جابر وليس إلى العقبة الأردنية. وبطبيعة الحال لا يوجد قرب خليج إيله الأردني موضع يُدعى عصيون جابر، كما لا توجد عربه على طريق سعير. وهذا يؤكد صحة وضرورة التمييز بين الاسمين المتشابهين. ما يقوله النص

الآنف من التوراة هو التالي: إن بني إسرائيل عبروا من مكان ما على الساحل، مبتعدين عن جبل سعير الذي يقطن فيه بنو عيصو، ومتجهين صوب وادي عربه من أيله على مقربة من عصيون جابر. وهذه الأسماء لا وجود لها في جغرافية خليج العقبة الأردني المعروف بخليج أيله. يعني هذا أن هناك أيله أخرى ساحلية قديمة عبرت منها القبيلة في طريقها إلى برية موءب-مآب. وإذا ما سلمنا جدلاً بمزاعم الرواية الاستشراقية، عن عبور الإسرائيليين خليج العقبة الأردني باتجاه فلسطين (لمجرد وجود تماثل في الاسمين أيله وخليج أيله) فسوف نصطدم بمشكلات غير قابلة للحل منها مثلاً: إن الوصف في هذه الحالة يجعل من عصيون جابر وجبل سعير، قرب نجد موءب وخليج العقبة الأردني في فضاء جغرافي واحد؟ وهذا مستحيل من الناحية الجغرافية ويتعذر تصديقه. تشبه هذه المزاعم مزاعم مستشرق هاوٍ، له خبرة جغرافية بسيطة ولا يكاد يعرف شيئاً مهماً عن تاريخ العرب والفرس وملوكهم، لكنه وجد نفسه وهو ينقب في تاريخ العرب القديم، وقد عثر مُصادفة على اسم مدينة همذان الإيرانية-بالذال-؛ ظاناً أنها همدان اليمن -بالدال المهملة-. ولذا يسارع إلى المطابقة بينهما ومن دون أن يفطن إلى الجغرافية المتناقضة. سوف يقوم هذا المستشرق الهاوي بتقديم رواية تاريخية هي خلاصة خلط بين المدن الفارسية والأماكن العربية؛ وآنئذٍ سنجد أنفسنا أمام رواية تتسم بالفوضى الجغرافية والتاريخية ومستحيلة التصديق عن وجود ملوك فارس في همدان اليمنية؟ وبقطع النظر عن تاريخية الحدث التوراتي المروي وما إذا كانت الجماعة الإسرائيلية المهاجرة قد مرت، بالفعل في هذه المواضع، أم أن الأمر لا يعدو كونه تقليداً أدبياً؛ حيث اعتاد القدماء على رواية قصص وأشعار تسجل أسماء المواضع، لأجل حفظها وتسجيلها على غرار ما يفعل الشعر الجاهلي، فإنَّ التوصيف المقبول يتطلب ويستلزم رفض المُطابقات العشوائية، كما يتطلب إعادة

وضع إيله في جغرافيتها الصحيحة عند ساحل مكة إنها أيله القديمة الزائلة التي وصفها القرآن بأنها حاضرة البحر. إليكم وصف الهمداني لعصيون جابر التوراتية (صفة: ٩٢ و٢٤٠):

> **ثم ينعطف البحر -الأحمر- على اليمن مغرباً وشمالاً، من عدن؛ فيمر بساحل لحج وأبْيَنْ وكثيب يرامس، وسواحل بني مجيد من-باب- المندب؛ فساحل العميرة والعاره وساحل زبيد إلى منفهق جابر: وهو رأس غزير كثير الرياح، حديدها، إلى الشرجة بلد حكم، فباحة جازان إلى- ساحل عثر.**

إن فلسطين التاريخية لا تعرف قط موضعاً ساحلياً يُدعى عصيون جابر. وقد يستحيل، بصورة مطلقة، تخيُّل الرحلة وكأنها حدثت داخل المسرح الجغرافي الفلسطيني، بينما نجد أنها تصبح قابلة للتصديق في إطار وصف وتحديد الهمداني للموضع نفسه عصيون جابر، باعتباره الطريق الساحلي اليمني المؤدي إلى إيله وعربه انطلاقاً من زبيد. من هذا الوصف الشائق الذي يقدمه الهمداني يتضح أن مُنفهق جابر، هو مكان حقيقي يقع بين زبيد وجازان-جاسان ومن ثم؛ فليس ثمة علاقة بين فلسطين الحقيقية وبين فلسطين المُتخيّلة. تعني كلمة مُنفهق العربية القديمة- اليمنية: النتوء الجغرافي الساحلي الذي تتجمع فيه مياه البحر؛ وهذا هو المكافئ الصحيح لكلمة (عصيون) العبرية التي لم يجد المحققون أو المترجمون معنى مقبولاً لها. يقول ابن منظور نقلاً عن الزّهري (لسان: مادة: فهق): انفقهت العين الأرض تنفهق مياهاً عذبة.

قال الشاعر:

والعيسُ فوق لا حبٍ مُعبّدٍ   غُبْر الحصى مُنفهقٍ عردِ

إذا ما سرنا خلف خطا الجماعة المرتحلة وجزنا مثلهم -أخوتنا- بني عيصو (العيص وهم قبيلة يمنية معروفة)[١] القاطنين في جبل سعير- سعير عند العرب ومشينا في البادية العربية -عربه من جهة جبل إيله، وصولاً إلى منفهق جابر -عصيون جابرعند سواحل زبيد؛ فإننا سنتحوّل آنئذٍ، وتلقائياً إلى الطريق المؤدي بالفعل إلى برية موءب- قبائل مآب (انظر مآب تالياً). في الواقع لن يكون بوسعنا الوصول إلى عصيون جابر في فلسطين ولا الوصول إلى وادي زرُد-زرد؛ لأن مثل هذه الأسماء ببساطة لا وجود لها هناك. بينما نستطيع الوصول إلى وادي زرُد إذا ما سرنا في الطريق الساحلي نفسه واجتزنا البادية. إننا لا نعرف قدس برنيع يمكن الوصول إليها من وادي زرُد، كما لا نعرف طريقاً في وادي العربة الأردني المزعوم، يمكن أن يوصلنا إلى جماعة قبائلية يُطلق عليها (الزمزميون-من زمزم) ولكن، إذا ما مضينا في طريق البادية وبرية موءب طَبقاً لوصف التوراة؛ فإن وادي زرُد سيكون أمامنا بالاسم نفسه ودون أدنى تلاعب. قال جرير (معجم البكري: ١٣٨٢) واصفاً أعلى بلاد تميم حيث مواطن قبيلته، ومُسترداً ذكريات المعارك في هذا الوادي الصحراوي:

فليسَ بصابرٍ لكم وقيظُ كما صبرت لسوأتكم زرودُ

وزرود-زرد بطن من تميم أخذ اسمه من اسم الوادي الذي عاش فيه وعرف بأنه من بني مُجاشع. وتقاليد العرب تعرف جيداً هذا التقليد الذي تحمل القبيلة بموجبه اسم الوادي-أو تعطي-اسمها للمكان. تماماً كما تسمت غسان باسم مياه غسان، وكما تسمت قبائل أخرى مثل تنوخ. يصف الهمداني وادي زرود هذا على النحو التالي (صفة: ٢٤٠):

---

(١) قارن بين العيص والعاص، (عمرو بن العاص - مثلاً) وهذا اسم شهير في تاريخ الإسلام.

رؤوس هذا البحر-الأحمر- المُتعالمة بالخطر والصعوبة: الفرتك (..) ومُنفهق جابر وباحة جازان (....) ومواضع الوحش(....) وتوضح وشَربَ وزرود.

فهل هي مُصادفة لغوية أخرى أن مُنفهق جابر-عصيون جابر في النصوص التوراتية الآنفة، يؤدي إلى طريق بري من الساحل يقع فيه وادي زرود-زرود؟ وبالضبط كما في وصف الهمداني إلى الأماكن نفسها؟ هذا يعني أن الجماعة المرتحلة اجتازت المكان نفسه الذي يصفه لنا الهمداني؛ وهو طريق ساحلي معلوم وليس من نسج خيال يشوع. قال الأعشى:

أرَيتَ القومَ نارَكَ لم أُغْمض   بواقصةٍ ومَشْرَبنا زرودُ

في هذا البيت ينصّ الأعشى على أن المقصود من زرود، إنما هو الوادي في بادية تميم -وادي زرود- تماماً كما في وصف التوراة، وذلك معنى قوله (ومشربنا زرود). وقال البُحتري:

كأن رُكام الثلجِ تحتَ صدورها   جبال زرود كُثْبها تُرَبَّعُ

في هذا السياق سنتوقف عند المكان الذي تُسميه نصوص التوراة شيلو. وهو موضع غالباً ما يتم الربط بينه وبين أرض كنعان. كما يُصور على أنه- عاصمة- أو مقر إقامة النبي صموئيل. مثلاً (يشوع: ٢٠: ٤: ٢١: ٩):

١ : وتقدم شيوخ وآباء اللويين- اللاويين إلى العازر الكاهن وإلى يشوع بن نون والشيوخ والآباء في أسباط بني إسرائيل، وكلموهم في شيلو في أرض كنعان.
٢ : (يشوع: ٢٢: ٣: ١٨ فعاد بنو رؤبين وبنو جد-جاد ونصف سبط منسه من عند بني إسرائيل من شيلو التي في أرض كنعان)

يفهم من هذين النصين أن موضع شيلو التوراتي يقع على مقربة من جبل الرما، حيث عاش النبي صموئيل- كما رأينا من رواية التوراة لحروب داوود وفراره من وجه الملك شاول بن قيس-. كما يُفهم منهما أيضاً أن المكان هو من أراضي الكنعانيين-الكنانيين. فهل تعرف فلسطين التاريخية مثل هذا المكان؟ إن الرسم العربي الصحيح للاسم هو الشّلُ بمعاملة الواو الأخيرة في العبرية كحركة إعرابية، لا كحرفٍ من أصل الاسم. قال أبو ربيعة المُصطَلقي (معجم: ١٣٩٣) واصفاً وادي الشّل:

أهاجكَ بَرقٌ آخرَ الليلِ لامعُ   جرى من سناه ذو الرّبا فنبايعُ

يُضيءُ عِضاة الشّل يَحسبُ وسطها   مصابيح أو فجر من الصبح لامعُ

هذه هي شلُ-شيلو قرب وادي نُبايع الذي تسيل مياهه بين مكة والمدينة، أي في أرض كنانة الممتدة على طول ساحل البحر الأحمر. وإذا ما سلك المرء هذا الطريق المصعّد إلى اليمن؛ فسوف يبلغ جبل الرما حيث أقام صموئيل هناك. إننا لا نعرف -في فلسطين- طريقاً يوصلنا إلى (شل- شلو) التي في أرض كنعان مهما بحثنا. والآن: لما كنا بصدد تحديد المواضع في أرض كنعان التوراتية تمهيداً لفك لُغز الزمزميين، فلابد من التوقف قليلاً عند سبب التسمية؛ إذ استناداً إلى التوراة أطلق العمونيون هذا اللقب التحقيري على جماعة قبائلية تقيم على مقربة منهم، يبدو أنها كانت في حالة عداء شديد معهم. وهذا أمر مفهوم في سياق الصراعات والمنازعات القبلية حيث يتبادل المُتحاربون الإهانات والتنابز بالألقاب؛ وذلك ما أشار إليه القرآن الكريم في آية حضّت على تهذيب قبائل العرب وتحريرهم من عبء أخلاقي راكمته ثقافة قديمة ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [الحجرات: ٤٩/١١]. ولكننا نعلم من المثيولوجيا أن اللقب التحقيري، يصبح مع الوقت لقباً مُحبباً ومقدساً وملازماً للشخص أو

الجماعة مهما كانت درجة قسوته (انظر كتابنا : شقيقات قريش). تمهد هذه الفكرة السبيل أمامنا للبحث داخل الفضاء الجغرافي المرسوم في التوراة عن المواضع والأماكن الخاصة بشعب كنعان-شعب كنانة. ومن بين هذه المواضع التي يتكرر ذكرها في العديد من النصوص، موضع يُدعى يبيش-بيش وآخر يدعى ءفرئيم (صموئيل الثاني: ٢: ٢: ١٥). يقول النص: إن يبيش-بيش تقع في ها-عربه. ولكن محققي التوراة، غالباً ما يُكافئون الاسم في صورة وادي العربة- الأردني من دون أن يكون هناك دليل واحد على صحة المُطابقة بين الاسمين. ولما كانت ها- عربه بالنسبة إلينا هي الاسم القديم الذي عُرفت به جزيرة العرب، كما بينا؛ فإن وادي يبيش-بيش في هذه الحالة، سيكون في سواحل بلاد العرب العتيقة وليس في وادي العربة الأردني. وهذا ما نرغب في التدليل عليه بالتلازم مع التدليل على أن ءفرئيم تقع هناك أيضاً؛ مُستندين إلى حقيقة أن شرق الأردن لا يعرف هذين الموضعين. يصف الهمداني وادي يبيش -بيش وهو من أكبر وديان ساحل كنانة على النحو التالي (صفة: ٩٨):

ثم الهَجر، قرية ضمَد، وجازان. وفي بلد حَكَم قرى كثيرة يُقال لها المخارف. (ثم) صبيا، ثم بيش. وبه موالي قريش وساحله عثر.

ها هنا وادي بيش كما ضبط الهمداني اسمه (الياء اللاصقة في أول الاسم من التراكيب اللغوية الخاصة باليمنيين، مثل: يكرب، يعرب) وهو كما نلاحظ، من وديان ساحل كنانة حيث يعيش موالي قريش أهم بطون كنانة. وفي هذا الوادي، مثلما يُخبرنا تاريخ المعارك والحروب بين القبائل العربية القديمة، دارت أكبر المواجهات وأشرسها بين قبائل الساحل. قال ربيعة الجوبي (صفة: ٩٨):

قرنتُ إلى الوقائع يومَ بيش فكان أجلها يوم السباق

وقال قيس بن الخطيم (معجم : ١٣٧٦):

ألفَيْتُهم يومَ الهياجِ كأنهم أسد بيشة أو بغاب وراف

ها هنا وادي بيش التوراة وعلى مقربة منه غابة وراف. يقول الهمداني (صفة: ٢٤٠) ما يلي: إن العرب تريد من أسد بيشة -في قولها أسد بيشه- وادي بيش، فيزيدون الهاء[1] وهي من مواضع الوحش. وهذا ما يُحيلنا إلى الهاء الزائدة في آخر الأسماء العبرية التي يمكن إسقاطها عند النطق. ويقول أبو دهبل الجمحي (من الشعراء العشاق، ولد ٦٣ للهجرة، من بني لؤي بن غالب):

ولا تخالي أنّي نسيتكِ لما حال بيش ومن به خلف ظهري

ولأجل معاينة دقيقة في صورة هذا الوادي القديم، الذي صار في عصر الهمداني من مواضع الوحش، نعطي- هنا- وصفاً مُكثفاً (صفة: ١٣٦) يبين على أكمل وجه صلة الوادي بساحل كنانة:

وادي جازان ومساقط عَنَم (..) وبينهما وبين خُلب أودية دون هذه، مثل زائرة، والفجا تسقي شمالي مخارف حَكم في صادة عشر، ثم وادي بيش (..) ومن أودية السّكاسك يردُ العارة فغربي الرما.

ها هنا وادي بيش وهاهنا جبل الرما، حيث أقام النبي صموئيل على ما تقول التوراة؛ وغير بعيد عنهما وادي عارة-عارة في التوراة. فهل ثمة

(١) هذا التماثل في استخدام (الهاء الزائدة) في العبرية والعربية هو من العادات الصوتية عند القبائل، وقد تكون (الهاء الوسطية: مثل يهريق الماء في يريق الماء عند اليمنيين) هي من بقايا هذه العادات. وكما يبدو فقد تطورت الهاء الأخيرة الزائدة إلى أداة التعريف في العبرية وأصبحت في أول الكلمة(ها-ءرص).

مُصادفة لغوية أخرى؟ أم أن الهمداني ويشوع وصموئيل كانوا يصفون المكان نفسه اليمن القديم؟ ولنلاحظ هنا أن الشاعر أبو دهبل الجمحي الذي يصف لنا وادي بيش؛ ينتسب إلى بني لؤي بن غالب-بن كالب[١] في التوراة- وهو من سكان هذا الوادي. أي إنه ينتسب إلى مَنْ تسميهم التوراة اللويم-اللويين وهؤلاء كما قلنا هم بنو لؤي. والآن: لدينا صورة مُتكاملة عن وادي بيش وقبائله من كنانة؛ وهذا يعني أن المقصود ب-ها- عربه ليس وادي العربة الأردني، وإنما عربة القديمة التي أطلقت على أرض القبائل العربية. وفي هذا المكان يُقيم العمونيون وخصومهم الزّمزميّون، الذين نالهم لقب تحقيري جرّاء الصراعات. من المؤكد أن هذا اللقب يشير إلى بطن من بطون كنانة، كانت له صلة ببئر زمزم أشهر آبار مكة. وكنا رأينا أن بعض المواضع تقع بين مكة والمدينة -مثلاً: الشلُ-شيلو. وبالطبع لا تعرف فلسطين بئراً أو موضعاً يُدعى زمزم ولا جماعة نالها نصيب من التشهير فسماها خصومها الزّمزميين. على العكس من ذلك تعرف جغرافية المنطقة الموصوفة هنا بيش، والشل-شلو كما تعرف بني لؤي-لويم؛ فضلاً عن بني عمون سكان نجران المجاورة. ولنتذكر أن السر في هذا اللقب التحقيري، يكمن في العداء الديني المُستحكم بين سكان مكة وسكان نجران، وهو عداء ظل مستمراً حتى الإسلام وذلك بسبب التنافس المتواصل بين العقائد القديمة (بين ربَّة نجران العمونية أي ما عرف في وقت ما بالكعبة اليمانية وبين الكعبة الحجازية في مكة). لقد كان بنو عمون- العمونيون عبدة الكعبة اليمانية (ربَّة نجران، الربَّة في التوراة: حروب داوود) ينظرون باحتقار إلى

---

(١) احتار محققو التوراة وهم يحققون في اسمين متشابهين كلب وكالب. إن الاسم الأخير الذي ينتسب إليه سبط لاوي - لؤي هو غالب. ولأن العبرية لا تعرف حرف الغين المعجمة فقد استعاضت عنه بحرف الكاف فوقع التشابه في رسم الاسمين.

خصومهم سكان مكة والحجاز الذين كانوا يقدِّسون بئر ماء ويتعبدون إليها.

ولذا، وإمعاناً في تحقير هؤلاء والتقليل من شأنهم، فقد أطلقوا عليهم اللقب التحقيري (الزَّمزميون أصحاب البئر المقدسة زمزم)[١]. وفي القرآن إشارات مماثلة في معرض تقريع الجماعات التي لم تعبد الله - كما في آية ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٥] -. لقد اصطدم سكان ربَّة العمونيون بالملك داوود، عندما سارع إلى الاستيلاء على مكان عبادتهم في العاصمة القديمة ربة وأخضعهم لحكمه. ويُفهم من رواية التوراة لحروب داوود (انظر حروب داوود في هذا الكتاب) أن العمونيين كانوا يخوضون صراعات ضارية، ضد خصومهم من القبائل في الجنوب والشمال؛ ولذلك رحبوا بالحملة الآشورية ودعموها، ربما من منطلق ديني (الوثنية التي كانت تجمعهم إلى الآشوريين) تماماً كما سيفعل سكان الطائف تالياً وقبيل الإسلام بقليل نحو العام ٥٧٠ م، فيما يُعرف بعام الفيل عندما ساندوا الحملة الحبشية المسيحية على الكعبة الحجازية، لحماية بيت العبادة الخاص بهم وكان يُدعى ربَّة أيضاً. هذا التنافس بين العمونيين والكنعانيين-الكنانيين من جهة، وبين العمونيين وبني إسرائيل من جهة أخرى، واضح كل الوضوح في المرويات التوراتية، وهو تنافس ديني في الجوهر بين العقائد الجديدة والعقائد القديمة. وفي تاريخ العرب قبل الإسلام اتخذ هذا التنافس طابعاً دينياً خالصاً؛ مع تنامي الدور العالمي لكعبة الحجاز بفضل تجارة الإيلاف، التي قادتها قريش أعظم بطون كنانة في عصر قصي جد الرسول ﷺ نحو العام ٤٥٠ م. كان العمونيون

---

(١) لنتذكر أن (بعل) إله الماء كان أكبر معبودات الكنعانيين- الكنانيين. وفي وقتٍ ما حلَّ محله أساف (يسف): انظر حول أسطورة أساف رواية ابن الكلبي في الأصنام.

يطمحون إلى جعل كعبة نجران أي ربَّة القديمة، مكاناً بديلاًعن كعبة مكة؛ ولذا سعوا إلى تدمير مكانتها العالمية الصاعدة. ولكن الوقت كان متأخراً تماماً على مثل هذا الطموح، إذ جاء الإسلام ليقطع الطريق على هذه المحاولات. يعني هذا أن اللقب التحقيري الذي لطَّخ بطوناً من كنانة (الزَّمزميين) في وقت ما من التاريخ؛ إنما هو استطراد في صراع مستمر لن يتوقف إلا عشية ظهور الإسلام؛ وإنه مستمر ومتواصل ويتخذ، في بعض أوجهه، شكل صراع بين قبائل نجران وقبائل كنانة ثم قريش. وفي سياق هذا التوتر الديني بين الجماعات المتنافسة جرى استخدام ذخيرة التشهير والتنابز بالألقاب. إن هذا اللقب يشير مباشرة إلى الحقيقة التالية: إن زمزم لم تكن مجرد بئر ماء مقدسة، أحاطتها قبائل كنانة بالرعاية الروحية وحسب؛ بل كانت تجسيداً لعقيدة دينية جديدة لم تكن قد تبلورت بعد، هي عقيدة عبادة الماء أو تقديسه. ولا ينبغي أن ننسى في هذا الإطار أن أكبر معبودات العرب كان يطلُّ على بئر زمزم ويسمى أساف. كما أن بعل إله الماء من معبودات العرب القديمة وأكبر آلهة الكنعانيين- الكنانيين. ومن غير شك؛ فإنَ هذا التنافس القديم والمستمر حتى ظهور الإسلام، تجلى في أكثر مظاهره سطوعاً مع ظهور كعبة نجران على أنقاض معبد ربة العتيق، بوصف هذا العمل المحاولة الأخيرة والمُستمية، من جانب سكان نجران من أجل البقاء داخل معسكر أصحاب المعابد الكبرى في المنطقة، وذلك عبر إغراء القبائل وحملها على التوجه إلى كعبة نجران للحج بديلاً عن الحج إلى مكة. هذا التنافس المتراكب الأبعاد، يمكن لنا أن نجد بعض أشكاله وتجلياته في المفاخرات الشعرية بين القحطانيين والعدنانيين؛ أي بين الحجازيين الشماليين و اليمنيين الجنوبيين. هذا باختصار شديد هو المنظر الخلفي للتنافس بين الجماعات القبائليّة المُتنابزة بالألقاب. إننا لا نعرف أي شيء عن مثل هذا التنافس بين القبائل البائدة في فلسطين، كما لا نعرف وادي بيش ولا زمزم. يتبقى

الآن اسم الغابة ء فرئيم.إن الاسم المفرد العبري هو ء فرء وفي صيغة التثنية الفرءين- بما أن الميم العبرية هي أداة التثنية والجمع- وإذا ما قمنا بضبط الاسم ضبطاً عربياً صحيحاً ؛ فإننا يجب أن نرسم ء فرئيم في صورة الفرء ين. قال الحفصي (ياقوت: ٤ : ٢٩٣):

أقفرَ من خولة فَرْوين   فالحضرُ فالركنُ من أبانَيْن

وقال الكُميت بن زيد الأسدي:

رأيتُ بعرفة الفَرْوين ناراً   تشبُّ ودَنَ الفلوجتان

ما يلفت الانتباه في وصف التوراة للمكان، هو تأكيدها على صورة الغابة غابة ءفرئيم-الفروين. ولا توجد في فلسطين غابة قديمة بهذا الاسم. ولكن يمكن رؤية الغابة في المكان نفسه الذي كان مسرحاً لحروب بني إسرائيل ضد ها-فلشتم عند وادي أوبن-ءبن، أوعند جبل أبان. يوضح هذا الأمر المسألة التالية: إن نص صموئيل الثاني يتحدث عن مكان بعينه يُدعى -حسب الضبط العربي الصحيح- غابة الفرءين. وبالطبع ليس هناك من موضع آخر بالاسم والصفة سوى غابة الفروين. يقول الهمداني (صفة: ٢٥٨) ما يلي:

ثم ساق الفَرْوين، ثم أبانان، الأسود وأبان الأبيض جبلان يمر بينهما بطن الرُّمة ودونهما عشيرة طائية وبفراعِهِ أجأ وسلمى، جبلا طيئ.

يُطابق هذا التوصيف تماماً وصف صموئيل لمسرح المعارك: ها هنا غابة ء فرئيم (من المفرد فرء والتثنية فروين) وهي الفَرْوين عند الهمداني، وعلى مقربة منها جبل أبان-ءبن وفي الجوار عشيرة طائية. وكنا رأينا أن آل العيزار هم من بطون طيئ القديمة عبدة الفلس (فلشتم). هذا الفضاء الجغرافي الذي يجمع وادي بيش وساق الفَرْوين وجبل أبان وآل العيزار،

ليس من نتاج خيال الهمداني والشعراء العرب، كما أنه ليس من مُختلقات صموئيل؛ بل هو الحيز الجغرافي الحقيقي المعروف جيداً عند القبائل القديمة ولا صلة له بفلسطين. ومن غير شك؛ فإن الاسم مسبوق بصفة يستحيل تصورها كنتاج مُصادفة، نعني توصيفه بأنه ساق الفَرْوين وليس الفرْوين وحسب. فلماذا سمت الجماعات القديمة المكان (ساق الفَرْوين) وما صلته بكلمة غابة؟ إن للتوصيف صلة عضوية بالأشجار، فالساق-عند ابن منظور مثلاً-جذع الشجرة وأغصانها. وفي تفسيره لبيت الشعر التالي:

لا يُرسلُ الساق إلا مُمْسكاً ساقاً.

قال ابن منظور: أراد بالساق ها هنا الغصنُ من أغصان الشجرة.

١١ : مرثية أشعيا: تأملات جديدة

يعطي سِفر أشعيا (١٥: ١: ١٦: ٣) اسم مكان آخر له أهمية شديدة بفضل تكراره في أسفار التوراة، ويوصف بأنه م-دبره ويُدعى صلع- بحرف السامك-. وهو حرف بين الصاد والزاي ومكافئه العربي ضلع. والنبي أشعيا في مراثيه للمنازل المُحطمة ونواحه على المدن المهجورة، يذكر اسم صلع هذا ويضعه قرب سلسلة من المواضع لا وجود لها في فلسطين. هنا مقطع من المرثية الطويلة التي يشير فيها النبي إلى اسم الموضع: ١٥: ٢: ١٦: ٣:- النص العبري-:

> **شلحو- كر- موشل- ء رص - م- صلع -م -دبره-ءل-هر-بت- صيون وهيه-كعوف- نودد-قن-مشلح تهيينه-بنوت-موءب-م-عبروت- ل-ءرنون.**
>
> **أزيلوا وسِادَة والي الأرض من صلع، ومن دبرة إلى جبل بنت صيون لتكون بنات مؤءب من العُبْرَة إلى أرنون**

إن قصائد القتال وأناشيد المعارك القبائلية في التوراة، جزء من أدب ثر وغني. ويمكن لقارئ هذا الأدب أن يضيف إليه كمّاً آخر من القصائد والكتابات والمراثي التي تنضح بالروح الحربية-البطولية (الأدبية). وهذا أمر نجد ما يُماثله في الأدب العربي القديم -في شعر الحماسة مثلاً-. ولذلك يمكن وصف الشعر الذي نجده في التوراة بأنه قصائد شعر مراثي المنازل المهجورة. وهذه المراثي بدورها، تقليد شعري لا يؤكد بالضرورة على وجود أحداث تاريخية وقعت حقيقة؛ بقدر ما يُعبر عن فكرة محددة

هي الخوف الغريزي من فناء المنازل القبائلية، بفعل موجات الهجرة أو الحروب أو الكوارث الطبيعية. لقد تطور هذا التقليد الشعري في سياق ثقافة بكائية ذات بُعدٍ ديني، كما في مراثي المدن السومرية. بكلام ثان: إن هذه المراثي التي سجلها الشعراء والأنبياء تندرج في إطار فكرة فلسفية بدائية عن الفناء، تُلخص وعي الجماعات القديمة للعالم بما هو عالم فناء وزوال. ولذلك؛ فإن مرثية أشعيا قد لا تروي -بالضرورة- حدثاً تاريخياً عن المواضع التي توردها؛ بمقدار ما تروي أفكار القبيلة عن دمار منازلها واضطرارها للهجرة والانزياح عن مكانها. وكل ذلك في إطار عمومي يصعب اعتماده دليلاً على صلة المواضع المذكورة بالحدث الشعري. تماماً كما هو الحال مع تمجيد وتعظيم المواضع القديمة أو الوقوع في غرامها (انظر ما كتبناه عن سلمى وعُنَيْزَة ولُبنى وعزة في نشيد الإنشاد في كتابنا قصة حب في أورشليم- مصدر مذكور). وفي وقت ما، تطورت هذه التقاليد الشعرية واستمرت بقوة زخم مدهشة، حتى العصر الجاهلي فالإسلامي ثم الإسلامي المتأخر، لتتبلور تعبيراً من تعبيرات الثقافة البكائية التي تجسدت أصلاً، وعلى نحوٍ خاص في الأساطير والعقائد الدينية وطقوس الحب والخصب، حيث تُروى أحزان الآلهة بوصفها أحزان البشر. أهمية هذه التقاليد الشعرية، بالنسبة إلينا نحن المعاصرين، تكمن في أنها سجل رائع حسن التنظيم ودقيق للغاية؛ أمكن الحفاظ بواسطته على أسماء سلسلة لا نهاية لها من الأماكن. ومن ثم مكننا ذلك من استردادها وصيانتها من الاندثار. هذا المدخل ضروري لفهم المغزى الحقيقي لا من وجود أسماء الأماكن في المراثي التوراتية وحسب؛ وإنما أيضاً تواتر ذكرها بالتلازم والترابط مع أسماء أبطال وأحداث ووقائع لا نعرف الكثير من التفاصيل عنها. إننا -مثلاً- لا نعرف عن جبل صلع-ضلع هذا شيئاً محدداً له صلة بالتوراة؛ كما لا نعرف صلته بفلسطين. ولكننا، في المقابل نعلم من أشعيا أن له صلة بالدعوة إلى

القتال ضد (ملك صلع) وملك (دبره). إن صلع-ضلع هذا بقعة جغرافية يجب أن ينطلق منها الرجال في (وجه والي الأرض). هذا هو الإطار العمومي للموضوع الأدبي، الذي تدور فيه أحداث المرثية الطويلة حيث يبكي أشعيا المنازل المُدمرة. وبطبيعة الحال فنحن لا نعرف أي شيء -له قيمة- عن مكان يُدعى (مثلاً) أرنون.

هناك -في الواقع- موضعان يحملان الاسم نفسه صلع-ضلع، أحدهما في المعافر اليمنية إلى الجنوب من تعز. والمعافر هذه كانت مخلافاً عامراً ذكرته الآداب اليونانية باسم مملكة المعافر، كما ذكرته المساند الحميرية بالتوصيف ذاته. وفي حديث للرسول ﷺ يردُ ذكره بالتلازم مع ذكر الثياب المعافرية، حيث اشتهر هذا المخلاف بصناعتها. أما المكان الآخر فهو في نجد اليمن. ومن الواضح أن مقاصد النص الشعري تنصرف إلى اسم صلع-ضلع بوصفه (جنة من جنات اليمن القديم). وسوف نرى ذلك بوضوح تام عندما نناقش الحروب بين ممالك حضور ومأدن في التوراة، والتي شارك فيها بنو إسرائيل في الإطار التاريخي ذاته للنزاعات الدامية بين القبائل اليمنية. تبدو صورة اليمن القديم وقبيل ظهور الدولة المركزية، قابلة للانعكاس بقوة في هذا النوع النادر من الأشعار والمراثي والأخبار الأدبية والأسطورية؛ والتي سجلتها التوراة وكتب الإخباريين اليمنيين على حد سواء. كانت الجماعات المتنافسة والمُتصارعة تستخدم كل طاقتها في تصعيد القتال، من أجل فرض النفوذ الديني والسياسي. وهذا وحده ما يفسر لنا السر وراء اندلاع هذا العدد المذهل من الصدامات والحروب والمعارك المتواصلة، التي لا يشير إليها البتة لا تاريخ فلسطين ولا تاريخ بلاد الشام، بينما على العكس من ذلك يشير إليها تاريخ اليمن. يمكن الوصول إلى صلع -ضلع من وادي دبره حسب قول أشعيا، صعوداً في السراة حتى جبل بنت

صيون-صهيون[١] ومروراً بأرض بني مآب-موءب، وأخيراً إلى وادي أرنون. هذه الخريطة البسيطة للأماكن في المرثية لا وجود لها في فلسطين؛ فليس هناك جبل قديم يُدعى (بنت صيون) أو (بنت صهيون) على وجه الإطلاق؛ بينما رأينا من قصيدة الأعشى عن نجران أن صهيون من جبال السراة اليمنية الممتدة إلى نجران (انظر ما كتبناه عن صهيون). كما لا يوجد وادي أرنون يمكن لبنات موءب أن يقفن عند معابره؟ وبينما لا توجد مواضع في فلسطين تحمل كلمة (بنت) فإن الجغرافية اليمنية تعرف هذا التقليد، فهناك مثلاً بنات حرب؛ وهو موضع قرب شعب صنان-صنان في التوراة من أحواز جُرَش. وجُرَش هي رأس وادي بيشه- بيش غير بعيد عن أرض حصاصة-حصاصة. والآن: بصدد وادي وجبل صهيون لا بد من إعمال الفكر بالملاحظة التالية:

إن اليمنيين يضيفون حرف الهاء في كلامهم: مثل: يهريق الماء في يريق الماء؛ فهل يفسر لنا هذا الأمر سبب رسم التوراة للاسم في صورتين: صيون وصهيون؟ يقع جبل صهي-صهيون على مقربة من وادي بيش- بيشه (انظر بيش عندنا). وهو المكان الوحيد الذي يحتفظ باسم صهيون حتى عصر الأعشى الهمداني نحو العام ٥٢٤ م. وقد رسمه الشاعر حسب البناء العبري للأسماء صهيون. بينما لا تعرف فلسطين مثل هذا المكان. والمثير للاهتمام أن الأعشى في إشارته إلى جبل صهيون، يدعو إلى إحباط المؤامرة التي دبرتها القبائل اليمنية العائدة إلى اليهودية (بعد انقطاع) بقيادة الملك ذي نواس الحميري في وادي بيشه وجبل

---

(١) يرسم اسم صهيون في التوراة في صورتين: صيون وصهيون. وهذا دليل على أن استعمال الهاء الوسطية عند القبائل اليمنية مرَّ بمراحل تطور عديدة، جرى في نهايتها إسقاطها والتخلي عنها (يهريق الماء- يريق الماء،صهيون- صيون). هذا التطور يعكس بقوة تطور العادات الصوتية.

صهيون، للقضاء على المسيحية الوليدة في نجران المجاورة وإعادة أحياء اليهودية. يعني هذا أن أشعيا وفي إطار الصراعات القبائلية قصد صلع- ضلع المعافر في مرثيته، وهو رأى في هذا الصراع سبيلاً لفرض النفوذ الديني بدءاً من هذا الموضع وصولاً إلى جبل صهيون. قال وضاح اليمن ذاكراً جبل ضلع:

كيف اللقاءُ وقد أضحت ومسكنها بطنُ المحلة من صنعاء أو ضلع

بهذا المعنى أيضاً؛ فإن المقصود ب- بنت صهيون- ليس بنت هذا الجبل؛ بل شِعابْ الوادي. وهذه التسمية تتطابق مع تقاليد القبائل التي تسمي- المواضع الصخرية التي تتجمع فيها المياه- شِعاب أو بنات مثل بنات حرب، بنات موءب، بنات أورشليم. ولذا يجب أن تُقرأ عبارة أشعيا هذه بعناية، فالمقصود من بنت صهيون أو بنات موءب إنما هو وعلى وجه التحديد: شعاب الوديان في جبل صهيون وفي أرض الموآبيين- المآبيين. قال حاتم الطائي ذاكراً مآب:

سَقى الله ربُّ الناس سحْاً ودَيمة جنوب السراة من مآبٍ إلى زُغرِ

ويقول الهمداني واصفاً صلع هذه (صفة: ٢١٣):

وضهر وضلع وهما جنتا اليمن، من حد ماذن، ومنها الطرف والشَرَف. ويُعرف مخلاف شِبام بمخلاف الشرف الأعلى، والشرف الأسفل من بلد بني عريب بن جشم. انقضى مغرب صنعاء ورجعنا إلى شرقيها.

ها هنا مملكة قديمة-مخلاف إلى الغرب من صنعاء هو جنة من جنات اليمن يدعى ضلع -صلع- بما أن العبرية لا تعرف حرف الضاد-. فهل يمكن الوصول منها إلى وادي دبره-دبرة كما في مرثية أشعيا؟ حسب

وصف الهمداني. يقع مخلاف ضلع في مغرب صنعاء؛ وإذا ما اتجهنا شرقاً صوب مخلاف خولان-جولان التوراة فسوف ندخل وادي دبره. إليكم ما يكتبه الهمداني عن الطريق من ضلع غرباً إلى وادي دبره شرقاً (صفة: ٢١٤-٢١٦):

أما مشرق صنعاء الذي يقع بينها وبين مخلاف خولان: وادي سامك، ووادي دبرة (..) ويلاقيها سيل مغارب صنعاء من مخلاف ماذن وحضُور.

هو ذا وادي دبرة إلى الشرق من ضلع-صلع تماماً كما في توصيف أشعيا، وإلى جواره وادي سامك- قارن مع حرف السامك العبري الذي رُسم به اسم صلع-.

خلاصة

إن الكمَّ الهائل من أسماء الأماكن الواردة في التوراة، ويماثلها في وصف الهمداني والشعر الجاهلي، لا يمكن عدّه مجرد تطابق عرضي ناجم عن توافقات- بمحض الصدفة- بين أبنية الأسماء أو الكلمات؛ بل هو تطابق حقيقي يؤيده التوصيف الجغرافي الذي تسجله نصوص التوراة، كما يسجله الشعر الجاهلي وكتاب صفة جزيرة العرب على حدّ سواء. ولأننا نرى إلى التوراة بوصفها كتاباً دينياً-إخبارياً من كتب يهود اليمن، يتضمَّن التقاليد الأدبية والكتابية ذاتها التي عرفها العرب القدماء - كما بينّا-؛ فإن إعادة قراءة هذا النصّ من منظور جديد إنما هو الهدف الحقيقي الذي كنت أنشده وأسعى إليه. ونظراً للعدد المذهل من أسماء الأماكن المرتبطة بأحداث يعرفها التاريخ القديم للعرب في اليمن والتي أمكن اكتشافها، فقد وجدت نفسي مضطرّاً إلى صرف النظر عنها في هذا الكتاب، أملاً في تقديمها للقراء في الأجزاء القادمة كما هو الحال مع حروب سنحاريب وأسرحدون في السراة اليمنية. لقد بينّا في هذا الكتاب أن ما يدعى جبل قدس لا صلة له بالقدس العربية؛ التي لا توجد فوق جبل أصلاً. وليس ثمة قدس- قدش واحدة في التوراة، بل هناك ثلاثة أماكن تطلق عليها النصوص اسم قدس لا يتطابق أي منها مع وصف القدس العربية. ولا وجود لجبل صهيون في فلسطين

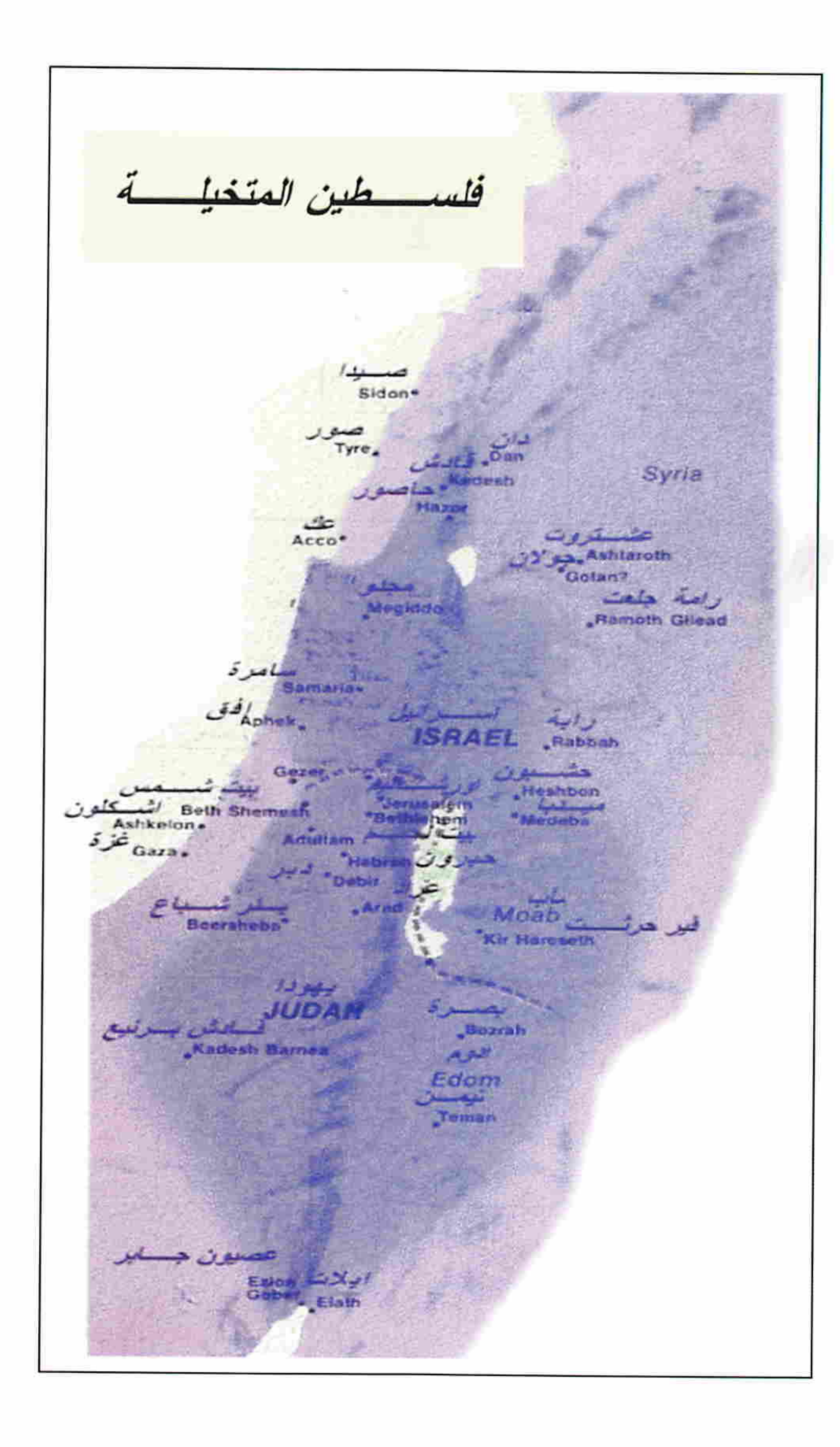
كما لا وجود لبنات صهيون هناك. وبرهنا أن التوراة-أصلاً- لا تذكر اسم فلسطين. وإلى هذا كله برهنا أن القدس ليست أورشليم.

وأخيراً: كل ما ورد في التوراة من أسماء وأحداث إنما تخصُّ - في الصميم- تاريخ اليمن وأرضه وقبائله، ولا صلة له بفلسطين لا من قريب ولا من بعيد. هذه هي الخلاصة التي نشدها الكتاب.

ملحق

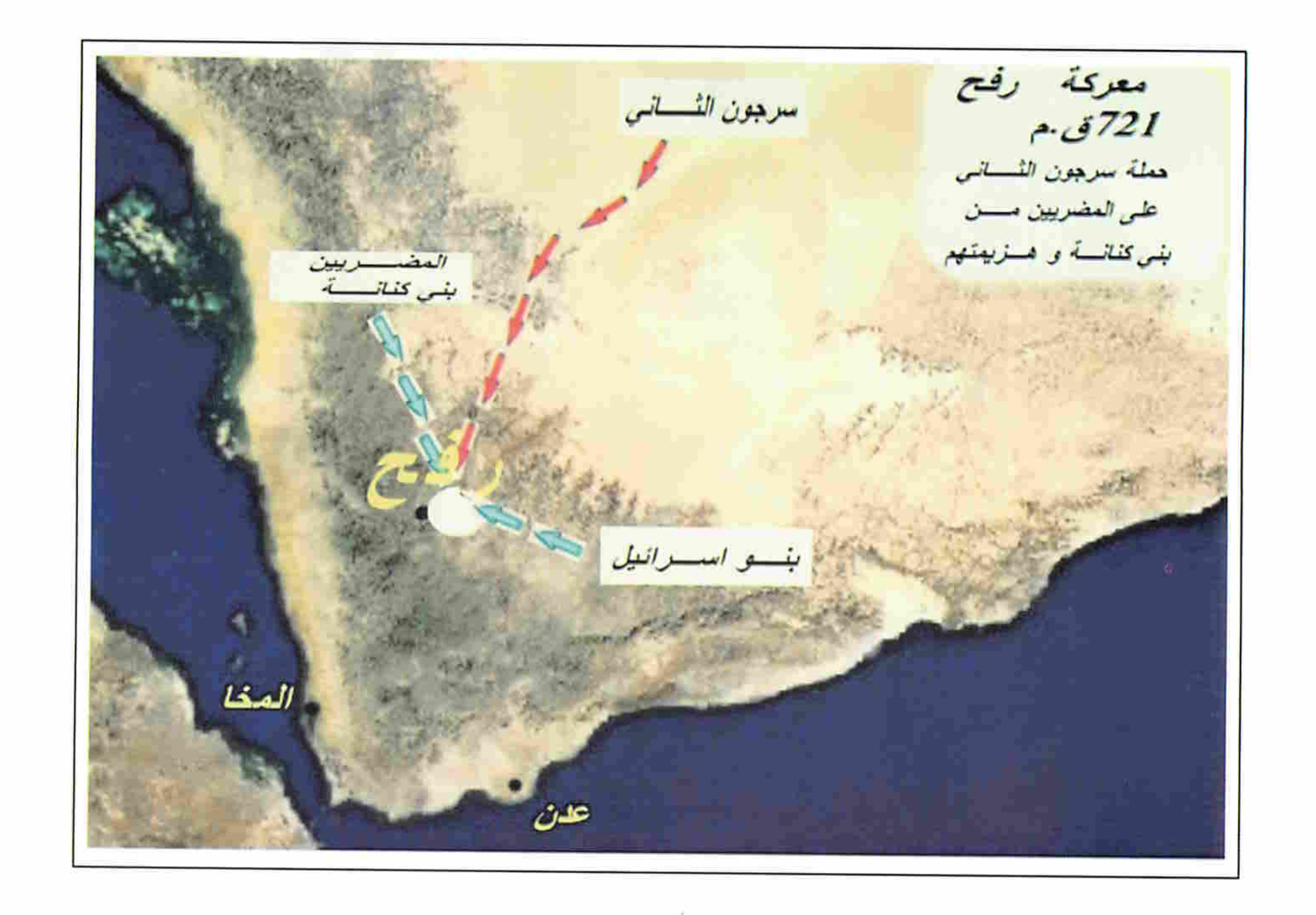
الخرائط





فلسطين المتخيلة
صيدا
Sidon
صور
Tyre
دان
Dan
قادش
Kadesh
حاصور
Hazor
عك
Acco
Syria
عشتروت
Ashtaroth
جولان
Golan?
مجلو
Megiddo
رامة جلعت
Ramoth Gilead
سامرة
Samaria
افق
Aphek
اسرائيل
ISRAEL
راية
Rabbah
Gezer
بيت شمس
Beth Shemesh
اشكلون
Ashkelon
غزة
Gaza
حشبون
Heshbon
Jerusalem
Bethlehem
Medeba
Adullam
Hebron
حبرون
دبير
Debir
عراد
Arad
بئر شباع
Beersheba
Moab
قير حرثت
Kir Hareseth
يهودا
JUDAH
بصرة
Bozrah
قادش برنيع
Kadesh Barnea
Edom
تيمن
Teman
عصيون جابر
Ezion Geber
ايلات
Elath


ارض التــوراة اليمنيـــة
خولان
يفـــا
عمران
عك

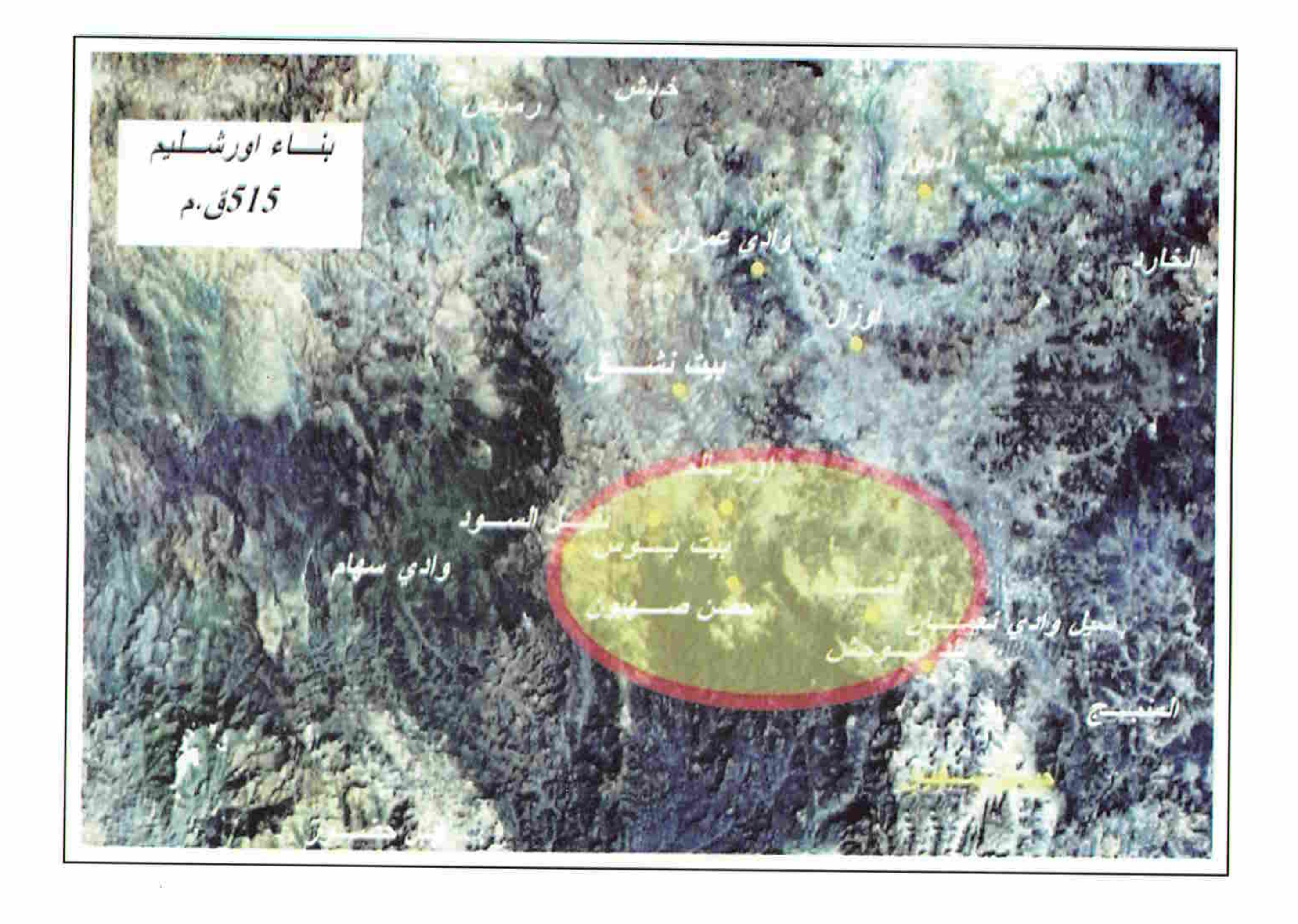


معركة رفح
721ق.م
حملة سرجون الثاني
على المضريين من
بني كنانة و هزيمتهم
سرجون الثاني
المضريين
بني كنانة
رفح
بنو اسرائيل
المخا
عدن


حملة سنحاريب
701ق.م
حصار اورشليم
في عهد الملك حزقيا
و ابنه منسا
بابل
الاشوريين
الخليج
جزيرة العرب
وادي الرمة
مكة
السمرة
البحر الاحمر
حضر موت
بنو اسرائيل
اورشليم
مملكة يهودا
عدن
بحر العرب


وصف الهمداني لليمن


أورارتو
بحر الروم
بابل
الاشوريين
علام
ممفيس
طيبة
مصر
الخليج
جزيرة العرب
مكة
البحر الأحمر
نجران
سراة اليمن
حضر موت
عدن
بحر العرب

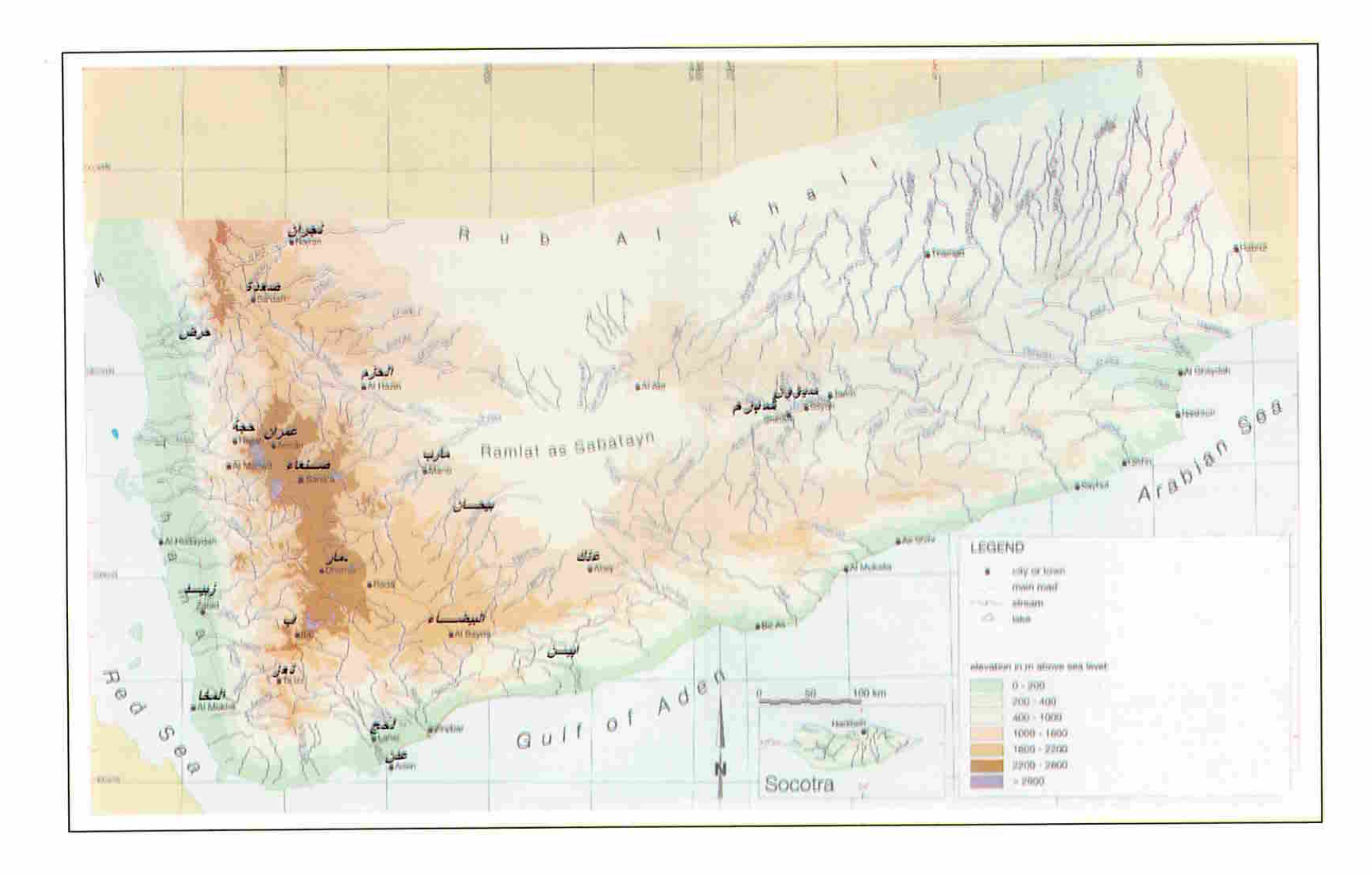


بنـــاء اورشـــليم
515ق.م
خلوش
رمدين
وادي عدلان
اوزال
بيت نشـق
الخارد
وادي سهام
بيت يـنوس
حصن صـهيون
السبيح


حملة نبوخذ نصر
587ق.م
السبي البابلي
للقبائل في يهودا
و بني اسرائيل
بابل
الاشوريين
الخليج
جزيرة العرب
وادي الرمة
نبوخذ نصر
يتلقى المساعدة
من بني كنانة
البحر الاحمر
السمرة
اسر قبائل من
بني اسرائيل
حضرموت
نهاية مملكة يهودا
يهودا
عدن
بحر العرب



طروادة
الحيثيون
كُريت
الاشوريون
اشور
اوغاريت
سيميا
كاريش
بيبلوس
دمشق
بابل
صيدا
صور
عسقلون
بيبلوس
مصر
ممفس
الفلسطينيون
كما تخيلهم
التوراتيون



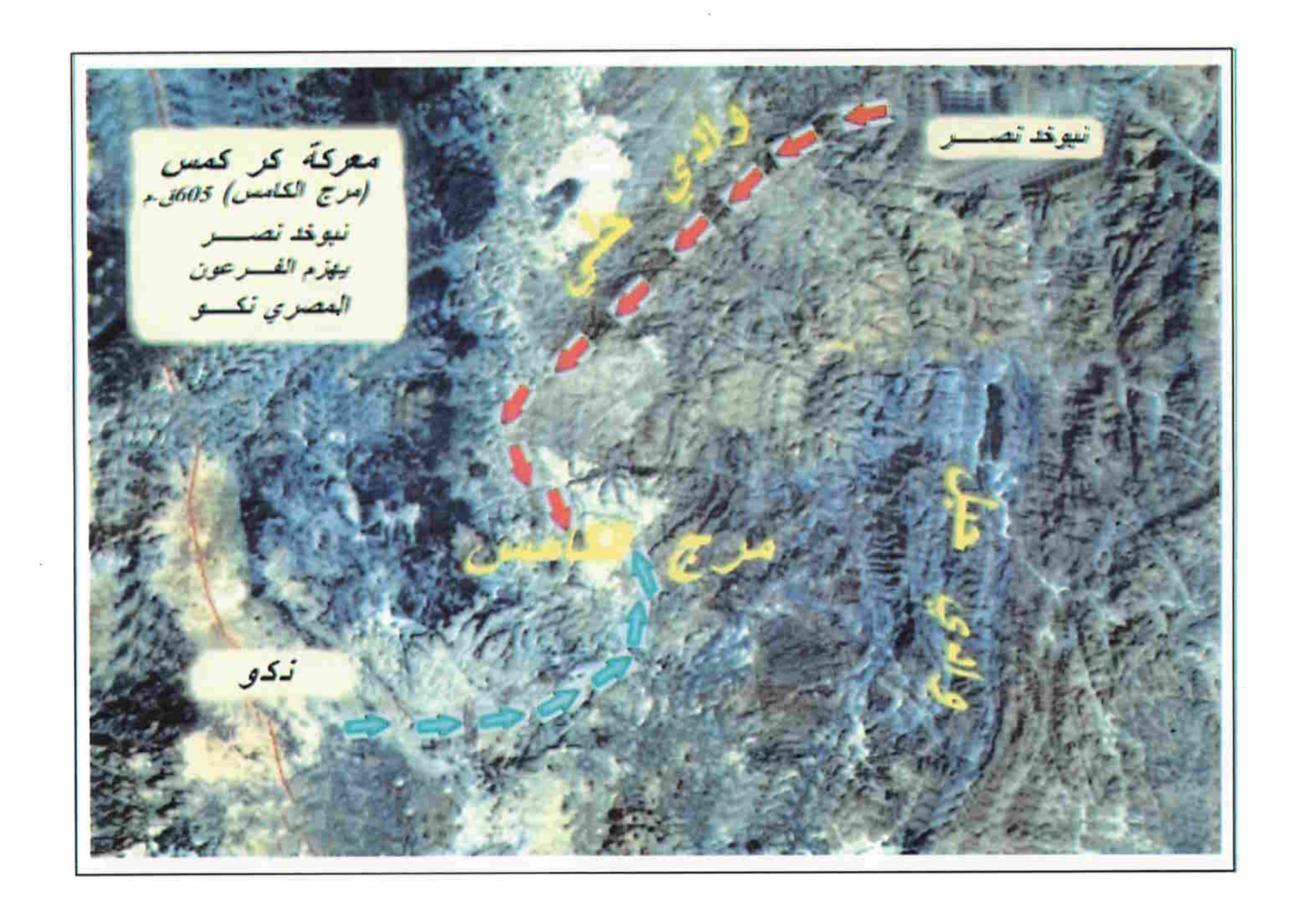
Rub Al Khali
Ramlat as Sabatayn
Red Sea
Gulf of Aden
Arabian Sea
Socotra
N
0 50 100 km
LEGEND
city or town
main road
stream
lake
elevation in m above sea level
0 - 200
200 - 400
400 - 1000
1000 - 1600
1600 - 2200
2200 - 2800
> 2800

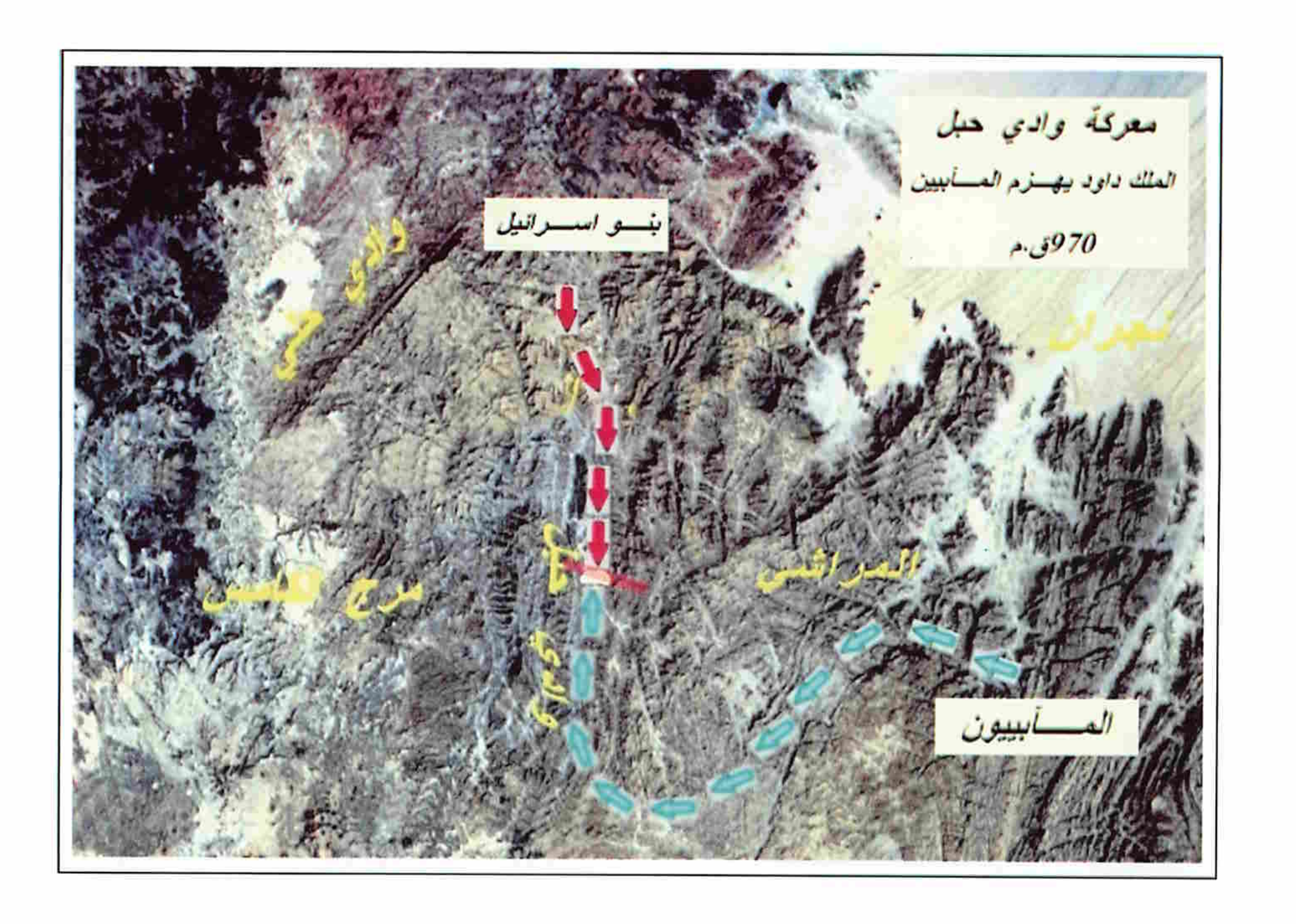

معركة مجدو
ضد بني كنانة
910ق.م
الملك راصين
المضريون
من بني كنانة
البحر الاحمر
الاشعريون
قبائل عك
زبولون
حشبون
بنو اسرائيل
بحر العرب

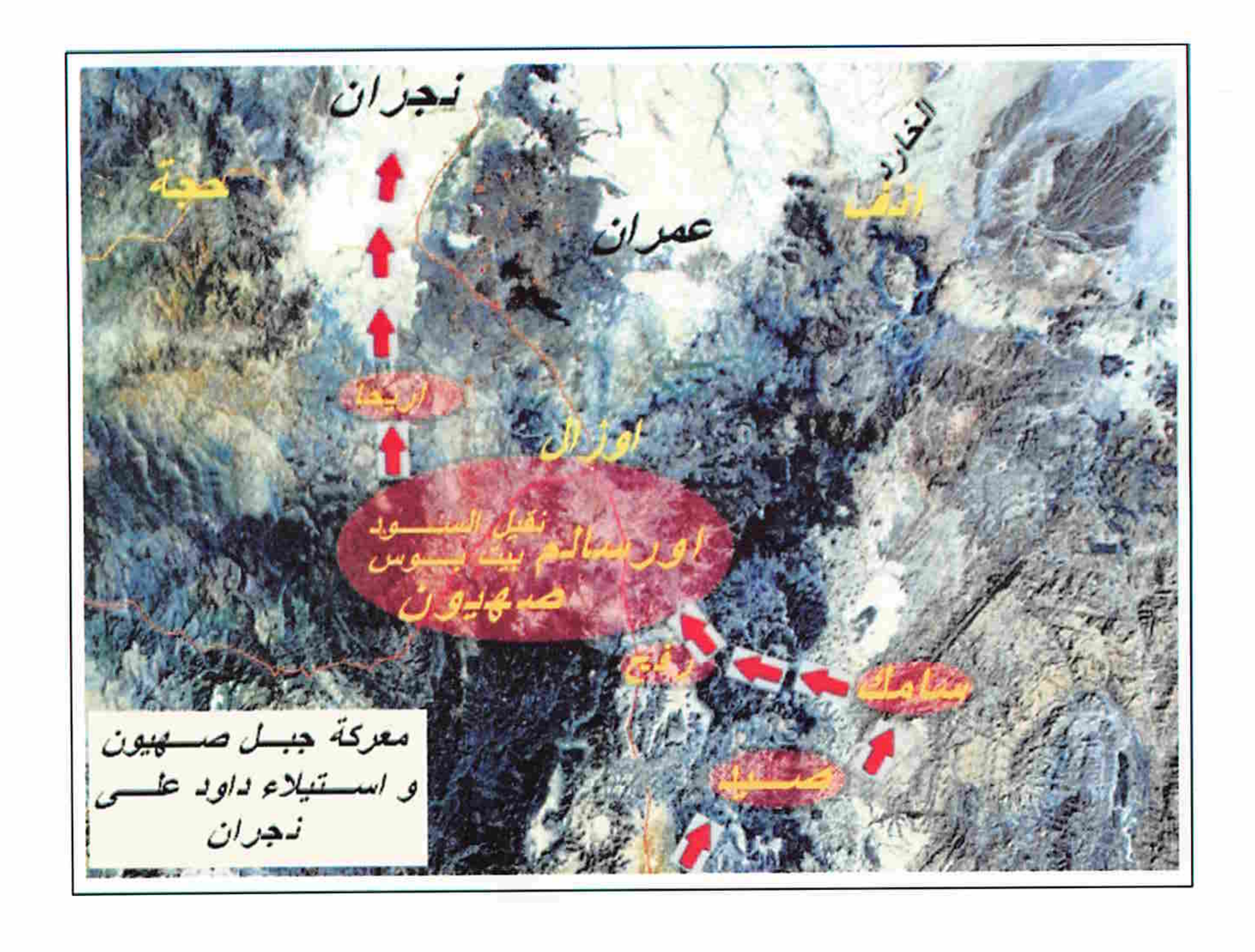
سراة اليمن
عربة
نجران
الجوف
اسرائيل
مملكة بني
اوزال
حضر موت
مملكة
يهودا
ابين
عدن
البحر الاحمر
بحر العرب



أورارتو
بحر الروم
الاشوريين
الملك شلما نصر الخامس
علام
مصر
معفيس
الخليج
جزيرة العرب
853 ق.م معركة
نجران قرقر
البحر الأحمر
سراة اليمن
بحر العرب


معركة كر كمس
(مرج الكامس) 605ق.م
نبوخذ نصـــر
يهزم الفـــرعون
المصري نكـــو
نبوخذ نصـــر
نكو
مرج

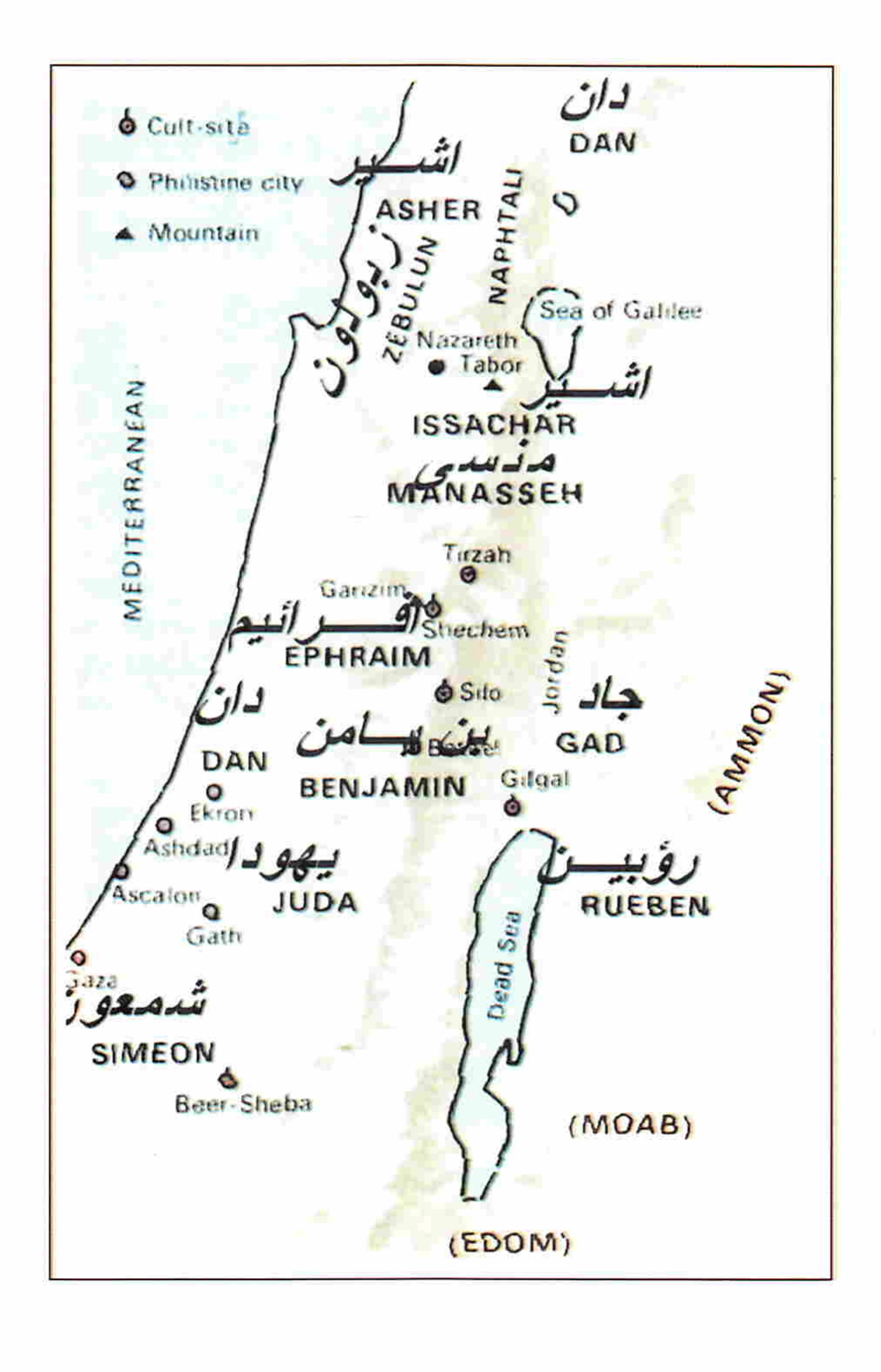

معركة وادي حبل
الملك داود يهزم المـآبيين
970ق.م
بنـو اسـرائيل
المـآبييون
وادي
حبل


معركة جبل صهيون
و استيلاء داود على
نجران
نجران
حجة
عمران
الخارد
انف
اوزال
نقيل السود
اورسالم بيت يبوس
صهيون
صيد

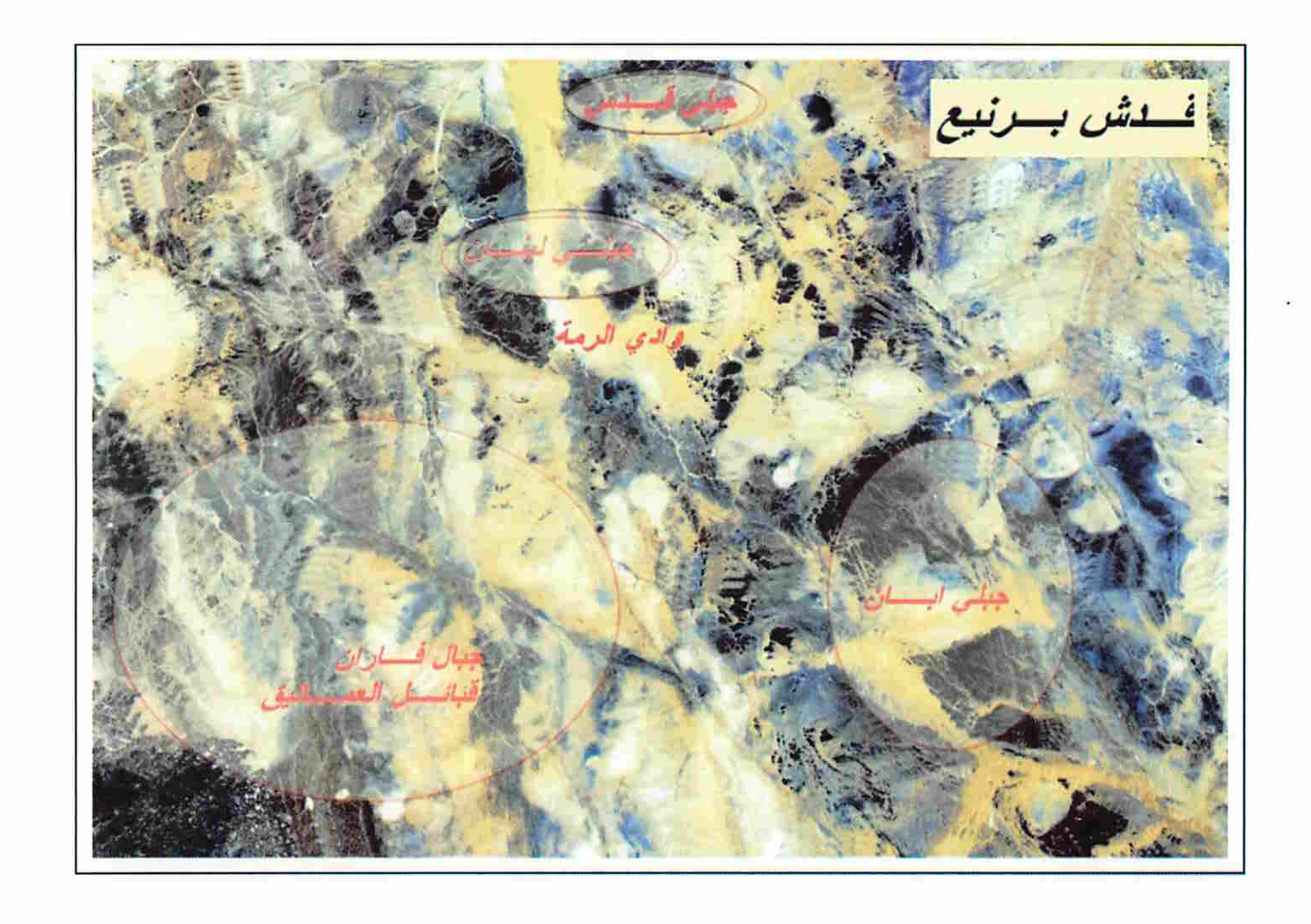

الفلسـت
معركة
جوب
جوب
جبل
اورسالم
بيت بـوس
صهيون
سامك
صور
يهودا
داود

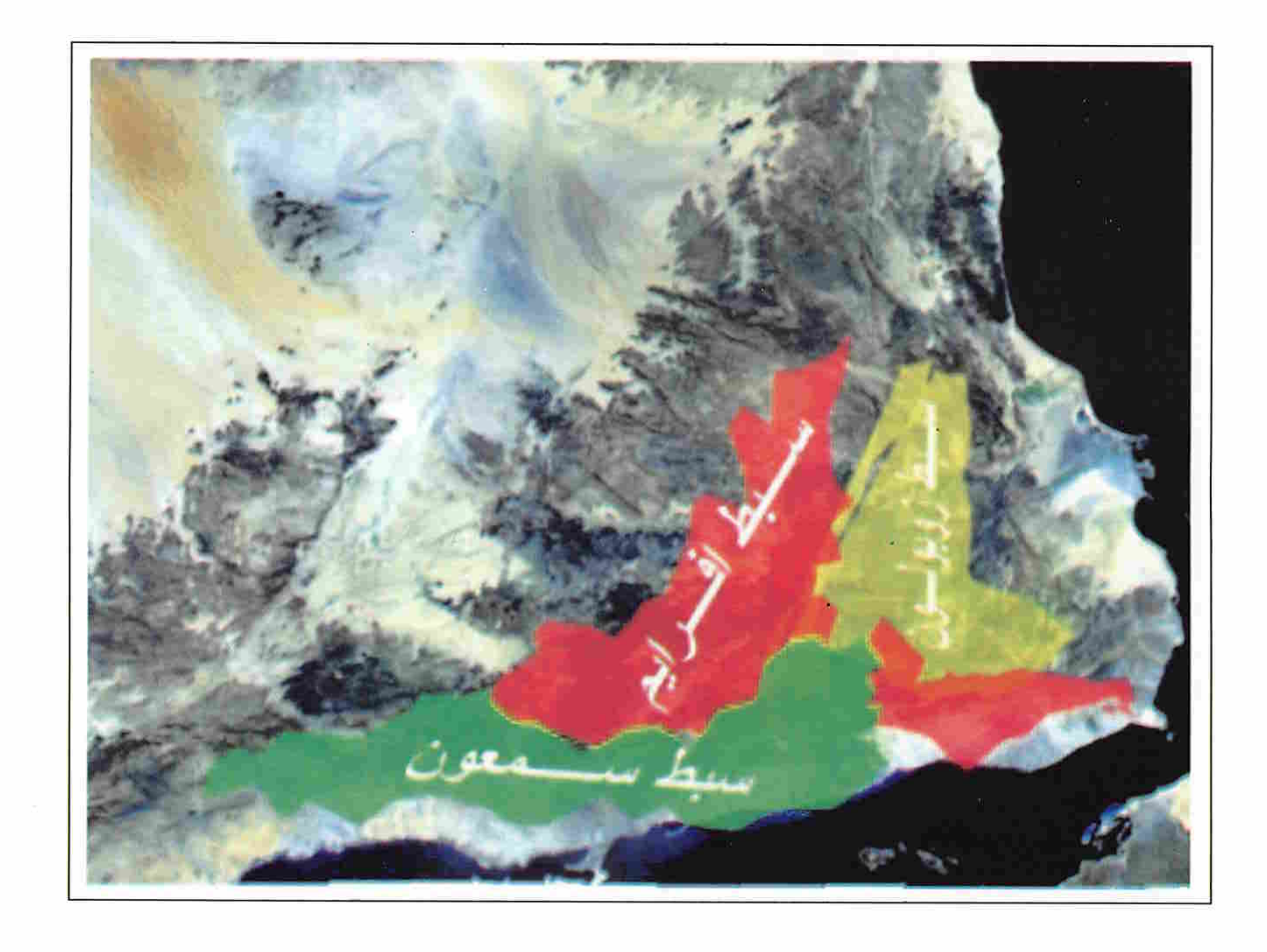


اسر حدون
689ق.م
المواضع التي سقطت
في الحملة
الليث
بني مجيد
وادي حردة
وادي عنة
جبل
وادي

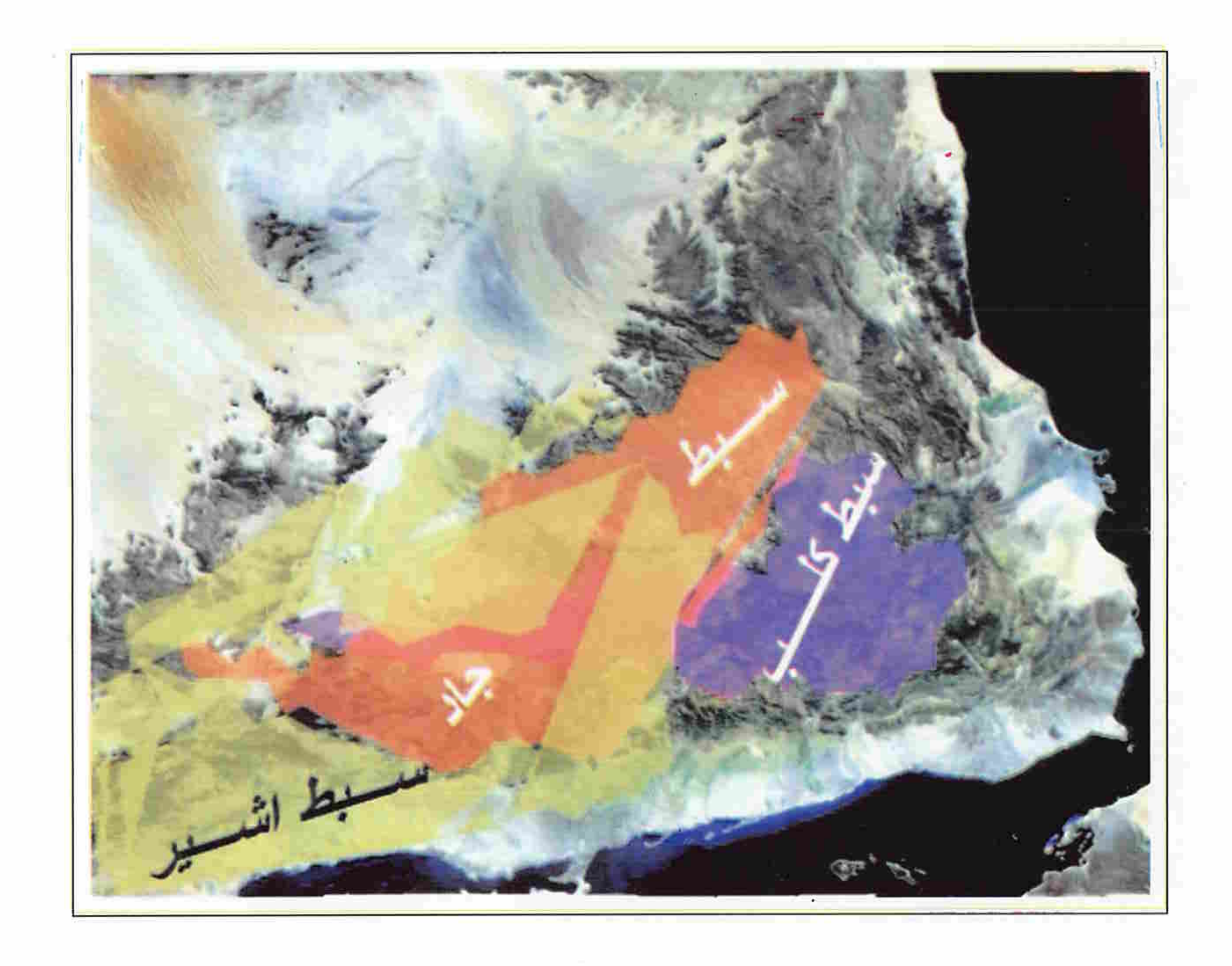


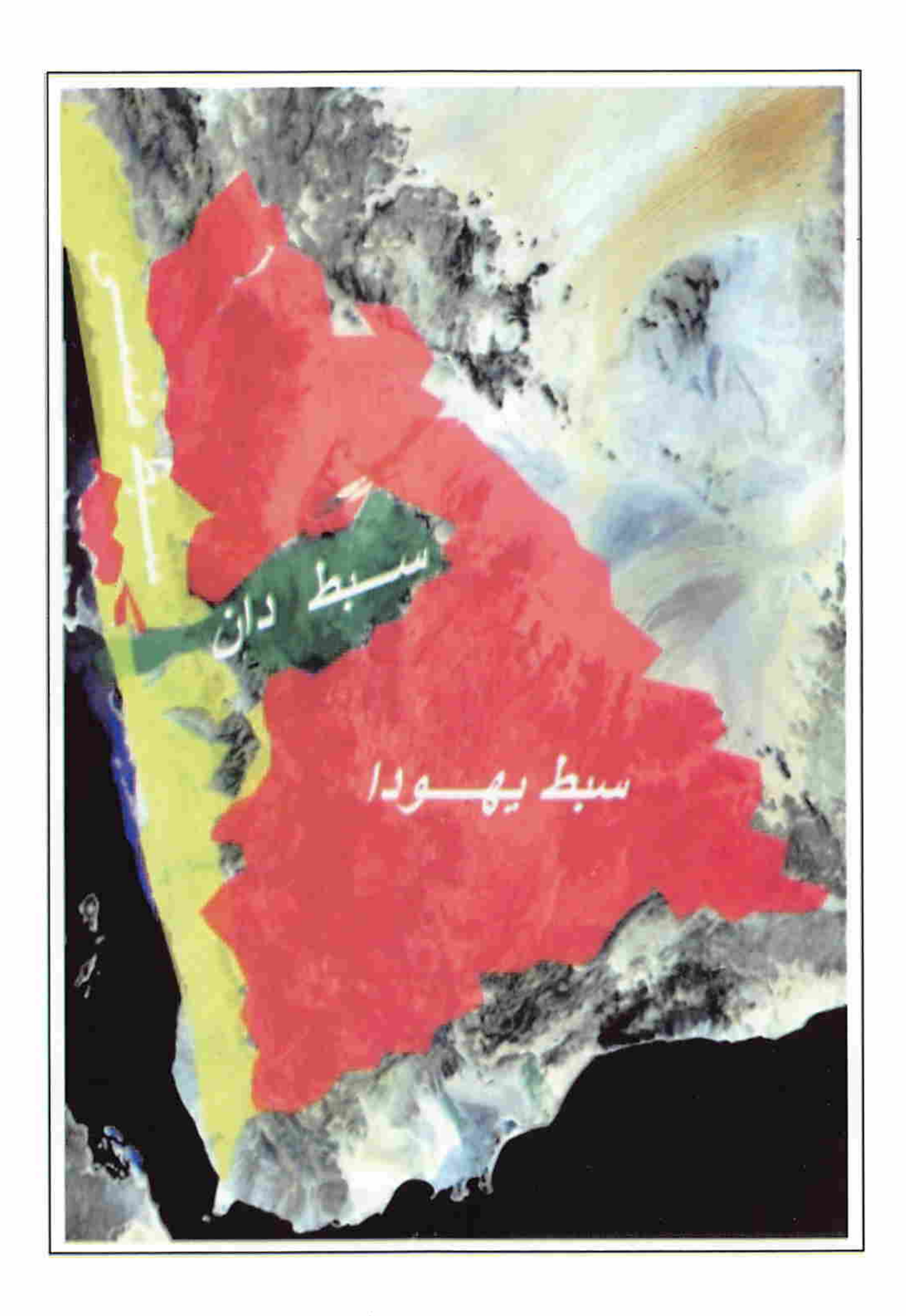
Cult-site
Philistine city
Mountain
دان
DAN
اشــير
ASHER
زبولون
ZEBULUN
NAPHTALI
Sea of Galilee
Nazareth
Tabor
اشــير
ISSACHAR
منسى
MANASSEH
MEDITERRANEAN
Tirzah
Garizim
افــرائيم
Shechem
EPHRAIM
Jordan
دان
Silo
جاد
بنيامن
GAD
DAN
BENJAMIN
Gilgal
(AMMON)
Ekron
Ashdad
يهودا
رؤبيـن
Ascalon
JUDA
RUEBEN
Gath
Dead Sea
شمعون
SIMEON
Beer-Sheba
(MOAB)
(EDOM)


قدش برنيع
وادي الرمة
جبلي ابان
جبال فاران
قبائل العماليق



سبط سمعون
سبط افرايم
سبط زبولون


سبط
جاد
سبط كلب
سبط اشير


سبط دان
سبط يهودا


سبط بن يامن
سبط يساكر
سبط نفتالي